الإسلام والمسيحيّة

سوسيولوجيا العصور التأسيسيّة

صادق المخزومي

دكتوراه في الأديان
دكتوراه في التراث



www.daralrafidain.com



الدكتور صادق المخزومي

الإسلام والمسيحيّة

هَذِهِ الدّراسةُ من نتاج عصْرِ حوارِ الحَضَارَات الدّينيَّةِ فِي القَرْنِ 15هـ/ 21م، ليْتَ لَنَا مِثْلَها فِي القَرْنِ 1هـ/ 7م، إذْ اسْتَشْرَى الصّراعُ بَيْنَ الحَضَارَات، وحروبُ الْفُتُوحِ عَلَى قَدَمٍ وسَاق، فَقَدْ واجهتْ الدَّوْلَةُ العَرَبِيَّةُ الدّولتينِ الكُبْرَيَيْنِ، اكتسَحَتْ الدولة الفارسيَّةَ، واستولت على أراضٍ مهمّة من الدولة البِيزَنْطيَّةَ، فِي بِضْعَ عشرةَ سنةً، واستحوذَتْ عَلَى الأضواءِ السِّيَاسِيَّة والدّينيَّةِ، لَوَقَفْنا - عَنْ كثَبٍ - عَلَى الخَارِطَةِ الدّينيَّة آنَذاكَ، وتعرَّفنا الى تَطَوّرِ الحَرَاكِ الإِسْلَامِيِّ الْمَسِيحِيّ، وحَقِيقَةِ العَلاقَاتِ الدّينيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّة، فِي ظِلِّ النّظامِ السِيَاسِيّ الإسْلَامِيّ.

إنَّ بقاءَ الْمَسِيحِيَّةِ والإسْلَام يحتلّان المساحةَ الكُبْرَى عَلَى خَارِطَةِ الأَدْيَان مِنْذُ قرونٍ، كَانَ مدْعَاةً لانْبِثَاقِ المَوْضُوعِ، وَكَادَتْ طبيعةُ التّعامُلِ بَيْنَهُمَا تُعطيهُما ديمومةَ التّفوّقِ فِي البقاء، ومِنْ هُنَا احتاجتْ إِلَى بيانٍ وتفسير، لِذَا رَشَحَ عُنْوان «العَلاقَاتُ الإسْلَاميَّةُ الْمَسِيحِيَّة فِي القَرْنِ الأَوّلِ الهِجْرِيّ/ السّابعِ المِيلادِيّ - بحْثٌ فِي جذورِ الفكْرِ الإِسْلَامِيّ والمُمَارَسَةِ التّاريخيّة».

أخذَ البحثُ يُعْنَى بانواعِ العَلاقَاتِ الّتِي يتَجَلّى من خِلَالِها طبيعةَ التّعامُلِ الْمَسِيحِيّ الإِسْلَامِيّ، وتَعَايُش أصحاب الدّينيّن، ويرسِمُ حدُودَ الْحَرَاك الْمَسِيحِيّ، فِي بِيئَة صدْرِ الإِسْلَام فِي مُخْتَلف العَلاقَات.



لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com





56Laurel Cres. London. Ontario. Canada
Tel: +1 2666783972
N6H 4W7
opuspublishers@hotmail.com



ISBN 978-0-9948720-5-0

الإسلام والمسيحيّة

سوسيولوجيا العصور التأسيسيّة

دراسات
STUDIES

الإسلام والمسيحيّة

سوسيولوجيا العصور التأسيسيّة

الدكتور صادق المخزومي

دكتوراه في الأديان

دكتوراه في التراث





الإسلام والمسيحية

سوسيولوجيا العصور التأسيسية

ISLAM AND CHRISTIANITY

By: Dr. Sadeq Al-Makhzoumi

المؤلف

الدكتور صادق المخزومي

الطبعة الأولى، لبنان/ كندا، 2016

First Edition, Lebanon/Canada, 2016





لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+

daralrafidain@yahoo.com

www.daralrafidain.com

56 Laurel Cres. London, Ontario, Canada

Tel: +1 2266783972

N6H 4W7

opuspublishers@hotmail.com

ISBN: 978-0-9948720-5-0

آيات

{وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ}

(سورة العنكبوت: ٤٦)

{ وإذا قمتُم للصلاةِ، وَكَانَ لكم شيءٌ عَلَى أحدٍ فاغفِروا لَهُ، حَتَّى يغفِرَ لكمْ أبوكم الَّذِي فِي السّمَاواتِ زلاتِكم }

(إنجيل مرقس 11:25)

إهداء

ثَمَّةَ قَطْرَةٌ مِنْ ضَوْءٍ
انْسَابَتْ فِي ضَمِيرِي
بَيْنَ الحُلْمِ والحَقِيقَةِ
أَزْهَرَ أَمَلٌ فِي حَيَاتِي مَعَ الآخَرِ
تَسَابَقَتْ قَدَمِي وَقَلَمِي الى قدّيس بيروت
وَانْكَسَرَ الخَوْفُ
وَتَنَفَّسَ، مِنْ رِئَةِ الصُبْحِ، الوِجْدَانُ
فتصافحَ الانجيلُ والقرانُ
وَكَانَ اللهُ

رموز و مختصرات

المختصر	معناه
ت	توفي
تح	تحقيق
ج	جزء
ص	صفحة
ص ص	من صفحة الى
ط	طبعة
ق. م.	قبل الميلاد
ق. هـ.	قبل الهجرة
لا. ت	لا تاريخ نشر
لا. ط	لا طبعة
لا. م	لا مكان نشر
لا. ن	لا ناشر
م	سنة ميلادية
م. س	المصدر السابق
م. ن	المصدر نفسه
هـ	سنة هجرية

الفهرس

مقدمة 13
الباب الأول: العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة، مقدمات وتاريخ 31
الفصل الأول: إنْتِشَارُ الْمَسِيحِيَّة فِي البِلاد الْعَرَبِيّة قَبْلَ الإِسْلَام 33
1. الْمَسِيحِيَّة فِي الشّام ونشأة الكنيسة اليعقوبية: 42
2. الْمَسِيحِيَّة فِي العِرَاق 49
3. الْمَسِيحِيَّة فِي مِصْرَ ونشأة الكَنِيسَة القبطِيَّة 56
4. الْمَسِيحِيَّة فِي اليمن والحجاز: 60
5. الْمَسِيحِيَّة فِي الحَبَشَة: 64
الفصل الثّاني: العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة فِي عصر الرّسالة 67
1. جَزِيْرَة الْعَرَب عِنْدَ ظهور الإِسْلَام: 67
2. الرّسول محمد والْمَسِيحِيَّة فِي مَكّة: 75
3. الرّسول محمّدوأهل الكتاب فِي المدينة: 89
4. معاهدات الرّسول مَعَ أهل الكتاب: 97
5. نشر الإِسْلَام فِي بلاد الْعَرَب 107
6. الحياة الْكَنَسِيّة فِي عصر الرّسالة: 116
الفصل الثّالث: العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة فِي عصر الخِلَافَة الرّاشِدة 121
1. تاريخ الخِلَافَة الرّاشدة: 121
2. الفتوح الإسلامية ووَضْع الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة 134
3. الحياة الْكَنَسِيّة فِي العصر الرّاشِدِيّ: 173
4. مظاهر عصر الخِلَافَة الراشدة: 184
الفصل الرّابع: العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة فِي عصر الدّولة الأُمَوِيّة ... 191
1. الدّولة الأُمَوِيّة – نشأتُها وميزاتها 191

2. تَطَوّر العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة فِي العصر الأُمَوِيّ.......... 202
3. الحَرَاك الدّينِيّ الْمَسِيحِيّ:.................................... 220
الباب الثّاني: الْمَسِيحِيَّة والتّشريعات الإِسْلَاميّة والدّور الحضاري............ 239
الفصل الأول: الْمَسِيحِيَّة والعَلاقَات الدّينِيَّة فِي القُرْآن الكريم 241
1. القُرْآن والآخر الدّينِيّ: 242
2. القُرْآن وتأسيس العلاقة بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ: 245
3. الرّموز الْمَسِيحِيَّة فِي القُرْآن: 248
4. الجدل والحوار بَيْنَ الأَدْيَان فِي القُرْآن:........................ 263
5. منهج القُرْآن فِي إِدَارَة العَلاقَات الدّينِيَّة: 267
الفصل الثاني: الآخر والجهاد والفتوح في المفاهيم الإسلامية 275
1. الآخَر الدّينِيّ فِي المفهوم الإِسْلَاميّ: 275
2. الجهاد في الفكر الإسلامي: 285
3. الفتوح في الفكر الاسلامي....................................... 296
الفصل الثّالث: حقوق الْمَسِيحِيِّينَ فِي الشّرع الإِسْلَاميّ 307
1. الْحُقُوق الإِجْتِمَاعِيَّة 311
2. الْحُقُوق الدّينِيَّة 315
3. الْحُقُوق الشَّخْصِيَّة:.. 323
4. حقوق الانسان.. 325
الفصل الرابع: التّعَايُش الإِسْلَاميّ الْمَسِيحِيّ فِي الْمُجْتَمَع الواحد 349
1. الجدال والحوار الدّينِيّ:.. 350
2. حياة الْمَسِيحِيِّينَ فِي صدر الإِسْلَام 362
3. التّربية الدّينِيَّة والتنظيمات الْمَسِيحِيَّة 367
4. الأثر الحضاري للمَسِيحِيِّينَ فِي الْمُجْتَمَع الإِسْلَاميّ 378
5. العيش الْمُشْتَرَك.. 423
خاتمة 441
ثَبْتُ المصادرِ والمراجع 447
فهرس الأعلام 491

مقدمة

طالَمَا شاغَلَنِي سُؤالٌ فِي خِضَمِّ الحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ السَّالفَةِ، كَيْفَ كَانَتْ «خريطةُ الأَدْيَان فِي العالَم»؟، حَيْثُ الحَضَارَات الدِّينِيَّة تَتْرَى فِيهِ، تَتَداخلُ، أَوْ تَتَفاعلُ، أَوْ تتشارَك، ولاسِيَّمَا فِي الشَّرق إِبَّانَ القَرْنِ السَّابعِ للمِيلاد. كشَفَتْ دراسَةٌ حديثةٌ لأبحاثِ الأَدْيَان والحياةِ العَامَّة، بأنَّ 48 فِي المائةِ مِن سكَّانِ العالم يعتنقون الأَدْيَان السَّمَاوِيَّة، أَوْ ينتسبون إلَى جماعاتٍ دِينِيَّة ابتكرَها البشرُ، وَهُوَ مَا يشكل 5 ,8 مليار شخصٍ من أصل 6 ,9 مليار نسمةٍ، تسكن مُختَلَفَ دولِ العالم. وصنَّفَتْ العالمَ ثمانِي حَضَارَات دِينِيَّة، واحتلَّتْ الْمَسِيحِيَّة المجموعةَ الدِّينِيَّة الأُولَى، بِمَا يُمثِّل 13 ,5 بالمائة من سكانِ العالمِ المُنْتسبِينَ إِلَيْهَا، واحتلَّت الدِّيَانَة الإِسْلَامِيَّةُ المرتبةَ الثَّانيةَ، يعتنقُها 32 ,2 بالمائة من سكانِ العالم. بالمقابل يُعدّ اليهودُ أقلَّ المجموعاتِ الدِّينِيَّة، بنسبة لا تَتَعَدَّى 0 ,2 بالمائة، فيما لا يَتَجَاوَزُ عَدَدُهُم 41 مليونَ شخص[1].

هَذِهِ الدِّراسةُ من نتاجِ عصْرِ حوارِ الحَضَارَات الدِّينِيَّةِ فِي القَرْنِ 15هـ/ 21م، ليْتَ لَنَا مِثْلَها فِي القَرْنِ 1هـ/ 7م، إِذْ اسْتَشْرَى الصّراعُ بَيْنَ الحَضَارَات، وحروبُ الْفُتُوحِ عَلَى قَدَمٍ وسَاق، فَقَدْ واجهتْ الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الدَّولتينِ الكُبْرَيَيْنِ، اكتسَحَتْ الدولة الفارسِيَّةَ، واستولت على أراضٍ مهمّة من الدولة البِيزَنْطِيَّة، فِي بِضْعَ عشرةَ سنةً، واستحوذَتْ عَلَى الأضواءِ السِّيَاسِيَّة والدِّينِيَّةِ، لَوَقَفْنا- عَنْ كثبٍ- عَلَى الخَارِطَةِ

(1) - ياسر المختوم: «وقفات مَعَ دراسة «بيو» الأمريكية حول «خريطة الأديان في العالم»» مركز نماء للبحوث والدراسات، الرّياض) 25/ 3/ 2013.

الدِّينيَّة آنذاكَ، وتعرَّفنا الى تَطوّرِ الحَرَاكِ الإسْلَامِيِّ الْمَسِيحِيّ، وحَقِيقَةِ العَلاقَاتِ الدِّينِيَّةِ والإجْتِمَاعِيَّة، فِي ظِلّ النّظامِ السِيَاسِيّ الإسْلَامِيّ.

إنَّ بقاءَ الْمَسِيحِيَّةِ والإسْلَام يحتلَّان المساحةَ الكُبْرَى عَلَى خَارِطَةِ الأَدْيَان مِنْذُ قرونٍ، كَانَ مدْعَاةً لانْبِثَاقِ المَوْضُوعِ، وَكَادَتْ طبيعةُ التّعامُلِ بَيْنَهُمَا تُعطِيهُما ديمومةَ التّفوُّقِ فِي البقاء، ومِنْ هُنَا احتاجتْ إلَى بيانٍ وتفسير، لِذَا رَشُحَ عُنْوان « العَلاقَاتُ الإسْلَامِيّةُ الْمَسِيحِيَّة فِي القَرْنِ الأوَّلِ الهِجْرِيّ/ السّابعِ المِيلادِيّ: بحَثٌ فِي جذورِ الفكْرِ الإسْلَامِيّ والمُمَارَسَةِ التّاريخيّة»، أو الإسلام والمسيحيّة: سيسيولوجيّة العصور التأسيسيّة.

أخذَ البحثُ يُعْنَى بانواعِ العَلاقَاتِ الَّتِي يتَجَلَّى من خِلَالِها طبيعةَ التّعامُلِ الْمَسِيحِيّ الإسْلَامِيّ، وتَعَايُش أصحاب الدّينيّن، ويرسِمُ حدُودَ الْحَرَاكِ الْمَسِيحِيّ، فِي بيئَة صدْرِ الإسْلَام فِي مُخْتَلف العَلاقَات.

العَلاقَات السِّيَاسِيَّة، أي علاقةُ الْمَسِيحِيِّينَ بالدَّولَة العَرَبِيَّة فِي المائة الأُولَى، أي فِي عصر الرّسالة، وعصر الخِلَافَة الرّاشدة، وعصر الدّولة الأُمَوِيّة، ويعرِّج عَلَى مفهوم العلاقة السِّيَاسِيَّة بَيْنَ الْمَسِيحِيِّينَ مَعَ الدّول السّابقة، لاسيَّما دولة فَارِسَ وبِيزَنْطة، ويوازن بَيْنَهَا.

والعَلاقَات الدّينِيَّة، أي علاقة الْمَسِيحِيَّة فِي الإسْلَام، مِنْ حَيْثُ المفهوم، ورأي مصادر التّشريع الإسْلَامِيّ، القُرْآن والسّنَّة النّبَوِيّة فِي الدِّيَانَة الْمَسِيحِيَّة. والْحَرَاك الدّينِيّ للمَسِيحِيِّينَ المُتَمَثِّل فِي تنظيماتهم الْكَنَسِيَّة، ومَدَى انتشَارِهَا، وتأْدِيَة طُقُوسِهم.

والعَلاقَات الْحُقُوقِيَّة تمثَّلَتْ فِي الْحُقُوق الدّينِيَّة والسِّيَاسِيَّة والإجْتِمَاعِيَّة لغيرِ الْمُسْلِمِينَ بعَامَّة، والْمَسِيحِيِّينَ بِخَاصَّةٍ، هِيَ المتصدِّرَة فِي مصادِرِ التَّشْرِيع، والنُّظُمِ الإسْلَامِيّة، فأقدَمُ مواردِها القُرْآن، والعُهودُ والمواثيقُ الَّتِي كتبَها الرّسول مُحَمَّد والخلفاءُ الرّاشِدُون، فَقَدْ أقرَّتْ بِهَا الدّولَةُ الرّاشِدَةُ والأُمَوِيَّةُ، الا بعْضُ الخُلَفَاءِ والحُكَّامِ اجتهدوا وغيروا.

والعَلاقَات الإِجْتِمَاعِيَّة المعنيَّةُ بالعيشِ المُشْتَرَك - بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ- فِـي ظِلّ الدَّوْلَة العَرَبِيَّـة، أضحَتْ ضرُورةً تارِيخيَّةً وإِجْتِمَاعِيَّـة، لتوافُرِ روابِطَ متعدِّدَةٍ بَيْـنَ أفرادِ المُجْتَمَع، إِذْ يَحْيَوْن عَلَى أرضٍ واحدة، ويتكلمون لُغَةً واحدة، وتجمعَهُم همـومٌ وطموحاتٌ مُشْـتَرَكةٌ، وأهمُّ من ذَلِكَ، تجمعهم وحدانيَّـةُ العُبُودِيَّة لله تعالى، والَّتِي هِـيَ دعـوة جميـع الرّسـل والأنبيـاء. وبفضـل هَـذَا الإيمـان وَهَـذِهِ الرّوابط والمُمَارَسَـات الايجابية فِـي ظِلّ الدَّولَة العَرَبِيَّـة، تبلورت شَـخْصِيَّة حَضَارِيَّة قامت عَلَى المشـاركة فِـي الاحتفالات والمناسبات الدّينِيَّة، والإِجْتِمَاعِيَّـة، والاقتصاديّة، والفِكرِيَّة، والإِدَارِيَّة.

كلُّ ذَلِـكَ مَرَدُّه إِلَى تِلْكَ الْحُقُوق المُتناميَّة فِي المُواطنِيّة، الَّتِي أُعطِيَت للنَصَارَى، بحيث شـعروا أنّهم جزءًا فاعلا فِي المُجْتَمَع، وَلَمْ يشعروا بحالةِ اغتراب مَعَ السّلطة آنَذَاكَ. وَلَمْ تقمْ العلاقةُ عَلَى عُقودِ الأمَان والحِمايةِ فحسْب، وإنَّمَا لَمْ يَحْظِرْ الإِسْلَامُ أيَّ عمـلٍ يدوِيٍّ أَوْ فِكْرِيٍّ عَلَى الْمَسِـيحِيِّينَ. فَضْلًا عَنْ أَنَّ هَذِهِ الدّراسَـةَ اسـتوعبتْ أفنـانَ العلاقـةِ بَيْنَ الْمَسِـيحِيِّينَ والمُسْـلِمِينَ، مِنْ تَـزَاوُجٍ وتزاوُرٍ، وتعـارفٍ، وتبادلِ مَعَـارِفَ ومَصَالِـحَ وحُقُـوقٍ، جميعُهـا تُعَدُّ ترْجَمَـةً لتَعَايُشٍ واضِـحِ المَعَالِـمَ، نَرْدِفُهُ بنَمَاذِجَ تَارِيخِيَّةٍ وأَدَبِيَّةٍ وتَعْلِيمِيَّةٍ أُخْرَى.

ترصَّـدَ البحثُ النّشـاطاتِ الْمَسِـيحِيَّة الإِسْـلَامِيَة، الَّتِـي تُنَمِّي عَلاقَـاتِ التّقارُبِ والتّعَايُـشِ، واسْـتَقْصَى الحَرَاكَ الْمَسِـيحِيَّ فِي بِيئَـةِ الدَّوْلَـة العَرَبِيَّة، وَهُـوَ يَتَّجِهُ إِلَى التّأثيرِ والتأثر بينَ مُجْتَمَعَاتِ البَحْثِ. ومن أجل ذَلِكَ، فالبحث لَيْسَ معنيًّا بالأنشـطةِ الْمَسِـيحِيَّة، الَّتِي تمارس داخل المحيط الكاثوليكيّ أَوْ الأرثوذكسـيّ فِي الحاضرةِ الرّومانيـة أَوْ البِيزَنْطيَّـة، وإِنَّمَـا يُعْنَـى بالتّوجهـات الدّينِيَّـة: اللاهوتيـة والعقديـة، والتّنظيمـات الْكَنَسِـيّة للمَسِـيحِيَّة فِـي المحيـط الإِسْـلَاميّ، والمُتَمَثّلة بالنَّسْـطُورِيّةَ واليَعْقُوبِيَـةَ والقبطِيَّـة والمَلَكِيَّـة. ويعتمد مَوْضُوعيًا، تسـليط الضَّوء عَلَى الْمَسِـيحِيَّة فِي الفكر الإِسْـلَاميّ، فِي مصادره الأُولَى القُرْآن والسّنَّة النّبَوِيّة، وتاليًا سِيَر الخلفاء، ودراسـة حـالات عَمَلِيَّة مـن المُمَارَسَـة التّاريخيّـة لجماعـات، أَوْ أفراد فِـي خِضَمِّ

العَلاقَات الإِسْلَاميّةِ الْمَسِيحِيَّة.

نظرًا لاتساع رقعةِ البحث، وقصدًا لتقديم رؤيةِ مَوْضُوعيَّةٍ ناضجةٍ، فَقَدْ عُنِيَ البحث -فِي حد المكان- بالحَرَاك الْمَسِيحِيّ فِي: الشّام، والعِرَاق، ومَصْر، واليمن، ونَجْرَان، ومَكّة، وعُمَان، وَحَتَّى الحَبَشَة، وما تكتنزه من صلات التّأثير والتّأثر فِي الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة، وَلَمْ يتعرضْ للمَسِيحِيَّة فِي بلاد فَارِسَ والهند، أَوْ فِي روما و القُسْطَنْطِينِيَّة.

اشْتَمَلَ حد الزمان عَلَى المائة الأُولَى للهجرة، الَّتِي وُضعتْ فِيهَا لَبُنَاتِ العلاقةِ الْمَسِيحِيَّة الإِسْلَاميّة، فِي عُصورِ الدَّولَة العَرَبِيَّة الأولى: عَصْر الرّسالةِ، عصر الخِلَافَة الرّاشدة، وعصر الدّولة الأُمَوِيّة، وَقَدْ يُوَظِّفُ مَا يستبقها أَوْ يتأخر عَنْهَا بقدر من الزمان، ذي العلاقة المَوْضُوعيَّة فِي البحث.

لماذا استغرقت البحث الفترةُ فِي بداية الإِسْلَام ؟ لِأَنَّهُ سعى إِلَى ابراز الأصالة فِي العلاقة الْمَسِيحِيَّة الإِسْلَاميّة فِي طورها الأَوّلِ، من خِلَالِ استكناه الحَقِيقَة فِي المُمَارَسَة التّاريخيّة، وقراءة الفكر الإِسْلَاميّ، الَّذِي عُنِيَ بحقوق غير الْمُسْلِمِينَ.

تكمُن الإشكالية فِي مَاهِيَّة الظّاهرةِ الْمَسِيحِيَّة، ومدى تفاعلها، واندماجها فِي البِيئة الإِسْلَاميّة، وحجم العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة فِي ضَوْءَ الْمُتَغَيِّرَاتِ الدَّوْلِيَّة، فِي الأبعاد التّاريخيّة والإِجْتِمَاعِيَّة والثّقافِيّة فِي القَرْن الأَوّل الهِجْرِيّ/ السّابع المِيلادِيّ. وترمز الى المتغيرات التاريخية والفكرية في إنَّ الإِسْلَام التّاريخيّ، هلْ هُوَ نَفْسُهُ الإِسْلَام النَّبوِيّ أَوْ القرآنِيّ؟ أو أنّه أتخَذَ نَمَطِيَّةً قائمة عَلَى مصالحِ الذّاتِ التاريخية؟، أو أخذ دَوْرًا مُغَايِرًا للإِسْلَام النَّبَوِيّ؟.

مَا فرضيات البحث؟ إنَّ توالي الدِّيَانَات الكِتَابِيَّة زَمَنِيًّا، لَهُ أَهَمِّيَّةٌ كبيرةٌ فِي فَهْمِ العلاقة بَيْنَ تِلْكَ الدِّيَانَات. وانَّ المذاهب الْمَسِيحِيَّة التي خرجت عن ربقة مذهب الدولة البيزنطية، وقطنت فِي بلاد الْعَرَب كَانَتْ تعاني من أنظمة الحكم قَبْلَ الإِسْلَام، وان وافقتها فِي الدِّيَانَة، إِلَّا أَنّها خالفَتْها فِي المَذْهَبِيّة، ما حقَّق لديْها قبُولًا للفتوح الإِسْلَاميّة والدّولة الْعَرَبِيّة. وأنَّ العَلاقَاتِ الإِسْلَاميَّة الْمَسِيحِيَّة فِي المائة الأُولَى قَدْ

مُنِيتْ بمقدماتٍ تاريخيّة ودِينِيَّة، وفّرتْ المناخَ النّفسيَّ لتأسيس لَبِنَاتها.

إنَّ نشأة الإِسْلَام فِي البلاد الْعَرَبِيّة لَمْ يَكُنْ اعتباطا، بَلْ جاء لملء الفراغِ الدّينيّ، الَّذِي سَبَّبَهُ تَوَسُّعُ الشَّتَاتِ فِي الأفكارِ والمذاهب الدّينيّة، من جانب، وانتشار الوَثَنِيّة فِي البلاد الْعَرَبِيّة، من جانبٍ آخر. وإنَّ القُرْآنَ أَوّلُ كتابٍ سماويٍّ يشرحُ عَنْ الدِّيَانَاتِ، ويُقَدِّسُ كُتُبَها، ويَعُدُّ الإقرارَ بِهَا شَرْطًا للإيمانِ فِي الإِسْلَام، ويُزِيدُ عَنْ الْمَسِيحِيَّة ورموزِها الدّينيّةِ، ويخُصُّهُمْ بالمَوَدَّةِ. وإنَّ الرّسولَ مُحَمَّدًا كَانَ لَهُ علاقةٌ طَيِّبَةٌ بالموحدينَ والْمَسِيحِيِّينَ قَبْلَ الإِسْلَام، ووَثَّقَهَا بالحُسْنَى فِي الإِسْلَام، فدَعَاهُم إلَى التّقارُبِ والإلتقَاءِ فِي بَوْصَلَةِ الحِوَارِ على المشتركاتِ، ومَنَحَهُمْ عُهُودًا، مَلاكُها: أَنَّهُمْ فِي ذمةِ اللهِ ورسولِه، ودماؤهم وأموالُهم حرامٌ.

إنّ فكرةَ الجهاد في الإسلام، وما سايرها عمليًّا من فتوح، كان لها دورٌ في توسيعِ نفوذ الدَّوْلَة العَرَبِيَّة، ونشرِ الإسلام على حساب المسيحيَّة والديانات الأخرى، وفي ضوئها أُسِّسَ لعلاقاتٍ جديدةٍ مع غير المسلمين، وتعايشِهم في المجتمع الإسلامي. وإنَّ حقوقَ غيرِ الْمُسْلِمِينَ ولاسِيَّمَا الْمَسِيحِيِّينَ، حَفظتْهَا الشّريعةُ المُتَمَثِّلةُ بالكتابِ والسّنَّةِ النَّبَوِيّةِ الصّحيحةِ، وكَانَتْ مدوَّنةً ومعلومةً، غير أنَّ بعضَ الخلفاءِ والحكامِ كَانُوا يجتهدونَ عَلَى صاحبِ الشّريعةِ، ويعملونَ برأيِهِمْ، مِمَّا سَجَّلوا خَرْقًا فِي صميمِ العلاقةِ الإِسْلَامِيّةِ الْمَسِيحِيَّةِ. وإنَّ تَوَافُرَ أسبابِ التّعَايُشِ الْمَسِيحِيِّ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ، وتَوَفُّرِ آلِيَّاتِهِ فِي ميادينِ الحياةِ، منحَهُم وجودًا متميزًا فِي الحضارَةِ والتّراثِ الفِكْرِيّ والعلمِيِّ الإسلاميين. لَعَلَّ عدم وجود الفراغ الْمَسِيحِيّ، وانغماس الْمَسِيحِيِّينَ فِي المهامِّ الحياتيَّة والأعمالِ والعلوم والفنون المُخْتَلفة، عَزَّزَ وجودَهم الإِجْتِمَاعِيّ والحضاريّ في الدولة العربيّة.

ومن أهم الأسئلة الّتِي صيغت حول الفرضيات: كَيْفَ كَانَ الْمَسِيحِيّون عَلَى اختلاف مذاهبهم فِي ظِلّ الدّولتين الفارسيَّة والبِيزَنْطيّة؟ و كَيْفَ أضحوا فِي ظِلّ الدَّولَة العَرَبِيَّة؟. وكَيْفَ كَانَتْ طبيعةُ التكيُّفِ الْمَسِيحِيّ فِي ظِلّ الدَّوْلَة العَرَبِيَّة حَتَّى نهاية القَرْن الأوّل الهِجْرِيّ؟. مَا آلَتْ إِلَيْهِ الْمَسِيحِيَّة من ضُمورٍ فِي وجه تيارِ الدّين

والدّولة الإسْلَاميّين؟. وكَيْفَ نشأ الإِسْلَام فِي جَزِيْرَة الْعَرَب، وأسّس دولةً تُضاهي الدّول الكُبْرَى؟

مَاهِيَّة الجهاد في الأسلام؟. ما ملاك الْفُتُوح الإِسْلَاميّة، وما أسبابُها ونتائجها؟. كَيْفَ أضحتْ تنظيماتُ الْمَسِيحِيِّينَ الدّينيَّة فِي عصور الدَّوْلَة العَرَبِيَّة: الرّسالة– الرّاشِدِين– الأُمَوِيّين؟. كَيْفَ أصبحت العَلاقَات الْمَسِيحِيَّة الْمَسِيحِيَّة فِي عصور الإِسْلَام الثّلاثة، بعد أنْ كَانَتْ قَبْلَ الإِسْلَام إقصائية؟. هل كَانَتْ ثَمَّةَ فُسْحَةٌ من الْحُرِّيَّة فِي نشر الْمَسِيحِيَّة وتمددها أمام أنظار الدَّولَة العَرَبِيَّة؟. هلْ كَانَتْ عنايَةُ النّصوصِ القرآنيَّة التّاريخيّة بأهل الكتاب عَامَّة، والْمَسِيحِيِّينَ والْمَسِيحِيَّة خَاصَّة ورموزها الدّينيَّة، تتنَاسبُ ووجودَهم الدّينِيّ والاِجْتِمَاعِيّ عَلَى خَارِطَةِ الدَّولَة العَرَبِيَّة.

إنَّ تعاملَ الرّسول مُحَمَّد مَعَ أهل الكتاب، وَبِخَاصَّةٍ الْمَسِيحِيِّينَ، سُنَّةٌ وشَرِيعَةٌ، اقْتَضَى أنْ يَتَّبِعَهَا خُلَفَاءُ الدّولَتَيْنِ الرّاشِدَةِ والأُمَوِيّةِ وولاتهما، فهَلْ كَانُوا كَذَلِكَ؟ مَا نِظَامُ الذِّمَّةِ القائِمُ عَلَى ضَرِيبَةِ الْجِزْيَة؟، مَاهِيَّتُهُ؟، وَكَيْفَ أذْعَنَ لَهُ أهْلُ الكِتَابِ؟، وَكَيْفَ قرأه الْمُسْلِمون؟. كَيْفَ تَعَايُش الْمَسِيحِيّون فِي الْمُجْتَمَع الإِسْلَامِيّ، تعبيرًا عَنْ وجودهم الزاهر فِي ارتقاء حضارة القرون الإِسْلَاميّة الأولى؟.

مَا الفائدة الَّتِي يُقَدِّمها المَوْضُوع؟ هلْ تنبثق الفائدة من أهَمِّيّته، الَّتِي تَجَلَّت فِي رسم أبعاد العَلاقَات بَيْنَ الْمَسِيحِيَّة والإِسْلَام فِي المائة الأولى، من نشأة الإِسْلَام فِي تأسيسِ بُنَى التَّعَايُش الاِجْتِمَاعِيّ لأجيالٍ تَلَتْهَا، وحسْبُها أهَمِّيَّة أنّها حِقْبَةُ تأسيسٍ وتشريعٍ للعلاقاتِ الإِسْلَاميّةِ الْمَسِيحِيَّة.

لامندوحَةَ من دراسةِ الماضِي للماضِي، بَيْدَ أَنَّ البحثَ يصْبُو إِلَى الإفادَةِ مِنْ تَفَحُّصِ صُورَةِ العَلاقَات بَيْنَ الحَضَارَتَيْنِ الأكْثَر شُيوعًا فِي العالم الدّينِيّ، وفَهْمِ كُنْهِهَا، لِمَا فِيهَا مِنْ أصَالَةٍ. وأنْ نَسْتَلَّ مِنْهَا حُزَمًا مُضِيئَةً فِي عَصْرِنَا المَوْسُومِ بِمُصْطَلَحِ« حِوَارِ الأدْيَانِ» بِعَامَّةٍ، ومَشْرُوعِ «الحِوار الْمَسِيحِيّ الإِسْلَامِيّ» بِخَاصَّةٍ، مِنْ أجْلِ الإفادَةِ مِنْ التَّجْرِبَةِ التّاريخِيّة، والكَشْفِ عَنْ مَواطِن القُوَّة فِيهَا لتعْزِيزِهَا، وتَعْمِيقِ الإيجَابِيِّ مِنْهَا، وتِبْيَانِ مَنَاطِقَ الضَّعْفِ لتَوجِيهِها، وتَشْخِيصِ السّلْبِيِّ بِهَدَفِ

أنْ لَا يَكُون لَهُ حُضُورٌ، كَرَّةً أُخرَى. بُغْيَةَ أنْ تكونَ نُقْطَةَ انْطِلاقٍ فِي بِناءٍ تأريخيّ سَلِيمٍ لِمُسْتَقْبَلِ العَلاقَاتِ بَيْنَ الدّينيْن الشَّقيقيْنِ. أيْ استِيعابِ تجْرِبَةٍ من أهَمِّ تَجَارِبِ التّعَايُش الإِسْلَاميّ الْمَسِيحِيّ، لتكونَ مِشْكَاةً عَلَى خَارِطَةِ طَرِيقِ الحِوارِ والتّعَايُش بَيْنَ الأَدْيَان الكُبْرَى.

إنَّ دِراسَةَ العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة -عِبْرَ عصورِ الدّولة الْعَرَبِيّة- نَواةٌ لها أَهَمِّيَّة كَبيرة فِي اسْتثمارِها، وتهذيبِها، والارتِقاء بِهَا عَلَى خَارِطَةِ العَلاقَات الْمُسْتقبليّة بَيْنَ أبْنَاءِ الدّيانتيْنِ الكبْريَيْن فِي العالَم. فَضْلًا عَنْ أنَّ لَها أهَمِّيَّةً ثَقافِيَّةً وتربويَّةً، فِي قراءة جديدة للتاريخ الإِسْلَاميّ، فِي كتب الأدب والاِجْتِمَاعِ والتّراث لَدَى جناحي البحث، الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ.

مَا يُقَدِّمُهُ البحثُ مِنْ جديدٍ؟ تنْصَبُّ الحالَةُ البَحْثِيَّةُ عَلَى عرْضٍ وتحليلِ أهمِّ الدّراسات السّابقة حول المَوْضُوع، ويشتملُ البحثُ عَلَى جوانِبَ عِدَّة: تاريخيّة، وحقوقيّة، واِجْتِمَاعِيَّة، وحَضَارِيَّة؛ فأَمَّا من كتب عَنْ تاريخ الْمَسِيحِيَّة فهم قلّة من الباحثين الْمَسِيحِيِّينَ أمثال: الأب عزيز سوريال، والأب ألبير أبونا، عَنْ تاريخ الكَنِيسَة الشَّرْقِيَّة ابتداء من القَرْن الأوّل للميلاد حَتَّى القَرْن التّاسع عشر، ومن المؤكّدِ أنَّ أيَّة دراسةٍ لأطلس الْمَسِيحِيَّة عبْرَ هَذِهِ القرون، ستمرُّ سريعا عَلَى أيَّةِ حِقْبَةٍ، وَبِخَاصَّةٍ القَرْن 1هـ/ 7م عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أهَمِّيَّته فِي التّغيّراتِ الدَّوْلِيَّة فِي الفكرِ السِّيَاسِيّ والدّينِيّ. ومن الباحثين من خصَّ دراسَته عَنْ الْمَسِيحِيَّة فِي بلد وعصرٍ معيَّنين، نحو: «أحوال نَصَارَى العِرَاق فِي خِلَافَة بني أمية» للأب سهيل قاشا، و«تاريخ نَصَارَى العِرَاق» و«أحوال نَصَارَى بغداد» لروفائيل بابو إسحاق، و« احوال النَّصَارَى فِي خِلَافَة بني العباس» لجان موريس فييه. فانها كَانَتْ- بالضَّرورة - خصْبَةً مَوْضُوعيًّا فِي حدود زمكانيَّة البحثِ، وَقَدْ يقترب من مَوْضُوع هَذَا البحث فِي قسم مِنْهُ.

أَمَّا مَا كتبَ عَنْ الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة، فأغلبُها بحوثٌ سريعةٌ فِي مناولةِ الخبر، نُشِرَتْ فِي المجلات، نحو: كتابات البِطْرِيَرك مار أغناطيوس زكا عيواص، وكتابات سيار الجميل؛ ومن المؤلفات كتاب «الْعَرَب النَّصَارَى» لحسين العودات، فَهُوَ

دراســة تاريخيّة وصلت بالْمَسِيحِيَّة إِلَى القَرْن العشرين، وَهَذَا مَا ألزمه الاختصار فِي الْمَسِيحِيَّة فِي صدر الإِسْلَام.

لَعَلَّ الدّراســة المُهِمَّة حقًّا فِي هَـذَا المَوْضُوع هِيَ «الْمَسِـيحِيَّة الْعَرَبِيّة وتَطَوّراتها مـن نشـأتِها حَتَّـى القَـرْن الرّابـع الهِجْرِيّ-العاشـر المِيـلادِيّ»، للباحثـة التّونسـية «سـلوى بالحاج صالح». يقع الكتاب فِي ثلاثة أقسـام رئيسـة، يدرس القســم الأول الْمَسِـيحِيَّة عِنْدَ الْعَرَب فِي الشّـام والعِـرَاق والجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة قَبْلَ الإِسْـلَام. ويدرس القســم الثّاني الْمَسِـيحِيَّة الْعَرَبِيّة فِي فترة الخِلَافَة الرّاشدة. أَمَّا القسم الثّالثُ فيدرس أحوال الْمَسِـيحِيَّة الْعَرَبِيّة فِي دار الإِسْلَام المشـرقية فِي العصرين الأُمَوِيّ والعباسي الأول؛ إِذْ يتناول الظّاهرة الْمَسِـيحِيَّة الْعَرَبِيّة فِي دار الإِسْـلَام، وعلاقتَها بالكَنِيسَة فِي تِلْـكَ العصور، وموقعَ الدّولة والمجتمع والفقه الإِسْـلَاميّ من الْمَسِـيحِيِّينَ الْعَرَب، ودورهــم فِـي الدّولة والمجتمـع، واختَصَّ الفصـلُ الأخير من هَذَا القســم لمعالجة زوال الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة فِي القَرْن الرّابع الهِجْرِيّ.

خاضت الكاتبة مَوْضُوعًا صعبًا ومتشـعّبا، طالتَ مدَّتُه سـبعة قـرون. عَلَى الرَّغْمِ مِـنْ أَنَّهـا اسـتطاعت أنْ تؤلِّف مـن هَـذَا الشّـتات أطروحةً، ترقـى إِلَـى التّكامل فِي الجانب التّاريخيّ، إِلَّا أَنَّ طول مدة البحث تمثل عائقا فِي توسـيع دائرته فِي الجانب المنهجي.

ومـن الجانب المَوْضُوعـي خلُصَتْ إِلَـى أَنَّ الْمَسِـيحِيَّة الْعَرَبِيّة بَعْـدَ مرور أربعة قرون فِي ظِلّ الإِسْـلَام، سـتزول بشـكل تلقائي، بسـبب الموت الطّبيعي والأسـلمة التّلقائية وانفتاح الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَب عَلَى الْمُسْلِمِينَ ومصادقتهم ومصاهرتهم. وَهَذَا مَا ناقشتُه فِي غضون البحث.

يرصـد البحـث حـالات عَمَلِيَّـة مـن المُمَارَسَـة التّاريخيّة، مَـعَ تبيـان تفاصيلها، واسـتنطاق الأحـداث، مِمَّـا يعمِّـقُ فَهْـمَ مفـرداتِ المَوْضُـوع، والتزود بالمعرفـة الصحيحة عن تاريخ العَلاقَات الإِسْـلَاميّة الْمَسِـيحِيَّة من مصـادر الطّرفين، وإعادة قراءتها عَلَى نحو محايد، أَوْ معاينة المشـكل مِنْهَا بعين التّقريب، يسـاعدُ عَلَى رسـم

خَارِطَـة العَلاقَـات بَيْنَ الأَدْيَان، من خلال بيان الفارق بين الإسـلام القرآني والنبوي (عصر التشريع)، وبين الإسلام التاريخي (عصر التأويل). بيد أنّ تبيانَ حجمِ الوجودِ الحضاريّ للمَسِيحِيِّينَ فِي المُجْتَمَع الإِسْلَاميّ، ودورِهم فِي إرساء النّظم الإِنْسَانِيَّة، يكشف عَنْ مدَى مشاركتِهم فِي وضع البُنَى الحياتيَّة وقيميّتها وترسيخها.

ارتكـز البحـث عَلَـى المنهج التّاريخيّ في سـرد واقـع الأحداث والـدول لتبيان العلاقات السياسـية، واعتمـد المنهج الوصفيّ التّحليليّ، وَهُوَ المنهج الَّذِي يسـعى إلَى وصفِ الظّاهرة الْمَسِيحِيَّة وعلاقاتِها فِي المُجْتَمَع الإِسْلَاميّ، ومحاولةِ البحث فِي جوانبها للوقوف عَلَى أسـباب نموِّها أَوْ ضمورِها، ونتائجِها، وأثرِها الحضاريِّ، والإفـادة مِنْهَـا كتجربـة سيسـيوانثربولوجية. وَلَمَّـا كَـانَ المَوْضُـوعُ شـائكًا محفوفًا بالمتغيـراتِ الدّينيَّة والتّاريخيّة، فانّي التزمتُ المنهجيـة التّاريخيّة فِي اتباع الحَقِيْقَة، والمَوْضُوعيَّـة فِي البحث، للخروج عَـنْ الإيديولوجيَّة، والسّـجالات، والتّحريف، الَّتِي غلَّفت الحوادث التّاريخيّة.

فَضْلًا عَنْ أَنَّ البحثَ أفادَ من قراءةِ المُمَارَسَة التّاريخيّة، ومعالمِ الفكر الإِسْلَاميّ، لِتِبْيَـانِ إِدَارَة التَّنَـوُّع الدِّينِيّ والمَذْهَبِيِّ فِي بداية الإِسْـلَام، وأهَمِّيَتِهَا فِي نَشْـأة وتَطَوّر العَلاقَات الْمَسِيحِيَّة الإِسْلَاميّة.

حريٌّ بي فِي هَذَا البحثِ أنْ التزم بمبانيَ البحث العلميّ، في أنْ أُأسِّـس لمنهجي فـي الكتابة، على الموضوعيّة العلميّة في اسـتكناه مسـائل التراث الفكـريّ، وأوزِنَ مسـائله بـ«الميزان الإنسـانيّ»، في معـزل عن قيود التقديس المـوروث، وأنْ أناقشَ الأفكارَ، وما تمخَّض عنها، وأعرضَ الإيجابيّ من دون مبالغة، وأكشفَ عن السلبيّ من غير تشويه.

على أنّي اعتمدت المَنْهَجِيَّة عَلَى تشخيصِ ودراسةِ حالَاتِ عَمَلِيَّة، فِي المُمَارَسَة التّاريخيّة فِي مفردات الدّراسـة، مِنْهَا فِي التّعامل الإيجابيّ مَعَ الْمَسِيحِيِّينَ، أدرجتُ مثـلا، عمرو بـن العاص فِي مِصْرَ. أَمَّا فِي مجال التّعامل السّـلبي فناقشـت مَا أحدثه الوليد بن عبد الملك من اعمال، مِنْهَا: الاستيلاء عَلَى الكَنِيسَة. وكذا الولاة الأُمَوِيّين

فِـي العِـرَاق، أمثال: مُحَمَّـد بن عبد الملـك، والحجاج. تهجير مسـيحيٍّ نَجْرَان إِلَى نَجْرَانيَّـة الكوفـة، وتبيـان حقوقهـم، وعـدم قبـول الإمام علـيّ إرجاعَهم. مشـاركة الْمَسِـيحِيِّينَ الْعَـرَب مَـعَ الْمُسْـلِمِينَ الْعَـرَبِ فِـي الْفُتُوحِ، أفـرادًا وقَبَائِلَ فِـي العِرَاق والشّام. هجرةُ قسمٍ من تَغْلِب، وأنَفَة القبيلة من نظام الْجِزْيَة، وتحويلها إِلَى الصّدقة المضاعفة. كما وعرضت الممارسـة التاريخيّة على مصادر متنوعة بحسـب قراءتها الدينية أو المذهبية، وقارنت بينَها على معياريَّة الإنسانيَّة.

عرض البحث أمثلة عَن التّعَايُش الْمَسِيحِيّ فِي الْمُجْتَمَع الإِسْلَامِيّ، نحو اندماج الشّعراء فِي الْمُجْتَمَع، مثل أبي زبيد، وزواج الفرزدق. ودَوْر أمكنة التّعليم والدّارات فِي التّفاعل الِاجْتِمَاعِيّ.

أمَّـا أهـم مصادر البحـث، فللمصادر الْمَسِـيحِيَّة أهَمِّيَّـة كبيرة، فِـي تدوين تأريخ انتشار الْمَسِيحِيَّة فِي بلاد الْعَرَب وتاريخ القَبَائِل الْعَرَبِيّة، وعلاقات الْعَرَب بجيرانهم الرّومـان والفـرس، ولها قيمة تاريخيّة متميزة؛ لأنَّها عِنْـدَ عرضها للحوادث، تربطها بتأريخ ثابت معيَّن، مثل المجامع الْكَنَسِيّة، أَوْ تواريخ القديسين، والحروب وأوقاتها فِي الغالب مضبوطةٌ مثبَّتة.

كَمَـا حَوَتْ المصادرُ السّـرْيانِيّة معلوماتٍ مهمَّة، فِيمَا يخُصُّ المجامع الْكَنَسِـيّة، الَّتِي حضرَها أَسَاقِفَة من الْعَرَب، وما آلَتْ إِلَيْهِ من قراراتٍ، فَضْلًا عَنْ تبيانِ الأسباب، وَكَذَلِـكَ التّعريـف بالآراءِ والمذاهب الْمَسِـيحِيَّة، الَّتِي ظهرت بَيْـنَ نَصَارَى الْعَرَب، وتتيحُ إِلَى معرفة الأبرشيّات الْعَرَبِيّة التّابعة للكَنِيسَة النَّسْطُورِيَّة أَوْ اليَعْقُوبِيَّة، وأسماء عديد من أسـاقفتها. وتقدِّم الدّليـل عَلَى الرّقيِّ الثّقافِيّ مجموعـة كبيرة من المصادر المتعلقـة بالأنشـطة العظيمـة للمـدارس العليـا، مثـل: أكاديميَّـة الرّهـا، ونصيبين، وجنديسابور، الَّتِي ارتبطت بأسماء عدد من العلماء، أسهموا فِي الحَرَاك الحضاري.

مـن أقدمها «تاريخ هرقـل» لـ«سـبيوس soibeS» المؤرِّخ الأرمنـيّ الذي عاصر الفتوحـات الإسـلاميّة، وكتب عنهـا بتفصيلٍ كشـاهد عيان، إذْ رسـم لوحةً واضحة المعالـم لأحـداثِ عصـره بوجهٍ عـام، وتاريخ بلاده السياسـيِّ بوجهٍ خـاص، ودقَّق

فـي نقـل المعاهدات، وأنفرد بقسـمٍ منها، كمعاهـدة العرب مع الأرمـن إبَّان الفتح، كما وتحدَّث باسـهاب عن الشـقاق بين مذهبيّ الدولة والأرمـن المنوفزيتي[1]. هذا مـا يمنحه قيمـةً علميَّة، زدْ على ذلك، أنَّه يُعَبِّر عن رأي المَسِـيحِيِّينَ الأرمن فيما قبل الفتـوح، ومـا آلت إليه بعدها. في غضون هذه المُعطيـات المهمَّة، التي توافر عليها، أفدتُ منه في البحث.

ومن أهم المصادر السـريانية اهتماما بالتاريخ الإسلامي «تاريخ مِيخَائِيل الكبير» بِطْرِيك الكَنِيسَـة السّـرْيانِيَة الأرْثُوذَكْسِـيَّة (165- 595هـ/ 6611- 9911م)، إذْ نقَلَ احداثًـا سياسـيَّة، وحـوادثَ طبيعيَّة ألَمَّـتْ بالمنطقة، ومعلومـاتٍ مفصَّلة عن علاقة الحكام المسـلمين بمشاهير المَسِـيحِيِّينَ، وعُمَّال الأَمْصَار ورؤسـاء القبائل العربيَّة وعامـة النـاس[2]. وقد وضع ميخائيل السـرياني نصـب عينيه الإقتبـاس من الكتاب الكنسـيِّين، فهو يكتـب لإخوانه المؤمنين للموعظة الحسـنة، وللأخـوة المجتهدين للتنويـر، لأجـل أنْ يحظـى بالثـواب وتخليـف أثـر بإسـمه فـي الوعـي التاريخـي السـرياني[3]. هـذا مـا وفَّر له مكانـة علمية ومسـاحة في الإفـادة منه في بـؤرة بحث العلاقـات الإسـلامية المسـيحيّة. وهـو لا يقل في مسـاحة الفائدة التـي حمَّلتها من «أخبار فطاركة كرسـي المشـرق» من كتاب (المجدل للاسـتبصار والجـدل) الَّذِي ضمنه تاريخ وعلوم النَّسَاطِرَة ماري بن سليمان (ق6هـ/ 21م).

اشـتهر ابـن العِبْـري (ت586هــ/ 6821م) المـؤرخ السـرياني، بإسـهامه فِـي الدّراسـات التّاريخيّـة وحقّقَ رغبتَه فِي إتمام تاريخ عـالمـي فِي ثلاثة تواريخ: تاريخ

---

(1) - انظر: فـايـز نـجـيـب اسـكـنـدر: الـمـسـلـمـون و الـبـيـزنـطـيـون و الأرمـن فـي ضـوء كـتـابـات الـمـؤرخ الأرمـنـي سـبـيـوس، (دار الحكمة اليمانية، صنعاء، 1993) ص10- 75.

(2) - انظر: جاسم صكبان علي: «التاريخ العربي والاسلامي من خلال المصادر السريانية العِرَاقية»، مجلة عالم الفكر، الكويت، اكتوبر 1984، ص687- 700.

(3) - أنظر: الأب ج. م. فييه: «الفكر التاريخي عند السريان»، مجلة الفكر العربي، كانون الأول، 1989م، عدد 85، ص39- 47، معهد الإنماء العربي، بيروت.

السّـريان، والتّاريخ الْكَنَسِـيّ ألفّه باللغة السّـرْيانِيّة، وما يسـمّى بتاريخ الْعَرَب، ولقد جمعهـا كلّها فِـي نهاية حياته فِي أسـلوب عربيّ مؤثّر تَحْتَ عنـوان « مختصر تاريخ الدّول » ولَا شَـكَّ فِي أَنَّهُ أخذ معلوماته من تواريخ سـريانيّة وعربيّة وفارسـيّة، وأفاد من وفرة المصادر الَّتِي تركها سلفُه مار مِيخَائِيل الكبير، والَّتِي أضاف إِلَيْهَا مكتسباتٍ كثيرة.

غطّـى ابـن العِبْري تاريخ الإنسـان كلّـه مِنْـذُ الخليقة؛ أمّا بالنّسـبة إلَـى الكتابات المبكّرة، فَقَدْ أوجز تاريخ مِيخَائِيل الكبير. إذ إنّ التّـاريخ المدنيّ مِنْذُ الخليفة وَحَتَّى عهـده عامّ فِي أسـلوبه، أمّا التّاريخ الْكَنَسِـيّ من هـارون إلَى مَا بَعْدَ العهد الرّسـولي فَهُـوَ موجـز، ثُـمَّ يصبح بعدهـا تاريـخ بَطَارِكَـةِ أنْطَاكِيَةِ حَتَّـى سـويريوس، لينحصر بالمونـوفيزيـن أَوْ اليَعَاقِبَـة حَتَّـى العـام 5821. ويختتـم تاريخـه بتعـداد مفريانات ومفارنـة تكريت وبملاحظات دقيقة عَلَى بَطَارِكَةِ النَّسَـاطِرَة. ولقد أغنى ابن العِبْري عمله «تاريخ مختصر الدّول» بمعطيات إضافية عَنْ السّـلالات الإِسْلَاميّة. يركّزُ ابن العِبْـري في مؤلفاته السـريانية على إثارة اهتمام السـريان بتاريخهم ولغتهم وأدبهم، ومعاونتهم على صيانة مكانتِهم، كقوةٍ فاعلة في غرب آسـيا، من خلال التعريف بما كـان لليونان، أو مـا كان للعرب في معارفَ حضاريَّةٍ. بهـذا التوصيف كانت كتابات ابن العِبْري تتمخض القيمة التاريخية والدينية، والتي ما انفك البحث منتهلا منها.

للمصـادر القبطيّة أثرٌ في دراسـة زمن البحث، منها مـن واكب أصحابها أحداث الفتـوح وعايشـوها وكتبـوا عنهـا، نحـو: يوحنا النيقوسـي (ق1هـ/ 7م) فـي كتابه «تاريخ مصر» ليقدم رؤية معاصرة للمَسِـيحِيِّينَ تجاه العلاقات المسيحيَّة المسيحيَّة، والعلاقات المسـيحيَّة الإسـلاميَّة، تكاد تكـون تفصيليَّة. وكتاب «تاريـخ البَطَارِكَةِ» لسـاويرس ابن المقفع (203-773هـ/ 519-789م) المَصْريِّ، الَّذِي ينفردُ بذكر مَا يخصُّ الكَنِيسَـةَ والأَقْبَاطَ، وموقفَهم من السّلطة إِبَّانَ الحكم الأُمَوِيّ، ويعلّلُ تناقُصَ الْمَسِـيحِيِّينَ بسببِ الظّروف الاقتصاديّة، المُتَمَثِّلَةِ فِي الْجِزْيَةِ والخراج والتّعسُّف فِي جبايتها، وَقَدْ تكلَّم عَنْ أرقام ضريبية كبيرة. بهذه الملامح تجسـدت قيمته المعرفية،

ومقدار ما اتكأ عليه البحث من فائدة.

وللمصـادر الإِسْـلَامِيَّة أَهَمِّيَّـة - أَيْضًا- فِـي تواريـخ الخلفاء وتوصيـف الْفُتُوح وتحركـات الجيوش ومشـاركة القَبَائِل، وذكـر الحوادث الَّتِي لها علاقـة بالنَّصَارَى ومنازلهم وكَنَائِسـهم، وشـذرات عَنْ تعامـل الحاكمين مَعَهُمْ. مـن أهمها فِي تاريخ الفتوح: «المغازي» و«فتوح الشَّـام» لـ «الواقدي (702هــ/ 328م)»، الذي يعد بين أوائـل المؤرخيـن، بـل وأقربهم الى القـرن الأول الهجـري، زمن البحـث، وكانت كتاباتـه مصـدرًا لكل الجامعين اللاحقيـن، أو كادت. ومن هنا اكتسـبت أهمية فائقة فـي مرجعية البحث إليهـا، والتحقق من تاريخ الفتوح ومفاصـل مجرياتها. ولا يقل عنها في معرض الإفادة «فتوح البُلْدَانِ» لـ «البلاذري (ت972هـ/ 398م)»؛ الذي بدأ بغزوات الرسـول محمَّد، ورسم توصيفا للعمليات العسـكرية، وكان أكثر تشخيصًا من الواقدي للفتوح في العِرَاق وبلدان المشرق الإسلامي حتى أرمينيا.

ومن أقدم المصادر وأهمها فِي التّاريخ العام: «تاريخ خليفة بن خياط» العصفري (ت042هــ/ 558م)، الـذي أحاطت غمـاره بزمن البحـث، وفيض الإفـادة، إذْ بدأ حولياته بعام الهجرة، وأفسح مجالا رحبا لدولة الأمويين، بيد أنه كان يروي أحداث العِـرَاق وبلدان المشـرق الإسـلامي باقتضاب. ويتلـوه «تاريخ الطَّبـري» (013هـ/ 329م)، لأنَّـه وأقربهـا مدة إِلَى المائة الأولى للهجرة، وكثيرًا مَا تسـتعمل السَّـند فِي الوصول إِلَى رِوَايَة أخبارها، وأكثرها شموليَّة فِي تغطية بِيئَة البحث.

ومن كتب السِّـير، التي أطلت على السـيرة النبوية عن قرب، «سيرة ابن إسحاق» (48-151هـ/ 407- 867م)، ويعد في معيار القِدَمِ من أهمّ أركان المرحلة المبكرة في التاريخ الإسـلامي، فضلا عن أنَّه انتهج الكتابـة في المبتدأ والمبعث والمغازي، الذي لم تبصر النور منه إلا المعالجة المختصرة في «سـيرة ابن هشـام» (ت812هـ/ 338م)، الكتاب القيم الذي توالت على حفظه الأجيال.

ومـن مصـادر الطَّبقات وما تقدمـه من اطلالة عَلَـى حياة الماضيـن ودورهم فِي صناعة النُّظُم الحياتيَّة، نسـتفيد مِنْهُ مَا ظَلّ يتشـدَّقُ بِهِ التّاريخ، من إيجابٍ أَوْ سَـلْبٍ،

عَلَـى اختـلاف معياريَّـةِ النّاسِ، ونسـبيَّتِها الزمانيَّـةِ، والمكانيَّـةِ، والفِكريَّـةِ. فأفَادَنِي مِنْهَـا «طبقات ابن سـعد» (ت032هـــ/ 548م)؛ وَذَلِكَ لقدمه، فهـو كاتب الواقدي، ولمنهجته على أساس المدن، ولشموليته لمتغيرات القَرْن الأوَّل الهِجْرِيّ.

- ومـن كتـب الأدب وتراثـه الْعَرَبِـيّ والسّـرْيانِيّ، نجد مـادة غنيَّة واسـعة أفادت البحث، لعلها أوسع وأنفع من المواد المدونة المجموعة فِي كتب التّأريخ. وإنْ كَانَ المـروي عَنْ أخبار القَبَائِل والأنسـاب وحوادث الشّـعراء والخطبـاء، هُوَ أقرب إلَى الطّابـع الأدبي، لَكِنَّهُ يخص حيـاة النّاس والتّعبير عَنْ حَرَاكهـم وعلاقاتهم الحياتية، نحـو «طبقات الشّـعراء لـ» ابن سـلام (ت132هــ/ 548م)، كتـاب «الأغاني لـ»ابي الفـرج الاصبهانـي (ت653هــ/ 769م)، من القدمـاء، ويتلوهم كتـاب «الإرب فِي فنـون الأدب لـ «النويري (ت337هـــ/ 3331م)، وكتاب «صبح الاعشـى فِي كتابة الانشـا» لــ «القلقشـندي (ت128/ 8141م) و«شـعراء النَّصْرَانِيَّـة»، و«النَّصْرَانِيَّـة وآدابها» للويس شيخو (ت6431هـ/ 8291م).

لَعَلَّ فِي كتب البُلْدَانِ والامكنة يتوخّى الباحث في معرض الأهمية، وما أسدته له من فائدة، حيث تسـهل الوقوف عَلَى البُلْدَانِ الَّتِي اشتهرت بِهَا الْمَسِيحِيَّة، ويشخّص خلالَها أمكنة عبادتهم، وبعضا من طرائقها، مثل: كتب الدّيارات لـ «الشابشـتي (ت 883هـ/ 899م) وابي الفرج الأصبهاني، ومعجم مَا استعجم لـ» البكري (ت784هـ/ 4901م)، ومعجم البُلْدَانِ لياقوت (ت626هـ/ 9221م).

كانـت المصادر الإسـلاميَّة سـخيَّة بالتفاصيل في الفتوحات؛ لإبـراز قيمةِ النصر العربـيِّ، مثـلاً، قـول البـلاذري: «أنَّ زُهَـاءَ مائـة ألف من الروم شـاركوا فـي معركة أجناديـن». بيـد أنَّ إمكانيَّـة الإفادة مـن مثل هذه النصـوص في تبيان حجـم مقاومة البيزنطيّيـن، التـي ينبغي أنْ تُعْطَى حقَّها من التقدير. في حين أنَّ المصادر المسـيحيَّة تحاول أنْ تظهر أنَّ الدفاعاتِ متينةٌ، وأنَّ الشـعبَ مسـتعدٌ للمقاومة، وأحيانًا تنسِـبُ الهزيمةَ الى خيانةِ أصحاب المصالح السياسية، أو من أصحاب المذاهب المخالفةِ، أو مـن دِيـن آخـر كاليهـود. ومهمَا يكنْ فـإنَّ ثمَّةَ قـدرًا من عدم التناسـق بين وصف

المصـادر المسـيحيَّة والإسـلاميّة للمعركة، فقد حاول المسـيحيُّون أنْ يقلّلوا شـأنَ المعركةِ على أنَّها نصرٌ حربيٌّ عظيمٌ للمسلمين، بل إنَّ النصر فيها كان بسببِ التسلُّلِ والخديعةِ، لا بسـبِ نجـاحٍ حربيٍّ صادقٍ. والمسـلمون أكدُّوا أنَّها معركةٌ حاسـمةٌ، أُسْـتِعْمِلَ فيها الذكاءُ، وكانت شـجاعةُ المسـلمينَ وخُلُقُهم القويمُ عاملينِ حاسمينِ فيها[1].

علـى أنَّ فكـرة التاريخ لـدَى المؤرخين السـريان والمسـلمين كانـت تُبْنَى -في الغالـب- علـى إلهيَّـة المُرْتَكَـز، فالله يتدخَّـل في التاريـخ، يثيبُ بالنصـر، ويعاقب بالهزيمة. على أنّ هذا المنحَى يقوَى عندَ المؤرخين السـريان؛ لأنَّه تعبيرٌ عن رعويَّة المحكومين، في حين أنَّه يقلُّ لدَى المؤرخين المسـلمين، لاسـيَّما مع اشتداد ساعد الدَّولَـة العَرَبِيَّـة بعد الفتوح، فإنَّهم عبَّروا عن لغة الحاكميَّة، إلا ما بقيَ من شـعور في تدخُّل المُقَدَّس (إلهيَّة التاريخ) يتساوق مع فكرة الدولة الإلهيَّة.

يجدر بالكشـف عَـنْ مصادر المعلومـات، أنَّ مـادة العلاقة بين الديانـات كَانَتْ شـحيحةً ومتشـتتة فِـي مصادر التاريـخ الإِسْـلَامِيّ، إِذْ لَـمْ تُعِرْ اهتمامًـا لأحوال غير الْمُسْـلِمِينَ، ولاسِـيَّمَا الْمَسِـيحِيِّينَ الا عَلَـى نحو عابـر. ومِنْ ثَمَّ عدم دقَّـة المصادر وغموضِهـا، فِيمَـا خَـلا أحكامهـم الْحُقُوقيَّة جـاءت وافيـة، وتتميَّز بالدّقـة. فعندما تتحدَّث هَذِهِ المصادر عَنْ شَـخْصِيَّة مَسِـيحِيَّة مثلا، فإنها لا تعرَف به كَذَلِكَ، بَلْ عَلَى الباحث أنْ يستنتج ذَلِكَ من سياق الخبر سواء كَانَ حدثًا أَوْ راوية أَوْ شعرًا أَوْ خطبة، عَلَى نحو يلزم الباحث فِي أنْ يطَّلِعَ عَلَى المصدر من أوَّله إِلَى آخره. غير أنَّ المُعَوَّل عليه أكثر، لاستكمال الفائدة، كان في الاقتباس من الكتابات التي عُنِيَتْ بالنشاطات الاجتماعيَّـة والثقافيَّـة كالأغاني وصنعة الكتابة، فضلًا عن مصـادر التاريخ والتراث المسيحي.

ثمَّة إشـكال يحوم حول المصادر الإسـلاميّة التي تؤرخ للقـرن الأول الهجريِّ،

(1) - انظر: ولتر كيغي: بيزنطة والفتوحات الإسلامية، (قدمس للنشر، دمشق، 2003) ص193.

هي أنَّها ليست دائما جديرةً بالثقة؛ لأنَّها كُتِبَتْ في مرحلة متأخِّرة، وتبيِّن أجواء عصر التدوين ومنظوماته الفكريَّة أكثر من تأريخها لزمن بدايات الإسلام، مثل سيرة ابن هشام. ولمناقشة هذه الدعوى يبدو إنَّ ظهورَ كتاباتٍ تناولت أهم الحوادث والسِّيَر في القرن الأول الهجريِّ، كانت في القرن الثاني «سيرة ابن إسحاق» (ت151هـ/ 867م)، الذي عاصر أواخر الصحابة وكبار التابعين من الذين رووا السيرة، أمثال: عروة بن الزبير (ت49هـ/ 217م)، أبان بن عثمان (ت501هـ/ 327م)، شُرحبيل بن سعد (ت321هـ/ 147م)، ومحمد بن مسلم الزهري (ت421هـ/ 247م)[1]. كادت سيرة ابن إسحاق تقع نهب البلى، لولا أن وصلنا اليسير منها، على أنَّ ابن هشام الذي هذَّب روايات ابن إسحاق، منحها ذيوعا وأهميَّة. تلتها مغازي الواقدي (ت702هـ/ 228م)، واستكملت المعارف التاريخية بطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري. وليس من شكٍّ انَّ استعمالهم للسند في الرواية، يوصلهم الى زمن الحدث، غير انَّ هذا لا يعني انَّ كلَّ ما نقلوه اكتسب مرحلة الوثاقة، فإنَّ كثيرًا منها كان يتناغم مع توجُّهات أنظمة الحكم على اختلافها، أو مع الإنتماءات العَقَدِيَّة أو القوميّة أو الإقليميّة، أو الأسريّة السائدة في عصر التدوين.

لمَّا كانَ الْمَسِيحِيُّونَ، آنَذَاكَ - فِي الغالب - يَعَاقِبَة أَوْ نَسَاطِرَة أَوْ أَقْبَاطًا، فإنَّ تاريخَهم مُضَمَّنٌ فِي المصادر الْكَنَسِيَّة اليَعْقُوبِيَّةَ والنَّسْطُورِيَّةَ المكتوبة بالسِّرْيانِيّة، أَوْ القبطِيَّة، والَّتِي لَمْ يُتَرجَمْ مِنْهَا إلا القليل إلَى الْعَرَبِيّة، إِذْ اقتَضَى الأمرُ أنْ أنتقلَ إلَى المكتبات المُخْتَصَّةِ فِي المَوْصِل ودهوك وكَنَائِسها، وكركوك وأديرتها، فِي وقت يُعَدُّ الطَّريق إِلَيْهَا يحفُّ بالمخاطر؛ لأنَّها ضِمْنَ دائرة العنفِ والتّشدّد الدّينيّ، ولاسِيَّمَا الاقليّات الدّينيَّة؛ ومِنْ ثَمَّ استوجب الأمر المرابطة فِي مكتبات الكَنَائِس اللبنانية، ولاسِيَّمَا الشَّرْقِيَّة اليسوعيَّة فِي بيروت.

اقتضت طبيعة العنوان أنْ تتوافرَ هيكلةُ البحث عَلَى بابينِ، عُنِي الباب الأول

(1) - يوسف هورفتش: المغازي الأولى ومؤلفوها، (البابي الحلبي، القاهرة 1949) ص9- 69.

بالمنحى التاريخيّ، في التعريف بمقدمات العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة وتاريخها علـى عصورها، فجاء عَلَى أربعة فصول. درس الفصل الأول انتشـار الْمَسِـيحِيَّة فِي البـلاد الْعَرَبِيّة قَبْلَ الإِسْلَام، وتناول الفصل الثّاني العَلاقَات الإِسْـلَاميّة الْمَسِـيحِيَّة فِي عصر الرّسـالة، وتَجَلَّى الفصل الثّالثُ العَلاقَات الإِسْـلَاميّة الْمَسِـيحِيَّة فِي عصر الخِلَافَة الرّاشدة، واستعرض الفصل الرّابع العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة فِي عصر الدّولة الأُمَوِيّة.

وعُني الباب الثّاني بموارد الفكر الإسلامي التي تستخلص منها النّواحي الْحُقُوقيَّة للمَسِـيحِيِّينَ فِي التّشـريعات الإِسْـلَاميّة، والدّور الحضاري البارز لَهُمْ فِي الْمُجْتَمَع الإِسْلَاميّ، فاستوعب الفصل الأول الْمَسِيحِيَّة والعَلاقَات الدّينِيَّة فِي القُرْآن الكريم، وبحـث الفصـل الثّانـي: الآخر الدينـي والجهاد والفتـوح في المفاهيم الإسـلاميَّة، ودرس الفصـل الثّالـث: حقـوق الْمَسِـيحِيِّينَ فِـي تشـريعات الدَّولَة العَرَبِيَّـة، وتبين الفصل الرابع: التّعَايُش الْمَسِيحِيّ فِي الْمُجْتَمَع الإِسْلَاميّ وأثره السيسيولوجي.

في هذا المشـروع الصعب، لمرحلة من أهمِّ المراحل التاريخية، مرحلة تأسيسيَّة فـي كل مناحيها، للهويَّة الإسـلاميَّة، فـي المباني الفكريّة، والممارسـات التاريخيَّة، التـي تمـازج فيها الدينـيّ والسياسـيّ، والعقليّ والعاطفـيّ، وتأصيـل العلاقات مع أصحـاب الديانـات الموجـودة علـى السـاحة الحضاريَّـة العربيّة، وأغلـب ظنِّي أنَّ المسـيحيَّة حظتْ بديمومةِ العلاقات وسَـعة حجمها، أكثرَ مِـن غيرِها مِن الدياناتِ، في غضون الدولة العربية المُتَّشِحَةِ بالدين الإسلاميّ. وكان لزامًا عليَّ أنْ أتعايشَ مع هذه المرحلةِ الغنيَّةِ بالأُسُـسِ الحضاريَّة المتمازجة، والمكتنـزة بالعلاقاتِ الخِصْبَةِ في المجالينِ التاريخيِّ والدينيِّ، وأنْ أخوضَ في غمارها مستقرِئًا الحقيقةَ فيما أظنُّ وأعرف.

بعـد هَـذِهِ الرّحلة البحثيَّة الشّـاقّة، الّتِي بذلـتُ فِيهَا مَا آليتُ عَلَى نفسِـي من جهْدٍ مضنيٍّ، وما وسَعْتُ من استطاعة، أصْبُو إِلَى أَنّها قَدْ تتكلّل برِضا أهلِ العلمِ والبحثِ، ولا أدَّعِـي لهـا الكمالَ، وإِنَّمَا هِيَ خُطـوةٌ عَلَى طريقِ التّكامُـلِ المعرفيِّ، راجيًا ممن

يمعن النّظرَ فِيهَا ان يبيِّنَ هِناتِها؛ لأُزيِّن سماءَها بلواقِحِ المعرفةِ والبحث العلمي.

كَمَا أَنَّ مخاضَ هَذِهِ التّجربةِ امتدَّتْ لَهُ يَدُ أهلِ العِلْمِ، وأخذتْ بِهِ إِلَى شاطِئِ السّلامَة، وَهِيَ تستحقُّ من الشّكر جزيلَة ومن الدّعاءِ كثيرَه، واخصُّ أستاذي الدّكتور أنطوان نصري مسرَّة الَّذِي فاضَ عَلَيَّ بفنونِ معرفتِه وسموِّ أخلاقِه، والأستاذ الدكتور الأب عزيز حلاق على ما أضفاه من قيمٍ موضوعيَّة ومنهجيَّة إبَّان متابعة الأطروحة وتقويمها، وأعطف بالشكر للأساتيذَ الدكتور فكتور الكك، والدكتور أحمد حطيط، اللَّذِينَ تجشَّما عناءَ قراءةِ البحث، وتوجيهِه نحو جادةِ الصّواب. ولا يسعني إلَّا أن أتقدم بالإمتنان الى منسقة الدكتوراه في الكلية الدينيَّة على ما قدَّمته لي من فيْضِ عونها، وأسأل الله التّوفيق لكل من مدَّ لي يدًا بيضاء ساعدت في أنْ يظهرَ هذا الجهد بحُلَّته الأخيرة. أخيرا يجدر العلم انّ ما ورد في الأطروحة من مقاربات وآراء هي من بنات أفكار الباحث، ولا تمتّ بأيّة صلة للنسق الثقافي في الكلية الدينيّة – الجامعة اليسوعيّة.

الباب الأول

العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيّة

مقدمات وتاريخ

الفصل الأول

إنْتِشَارُ الْمَسِيحِيّة فِي البِلاد الْعَرَبِيّة قَبْلَ الإِسْلَام

مـرّت بلادُ الشـرق الأدنى بموجات من الهجرة، آخرها هجـرة العرب من اليمن نحـو الشـمال والشـرق، إبّـان (القـرن2م - القـرن7م)، وأسسـوا دولتي الغساسـنة والمناذرة. وقبلها في الشـمال ظهرتْ دولـة اللحيانيين (500 - 300 ق.م)، ثم دولة الأنباط (القـ2 ق.م- القـ3م). وفي الجنوب نشـأت دول اليمن: المعينيّة، والقتبانيَّة، والسبأيّة، والحميريّة، منذُ (القرن13ق.م - القرن6م)، قبلَ حضارة مكّة[1].

فـي ظـلِّ تعاقب الـدول هـذه، بينها وبين دولـة فارس ودولـة اليونـان - بيزنطة، تمخضت نشـاطات وتغيرات سياسـيَّة وتجاريَّـة واجتماعيَّة وثقافيَّـة ولغويَّة ودينيَّة. شـارفت الناحية الدينية تنوعا في العبادة بين الوثنية من جهةٍ، والأديان السـماويَّة من جهـة أخرى، وفـي الوثنية ذاتها نجدُ مختلـف المراحل، فهناك أثر التوحيد السـامي الأول، والى جانبه عبادة الأجرام السماويَّة التي قد تعود الى البابليين، وتقديس الآباء الأولين الى العبادة، والطوطمية وما تمثل من الإعتقاد بدخول الأرواح المقدسة في الأشـجار أو الجمـاد كمجاري المياه، والإعتقاد بالجن والشـياطين وعبادة أوثان لا شكل لها، وعبادة أصنام مختلفة[2].

---

(1) - ^ Ira M. Lapidus، A History of Islamic Societies، Cambridge University Press p.14

(2) - الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، (مطبعة المعارف، بغداد، 1960) ص39.

ثم حصل تسرب بعض الشعائر والآراء من المسيحية واليهودية، وشهدت الوثنيَّة تطـورًا من إنفراد كل قبيلة بإلهها الى شـيوع تقديس بعـض الآلهة، ويتلو ذلك تدرّج عنـد بعـض القبائل الى الشـعور بوجـود إله أعلى مـن الأوثان والاصنـام المتعددة، أطلقـوا عليه اسـم الله، وتقديس بيته المشـرف، وهو الكعبة، فصـارت لها الطقوس والشعائر الخاصة التي وصلت ذروتها في الحج، وجعلوا الأصنام وسيلة بينهم وبين الله وشـافعة، وهكـذا حصل تطور في العقائد والمسـتوى الديني في تجاه التوحيد، المتمثلة في الحنيفية الإِبْرَاهِيمِيَّة[1].

الْمَسِـيحِيَّة دين يسـوع الْمَسِـيح، وُلِدَ فِـي أحضـان اليَهُودِيَّة وَفِي حيـاض الوَثَنِيَّة الرّومانيـة، وَقَـدْ يطلق عَلَى أتباعه النَّصَارَى، نسـبة إِلَى يسـوع النّاصري الَّذِي موطنه النّاصـرة[2] فِـي الجليل[3]، لَمْ يَخُصْ الْمَسِـيحِيَّة شَـعْبًا بعينِـهِ مِثْلَ اليَهُودِيَّة، بَلْ وَسَـعَ النّاس جميعا، فلذا كَانَ التّبشِـيرُ دَيْدَنَهُ ومَنْهَجَهُ، مِمَّا أسْـهَمَ فِي انْتِشَـارِهِ عَلَى مَسَاحَةٍ أكْبَرَ مِنْ الخَارِطَةِ البَشَـرِيَّةِ، فَضْـلًا عَنْ عواملَ دِينِيَّةٍ وسِيَاسِـيَّةٍ واقتصاديَّةٍ واجْتِمَاعِيَّةٍ كَـانَ لها دَوْرٌ مُهِمٌّ فِي انتشـارِه، ولاسِـيَّمَا عَلَى أطراف جَزِيْـرَة الْعَرَب، وعلى الطّريق السّاحلي حَتَّى الْعَرَبِيَّةِ الجنوبيَّةِ ونَجْرَان ومَكَّةَ.

تَمَثَّـلَ العَامِـلُ الدّينِيُّ فِي اضْطِهَـادِ اليَهُودِ المَسِـيحِ وَصَلْبِهِ، وتَشْـرِيدِ تَلَامِيذِهِ فِي الآفَاقِ، بِمُشَـارَكَةٍ مِنَ الدَّوْلَةِ الرّومَانِيَّةِ، وتَشَـتُّتْ المَسِيحِيَّة عَنْ طَرِيقِ الحَوَارِيِّينَ إِلَى الأطْرَافِ، وكَوَّنَتْ وُجُودًا مُتَنَوِّعًا، وحَقَّقَتْ انْتِشَـارًا عَنْ عَوامِلَ عِدَّةٍ، مِنْهَا: إنَّ طَبِيعَةَ اللَاهُوتِيَّة الْمَسِيحِيَّة تَعْتَمِدُ الكَرَازَةَ لِخَلاصِ جَمِيعِ النّاسِ دُونَما خَصَّها بِشَعْبٍ، وأنَّ بِيزَنْطَةَ[4] اتَّخَذَتْ الْمَسِـيحِيَّة الدّينَ الرّسـميَّ للدَّوْلَةِ الرّومانيَّة، في سـنة 324 م أعلن

(1) – الدوري: م.ن، ص40.
(2) – وردت الإشارة الى الناصرة، في مرقس 1/ 9؛ يوحنا 1/ 45 – 46، 7/ 42.
(3) – دائرة المعارف الكتابية (النّاصري).
(4) – بيزنطه، بوزنطيا، بوزنطة، من الأصل اليوناني Byzantion: مدينة إغريقية قديمة كانت تقع علي مضيق البوسفور بتركيا. ويطلق على امبراطورية الروم الشرقية، التي تأسّست بين 330 إِلَى 395م، في شرقي الامبراطورية الرومية الكبرى، ودامت حتى عام 1461م. الموسوعة الحرة،

القيصر قسطنطينوس((Constantine I[1]، وتزايد عدد المَسِيحِيِّينَ حتى أصبحوا، في أوائل القرن السادس الميلادي، أغلبية السكان، وصاحب هذه الأغلبية انفراط فـي تَنَوُّع المذاهب، حتى صارت الطوائف المسيحية تربو على خمسين طائفة[2]. وإثر عهد قسطنطين (305 - 337م) الذي اشتمل على تنصير الدولة، وبعد أنْ كانت المسيحيَّة ديانة أقليَّة، أصبحت شيئا فشيئا الدين الرسمي للإمبراطور ورعيته، فتمتعت الكنيسة بامتيازات ماليَّة وسياسيَّة ودينيَّة[3]، اقتضى بموجبها إبعاد المعارضين من المذاهب المَنُوفيزِيتيَّة «MONOPHYSITES»، القائلين بالطبيعة الواحدة، وأتباع «آريوس» «ARIAUS» (ت336م) الذين أنكروا أُلوهيَّة المسيح، ونعتهم بالهرطقة والإلحاد[4].

جعلت النَّصْرَانِيَّة ديانتها ديانة عَالَمِيَّة جاءت لجميع البشر. بينما قيدت اليَهُودِيَّة أبناءها بقيود تكاد تضبط حركاتهم وسكناتهم، وفرضت عَلَيْهِمْ فروضا ثقيلة. من هنا نجد أنَّ النَّصْرَانِيَّة أكثر تساهلا وتسامحا، فَلَمْ تُقَيِّدْ أبناءَها بقيودٍ شدِيدةٍ، وَلَمْ تفرضْ عَلَيْهِمْ أحكاما اشترطت عَلَيْهِمْ وجوب تنفيذها. وَقَدْ قام رجال الدّين النَّصَارَى مِنْذُ

ويكيبيديا (بيزنطة).

(1) - بقرارات متتالية صادرة عَنْ الامبراطور قسطنطين الأكبر(306 - 337م)، وَهِيَ الاعتراف بالمسيحية دينا مشروعا ومعترفا بِهِ عام 311، ثُمَّ اعتناق الامبراطور لَهُ، وجعل القدس عاصمة مقدسة للمسيحية، ثُمَّ فِي 383 صدر قرار امبراطوري وقعه الأباطرة، جعلت المسيحية بموجبه دينا للامبراطورية. (The World`s Religions، Christianity in the First Five Centuries، p152) نقلها عَنْهُ: عرفان عبد الحميد: النّصرانية - نشأتها التاريخيّة وأصول عقائدها (دار عمار، عمّان، 2000م) ص 60.

(2) - ريفكا شيفك ليسك: «اليهود لم يستسلموا ولم يعتنقوا الديانة المسيحية»، مركز أورشليم، القدس للشؤون العامة، 21/ 11/ 2008، www.infoelarab.org

(3) - كلود لوبليه Claude Lepelley: «إهتداء قسطنطين»، في تاريخ الكنيسة المُفَصَّل، ترجمة: أنطوان الغزال، صبحي حمودي اليسوعي (ط2، دار المشرق، بيروت2009)1/ 148؛ وقارن: ويل ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: مُحَمَّد بدران (دار الجيل للطباعة، بيروت)11/ 390.

(4) - أطلق عليه: «الإلحاد الأريوسي»، إذ يقول أريوس: إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التي خلقها الله وأسماها. ويل ديورانت: م. س.11/ 391 - 396؛ قارن: كلود لوبليه: «الأزمة الآريوسية»، في تاريخ الكنيسة المُفَصَّل (دار المشرق، بيروت 2009) 1/ 171 - 176.

أول نشـأتها بالتّبشير بِهَا، وبنشرها بَيْنَ الشّـعوب، وبذلك تميزت عَنْ الْيَهُودِيَّة، الَّتِي جمدت، واقتصرت عَلَى بني إِسْرَائِيلَ.

ولفظـة «النَّصْرَانِيَّة»،«نَصَـارَى»، الَّتِـي تُطْلَقُ فِـي الْعَرَبِيّة عَلَى أتباع الْمَسِـيح، من الألفـاظ المعرَّبة، يـرى بعض المستشـرقين أنها من أصل سُـرْيانِيّ هُـوَ: «نصرويو» Nosroyo، «نصرايـا» Nasraya1، ويرى بعض آخر أنها من Nazereneds التّسـمية العبرانية، الَّتِي أطلقها اليهود عَلَى من اتَّبَعَ الْمَسِـيح، وبهذا المعنى وردت فِي القُرْآن الكريـم، ومِنْ هُنَا صارت النَّصْرَانِيَّة عَلَمًا لديانة الْمَسِـيح عِنْدَ الْمُسْـلِمِينَ[1]، بَيْدَ أَنَّها وردت - قبلا - فِي شعر الجاهلِيّين، كَمَا فِي قول أمية بن أبي الصّلت[2]: [البسيط]

والنّاس راثَ عَلَيْهِمْ أمرُ ساعتهم ... فكلُهم قائلٌ للدين إيانا

أيام يلقى نصاراهُم مسيحهمُ ... والكائنين لَهُ ودًّا وقربانا

الْمَسِيحيّة والبلاد الْعَرَبِيّة:

ثَمَّـةَ عَلاقَـاتٌ وطيـدة للأمـة الْعَرَبِيّة بغيرهـا من الأمم المجـاورة، لهـا مِنْذُ أقدم الأزمنـة، فصّـل فِيهَا «أوليرى» وكشـف عَـنْ الرّوابط القويـة، الَّتِي كَانَـتْ قائمة بَيْنَ الْعَـرَب، وَبَيْـنَ دول مَا بَيْـنَ النّهريـن، والمَصْريين، والأحباش، والهنـود، والفرس، واليونان، والرّومان[3].

لـم يكن العرب في جزيرتهم معزولين عن العالم المتحضّر، فقد كانت تقع على أطرافهـا الثقافة الفارسـيّة والبيزنطيّة، وكانت التجارة واسـطة لإلتقاء هذه الثقافات، وكانـت اليهوديَّةُ والنَّصْرَانِيَّة منتشـرةً في أجـزاءِ الجزيرةِ العربيَّة، وكان لها شـأنٌ في الفكرِ الدينيّ عندَ أهلِ الحضرِ.

---

(1) - علي، جواد: الْمُفَصَّل فِي تاريخ العرب قبل الإسلام، (ط4، دار السّاقي، بيروت 2001م) 12/ 159.

(2) - المقدسي، المطهر بن طاهر (ت 355هـ): البدء والتاريخ، 6ج (مكتبة الثّقافة الدينية، بور سعيد) 2/ 145.

(3) - علي، جواد: م. س.12/ 158.

أُسْتُثمِرَت النَّصْرَانِيَّة سِيَاسِيًا كجاذِبَةٍ دِينِيَّة فِي البلاد الْعَرَبِيّة المتنازع عَلَيْهَا من لَدُن الدّولتين الكبريين، فَقَدْ عمل المعسكران بكل جد وحزم عَلَى نشر وسائل الدّعاية واكتساب معركة الدّعاية والفكر، ومن ذَلِكَ التّأثير عَلَى العقول. فسعى الرّوم لنشر النَّصْرَانِيَّة فِي الجَزِيْرَة، فأرسلوا المُبَشِّرِينَ وساعدوهم، وحرضوا الحَبَشَة عَلَى نصرها ونشرها، وسعى الفرس لنشر المذاهب النَّصْرَانِيَّة المعارضة لمذهب الرّوم والحَبَشَة ولتأييد اليَهُودِيَّة -أيضًا، وَهِيَ معارضة لسياسة الرّوم - أيْضًا -[1].

لَيْسَتْ الْمَسِيحِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ شَأْنًا عَقَدِيًّا أَوْ طَائِفِيًّا أَوْ مِلِّيًّا، فَحَسْبُ، بَلْ هِيَ قَدَرٌ تاريخيٌّ وثَرْوَةٌ رُوحِيَّةٌ، لِمَنْ انْتَمَى للفضاء الحضاري الَّذِي تعالجه مُقَارَبَات البحث فِي مسارها التّاريخيّ الدّينِيّ؛ إِذْ وجدت أجواء البلاد الْعَرَبِيّة نسمات الْحُرِّيَّة المفعمة فِي سيكيولوجية الْعَرَبِيّ، الَّذِي يعبر عَنْ إرادته بطلاقة، ويشبع حاجاته الشَّخْصِيَّة، ولاسِيَّمَا الحاجة إِلَى الدّين؛ لِذَا يُلْحَظ أنَّ التَّنَوُّع فِي الملل والنّحل والعبادات كانَ من سمات الأقوام الجزريَّة. وِمِنْ هُنَا حققت الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة انموذجَها فِي التّعبير الدّينِيّ عَنْ شخصيَّتها المنسجمة مَعَ طبيعة الحياة فِي البلاد الْعَرَبِيّة، بعيدا عَنْ مَسِيحِيَّة روما وقُسْطَنْطِينِيَّة.

عرفت بلاد الْعَرَب خواطف العلاقة مَعَ عِدَّةِ أنماط من النَّصْرَانِيَّة، تطبّعت فِيهَا بطبيعة البادية، حَتَّى عُرِفَ دُعَاتُهَا بِاسْمِ: أَسَاقِفَةِ الخِيَامِ، وأَسَاقِفَةِ المَضَارِبِ؛ لمرافقتِهم الأعرابَ، وعيشِهِمْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِم، ومن ثم يقيمون الرتب الدينية تحت الخيام. وَقَدْ اشْتَرَكَ بعضُهم بالمَجَامِعِ الْكَنَسِيّةِ، ووَقَّعُوا عَلَى أعمالِها بألقاب: «أُسْقُف أهلِ الوبرِ» و«أُسْقُف القَبَائِلِ الشَّرْقِيَّةِ المتحالفةِ» و«أُسْقُف عَرَبِ البَادِيَةِ». وذكر المُؤَرِّخ اليُونانِيّ «سوزومنوس Sozomenos «مِنْذُ القَرْن الرّابع»: أنَّ فِي بعضِ قُرَى الْعَرَب ودَسَاكِرِهِمْ أَسَاقِفَة»[2]. كَمَا عُرِفَتْ فِي هَذِهِ الأثْنَاءِ مَسِيحِيَّةٌ مَدَنِيَّةٌ، بمَكَّة،

---

(1) - O'leary، Delacy D.D.، Arabia Lefore Muhammad، London، 1927؛ ناصر الدين الأسد، مصادر الشّعر الجاهلي، (دار المعارف، القاهرة، 1988)، ص 12.

(2) - جورج قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة، (المُؤَسَّسَة الْعَرَبِيّة للدراسات والنّشر، بيروت، لا.

والطّائف، ونَجْرَان، ويَثْرِبَ، والحِيرَةِ، كَانَتْ تَنْحُو نَحْوَ الخلْوَةِ والنّسكِ والتَّبَتُّلِ.

إنَّ انتشار الْمَسِيحِيَّة فِي المحيط الْعَرَبِيّ عَلَى المذاهب ذات الطّبيعة الواحدة، نحو اليَعَاقِبَة Jakobiten، أَوْ ذات الطّبيعتين كالنَّسَاطِرَة، جعلها تتسق مَعَ الفضاء الْعَرَبِيّ إلَى حد عرفت فِيهِ أنها الممثلة الأصليَّة للمَسِيحِيَّة، ولاسِيَّمَا فِي نظر الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ من نتاج هَذِهِ البيئة، وأضحت اللُّغَة الْعَرَبِيّة عِنْدَ النَّسَاطِرَة واليَعَاقِبَة اللُّغَة الثّقافيّة إلَى جانب السّرْيانِيّة، تسهم فِي توسيع دائرة الانسجام الثّقافِيّ فِي المحيط الْعَرَبِيّ، فتمخض عَنْهَا أدب مسيحي عَرَبِيّ[1]، ويبدو هَذَا المنظار فِي المحيط الْعَرَبِيّ قبيل الإِسْلَام وبعده أكثر تَجَلِّيا، بحَسَبِ سعة التّأثر والتّأثير الْمَسِيحِيّ الْعَرَبِيّ، ينسجم مَعَ النّص القرآني: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} (النّساء171)[2].

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ صعوبة تحديد زمن دخول النَّصْرَانِيَّة إلَى جَزِيْرَة الْعَرَب، تحاول المصنفات الْكَنَسِيّة[3] حصرها فِي أواخر القَرْن الأَوّل وأوائل القَرْن الثّاني المِيلادِيّين، وأنَّ بعضها[4] ذكر أن لَيْسَ ثَمَّةَ براهينُ قاطعةٌ تؤكِّد، أَوْ تنفي دخول الْمَسِيحِيَّة إلَى مَا بَيْنَ النّهرين، مِنْذُ عهد الرّسل أَوْ تلاميذهم فِي القَرْن الأَوّل. فِي حِينَ يَرَى غيرهم[5]: مُنْتَصَف القَرْنِ الثّالثَ ظهرتْ جماعاتٌ مَسِيحِيَّة فِي العِرَاق. ولعلَّه يعودُ الى تهجيرِ بضْعِ مئاتِ الألوفِ الذينَ كانَ مُعْظمُهم من المَسِيحِيِّينَ، من سكانِ سوريا وقيليقيا

ت). ص58.

(1) – انظر: لويس غرديه، ج.قنواتي: فلسفة الفكر الديني بَيْنَ الاسلام والمسيحية، 2/ 28 – 30.

(2) – انظر: التوبة31؛ المائدة17، 73، 116.

(3) – لويس شيخو، النّصرانية وآدابها (بيروت،1912)؛ الأب سهيل قاشا: أحوال النّصارى فِي خلافة بني أمية (بيروت، 2005)، وقارن: حسين العودات: العرب النّصارى (الأهالي، دمشق1992) ص31 وبعدها.

(4) – ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة الشّرقية، (ط2، بغداد، 1985) 1/ 4.

(5) – (J)،Labourt، Le christianisme dans mpire perse sous (224 – 236) نقلا عَنْ سلوى بلحاج: المسيحيّة العَرَبِيّة وتطورها، (بيروت، 1998)، ص50.

وقبدوقيا[1]، ذواتِ السِّمَة الرومانيَّة، على يَدِ شابور الأول (241 - 272م)، وقدْ تمَّ توطينُهم في العِرَاق وفارس وفرتيا[2]. ثم أنَّ غيرهم[3] يذهب إلَى أنَّ الْمَسِيحِيَّة لَمْ تَدْخُلْ بِلادَ الْعَرَبِ قَبْلَ القَرْن الرّابع.

يبقى الأمر مستغرباً؛ كَيْفَ للمَسِيحِيَّة أنْ تهمل فضاءَها الحضاريَّ وإطارَ عقليَّتها العَقَدِيَّة، وتترك مدارَ قطبها القريب، حَتَّى يتأخّر ولوجها إلَى القَرْن الرّابع؟[4]، فِي حِين أنَّها حطَّت فِي مداراتِ أبْعَدَ، وَهِيَ متشبثة بمراكز السّلطة الرّومانية، وَكَانَتْ قَدْ أُضطهدتْ الْمَسِيحِيَّةُ فِي عقر دارها الشّامي مرارا، فمن باب أولى أنْ تَغُذَّ الاندفاعَ، وتنفُذَ إلَى الدّائرة الأقرب، محيطها الْعَرَبِيّ، وَهُوَ الأمر الطّبيعي الَّذِي حدث مَعَ الدِّيَانَة السّالفة -اليَهُودِيَّة، ومع الدِّيَانَة اللاحقة -الإِسْلَام، فِي مراحل حَرَاكها وانتشارها.

ثَمَّةَ سُبُلٌ لاعْتِنَاقِ الْعَرَبِ النَّصْرَانِيَّة، مُتَمَثِّلَةً فِي اتصالهم بالتّجار النَّصَارَى وبمجالسّتهم لَهُمْ[5]، واتصال التّجار الْعَرَب بالرّهبان واستضافتهم فِي الدّيارات، وتجارة الرّقيق. وبفضل مَا كَانَ لكثير من المُبَشِّرِينَ من علم، ومن وقوف عَلَى الطّب، والمنطق، ووسائل الإقناع، وكيفية التّاثير فِي النّفوس، تمكنوا من اكتساب بعض سادات القَبَائِل، فأدخلوهم فِي دينهم، أَوْ حصلوا مِنْهُمْ عَلَى مساعدتهم وحمايتهم[6].

لا شك في أنَّ الْمَسِيحِيَّة سرعان مَا تغلغلت فِي بلاد الْعَرَب، فذكر الجاحظ أَنَّهُ«

---

(1) - قيليقيا: من ثغور الشام، كان اسمًا ذائع التداول للمنطقة الساحلية الجنوبية من شبه جزيرة الأناضول، تُعرَف الآن باسم چوكورُڤا Çukurova. موسوعة المعرفة (قليقيا) .http: / /www.marefa.org /index.php

(2) - يُزِف فيزهوفر: فارس القديمة (550 ق. م - 650م) (، دمشق، 2009) ص238.

(3) - سلوى بلحاج: المسيحيّة العَرَبيّة وتطورها، ص86.

(4) - عز الدين عناية: «المسيحيّة العَرَبيّة: تشظّي الهويّة ومستخلصات الوعي التاريخيّ»، مجلة التّسامُح العمانية.

(5) - الطبري: جامع البيان فِي تأويل القُرْآن، (مُؤَسَّسَة الرّسالة، 2000 م)، 3/ 15.

(6) - علي، جواد: م. س. 6/ 591.

كَانَـتْ النَّصْرَانِيَّـة غلبت عَلَى ملـوك الْعَرَب وقَبَائِلها، ووجدت سـبيلها بَيْـنَ تَغْلِب، وشـيبان، وعبد القيس، وقضاعة، وسليح، والعباد، وتنوخ، ولخم، وعاملة، وجذام، وكثيـر بن بلحارث بن كعب»[1]. ونقل اليَعْقُوبِيّ[2] اخبار من تنصر من أحياء الْعَرَب: قوم من قُرَيْش من بني أسد بن عَبْد العُزَّى، مِنْهُمْ عثمان بن الحويرث بن أسد بن عَبْد العُـزَّى، ووَرَقَة بنِ نَوْفَل بن أسـد، ومن بني تميم بنو امـرئ القيس بن زيد مناة، ومن ربيعـة بنو تَغْلِب، ومن اليمن طيء ومذحج وبهراء وسـليح وتنوخ وغَسَّـان ولخم».

ومن أهم المدن الَّتِي كثرت فِيهَا الْمَسِيحِيَّة: اليمن، ونَجْرَان، ومَكّة، ودومة الجندل، وتَيْمَاء، وتبوك، واليمامة، ونجد، والعِرَاق؛ غَيْرَ أنَّها كَانَتْ تقِلُّ فِي يَثْرِب.

أشـار الجاحظُ إلَى تفشِّـي النَّصْرَانِيَّة بَيْـنَ القَبَائِل بقُوَّة، وأنَّ لهـا الحظَّ الأوفرَ فِي انتشـارها بَيْنَ الْعـرَب، حَتَّى غلبت عَلَيْهِمْ وعُرفـوا بِهَا: «أن الْعَرَب كَانَـتْ النَّصْرَانِيَّة فيها فاشية، وعليها غالبة، إلا مضر، فَلَمْ تَغْلِبْ عَلَيْهَا يَهُودِيَّة ولا مَجُوسِيَّة، وَلَـمْ تَفْشَ فِيهَا النَّصْرَانِيَّة، إلَّا مَا كَانَ من قوم مِنْهُمْ نزلوا الحِيرَة، يُسَـمَّوْنَ: العُبَّادُ[3]، فإنَّهم كَانُوا نَصَـارَى، وَهُـمْ مغمورونَ مَعَ نَبْذٍ يَسِـيرٍ فِي بعـضِ القَبَائِلِ. وَلَمْ تعـرفْ مُضَرٌ إلَّا دِينَ الْعَرَب، ثُمَّ الإِسْلَام»[4].

كَـانَ الْمَسِـيحِيّون فِي مَكّـة ينتمون إلَى أصـولٍ عديدةٍ: أحباشٍ، وأقْبـاطٍ، وتجارٍ مـن نَجْرَان، ورعايا من الحِيرَة، والغساسـنةِ، وأنْبَاطٍ من سـوريا، مَـعَ بعضِ الرّهبان ومرسَـلينَ، بالأضافة إلَى نَفَرٍ من عُلْيَةِ القومِ الَّذِينَ اعتنقوا الْمَسِـيحِيَّة، أمثال: عثمان بن الحويرث بن أسـد، ووَرَقَة بنِ نَوْفَل بن أسَـد بن عَبْد العُزَّى. وكانت «سـودة بنت

---

(1) - الجاحظ: «الرّد عَلىَ النّصارى»، ضِمْنَ رسائل الجاحظ، 3/ 313، الحيوان، (بيروت، 1424هـ) 7/ 129.

(2) - أحمد بن أبي واضح: تاريخ اليعقوبي (دار صادر، بيروت) 1/ 257.

(3) - العِبَاد: قوم من أفناء الْعَرَب، نزلوا بالحِيرة وَكَانُوا نَصَارَى، مِنْهُم عَدِيّ بن زيد العِبَادِيّ. وَقد سَمَّت الْعَرَب عَبَّاداً وعُبَادة وعُبَاداً وعَبِيداً وعَبِيدة وعَبَدَة ومَعْبَداً وعُبَيْداً وعابداً وعَبْدان وعُبَيْدان. الأزهري: تهذيب اللغة 2/ 142.

(4) - الجاحظ: «الرد على النصارى» الرّسائل، 3/ 313.

زهـرة» كاهنة نصرانيَّة، وهي عمَّة «وهـب بن عبد مناف»، والد «آمنة بنت وهب»، أم محمـد الرسـول. إذ كانت كاهنة قريش، فقالت يوما لبني زهـرة: فيكم نذيرة، أو تلد نذيرا، فاختارت آمنة بنت وهب زوجة لـ«عبد الله بن عبد المطلب»[1].

وعَلَـى الرَّغْمِ مِـنْ وجود النَّصْرَانِيَّة فِي الحجاز، موطـن النبيّ محمَّد الحميم، إِلَّا أَنَّهـا لَـمْ تتمَكَّنْ من تثبيـتِ قدمِها هُنَاكَ، مَـعَ أنَّ المصادرَ العربيَّة تَزْعُـمُ أنَّ الحواري «بارثونموس Barthoinomus»[2] قام بالحج إِلَى مكّة، ويبدو - بحَسَـبِ بوسِـه - أَنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ عَلَى الإطْلَاقِ عَمَلٌ تَنْصِيرِيٌّ مُنَظَّم[3].

كَمَا وُجِد النَّصَارَى فِي يَثْرِب بمقدار أقل مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ فِي مَكّة، وأغلبهم جاء عَنْ طريق التّجارة والعمالة والموالاة. وَفِي تقويم قديم للكَنِيسَـة النَّسْطُورِيّة، أنها اقامت مطرانـا فِـي يَثْـرِب، إِذْ كَانَ لَهُمْ ثـلاث كَنَائِس عَلَى اسـم: إِبْرَاهِيم الخليل، وموسـى الكليم، وأيوب الصّديق[4].

وَلَـمْ يَعْبَأْ المبشـرونَ بالمصاعبِ والمشـقَّاتِ الَّتِي كَانُوا يتعرضـون لها، فدخلوا مواضـعَ نائِيَـة فِـي جَزِيْـرَة الْعَرَب، ومنهم مـن رافقوا الأعرابَ، وعاشـوا عيشـتَهم، وجارُوهم فِي طرازِ حياتِهم، فسـكنوا مَعَهُمْ الخيامَ، حَتَّى عُرِفُوا بـ «أسَـاقِفَة الخِيام» وبـ «أسَاقِفَة أهل الوَبَر»، وبـ «أسَاقِفَة القَبَائِل الشَّرْقِيَّة المتحالفة» وبـ «أسَاقِفَة الْعَرَب البادية». وَقَدْ ذُكِرَ أنَّ مطرانَ «بصرى» كَانَ يُشْـرِف عَلَى نحْوِ عشـرين أُسْقُفاً، انتشروا بَيْنَ عرب حوران وعرب غَسَّان، وَقَدْ نُعِتُوا بالنّعوت المذكورة، لأَنَّهُمْ كَانُوا يعيشون فِي البادية مَعَ القَبَائِل عيشة أهل الوبر[5].

ويـرى ديورانت: إنَّ الإمْبَرَاطُوريتين البِيْزَنْطيَّة والفارسـيَّة قَدْ أنهكتهما الحروب،

(1) - الحلبي: السيرة الحلبية 1/ 68.

(2) - اسمه«زُرَيْبُ بْنُ بَرثْمَلَا» وَصِّي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ. أَبُو نعيم: دلائل النبوة، (الرّياض، لا. ت) 1/ 102.

(3) - هيربرت بوسه: أسس الحوار في القرآن، (القاهرة 2005) ص43.

(4) - قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة، ص59.

(5) - النّصرانية وآدابها، 1/ 37.

فَكَـانَ ضعفهمـا مغريا للعرب عَلَى غزو بلادهما، ولقـد كَانَتْ الضَّرائب فِي ولايات الدّولتيـن تزداد زيادة مضطردة،... وَقَدْ كَانَ فِي الشّـام والعِـرَاق قَبَائِل عَرَبِيّة لَمْ تَجِدْ صُعُوبَـةً فِـي قَبُولِهـا حُكْمَ الْعَرَبِ الغـزاة أَوَّلًا، ثُمَّ اعتنـاق دينهم بَعْدَئِـذٍ، يضافُ إِلَى هَـذَا عوامـل دِينِيَّة، مِنْهَـا: أَنَّ اضطهادَ بيزَنْطَةَ لليَعَاقِبَة والنَّسَـاطِرَة وغيرها من الشّـيَع الْمَسِيحِيَّة، قَدْ أَحْفَظَ عَلَيْهَا قلوبَ أقلِّيَّةٍ كبيرةٍ من السّوريِّين والمِصْرِيِّين[1].

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ النَّصْرَانِيَّة أخذتْ تَسْـرِي فِي جَسَـدِ الوَثَنِيَّة، الدِّيَانَة الشّائعة، إِلَّا أَنَّ الإقبال عَلَيْهَا ظلَّ بطيئا فِي القَرْن الرّابع، وإذا مَا عُدَّتْ مشـاركةُ أَسَـاقِفَةِ المدُنِ فِي المجامع المسـكونية معيارا لحجم الانتشار الْمَسِيحِيّ، فَلَمْ يَؤُمْ المجمعَ المسكوني الثّانـي فِي القُسْـطَنْطِينِيَّة سـنة 381م، سِـوَى خمْسَـةٍ مـن الأَسَـاقِفَةِ، أَسَـاقِفَة بُصْرَى ودَرْعَة والسّـويدا وبراق وشيخ مسكين أَوْ خان النّيلة، ثُمَّ يرتفع عددُهم فِي المجمع المسكوني الرّابع سنة 451م فِي خلقيدونيَّة إِلَى سبعة عشر أُسْقُفا عَنْ الشّام الْعَرَبِيّة[2].

1. الْمَسِيحِيَّة فِي الشّام ونشأة الكنيسة اليعقوبية:

تدالـتْ على الشـام الأمـمُ المختلفةُ مـن فينيقيِّيـن وأموريِّين وكنعانيِّيـن، وغزاه آشـوريّون وبابليّون، وفراعنةُ مصر، واليونانُ، وأخيرا الرومانُ، فكان إقليما رومانيا، يتثقف بثقافتهم، ويتدين بالنصرانية دينُهم[3].

وترعرعتْ في بلادُ الشّـام اليهوديةُ بعد موسـى، ومن ثم أضحت منبعَ النَّصْرَانِيَّة، وموطـنَ الْمَسِـيح وموطـئَ أقدامِـه، والْعَرَبِيّة - فِـي الْعُرْف الْكَنَسِـيّ - هِـيَ الولاية الرّومانيـة الْعَرَبِيّة، الَّتِي أُنْشِـأَتْ فِي مطلع القَرْن الثّانِي للميـلاد، حولَ مدينةِ بُصْرَى، فشـملتْ كلَّ مَا وقعَ بَيْنَ وادِي الحَسَـا فِي الجنوبِ واللجا فِي الشّـمال، وَبَيْنَ البحر

(1) - ول ديورانت (1885 - 1981): قصة الحضارة، م. س. 13/ 72

(2) - أساقفة: درعا، وعينه، وقنوات، وبراق اللجا، والسّويدا، وصنمين، وحسبان، وافتيمية، وجرش، ومادبا، والشّقا، وشيخ مسكين أَوْ خان النّيلة،، ونوى، وعمّان، والشّهبا، وأذرع. أسد رستم: كَنِيسَة مدينة الله أَنطَاكِيَة العظمى، 1/ 391.

(3) - أحمد أمين: فجر الإسلام، (بيروت 1969م) ص89.

الأحمر والأردن من الغرب حَتَّى أطراف البادية فِي الشّرق[1].

واجه الإمبراطور جستنيان (527 – 565م) صعوبة بالغة في تحقيق طموحه بتوحيد مذهبـي الإمبراطورية؛ لتتحقق له سـلطة الإمبراطورية والبابوية معـاً. فأخذ يتخبط، فتارة ضرب علـى يد البابا "فجليوس" الذي رفض آراءه، ليعقد مجمع القسـطنطينية الثاني (553م) الَّذِي حاول أنْ يفرضَ إرادتَه علَى الأُسـقُفيات الغربية بتقرير مذهب الطبيعـة الواحـدة، وَتَـارَةً أُخْرَى اتبع سياسـة قمع المونوفيزيـن "monophysites" وسـحقهم ونفـي قادتهـم ومنهـم، عَلَـى سـبيل المثـال، "ثيودوسيوس" بِطْرِيـك الإسكندريَّة الَّذِي سُجن مَعَ ثلاثمائة من رجال الدّين، إِلَّا أَنَّ جهود يعقوب البرادعي المتواصلة ومجازفاته المسـتمرّة كَانَتْ مثمرة فِي سبيل الكَنِيسَة، فِي اعلان استقلال المنوفيزيـن فِـي كَنِيسَـتي أَنْطَاكِيَـةَ والإسـكندريَّة. أمَّـا الموعد الحاسـم فِـي إحياء الأرْثُوذَكْسِـيَّة السّـرْيانِيّة فَكَـانَ فِي العام 542، حِيـنَ لجأ البِطْرِيـرك القبطِيّ، بمبادرة مـن الإمْبرَاطُورة "تيـودورا"، ويطلب مِنْ قِبَلْ الملك الْعَرَبِـيّ الحارث بن جبلة، إلَى رَسَـامة مطرانيْنِ عَلَى مناطق آسيا: يعقوب البرادعي الَّذِي أصبح مطراناً عَلَى الرّها، و"ثيودور" الَّذِي أصبح مطراناً عَلَى بصرى[2].

ومـن نتائـج هـذا الصّـراع اسـتقلالُ أصحـاب مذهـب الطبيعـة الواحـدة، إقامُة كنيسـة منفصلة لهم، تعرف بالكنيسـة اليَعْقُوبيّة، برئاسة مؤسسـها يعقوب البرادعي (ت578م)، ويعتقـد أتباع المذهب اليعقوبيّ، الَّذِي أخذت بِهِ الكَنَائِس الشَّـرْقِيَّة، أن طبيعة الْمَسِيح واحدة مِنْذُ ولادته، فللسيد الْمَسِيح – فِي نظرهم – اقنوم إلهيٌّ واحد، اتحد بالطّبيعة الإنْسَانِيَّة اتحادا تاما بلا اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة[3].

يبدو أنّ نشـوء مملكة الغساسنة فِي الشّـام كدولة حزام أمني لإمْبرَاطُوريَّة الرّوم، ومنـح الحارث بن جبلـة (529 – 569م) لقب «بِطْرِيق» «patricius»، واعتناق أمراء

---

(1) – رستم، أسد: كنيسة مدينة الله، 1/ 390.

(2) – عزيز سوريال عطية: تاريخ الكنيسة الشرّقية، (القاهرة، 2005) ص 222.

(3) – علي، جواد: م. س. 6/ 98.

الغساسـنة المذهب اليَعْقُوبِيّ وتعصبهم لَهُ، ساعد عَلَى تثبيت المذهب وشيوعه بَيْنَ عرب بلاد الشّـام[1]. ويقال إنّ الحارث سـعى لَدَى الإمْبَرَاطُورة «ثيودورة» فِي تعيين «يعقـوب البرادعي» ورفيقـه «ثيودورس»، أُسْـقُفين للمقاطعـات السّـورية الْعَرَبِيّة. فنجح فِي مسعاه هَذَا فِي سنة «542 - 543م»، وبذلك وطد هَذَا المذهب فِي بلاده[2].

نسـب المُؤَرِّخ السّرْيانِيّ «مِيخَائِيلُ الكبير» إِلَى الحارث بن جبلة محاورة، جرت بَيْنَـهُ وَبَيْـنَ البِطْرِيـك «إفـرام» (526 - 545م) فِـي السّـرْيانِيّة أَوْ اليُونانِيّـة فِـي طبيعة الْمَسِيح، وَفِي مذهبه القائل بوجود طبيعة واحدة فِيهِ[3]. وَكَانَ إفرام، وَهُوَ عَلَى مذهب «الملكيين»، قَدْ قصده لإقناعه بترك المذهب «اليَعْقُوبِيّ» والدّخول فِي مذهبه، وزُعِم أن «الحارث «تغلّب فِي المناظرة عَلَى «البِطْرِيرك» وأفحمه فِي الجواب[4].

بعد تفكّك مملكة الغساسنة، قام الملكانيون بمحاولات لإدخال الْعَرَب اليعقابة فِـي عقيدتهـم. وَكَـانَ غريغوريـوس الأول (ت593م)، بِطْرِيـك أَنْطَاكِيَـةَ الملكاني، عنصرا نشيطا فِي هَذَا المجال. ويؤكّد التّاريخ الْكَنَسِيّ أَنَّهُ قام بحملة تنصير كبيرة فِي قلب صحراء الشّام ونجح فِي إدخال قَبَائِل عَرَبِيّة يَعْقُوبِيّة فِي الْمَسِيحِيَّة الملكانية[5].

مِهْمَا يَكُنْ إنَّ «آل جفنة» الغساسنة كلهم كَانُوا عَلَى النَّصْرَانِيَّة عِنْدَ ظهور الإِسْلَام، وَكَانُوا أصحـاب دين وعقيدة، يدافعون عَنْ مذهبهم. وَكَانَتْ لَهُمْ بيع وكَنَائِس بنوها لَهُـمْ ولرعيتهم[6]، وَكَانَ فِي «بيعة غَسَّـان» شماسًـا عرف بـ «أرطبـان المرني»[7]، أَمَّا

---

(1) - علي: م.ن. 12/ 168.
(2) - علي: م. ن. 6/ 99.
(3) - اسحق أرملة: «الملكيون: بطريكيتهم الانطاكية، ولغتهم الوطنية والطقسية»، مجلة المشرق، المجلد 34 «»ص61.
(4) - علي: م. س. 12/ 168.
(5) - بلحاج: م. س. ص40؛ عز الدين عناية: «المسيحيّة العَرَبِيّة: تشظّي الهويّة ومستخلصات الوعي التاريخيّ»، مجلة التّسَامُح العمانية، العدد العاشر.
(6) - علي، جواد: م. س. 6/ 129.
(7) - ابن حجر (852هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، (بيروت 1415هـ) 1/ 102.

المنافزة فظلوا يؤلفون أغلبية الشّعب فِي سُورِيَةَ،[1] واليَعْقُوبِيَّةَ هِيَ الَّتِي شاعَتْ بَيْنَ عرب بلاد الشّام، وَلَوْلَا أمراء غَسَّان، ولاسِيَّمَا الحارث، لحبطَ مسعاها[2].

امتدَّ اليعاقبَةُ شرقًا إلَى شمال بلاد النهرين، فكانت تكريت مركز كنيستهم، حَيْثُ أقام الكاهن الأعلى، المختص باليعاقبة الخاضعين للحكم الفارسي[3]. ولذا كَانَ المجال الْعَرَبِيّ اليَعْقُوبِيّ واسِعا، ولعلّه أوسع من المجال النَّسْطُورِيّ، إِلَّا أَنَّ الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة النَّسْطُورِيَّةَ عمّرتْ أكثر، وَكَانَ للنَسَاطِرَة الْعَرَب دورٌ أهمُّ من اليَعَاقِبَة داخل كَنِيسَتهم. وتتيح المصادر السّرْيانِيّة لَنَا معرفة الأبرشيّات[4] الْعَرَبِيّة التّابعة للكَنِيسَة اليَعْقُوبِيَّة وأسماء العديد من أساقفتها، نحو:

1 - أَبْرَشِيَّة التّغالبة. كَانَ لَهُمْ أَسَاقِفَةٌ حَتَّى القَرْن الرّابع الهِجْرِيّ. وَكَانُوا يقيمون لَمَّا جاء الإِسْلَام فِي المثلث القائم بَيْنَ الحِيرَة ومَنْبِجَ وجَزِيْرَة ابن عمر. وَفِي سنة (70هـ/ 689م) إنْحَصَرَتْ إقامتُهم بَيْنَ الخابور ودجلة والفرات.

2 - أَبْرَشِيَّة نَجْرَان الكوفة. جاء إِلَيْهَا النّازحون من نَجْرَان عام(20هـ/ 641م)، التّحق قسم مِنْهُمْ بالكَنِيسَة النَّسْطُورِيَّة، وبقي لَهُمْ أَبْرَشِيَّة تابعة لليَعَاقِبَة، ودمجت فترة مَعَ أَبْرَشِيَّة التّغالبة.

3 - أَبْرَشِيَّة الْعَرَب أَوْ القَبَائِل. لا يعرف موقعها؛ لأنها تطبّعت بطبيعة البادية، حَتَّى عُرِف دعاتها باسم «أَسَاقِفَة الخيام» و«أَسَاقِفَة المضارب»، لمرافقتهم الأعراب وعيشهم بَيْنَ ظهرانيهم. من أشهر أساقِفَتِها جرجس أُسْقُف الْعَرَب (ت107هـ/ 725م)، وَهُوَ تلميذ البِطْرِيك اثناسيوس الثّاني، الَّذِي سقّفَهُ عَلَى نَصَارَى الْعَرَب سنة 68هـ/ 688م، وَكَانَ كرسيه فِي عاقولاء (الكوفة)، وَهُوَ

(1) - عطية: تاريخ الكنيسة الشرّقية، ص 234.

(2) - هنري لامنس اليسوعي، الأب: «أقدم أثر لبني غَسَّان - أوْ أخْرِبَة المُشتّى»، مجلة المشرق. السّنة الأولى، الجزء 11، حزيران 1898، «ص486».

(3) - هيربرت بوسة: أسس الحوار في القرآن، ص43.

(4) - جمع أَبْرَشِيَّة Parish، وهي: رَعِيَّة، او مِنْطقة من البلاد تخضع لسلطة أسْقُف. المعجم الوسيط (أبرشية).

فيلسوف عالم لَهُ تصانيف[1]. عَلَى أَنَّهُ بَعْدَ مطلع القَرْن العاشر تصمت المصادر عَنْ ذكر أَبْرَشِيَّة الْعَرَب[2].

امتدت المسيحيَّة الى شرق أسيا الصغرى وبحر قزوين، حيث الأرمن الذي انتشرت بينهم المنوفزتية. وقال عنهم المسعودي[3]: أنَّ الأرمن يعاقبة. تحدث المؤرخ الأرمني «سبيوس» بإسهاب عن الشقاق المذهبي الضاري بين الإمبراطورية البيزنطية والأرمن، بخاصة فيما يتعلق بمحاولة الإمبراطور البيزنطي فرض مقررات مجمع خلقيدونية سنة 451م عليهم بالقوَّة، وتمسك الأرمن بالمذهب المنوفيزي[4]. ولعل هذه النظرة تجاه بيزنطة هي التي جعلت الأرمن يقبلون -على كراهة - رعويَّة الدَّوْلَة العَرَبِيَّة.

نشأة النَّسْطُورِيَّة

الدِّيَانَة الْمَسِيحِيَّة مثل باقي الدِّيَانَات، تعَدّدت فِيهَا المذاهب والطّوائف قديمًا، وَكَانَ منشأ الخلاف والتَعَدّد هُوَ تحديد طبيعة الْمَسِيح، وَكَانَ نسطوريوس Nestorius قَدْ نُصِّبَ فِي 428م بطْرِيكا عَلَى القُسْطَنْطِينِيَّة، وَفِي مجمع إيفيسوس[5] (431م)، أعلن البِطْرِيَرك نسطوريوس (380 - 451م): أن فِي الْمَسِيح طبيعتين أَوْ أقنومين: احدهما إلهيٌّ والآخر إنْسَانِيٌّ، فِي غيرِ اختلاطٍ أَوْ تمازجٍ، فالْمَسِيح عِنْدَما وُلِدَ كَانَ إنسانًا مَحْضًا، ثُمَّ سَكَنَتْ فِيهِ الإلوهيةُ، ولازمتْهُ إِلَى حِينِ صَلْبِهِ، حِينَئِذٍ فارَقَتْهُ فَلَمْ يَكُنْ عَلَى الصَّلِيب سِوَى إنسانٍ متألّمٍ، ولذلك كَانَ أَتْبَاعُ هَذَا المذهبِ يُسَمُّونَ العذراءَ مَرْيَمَ «والدَةَ الْمَسِيحِ» ولَيْسَ «والدَة الله». بخلافِ مَا كَانَ معتمَدًا عِنْدَ

---

(1) - اسحق رملة: «في البطريكية الانطاكية»، مجلة المشرق (عدد21) [سنة1923] ص503.

(2) - الأرشمندريت اغناطيوس ديك: «القبائل العَرَبِيَّة المسيحيَّة فِي بلاد الشَّام فِي عهد صدر الإسلام»، بحث فِي النَّدوة الدَّوْلِيَّة «بلاد الشَّام فِي عصر الرَّسول والخلفاء الرَّاشدين» كلية الآداب، جامعة حلب، 2 - 4/ 5/ 2006. موقع كنيسة القديسة تيريزيا بحلب.

(3) - مروج الذهب، (دار الهجرة، قم، ايران، 1984) 1/ 259.

(4) - فائز اسكندر: «المسلمون والبيزنطيون والأرمن في كتابات سبيوس»، ص45.

(5) - إيفيسس: مدينة يونانية قديمة تقع عَلَىَ بعد حوالى 56كم جنوب أزمير التركية. منتدى العلم والثقافة والمعلومات العامة. http: / /forum.arabia4serv.com /t62438.html

الْمَسِـيحِيِّينَ مِنْ أَنَّ الْمَسِيحَ شـخصٌ واحدٌ بطبيعتينِ، هُمَا: الإلهِيَّةُ والبَشَرِيَّةُ. وهَاتَانِ الطَّبيعتـانِ مُسْـتَقِلَّتَانِ غَيْـرُ منفصلتينِ[1]. غَيْرَ أنَّ قـرارًا صدَرَ عَنْ مَجْمَعِ «ايفسـوس» بطـرْدِ نسـطوريوس وحرمانِه، كَمَـا أنَّ أتباعَه رَفَضُـوا القرارَ، وانْفَصَلوا عَنْ الكَنِيسَـةِ الأرثوذوكسيَّةِ، وعُرِفُوا بالنَّسَاطِرَة[2].

أُدين نسـطوريوس وأتباعه فِي مجمع خلقيدونيـة 451م، واعتبروا خارجين عَلَى تعاليم الكَنِيسَة، لَكِنَّ الدّولةَ الفارسيَّةَ وَجَدَتْ فِي أتباعِ نسطوريوس خَيْرَ أداةٍ لمحاربةِ الدّولةِ الرّوميَّةِ البِيْزَنْطيَّةِ، فأعْلَنَ الإمْبَرَاطُورُ الفارسيُّ النَّسْطُورِيَّةَ ديناً لجميعِ مسيحيِّي بلادِ فَارِسَ[3]. وقطع المسيحيون الساسانيون بقبولهم الملزم للعقيدة النسطوريَّة في المؤتمر الكنائسـي الذي انْعَقَدَ في «بيت لاباث» في نيسـان عـام 484م[4]. وانتخبَ الأَسَـاقِفَةُ النَّسَـاطِرَةُ «بابوي» (457 – 484م)، وأقامُوه جاثليقًـا فِي المدائن[5]، ومنذ ذَلِكَ الحِين سُـمِّيَتْ الكَنِيسَـةُ النَّسْطُورِيَّةَ بكَنِيسَـةِ الشَّرْقِ، وتَسَـمَّى بِطْرِيكها بِطْرِيكا للكَنِيسَة الشَّرْقِيَّة، وانتشرتْ وتوسعتْ فِي بلادِ فَارِسَ وعُمَان والعِرَاق والهند وَحَتَّى الصِّيـن، وازْدَهَـرَ مَذْهَبُهَـا، فَهِيَ الفِرْقَـةُ الْمَسِـيحِيَّةُ الوَحِيدَةُ، الَّتِي كَانَ مسـموحا لها التَّبشيرُ بأفكارِها فِي هَذِهِ المنطقة[6].

كان مجمع خلقيدونية فاتحة الإنشـقاق العميق، بين الكنيسـة الرسميَّة والكنيسة السـريانية، وكان منطلقًا حافلًا بالإضطهادات من جانب الدولة البيزنطية وكنيستها. وبحسـب إدمون رباط[7]: قدَّم المؤرخون – على اختلافهم من شـرقيين وغربيين – وصفًا للأشـكال الفظيعة، التـي اتخذتها من تقتيل وتشـريد وتعذيب لمخالفيهم في

(1) – عزيز سوريال: تاريخ الكنيسة الشرّقية، ص 303

(2) – قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة، م. س. ص78.

(3) – مراد كامل، مُحَمَّد حمدي البكري، زكية مُحَمَّد رشدي: تاريخ الأدب السّرياني (دار الثّقافة والنّشر، القاهرة، 1987) ص 128.

(4) – يُزف فيزهوفر: فارس القديمة، م.س. ص241.

(5) – أبونا: الكنيسة السّريانية الشرّقية، م. س. ص102.

(6) – الموسوعة الموجزة فِي التاريخ الإسلاميّ، نقلا عن: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، 15/ 7.

(7) – المسيحيون في الشرّق قبل الإسلام، المسيحيون العرب، ص20.

المشرق.

أمَرَ الإمْبرَاطُورُ زينون Zeno (474 - 491م)، بإغلاقِ مدرسةِ الرّها، وطرد النَّساطِرَة إلَى خارج مملكة روما، وصادقَ المجمع المسكوني الخامس فِي القُسْطَنْطِينيَّة (553م) عَلَى اقصاء النَّساطِرَة من ربقة الْمَسِيحِيَّة، حِينَئِذٍ تعرض أنصار التّعاليم النَّسْطُورِيّةَ[1] فِي مدرسة الرّها لأشكال مُخْتَلفة من الاضطهاد بسبب الخلاف المَذْهَبِيّ، فهاجر إلَى نصيبين معلمو مدرسة الرّها[2]، وَقَدْ وجد هَؤلاَءِ المهاجرون فِي مدينة نصيبين ملجأ ومستقراً لَهُمْ، تَحْتَ حماية الدّولة الفارسيَّة[3]، واصطبغ جنوب بلاد النهرين بالنَّصْرَانِيَّة النَّسْطُورِيّة، وَكَانَ مقرها الرئيس (Seleukia Ktesiphon) المدائن عاصمة الساسانيّين[4]، حينها اتيحت للنسطوريَّة أنْ تنفرد بشخصيتها الدّينيَّة فِي المشرق، وتعقد مجامعها الْكَنَسِيّة الخَاصَّة، وتتوسع عَلَى حساب اليَعَاقِبَة المَنُوفَزِيِّين فِيهَا[5].

مِنْذُ مجمع مار اسحق، الَّذِي عقد في ساليق بمساعدة «ماروثا الميافرقيني» سنة 410، برزت الملامح الخَاصَّة بكَنِيسَة المشرق، وأخذت حياتها الدّينيَّة تَتَطَوّر حَسْبَ الخطةِ الَّتِي ترسمُها لها المجامع الَّتِي صارت تعقد كل سنتين أوْ أربع سنوات. والمجامع قَبْلَ الإسْلاَم هِيَ: 1 - مجمع اسحق 410. 2 - مجمع يهبالاها الأول 420. 3 - مجمع داديشوع 424. 4 - مجمع آقاق 486. 5 - مجمع باباي 497. 6 - مجمع مار آبا الكبير 544. 7 - مجمع يوسف554. 8 - مجمع ايشوعياب الأول 585. 9 - مجمع سبريشوع 596. 10 - مجمع غريغور [6]605.

---

(1) قنواتي، م. س. ص 78- 79؛ سوريال عطية: تاريخ الكنيسة الشرّقية، ص306

(2) غريغوريوس يوحنا إبْرَاهِيم: المراكز الثّقافيّة السّريانية، (حلب 1997م) ص 20 - 21.

(3) - ف. بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلاميّة، (القاهرة 1983م)، ص 48.

(4) - هيربرت بوسة: م. س. ص43.

(5) - سوريال عطية: م. س. ص306.

(6) أدور هرمز ججو النّوفلي: «تركيبة كنيسة المشرق ومُخْتَلف الأنشطة فِيهَا» منتديات باقوفا، سبتمبر / 2007.

كَانَتْ الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة من السّاحات المبكرة، الَّتِي مارس فِيهَا النَّسَاطِرَة نشاطهم، إِذْ ظهر هُنَاكَ فِي القَرْن الخامس ستة أَسَاقِفَة، مِنْ بَيْنِهِمْ أُسْقُفُ الحِيرَة، فِي سنة 525م ظهرت أُسْقُفية فِي «بيت قطرايا» (قطر)، وجزر البحرين، واتسع نشاطهم حَتَّى قيل: ان غالبية النَّصَارَى الْعَرَب كَانُوا عَلَى مذهب النَّسَاطِرَة[1].

حقق النَّسَاطِرَة انتصارات عَلَى مناوئيهم وأثبتوا وجودهم عَلَى مساحات أكبر مستغلين الواقع السِيَاسِيّ، كَمَا فِي العِرَاق، فَقَدْ اتَّصَلَ النعمانُ بنِ المنذرِ بآباءِ الكَنِيسَة: شمعون بن جابر أُسْقُف الحِيرَة، و«سبريشوع» أُسْقُف «لاشوم»، و«ايشو عزخا» «ايشوع زخا» الرّاهب فانتفع بِهِمْ، فغير دينه، فتنصر واعتمد وحسُن إيمانه، وطرّد اليَعَاقِبَة من سائر أعماله، وتقوَّتْ بِذَلِكَ النَّسْطُورِيّة[2].

حين ننظر في نتائج الإنشقاقين اليعقوبيّ والنسطوريّ، نبدأ في فهم السبب الذي من أجله تُرْجِمَ كثيرٌ من الفلسفة اليونانيَّة الى السريانيَّة، على حين كانت الحركة النسطوريَّة سببًا قويا لصيرورة السريانية وسطا، تتحول عن طريقة الثقافة الهيلينية الى اجزاء من آسيا، تقع وراء حدود الإمبراطورية، خلال القرون التي سبقت انتشار الإسلام مباشرة[3]. وقد دخلت المسيحيّة الصين على يد النساطرة، وكان ذلك حوالى عام 636م. وأظهر الإمبراطور «ناي دزونج» شيئاً من العطف عليها، وحمى الداعين لها من الاضطهاد[4].

2. الْمَسِيحِيَّة فِي العِرَاق

أدّت الحروب الدّائرة بَيْنَ الإمْبَرَاطُوريتين السّاسانية والرّومانيَّة دورا فِي نشر الْمَسِيحِيَّة فِي البلاد الْعَرَبِيّة، ولاسِيَّمَا فِي العِرَاق، إبَّانَ القَرْن الثّالث المِيلادِيّ، خِلَالَ الحملات الَّتِي شنها شابور الأول (241 – 272م) بَيْنَ 256 – 260م، والّتي

(1) – سوريال عطية: م. س. ص316.
(2) – علي: المُفَصَّل فِي تاريخ العرب، 5/ 284.
(3) – ريلاسى أوليري: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، (القاهرة 2007م.)، ص48.
(4) – ديورانت: قصة الحضارة، 4/ 264.

تمكن فِيهَا من جلب أسـرى من الْمَسِـيحِيِّينَ كَانَ بَيْنَهُمْ أَسَاقِفَةٌ وبَطَارِكَة من أنْطَاكِيَة، وأسـكنهم فِـي بابل ومدن بناها لَهُمْ، نحو: «سـد شـابور[1]، وَهِيَ «ديـر محراق» فِي منطقة ميسان، ومدينة «مرو حابور»، وَهِيَ «عكبرا»[2] الواقعة عَلَى نهر دجلة بالقرب من بغداد»[3]. واسـتطاع هولاء الاسـرى من القيام بدور هام فِي نشـر الْمَسِـيحِيّة فِي العِرَاقِ وفَارِسَ، وَفِي بناء الأَدْيِرَة والكَنَائِس.

ثمة من يرى أنّ المسـيحيّينَ كانوا يعيشـون في العراق منذ القرن الاول للميلاد، وأنَّهـم يشـكلون إحدى أقدم الجماعات المسـيحية في العالم[4]. وتعـدّ مدينة أربيل أوّل مركز مسيحيّ، فقد تنصّر أحد ملوكها سنة 36 للميلاد، فآزر انتشار الإنجيل بين رعاياه، ومنهم يهود كثير[5]. غير أنّ هذا الرأي لمْ تعضدْه المصادر القديمة.

في حين يشير بعض الباحثين[6] - بحسب مصادر سريانية - الى أنّ المسيحيّة بدأت في العراق قبل الساسـانيين، أي في عصر الفرثييـن (140ق.م - 226م) وعاصمتهم طيسفون (المدائن)؛ إذ أنّ توما الرسول[7] أوّل من بشر الفرثيين بالإنجيل، تلاه تلميذ له اسـمه «مـاري آدي» أو «عدّاي»، وتولّى بعده نبيل فارسـيّ الجماعات المسـيحيّة

(1) - لم أقف عَلَيْهَا فِي كتب البلدان.

(2) - لم أقف عَلَى (مرو حابور)، قَالَ حمزة الاصفهاني: (بزرج سابور) معرب عَنْ وزرك شافور، وَهِيَ المسماة بالسّريانية عكبرا، وَهُوَ اسم بليدة من نواحي دجيل، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. ياقوت: معجم البلدان 4/ 142.

(3) - سلوى بلحاج: م. س. ص50. نقلا عَنْ - pour une histoire de l'Eglise in iraq، p.55 J.M.Fiey، Jalons 57.

(4) - آرا بدليان الأرمني: «المسيحيون: انحسار الوجود وتحديات الهجرة»، في سعد سلوم: الأقليات في العراق، (مسارات، بيروت، 2013) ص76.

(5) - أبو زيد: م. س، ص33.

(6) - سركيس أبو زيد: المسيحية في إيران (بيروت، 2008) ص33، 37.

(7) - توما (بالإنكليزية Thomas) ويُدعى أيضا «يهوذا توما ديديموس» ومعنى اسمه توما باللغة الآرامية «ܬܐܘܡܐ» «هو التوأم»، هو واحد من رسل المسيح الإثني عشر، وقد ورد ذكره في قائمة أسماء الرسل في الأناجيل (متى 10 : 3، مرقس 3 : 18، لوقا 6 : 15، أعمال الرسل 1 : 13) وتحدث عنه إنجيل يوحنا: فكان لتوما الكلمة الفصل بين التلاميذ عندما قال لهم {لِنَذْهَبْ نَحْنُ أَيْضاً لِكَيْ نَمُوتَ مَعَهُ} 11: 16، وقد كان توما أيضا من بين التلاميذ الذين حاوروا يسوع أثناء العشاء الأخير، وهذا يؤشر الى أنه لم يعاصر الفرثيين.انظر: موسوعة ويكيبيديا (توما).

النامية آنذاك، ثم تابعه سبعة أساقفة على التبشير في بلاد فارس. وفي المقابل زادت الوثنية الرومانية من بطشها بالمسيحيين مما دفع بهم الى اللجوء الى حاضنة الفرثيين، التي سمحت لهم بارساء قواعد تبشيرية في شمال بلاد الرافدين، وبحلول عام 225م تأسست عشرون أَبْرَشِيَّة في بلاد فارس، واجمالا تنامت الكنائس حتى بلغت زهاء 360 كنيسة في القرن الثالث. وهناك من يستدل على صحة هذا الرأي، في ضوء المكتشفات الحديثة لـ«ستين» قبرا مسيحيًّا، في جزيرة «خرج الصغيرة»[1]، يعود تاريخها الى العام 250م[2]، الى جانب العمارة المسيحيّة[3].

في رحاب ازدياد المسيحيِّين المُضْطَرَد في بلاد فارس، حقَّقوا حياةً مستقرةً نسبيًّا، لكنَّها -بين الحين والآخر - كانت تفتح عليهم ألسنة غضب كهنة الزرادشت (الموباذ)، الطبقة القريبة من مركز القرار الحاكم، في الدعوة للقضاء عليهم، بخاصة بعد أنْ صارت المسيحيّة الدين الرسميَّ لدولة بيزنطا، فقد كانوا في معرض الشبهة والتهمة، بأنَّهم عيونٌ للروم، مما عرَّضهم للإضطهاد غيرَ مرّة، ولاسيما بين العامين 340 - 379م من حكم الملك شابور الثاني، وتجدد الاضطهاد على المسيحيّين بيد المجوس في زمن «بهرام الخامس» (420 - 438م)، وكان أشدَّه في عهد «يزدجرد الثاني» (438 - 457م) إذ إقصاهم من وظائفهم، ونظم حملة وجهها الى «كرخ سلوخ» (كركوك)، يدعوهم فيها الى التخلِّي عن دينهم، والسجود للشمس والنار، وأعدم المطرافوليط يوحنا، على عدد من الأساقفة، عام 446م، وفي العام 562م أصدر الملك خسرو الأول مرسومًا يقضي بمعاقبة من يحاول التبشير المسيحي بالموت[4].

تعدّ الحيرة من أقدم المراكز المسيحيّة في العراق، والحِيرَة: «تحريف لكلمة حرتا فِي السّرْيانِيّة ومعناها المخيم أَوْ المعسكر»[5]، مدينة قديمة عَلَى ثلاثة أميال من الكوفة،

(1) - موقع جزيرة «خرج الصغيرة» في الخليج، قبالة ساحل إيران الحالية.
(2) - أبو زيد: المسيحية في إيران، 38.
(3) - فالنتينا ميرابللا : «احتلالات بريطانيا لجزيرة خرج» مكتبة قطر الوطنية، على النت http: / /www.qnl.qa /articles - from - our - experts?themes[0]=631
(4) - أبو زيد: م. س، 37، 62.
(5) - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العَرَبِّي العصر الجاهلي، (المعارف، القاهرة) ص 44.

وَكَانَتْ منازل النّعمان بن المنذر (580 - 602م)، وبها تنصر المنذر بن امرئ القيس[1]، وبنى الكَنَائِس العظيمة عَلَى موضع يقال لَهُ النّجف[2]. وتنصرت زوجته هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي، وبنَتْ الدّيارَ والبِيَع، مِنْهَا «دير هند الاقدم»[3] فِي عصر خسرو انشروان (531 - 579م)، وَفِي زمن أفرابيم الأُسْقُف[4]، ويرى الطّبري[5]: أن امرأ القيس بن عمرو 295) - 328م) كَانَ أَوّل من تنصر من ملوك الحِيرَة. ويقوِّي هَذَا الرّأي مناسبة إقصاء الْمَسِيحِيِّينَ من فَارِسَ فِي القَرْن الثّالث إلَى الحِيرَة، وأثرهم الدّينِيّ فِي مجتمعها، إِذْ اهتدى إِلَى الْمَسِيحِيَّة قسم من أهلها والقَبَائِل المحيطة، وتعبدوا لله، وسموا «العباد»[6] وظلوا يشكلون جزءًا مُهِمًّا من مجتمع الحِيرَة.

من هذه المدينة انطلقت إرساليّات مسيحيّة على الطرق التجارية، نحو البحرين وعمان، وغيرهما من البلدان الواقعة على الخليج، وفيها عقدت مجامع لكنيسة المشرق، مثلا: مجمع «داد يشوع»، سنة 424م. وقد دفن فيها عدد من جثالقة المشرق. وعلى إثر الجدالات التي دارت في القرن الخامس، تبنّت الحيرة المذهب النسطوري، أسوة بكنيسة فارس كلها، الا أنّ المنوفيزيين - أيضا - حاولوا الإنتشار

---

(1) - الملقب بـ(ابن ماء السّماء) أحد ملوك الحيرة، حكم فِي الفترتين الأولى (514 - 524) والثّانية (528 - 554)، أمه هِيَ مارية بنت عوف من النّمر ابن قاسط، وَقَدْ سميت بماء السّماء لجمالها وحسنها، حكم المنذر مملكة واسعة اشتملت بالإضافة لقاعدة ملكه فِي العِرَاق عَلَى البحرين وعمان، (لطبري: تاريخ 2/ 89، 104)؛ يبدو أن حياة المنذر العسكرية بدأت مَعَ غارة لَهُ عَلَى فلسطين سنة (509) أسر من خلالها عدد كبير من الرّومان، واستمرت هجماته الّتِي قادها بنفسه حَتَّى شملت كل المنطقة ما بَيْنَ الفرات وحتى مصر شمالا. ^ John Binns، Ascetics and ambassadors of Christ: the monasteries of Palestine، 314 - 631. p.113 (الزاهدون وسفراء المسيح وأَدْيِرَة فلسطين).

(2) - أَبُو الفداء (ت732هـ) تقويم البلدان، (دار صادر، بيروت) ص299.

(3) -«دير هِند الكُبرى» أَبُو الفرج: الديارات، (لندن، 1411هـ) ص168؛ ياقوت: الخزل والدأل بَيْنَ الدور والدارات والديرة، (دمشق، 1998م) 2/ 2.

(4) - البكري،: معجم ما استعجم، (بيروت، 1983) 2/ 606.

(5) - تاريخ الرّسل والملوك، (دار التّراث، بيروت،) 2/ 53.

(6) -«جورج قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبيّة، ص54.

فيها[1].

كَانَتْ الحِيرَة فِي عهد «المناذرة اللخميين» من المراكز الحَضَارِيَّة المُهِمَّة فِي مُخْتَلف الميادين، لَعَلَّ موقعها بَيْنَ العِرَاق والشَّام وبلاد الْعَرَب أسهم فِي احتكاك أهلها بغيرهم من الشّعوب؛ فتأثروا بالثّقافات العَالَمِيَّة آنذَاكَ الفارِسيَّة واليُونانِيّة والسّرْيانِيّة، وَكَانَ لمعرفة أهلها باللغة الفارِسيَّة أثر كبير فِي نقل آداب الفرس إلَيْهِمْ؛ وَقَدْ ساهم بعض أسرى الرّوم، الَّذِينَ وقعوا فِي قبضتهم، فِي نقل علوم اليونان وآدابهم إلَيْهِمْ؛ وَكَانَ ملوك الحِيرَة يُشَجّعُونَ الشّعراءَ، ويُغْدِقُونَ الهِبَاتِ والعَطايا عَلَيْهِمْ، وغَدَا بلاطُهم مقصَدَ مشاهيرِ شعراءِ الجاهِلِيّةِ، نحو: «المُرَقَّش الأصْغَر، المُتَلَمِّس، طَرْفَةَ بن العبد، المرقش الأكبر، حسَّان بن ثابت، عمرو بن كُلْثُوم، وغيرهم»[2].

كَانَتْ الحِيرَة تزْخُرُ بمعاهِدِ العلمِ ومدارِسه؛ فَقَدْ تلَقَّى «إيليا الحِيرِي»، مؤسّس «دير مار إيليا» فِي الموصلِ، دراستَهُ الدّينِيَّةَ فِي مدرسةٍ بالحِيرَةِ، كَمَا تَلَقَّى «مار عبد الكبير» دراستَهُ فِي إحدَى المدارسِ فِيهَا[3]. والمعروفُ أنَّ الحِيرَةَ قُبَيْلَ الإسْلاَمِ كَانَتْ نصرانيَّة، وَكَانَتْ تزخر بالثّقافة السّرْيانِيّة، كَمَا كَانَتْ تكتب بالخط السّرْيانِيّ، قلَمِ الْمَسِيحِيِّينَ فِي هَذِهِ الأنحاء[4].

أخرجت مدينة الحِيرَة عددًا من رجال الدّين، مثل «مار إيليا»، وأصْلُه من الحِيرَة، والقديس «حنانيشوع»، وَهُوَ من عرب الحِيرَة ومن عشيرة الملك النّعمان[5]، والقديس مار يوحنا[6]، و«هوشاع» الَّذِي حضر مجمع إسحاق الجاثليق عام 410م،

---

(1) - سركيس أبو زيد: المسيحية في إيران، ص116.

(2) - أبُو زيد القرشي: جمهرة اشعار العرب، (دار الأرقم، بيروت)، ص60؛ البغدادي، عبد القادر: خزانة الادب ولب لباب لسان العرب(بيروت، 1998م)، 1/ 316، 2/ 375، 3/ 308.

(3) - - مُحَمَّد إبْرَاهِيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي (ط4، دار الفكر العَرَبِيّ، بيروت 1994)، ص 125.

(4) - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العَرَبِيّ العصر الجاهلي، م. س. ص 34

(5) - ايشو عدناح البصري (ق3ه/ 9م): الدّيورة فِي مملكتي الفرس والْعَرَب، (الموصل، 1939) ص «32 وما بعدها».

(6) - ايشو عدناح: م. ن. ص47.

و«شمعون» الَّذِي أمضى أعمال مجمع «يهبالا»، الَّذِي انعقد سنة 486م، و«شمعون» الَّـذِي حضر مجمع «أقـاق»، و«إيليا»، المنعقد سـنة 486م، وأمضى فِي سـنة 497م مجمع «اباي»، و«افرام» و«يوسـف»، وَقَدْ حضر مجمع «أيشوعياب الأرزني» الَّذِي انعقد سنة 585م، و«شمعون بن جابر» الَّذِي نصَّرَ الملك النّعمان الرّابع فِي سنة 594 عَلَى مَا يذكره مُؤَرِّخو الكَنِيسَة[1].

وَقَدْ كَانَ «مار يشـوعياب الأرزونـي» Jesujab I Arzunita (ت596م) من أصل عَرَبِـيّ. درس الدِّيَانَـة فِـي «نصيبيـن» Nisibis ثُمَّ تقدم فصار أُسْـقُفا عَلَـى «أرزون» Arzun، ثُـمَّ ترقَّى حَتَّـى صار «بِطْرِيَكا» عَلَى النَّسَـاطِرَة سـنة 580م. وَقَدْ زار الملك «النّعمـان». وتوسَّـط عِنْدَ الرّوم لمسـاعدة «خسـرو ابرويـز» Chosroes Abruizus ضـدَّ «بهـرام» Beheram Varames. وَقَـدْ توفـي فِي خيم «بنـي معـد» «المَعْدِيّين» Maadenes، ونقل إِلَى الحِيرَة، فدفن فِي دير «هند ابنة النّعمان»[2].

أَمَّا الأَدْيِرَة والكَنَائِس فَقَدْ كَانَتْ كثيرة - أَيْضًا - فِي الحِيرَة والمنطقة المجاورة لها، وَكَـانَ لتنصُّر المنـاذرة أثرٌ كبير فِي دفعهم لبنـاء عديد مِنْهَا. وتحفظُ لَنَـا كتبُ الدّيارات وتقاويـمُ البُلْدَانِ[3] أسـماءَ عـددٍ كبير مِنْهَا، ويعتبـر دير «هند الكُبْرَى» من أشـهر الأبنية التّابعة لهذه الزمرة، وَقَدْ بنَتْ هَذَا الدّير «هندُ» أمُّ عمرِ بن هند. وَهُنَاكَ دير «هند الصّغرى» الَّـذِي بنتـه «هند» ابنة النّعمان بن المنذر، وأقامت فِيهِ حَتَّى ماتت ودُفِنَتْ فِيهِ. وَقَدْ ذكره عِدَّةٌ من الشّعراء، مِنْهُمْ معن بن زائدة الشّيباني، وَكَانَ هُنَاكَ منزله. وفيه يَقُولُ[4]:

أَلَا ليتَ شِعري، هلْ أبيتنَّ ليلةً	لَدَى دير هند، والحبيبُ قريبُ؟
فتقضى لبانات، وتلقى أحبّة،	ويورق غصن للسرور رطيب

ويَسَـجِّلُ الهمداني[5] كَنِيسَـة «الباغوتة» بالحِيرَة ضِمْنَ أَشْهَرِ سَبْعِ مَوَاضِعَ للعبادة

---

(1) - ادي شير: تاريخ كلد وآثور، (مكتب سركيس أغا جان،2007م) 2/ 208.

(2) - علي: المُفَصَّل، 12/ 173.

(3) - البكري: معجم ما استعجم، 2/ 604، 606؛ ياقوت: معجم البلدان، 2/ 495 - 543.

(4) - البكري: م. ن. 2/ 605.

(5) - الهمداني، (ت334هـ): صفة جزيرة العرب، (صنعاء، 1990) ص240.

فِي جَزِيْرَة الْعَرَب.

وصفت الحِيرَة عِنْدَ الإخْبَارِيّين بالبياض فقالوا عَنْهَا: «الحِيرَة البيضاء»[1] تعبيرا عَنْ حسن عمارتها وطغيان هَذَا اللون عَلَى سائر أبنيتها، وَكَانَ أهل الحِيرَة مِلَلًا ونِحَلًا دِينِيَّة كثيرة، فَقَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ الوَثَنِيّون الَّذِينَ يعبدون الأصنام، والصّابئة الَّذِينَ يعبدون الكواكب، والمجوس[2] الَّذِينَ يقدسون النّار، فَضْلًا عَنْ أتباع النَّصْرَانِيَّة واليَهُودِيَّة، وَكَانَ معظم نَصَارَى الحِيرَة نَسَاطِرَة.

غير أنَّ العُبَّاد، هُمْ الَّذِينَ سكنوا رُقْعَة الحِيرَة فابْتَنُوا بِهَا، وَبِحَسَبِ معظم الإخْبَارِيّين أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى دين الْمَسِيح. وعلى رأي: أَنَّهُمْ قَبَائِل شتَّى من بُطون الْعَرَب، اجتمعوا عَلَى النَّصْرَانِيَّة، والنِّسْبَة إِلَيْهِمْ عبَّادِيّ[3]. وبالمُحصَّلة إنَّ كلمة «العبَّاد» أطلقت فِي الأصل عَلَى من تنصَّر من أهل الحِيرَة؛ ليميِّزوهم عَنْ غيرهم من سكان المدينة من الوَثَنِيّين[4].

ظَلَّتْ الحِيرَةُ من المراكز المُهِمَّة فِي الدِّيَانَة الْمَسِيحِيَّة، وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وطئة الحروب بَيْنَ اللخميين والبِيزَنْطيين فِي القَرْن الخامس، فإن مطارنة الحِيرَة أسهموا فِي المجامع، الَّتِي رأسها المطران الأعظم «كاترليكوس فِي السّنوات: (434، 486، 497م)، وَقَدْ ربطت هَذِهِ المجامع مصير الكَنِيسَة عِنْدَ اللخميين بالنَّسَاطِرَة[5].

عنيت الحِيرَة بحركة التّبشير بَيْنَ الْعَرَب، ومنها ذهب قسم من المُبَشِّرِينَ إِلَى اليمن والأجزاء الأُخْرَى من جَزِيْرَة الْعَرَب، لنَشْرِ النَّسْطُورِيَةِ والمذاهبِ النَّصْرَانِيَّة الأُخْرَى هُنَاكَ، وَفِيهَا انعقد مجمع «دار يشوع» فِي سنة 424م[6]، وَفِي هَذِهِ المدينة

---

(1) - ابن الفقيه (ت 365): البلدان، (بيروت، 1996م) ص216.

(2) - من أصول«ميدية» فارسية، على دين زرادشت، يعبدون الإله (اهورا مزدا)، لديهم كتاب مقدس «الزند أفستا». شاي، بلوش: دليل حضارات الشرق الأدنى، 36، 236.

(3) - ابن دريد، (ت 321هـ): جمهرة اللُّغَة، (بيروت 1987)1/ 7.

(4) - علي، جواد: م. س. 5/ 169 - 71.

(5) -« قنواتي: م. س. ص54.

(6) - ايشو عدناح: الديورة فِي مملكتي الفرس والعرب، ص 10.

توفي الجاثليق «دار يشوع»، ودُفِنَ فِيهَا عَلَى بعض الرّوايات[1].

لَمْ تَقِفْ الحِيرَةُ عِنْدَ الارتقاء الدّينيّ فحسب، بَلْ هِيَ تسمو فِي موارد الحضارة جميعا، يرى فيليب حتّي: أنّ الحِيرَة، الَّتِي تحكّم فِي شؤونها الفرسُ، قَدْ انتقلت مِنْهَا مؤثرات الثّقافة الآرامية النّسْطُورِيّةَ إلَى الجَزِيْرَة فِي العصور السّابقة للنبي، وأصبح النّسَاطِرَةُ - بَعْدَئِذٍ - حلقةَ الاتصالِ بَيْنَ الثّقافةِ الهِيلِينِيّةِ وَبَيْنَ الثّقافةِ الإِسْلَاميّةِ الفتيّةِ. ويؤكّد» ر. بلاشير Régis Blachère» هَذَا الدّورَ بإيضاحٍ مُكَثّفٍ: «وَكَانَتْ العناصرُ المُوَلِّدَةُ للتّثَاقُفِ فِي بدايَةِ الأمْرِ، هِيَ مِن سكّانِ المدنِ فِي بلادِ الشّامِ والعِرَاق ومِصْرَ، وكُتَلِ الحَضَرِيِّينَ والرّيفيِّينَ الَّذِينَ يدورونَ فِي فلكِهِمْ. وتظهرُ هَذِهِ العناصرُ بإكليروسِها، واستعدادِها التّقليديِّ للنقاشِ اللّاهُوتِيِّ، وتقاليدِها الكِتَابِيّةِ، ومزاولتِها الأعمالَ والإِدَارَةَ بمظهرِ المتمدِّنينَ، فظلَّتْ التّقاليدُ الرّومَانِيّةُ والهِيلِينِيّةُ، والتّراثُ الفارسِيُّ - من خِلَالِها - عَلَى قيدِ الحياةِ»[2].

3. الْمَسِيحِيَّة فِي مِصْرَ ونشأة الكَنِيسَة القبطِيَّة

اختلف الْمَسِيحِيّون الأوائل حول مفهوم طبيعة المسيح، وانقسموا فِي بلاد الْعَرَب إلَى ثلاث فرق أساسية، هِيَ: الملكانية والنّسْطُورِيّةَ واليَعَاقِبَة. فالملكانية مذهب الدّولة الرّومَانِيّة الأرْثُوذَكْسِيّة الشّرْقِيّة وحزب الملك والبلاد، وعقيدة الملكانية هِيَ ازدواج طبيعة الْمَسِيح. أمّا النّسْطُورِيّون وَهُمْ أتباع نسطور، فَقَدْ قالوا بأنّ للمسيح طبيعتين إحدهما إلهية والثّانية بَشَرِيّة، فَهُوَ بالأولى ابن الله وبالثّانية ابن مَرْيَم. أمّا التيار الثّالثّ وَهُوَ حزب اليَعَاقِبَة، فيعتقدون أن الْمَسِيح هُوَ الله نزل إلَى الأرض. ولقد انقسمت الكَنِيسَة إلَى فرعين: الكَنِيسَة الغربيّة فِي روما، والكَنِيسَة الشّرْقِيّة فِي القُسْطَنْطِينِيّة[3]، مَعَ وجود الكَنِيسَة القبطِيّة فِي مِصْرَ وتوابعها والتي

(1) - علي، جواد: م. س. 5/ 172، نقلا عن: أوجين نسران، «خلاصة تاريخيّة للكنيسة السّريانية»، «تعريب القس سليمان الصّائغ»، والموصل 1939 «ص 26 وما بعدها.

(2) - حسين قاسم العزيز: «دور المراكز الثّقافيّة السّريانية في تفاعل العرب والمسلمين الحضاري»، دراسات سريانية.

(3) - نسبة إلَى مؤسِّسِها قسطنطين الاول (311 - 337) اعتنق المسيحيّة سنة 313، وحولها عاصمة

لا علاقة لمسيحِيّي الشّرق بِهَا، وَلَمْ تَكُنْ للكَنِيسَة الشّرْقِيَّة أيَّةُ علاقةٍ لها بالغربيَّة، ثُمَّ أخذ الخلاف يتّسع ويتشعَّب، وأخذتْ الفِرق تتوالد، فتنشأ مِنْهَا فرقٌ جديدة وأحزابٌ جديدة، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ الجهود العديدة، الَّتِي بذلت لتوحيد الكَنِيسَة[1].

بَيْدَ أنَّ مجمع خلقيدونية Chalcedon كَانَ فاتحة الانشقاق العميق بَيْنَ الكَنِيسَة الرّسمية والكَنِيسَة السّرْيانِيّة فِي سوريا، والكَنِيسَة القبطِيَّة فِي مِصْرَ، كَمَا كَانَ هَذَا المجمع منطلقًا حافلًا بالاضطهادات من جانب الدّولة البِيْزَنْطِيَّة وكَنِيسَتها الرّسمية، كَمَا أنَّهُ قَدْ أثار فِي سوريا ومِصْر موجةً من السّخط ضدّهما[2].

ولا غرو أنّهُ كَانَ من أثر هَذِهِ الاضطهادات، لَيْسَ فقط إنشاء كَنِيسَة وطنية فِي سوريا، وَهِيَ الكَنِيسَة السّرْيانِيّة، وكَنِيسَة وطنية فِي مِصْرَ، هِيَ الكَنِيسَة القبطِيَّة، وَذَلِكَ بجانب الكَنِيسَة الرّومية، الرّسمية، بَلْ وعلى الأخص انبثاق شعور عميق من العداء والكراهية للسلطة البِيْزَنْطِيَّة، هَذَا الشّعور الَّذِي سيمهّد الدّروب للفتح الْعَرَبِيّ فِي القَرْن السّابع[3].

إن احتدام الجدل، والنّزاع الدّينِيّ بَيْنَ كَنِيسَتي الإسكندريَّة والقُسْطَنْطِينِيَّة، قَدْ بلغ أقصاه فِي منتصف القَرْن الخامس المِيلادِيّ حينما اختلفت الكَنِيسَتان حول طبيعة الْمَسِيح، فاعتقدت الكَنِيسَة المَصْرية بأنَّ للمسيح طبيعة إلهية واحدة ويدعون بـ «المونوفيزيت Monophysite». وتبنت كَنِيسَة القُسْطَنْطِينِيَّة القول بثنائية الطّبيعة المحددة فِي مجمع خلقدونية، ورأتْ أنَّ فِي الْمَسِيح طبيعة بَشَرِيّة وطبيعة إلهية، وَهُوَ المذهب الرّسمي للإمْبَراطُور البِيْزَنْطِي، وَقَدْ عقد الإمْبَراطُور «مرقيان أوْ مرسيان Marcian» (450 – 457م) مجمعًا دِينِيًا فِي خلقدونية فِي عام 451م

للامبراطورية سنة 330. مانع السّعدون: المسيحيّة – العقيدة والمذاهب والتاريخ (دمشق 2010) ص109

(1) – سيّار الجميل: «المسيحيّون العِرَاقيون: حفريات عَنْ جذور تاريخيّة» (1/5)، مجلة ألفا، نوفمبر 2010.

(2) – إدمون ربّاط: «المسيحيّون فِي الشّرق قبل الإسلام»، م. س.

(3) –. ربّاط: م. ن.

مـن أجل وضـع حدٍّ لهذا النّـزاع، تقرر فِيهِ تحديـد العقيدة الدّينيَّـة المتعلقة بطبيعتَي الْمَسِـيح، وأنكر الْمُجْتَمَعون نِحْلَةَ المونوفيزيين، وكفرُّوا من قَالَ بأنَّ للمسيح طبيعة واحـدة، وعدوهم خارجين عَلَـى الدّين الصّحيح، كَمَا تقرر حرمان «ديسـقوروس» بطْرِيك الإسكندريَّة من الكَنِيسَة[1].

أتُّهِمَت الكَنِيسَـة القبطِيَّة فِي مجمع خلقيدونية 451م، بَلْ وُصِمَ المشـرقُ من قِبَلِ الغرب، بِأَنَّهُ يدين بمذهب الطّبيعة الواحدة؛ لِذَا لَمْ تؤمِنْ الكَنِيسَة القبطِيَّة أَبَدًا بِذَلِكَ، ورفضَتْ الصّورَةَ الَّتِي وُصِفَت فِي مَجْمَع خلقيدونية. أَمَّا الكَنِيسَة المَصْرية فتؤمن أنَّ السَّـيِّد الْمَسِيح كامِلٌ فِي لاهوته، وكامِلٌ فِي ناسـوته، وهذان الطّبيعتان مُتَّحِدَتان فِي طبيعةٍ واحدةٍ هِيَ «طبيعةُ تَجَسُّد الكلمة»، والتي أوضحها البابا «كيرلس السّكندري».

الأَقْبَـاطُ - إذًا - يؤمنـون بطبيعتين: «لَاهُوتِيَّة» و«ناسـوتِيَّة»، وهما مُتَّحِدَتان بغير اختـلاطٍ ولا امتـزاجٍ، ولا تغييـر». وهاتـان الطّبيعتان «لَـمْ يَفْتَرِقا لحظـة واحدة ولا طَرْفَةَ عَيْن»[2]. وتسـمي الكَنِيسَـة المَصْرية نفسها المرقسيَّة، نسبة إلَى الرّسول مرقس صاحب الإنْجِيل، لأنَّ بطاركتَها يعتبرون أنفسَهم خلفاءَ لهذا الرّسول[3].

مِهْمَا يَكُنْ من تَطَوّر للخلاف الْكَنَسِيّ بَيْنَ الغرب والشّرق، فانَّ الكَنَائِس الشَّرْقِيَّة، وَبِخَاصَّـةٍ كَنِيسَـة الإسـكندريَّة، كَـانَ لهـا موقِعُ الصّـدارة فِـي المجامِع المسْـكونيَّة الثّلاثـة (نيقيا 325 - قُسْـطَنْطِينِيَّة 381 - أفسـس 431)[4]، إلاَّ أَنَّ نتائج المجمع الرّابع خلقيدونية عبرت لَدَى الكَنِيسَة الشَّرْقِيَّة: أنَّ الغربَ يقضي برفع كَنِيسَة القُسْطَنْطِينِيَّة، وينتقص من الْحُقُوق التّاريخيّة لكَنِيسَـتي الإسكندريَّة وأنْطَاكِيَة، ويرمي إلَى إضعاف

---

(1) - العريني: الدولة البيزنطية ص52، 53؛ مُحَمَّد طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين الفتوحات والإنجازات، ص294.

(2) - سوريال: تاريخ الكنيسة الشّرقية، ص78.

(3) - علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة فِي الأَدْيَان السّابقة لِلإِسْلَام (القاهرة 1964م)، ص108.

(4) - للتزود بمقررات المجامع، انظر: أدلبيرت - ج. هِمان: دليل إلَى قراءة آباء الكنيسة، ترجمه: الاب صبحي حمودي اليسوعي (دار المشرق، 2002) ص82 وبعدها، أبونا: تاريخ الكنيسة الشّرقية 1/ 59 وبعدها.

تنظيماتهما، فَضْلًا عَنْ ابعادِهما عَنْ رِبْقَة دولَةِ بِيْزَنْطا؛ إِذْ وصلَ الحدُّ إِلَى عَزْل ونفْيِ بِطْرِيَك الإسكندريَّة ديوسقورس، وتعيين بدلِه بِطْرِيَكا تابعا للقُسْطَنْطِينِيَّة هُوَ بروتريوس (452 - 457م) تَحْتَ ضغط السّلطة، وقِبال هَذَا الموقف المُتَعنِّت، اختارَ القساوِسَةُ المَصْريون بِطْرِيَكا لَهُمْ هُوَ تيموثاوس الوروس، وَهَكَذَا انقسمت أسقُفيَّةِ الإسكندريَّة إلَى معسكرينِ وبِطْرِيَكينِ، الأوّل كَنِيسَة الملكاني، أي التّابع للملك البِيْزَنْطي والبابا، والثّاني هُوَ القبطِيّ. ومِنْ ثَمَّ أغتيل البِطْرِيق الملكاني عَلَى يد الاسكندرانيين، مِمَّا أحدث عداء طويل الأمد مَعَ الكَنِيسَة القسطنينية وحاضنتها الدّولة[1].

وَفِي عصر «جستنيان» الَّذِي أراد ان يقبض عَلَى السّلطتين الدّينِيَّة والدّنيوية، حاوَلَ إيجادَ الحلولِ للفُرْقَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، لَكِنَّهُ ظَلَّ مُنْحَازًا إلَى الخلقيدونيَّةِ، ومِنْ ثَمَّ أَبْدَى تَشَدُّدًا عَلَى الفِرَقِ الأُخْرَى، ونتيجةً لتَعَنُّتِ «جستنيان» عَلَى السّريانِ المونوفيزيينَ (الأرثوذكس)، فَقَدْ تركّزتْ المقاومةُ الأرْثُوذَكْسِيَّة فِي مراكزِ الرّهبانياتِ فِي باديةِ الإسقيط[2] فِي مِصْرَ، وعلى حافَةِ شُبْهِ الجَزِيرَةِ الْعَرَبِيّة، الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ سيطرة الأمراءِ الغساسنةِ، وأمْكِنَةٍ أُخْرَى متعَدّدةٍ فِي شمال سُورِيَةَ، وبلادِ مَا بَيْنَ النّهرين. ونظراً إلَى استخدام الأرثوذكس اللُّغَة القبطِيَّة فِي مِصْرَ والسّرْيانِيَة فِي آسيا تعذّرت عَلَى المسؤولين اليُونانِيّين ملاحقة المعارضين لعدم معرفتهم بِتِلْكَ اللغات[3].

واصلت الرّوم الحرب، قَبْلَ فتح مِصْرَ سنة 21هـ/ 642م، عَلَى مذهب اليَعَاقِبَة الَّذِي كَانَ يعتنقه المَصْريون، وفرضوا عَلَيْهِمْ المذهب الملكاني، الَّذِي كَانَتْ تعتنقه، كَمَا عيّنوا بِطْرِيكا ملكانيا، وعزلوا اليَعْقُوبِيّ المَصْريّ، وَهُوَ الأنبا بنيامين، فتوارى

(1) - سوريال عطية: م.س. ص88.

(2) - برّية الإسقيط: بالجانب الغربيّ من أرض مصر، فيما بين مربوط والفيوم، ويقال له - أيضا: وادي هبيب، ووادي الملوك، ووادي النطرون، وبرّية شهاب، وميزان القلوب، وكان به مائة دير للنصارى، وبقي به سبعة ديورة. المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (بيروت 1418هـ)1/ 344.

(3) - سوريال: م. س. ص90 وبعدها

اتقـاء لبطشـهم. وَلَمَّا فُتِحَـتْ مِصْرَ عَلَى يد عمرو بـن العاص منح لَـهُ الأمَان فظهر، وأعـاد إِلَيْهِ سـلطانه الرّوحي، كَمَا صرّح لَـهُ بفتح الكَنَائِس الَّتِي أغلقهـا الرّوم، وأداء العبادة وإقامة الشّعائر فِيهَا[1].

استمرت الكَنِيسَـة الملكانية فِي الإسكندريَّة حَتَّى الحكم الإسْلَاميّ الَّذِي تعاطف مَعَ الكَنِيسَـة القبطِيَّة، ومنحها التّمثيل الرّسـمي للمَسِـيحِيَّة فِي مِصْـرَ. بيد أن عمرو بن العاص - في نظر ديورانت[2]: «لم يكن في وسـعهِ أن يدرك أسـباب الخلافات الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة، ولذلك منع أعوانه اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين، وخالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة». أمَّا الكنيسـة الملكانية فِي بلاد الشّـام، فإنَّها ظَلَّتْ تَحْتَ الرّعاية الإِسْلَاميّة، الَّتِي أمعنتْ النظَرَ بعين المساواةِ فِي التّعاملِ مَعَ الفِرَقِ الْمَسِيحِيَّةِ كَافَّةً، إلَّا فِي بعضِ الأحْيَانِ، ساعدتْ على تغليبِ النَّسْطُورِيَّةَ عَلَى غيرِها فِي العِرَاق.

لَعَلَّ دخولَ دولةِ العرب إِلَى سُدَّةِ إِدَارَةِ المنطقةِ، أطْفَأَ مِن وَهَجِ الصِّرَاعِ الْمَسِيحِيِّ الْمَسِيحِيِّ، ويَرَى بعضُ الباحثينَ[3]: فما كَانَ فِي ظِلِّ التّهديدِ البِيْزَنْطيِّ المُسْتَمِرِّ، دُونَ حضورِ الإِسْـلَامِ، أنْ تسـتمرَّ هويَّةٌ للموارِنَةِ، ولأقْبَاطِ مِصْرَ، ولليَعَاقِبَةِ، والنَّسَـاطِرَة، فِي الشّامِ والعِرَاق، أَوْ أنْ يحافظوا عَلَى كياناتِهم وخصوصياتِهم الدّينيَّةِ المستقلّةِ.

4. الْمَسِيحِيَّة فِي اليمن والحجاز:

كَـانَ الموقع الجُغْرَافِيُّ لليمن، كنقطة اتصـال بَيْنَ البحار وَبَيْنَ القارات، وكمركز ستراتيجي عَلَى طريق التّجارة مَعَ الهند والصّين، عَلَى نحو استقطب اهتمام الدّولتين فَارِسَ وبِيزَنْطة، وزاد فِي مَعْمَعَة الصّراع بَيْنَهُمَا، فَضْلًا عَنْ عوامل أخرى، تمثلت في مراحل الاضطهاد الديني والدّولي للمَسِـيحِيِّينَ، وسـنّة التّبشـير الدّينِيّ الْمَسِـيحِيّ، وتنامي التّجارة، جميعها أسـهمت فِي تمدُّد الْمَسِيحِيَّة، باتجاه جنوب جَزِيْرَة الْعَرَب

(1) - عز الدين عناية: «المسيحيّة العَرَبِيّة: تشظّي الهويّة ومستخلصات الوعي التاريخيّ، م. س.
(2) - قصة الحضارة، 13/ 262.
(3) - عناية: «المسيحيّة العَرَبِيّة: تشظّي الهويّة ومستخلصات الوعي التاريخيّ». م. س.

اليمن ونَجْرَان.

وجدت النَّصْرَانِيَّة سبيلها إِلَى اليمن من البحر والبرّ، وسَعَتْ كاليَهُودِيَّة لتثبيت أقدامها هُنَاكَ، وَفِي سائر أنحاء جَزِيْرَة الْعَرَب، ووجدت من سمع دعوتها هُنَا وَهُنَاكَ؛ فتنصرت قَبَائِل، وشايعتها بعض المقاطعات والمدن، وتعرضت الوَثَنِيّة للنقد من رجال الدّيانتين، واقتبس من دخل فِي اليَهُودِيَّة الثّقافة اليَهُودِيَّة، ومن دخل فِي النَّصْرَانِيَّة الثّقافة النَّصْرَانِيَّة، وأعرض عَنْ ثقافته القديمة[1].

تشير نصوص المسند (الخط اليمني)، الَّتِي يرجع عهدها إِلَى سنة «378م» أَوْ «384م»، إِلَى ان الْمَسِيحِيَّة تغلغلت إِلَى اليمن فِي القَرْن الرّابع، فِي عهد الملك «ثارن يهنعم»، وَكَانَ القيصر «قسطنطين الثّاني» «350 – 361م» الَّذِي كَانَ يناصر الآريوسية[2] القائلة بالتّوحيد، قَدْ أرسل إِلَى اليمن «فيلوستورجيوس» Philostorgios الرّاهب الهندي، ليدعو إِلَى النَّصْرَانِيَّة بَيْنَ أهلها. ويُحْتَمَل لذلك أن يكون هُوَ الملك الحميري الَّذِي بدَّل دِينَه الوَثَنِيّ، ودخل فِي ديانة التّوحيد، وَهُوَ الَّذِي أمر ببناء كَنَائِس فِي ظِفَار وَفِي عدن[3].

يحدثنا كتاب الحميريين[4] عَنْ دخول الْمَسِيحِيَّة إِلَى اليمن ونَجْرَان فِي القَرْن الثّاني، وَفِي القَرْن الرّابع شارك «يوحنا» الْأُسْقُف عَلَى اليمن شارك فِي مجمع نيقية 325م[5]، وَفِي القَرْن الخامس كَانَ هُنَالِكَ، عَلَى مَا يُعتقد، ستة مطارنة فِي الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة، والعديد من الكَنَائِس فِي اليمن فِي صنعاء وعَدن وظفار.

تغلغلت المسيحيَّة في القبائل، ومنها قَبِيلَة بَهْراء، وهي حَيّ من الْيمن، وفيها

(1) – علي، جواد: المُفَصّل فِي تاريخ العرب، 1/ 121.

(2) – نسبة إِلَى آريوس الاسكندراني (256 – 336م) القائل: «ان الله واحد غير مولود، لا يشاركه شيء فِي ذاته تعالى». قنواتي: المسيحيّة والحضارة، ص 26.

(3) – شيخو: النّصرانية وآدابها، ص56؛ علي، جواد: م. س. 4/ 219.

(4) – اغناطيوس يعقوب الثّالث: الشّهداء الحميريون العرب في الوثائق السّريانية،(المجلة البطريكية، دمشق، 1966) ص23 وبعدها.

(5) – شيخو: م. س. ص57.

أنْشد تَغْلَب:

وَقد عَلِمَتْ بَهْرَاءُ أنَّ سُيوفَنا سُيُوفُ النَّصارَى لَا يَلِيقُ بهَا الدَّمُ[1]

يكـاد الموقع الجغرافي يكون له أثـرٌ في الحياة الدينيّة والسياسـيّة والاقتصاديّة، فكانـت «نَجْـرَان» تُعَدّ من أهـم المواضع المهمَّة الحسَّاسـة في شـبكة المواصلاتِ البريَّـة قبـل الإسـلام، ففيها تلتقي طـرق المواصـلات الممتدة في الجنـوب، وفيها يتصـل الطريق البرّيّ التجاريّ المهم الممتد إلى بلاد الشـام، فيلتقـي بطريق العَرَبيّة الجنوبيـة، ومنها يسـير الطريـق المارّ إلى «الدواسـر» فالأفلاج فاليمامة، أو سـاحل الخليج، ومنه إلى العِرَاق[2].

ارتبط الوضع الديني فِي جنوب بلاد اليمن بالإضطرابات السِّيَاسِيَّة والاقتصادية، الَّتِـي حدثت فِي القرون الأخيرة قَبْلَ ظهور الإِسْـلَام، ففي بدايـة القرن الرابع وصل نفـوذ الإثيوبيِّـن إِلَى جنوب بلاد العرب، وسـاعد عَلَى انتشـار النَّصْرَانِيَّة، وشـكلوا فِـي نَجْـرَان جماعة نصرانيَّة مشـهورة، ملاكها مـن اليونانيين والسـريان والإثيوبيين والنَّسْطُورِيّين[3]. في حين ذُكِر أنَّه في عهد البطريق «سيلاس Silas» (505 – 423)، هـرب لاجئون من اليعاقبة Jakobiten إلى الحيرة، غير أنَّ النسـاطرة أجلوهم عنها، فذهب قسم منهم إلى نَجْرَان، فنشروا مذهبهم بين السكان[4].

مـن قبل، تمـدّدت اليهودية الـى العربيَّة الجنوبية، لأسـباب سياسـيّة واجتماعيّة واقتصاديّـة ودينيّة، يعزوهـا الوعي التاريخي الى عصر سـليمان (970 – 930 ق.م) وعلاقتـه بملكـة سـبأ[5]، ومنذ الغزو الآشـوري لمملكة يهوذا، وسـبي «سـنحاريب Sennacherib[6]» لليهـود عـام 697 ق.م.، والسـبي البابلـي علـى يـد «نبوخذ نصر

(1) – ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم 4/ 313.

(2) – علي: م. س. 1/ 221

(3) – هيربرت بوسة: أسس الحوار في القرآن الكريم، ص41.

(4) – علي، جواد: م. س. 12/ 190، نقلا عن: Chronik von Seert، II، 144.

(5) – انظر: الكتاب المقدس، سفر الملوك، 10: 1 –10، 13؛ القرآن الكريم، سورة النمل 23 – 35.

(6) – ابن سرجون الثاني، ملك آشور (705 – 681 ق.م). شاي، بلوش: دليل حضارات الشرق

«Nebuchadnezzar II» في 597ق.م، وفي 586 ق. م، وفي عهد الرومان هدم الامبراطور «تيتوس Titus» عام 70م القدس، وقضى الأمبراطور «هادريان Hadrian» على ثورة اليهود في 135م، وأعدم الأسرى، أو بيعوا كرقيق. وبعد انتشار المسيحيّة تأثّر اليهود من إعتراف بيزنطا الرسميّ لمنافسيهم المَسِيحِيِّينَ[1].

كَانَتْ اليَهُودِيَّة منافسا قويًا للنصرانيّة فِي جنوب بلاد العرب، وَكَانَتْ اليَهُودِيَّة تُؤْثِر الفُرْس عَنْ التحالف مَعَ الإثيوبيين، وانعكس ذَلِكَ عَلَى الصراع بَيْنَ الفُرْس والبِيزَنْطيين[2]. وتفصح عَنْ روح العداء المجازرُ الفظيعة، الَّتِي تعرض لها الْعَرَب الْمَسِيحِيّون من نَجْرَان وحِمْيَر، عَلَى يد الملك الْعَرَبِيّ اليهوديّ مسروق (ذو نواس) عام 523، مَا حملهم عَلَى طلب النّجدة من الحَبَشَة. فيهب الاحباش الْمَسِيحِيّون لنجدتهم عام 525 ويُهزم مسروق. وَكَانَ الملك الْمَسِيحِيّ أبرهة الأشرم فِي النّصف الثّاني من القَرْن السّادس قَدْ بنى كاتدرائية فِي صنعاء وعمل عَلَى دعم الْمَسِيحِيَّة وتنشيطها كثيرًا[3].

في ضوء الصراع السياسي بين الدول للسيطرة على جزيرة العرب، يمكن اصطباغه بالصبغة الدينيّة، في الصراع بين اليهوديّة، تؤيدها دولة الفرس، وبين المسيحيَّة، تؤيِّدها دولة الروم من الشمال، مستعينة بالحبشة من الجنوب. هذا الصراع الذي يروي التاريخ ظواهره في اليمن، كان قد انتقل قبيل الإسلام إلى الحجاز نفسه[4].

عرفت نَجْرَان بكونها مركزا قديما للمَسِيحِيَّة، ظل يحافظ عَلَى مسيحيته، مَعَ قربه من عاصمة الدَّولَة، سواء كانت في العربيَّة الجنوبيَّة قبل الإسلام، أو في مبتدأ تاريخ الإسلام، عَلَى خلاف مواطن مَسِيحِيَّة أُخرَى فِي أطراف جَزِيرَة الْعَرَب، فَكَانَ ثَمَّة

الأدنى القديم، ص162.

(1) - نجدت خماش: الشام في صدر الإسلام، (دار طلاس، دمشق، 1987) ص72.

(2) - هيربرت بوسة: م. س. ص41.

(3) - صوما أسعد الدكتور: «لمحات من تاريخ الكنيسة السّريانية الشّرقية» (ج 3)، منتديات عين كاوة، 2009.

(4) - يوسف درة الحداد: القرآن دعوة نصرانية، (بيروت 1986) ص227.

بيـتُ عبـادةٍ عُرِفَ بـ«كعبة نَجْرَان». وَهُوَ بناءٌ بُني عَلَـى هيأةِ الكعبة. وأُضْفِيَ عَلَيْهِ من معاني القُدْسِيّة فِي رِوَايَة ابن الكَلْبي[1]: كَانَ إِذَا جاءها الخائفُ أمِنَ، أَوْ طالبُ حاجةٍ قُضِيَتْ، أَوْ مُسْتَرْفِدًا رُفِد.

يستخلص - مـن الأخبار الواردة عَنْ هَـذِهِ الكعبة، ومن أسـماء أصحابها، ومن كونهم أَسَاقِفَة - أَنّها كَانَتْ بيعة أسسها النَّصَارَى فِي مركز النَّصْرَانِيَّة فِي اليمن، وَهُوَ موضـع نَجْـرَان، وَأَنَّهُ لا علاقة لَهُ بالوَثَنِيَة. ويذكـر الإخْبَارِيّون أن بني عبد المدان بن الدّيـان الحارثـي أقاموها هُنَـاكَ، مضاهاة للكعبة فِـي مَكّة[2]. وَكَانَ بنـو الحارث بن كعب هُمْ رؤساء نَصَارَى نَجْرَان، وَفِي كعبتهم هَذِهِ قَالَ أعشى قيس[3]:

وكعـبةُ نَجْرَان حَتْـمٌ عليـ ـكِ حَتَّى تُنـاخي بأبوابـها
نزورُ يزيدَ وعبدَ الْمَسِـيح وقيسـاً وَهُمْ خيرُ أربابـها
إِذَا الحَبراتُ تـلـوَتْ بِهِمْ جـرُّوا أسـافـل هُـدّابهـا
وشاهدُنا الجُلّ واليـاسمـ ـين والمسمعاتُ بُقصّابِهـا

5. الْمَسِيحِيَّة فِي الحَبَشَة:

حظت الحَبَشَـة بأهَمِّيَّة كبيرة فِي موقعها الجُغْرَافِيِّ فِي قربها من اليمن والحجاز، وموقعهـا عَلَـى الخَارِطَة الدّينِيَّـة، يكمن فِي كونها اعتنقـت الْمَسِـيحِيَّة، وأَنّها كَانَتْ توظـف فِي الصّـراع الدّولي لصالح بِيزَنْطَةَ الْمَسِـيحِيَّة، وحاولت تصدير الْمَسِـيحِيَّة إِلَـى اليمن وأعمالها من خِلَالِ غزوها اليمن سـنة525، وحاولت الوصول إِلَى مَكّة؛ فَضْلًا عَنْ اساليب الاتصال الأُخْرَى كالتّجارة والتّبشير الْمَسِيحِيّ.

---

(1) - أبو الفرج: الأغاني، ج 24 (دار الفكر، بيروت) 12/ 11؛ ياقوت: معجم البلدان 5/ 268، الخزل والدأل بَيْنَ الدور والدارات والديرة، ص 56.

(2) - الطبري: تاريخ الرسل، 3/ 132؛ البكري: معجم ما استعجم 2/ 603؛ القلقشندي: صبح الأعشى فِي صناعة الإنشاء، 5/ 39 وما بعدها»؛ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر فِي تاريخ العَرَب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)(بيروت 1988) 2/ 307.

(3) - أبو الفرج: الديارات، ص 27.

لا غـرو مـن متابعة صـلات الْعَرَب بالحَبَشَـة لأهَمِّيَّتهـا التّاريخيّـة، فانها صلات قديمـة معروفة ترجع إِلَى مَا قَبْلَ الميلاد. فبين السّـواحل الإفريقيـة المقابلة لجَزِيْرَة الْعَـرَب وَبَيْـنَ السّـواحل الْعَرَبِيّة اتصـال وثيق قديم، وتبـادل بَيْنَ السّـكان. إِذْ هاجر الْعَـرَب الجنوبيون إِلَى السّـواحل الإفريقيّـةِ وكَوَّنُوا لَهُمْ مسـتوطناتٍ هُنَاكَ، وهاجر الأفارقـة إِلَـى الْعَرَبِيّة الجنوبية، وحكموها مرارًا، وَقَدْ كَانَ آخـر حكم لَهُمْ عَلَيْهَا قَبْلَ الإِسْلَام بأمد قصير[1].

كَـانَ ملوك أكسـوم وَثَنِيّين. بقـوا عَلَى وَثَنِيّتهم إِلَـى القَرْن الرّابـع للميلاد، بعدها دخلت الْمَسِيحِيَّة إِلَى الحَبَشَة، وَكَانَ أول من تنصر من ملوك الحَبَشَة هُوَ «الإعاميدة» «علاعاميـدة» ela amida، المعاصـر للقيصر قسـطنطين[2]، تشـير المصـادر الى أنّ دخول المسيحية الى الحبشة، تمَّ على يد «فرومنطيوس الصوري»، وهو أحد التجار الذين أوفدهم «قسـطنطين»، لتوثيق العلاقات التجارية مع دولة أكسـوم، واسـتطاع أنّ يهدي ملكها «عيزانا» EZANA الى المسـيحية سـنة 340م[3]. ويظن أن «عيزانا» هُـوَ ابن الملـك «الأعميـدا» ELA – AMIDA، هُوَ أول ملك تنصر مـن ملوك هَذِهِ المملكـة، وَذَلِكَ لعثور الباحثين عَلَى آثار تعود إِلَى عهده، ترينا القديمة مِنْهَا أَنَّهُ كَانَ وَثَنِيًا، وتُرِينَا الحديثةُ مِنْهَا أَنَّهُ كَانَ نصرانيًا[4].

تغلغلت الْمَسِيحِيَّة عَلَـى المذهب المونوفيزي فِـي الجَزِيْـرَة الْعَرَبِيّة، عَنْ طريق مِصْرَ والحَبَشَـة، كَمَا تغلغل المذهب الشّـرقي عَـنْ طريق التّجارة والغـزوات، الَّتِي قام بِهَا الفرس للمنطقة. وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ الْمَسِـيحِيِّينَ المشارقة، قبيل ظهور الإِسْلَام، منتشرون فِي أماكن كثيرة من الحجاز واليمن، وقطر والبحرين، وَبِخَاصَّةٍ فِي نَجْرَان، ويقومون بدور كبير فِي نشر الثّقافة بَيْنَ القَبَائِل الْعَرَبِيّة[5]. ونهجت الكَنِيسَة فِي الحَبَشَة

---

(1) – علي: المُفَصَّل، 6/ 139.
(2) – م. ن. 6/ 161.
(3) – موسوعة ديانات العالم، المسيحية، 10ج، (دار كريس انترناشينال) 2/ 63.
(4) – م. ن. 6/ 141
(5) – أدور هرمز ججو النّوفلي: «تركيبة كنيسة المشرق ومختلف الأنشطة فيهَا «م.س.

منهج الكَنِيسَة الأرْثوذَكْسِيَّة فِي مِصْرَ، وَهِيَ خاضعة لها كنسيا[1].

مِهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ فإنَّ إنتشـارَ الْمَسِيحِيَّة فِي البلاد الْعَرَبِيّة مـن أطرافها كلها، ليظلَّ الاوسـع انتشـارا عَلَى الخَارِطَة الدّينِيَّة لبضعة قرون، حَتَّى مجيء الإِسْلَام، الَّذِي أخذ يسحب البساط الحضاري الدّينِيّ من تحتِها بأساليبَ عِدَّةٍ، نذكرها فِي غضون الدّراسة.

تكمن خلاصة الانتشـار الْمَسِيحِيّ قبيل الإِسْلَام فِي مقالة الْمُؤَرِّخ بول فيني[2]: فِي ظل هيمنة الإمْبَرَاطُورِيَّة الرّومَانِيّة ظهرت الْمَسِيحِيَّة، وانتشـرت بدءًا من 312م عَلَى مدار البحر المتوسـط كلّه، ثُـمَّ تغلغلت عميقا، وأصبحت هِيَ العقيدة المهيمنة عَلَى افريقيا الشّـمالية والشّرق الأوسط وتركيا وأوربا. وَلَكِنَّ بَيْنَ عامي 632 و732م ظهر منافس غير متوقع عَلَى الإطلاق، هُوَ الإِسْلَام، وفرض نسخة أُخْرَى من النّبوة، أَوْ دين التّوحيد، وَهِيَ نسخة أكثر انخراطا فِي المجال السِيَاسِيّ من الْمَسِيحِيَّة، وأكثر هجوميـة أَوْ مماحكـة جدالية مِنْهَا فِـي المجال الدّينِـيّ العقائدي. لَكِنَّهُ كَانَ يشـاطر الْمَسِـيحِيَّة رغبتهـا فِي اسـتئصال الوَثَنِيّـة، أَوْ مَا يدعوه القُرْآن بالشّـرك والمشـركين استئصالا كاملا.

---

(1) - علي عبد الواحد وافي: الاسفار المقدسة فِي الاديان السّابقة للإسلام، ص108.

(2) - فِي كتابه «عندما أصبح عالمنا مسيحيا». Poul Veyne، Quand notre monde est devenu chrétien، Albin Michel، Paris 2007. نقلا عَنْ آركون: نحو تاريخ مقارن للأديان التّوحيدية، ص261.

الفصل الثّاني

العَلاقَات الإسْلَاميّة الْمَسِيحِيّة فِي عصر الرّسالة

(13ق.هـ - 11هـ/ 610 - 632م)

1. جَزِيْرَة الْعَرَب عِنْدَ ظهور الإِسْلَام:

كانت الحياة العربية، بحسب الواقع الجُغْرَافِيّ، تتقاسمها البداوة والمدينة، فكانت البداوة هي المُهيمنة في المجال الأنثربولوجيّ، إذ أن الجمهور الأعظم من العرب لا يزال خاضعا للوجود البدويّ، الرعويّ، القبليّ، الحربيّ. في حين كانت المدينة هي السائدة في المجال التاريخيّ، فقد أفرزت حواضر، وتمايزت في شبه الجزيرة بنشاطاتها الحضاريَّة، نحو: الحِيرة، وبصرى، وظفار، وصنعاء، ونَجْرَان، ومكّة، والطائف.

لم تكن مكّة، في نهاية القرن السادس وعشية ظهور الإسلام، أكثرَ أهميَّة من المدن التي تأسست فيها الدول، او كانت العاصمةَ لدولتها، مثل: الحيرة وصنعاء وبصرى، بل أنَّ أهمية مكّة تنبع من كونها كانت مدعوَّة لتنظيم وتدبير القوى الجديدة للعروبة البدوية، ولإجراء عمليّة وصل بين العالمَين الداخلي والخارجي، عالم القبيلة والمدينة[1]، مستثمرةً الهاجس الدينيّ والعباديّ لوثنيّة القبائل، وجمع آلهتهم المتنوعة في بيت الحرام، لتتماهى في قدسيتها، ولتكون مكّةُ، وما عُزِيَ الى قريش، أنّها تتميز بعقليّةٍ خاصَّة، ناظمةٍ للحياة الإقتصاديَّة والاجتماعيَّة والدينيَّة للعرب، في الأشهر الحرم، ورحلة الشتاء والصيف، ومشاعرِ الحجِّ الى البيت العتيق. وكاد هذا

(1) - هشام جعيط: الفتنة، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، (بيروت، 2000) ص13.

التنظيمُ أنْ يجِدَ - للبدو على قبائلهم، والحضر على تنوعهم الدينيِّ والديمغرافيِّ - المشتركاتِ في اللغة والقيم والمواقف.

زخر القَرْن السّادس للميلاد بالحَرَاك الدّينِيّ فِي جَزِيْرَة الْعَرَب وأطرافها، فالْمَسِيحِيَّة ضربت أجرانَها وانتشرت فِي الشّام ونواحيها عَلَى مذهب اليَعَاقِبَة، وَفِي العِرَاق وحياضِها عَلَى مذهب النَّسَاطِرَة، حَتَّى نَجْرَان وتُهَامَة والحجاز واليمن واليمامة والبحرين، وثَمَّةَ قَبَائِل عَرَبِيَّةٌ فِي البادية قَدْ تنصَّرتْ. وَكَانَتْ اليَهُودِيَّة - قبلًا - قَدْ أرستْ قواعدَها فِي اليمن ويثرب. وَكَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ أهلَ الكتاب، أي التّوراة والإِنْجِيل.

ويقابلها عَلَى أديم بلاد الْعَرَب الوثنيَّة، ويطلق عَلَيْهَا دين القَبَائِل، وَهُمْ الأميُّون، الذين لا كتابَ لديهم، غير أنهم يشكلون الأغلبية. زد على ذلك انّ وجودا لافتا لمعتقدات أخرى، بيد أنَّها لا تعدو الأقليات الدينية، نحو: الحنفيَّة دين إِبْرَاهِيم، واالمَجُوسِيَّة المتدفقة من بلاد فارس، والصّابئة لها وجود - أَيْضًا - في حرَّان والعراق، ولعل أكثرهم حضورا المندائيّون، أتباع طائفة المعمدان، المستوطنة فِي جنوب بلاد الرافدين[1].

أضفَت لغةُ عرب الشمال، التي تعدّ لغة أطول موسم تجاريٍّ مع العِرَاق والشام، فضلا عن تعايشها مع شقيقتها اللغة السريانيَّة، أضفت شيوعًا في المجتمع الجزريّ، وقبولًا لأنْ تصطفيها مكَّة لغةً لها. مكّة القطب الدينيّ، والمركز التجاريّ، والملتقى الأدبيّ، وما يُحيق بها من قبائل كبرى في الحجاز ونجْد. ويأتي تفضيل لغة الشمال، والإكتتاب بحرفها، على حساب لغة العربيّة الجنوبيّة، وحَرْفِها المُسْنَد، على الرغم من قربها الجغرافيّ والديموغرافيّ من اليمن. هذا القبول والشيوع اللغويّ كان مدعاة لتسرب المسيحيَّة الى تُهَامَة والحجاز من العِرَاق والشام، ومنحها قدم ثبات ووجود، عبر خيوط التواصل، وأهمّها اللغة والتجارة.

---

(1) - هيربرت بوسه: أسس الحوار فِي القرآن، ص64.

بُعيد انتشار الْمَسِيحِيَّة في فلسطين، بوتيرة سريعة، تَغَلْغَلَتْ فِي بلاد الْعَرَب، وبين القبائل بسرعة، إذ لم يزاحمها دين آخر، في التبشير وسبله، فكانت المنافس الأقوى للوثنيّة. ذكر الجاحظ[1] أَنَّهُ: «كَانَتْ النَّصْرَانِيَّة قَدْ وجدت سبيلَها بَيْنَ تَغْلِب، وشَيْبان، وعبد القَيْس، وقُضاعة، وسُليح، والعُباد، وتَنُوخ، ولَخْم، وعامِلة، وجَذام، وكُثَيْر بن بَلْحَارِث بن كَعْب». ونقل اليَعْقُوبِيّ[2] اخبار من تنصّر من أحياء الْعَرَب: قوم من قُرَيْش من بني أسَد بن عَبْد العُزَّى، مِنْهُمْ عثمان بن الحويرث بن أسد بن عَبْد العُزَّى، ووَرَقَة بنِ نَوْفَل بن أسد، ومن بني تميم بنو امرئ القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة بنو تَغْلِب، ومن اليمن: طَيْء، ومَذْحِج، وبَهْرَاء، وسُلَيْح، وتَنُوخ، وغَسَّان، ولَخْم». وبفضل مَا كَانَ لكثير من الْمُبَشِّرِينَ من علم ومن وقوف عَلَى الطّب والمنطق ووسائل الإقناع، وكيفية التّاثير فِي النّفوس، تمكنوا من اكتساب بعض سادات القَبَائِل، فأدخلوهم فِي دينهم، أَوْ حصلوا مِنْهُمْ عَلَى مساعدتهم وحمايتهم[3]. ومن أهم المدن الَّتِي كثرت فِيهَا الْمَسِيحِيَّة: اليمن، ونَجْرَان، ومَكّة، ودَوْمَة الجَنْدَل، وتَيْمَاء، وتَبُوك، واليَمَامَة، ونَجْد، غَيْرَ أَنّها كَانَتْ تقِلُّ فِي يَثْرِب.

يُرَجِّح بعض المستشرقين[4]، أنَّ سِماتِ المسيحيَّة وقدرَها في الجزيرة العربيَّة، كان له الجزءُ الأعظم من التأثيرات العقيديَّة والأخلاقيَّة والروحانيَّة -بصورة عامة- على العقيدة الجديدة، إذ انتشرت - منذ القرون الأولى - البعثات النسطوريَّة والمنوفستيَّة وعدد من النساك والزهاد anchorilies في غضون المراكز الحضريَّة من قبيل: الغساسنة، واللخميِّين، وعديد من قبائل العرب.

عِنْدَ ظهور الإِسْلاَم، كَانَ سكان الشّام والعِرَاق معظمُهم من بقايا الآراميين[5]

(1) - رسائل الجاحظ، (القاهرة،1989) 3/ 45.

(2) - تاريخ اليعقوبي، 1/ 257.

(3) - علي، جواد: م. س. 6/ 591.

(4) - كبريلي، فرانشيسكو Francesco Gabrieli: محمد والفتوحات الإسلامية، (بيروت 2011) ص112.

(5) - من غرب الجزيرة العربية، استوطنوا أعالي الفرات وأواسطه في بلاد الرافدين، ورد ذكرهم

الأصليّين فِي الشّمال والشّرق، واليهود والسّامريّين فِي الجنوب، وبقايا الأنباط فِي الجنوب الشّرقيّ، يليهم الْعَرَب الغساسنة والمناذرة، ثُمَّ قَبَائِل إيَاد ونمر وربيعة بَيْنَ النّهرين[1]، ويتخلل هَذَا المجموع شتات من أمم أُخْرَى، كالجراجمة فِي جبل اللكام[2]، والجرامقة فِي الموصل[3]، وأخلاط من مُوَلَّدِي اليونان والرّومان والأحباش عَلَى شَواطئ جزيرة العرب، ومولّدي الفرس والأكراد فِي الشّمال[4].

اتَّخذتْ التّحركات السِّيَاسِيَّة الاقتصاديّة لدول المنطقة، سبيلا للسيطرة عَلَى الجنوبية الْعَرَبيّة والحجاز، يطبعه طابعا دِينِيّا، وأحيانا يأخذ جانبا دوليًّا مسلحا، فبِيزَنْطا الَّتِي اتخذت الْمَسِيحِيَّة دينًا رسميًّا للدولة، مِنْذُ مطلع القَرْن الرّابع، ظَلَّتْ تضْطَلِعُ بنشره وحمايته، وَكَانَتْ فِي رعايتها الكَنِيسَةُ المَصْرِيَّةُ فالحَبَشِيَّةُ، وإنْ اختلفتْ مذاهبُهم، بقيت الْمَسِيحِيَّة غايتَهم السّامية الْمُشْتَرَكة.

لا يستبعد «أوليري»[5] أن يكون، من بَيْنَ تجار الرّوم فِي مَكّة، من كَانَ عينًا للبِيزَنْطيين عَلَى الْعَرَب، يتجسس لَهُمْ، ويتسقط أخبارهم، ويكتب لَهُمْ عَنْ صلاتهم بالفرس، وعن أنباء الفرس فِي جَزِيْرَة الْعَرَب، واتصالهم بالقَبَائِل، لشدّة حاجة الرّوم إلَى تِلْكَ الأخبار، لإفساد خطط الفرس، وإبعادهم عَنْ بلاد الْعَرَب وعن البحار، والعالم -يومئذ- معسكران متخاصمان: معسكر للروم، ومعسكر للفرس.

في النصوص الآشورية ابان القرن 13ق.م. جان دي شاي، ريموند بلو: دليل حضارات الشرق الأدنى القديم، (بغداد 2013م) ص23.

(1) - سميت الجزيرة؛ لأنهَا بَيْنَ نهري الفرات ودجلة، وَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَى ثلاثة أسقاع: ديار ربيعة، وديار مضر، وديار بكر. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة فِي ذكر أمراء الشّام والجَزِيْرَة، (دمشق، 1991م) ص 112.

(2) - الجراجمة من مدينة عَلَى جبل اللكام عِنْدَ معدن الزاج فِيماَ بَيْنَ بياس وبوقا، وأن أمرهم كَانَ فِي أيام الرّوم إِلَى بطريق انطاكية. البلاذري: فتوح البلدان، (بيروت، 1988 م). ص 159.

(3) - الجرامقة وهم قوم بالموصل أصلهم من العجم. الجوهري: الصّحاح تاج اللُّغَة وصحاح العَرَبِيّة، (بيروت 1987م)؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول 1/ 77.

(4) - الأب نقولا الخوري: «أصل المسيحيّين فِي سوريا وفلسطين مِنْذُ فجر التاريخ حَتَّى الفتح العَرَبِيّ»، دراسات سريانية.

(5) - 1. Oleary، **Arabia Befor Muhammad**، p. 184.

نتجـت – عَـنْ تفاقـم المشـروع الدّينـيّ والاقتصـادي لبِيْزَنْطة، فِي ظـل الصّراع السِيَاسِـيّ الدّولي – مصادماتٌ عَسْـكَرِيَّة، فإثْر ضرب الدّولة الحميريَّة، ذات الدِّيَانَة اليَهُودِيَّـة، نَجْرَان الْمَسِـيحِيَّة بقُوَّة، وقتل أهلها، وتحريقهـم فِي الإخدود، الذي خَدَّه الملـك ذو نُـواس الحميـري عـام (523م)[1]، وَتعاطـف معهـم القُـرْآن، ووصفهـم «بالمؤمنيـن»[2]. انتدبـت بِيْزَنْطا الحبشـة المسـيحيَّة لحـرب العربيَّـة الجنوبيَّة، عَلَى إثرهـا خرج اليهـود بقَبَائِلهم وأحبارهم إِلَى يَثْرِب، وانتشـرت الْمَسِـيحِيَّة فِي اليمن، وبنـى إبرهـة كَنِيسَـة كبرى فِـي صنعـاء، أسـماها «الْقُلَّيْـس»[3]، ودعا الْعَـرَب للحج إِلَيْهَـا[4]؛ ولعـل هدفـه من ذلك صرف العرب عـن حج مكة، وتحويـل أنظارهم الى المسيحيَّة، فتوجَّه إِلَى مَكّة عام (540م)[5]، فِي محاولة منه لهدم بيت الْعَرَب، وما فِيهِ من معالِمَ دِينِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، تَنْشُـدُ اللهَ فِي النِّهَايَة. ومن ثَمَّ كان الغزو الفارسـي لليمن في عام (570م)، وجعلها مقاطعة فارسيّة، مهّدَ بذلك للتغلغل النسطوري الذي رافقها، ضمـن الحملات التبشـيرية المسـيحيّة، التي كانت الكنيسـة النسـطوريّة تنظمها من وادي الرافدين، وترسلها الى المناطق الغربية والشرقية[6].

فِـي الثّلـث الأخير من القَـرْن السّـادس لميلاد الْمَسِـيح، جاءت ولادة الرّسـول مُحَمَّـد، الَّتِـي بشـرت بظهـور حدث خطير للبَشَـرِيّة، قَـدْ يُغيِّر فِـي الخَارِطَـة الدّينِيَّة

---

(1) – نشوان الحميري: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم 3/ 1669؛ النّويري: نهاية الأرب فِي فنون الأدب(القاهرة، 1423ه) 5/ 235.

(2) – {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النّار ذات الوقود، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قعود، وهم عَلَىَ ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا مِنْهُمْ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} البروج4 – 7.

(3) – الأزرقي: أخبار مَكّة وما جاء فِيهَا من الآثار، (دار الأندلس، بيروت) 1/ 137؛ ابن هشام، عبد الملك الحميري (ت213هـ/ 828م): السّيرة النّبويّة (القاهرة 1955م).1/ 43.

(4) – أبُو نعيم، (ت535هـ) دلائل النّبوة، (الرّياض، لا. ت)، ص 151.

(5) – ربط كثير من مؤرخي العرب ميلاد الرسول (570م) بعام الفيل، ليتخذوا من ذلك دليلا اعجازيا علي نبوته، وما أثبتناه تدعمه التحقيقات التاريخية، من الاستدلال بالتواريخ الرومانية، وأن شدة الأزمة السياسية والعسكرية بين القيصر جستنيان (527 – 565م) وبين كسرى انوشروان (531 – 579م)، كانت قبل منتصف القرن السادس.

(6) – ابو زيد: المسيحية في إيران، ص114.

فِي العالم. نشـأ هَـذَا الوليد فِي مَكّة، وترَعْـرَعَ فِي ميادينهـا الإجْتِمَاعِيَّة والاقتصاديّة والدّينِيَّـة، حَيْـثُ التّنَـوُّع الدّينِيّ، وَكَانَ مظهرُ الحَـرَاك الدّينِيّ يتَطَوّر عَلَـى نحوٍ، يُنْبِئُ بتغيراتٍ جديدة تجاهَ الدِّيَانَات السّمَاوِيَّة، ثَمَّةَ نَفَرٌ من قُرَيْش، كَانُوا يبحثون عَنْ الدِّينِ القيِّـمِ، وَهُمْ: زيد بن عَمْرو بـن نُفَيل، وَرَقَة بنِ نَوْفَل، عُبَيد الله بن جَحَش، عُثْمان بن الحُويْـرث، اتفقـوا فِي الرّأي والعقيدة، وتعاهـدوا عَلَى نَبْذِ عبـادةِ قومِهم، وما كَانُوا عَلَيْهِ من مخالفة لدين إِبْرَاهِيم، وتصادقوا، وكوّنوا عُصْبَةً خرجتْ عَلَى عبادة قُرَيْش، ودأبوا يطلبون الدِّين، ويَلْتَمِسُونَ أهْلَ الكتاب من: اليَهُود، والنَّصَارَى، والحَنِيفِيَّة[1].

الحَنِيفِيَّـة[2]: دِيَانَـةٌ توحِّد الله، اضْطَلَعَ بِهَـا إِبْرَاهِيم أَبُو الأنْبِياء، فَهِـيَ أُمُّ الدِّيَانَات الَّتِي وُصِفَتْ بالإِبْرَاهِيميَّة: اليَهُودِيَّة، الْمَسِيحِيَّة، والإِسْلَام، وَهِيَ الأرُومَةُ الإِبْرَاهِيمِيَّة المُشْتَرَكة للديانات التّوحيديَّة.

جدير بالعلم، أنَّ إِبْرَاهِيم حَظِي بمكانةٍ عالية فِي الدِّيَانَات الثّلاث، فاليَهُودِيَّة تُؤَكِّدُ حَقِيْقَةً، أنَّ إِبْرَاهِيم كَانَ الأبَ، الَّذِي مِنْهُ جاء الشّعبُ المُختار (إشعيا 51/ 2، حزقيال 33/ 24)، وما أعظمَ أهَمِّيَّة تِلْكَ الحَقِيْقَة، أنَّ الله اختار إِبْرَاهِيم (نحميا 9/ 7)، وفداه (إشـعيا 29/ 22)، وباركه بركةً خَاصَّة (ميخا 7/ 22). فِي الْمَسِيحِيَّة إِبْرَاهِيم بطلٌ من أبطال الإيمان، كَمَا أنَّ يسـوُع جاء من نسْـلِ إِبْرَاهِيم (متى 1/ 1)، لَكِنَّ يَسُـوعُ أكَّد أنَّهُ أعظمُ مِنْهُ (متّى 1/ 2، 17، 3/ 9؛ مرقس 12/ 26). فِي الإِسْلَام جعله الله للناس إمامًا (البقرة124)، واتَّخذه خليلًا (النّساء125)، وإنَّ إِبْرَاهِيم يتسامى بأخلاقه، أنَّهُ {لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيـبٌ} (هـود75)، وباتصاله باللـه، أنَّهُ {كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّـهِ حَنِيفاً} (النّحل120)، وأنَّ مُحَمَّـدا ودينه جاءا عَلَى هَدْي إِبْرَاهِيم وملّتِـه الحَنِيفِيَّة {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى

---

(1) - ابن إسحاق: سيرة ابن إسحاق (كتاب السّير والمغازي)، (بيروت 1978) ص95، ابن هشام: السّيرة، 2/ 51؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، (بيروت، 1995م) 38/ 336؛ الذّهبي: تاريخ الإِسْلَام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، (بيروت، 2003م) 1/ 90.

(2) - حنف عَنْ الشيْء وتحنف: مال، والحنيف: المُسْلِم الَّذِي يتحنف عَنْ الأديان أي يميل إِلَى الحق، وقيل: هُوَ الَّذِي يستقبل قبلة البيت عَلَى ملة إِبْرَاهِيم. ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم 3/ 382.

صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ دِيناً قِيَمـاً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيم حَنِيفـاً} (الأنعام161). وكثرَ ذكـرُ إِبْرَاهِيم فِي كتبها المقدسة[1].

ذهب «ولهـوزن» إِلَى أن الحنفاء هُمْ من النَّصَارَى، وأنَّ حركتَهم حركةٌ نصرانيَّة، وَأَنَّهُـمْ كَانُـوا القنطـرةَ الَّتِـي توصِـل بَيْـنَ النَّصْرَانِيَّـة والإِسْـلَام[2]. ويـرى» كبريلـي «Gabrieli[3]»: أنَّ الحنيـف كلمـة سـريانية «هنبـا Hanpa»، وفـي الأصـل «الهرطقة الوثنيـة» ومـن ثـم» المنشـق دينيـا»، وهو اسـم قد سـمَّى به العـرب أولئـك الأفراد المتدينين الذين كانت عقيدتهم التوحيد، ولم تتطابق مع اليهوديَّة ولا مع المسيحيَّة، والذين صاروا - فيما بعد - أما يشـايعون الإسـلام، أو تلاشـوا عند ظهور الإسـلام المنتصر... وأنَّهم كانوا مواظبين على تحقيق طريق وسـط للحلول المنوفسـتيَّة، في مسـائل اللانهائي أو الخلود... وفوق ذلك، فإنَّ هؤلاء الأحناف كان لهم - بالتأكيد - نصيبٌ ومشاركة في حمل العقيدة الجديدة.

ثَمَّةَ دالَّةٌ عَلَى مَدَى التَّأثِيرِ الدِّينِيِّ التَّوحيدي فِي فضَاءِ مَكَّة الدِّينِيّ، وَهِيَ مَا رُسِـمَ عَلَى جدران الكعبة من صُوَرِ الأَنبياءِ والملائكَةِ، الَّذِينَ يذكر مُؤَرِّخو مَكَّة قصصهم، بِخَاصَّـةٍ صورة عيسـى بن مَرْيَم وأمـه، فَجَعَلُوا فِـي دَعَائِمِهَا صُـوَرَ الْأَنْبِيَـاءِ، وَصُوَرَ الشَّـجَرِ، وَصُوَرَ الْمَلَائِكَةِ، فَكَانَ فِيهَا صُورَةُ إِبْرَاهِيم خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، شَـيْخٍ يَسْتَقْسِـمُ بِـالْأَزْلَامِ، وَصُـورَةُ عِيسَـى ابْـنِ مَرْيَـمَ وَأُمِّهِ، وَصُـورَةُ الْمَلَائِكَـةِ - عَلَيْهِمْ السَّـلَامُ - أَجْمَعِينَ[4].

رسـمت مُقَارَبَة الشّهرستاني[5] المشـهد الدِّينِيّ فِي مَكَّة، بأن الفرقتين المتقابلتين

---

(1) - ورد ذكر إِبْرَاهِيم فِي سفر التكوين (11 / 26 - 25 / 18) وفي باقي أسفار العهد القديم أكثر من أربعين مرة، ومرات الإشارة إِلَيْهِ فِي العهد الجديد تزيد عَنْ السّبعين. (دائرة المعارف الكتابية «إِبْرَاهِيم»). وفي القرآن ثلاث وستين مرة فِي سور البقرة وآل عمران ووهود ويوسف ومريم وغيرها.

(2) - علي، جواد: المُفَصَّل 12/ 36، نقلا عَنْ Wellhausen، Reste، S. 239. f4.

(3) - فرانشيسكو Francesco: محمد والفتوحات الإسلامية، ص113.

(4) - الأزرقي: أخبار مكة، 1/ 165.

(5) - الملل والنّحل، (الحلبي، القاهرة) 2/ 13.

قَبْلَ المبعث هُما: أهل الكتاب والأميُّون[1]؛ والأميُّ من لا يعرف الكتابة. وَكَانَتْ اليهود والنَّصَارَى بالمدينة؛ والأميون بمَكّة. وأهل الكتاب كَانُوا ينْصُرُون دينَ الأسباط[2]، ويذهبون مذهب بني إِسْرَائِيلَ وإسحاق؛ والأميُّون كَانُوا ينصرون دين القَبَائِل، ويذهبون مذهب بني إسماعيل، الدّوحة الثّانية لديانة إِبْرَاهِيم.

إن ظهور الإِسْلَام في الفَضاء الدّينيّ الكِتَابِيّ فِي بلاد الْعَرَب، حقّق المتواليَة الزمنيَّة للديانات الثّلاثة، اليَهُودِيَّة والْمَسِيحِيَّة والإِسْلَام في الصراع مع الوثنيّة. وفي حيثيّة الوجود تمكن هَذَا التّوالي أنْ يوفّر فرصة نوعيّة فِي فَهْمِ العَلاقَات بَيْنَ تِلْكَ الدِّيَانَات. وتتَجَلّى العلاقةُ فِي فهْمِ مَاهِيَّةِ الدِّيَانَات الكِتَابِيَّة، فِي عدم اعتراف الدِّينِ السّابق بالدّين اللاحِقِ أوّلًا، ونَسْخِ الدّين اللاحق للدين السّابق ثانيا، ومِنْ هُنَا يتضح معنى التّوقيت كمعيار للقيمة العَلاقَاتية، فَقَدْ تتفق الدّيانتان الأُخريان (الْمَسِيحِيَّة والإِسْلَام) عَلَى إلغاء لدين اليَهُودِيَّة[3]، وَهَذَا قَدْ ينتج مُشْتَرَكا يقرب العَلاقَات ويعززها بَيْنَهُمَا، ويُوصل طبيعة العلاقة القُرْآن الكريم: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى} (المائدة82).

فِي ظل المُشْتَرَك العَقَدِيّ بَيْنَ الدِّيَانَات الكِتَابِيَّة الثّلاث (اليَهُودِيَّة والْمَسِيحِيَّة والإِسْلَام) المُتَمَثِّل فِي إيمانها بالله وبما أوحي إِلَى إِبْرَاهِيم، تتَجَلّى فكرة ان الإِسْلَام يمكنه أن يكون طريقا للخلاص أوّلًا، وأن مُحَمَّدا النّبيّ جاء متمما للسلسلة الإِبْرَاهِيمِيَّة فِي مُعْتَقَداتِها ثانِيًا. وفَضْلًا عَنْ أَنَّ مُحَمَّدا استطاعَ أنْ يُبَشِّرَ الْعَرَب بدِينٍ غيرِ دينِهم، ويجعلَ فِيهِ مِن المُشْتَرَكاتِ مَعَ الدِّيَانَاتِ الكِتَابِيَّةِ السّابقةِ كَدَالّةٍ عَلَى الإِسْتِمْرَارِيَّةِ والجِدّةِ؛ فَإِنَّهُ يكشِفُ عَنْ أَنَّ النّبيَّ شَخْصِيَّةٌ تاريخيّةٌ عظيمةٌ أَثَّرَتْ فِي

(1) - قيل نسبة إِلىَ أم القرى مكة، أَوْ نسبة إِلىَ الأمة، أَوْ لأنَّهُمْ ليسوا أصحاب كتاب، وَهُوَ الأرجح.
(2) - الأسباط: جمع سبط، وهم خَاصَّة الأَوْلَاد، وهم فِي أَوْلَاد اسحق بِمَنْزِلَة الْقَبَائِل فِي أَوْلَاد اسماعيل. الجياني (ت 672هـ): إكمال الإعلام بتثليث الكلام، (مكة، 1984) 2/ 292.
(3) - السّيد مُحَمَّد الشّاهد: «حوار المسيحيّة والإسلام»، فِي كتاب المسيحية وديانات العالم لـ: هانس كونج، وجوزيف فان إس (بيروت، 1994) ص22.

مُجْرَيَاتِ الأُمورِ فِي العالمِ تأثيرًا جذريًا، بحَسَبِ «هانس كونج Hans Kung»، الّذِي يرى أن لا مَنَاصَ لِمَنْ يَتَقَصَّى الحَقِيقَة، أنْ يُسَلِّم بصِحَّةِ الأدِلَّةِ الآتية:

مثـلُ أنبيـاءِ إسْـرَائِيلَ لَمْ يَسْـتَمِدْ مُحَمَّـدٌ قوَّتَهُ من جماعـةٍ أَوْ سـلطةٍ حكوميَّةٍ، بل استمدّها عَنْ طريقِ عَلَاقَةٍ شَخْصِيَّةٍ بالله.

مثلُ أنبياءِ إسْـرَائِيلَ كَانَ مُحَمَّدٌ ذا إرادةٍ قويَّةٍ، رَأى فِي نفسِـه رسولًا مختارًا مكلَّفًا برسالةٍ مِن اللهِ يُبَلِّغُهَا الى الناسِ.

مثـلُ أنبياءِ إسْـرَائِيلَ جاءَ مُحَمَّدٌ برسـالتّه أثناءَ مِحْنَـةٍ (فَوْضى) دِينِيَّـةٍ واجْتِمَاعِيَّةٍ، وَكَانَ يَقِفُ وَحْدَهُ، بكُلِّ قُوَّةٍ وإصلاحٍ وإصرارٍ، عَلَى تبليغِ رسـالتّه، ضِدَّ قُوَّةٍ معارِضَةٍ مُسَيْطِرَةٍ، لها تقاليدُ تَتَمَسَّكُ بِهَا، ولا تُرِيدُ تَرْكَها.

مِثْلُ أنبياءِ إسْرَائِيلَ بلَّغَ مُحَمَّد، وبإصْرَارٍ لَا يَهِين، التّوحيدَ، الإيمانَ بإلهٍ واحِدٍ، لا شريكَ لَهُ، وَهُوَ الخالِقُ الرّحمانُ، والمحاسِبُ العَظِيم.

مثلُ أنبياءِ إسْـرَائِيلَ أمرَ مُحَمَّدٌ بطاعةِ اللهِ المُطْلَقَةِ، والعُبُودِيَّةِ لله (الإِسْـلَام)، بِمَا يَحْتَوِيهِ هَذَا مِن شُكْرٍ للهِ، ورحمةٍ بالعالمينَ (البشر).

مثـلُ أنبيـاءِ إسْـرَائِيلَ يَرْبِـطُ مُحَمَّدٌ التّوحيـدَ الخالِصَ بالإنْسَـانِيَّةِ (حُبَّ الإِنْسَـانِ للإِنْسَانِ - Humanismus)، ويربط الإيمان بوحدانية الله وعدله، بالمطالبة بالعدالة الإجْتِمَاعِيَّـة، يبشِّـر بالعـدل والخـلاص، يُنْـذِر الظّالمين بالنّـار، ويبشـر المنصفين بالجنة[1].

2. الرّسول محمد والْمَسِيحِيَّة فِي مَكَّة:

لَمْ تَكُنْ مكَّةُ قِبْلَةَ العربِ، يشِدُّونَ إِلَيْهَا الرِحَالَ حَجِيجًا فِي أشْهُرِ الحُرُمِ، وَحْدُهُمْ، بَلْ إنَّ نفحاتٍ من قدسيَّتِها بَلَغَتْ قُلُوبَ أبْناءِ الشَّجرةِ الإبْرَاهِيمِيَّة، فثمَّةَ صُوَرٌ لإِبْرَاهِيمَ واسماعِيلَ ومرْيَم والمسِيحِ وُجِدَتْ عَلَى جدرانِها. وحدَّث أهلُ الأخبارِ عَنْ كتاباتٍ قديمةٍ، مِنْهَا «أن قُرَيْشاً وَجَدَتْ فِي الرُكْنِ، أَوْ فِي بَعْضِ المَقامِ، كتاباً بالسّرْيَانِيَّةِ، قرَأَهُ

(1) - السّيد مُحَمَّد الشّاهد: «حوار المسيحيّة والإسلام»، ص31.

عَلَيْهِـمْ رَجُـلٌ مِن يَهُودَ: أَنَا اللهُ ذُو بَكَّـةَ خَلَقْتُهَا»[1]. إِذَا كَانَ مِـن الصَّعْبِ تقْرِيرِ أخْبَارٍ عِبَادِيَّةٍ لأَهْلِ الكِتَابِ فِي الكَعْبَةِ، فإِنَّ مَا يَجْدُرُ قَبُولُهُ، أنَّ الكعبةَ مَكانٌ مُقَدَّسٌ عالَمِيٌّ، فَقَـدْ انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ طُقُوسٌ عُنِيَ بِهَا فِي أَمْكِنَةٍ أُخرَى[2]. وأولتْ الصابئة القديمة االكعبة عناية دينية مخصوصة، وكانت قد قدست الكواكب، وجعلت لكل سبعة منها معبدا، قيل: إن الكعبة هي معبد كوكب زحل[3].

اتخذت الْمَسِيحِيَّة من نَجْـرَان[4] مركزا دِينِيًا، ومرفأً لتجمـع العمال القادمين من الحَبَشَـة، ومِنْ ثَـمَّ نقلهم إِلَى مَكّـة، فتكاثروا، ونظمُـوا أمرَهم مَعَ بعـض القَبَائِل فِي «حِلْـفِ الأحابيش»[5]، وكوَّنوا موقعا إِجْتِمَاعِيًا مرموقا فِـي مَكّة، وحققوا زعَامَةً ذات مكانـة فـي قُرَيْـش، تحضُر دار النّـدوة، مركز القرار فِـي مَكّة، وتتحالف مَـعَ قُرَيْش، ضمانًـا لسـلامة قوافـل مَكّة، ودفاعـا عَنْ حياضها، فكانوا يشـكلون فرقًـا فِي جيش القرشـيّين[6]. وَكَـانَ إِذَا عُدَّت قَبَائِل مَكّة وزعماؤها، قالـوا: عَلَى الأحابيش الحليس بن يزيد[7]، الَّذِي لَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ قبيل الحديبيَّة، قَالَ: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ»[8]، أَيْ: مِـنْ تَنَسّـكٍ وَتَعْظِيـمٍ لِلّهِ[9]، وَهُنَا يشـيرُ الرّسـولُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّهُـمْ كَانُوا نَصَارَى،

(1) - ابن اسحاق: السير والمغازي، ص 106؛ ابن هشام: السيرة النبوية، 1/ 196.
(2) - هيربرت بوسه: أسس الحوار فِي القرآن، ص52.
(3) - توفيقي، حسين: دروس في تاريخ الأديان، (قم، 1430هـ)، ص 110.
(4) - نجران - فِي عدة مواضع - مِنْهَا: نجران فِي مخاليف اليمن من ناحية مكة؛ وثمة روايات فِي تنصر أهلها نقلها ابن اسحاق عَنْ كعب الأحبار ووهب بن منبه. ياقوت: معجم البلدان، 5/ 266.
(5) - فِي تكوين الاحابيش آراء لـ: لامانس فِي مستشرقين آخرين، ومنها: هُمْ عرب وحبش ومرتزقة، وأن أولئك الأحابيش هُمْ من ساحل تهامة فِي الغالب من كنانة. علي، جواد: المُفَصَّل، 7/ 33.
(6) - لامنس اليسوعي Henri Lammens: «الأحابيش والنّظام العسكري فِي مكة»، مجلة المشرق، عدد34، ص19.
(7) - من بني الحارث بن عبد مناة. ابن حبيب: المحبر، (دار الآفاق، بيروت) ص170، المنمق فِي أخبار قُرَيْش، بيروت، 1985م) ص 172.
(8) - ابن هشام: السّيرة النّبوية، 2/ 312.
(9) - السّهيلي، (ت581هـ): الرّوض الأنف فِي شرح السّيرة النّبوية (بيروت، 1412هـ) 6/ 480.

أخذوا نَصرَانِيَّتَهُمْ من الحَبَش[1].

والراجح أنَّ الحُلَيْسَ أدّى دَوْرًا مُهِمًّا فِي تنظِيمِ أَوَّلِ مُمَارَسَةٍ تاريخيّةٍ للحوارِ بَيْنَ الوَثَنِيَةِ والإِسْلَامِ، ونَبْذِ العَدَاءِ، وإسْكَاتِ مَعْمَعَةِ الحروب بَيْنَ الطّرفينِ، ونشرِ السّلام فِي منطقةِ نزاعٍ دِينِيٍّ، كَادَ يستمرُّ، لَوْلَا مبادرةُ الرّسولِ مُحَمَّدٍ إِلَى الصّلْحِ. وَأَنَّهُ لدالَّةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى مَكانَةِ الحُلَيْسِ فِي دارِ النّدوةِ، إِذْ أُنْتَدِبَ لِرَسْمِ بُنُودِ معاهدةِ السَّلام بَيْنَ أهلِ مَكّة والْمُسْلِمِينَ بحيادِيَّةٍ، وأشّرتْ مهنيَّةُ الحُلَيْسِ الناظِمةُ للسلامِ بين طرفي النزاعِ، على مكانةِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي الإِدَارَةِ الدّينِيَّةِ والسِّياسيَّةِ فِي مَكّةَ.

جدير بالعلم، إنَّ هَـذِهِ الجَالِيَـةَ الكَبِيرَةَ لَـمْ تَقِفْ عِنْـدَ تَحْقِيـقِ مَكَانَـةٍ إِجْتِمَاعِيَّة فَحَسْب، بَلْ تَرَكَتْ أثرًا فِي لُغَةِ أَهْلِ مَكَّةَ، يَظْهَرُ فِي وُجُودِ عَدَدٍ مِنْ الكَلِمَاتِ الحَبَشِيَّةِ فِيهَـا، مِثْـلُ المُصْطَلَحَاتِ الدّينِيَّـةِ، والأدواتِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِـي الصِّنَاعَاتِ، وَفِي الأعمـال اليدويـة، الَّتِي يقـوم بأدائهـا العبيد. وَقَدْ أشـار العلمـاء إِلَى عدد مـن هَذِهِ الكَلِمَات، ذكروا أنّها تعَرَّبَتْ، فصارت من الكَلَام الْعَرَبِيّ[2].

وَبِحَسَـبِ «خريسُوسْتُوموس»[3]: كَانَ مُحَمَّـدٌ مُرْتَبِطًا مَعَ مَسِيحِيٍّ حِمْيَرَ، وعَلَى الأَخَـصِّ مَـعَ أَهْلِ مَدِينَةِ نَجْرَان، الَّتِي كَانَـتْ فِيهَا الْمَسِيحِيَّة مُزْدَهِـرَةً، إِذْ مَنَحَهُمْ - فِيمَا بَعْدُ - إمْتِيَازَاتٍ كَثِيرةً، تُؤَمِّنُ حُرِّيَّةَ مُمَارَسَـةِ دِيَانَتِهِم وَعِبَادَتِهِمْ، وتضمِنُ سـلامة الأَسَاقِفَةَ والكَهَنَةَ وَأَمْوَالَهُمْ.

عاصـر الرّسولُ مُحَمَّد قسـمًا مِمَن تنصَّـر من أحيـاء الْعَرَب، ولا سِيَّمَا قومًا من قُرَيْـش، من بني أسـد بن عَبْد العُـزَّى، مِنْهُمْ عثمان بن الحُويرث بن أسـد، ووَرَقَة بنِ نَوْفَل ابن أسد[4].

فَأَمَّـا عُثْمَـانُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ - بحَسَـبِ ابْنُ إِسْـحَاقَ - فَقَـدْ قَدِمَ عَلَـى قَيْصَرَ مَلِكِ

(1) - علي، جواد: الْمُفَصَّل 7/ 35.
(2) - علي: م.ن. 12/ 182.
(3) - بابادوبولس: تاريخ كنيسة انطاكية، ترجمة: استفانوس حداد، ص528.
(4) - اليعقوبي: تاريخ، 1/ 257.

الرّوم، فتنصّر وحسنت مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ[1]؛ فَقَالَ لَهُ: إنّي أَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى قُرَيْش، إنْ جَاءُوا الشَّامَ لِتِجَارَتِهِمْ، وَإِلَّا مَنَعْتَهمْ[2]. وَفِي رِوَايَةِ الزبير: إنَّ قيصر كَانَ قَدْ تَوَّجَ عُثْمَانَ، ومنحه لقب الْبِطْرِيق، وَوَلَّاهُ أَمْرَ مَكَّة، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِذَلِكَ أَنِفُوا مِنْ أَنْ يَدِينُوا لِمَلِكٍ، وَصَاحَ بعضهم: «أَلَا إنّ مَكّة حَيّ لَقَاحٌ، لَا تَدِينُ لِمَلِكٍ»؛ فَلَمْ يَتِمّ لَهُ مُرَادُهُ[3].

وأَمَّا وَرَقَة بنِ نَوْفَل فتنصّر، فاسْتَحْكَمَ فِي النَّصْرَانِيَّة، واتّبع الكتب من أهلها، حَتَّى علم علمًا كثيرًا من أهل الكتاب[4]، وَكَانَ يَقْرَأُ الإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيّة[5]، وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيّة مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ[6]، وَهُوَ أَوَّلُ من بشّر ببعثة مُحَمَّد، إذْ قَالَ لابنة عمه خويلد: يا خديجة، إنَّهُ لنبيٌّ هَذِهِ الأمة، وإنَّهُ ليأتيه النّاموس الأكبر، الَّذِي كَانَ يأتي موسى[7].

وَكَانَ أمية بن أبي الصّلت الثّقفي[8] قَدْ قرأ الكتب، ورَغِبَ عَنْ عبادة الأَوْثَانِ، وَكَانَ يُخْبِر بأنّ نبيًا يُبْعَثُ، قَدْ أظلّ زمانه، فَلَمَّا سمع بخروج النّبيّ مُحَمَّد وقصّته، كفرَ حسَدًا لَهُ. بحَسَبِ ابن قتيبة[9]. وَقَالَ ابنُ عساكر: «شاعرٌ جاهلِيّ... قيلَ: أَنّهُ كَانَ نبيًّا، وَأَنّهُ كَانَ أوّل أمره عَلَى الإيمان، ثُمَّ زاغَ عَنْهُ»[10].

وحياة مُحَمَّد فِي مَكّة - بحَسَبِ أهل الأخبار - كَانَتْ مثار علاقة مَسِيحِيَّة وتنبؤات لرهبان ومتنسكين، تشيع بأنْ سيولد فِي هَذَا الحي من يرشّح لنبوّةِ الْعَرَب،

(1) - ابن هشام: السّيرة، 1/ 224.
(2) - السّهيلي: الرّوض الأنف 2/ 231
(3) - م. ن. 2/ 359.
(4) - ابن اسحاق: السّيرة ص 116؛ ابن كثير: السّيرة النّبوية 1/ 357
(5) - البيهقي: دلائل النّبوة 2/ 139؛ ابن الأثير: أسد الغابة 5/ 88.
(6) - مسلم النّيسابوري: الصّحيح 1/ 97.
(7) - ابن اسحاق: السّيرة ص122؛ ابن هشام: السّيرة 1/ 238؛ البيهقي: دلائل النّبوة 1/ 22.
(8) - هُوَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ، عَبْدِ الله بن أَبِي ربيعَة بن عَوْف ابْن عقدَة بن عزة بْنِ عَوْفِ بْنِ ثَقِيفِ بْنِ مُنَبِّهِ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ، أَبُو عُثْمَانَ، وَيُقَالَ أَبُو الْحَكَمِ الثَّقَفِيُّ. ابن عساكر: تاريخ دمشق 9/ 255؛ ابن كثير: السّيرة النبويّة 1/ 122.
(9) - المعارف 60.
(10) - تاريخ دمشق 9/ 255.

وَأَنَّـهُ ذُكِـر فِي كُتِـب الأوَّلين[1]، بَلْ أنّ النّبيّ الَّذِي بشّـر بِهِ الْمَسِـيح وأسـمه أحمد[2]، وتتضـح بوادرهـا فِي قصة أخت وَرَقَـة بنِ نَوْفَل وعرضها لعبد اللـه بن عبد المطلب للـزواج مِنْـهُ[3]، وَفِي طفولته ضجّت حليمة السّـعدية من تأكيد بعضِ الْمُتَنَسِّـكَةِ بأنَّ «هَـذَا غُلَامٌ كَائِنٌ لَهُ شَـأْنٌ نَحْـنُ نَعْرِفُ أَمْرَهُ»[4]. وكانت «سـودة بنت زهرة» نصرانيّة، وكانـت كاهنـة قريش، فقالت يوما لبني زهـرة: فيكم نذيرة، أو تلـد نذيرا، فاعرضوا علـيّ بناتكـنّ فعرضـن عليها، فاختـارت آمنة بنت وهـب زوجة لـ«عبـد الله بن عبد المطلب» والد الرسول محمّد[5].

ويُذكـر أنَّ عَبْـدَ الْمُطَّلِبِ كَانَ جَالسّـاً فِـي الْحِجْر، وَعِنْدَهُ أُسْـقُفُ نَجْـرَان، وَكَانَ صَدِيقًـا لَهُ وَهُوَ يُحَادِثُـهُ، وَيَقُولُ: إِنَّا نَجِدُ صِفَةَ نَبِيٍّ بَقِيَ مِنْ وَلَدِ إِسْـمَاعِيلَ، هَذَا الْبَلَدُ مَوْلِدُهُ، مِنْ صِفَتِهِ كَذَا وَكَذَا، فَأَتَى مُحَمَّد عَلَى بَقِيَّةِ هَذَا الْحَدِيثِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْأُسْقُفُ، وَإِلَى عَيْنَيْهِ، وَإِلَى ظَهْرِهِ، وَإِلَى قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: هُوَ هَذَا؛ مَا هَذَا مِنْكَ؟[6].

يردفهـا خبـرُ خروجه، وعمرُه ثلاثَ عشـرةَ سـنة[7]، مَعَ عمّه أبـي طالب، ونزول الرّكـب بُصْـرَى من أرض الشّـام، وبها راهـب يقال لَـهُ «بَحِيرَا» فِي صومعـة لَهُ (دير بحيـرا)[8]، وَكَانَ أعلم أهل النَّصْرَانِيَّة، فعرف فِيهِ علامات النّبوَّة، وحذَّر عمّه من كيد اليهود لَهُ، ودعاه أنْ يُسْرِعَ بِهِ إِلَى بلاده، ونقل ابن اسحاق شعرا لأبي طالب فِي قصة

---

(1) -] وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ [(الشّعراء: 196).

(2) - {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} (الصّف6).

(3) - ابن اسحاق: السّيرة 43؛ ابن هشام: السّيرة 1/ 156؛ ابن سعد: الطبقات 1/ 95 - 96؛ ابن الجوزي: المنتظم 2/ 201؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 3/ 406.

(4) - أخرج قصة بحيرا: ابن إسحاق: م. س. 73؛ ابن هشام: م. س. 1/ 180، والبيهقي: الدلائل 2/ 26 - 29، الطبري: تاريخ الرسل 2/ 277، وابن الجوزي: المنتظم 2/ 292.

(5) - الحلبي: السيرة الحلبية 1/ 68.

(6) - أبو نعيم: دلائل النّبوة ص 165؛ المقريزي: امتاع الاسماع 4/ 97.

(7) - المسعودي: التنبيه والإشراف (دار الصّاوي، القاهرة) ص197.

(8) - البداية والنّهاية 2/ 289.

بَحِيرا[1]. ونقل الواقدي[2] قول بحيرا: «هَذَا - والله - الَّذِي بشَّر بِهِ الْمَسِيح، فطوبى لِمَنْ تَبِعَهُ، وآمَنَ بِهِ، وصَدَّقَهُ».

تفصح المُمَارَسَات التَّاريخيّة لصاحب الشّريعة فِي سيرته جلّها، عَنْ علاقة طَيِّبَة بالموحدين والنَّصَارَى؛ لأَنَّهُمْ أقربُ إلَى نفسه، وَهُمْ أهلُ كتاب، فَقَدْ يجلس إلَى خلواتِهم، ويصاحبُ بعضهم. ففي مَكّة أشارت السّير[3]: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ كَثِيرًا مَا يَجْلِسُ عِنْدَ الْمَرْوَةِ إلَى مَبِيَعَةِ غُلَام نَصْرَانِيٍّ، يُقَالُ لَهُ: جَبْرٌ (ابن قِمْطَةَ)[4]، عَبْدٌ لِبَنِي الْحَضْرَمِيِّ»، حَتَّى بلغ بِهِ الأمر، أنَّ جماعة من قُرَيْش «كَانُوا يَقُولُونَ: وَاَللَّهِ، مَا يُعَلِّمُ مُحَمَّدا كَثِيرًا مِمَّا يَأْتِي بِهِ إلَّا جَبْرٌ النَّصْرَانِيُّ، غُلَامُ بَنِي الْحَضْرَمِيِّ»[5].

يكثُر فِي مَكّة - بحَسَبِ طبيعتها التّجارية والدّينيّة - الرّقيقُ الأبيض ذكورًا وإناثًا، وَهُمْ من جنسيات شتّى، مِنْهُمْ من كَانَ من أصل روميٍّ، ومنهم من كَانَ من عنصر أوروبيٍّ آخر، ومنهم من كَانَ من الفرس، أَوْ من أهل العِرَاق مثل نينوى وعين التّمر، ومنهم من كَانَ من بلاد الشّام، أَوْ من أَقْبَاطِ مِصْرَ، وَهُمْ عَلَى النَّصْرَانِيَّة فِي الغالب، من أمثال: «صهيب الرّومي»، و«نسطاس»، و«ميناس»، و«يوحنا»، فِي آخرين[6]، وَقَدْ ذكر المفسرون أنَّ هَؤُلَاءِ «كَانُوا كِتَابِيِّينَ، يقرأون التّوراة، ثُمَّ أسلموا، وَكَانَ رسول الله يتعهَّدهم[7].

كَانَ الرّسول مُحَمَّد يُحِب أنْ يستمعَ إلَى شعر أمية بن أبي الصّلت، وَهُوَ من أبرز شعراء النَّصْرَانِيَّة، ففي رِوَايَة ابْن الشّرِيدِ، قَالَ: أَنْشَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ، مِائَةَ بَيْتٍ، يَقُولُ فِي كُلِّ قَافِيَةٍ: «هِيه». وَقَالَ: «إِنْ كَادَ لَيُسْلِمُ»[8]. حَتَّى

---

(1) - السّيرة، ص73.
(2) - فتوح الشّام 2/ 30.
(3) ابن هشام: السّيرة 1/ 393
(4) - الواقدي: المغازي 1/ 74.
(5) - ابن هشام: م. س. 1/ 393
(6) - علي، جواد: المُفَصَّل 12/ 181.
(7) - الطبري: تفسير 18/ 137؛ الطبرسي: مجمع البيان 7/ 161؛ الآلوسي: روح المعاني 18/ 234.
(8) - الحميدي: المسند 2/ 54؛ ابن أبي شيبة: المسند 2/ 391؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى 6/ 51؛

نُقل عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ[1]: إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَتهَا الْعَرَبُ قَوْلُ «لَبِيدٍ»: أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلٌ، وَإِنْ كَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ لَيُسْلِمُ.

كَانَ «قُسُّ بن ساعدة الإيادي» (ت23ق.هـ/ 600م)[2]، (أُسْقُف نَجْرَان)[3]، من أعلام الْمَسِيحِيَّة عِنْدَ الْعَرَب وَفِي مَكَّة، لَهُ الحكم الفصل فِي مجالسها، ويخطب فِي أسواقها، حَتَّى ضرب بِهِ المثل: «أَفْصَحُ من قِسّ»، وقيل: «أنطق من قسّ»، و«أبين من قسّ»، و«أبلغ من قسّ»؛ وَقَدْ ذكره الأعشى بقوله:

وأَبْلَغَ مِنْ قُسٍّ، وأَجْرَأُ منَ الَّذِي بذي الغِيلِ من خَفَّانَ أصبحَ خادرًا[4].

وقيل: إِنَّ أَوَّل من أظهر التَّوحيد بمَكَّة قُسٌّ بن ساعدة الإيادي[5]. ويذكر أن الرَّسول قَالَ: «يرحم الله قسًّا، إِنِّي لأرجو يوم القيامة أَنْ يُبْعَثَ أُمَّةً وحده»[6]، وَأَنَّهُ روى عَنْ قس خطبته[7] يوم قدوم وفد بكر بن وائل عَلَيْهِ فِي عام الوفود (9هـ/ 631م) فقال: «رَحِمَ اللَّهُ قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ، مَا أَنْسَاهُ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ بِسُوقِ عُكَاظٍ[8] فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ أَحْمَرَ، وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ، وَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ عَلَيْهِ حَلَاوَةٌ، وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا وَاسْتَمِعُوا وَاحْفَظُوا وَعُوا...»[9]

أحمد بن حنبل: المسند 32/ 206؛ البخاري: الأدب المفرد ص 428، صحيح البخاري 5/ 43.

(1) - إسحاق بن راهويه: المسند 1/ 62؛ ابن أبي شيبة: المصنف 5/ 272؛ أحمد بن حنبل: المسند 15/ 40

(2) - البداية والنّهاية 2/ 214؛ بلوغ الأرب 2/ 244.

(3) - الجاحظ: الحيوان 7/ 438؛ نور الدين الملا الهروي القاري: شرح الشّفا (بيروت 1421هـ) 1/ 741.

(4) - الزمخشري: المستقصى 1/ 32، 393؛ أبو هلال العسكري، جمهرة الامثال «1/ 249»، «رقم 336». والشطر الأول عند السيوطي: وأحلم من قُسٍ وأمضى من الذي. الزاهر في معاني كلمات الناس، 2/ 351.

(5) - صبح الأعشى 1/ 435.

(6) - بلوغ الأرب 3/ 155، نزهة الجليس 1/ 429.

(7) - الجاحظ: البيان والتبيين 2/ 184.

(8) - مكث الرّسول مُحَمَّد عَشْرَ سِنِيَن يُوَافِي الْمَوْسِمَ يَتْبَعُ الْحَاجَّ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَبَمَجَنَّةَ وَذِي الْمَجَازِ يَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ. أبو نعيم: دلائل النّبوة 2/ 292؛ المقريزي: إمتاع الأسماع 8/ 310.

(9) أبو نعيم: دلائل النّبوة 2/ 104؛ قارن:البخاري: التاريخ الكبير1/ 64؛ الجاحظ: البيان

أمَّا سلمان الفارسي، فمن بَعْدِ أنْ رغِبَ فِي النَّصْرَانِيَّة، قَدِمَ إلَى الشَّامِ مَعَ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى، وصلّى، وأخذ من تعاليم الكَنِيسَة فِي الشّام والموصل ونصيبين وعمورية، وَفِي سفره إلَى بلاد الْعَرَب استُرِق، وبِيعَ إلَى يهودي فِي يَثْرِب[1]، وَهُنَاكَ اتصل بالنّبيّ مُحَمَّد الَّذِي دفع إلَيْهِ قيمة عَتْقِه من إعانات الْمُسْلِمِينَ[2]، وَكَانَ دخل فِي الإِسْلَام، وأضحى وَلَاؤُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ بيِّنًا، وَقَدْ أعجب بِهِ النَّبيّ، وَقَالَ فِيهِ: «سلمانُ منَّا أهل البيت»[3]. ومن مفرزات علمه فكرة الخندق حول المدينة فِي المعركة الثّالثّة بَيْنَ الرّسول وقُرَيْش سنة 5هـ/ 626م.

حِينَ خرج الرّسول مُحَمَّد بدعوته - لأوّل مَرَّةٍ - خارج مَكّة إلَى الطّائف، يدعوهم إلَى الإِسْلَام يطلبُ نُصْرَتَهُم ومُسَانَدَتِهم، وَلَمْ يَحْصَلْ عَلَى بُغيته، يذكر مُؤَرِّخو السّير[4]: أنَّهُ التقى بـ «عَدَّاسِ النّصْرَانِيِّ» لقاءً وِدِّيًّا يكشِفُ عَنْ عُمْق العلاقة بَيْنَ الْمَسِيحِيَّة والإِسْلَام، وأن النّبِي مُحَمَّد ينعت النّبيّ» يُونُسُ بْنُ مَتَّى» بصفة الأُخُوَّة النّبَوِيّة[5].

كَانَ فِي يَثْرِب نفرٌ من النَّصَارَى زمن النّبيّ مُحَمَّد، كَمَا كَانَ بِهَا قوم من يهود. وذكر أنَّ النَّصَارَى كَانُوا يسكنون فِي يَثْرِب فِي موضع يقال لَهُ: «سوق النّبط»[6]، والنبط والإنباط هم نَصَارَى الشَّام، الَّذين عمروها وَأهل سَواد الْعرَاق[7]، قدموا

والتبيين 1/ 253؛ البزار: مسند3/ 286؛ ابن عدي: الكامل 6/ 2155؛ البيهقي: الدلائل 2/ 104؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد 4/ 214.

(1) - ابن هشام: السّيرة 1/ 218.

(2) - أبُو نعيم: دلائل النّبوة، ص264.

(3) - الحاكم: المستدرك عَلَىَ الصّحيحين 3/ 691.

(4) - ابن هشام: السّيرة 1/ 421؛ ابن حبان: السّيرة النّبوية وأخبار الخلفاء 1/ 91؛ أبُو نعيم: دلائل النّبوة، ص 296؛ البيهقي: دلائل النّبوة 2/ 143، 2/ 416.

(5) - قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ، وَمَا دِينُكَ؟ قَالَ: نَصْرَانِيٌّ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نِينَوَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى، فَقَالَ لَهُ عَدَّاسٌ: وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: ذَاكَ أَخِي، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ، فَأَكَبَّ عَدَّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ يُقَبِّلُ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ. ابن هشام: السّيرة 1/ 421.

(6) - علي: الْمُفَصَّل 12/ 178.

(7) - قيل: يُحتَمل أن تسميتهم بذلك لاستنباطهم الْمِيَاه واستخراجها، وَاسم الْمَاء النبط. وَقيل بل

يثـرب للتجارة وغيرها، وَيفهم وجودُهم هَذَا من بيت للشـاعر حسـان بن ثابت، فِي قصيدة رثى بِهَا النّبيّ، وَهُوَ يَقُولُ[1]:

فرِحتْ نَصَارَى يَثْرِب ويهودُها لَمَّا تَوَارَى فِي الضَّريحِ المُلحَدِ

مـن قبْلُ ظهر فِـي جَزِيْرَة الْعَرَب - بعيدا عَنْ آفاق تسـلط السّياسـة - الدّينُ القيِّمُ غَلَى يد إِبْرَاهِيم وإسـماعيل الَّذِي بارك الله لَهُمَا[2]، وَفِي أمَّة نُسِـلَتْ من إسـماعيل - بحَسَبِ التّوراة: {وَأَمَّا إسماعيل فَقَدْ سمعت لك فِيهِ، ها انا أباركه وأثمره أكثره كثيرا جدا، اثني عشر أميرا يلدُ، وأجعله أمَّةً كبيرة} (التّكوين 17/ 20).

فِي نهاية العقد الأول من القَرْن السّابع، سطع ثانيةً الدّين الجديد، وطفقت تباشير دين الإِسْلَام تلوح فِي فضاء مَكّة، عَلَى يد صاحب البعثة، الرّسول مُحَمَّد، من العائلة الإِبْرَاهِيمِيَّة، من نسـل إسـماعيل، حفيد قصي بن كلاب مجمع قُرَيْش، وابن دوحتها هاشم بن عبد مناف مبدع رحلة الشّتاء والصّيف، وابن بجدتها الدّينيَّة وزعامتها عبد المطلب بن هاشم. إِذْ أخذَ ينشرُ تعاليمَ دينِه الإِبْرَاهِيمِيِّ بَيْنَ أهلِه وعشيرتِه الأقربينَ، والقاطنين فِي البطحاء[3] والظّواهر[4]، ومجتمع مَكّة عَلَى طبقاتِه وشرائحِه، ويعرضُ الدّينَ عَلَى أبناءِ القَبَائِلِ الوافدينَ لحجِ البيتِ فِي الأشْهُرِ الحُرُمِ.

غير أنَّ مبادئ الرّسـالة لَمْ تلقَ رواجا أَوْ قبولا من لَدُنِ المُجْتَمَع المَكّيّ، ومرجع ذَلِـكَ إلَـى تماسـك الفضـاءات الِاجْتِمَاعِيَّـة والدّينِيَّـة والاقتصاديّـة والسِّيَاسِـيَّة فِي

سمي بذلك من أجلهم، واسمهم لفعلهم ذَلِك، وعمارتهم الأرض. عياض اليحصبي: مشارق الأنوار على صحاح الآثار 2/ 3.

(1) - الديوان، ص59.

(2) - قيس الكلبي: حقيقة مُحَمَّد فِي التوراة والإِنْجِيل (كاليفورنيا، 2011) ص205.

(3) - قريش البطاح: قبائل كعب بن لؤيّ، وهم بنو عبد مناف. وبنو عبد العزّى وبنو عبد الدار، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو مخزوم، وبنو جمح، وبنو سهم ابنى عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو عدىّ بن كعب؛ وليس فِيهَا من غير ولد كعب إلّا بعض بنى عامر بن لؤيّ. البكري: معجم ما استعجم 1/ 257.

(4) - ظواهر مكّة لسائر قريش؛ مِنْهُمْ بنو محارب، وبنو الحارث بن فهر، وبنو الأدرم، وعامّة بنى عامر بن لؤيّ. وغيرهم. البكري: م. ن. 1/ 257.

مَكّة، فكانوا كَمَا يتحمسـون لدين قُرَيْش والقَبَائِل، يخشـون عَلَـى تجارتهم ورقيّها، ويخافـون انْ تَتَلَاقَفَهُم بيزَنْطَةُ، أو فارِسُ، أو القَبَائِـلُ الكبيرةُ فِي باديةِ الْعَرَبِ. نلحظ هـذا جليًـا في جـدال «الحارث بن عثمـان بن نوفل بن عبـد مناف»، أنّه قـال للنبي: أنّـا لنعلـم إنّ الذي تقول حقّ، ولكن يمنعنـا إتباعك أنّ العـرب تتخطّفنا من أرضنا، لإجماعهـم على خلافنـا، ولا طاقة لنا بهم[1]. فأنزلـت الآية {وَقَالُـوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَـيْءٍ رِزْقاً مِـن لَّدُنَّـا} (القصص57). ومن هنا كان مرتكز همّ قريش أنْ تُحافِظ عَلَى قِيَم القبيلةِ، وسـيادةِ مَكّةَ. وعليه لَمْ تتمخّض دَعْوَى التّبشـير - خِلَالَ اثني عشـرَ عامًا - فِي مَكّةَ إلَّا عَنْ نَيِّفٍ ومائةِ رجلٍ وامرأةٍ دخلوا فِي الإِسْـلَام، وَكَانَ جلّهم من الفقراء والعبيد، وبعضٍ من أهلِ بيته وأتْرَابِهِ.

لَمْ تَفْتَأْ قُرَيْشٌ مِنْ أنْ تُشَدِّدَ قَبْضَتَهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي مَكّة، وتُزِيدَ مِنْ اضْطِهَادِهِمْ، فِي مُحَاوَلَةِ افْتِتَانِهِمْ فِي دِينِهِمْ، بِشَتَّى الوَسَائِلِ مِنَ القَهْرِ النَّفْسِيِّ، والتَّعْذِيبِ الجَسَدِيِّ، والمُقَاطَعَةِ الجَمَاعِيَّةِ، مِمَّا أَضْطِرَّ الرّسُـولُ مُحَمَّدٌ إِلَى تَرْتِيبِ الهِجْرَةِ الثانية لِقِسْمٍ مِنْ الْمُسْـلِمِينَ عام (8 ق.هــ/ 615م)، فأَمَرَهُمْ أنْ يخرجوا إِلَى أرض الحبشـة، والدين فِيهَا النَّصْرَانِيَّة، وَكَانَ بِهَا مِلِكٌ صالِحٌ، يُقَالُ لَهُ النّجاشِـيُّ، لا يُظلَم أحدٌ بأرضِهِ، وَكَانَ يُثْنَـى عَلَيْهِ، وفيه صـلاحٌ، لعلَّهم يجدون فِيهَا رِفاغًا من الرّزق، وأمْنًا ومتجرًا حَسَـنًا، وَكَانَتْ أرْضُ الحَبَشَـةِ مُتَّجرًا لقُرَيْش[2]. ووَصَفَتْ العلاقةَ - عبْرَ الرّحلة - أمُّ سَـلَمَة: «قَالَـتْ: لَمَّـا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَـةِ، جَاوَرْنَـا بِهَا خَيْرَ جَارِ النّجَاشِـيَّ، أَمِنَّـا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى، لَا نُؤْذَى، وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ»[3].

تُعَدُّ هَذِهِ الهِجْرَةُ أوّلَ مُمَارَسَـة تاريخيّة، جَسَّـدَتْ اللقاء الجمعي بَيْنَ الْمُسْـلِمِينَ

---

(1) - الثعلبي (ت427هـ): الكشف والبيان عن تفسير القرآن 7/ 256؛ العيني (ت855هـ): عمدة القاري 9/ 223.

(2) - الواقدي: المغازي 21؛ الطبري: تاريخ الرّسل والملوك2/ 328؛ مونتجمري: مُحَمَّد فِي مكة، ص 194.

(3) - أحمد بن حنبل: المسند 6/ 81؛ ابن هشام: السّيرة النّبوية 1/ 374.

والْمَسِيحِيِّينَ، في ذات الزمان والمكان، وبذرت أُسُسَ التّعَايُشِ بَيْنَهُمَا، فِيهَا وُضِعَتْ لَبِنَـةُ العَلاقةِ الطّيبة بَيْنَ الدّينيْن، إِذْ تلاقحَـتْ فِيها الأفكارُ، من خِلَالِ الحوارات الَّتِي أُقيمتْ بَيْنَ النّجاشـي وأَسَـاقِفَتِهِ، وَبَيْنَ جعفر بن ابي طالـب والمهاجرين، ويُذْكَر أنَّ النّجَاشِيُّ قَالَ: «إنَّ هَذَا، وَالذّي جَاءَ بِهِ عِيسَى، لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ»[1].

إنَّ هذه الإسـتضافةَ النادرة، لنخبة من المسـلمين في المجتمع المسـيحيِّ، تعبيرٌ عـن ثقافةٍ مبكرةٍ قي قبول الآخر الدينيِّ، وترجمةٌ جَلِيَّةٌ لوعيٍ دينيٍّ عالٍ في الإنتصار للديانـة السـماوية، أو للإبراهيميـة علـى وجه الخصـوص، إذ كانـت أوَّلَ نصرةٍ من المَسِـيحِيِّينَ للدين الإسـلامي في مهْدِهِ الأوَّل، أعطت الإسـلام دافعيَّـة في الوجود والثبات. فالمسيحيونَ همْ مَن حَمَى النبيَّ محمَّدًا، والمسلمينَ الأوائِلَ في هجرتِهم الأولـى إلـى الحبشـةِ، هربًا من بطـشِ قريـش، فحماهُـم النجاشـيّ، ملكُ الحبشـة، ونصرَهـم، ولبثوا عنده بضعَ عشرةَ سنةً[2].

كَـانَ أهْـلُ الكتابِ أقربَ إِلَى نَفْسِ الرسـولِ محمَّـدٍ ومبادئِه، لأنَّهُمْ شـركاؤه فِي الواحديَّـة والإنتماءِ الإِبْرَاهِيمِيِّ. ففي أثناء الجدل مَعَ الوَثَنِيّين - بحَسَـبِ بوسِـه[3] - كَانَ يسـعى إِلَى قبول وتأييـدِ اليهودِ والنَّصَارَى، وَقَدْ تَوَقَّعَ ذَلِـكَ مِنْهُمْ وَهُوَ فِي مكّة، لأنَّ الدعوة إِلَى الإِسْلَام كَانَتْ لا تزال فِي مرحلة التطور... وأن النبيَّ نفسَه كَانَ يرى أنَّ: معرفـة الإِسْـلَام لا تختلف جوهريًا عَنْ عقيـدة أتباع الوحي القديمـة. وَفِي هَذَا الوضـع نقرا: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِـهِ يُؤْمِنُونَ۞ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} (القصص52، 53).

كَـانَ للقرآن، ولاسِـيَّمَا فِي عهده المَكّيّ، أثرٌ فِي تأسـيس العلاقة مَعَ الْمَسِـيحِيَّة،

---

(1) - ابن هشام: م.ن. 1/ 337.

(2) - أذن النبيّ لأصحابه في الهجرة الى الحبشة في رجب سنة خمس من النبوّة = 615م، وكان آخرهم عودة الى المدينة جعفر بن أبي طالب مع آخرين - بعد فتح خيبر في 7هـ/ 628م. انظر: ابن إسحاق: السيرة 1/ 322؛ ابن هشام: م.ن. 1/ 323؛ ابن سعد: الطبقات 1/ 204؛ البلاذري: أنساب الأشراف 1/ 198؛ الطبري: م.س. 2/ 329.

(3) - هيربرت بوسه: أسس الحوار في القرآن، ص70.

وتأصيل التّواد بَيْنَ الدّينيْن، ففي «سورة مَرْيَم» تعريف بمعجزة حمل وميلاد عيسى، وبراءة قاطعة لأمّه مَرْيَم البتول، وشـهادة بطهرها؛ استلهم معرفتَها الْمُسْلِمون، بادئ ذي بـدء، كتجربـة دِينِيَّة مشـحونة بالإعجـاز، وَهِيَ أخرُ حلقـة نبويّـةٍ إِبْرَاهِيميَّة، تمِدُّ خيوطَ الصِّلة بدين مُحَمَّد، لا مَنَاصَ من الإيمان بِهَا.

من تسـامي العَلاقَات بَيْنَ الْمَسِيحِيَّة والإِسْـلَام فِي مَكّة، إنَّها عبَّرتْ عَنْ إحساس مسـيحيٍّ من سـادات قُرَيْش، وتفاعله مَعَ عذاباتِ عبدٍ مسـلم، ومحاولته الذّبَّ عَنْهُ، ففي رِوَايَة الزبير[1] قَالَ: «كَانَ وَرَقَة بنِ نَوْفَل يَمُرُّ بِبِلاَلٍ، وَهُوَ يُعَذَّبُ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ، فَيَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ، اللهَ يَا بِلاَلُ، ثُمَّ يُقْبِلُ وَرَقَة بنِ نَوْفَل عَلَى أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَهُوَ يَصْنَـعُ ذَلِكَ بِبِلَالٍ، فَيَقُـولُ: أَحْلِفُ بِاللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ عَلَى هَذَا لَأَتَّخِذَنَّهُ حَنَانًا»[2]. أي لأتخذنَّ قبرَه منسَكًا ومُسْترحَمًا.

جديرٌ بالعلـمِ أنَّ أهل مَكّة هُمْ أصحابُ تجارةٍ واتصال بالعالـم الخارجي، بحكم اتّجارهـم مَعَـهُ، وذهابهم إِلَيْـهِ، لا بُدَّ أنْ يكونَ لَهُـمْ اهتمامٌ بِمَا كَانَ يجـري ويقعُ فِي السّياسـة الدَّوْلِيَّة. وَكَانَ لَهُمْ علمٌ بِمَا يحدث بَيْنَ الفرس والرّوم، وَبَيْنَ الحَبَش وأهلِ اليَمَن؛ لأنَّ لِما يحدث علاقة كبيرة بتجارتهم، وبالأسـواق الَّتِي كَانُوا يخرجون إِلَيْهَا للبيع والشّراء[3].

ومن أهمِّ العَلاقَات الَّتِي ترسَـخُ فِي الوعيِ التّاريخـيّ، أنّه إثرَ ورودِ الآيةِ المَكّيَّة: {غُلِبَتِ الرّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ}(الرّوم2 - 4)، انقسم أهلُ مَكّةَ، فطفقَ مَيْلُ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ قِلَّةٌ، إِلَى نُصْرَةِ بيزَنْطَةَ الْمَسِيحِيَّة، ورهانِهـم عَلَيْهِ قِبَالَ قُرَيْشٍ الوَثَنِيَّة الَّتِي راهنتْ عَلَى نُصْرَةِ الفرسِ المَجُوسِـيَّة، فسـاءَ النّبـيَّ وأصحابَـه ظَفَرُ الفـرسِ بالـرّوم (5ق.هـ/ 618م)؛ لأنَّهُمْ أهلُ كتـاب، وفرحَ المشـركون بِذَلِكَ؛ لأنَّ المجوسَ إخوانُهم فِي الشّـركِ باللّه، وبعد تسـعِ سـنينَ جاءَ

(1) - ابن اسحاق: السيرة، ص 190؛ ابن هشام: السّيرة 1/ 318؛ أبو نعيم: حلية الأولياء 1/ 148.
(2) - السّهيلي: الرّوض 2/ 78 - 79.
(3) - علي: المُفَصَّل فِي تاريخ العرب 7/ 116.

الخبـرُ إلَى رسـول اللّه، بظَفَـرِ الرّومِ بفارسَ يـومَ الحديبيّة[1]، ففـرِحَ المؤمنون بنَصْرِ اللّه[2].

لا غِـرْوَ، أنَّ المحيـطَ المَكّـيّ، الَّـذِي خـرج مِنْـهُ الرّسـول، منْفَتِـحٌ عَلَـى الخارج بالتّجـارة، والحـجِّ، والعَمْرَة، أيْ بالاقتصادِ، والدّين. ففي التّجـارةِ يتعاملونَ مَعَ أهلِ الشّـامِ، واليمنِ، والعِرَاق، والحبشـةِ، مـن عَرب، ويونان، وسـريان، وفرس، وغيرها مـن الإثنيات، كَمَا أنَّ الدّيـنَ والتّجمعاتِ الدّينيَّة تجعلُهم يحتكُّـون بأصحابِ المِلَلِ والنِّحَـلِ، عَلَـى تَنَوُّعهم من يهودَ ومجـوسٍ وصابئةٍ ووَثَنِيَةِ الجاهليّـة، إلَّا أنَّ المجال الْمَسِـيحِيّ يظَـلُّ أكبرَ مسـاحةً، وأكثرَ تأثيرًا، فَضْـلًا عَنْ منْ يرفِدُ أسـواقَها من طاقاتٍ أدَبيَّة، من رواد الشّعر والخطابةِ من الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ فِي غيرهم، وَهَكَذَا فإنَّ مَكَّةَ بقدَرِ مَا صَغُرَتْ مساحتُها، بقدر مَا اتَّسَعَتْ بكثرةٍ وكثافةِ عَلاقَاتِها، وليس أدَلُّ عَلَى ذَلِكَ مِن العددِ الوافرِ مِن الحلفاءِ والمواليَ والعبيدِ والزوارِ، الَّذِينَ انْصَبُّوا عَلَى مَكَّةَ[3].

يُجَسِّدُ عمقَ اتصالِ الرسولِ محمَّدٍ بأهلِ الكتابِ، ولاسيَّما المسيحيَّة، كثرةُ العنايةِ القرآنيَّةِ بتجاربِ الدياناتِ الإبْرَاهِيمِيَّة، والحثُّ على اتّباعِ أثرِها، حتى أُعْتُقِدَ أنَّ التجربةَ الإسـلاميَّة هي الامتدادُ الصحراويُّ لشرائعَ الدياناتِ الإبْرَاهِيمِيَّة، ولأنّه لم يتحدثْ، أو ينقدْ أيَّ عقائدَ أو دياناتٍ، أو آلهةً أخرى، كالبوذيَّة مثلًا أو الهندوسيَّة، وهي ديانات متداولة قبلًا، ولم يعرْها الرسولُ أيَّ إهتمامٍ، فقد تربّي في كَنَفِ الديانات الإبْرَاهِيمِيَّة، وزواجُـه مـن خديجة هـو زواجٌ على شـريعة التوحيد. حتى ظُنَّ انَّ هـذه التجربة هي هرطقةٌ مسيحيَّةٌ لإحدى الفرقِ، مثل: الآريوسيَّة، أو الحنيفيَّة، أو الصابئيَّة[4].

أثـارَ بعضُ المستشـرقين مثلَ هـذه الأفكار، فـإنَّ نولدكة يرَى: أنَّ الإسـلامَ، في جوهـره، دينٌ يقتفِي آثارَ المسـيحيَّة؛ أو بعبارةٍ أخرى، أنَّ الإسـلامَ هـو الصيغةُ التي

(1) – المقريزي: إمتاع الأسماع 14/ 172.

(2) – أحمد بن حنبل: المسند 4/ 297؛ الترمذي: السّنن 5/ 39؛ البيهقي: دلائل النّبوة 2/ 333.

(3) – هشام جعيط: تاريخيّة الدعوة المُحَمَّدية في مكة (بيروت 2007) ص 161.

(4) – ينظر: عدلي جندي: «الإسلام هرطقة إبراهيمية في متوالية بدوية»، الحوار المتمدن، العدد: 3620، 27 / 1 / 2012.

دخلتْ بها المسيحيَّةُ الى بلادِ العربِ كلِّها. وتؤكد هذا الرَّبْطَ - بسهولةٍ - الأحكامُ الصادرةُ عن أشخاصٍ عاصروا محمدًا، فقد أطلقَ الكفارُ على أتباعِه لَقَبَ «الصابئة»، ما يعني أنَّهم إعتبروهم على علاقةٍ وثيقةٍ ببعضِ الفرقِ المسيحيَّةِ، مثل: المندائيِّين، الكسائيِّين[1]، والمعمدانيِّين، أضف الى أنَّ المسلمينَ يعتبرونَ أنفسَهم خلفاءَ الأحنافِ[2].

آخر مَا تعهَّده الرّسولُ مُحَمَّدٌ، وحافظ عَلَيْهِ من تراث الْمَسِيحِيَّة، هِيَ صور السّيد الْمَسِيح وأمِّه، الَّتِي كَانَتْ مرسومة عَلَى جدران الكعْبَة، فِي عِدَّة أخبار: أحدها: أن الرّسول - يوم فتح مَكّة - أمَرَ، فطُمِسَتْ جميعُ الصّورِ، واستثنى مِنْهَا صورة عيسى بنِ مَرْيَم[3]، ثانيها: وَرَدَ عَنْ تمثالٍ لمَرْيَمَ مُزَوَّقٍ بالحُلِيّ، وَفِي حِجْرِها عِيسَى، بَادَ فِي الْحَرِيقِ الَّذِي شَبَّ فِي عصرِ «ابن الزبير»[4]. ثالثها: «إِنَّ امْرَأَةً مِنْ غَسَّانَ حَجَّتْ فِي حَاجِّ الْعَرَبِ، فَلَمَّا رَأَتْ صُورَةَ مَرْيَمَ فِي الْكَعْبَةِ قَالَتْ: بِأَبِي وَأُمِّي إِنَّكِ لَعَرَبِيَّةٌ. فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَمْحُوا تِلْكَ الصّوَرَ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ صُورَةِ عِيسَى وَمَرْيَمَ»[5]. ولذا استدلَّ «شيخو»[6] من تلكم الأخبار عَنْ صور الرّسل والأنْبياء ولاسِيَّمَا صورة الْمَسِيح ومريم، عَلَى أَنَّها هِيَ الدّليل عَلَى أثر النَّصْرَانِيَّة فِي مَكّة.

غير أنَّ شخصيَّةَ المسيحِ ظلَّتْ تقدحُ في الوعْي التاريخيِّ الدينيِّ للمسلمين، كأنموذجٍ يُحْتَذَى في السيرة الناصعة، ويُضْرَبُ به المثلُ في أَثَرِهِ في مجتمعِه على اختلافِ مشارب أهله، فالرسول مُحَمَّد إذا أرادَ أنْ يُشَبِّهَ بعضَ أصحابِه بالقُدوةِ التاريخيَّة في الدينِ والمجتمعِ، تَشْخُصُ أمامَه صورةُ المسيحِ. ففي رواية الإمام

(1) - الكسائيّن Elkesaites: كلمة آرامية الأصل، معناها: أصحاب الأسرار أو الخفايا. وهم من الشيع التي عقائدها مزيج من اليهودية والنصرانية، وجدت سبيلها في جزيرة العرب. أنستاس الكرملي: مجلة لغة العرب، 8/ 149؛ علي: المُفَصَّل 6/ 634.

(2) - تاريخ القرآن، ص8.

(3) - الأزرقي: أخبار مكة 1/ 165.

(4) - الأزرقي: م. ن 1/ 167.

(5) - الأزرقي: م. ن 1/ 169.

(6) - النّصرانية، ص117.

عليٌّ، قال: قال لي رسـول الله: «إنَّ فيكَ لشَـبَهًا من عيسـى بن مريم، أحَبَّتْهُ النصارَى حتى أنْزَلَتْهُ بالمَنْزِلَةِ التي ليستْ له، وأبغضتْه اليهودُ حتى بهتَتْ أمَّه»[1].

إنّ تاريخ مَكّة وما يحيطها خِلَالَ نشأة الإِسْلَام يُثبت أنّ تَعَايُش الأَدْيَانِ والثّقَافَات يُولِّـدُ غنـىً ثَقافِيًّا وحياتِيًّا كبيـرًا، لَكِنَّهُ يعني - أَيْضًا - وجودَ توتُّرٍ نسـبِيٍّ، إِلَّا أنّه يُحَلُّ بطرقِ الحِوَارِ الَّذِي يرتكزُ عَلَى مصلحةِ مجتمعِها. وَفِي أصعبِ الظّروفِ والسّياقاتِ يَظَلُّ البشرُ المحترمونَ والجدِّيُونَ قادرينَ عَلَى أنْ يُحْيُوا قناعاتِهم بالْحُرِّيَّةِ والتّعَايُشِ والمَوَدَّةِ والمُسالمةِ. ومِنْ هُنَا تأتِي فرادةُ تجربةِ الرّسولِ مُحَمَّدٍ ونموذجِيَّتِها.

3. الرّسول محمّدوأهل الكتاب فِي المدينة:

كَانَـتْ هجـرةُ الرّسـولِ والمُسْـلِمِينَ إِلَـى يَثْـرِبَ فِـي 622م، وَهُنَاكَ أَسَّـسَ كيانَ الدَّوْلَة العَرَبِيَّة، واسـتكملَ تشـريعاتِ الدّينِ فِي مُجْمَلِ مفاصِلِ الحياةِ: الِاجْتِمَاعِيَّة، والاقتصاديّة، والسِّيَاسِيَّة، والعِبَادِيَّة، وبضمنها مَا لَهُ علاقة بالدِّيَانَاتِ الأُخْرَى. ويُشِيرُ «فلهـاوزن Wellhausen» إِلَى دورِ اليَهُودِيَّـة والنَّصْرَانِيَّة فِي أنّهما» قَدْ مَهَّدَتَا الأرضَ فِـي المدينـة لمُحَمَّد، فَكَانَ هُنَـاكَ كثيرٌ مِن اليهـودِ، وَكَانَتْ المدينةُ تقـعُ عَلَى حدودِ ذَلِـكَ الجـزءِ مِن جَزِيْـرَةِ الْعَرَبِ، المتعـرضِ للتأثيـرِ اليُونانِيِّ الرّومَانِـيّ، والنّصرانيِّ الآراميّ»[2].

أسـس القـرآن المكي الى روح المشـاركة بين الديانات النبويـة، من خلال اقرار السـابق منهـا باللاحـق، وذكر الأخير في كتب من قبله، ليس من شـك إنّ {الرَّسُـولَ النَّبِـيَّ الأُمِّيَّ الَّـذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبـاً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيـلِ} (الأعراف157)، يسـاعد طرفـي المعادلة على تقبُّل الآخر، نفسـيًّا وعلى أرض الواقـع، وأنّه أمر إلهيٌّ مكتـوب عليهم. ومن جانب آخر، إنّه هيّأ نفسـيًّا أهل يثرب الى تقبُّل الإسـلام، على أنّه دين نبويٌّ مكافئ لليهوديّة، من خلال ما كانوا يسـمعونه من رجال يهود، بتقارب

(1) - ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 4/ 105.
(2) - تاريخ الدولة العَرَبِيَّة، ص6.

بعثة نبي. تفيدنا رواية ابْنُ إسْحَاقَ عن رِجَالٍ مِنْ الأنصار، «قَالُوا: إنَّ مِمَّا دَعَانَا إلَى الْإِسْلَامِ، لَمَا كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ، وَكُنَّا أَهْلَ شِرْكٍ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ، عِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ لَنَا، وَكَانَتْ لَا تَزَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ شُرُورٌ، فَإِذَا نِلْنَا مِنْهُمْ بَعْضَ مَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا لَنَا: إنَّهُ قَدْ تَقَارَبَ زَمَانُ نَبِيٍّ يُبْعَثُ، الْآنَ نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمٍ، فَكُنَّا كَثِيرًا مَا نَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ. فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَجَبْنَاهُ، حِينَ دَعَانَا إلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَعَرَفْنَا مَا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَنَا بِهِ، فَبَادَرْنَاهُمْ إلَيْهِ، فَآمَنَّا بِهِ»[1].

وبحسب «فيرستون Firestone»: «يسجل هذا الحديث المهم انتظار اليهود للمسيح المنتظر، منقذ يشيرون اليه بالنبي. بالرغم من أن اليهود لم يقصدوا تشجيع جيرانهم العرب من الوثنيين ليصبحوا مسلمين، إلا أنَّ تأثيرهم الدينيَّ في المدينة خلق بيئةً، جعلت عرب ما قبل الإسلام منفتحين على فكرة نبيٍّ عربيٍّ، وكون محمَّد أهلًا بهذا الدور، واضح من النجاح الباهر الذي لقيه في المدينة»[2].

إستطاعَ الإِسْلَامُ أنْ يُمَهِّدَ لِمَدِّ الجسُورِ، للتقريبِ مَعَ أهلِ الكتابِ مِن اليهودِ والْمَسِيحِيِّينَ، مُتَمَثِّلًا بالقرآنِ فِي أواخِرِ سُوَرِهِ المَكِّيَّة[3]، دعا الْمُسْلِمِينَ إِلَى التَّمسُّكِ بالحكمَةِ والموعظةِ، والمحاورةِ مَعَ الكِتَابِيِّينَ، بأحْسَنِ مَا يُمكنُ مِن أسلوبٍ. وأنَّ فكْرَ صاحبِ الشَّريعة كَانَ قريبًا من الْمَسِيحِيَّةِ الآريوسيَّةِ فِي الألوهةِ والوحدانيَّةِ، وهُوَ قريبٌ، بحَسَبِ «هيرنش بكر Heinrich Becker»[4] من الْمَسِيحِيَّةِ النَّسْطُورِيَّةَ فِي الحِسَابِ ويومِ القيامةِ[5]. وأشار «دوسلييه»[6] الى قول النساطرة: إنَّ المسلمين عاشوا على وفاق تامٍّ معهم نظرًا لقربهم العقيدي من المَسِيحِيِّينَ.

---

(1) - ابن هشام: السيرة 1/ 211.

(2) - ذريَّة ابراهيم، ص 47.

(3) - النَّحل 125، العنكبوت 46.

(4) - كارل هيرنش بكر، (١٢٩٣ - ١٣٥١هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٣٣م) هُوَ مستشرق ألماني وسياسي. عبد الرّحمن بدوي: موسوعة المستشرقين (بكر كارل).

(5) - كارل هيرنش بكر: «تراث الأوائل فِي الشرق والغرب»، التراث اليوناني فِي الحضارة الإسلامية، ص8.

(6) - مسيحيو الشرق والإسلام في العصر الوسيط، ص 123.

مُنِحَتْ أقوالُ وأفعالُ وتقريراتُ النّبيِّ مُحَمَّدٍ قُدْسِيَّةً، {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم4،3)، وصارتْ المصدرَ الثّاني للتشريع في نظَرِ المُشْتَرِعَةِ، بَعْدَئِذٍ كَانَ القُرْآنُ هُوَ المرجعُ الأَوَّلُ للشرعِ والقانون فِي الإِسْلَام، وصارت مفروضةَ الطاعةِ والإلتزام بها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ} (النساء59). ومن هنا يجدر القول: أنَّ القرآن جاء موافقا لعاطفة الرسول ووجدانه وعقله.

على الصّعيد الْحُقُوقيّ عالج النّبيّ أدَقَّ التّفاصيل المتَعَلِّقَة بالتّعاون اليوميّ والعقود والمواريث، وَهُوَ يحدِّد - عَلَى صعيد الأسرة - سلوكَ كُلِّ فرد، تجاهَ معاملةِ الاولادِ والعبيدِ والحيواناتِ، وتجاهَ النّظافةِ والملبسِ وغيرِها، مِمَّا حقَّقَ نجاحا عَلَى الجانب الدّنيويِّ، فَضْلًا عَنْ نجاحٍ أكبرَ عَلَى الجانب الدّينيّ[1].

كَانَ الرّسول مُحَمَّد مثلًا أعلى فِي معاملة أهل الكتاب، فَإِنَّهُ كَانَ يحضرُ ولائمِهم، ويعودُ مرضاهم، ويشيِّع جنائزَهم، ويزورَهم ويُكْرِمَهم، حَتَّى رُوِيَ: أَنَّهُ لَمَّا زارَه وفدُ نَصَارَى نَجْرَان، فَرَشَ لَهُمْ عباءَته، وأجلسَهم عَلَيْهَا. وأَنَّهُ كَانَ يقترض من أهلِ الكتابِ نقودًا، ويرهَنُ عِنْدَهم أمتعتَه، حَتَّى أَنَّهُ تُوُفِيَ، ودرعُه مرهونٌ عِنْدَ بعضِ يهودِ المدينة فِي دَيْنٍ عَلَيْهِ[2]. وعليهِ حقوقيًّا «جاءتْ السّنَّة المُتواتِرَة بالنّهي عَنْ إيذاءِ أهلِ الذِّمَّة، وبتقرير مَا لَهُمْ من الْحُقُوق عَلَى الْمُسْلِمِينَ «لَهُمْ مَا لَنَا، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا» و« من آذَى ذِمِّيًا فَلَيْسَ مِنَّا »[3] واستمرَّ العملُ عَلَى ذَلِكَ مَا استمرَّتْ قُوَّةُ الإِسْلَام»[4].

كَانَ يساوي بَيْنَ الأنبياء، بيْدَ أَنَّهُ كَانَ يمنَحُ الْمَسِيحَ خصوصيَّةً، تَتَجَلَّى فِي قوله:

---

(1) - فيليب فارج، يوسف كرباج: المسيحيّون واليهود فِي التاريخ الإسلاميّ العَرَبِيّ والتركي (القاهرة، 1994)، ص83.

(2) - عفيف طبارة: روح الدين الإسلاميّ، ص 199؛ أحمد الشّلبي: مقارنة الأديان 1/ 169 - 170.

(3) - السّيوطي: الجامع الصّغير (بيروت،1981م) 2/ 547؛ العجلوني: كشف الخفاء(بيروت، 1988م) 2/ 218.

(4) - المنتظري: دراسات فِي ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلاميّة، (قم، 1411هـ) 3/ 474.

«أنا أوْلَى النّاس بعيسى فِي الدّنيا والآخرة، الأنبياء أخوة، أولادُ عَلّاتٍ[1]، فَلَيْسَ بينِي وَبَيْنَهُ نبِيٌّ، ودينهم واحد»[2]. بَيْدَ أنَّ شهادة الرّسول مُحَمَّد عَلَى رسالة الْمَسِيح[3]، تشفعُها – من قبْلُ – شهادة الْمَسِيح برسالة مُحَمَّد قَبْلَ مجيئه، بحَسَبِ يوحنا[4] فِي إطار مفهوم الإسْلَامِيّين[5].

أوصى رسولُ الله فِي القِبْطِ خيرًا فِي قوله: «إنّكم ستكونون أجنادًا، وإنَّ خيرَ أجنادِكم أهلُ الغزى؛ فاتقوا الله فِي القِبْطِ، لا يأكلوها أكل الحضَر»[6]. وَقَالَ فِيهِمْ: «استوصوا بالقِبْط خيرا، فإنّكم ستجدونَهم نِعْمَ الأعوانِ عَلَى قِتَالِ عدوِّكم»[7]، وَقَالَ: «الله الله فِي قِبْطِ مِصْرَ، فإنّكم ستُظْهَرُون عَلَيْهِمْ، ويكونون لكم عُدَّةً وأعوانا فِي سبيل الله»[8].

ومن أحاديثه لولاة الجزيّة: «ألَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طاقَتِه، أَوْ انتقصه، أَوْ أخذ مِنْهُ شيئا، بغير طِيْبِ نفسِه، فأنا حَجِيجُهُ يومَ القِيَامَة»[9]. وقوله: «ألاَ وإنّي، والله، قَدْ أمَرْتُ، ووعَظْتُ، ونَهَيْتُ عَنْ أشياء، إنّها لمثلُ القُرْآن، أَوْ أكثر. وإن الله – عز وجل – لَمْ يحِلّ لكُمْ أنْ تدخلوا بيوتَ أهل الكتابِ إلّا بإذْن، ولا ضَرْبَ نسائِهم،

---

(1) – يُقَال هما أخَوان من عَلّة، وهما ابْنا عَلّةٍ، إذا كَانَت أُمَّاتها شتّى وَالأب وَاحِد، وهم بَنو العَلاَّت، وهم من عَلاَّت، وهم إخوةٌ من عَلَّةٍ وعَلاَّتٍ. الأزهري: تهذيب اللغة 1/ 78.

(2) – أحمد بن حنبل: المسند، 2/ 463؛ البخاري: الصّحيح 3/ 1270؛ مسلم: الصّحيح 4/ 1837.

(3) – {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ} النّساء171؛ {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} المائدة75.

(4) – {ومتى جاء المعزي (البارقليط، أحمد) الَّذِي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق مِنْ عِنْدِ الأب ينبثق، فهو يشهد لِي} (يوحنا 15/ 26).

(5) – قيس الكلبي: حقيقة مُحَمَّد فِي التوراة والإنْجيل، ص485.

(6) – مسلم: الكنى والأسماء 2/ 573؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها 1/ 52.

(7) – ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها 1/ 52.

(8) – الطوسي: الأمالي ص 404؛ المقريزي: إمتاع الأسماع 14 / 124؛ الحر العاملي: وسائل الشّيعة 11/ 101.

(9) – أبو يوسف، يعقوب بن إبْرَاهِيم الأنصاري (ت182هـ): كتاب الخراج، (بيروت 1979)ص 126.

ولا أكْـلَ ثمَارِهـم؛ إذَا أعْطوكُم الَّذِي عَلَيْهِمْ»[1]. وَقَالَ: «مَنْ قَتَـلَ مُعَاهِدًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ خَفَرَ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا»[2].

حفلـتْ المرحلة المَدَنِيَّـة (1 – 11هـ/ 622 – 632م) بحـوادثَ، كَانَ فِيهَا لأهلِ الكتابِ شأنٌ، ولاسِيَّمَا الْمَسِيحِيِّينَ مِنْهُمْ، لأَنَّهُمْ يشغلون المساحَة الأكبَر ديموغرافيا وجُغْرَافِيًّـا فِي جَزِيْرَة الْعَرَب وحَوَالها، وَفِي ضوْئِها تَتَنَامَى العَلاقَات إيجابًا أوْ سـلبًا، وَمِنْهَـا: بَعْدَ معركة بدر (2هـ/ 624م) بَلَغَ النّجَاشِـيّ مَقْتَلُ قُرَيْش بِمَكّة، وَمَا ظَفّرَ اللهُ بِهِ نَبِيّهُ، فَخَرَجَ فِي ثَوْبَيْنِ أَبْيَضَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ دَعَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ، وعبَّرَ لَهُمْ عَنْ فرحه ومؤازرته للمُسْلِمِينَ، عَلَى نحوِ أثارَ تساؤلَ بطارقتِه[3].

وَكَـانَ مَـعَ المهاجرين إلَى الحبشـة عبيدُ الله بن جَحْش، مـن الموحدين الأوائل بمكة، فتَنَصَّر هُنَاكَ، ثُمَّ تُوفِيَ عَلَى دينِ النَّصْرَانِيَّة. ولم يستنكر الرسول ولا المسلمون اعتقـاده الأخير. وكانت مَعَه امرأتُه أم حَبيبة بنتْ أبى سـفيان، وَبعد إذْ تنصَّرَ زوجُها، خَلَـفَ رَسُـولَ اللَّهِ عَلَيْهَا (7هــ/ 628م) بأَنْ بَعَثَ فِيهَا إلَى النَّجَاشِـيِّ عَمْـرَو بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ، فَخَطَبَهَا عَلَيْهِ النّجَاشِـيُّ، فَزَوَّجَهُ إيَّاهَا، وَأَصْدَقَهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَرْبَعَ مِائَةِ دِينَارٍ[4].

فِي رِوَايَة جابر بن عبد الله[5] قَالَ: صلَّى بنا رسـولُ الله، ثُمَّ قَالَ: «إنَّ النّجاشي قَدْ تُوفي هَذِهِ السّـاعة، فاخرجوا بنـا إلَى المصلَّى نُصلِّي عَلَيْهِ، فصلَّـى عَلَيْهِ وكبّر أربعا؛ فقـال المنافقون: انظـروا إلَى هَذَا يُصَلِّي عَلَـى عِلْجٍ نَصراني، لَمْ يـرَه قطُّ؛ فأنزل الله

(1) – أبو داود: السّنن، حديث 3050؛ الطبراني: المعجم الأوسط 7/ ١٨٥.
(2) – ابن ماجه: السّنن 2/ 896؛ الترمذي: السّنن 4/ 20؛ الحاكم: المستدرك عَلَى الصّحيحين 2/ 138.
(3) – الواقدي: مغازي 1/ 120.
(4) – ابن هشام: السّيرة 1/ 224؛ السّهيلي: الرّوض الأنف 2/ 348؛ القسطلاني، (ت 923هـ) المواهب اللدنية بالمنح المُحَمَّدية (المكتبة التوفيقية، القاهرة)1/ 154.
(5) – الطبراني: المعجم الأوسط 5/ 51؛ الماوردي: أعلام النّبوة 117؛ الحلبي: السّيرة الحلبية = إنسان العيون فِي سيرة الأمين المأمون (بيروت 1427هـ)3/ 394.

تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ} (آل عمران199).

تتَجَلَّى مظاهر الرُّقِيِّ فِي الحوارِ الدِّينِيّ حين يتماهى بين التصريح القرآني والتطبيق النبوي، وعِنْدَمَا يكونُ التّحاوِرُ عَلَى أشُدّه، مَعَ مؤسّسِ دَولةٍ دِينِيَّة، يُؤمِن بمبدأ {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالتي هِيَ أَحْسَنُ} (النّحل125)، وَفِي مثلِ مَا قَالَ أَبُو رَافِعٍ الْقُرَظِيُّ النَجْرَاني[1] – حِينَ اجْتَمَعَ عِنْدَهُ النَّصَارَى وَالْأَحْبَارُ، فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ إِلَى الإِسْلَام: أَتُرِيدُ مِنَّا يَا مُحَمَّد أَنْ نَعْبُدَكَ، كَمَا تَعْبُدُ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَان نَصْرَانِيٌّ، يُقَالُ لَهُ الرِّبِّيسُ[2]: وَذَلِكَ تُرِيدُ يَا مُحَمَّد، وَإِلَيْهِ تَدْعُو؟ أَوْ كَمَا قَالَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أَوْ آمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي وَلَا أَمَرَنِي؛ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ، وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} (آل عمران: 79، 81).

من آيات الْحُرِّيَّة الدِّينِيَّة، وإِدَارَة الرّسول مُحَمَّد للتَنَوُّع الدِّينِيّ، مَا ذكر المفسرون[3]: أنَّ ناسًا من الأنصار، كَانُوا مُسْتَرْضَعِينَ فِي بني النّضِير، فَلَمَّا أُجْلُوا، أرادَ أهْلُوهُم أنْ يُلْحِقوهم بِدِينهم فَنزَلَتْ آيَةُ {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} (البقرة256). وقيل[4]: نزلت فِي رجُل من الأنصار من بني سالم بن عوف، يقال لَهُ الحصين، كَانَ لَهُ ابنان نصرانيّان، وَكَانَ هُوَ رجلا مسلما، فقال للنبيِّ مُحَمَّد:

(1) – ابن هشام: السّيرة 1/ 554، 2/ 145؛ البيهقي: دلائل النّبوة 5/ 384؛ السّهيلي: الرّوض الآنف4/ 249؛ الذهبي: تاريخ الاسلام 2/ 697.

(2) – وَيُرْوَى: الرِّيِّسُ، وَالرِّبِيسُ. (ابن هشام: السّيرة 1/ 554) وأحسبها مصحفة. والرّبيس: كبير السّامرة وهم قوم من اليهود يخالفونهم فِي بعض أحكامهم، كإنكارهم نبوة من جاء بعد موسى.

(3) – الطبري: التفسير، 3/ 15؛ الثّعلبي: التفسير2/ 235.

(4) – السّيوطي: أخرجه ابن إسحق وابن جرير عَنْ ابن عباس. الدر المنثور (بيروت، 1993) 2/ 21.

ألَا أستكرههما؟، فإنَّهما قَدْ أبَيَا إلَّا النَّصْرَانِيَّة؛ فأنزل الله فِيهِ ذَلِكَ، وَكَانَ رسولُ الله يَقُولُ: «قَدْ خُيِّرَ أصحابُكم، فإنْ إختارُوكم فهُمْ منكم، وإنْ اختارُوهم فهُمْ مِنْهُمْ»[1].

من ملامح تجربة المدينة تَأْصِيلُ الحوار، وفتح فضاءاته على حاضنة التَّنَوُّع الدِّينيّ، وبلغَ أصغر وحداته الِاجْتِمَاعِيَّة، إذْ صار من المقاصد الَّتِي نشَدَها الإِسْلَام واسْتَوْعَبَها الآخَرُ الدِّينِيّ فِي رِبْقَةِ الدَّوْلَة العَرَبِيَّة، فما ذكره أَبُو الفرج[2]، لأحد شعراء يهود «أوس بن ذبي القرظي»: أنَّ زوجتَه اعتنقتْ الإِسْلَام فِي حياةِ الرّسولِ، وطلبتْ مِنْهُ اعتناقَهُ كَذَلِكَ، فقال:

دعتْنِي إلَى الإِسْلَام يومَ لقيتُها	فقلت لها: لا، بَلْ تعالي تَهَوَّدِي
فنحنُ عَلَى توراةِ موسَى ودينه	ونِعْمَ - لَعَمْرِي - الدِّينُ دينُ مُحَمَّد
كلانا يرَى أنَّ الرّسالةَ دينَهُ	ومن يَهْدِ ابوابَ المراشد يَرْشَدِ

ارْسَتْ تجرِبَةُ المدينة - خِلَالَ نَشْأة الإِسْلَام - معالمَ قِيمِيَّةً مُتَسَاوِقَةً مَعَ الأَبْعَادِ الإِنْسَانِيَّة، النَّابعة من أصول الفكر الدِّينِيّ، وَكَانَ الإِسْلَامُ قَدْ استوعبها وترجمها إلَى مرتكزات فِكرِيَّة مُتَمَثِّلَة فِي: التَّكريم الالهي للإِنْسَانِ[3] {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} (الإسراء70)؛ ومبدأ الْحُرِّيَّة فِي الاعتقاد {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (الكافرون6)؛ ومبدأ المساواة «النّاس كلُّهم سواء كأسنان المشط»[4]، و«لا فرق بَيْنَ عَرَبِيّ وأعجمي، ولا بَيْنَ أبيض وأسود وأصفر»[5]؛ ومبدأ العدالة فِي الْحُقُوق والواجبات، فالكل اعضاء فاعلين فِي المُجْتَمَع»، والمرء كثير بأخيه»[6]، متعاونين «مثل الجسد إذَا اشتكى مِنْهُ عضو تداعى لَهُ سائر الجسد بالسّهر والحمَّى»[7]. وبهذه المبادئ اضطلعت رسالةُ

---

(1) - البيهقي: السّنن الكبرى 9/ 186.

(2) - الاغاني 22/ 120.

(3) - انظر: انطوان مسرة: «الأديان وحقوق الانسان - عودة إلَى الاصول ونماذج تطبيقية ايجابية فِي الانسجام والتكامل»، بحث فِي المصادر الدينية لحقوق الانسان، ص 491.

(4) - الجاحظ: البيان والتبيين 1/ 222؛ الصّدوق: من لا يحضره الفقيه 4/ 379.

(5) - أحمد حسين يعقوب: الخطط السّياسيّة لتوحيد الامة الإسلاميّة، (لندن، 1415هـ) ص 156.

(6) - الجاحظ: البيان والتبيين 1/ 222؛ اليعقوبي: التاريخ 2/ 100.

(7) - رواه أحمد: المسند 4/ 270؛ مسلم: الصّحيح 8/ 20.

النّبيّ مُحَمَّد، وجسَّدها فِي أعماله الَّتِي تهدف إلَى الانسجام والتّكامل فِي مجتمع المدينة.

اضطلع الرسول فِي تجربة المدينة بمشروع التقريب بَيْنَ شرائح المجتمع، المُخْتَلفة فِي الإثْنِ، والعقيدةِ، والقبيلة، والطبقة، والتي ظلَّت متنافسةً عَلَى الوجود إلَى حد الإحتراب أحيانا. فكانت المؤاخاة بَيْنَ المهاجرين والأنصار، وَبَيْنَ الأوس والخزرج، من أهمّ الأعمال الرائدة، الَّتِي وفرتْ الأمانَ النفسيَّ والاِجْتِمَاعِيَّ لأهل المدينة على اختلاف مشاربهم. وجاء بناء المسجد رفدا فِي التقارب الروحي ووحدة الكلمة، خِلَالَ الصلاة والخطابات الدينية والسِّيَاسِيَّة.

وَلَعَلَّ جَعْلَ قِبْلَةِ الإِسْلَامِ إلَى بيتِ المَقْدِسِ - فِي وهلتها الأولى - فكرةٌ رائدةٌ تُحَفِّزُ التقاربَ الدينيَّ والثقافيَّ مَعَ اليَهُودِيَّة والنَّصْرَانِيَّة فِي المنطقة، إنطلاقًا مِن واحديَّةِ الألوهةِ، وإِبْرَاهِيميَّة الأرومَةِ، وتوَحُّد الإتجاه العباديَّ. ومِنْ ثَمَّ أرْدَفَها بوثيقةِ المدينةِ، الَّتِي منحتْ جميعَ أهلِها المساواةَ فِي الحقوقِ والواجباتِ، وَكَانَتْ نموذجًا تطبيقيًّا للتقاربِ الاِجْتِمَاعِيّ.

بَيْدَ أنَّ تغييرَ القبلةِ - بَعْدَ سنة وسبعة أشهر - إلَى الكعبةِ فِي مكَّة، البيتُ الَّذِي شيَّدَه إِبْرَاهِيمُ وإسماعيلُ، وطهَّرَاهُ للطائفينَ والعابدينَ، فِيهِ دالَّةٌ عَلَى مكانةِ إِبْرَاهِيمَ، والمساحةِ الَّتِي احتلَّها فِي وَعْيِ الرسولِ محمَّدٍ، وأنَّ التوجُّهَ إلَى مكَّةَ الوَثَنِيَّةَ، ومَا لَهَا من أثرٍ فِي الشَّخصيَّةِ الدينيَّةِ العربيَّةِ، وأنَّ هدايَةَ أهلِ مكَّة وقومِه لَهُ الأَوْلويَّةُ فِي إرساءِ الدينِ، بدلالة {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} (الشعراء214)، لَاسِيَّمَا بعدئذٍ نشبَ الخلافُ أظفارَه مَعَ اليهودِ، ودُقَّ بينَهما عِطْرُ مَنْشَمِ. ولعلَّها كَانَتْ مُنْبَعَثَ الغِنَى فِي إقناعِ أهلِ مكَّةَ، بأنَّ دينَ محمَّدٍ قريبٌ إلَى مقدَّساتِهم، بَلْ وأنَّ البيتَ الحرامَ نقطَةُ اشتراكٍ فِي القدسيَّةِ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ أرْدَفَها فِي السنةِ السادسةِ بِعُمْرَةِ المُسْلِمِينَ؛ لتُعَزِّزَ قَنَاعَةً أكْبَرَ كافِيَةً لإنتاجِ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ.

ولعلَّ لتحويل القبلة مغزى مهمًّا في ابداع الهُوِيَّة الإسلاميَّة، وجعلِها من مرتكزات النظم العباديَّة الإسلاميَّة، من خلال الحج اليها. وعلى رأي أرنولد: أنّها

بدايــة الحياة القومية في الإســلام، فجعل من الكعبةِ في مكَّةَ مركزا دينيًّا للمســلمين كافَّة، كما كانت – تمامًا في الأزمان الغابرة – مقصدًا لحجِّ القبائل العربيَّة جميعًا[1].

4. معاهدات الرّسول مَعَ أهل الكتاب:

أكَّد الرسول على مبدأ تنظيم العلاقات الحقوقيَّة العادلة بين القبائل والمجتمعات على أساس الحِلْفِ، فكان شَغِفًا بـ «حلف الفضول»، الذي عقد قبل البعثه في مكَّة، عندمـا يتذكره: «شَــهِدْتُ... حِلْفًـا مَا أُحِــبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْـرَ النَّعَمِ، وَلَـوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»[2].

فالمعاهـدات مِنْ أهَمِّ أعْمَالِ الرّسـولِ مُحَمَّـدٍ فِي المدينةِ، بخاصَّــة عندمَا يتَعَلَّقُ الأمـر بأهْـلِ الدِّيَانَاتِ الأُخْرَى، وَفِيمَـا كتبهُ لَهُمْ مِن مَواثيـقَ ومعاهداتٍ، كان لإدامةِ المُعَايَشــةِ الرّعَوِيَّــةِ فِي ظِـلِّ الدَّوْلَـة العَرَبِيَّة، وأنَّهـا تكونُ شــريعةً مُلْزِمَةً لِمَـنْ بَعْدِهِ. وترتكز المعاهدة في الإسلام على العرف والآداب الدُّوَليَّة السائدة، مصطبغة بروح الإســلام فــي الســلْم وتوفير الأمن للآخر في عقــد المعاهدة. فضلا عــن أنَّها جاءت مدوَّنة وصريحة، ويستبين فيها عنصر الإرادة والإختيار والإستقلال. وهذه السمات وفَّـرَت أهمِّيةً كبرى للإلتزامات المنبثقة عن المعاهدات، ويشــكل ســبْقُهَا التاريخيُّ زيادةً في الأهمِّية، في نظر علماء القانون[3]. ولعلّ أهَمَّ مَا كتبهُ وأقرَّه مَا يأتي:

وثيقة المدينة[4]:

دســتورٌ وضعَهُ الرّســولُ لأهلِ المدينةِ عَلَـى مُخْتَلف انتمائِهم العقديَّــة والقبليَّة،

(1) – الدعوة الى الاسلام، ص47.

(2) – ابن هشام: السيرة 1/ 134.

(3) – عباسعلي الزنجاني: القانون الدولي في الإسلام، ص447.

(4) – في 52 فقرة، ذكرها: ابن هشام: السّيرة النّبوية 1/ 341 – 344؛ مُحَمَّد حميد الله: مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة، ص15 – 21؛ عبد الرّحمن عزام: الرّسالة الخالدة، ص83 – 89؛ مُحَمَّد جلال شرف وآخرون: خصائص الفكر السّياسي في الاسلام وأهم نظرياته، ص55 – 60؛ مُحَمَّد ممدوح العَرَبِيّ: دولة الرّسول في المدينة (الهيئة المصرية،1988م)، ص 167 – 178.

لِيُحَدِّدَ لَهُمْ نظامَ العملِ فِي شؤونِ الجماعةِ الدّاخليَّةِ والخارجيَّة، وَهُوَ دستورٌ يبيِّنُ الحدودَ الجُغْرَافِيَّةَ لوطنِ الأمَّةِ[1]: جوفُ المدينة، ومنازلُ القَبَائِلِ من عربٍ ويهودَ، «وَكُلِّ مَن لَحَقَ بِنا وجَاهَدَ مَعَنَا»، وَهِيَ الَّتِي تَنْضَمُّ إلَى وحدةِ الأمَّةِ و«تَقَرُّ بِمَا فِي هَذِهِ الصّحيفةِ» أي تُوَافِقُ عَلَى ذَلِكَ الدّستور، وَقَدْ اتسعتْ مساحةُ المدينةِ بِذَلِكَ؛ لأنَّ القَبَائِلَ حولَها أخذتْ تَنْضَمُّ إلَى أُمَّةِ الصّحيفةِ[2]، وتاليًا أنَّهُ كَانَ أوَّلَ دستورٍ نَظَّمَ الْحُقُوقَ والواجباتِ فِي الدَّولَةِ العَرَبِيَّة[3]. وأضافتْ الصّحيفةُ آفاقًا رحيبةً لحقوقِ الرعيَّة فـي استيعابِها اليهودَ ومُشْرِكِي قبيلتَـي الأوسِ والخزرجِ، الَّذِينَ شاركوا الْمُسْلِمِينَ الحياة فِي المدينة، في سلمِها وحربِها، وشكَّلَتْ مِنْهُمْ «أمةً دُونَ النّاس» يتَمَتَّعون خِلَالَها بحقوقٍ وواجباتٍ متساويةٍ.

أمَّا المبادئُ المميزةُ والخطوطُ الْعَرِيضةُ، الَّتِي رسمتها هَذِهِ الوثيقةُ، فيمكن تلخيصُها فِي مَا يأتِي:

1 - مبدأ التعايش السلمي الْمُشْتَرَك، بمعنى «المواطنة» بالمفهوم الحديث، إذ تبلورت حقًا فِـي الإقامة عَلَـى أرض مخصوصة، واكتسابا لجنسيتها، وتَمَتُّعًا بالعضوية الكاملة فِي الْمُجْتَمَع، في غمرة الحرِّية والسلم والأمن، عَلَى أساس المساواة والتّعاون الْمُشْتَرَك، ومن غير تمييز بَيْنَ الألوان والأعراق والأَدْيَان، تقول: [1] المؤمنين والمُسْلِمِينَ من قُرَيْش (المهاجرين)، وأهل يَثْرِب (الأنصار)، ومن تبعهم ولحق بِهِمْ (من الأعراب)، وجاهد مَعَهُمْ (بالدّفاع عَنْ المدينة). [16] وأن من تبعنا من يهود فإن لَهُ النّصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عَلَيْهِمْ.

2 - مبدأ التّكافل الِاجْتِمَاعِيّ، تقول الصّحيفة: [24، 37، 38] وأن عَلَى اليهود نفقتهم وعلى الْمُسْلِمِينَ نفقتهم. [37] وأنَّ بَيْنَهُمْ (المُسْلِمِينَ وغير الْمُسْلِمِينَ)

(1) - الأمة - فِي المفهوم الإسلاميّ: رابطة تجمع بَيْنَ شمل جماعات شعرت بوجود روابط دينية وفِكرِيَّة واقتصادية واجْتِمَاعِية بينها، وبوجود إخوة فِي العقيدة والرّأي.

(2) - حسين مؤنس: دراسات فِي السّيرة النّبوية، (القاهرة 1985م)، ص56.

(3) - كامل الدقس: الدولة الإسلاميّة، (عمان 1993م)، ص79.

النّصح والنّصيحة والبر دُونَ الإثم. [40] وأنَّ الجار (مسلما كَانَ أَوْ غير مسلم) كالنّفس غيرُ مُضَار ولا آثم.. [12] وأنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا (مثقلا بالدّيون كثير العيال) بَيْنَهُمْ أنْ يعطوه بالمعروف فِي فداء أَوْ عقل. [19] وأنَّ المؤمنين يبيء (يساوي) بعضُهم بعضًا بِمَا نال دماءَهم فِي سبيل الله. [21،13، 37] وأنَّ النّصرَ للمظلوم.

3 – مبدأ المحافظة عَلَى أمن الدّولة والمجتمع، تنصُّ الصّحيفة: [37] وَأَنَّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ. [15] وأنَّ ذِمَّةَ اللهِ واحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أدْنَاهُم. [13] وأنَّ المُؤْمِنِينَ المُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيسَةَ ظُلْمٍ، أَوْ إِثْمٍ، أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ، وأنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعَهُم، ولَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ. [22] وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وآمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، أنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا أَوْ يُؤْوِيهِ، وأنَّ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ، فإنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللهِ، وغَضَبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ولَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ ولَا عَدْلٌ. [47] وَأَنَّهُ لَا يَحُولَ هَذَا الكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أَوْ آثِمٍ.

4 – مَبْدَأُ المُسَاوَاةِ والإِدَارَةِ الذّاتِيَّةِ لِمُكَوِّنَاتِ المُجْتَمَعِ: [19] وأنَّ المُؤْمِنِينَ يُبِيءُ (يُسَاوِي) بَعْضُهُمْ بَعْضًا. [3] المُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ، يَتَعَامَلُونَ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَفْدُونَ عَانِيَهُمْ بِالمَعْرُوفِ والقِسْطِ، وبَنُو عَوْفٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ، يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الأُولَى، وكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بالمَعْرُوفِ والقِسْطِ بَيْنَ المؤمنين. ثُمَّ ذَكَرَ كُلَّ بَطْنٍ مِنْ بُطُونِ الأنْصَارِ، وأهْلَ كُلِّ دَارٍ: بَنِي سَاعِدَة، وبَنِي جُشَم، وبَنِي النّجَار، وبَنِي عَمْرُو بنِ عَوْفٍ، وبَنِي النَّبِيت[1].

5 – مبدأ الدّفاع المُشْتَرَك بَيْنَ جميع المواطنين، تقول الصّحيفة: [44] وأنَّ بَيْنَهُمْ (سكان المدينة مُسْلِمِينَ وغير مُسْلِمِينَ) النّصر عَلَى من دهم يَثْرِب. [37] وأنَّ بَيْنَهُمْ (مُسْلِمِينَ وغير مُسْلِمِينَ) النّصر عَلَى من حارب أهل هَذِهِ الصّحيفة. [17] وأنَّ سلْمَ المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمنٌ دُونَ مؤمنٍ فِي قتالٍ فِي سبيلِ الله، إلَّا

(1) – بَنُو النبيت – بِفَتْح النُّون: من الأوس. عياض اليحصبي: مشارق الأنوار عَلَى صحاح الآثار2/ 36.

عَلَى سواءٍ وعدلٍ بَيْنَهُمْ.

6 - مبدأ حُرِّيَّة الاعتقاد وتقرير المصير للآخرين، فَقَدْ وظَّفَ النّبِيُّ مُحَمَّد التَّنَوُّع بمفهومه الَّذِي يساوي بَيْنَ الأَدْيَان فِي نظم حقائقها ومستويات القداسة فِيهَا، تقول الصّحيفة: [25] أنَّ يهود بني عوف أمَّةٌ مَعَ المؤمنين، لليهود دينهم وللمُسْلِمِينَ دينهم ومواليهم وأنفسهم[16] وأنَّ من تبعنا من يهود، فإنَّ لَهُمْ النّصرَ والإسوةَ، غيرَ مظلومين ولا متناصر عَلَيْهِمْ. [47] وَأَنَّهُ من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلَّا من ظلم أَوْ أثم.

7 - مبدأ سيادةِ الشّريعةِ، وحاكِمِيَّةِ الرّسولِ مُحَمَّدٍ، تقول: [42] وأنَّ مَا كَانَ مِن أهلِ الصّحيفةِ من حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فإنَّ مَرَدَّهُ إلَى اللهِ، وإلى مُحَمَّدٍ رسولِ الله. [23] وأنّكم، مهما اختلفتم فِيهِ من شيءٍ، فإنَّ مردَّهُ إلَى اللهِ - عز وجل - وإلى مُحَمَّد.

يجدر العلم، إنّ «وثيقة المدينة» عَلَى صعيد التّجربة التّاريخيّة الإِسْلَامِيّة كَانَتْ بادرةً لتنظيم العَلاقَات السّيَاسِيَّة والإِجْتِمَاعِيَّة والدّينِيَّة فِي المدينة بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والمشركين من عرب المدينة وقَبَائِل اليهود والنَّصَارَى، وتُعَدُّ أوّلَ عَقْدٍ سِيَاسِيٍّ مُدَوَّنٍ ومُنْضَبِطٍ فِي التّاريخ السِيَاسِيّ الإِنْسَانِيِّ، كَمَا كَانَتْ هَذِهِ الوثيقة ذاتَ سَبْقٍ فِي تأسيس قِيَمِ التَّسَامُح فِي الدَّولَة العَرَبِيَّة الَّتِي قامتْ عَلَى أُسِسِ التَّنَوُّع الدّينِيّ والإِجْتِمَاعِيّ. فإنَّهَا أقرَّت باحترام حرِّية الإرادة، التي هي من أهم أسس الحياة الإنسانيّة، وكل معاهدة صادرة عن إرادة حرَّة، أي غير واقعة تحت الفرض القسريّ، وتنسجم مع الفطرة الإنسانية، تكون ذات آثار قانونية مُلزِمَةً، وقيمية ذات مسؤولية أمام الله، إذْ تسمَّى المعاهدات عهد الله ولا يجوز نقضها(1)، {الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ} (البقرة27). وبِمُوجِبِ هَذِهِ القِيَمِ التَّأسِيسِيَّةِ الكُبْرَى أصْبَحَ التَّعَاقُدُ آلِيَّةً راسِخَةً فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ الفَرْدِيَّةِ والعَامَّة.

(1) - عباسعلي الزنجاني: القانون الدولي في الإسلام، ص 448 - 450.

على الرّغم مِنْ أنَّ التّاريخ السِيَاسِيّ الإِسْلَامِيّ لَمْ يكن تعبيراً وفيّاً، ولا منسجمًا فِي الغالب مَعَ الثّورة الأخلاقية والرُّوحِيَّة، الَّتِي أحدثها الإِسْلَام، بحكمِ سيطرةِ قِيَمِ القبيلةِ، وتأثيراتِ نظامي الحكمِ الرّومَانِيِّ والفارسيِّ القديمينِ؛ فإنَّ هَذَا الغيابَ التّاريخيَّ لَمْ يُلْغِ قيمةَ التّعاقدِ السِيَاسِيِّ، الَّتِي بقيتْ مَحَلَّ تأكيدٍ فِي الخطابِ السِيَاسِيِّ القديمِ والحديثِ[1].

معاهدة أهل نَجْرَان

أسهمتْ فكرةُ المعاهداتِ التي شَرَعَنَهَا الرسولُ مع أهلِ الكتابِ، ولاسيَّما المَسِيحِيِّينَ، في نشرِ لُغَةِ التفاهُم، وإدامةِ الصلاتِ الوديَّة بينَ المَسِيحِيِّينَ والمسلمينَ من العرب، بحسب أرنولد[2]: أنَّ محمدًا نفْسَهُ عَقَدَ حِلْفًا مَع بعضِ القبائلِ المَسيحيَّة، وأخَذَ على عاتِقِهِ حمايتَهُم، ومَنْحَهُمْ الحرِّيَةَ في إقامةِ شعائرِهم الدِّينيَّة، كما أتاحَ لرجالِ الكنيسةِ أنْ يَنْعَمُوا بحقوقِهم ونفوذِهم القديمِ في أمْنٍ وطُمَأْنِينَةٍ.

ألحقتْ الوثيقةُ الَّتِي كتبَها الرّسولُ مُحَمَّدٌ لأهلِ نَجْرَان سنة 10هـ/ 632م، عنصرًا بَشَرِيًّا واجْتِمَاعِيًّا جديدًا، يعتنقُ الدّينَ الْمَسِيحيَّ بجوار الأمّةِ الإِسْلَامِيّة، ويتَمَتَّعُ بحقوقٍ اِجْتِمَاعِيَّةٍ ودِينِيَّةٍ مُلْزِمَةٍ للأُمَّةِ عَلَى أرضيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ خالصةٍ. كَانَ «وَفْدُ نَصَارَى[3] نَجْرَان[4] من أهمِّ الوفودِ، لمكانةِ نَجْرَان موقعًا وتاريخًا سِيَاسِيًّا ودِينِيًّا

---

(1) - منصور الجمري: مداخلات فِي الفكر والسّياسة، (البحرين، 2008م) ص 169.

(2) - الدعوة الى الإسلام، ص65.

(3) - قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفْدُ نَصَارَى نَجْرَانَ، سِتّونَ رَاكِبًا، فِيهِمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فِي الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ إلَيْهِمْ يَئُولُ أَمْرُهُمْ الْعَاقِبُ أَمِيرُ الْقَوْمِ وَذُو رَأْيِهِمْ وَصَاحِبُ مَشُورَتِهِمْ وَالّذِي لَا يُصْدِرُونَ إلّا عَنْ رَأْيِهِ وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ وَالسّيّدُ لَهُمْ ثِمَالُهُمْ وَصَاحِبُ رَحْلِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ وَاسمه: الْأَيْهَمُ، وَأَبُو حَارِثَةَ بْنُ عَلْقَمَةَ، أَحَدُ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، أُسْقُفُهُمْ وَحَبْرُهُمْ إمَامُهُمْ وَصَاحِبُ مِدْرَاسِهِمْ. ابن هشام: السّيرة النّبوية 1/ 573؛ ابن سعد: الطبقات 1/ 2/ 84؛ البلاذري: فتوح البلدان 70؛ البيهقي: دلائل النّبوة، 5/ 383؛ النّويري: نهاية الأرب،18/ 121

(4) - نَجْرَانَ: مدينة بالحجاز من شق اليمن، سُمِيتْ بِنَجْرَانَ بْنِ زَيْدِ بْنِ يُشْجَبَ بْنِ يَعْرُبُ بْنِ قَحطَانَ وَأمَا أَهْلُهَا فَهُمْ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ مِنْ مَذْحِجَ. البكري: معجم ما استعجم، 4/ 1299؛ السّهيلي: الرّوض الأنف فِي شرح السّيرة النّبوية)3/ 240

واجْتِمَاعِيًّا فِي الجَزِيْرَة[1]، إستقبلهُم الرّسولُ مُحَمَّدٌ فِي مسجدِ المدينةِ، المركز الإِدَارِي للحكم، وسمح لَهُمْ بالصّلاة وأداء طقوسهم فِي مسجده[2]، عَلَى الرَّغْم مِنْ ممانعةِ ثُلَّةٍ من أصحابه، إقرارًا مِنْهُ بأنَّ الصّلاةَ لله وإنْ اختلفتْ الدِّيَانَاتُ، وأنَّ من حقِّهم مُمَارَسَةَ طقوسِهم الإيمانية أنّى شاءُوا، مَا دامتْ بيوتُ العبادةِ لله، ومن بَعْدِ حوارٍ دِينِيٍّ، مؤداه إرجاء الأمر إلَى الله فِي مُبَاهَلَةٍ روحَانيَّة، والمصالحة[3] عَلَى كتابةِ معاهدةٍ تُبَيِّنُ طبيعةَ العلاقةِ المستقبليَّةِ، وضوابطَ التّعاملِ بَيْنَ الدَّولَة العَرَبِيَّة ورعاياها من أصحابِ الدِّيَانَات الأُخْرَى.

نَصَّتْ معاهدةُ رسولِ الله وأهلِ نَجْرَان عَلَى أَنَّ: «لنَجْرَان وحَاشِيَتِهَا جِوَارَ اللهِ وذِمَّةَ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، رسولِ اللهِ، عَلَى أنْفُسِهِمْ، وَمِلَّتِهِمْ، وَأَرْضِهِمْ، وأَمْوَالِهِمْ، وَغَائِبِهِمْ، وَشَاهِدِهِمْ (وعَشِيرَتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ)[4] وأَمْثِلَتِهِمْ، لاَ يُغَيَّرُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، ولَا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وأمْثِلَتِهِمْ، لَا يُحَرَّكُ رَهْبَانِيًّا عَنْ رَهْبَانِيَتِهِ، وَلَا وَافِهَ عَنْ وَفَاهِيَتِهِ[5]، عَلَى مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِير، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ رَهَقٌ وَلاَ دَمُ جَاهِلِيَّةٍ،

(1) - ذكر المؤرخون كالطبري وابن الأثير والمقريزي: أن نصارى نجران إنما وفدوا عَلَى رسول الله سنة عشر من الهجرة، وذكر آخرون كأبي الفداء فِي البداية والنّهاية ونظيره فِي السّيرة الحلبية: أن ذَلِكَ كَانَ سنة تسع من الهجرة. الطباطبائي: الميزان فِي تفسير القرآن 3 / 293.

(2) - وَلَمَّا قدم وفد نجران ودخلوا المسجد النّبوى بعد العصر حانت صلاتهم فقاموا يصلون فِيهِ فأراد النّاس منعهم فقال عَلَيْهِ السّلام دعوهم فاستقبلوا المشرق وصلوا صلاتهم. البيهقي: دلائل النّبوة 5/ 382؛ الدِّيار بَكْري، حسين بن مُحَمَّد بن الحسن (ت 966هـ): تاريخ الخميس فِي أحوال أنفس النّفيس، (دار صادر، بيروت) 2/ 195

(3) - من التصالح، وَهُوَ عقد للتراضي والتسالم بَيْنَ شخصين فِي أمر عيني أوْ منفعة بَيْنَهُمَا. أحمد فتح الله، معجم ألفاظ الفقه الجعفري، (الدمام، 1995 م)، ص357.

(4) - الصّالحي، مُحَمَّد الشّامي (ت 942هـ): سبل الهدى والرّشاد، فِي سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله فِي المبدأ والمعاد،، (بيروت، 1993م) 6/ 416.

(5) - الواقه - بالقاف - مثل الوافه - بالفاء، الوافه: القيِّم الَّذِي يقوم عَلَى بيت النّصارى الَّذِي فِيهِ صَلِيبُهم بلغة أهل الجزيرة قَالَ وفي الحديث لا يُغَيَّرُ وافهٌ عَنْ وُفهيته. تهذيب اللُّغَة 6/ 182؛ تاج العروس 36/ 548.

ولا يُحْشَـرُونَ[1]، وَلاَ يُعْشَـرُونَ[2]، وَلَا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ؛ مَنْ سَأَلَ مِنْهُمْ حَقًّا فَبَيْنَهُمْ النَّصْـفُ، غَيْـرِ ظَالِمِينَ وَلَا مَظْلُومِينَ بِنَجْرَان، وَمَنْ أَكَـلَ مِنْهُمْ رِبًا مِنْ ذِي قِبَلٍ فَذِمَّتِي مِنْـهُ بَرِيئَـةٌ، ولَا يُؤْخَـذُ مِنْهُمْ رَجُلٌ بِظُلْمِ آخَـرَ، وَلَهُمْ عَلَى مَا فِي هَـذِهِ الصَّحِيفَةِ جِوَارُ اللـهِ، وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ أَبَـدًا، حَتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللهِ، مَا نَصَحُـوا وَأَصْلَحُوا فِيمَا عَلَيْهِمْ، غَيْرُ مُكَلَّفِينَ (مُثْقَلِينَ) شَيْئًا بِظُلْمٍ»[3]

يلحـظ أنَّ المعاهدة عبَّرت عن حرية إرادة المَسِـيحِيِّينَ القادمين بوفدهم الكبير، وأنَّهـا أخذت بمبـدأ التوافق على المصلحة المشـتركة، فيما مثَّلته مـن إلتزام طوعي أظهره طرفا المعاهدة، كما أنَّها –تاليًا– أوجبت عَلَى السّلطة السِّيَاسِيَّة عدّة إلتزامات مستقبليَّة:

- بقـاء أهل نَجْرَان فِي أماكنهم، وإقامتهم فِي ديارهـم، دُونَ أنْ يكونَ مَعَهُمْ أحَدٌ من الْمُسْلِمِينَ[4].
- توفير الرّعاية والحماية الشّاملة لأرواحهم وأموالهم، كَمَا وفرت عنصر العدالة فِي تمكين حقوقهم.
- الحفـاظ عَلَـى حريتهم الشَّـخْصِيَّة، وعلى حُرِّيَّـة عقائدهـم، ودور عباداتهم، دُونَ

---

(1) – لا يحشرون: لا يندبون إلىَ المغازي ولا تضرب عَلَيْهِمْ البعوث وقيل لا يحشرون إلىَ عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم بَلْ يأخذها فِي أماكنهم. ابن الأثير: أبُو السّعادات المبارك بن مُحَمَّد الجزري، النّهاية فِي غريب الأثر، تح: طاهر أحمد الزاوى – محمود مُحَمَّد الطناحي (بيروت، 1979م)، 1/ 389.

(2) – من العشر: بضم فسكون، ج عشور وأعشار، جزء من عشرة أجزاء... One tenth ❊ ما يؤخذ من تجارة أهل الحرب، وأهل الذمة عندما يجتازون بِهَا حدود الدولة الإسلاميّة، وَقَدْ كَانَ يؤخذ فِي القديم عشر ما يحملونه. مُحَمَّد قلعجي: معجم لغة الفقهاء (بيروت 1988م) – ص 312؛ مُحَمَّد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية فِي الاسلام، (بيروت، 1993م)، 377.

(3) – البلاذري: فتوح البلدان 1/ 76. وانظر: ابن شبة: أخبار المدينة 1/ 311؛ أبُو عبيد: الأموال 1/ 245؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، تح: مُحَمَّد حسين الزبيدي (دار الرّشيد، العِرَاق)، 1/ 272. بسيوني، محمود شريف، الوثائق الدَّوْلِيَّة المعنية بحقوق الإنسان، المجلد الثّاني، (القاهرة، 2003). وَقَدْ نشر هَذِهِ الوثيقة المعهد الدولي لحقوق الإنسان بجامعة دي بول شيكاغو. ومكتبة حقوق الانسان فِي جامعة منياسوتا الامريكية.

(4) – سيد سابق: فقه السّنة 2/ 669.

التّدخل فِي تنظيماتهم الدِّينِيَّة.

- عدم فرض التّجنيد الإجباري عَلَيْهِمْ، وصيانة حرمة أرضهم، فلا يطأها جيش السّلطة المركزية دُونَ إذنهم.

- أسقطت الوثيقة عَنْهُمْ عشور التّجارة، الَّتِي تفرض عَلَى التّجار الأجانب، باعتبارهم مُتَمَتِّعِين بحقوق الرعيَّة فِي الدَّولَة العَرَبِيَّة.

معاهدات أُخْرَى:

ثَمَّةَ معاهداتٌ للرسول مُحَمَّد مَعَ أصحاب الدِّيَانَات الأُخْرَى، سادت فِيهَا روح المحبة والتّقدير والتّكريم للآخر، فأقرَّ لَهُمْ الْحُقُوق والحرمات والحماية فِي: النّفس، والحياة، والمال، والأهل، والمسكن، وحُرِّيَّة العقيدة، وحُرِّيَّة العبادة، وحُرِّيَّة العمل، وحُرِّيَّة الاقامة، وحُرِّيَّة السّكن، وحُرِّيَّة التّنقل، وحُرِّيَّة الزواج. مِنْهَا:

- معاهدة مَعَ نَصَارَى «جَرْبَاءَ» و «أَذْرُحَ»[1]: فِي كتاب لَهُمْ: «هَـذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّد النّبيّ لأَهْلِ أَذْرُحَ؛ أَنَّهُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللهِ وَمُحَمَّد، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مِائَةُ دِينَارٍ فِي كُلِّ رَجَبٍ وَافِيَةً طَيِّبَةً، وَاللهُ كَفِيلٌ عَلَيْهِمْ بِالنّصْحِ وَالإِحْسَانِ لِلْمُسْلِمِينَ»[2].

- معاهدة مَعَ نَصَارَى «أيْلة»[3]: جاءت إثْرَ عَفْوِ الرّسول مُحَمَّد ومعاملته الكريمة لنَصَارَى دومة الجندل؛ إِذْ قدم «يُحَنَّة بن رؤبة» ملك أيْلة وما حولها - وَكَانَ نصرانيًا - عَلَى رسول الله وَهُوَ فِي تبوك، بحَسَبِ رِوَايَة جابر: رأيت يُحَنَّة بن رؤبة يوم أتى النّبيّ وعليه صليب من ذهب، وَهُوَ معقود النّاصية، فَلَمَّا رأى النّبيَّ كفَّرَ، وأوما برأسه (أي: طأطأ رأسه خضوعًا، ووضع يدَه عَلَى صدرِه)، فأوْمَأ إِلَيْهِ

(1) - الجرباء وأذرح: موضعان من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشّام قرب جبال السّراة من ناحية الحجاز، وَبَيْنَهُمَا ميل واحد. ياقوت: معجم البلدان 1/ 129، 2/ 118.

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى 1/ 290؛ ابن كثير: السّيرة النّبوية 4/ 30؛ المقريزي: إمتاع الأسماع 2/ 65.

(3) - أيلة - بالفتح: مدينة عَلَى ساحل بحر القلزم (الأحمر) مما يلي الشّام وقيل هِيَ آخر الحجاز وأول الشّام. وسكانها من اليهود. معجم البلدان 1/ 292.

النّبيّ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ». وصالحه يومئذٍ، وكساه بُردًا يمانيًا[1].

كَـانَ نصُّ الصّلْح: «بِسْـمِ اللهِ الرّحْمَـنِ الرّحِيمِ، هَذِهِ أَمَنَةٌ مِنَ اللـهِ، ومُحَمَّد النّبيِّ رَسُـولِ اللـهِ لِيُحَنَّةَ بْـنِ رُؤْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ، سُـفُنُهُمْ وَسَـيَّارَتُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْـرِ لَهُمْ ذِمَّةُ اللـهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّد النّبِيِّ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشّـامِ، وَأَهْـلِ الْيَمَنِ، وَأَهْلِ الْبَحْرِ، فَمَـنْ أَحْـدَثَ مِنْهُمْ حَدَثًـا فَإِنَّهُ لاَ يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِـهِ... وَإِنَّهُ طَيِّـبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النّـاسِ... وَإِنَّـهُ لاَ يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَـاءً يَرِدُونَهُ، وَلاَ طَرِيقًا يُرِيدُونَهُ مِـنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ»[2]؛ وَأَنَّ النّبِيَّ ضَرَبَ عَلَى نَصَارَى أَيْلَةَ ثَلاثَمِائَةِ دِينَارٍ كُلَّ سَنَةٍ، وَأَنْ يُضِيفُوا مِنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثًا، وَلَا يَغِشُّوا مُسْلِمًا»[3].

لَعَلَّ حُسْـنَ إستقبالِ النّبيِّ لِيُحَنَّة يؤكّد عَلَى رغبتِه فِي إبْرَامِ الصّلْح بالشّكلِ، الَّذِي يحفظُ كرامةَ الآخر؛ فَقَدْ جاء الرّجلُ مرتديًا صليبًا، وَلَمْ يُعَبِّرْ الرّسـولُ مُحَمَّدٌ إلَّا عَنْ رِضَا، وليَعْلَمْ – أيْضًا – أنَّ الصّلْحَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ الأقوياءِ الْمُنْتَصِرين عَلَى الرّوم لَيْسَ مذلَّةً، بَلْ هُوَ عَهْدٌ صادقٌ مَعَ قومٍ أوفياءَ يَحترِمونَ الآخر.

يُلْحَظ هُنَا أنَّ الرّسـولَ مُحَمَّدًا أعْطَى الأمَانَ لِسُـفِنِهِمْ وسَـيَّارَتِهِمْ فِي البَرِّ والبَحْرِ، والمعـروفُ أنَّ أيلةَ عَلَى سـاحل البحـر الأحمر، والمسـلمون حَتَّى هَـذَا الوقت لَمْ يركبـوا البحر، وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِيهِ منشـآتٌ وأسـاطيلُ، ومعنى هَذَا أنَّ الرّسـول يُحَمِّل نفسَـهُ والمُسْلِمِينَ عبئًا خطيرًا ومسؤولية جسيمة، ألَا وَهِيَ حماية أهل أيلة فِي البحر بَيْـنَ الشّـام واليمن، مَعَ اعطائهم حُرِّيَّـةَ الحركة البحْرِيَّة أنّى شـاءوا، فَضْلًا عَنْ توفير طـرق آمنـة عَلَى السّـاحل والبر لَهُمْ، وَهَذَا يقتضي اسـتعداد الرّسـول لبناء أسـطول بحـري وتجهيزه متى حصـل اعتداء عَلَى أهل أيلـة، وَفِي ذَلِكَ مـن الجهد والإنفاق الضّخـم، والمخاطـرة مَـا فِيهِ. لقد تحمَّل رسـول الله كُـلَّ هَذَا العـبءَ، من أجل أن

(1) – البيهقي: السّنن الكبرى 9/ 185.

(2) – أبُو عبيد: الأموال 258؛ ابن هشام: السّيرة النّبوية 2/ 525، 526، ابن الجوزي: المنتظم 1/ 196؛ وابن سيد النّاس: عيون الأثر 2/ 258.

(3) – الشّافعي (ت 204هـ): مسند الشّافعي (الكتب العِلْمِيَّة، بيروت) ص209.

يعيش الْمُسْلِمون مَعَ من حولهم فِي أمان وسلام.

لَعَلَّ اضافةَ لفظِ «ضيافةِ الْمُسْـلِمِينَ» إلَى المعاهدةِ يُوَفِّرُ مَلْحَظًا مُهِمًّا فِي التّعَايُش الاِجْتِمَاعِـيّ والتّلاقـحِ الفِكْـرِيّ، وَفِـي تنميـةِ العَلاقَـاتِ والعـاداتِ الطّيبـةِ، وتوليدِ شحناتِ التّقاربِ النّفسيّ والوجدانيّ، الّتِي تَرْشَحُ عَنْ أَدَبِيَّاتِ الأَدْيَانِ، وتُوَفِّرُ النُّصْحَ ومصداقيـةَ التّعامُلِ بَيْنَ أطرافِ العَقْدِ، فضلا عن أنّها ترسـيخ للقيم العربية الموروثة في الكرم وإقراء الضيف.

وتاليا، أنَّ الرسـول على الرغم ممّا حدث بينه وبين اليهود من أحداثٍ، إبانَ عهدِ المدينة، ورثتْ شَـحْنَاءَ وَأَضْغَانًا، لكنْ نَجِده لَمْ يُفَرِّقْ بينَ المسـيحِ واليهودِ في كُتُبِ الصُّلـحِ، ففـي رواية الواقدي[1]، في السَّـنة التاسـعةِ صالحَ يهودَ تَيْمَاء علـى الجِزْيَةِ، وأقَامُـوا بأيديهم أمْوَالَهُم، أيْ لمْ يتعرض لأملاكِهـم، وأبْقَى الأرضَ بأيديهِم. ويزيد «ابن سـعد» في ثَبَاتِ وقُوَّة عهْدِ الرسـول، أنّه أعطاهم صكًا لا يَنْقُضُهُ شَـيْءٌ، فهُمْ لا يُعـادَوْنَ ولا يُجْلَـوْنَ، بقوله[2]: «هذَا كِتَابٌ مِنْ محمَّد رسـول الله لبنـي عاديا أنَّ لَهُمُ الذِّمَّةَ وَعَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ، وَلا عَدَاءَ وَلا جَلاءَ. اللَّيْلُ مَدٌّ وَالنَّهَارُ شَدٌّ». وكتب رَسُولِ اللّهِ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ بِرِسَـالَةٍ فِيهَا: «وَأَنَّهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَـهُ مَـا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مَـا عَلَيْهِمْ، وَمَنْ كَـانَ عَلَى يَهُودِيَّتِـهِ أَوْ نَصْرَانِيَّتِهِ فَإِنَّـهُ لَا يُفْتَنُ عَنْهَا، وَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ»[3].

مِـنْ مُكاتباتِ الرّسـولِ مَـعَ الْمَسِـيحِيِّينَ، التي وردتْ لَـدَى مُؤَرِّخِي الْمَسِـيحِيَّةِ، قـولُ ماري بن سـليمان (ق6هــ/ 12م)[4]: «كَـانَ الفَطْـرَكُ ايشـوعيهب الجذالي»[5] [الجاثليق] (6 – 24هـ/ 628 – 645) يُكَاتِبُ صاحبَ شـريعةِ الإِسْـلَام، ويُهْدِي لَهُ،

---

(1) – المغازي 2/ 711؛ وانظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص44.

(2) – الطبقات الكبرى 1/ 213.

(3) – أبو عبيد، القاسم بن سلام: الأموال ص 29.

(4) – ماري: فطاركة المشرق ص62 – 63.

(5) – الجاثليق الجدالي. ترجمه: ماري بن سليمان: فطاركة كرسي المشرق، ص62؛ ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة الشرقية 1/ 189.

وَيَسْألُه الوَصَاةَ برعِيَّتِهِ فِي نَواحِيهِ؛ فأجَابَهُ إلَى ذَلِكَ، وكَتَبَ إلَى أصحابِه كُتُبًا بَلِيغَةً مُؤَكَّدَةً، وبَرَّهُ صاحبُ الشَّريعةِ - عَلَيْهِ السَّلام - بِبِرٍّ، كَانَ فِيهِ عِدَّةٌ من الإبِلِ وثيابٍ عَدَنِيَّةٍ. وتأدَّى ذَلِكَ إلَى ملكِ الفرسِ، فأنْكَرَ عَلَى الفَطْرَكِ فِعْلَهُ ومُكاتَبَتَهُ، وَبِخاصَّةٍ، عِنْدَ ورودِ هداياهُ، فدَارَاهُ إلَى أنْ سَلِم مِنْهُ».

عَلَى تطبيقات الرّسول فِي النّظم الحَضَارِيَّة، يزيد المُؤَرِّخ جورج البناء[1] مُمَارَسَة تاريخيّة، بقوله: «ظهر الإِسْلاَم فِي زمن البِطْرِيَرك ايشوعياب الجدالي (630 - 647م)[2]، فأرسل هدايا إلَى النّبيّ مُحَمَّد، ومن جملتها ألفُ أستارٍ فضَّةً، مَعَ جبرائيل أُسْقُف ميشان، وكاتبَه، وسأله الإحسان إلَى الْمَسِيحِيِّينَ، فاستقبلَه النّبيّ بكل ترحاب، وأرسل مَعَهُ هدايا إلَى البِطْرِيَرك، ومنها عدَدٌ من الإبل، وثياب عدنيَّةٍ، وعهودًا إلَى كافَّةِ خلفائِه، توصِيَةً للمَسِيحِيِّينَ فِي كافَّةِ أنحاءِ الدَّولَة العَرَبِيَّة». ويبدو من هنا بدأت العلاقة تتوطد بين المَسِيحِيِّينَ النساطرة والمسلمين، فإنَّهم بحسب «دوسلييه»[3] «يقول النساطرة: إنَّ المسلمين عاشوا على وفاق تام معهم نظرا لقربهم العقيدي من المَسِيحِيِّينَ»، وقد ساد بينهم اعتقاد بأنَّ المسلمين» أكرموا النصارى أكثر من أهل سائر الأديان»[4].

5. نشر الإِسْلاَم فِي بلاد الْعَرَب

لا ريب أنَّ نظام المعاهدات الذي اضطلع به الرسول محمَّد في ارساء أرضية الأمن والسلم بين مكونات المجتمع المتنوعة، ساعد على فتح أفقيَّة الإسلام على العالم الخارجي، وكان الرسول يبذل التنازلات في سبيل تحقيق عهد أو صلح، فأخذ يقول قبيل صلح الحديبية مع قريش: «والذي نفسي بيدِه لا يَسألوني اليومَ خُطَّةً يُعظِّمون بها حُرُماتِ اللهِ إلا أعطيتُهم إياها»[5]. وكان صلح الحديبية قد أعاد الأمن

---

(1) - الموسوعة الكلدانية، سلسلة بطاركة الكلدان، ص 71.
(2) - ترجمته: ماري بن سليمان: أخبار بطاركة كرسي المشرق، ص 61 - 62
(3) - مسيحيو الشرق والإسلام في العصر الوسيط، ص 123.
(4) - تاريخ السعردي، ص628.
(5) - أبو داود: السنن 4/ 393.

الى الحجاز، وضاعف قدرة الإسلام على التوسع، وكان مهدًا تحالفَ الرسول - في إثره - مع كثير من القبائل والحكومات في جزيرة العرب.

إن كونية الإسلام وعالميته، بحسب النصوص القرآنية، توجب نشره خارج بيئة نشأته، مكّة والمدينة، ولعلَّ الكتبَ التي أرسلها محمد الى ملوك عصره، وإنْ كانت مجازفةً خطيرة من كيان صغير ومحدث الى دول عريقة في التاريخ والنظم، إلَّا أنّها جاءت موافقة تماما مع مبدأ القرآن في مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام، وارتضائه دينا على خارطة الأديان. وجاءت تعبيرات محمد وتنبؤاته دالة بوضوح على صعيد عالمية الإسلام ومطالبة البشرية بقبوله، فإنَّ بِلَالًا أوَّلُ ثمار الحبشة، وإنَّ صُهَيْبًا أوَّلُ ثمارِ الروم، وأما سلمانُ فهو أوَّلُ من أسلم من الفرس[1]، وبمثل هذه التقريرات النبويَّة دلالة جليَّة على أنَّ الإسلام ليس مقصورا على الجنس العربي، بل هو بعثةٌ الى كل الشعوب[2].

تُشَكِّلُ كُتُبُ الرّسولِ إلَى الملوكِ والعظماءِ فِي سنة (6هـ/ 628م) مدخلًا مهمًّا، يكشفُ عَنْ منهجِ السّياسةِ الخارجيَّةِ للدولةِ الإسْلَاميّةِ الفتيَّةِ، وأنّها تطمحُ أنْ يكونَ لَها قَدَمُ وجودٍ فِي الصّراعِ الحضاريِّ والدّوليِّ، ولاسِيَّمَا عَلَى جَزِيْرَة الْعَرَب، وَكَانَتْ أغلبُ الكياناتِ السِّيَاسِيَّةِ المحيطةِ بالجَزِيْرَةِ تَطْبَعُهَا الدِّيَانَةُ الْمَسِيحِيَّةُ عَلَى مُخْتَلفِ مذاهبِها، فالنَّسْطُورِيَّةُ -غالبًا - فِي الحِيرَة والعِرَاق، واليَعْقُوبِيَّةُ فِي غَسَّان وأطراف الشّام، والقبطِيَّةُ فِي مِصْرَ.

اختلفت طبيعة الردود على الرسائل، فَكَانَ كِسْرَى أبرويز (591 - 628م) شديدًا

---

(1) - مستفادة من قول النبي: «صهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة». ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (2/ 729)؛ وقارن: ابن سعد: الطبقات الكبرى 2/ 170، 3/ 175.

(2) - أرنولد: الدعوة الى الإسلام، ص50.

فِـي ردِّ فعلِـه عَلَـى كتابِ الرّسـولِ مُحَمَّـد[1]، فأَمَّا هرقـل والنّجاشـي والمُقَوْقَس[2]، فتأدَّبوا، وتلَطَّفوا فِي جوابِهم، وأكرمَ النّجاشيُّ والمُقَوْقَسُ الرّسلَ، وأرسلَ المُقَوْقَسُ هدايَا، مِنْهَا جاريتان، كَانَتْ إحداهما ماريَّة أم إِبْرَاهِيم ابنِ رسول الله[3].

وَكَانَ عَلَى اليمامة «هوذة الحنفي»[4]، وَكَانَ ملكًا عَلَى دين النَّصْرَانِيَّة، وإليه أرسلَ رسـولُ الله «سـليط بن قيس بن عمرو الأنصاري» يدعوه إِلَى الإِسْلَام. وكتب هوذة إلَـى النّبي: «مَا أحسـن مَا تدعو إِلَيْهِ وأجمله، وأنا شـاعرُ قومِـيَ وخطيبُهم، والْعَرَبُ تهابُ مكانِي، فاجعلْ لِيَ بعضَ الأمرِ، أَتبِعْكَ. وأجازَ سـليطَ بن عمرو بجائزةٍ وكساهُ أثوابًـا من نسـجِ هَجَر، فقـدم بِذَلِكَ كلِّه عَلَى رسـولِ الله، وأخبره عَنْهُ بِمَـا قَالَ، فقرأ كتابَه وَقَالَ: «لَوْ سـالنّى سَـيَابَةً[5] من الأرضِ مَا فعلتُ؛ بادَ، وبادَ مَا فِي يَدَيْهِ». فمات عام الفتح »[6].

تتميـز الكتـب التي بعثها النبـي الى ملوك وعظماء المسـيحيَّة، بأنّهـا ترتكز على إيراد المشتركات في العباداتِ الكِتَابِيَّة، عبّر عنها بـ«كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ»، وأنّهم يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرَّتين، إما أجرُ هدايةِ الماضي وهداية والحاضر، وإما أجرُ هُدى نفسِه

---

(1) – مزقه وقال: يكتب إِلَّي هذا وَهُوَ عبدي؟، وأرسل إِلَى واليه فِي اليمن أن يرسل إِلَيْهِ نجدين اثنين ليأتياني بِهِ. الطبري: التاريخ 3/ 90. ويقال: أن رسول الله لما بلغه ما فعل بكتابه قَالَ: «مزق الله ملكه». ابن هشام: السّيرة النّبوية 4/ 1009.

(2) – المقوقس: كلمة يونانية معناها الحاكم، اسمه: جرجس بن مينا، يوناني الاصل، روماني التولي. (القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، ص 400)؛ وهو سيروس (Cyrus) عينه هيراكيلوس حاكما على مِصْر وبطريكا على كرسي الإسكندرية عام 10هـ/ 631م. (حسام عيتاني: الفتوحات العربية في رواية المغلوبين، ص114)؛ وفي كتب السّير أسمه جريج بن مينا.ابن عبد الحكم: فتوح مِصْر والمغرب364؛ السّهيلي: الرّوض الآنف2/ 159؛ الحلبي: السّيرة الحلبية 3:349.

(3) – أَبُو الفداء، عماد الدين: المختصر فِي أخبار البشر (الحسينية، القاهرة) 1/ 145.

(4) – هُوَ أَبُو علي هوذة بن علي بن ثمامة بْن عمرو بن عبد العزى بن سحيم بن مرة ابن الدول الحنفي(ت. 8هـ/ 630)، ذو التاج صاحب اليمامة. ابن هشام: السّيرة النّبوية 3/ 824، الزبيدي: تاج العروس 5/ 410.

(5) – السَّيَابَةُ – بِفَتْحِ السِّينِ وَالتَّخْفِيفِ: البلَحَةُ، وَجَمْعُهَا سَيَابٌ. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر 2/ 432.

(6) – البلاذري: فتوح البلدان 1/ 105؛ النّويري: نهاية الأرب فِي فنون الأدب 18/ 166.

وهَـدى رعيَّته، في حين أنّ الرسـائل الى المجوس وغيرهـم تخلو من هذه المعاني، إلا أنَّها تتفق في تحميل الملوك مسؤوليَّة عدم هداية الرعيَّة، إذا جنحوا عن الإسلام. ونتجلّـى هـذه المعاني في هذا النص[1]: «بِسْـمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِـنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّـهِ وَرَسُـولِهِ إِلَـى هِرَقْلَ عَظِيـمِ الرُّومِ، سَـلَامٌ عَلَى مَـنِ اتَّبَعَ الْهُـدَى. أَمَّا بَعْـدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْإِرِيسِـيِّينَ[2] {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَـوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْـرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}» [آل عمران: 64].

كَانَـتْ فكرة نشـر الإِسْـلَام، ومَـدَّ أسبابَ النّفوذِ السِيَاسِـيِّ إِلَـى أطـرافِ جَزِيْرَةِ الْعَرَبِ لدولةِ مُحَمَّدٍ الفتيَّةِ، تسـتهدفُ الإفادَةَ مِن سَـعَةِ الرُّقْعَةِ الجُغْرَافِيَّة، واسـتثمارِ تضاريسِـها، كالصّحـارَى والجبالِ والبحارِ؛ لتكـونَ دِرْعًا طبيعيًّا فِـي وجهِ الجيوشِ المعادِيَةِ، الدَّوْلِيَّة والإقليميَّةِ، أَوْ ملعبًا لمناورتِها، وَذَلِكَ مثلُ صحراءِ النّفوذِ فِي وجهِ جيوشِ فَارِسَ، والبحارِ المحيطةِ بجَزِيْرَة الْعَرَبِ؛ وتوفيرِ حاضنةٍ دِيموغرافيَّةٍ متناميةٍ ومُتَرَامِيَـةٍ، يَنْظُمُهَا خَيْطُ القوميَّةِ، واللغةُ الْعَرَبِيَـةُ؛ فَضْلًا عَنْ أَنّها تُوَفِّر مكانَةً اقتصاديَّة عاليَةً، ويحقق استغلالَ مواردِها إدامَةَ تِرْسَانَةِ الحروب.

كَانَ الْمُسْلِمون إِذَا أرادوا أنْ يفتحوا بلدًا، وجب عَلَيْهِمْ أنْ يدعو أهلَه إِلَى الدّخول إِلَى الإِسْـلَام، فإنْ أسـلموا كَانُوا وسائر الْمُسْلِمِينَ سواء، وإنْ لَمْ يسلموا دعوهم إِلَى أن يسـلّموا بلادَهم للمُسْـلِمِينَ، ويبقوا عَلَى دينِهم، ويدفعوا الْجِزْيَة، فإنْ قَبِلوا ذَلِكَ كَـانَ لَهُـمْ مَا للمُسْـلِمِينَ وَعَلَيْهِـمْ مَا عَلَيْهِـمْ، وَكَانُوا فِـي ذِمَّة الْمُسْـلِمِينَ، يحمونهم ويدافعون عَنْهُمْ، ولهذا يسـمون: «أهل الذِّمَّة»، وان لَمْ يقبلوا الإِسْـلَام، ولا الدّخول

(1) – الخركوشي: شرف المصطفى 4/ 14؛ أبو نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة 4/ 380؛ ابن منظور: لسان العرب 6/ 5؛ القلقشندي: صبح الأعشى 6/ 362.

(2) – انظر كتاب النبي إلى النجاشي الأصحم، عظيم الحبشة. ابن اسحاق: السير والمغازي، ص 228؛ البيهقي: دلائل النبوة 2/ 308.

تَحْتَ حكمه ودفع الْجِزْيَة، أُعلنتْ عَلَيْهِمْ الحربُ، وقُوتلوا.

يبـدو أن النبـيَّ محمّـد في بدايـة عهده فـي المدينة كان يسـعى الـى التعايش مع الآخر الديني، على أسـاس من تسـاوي الحقوق والواجبات، كما كانت عليه الحياة المشـتركة في مكّة؛ لذا كتب وثيقةً، أقرَّهـا جميع المكونات الاجتماعيَّة والدينيَّة في المدينـة، بضمنهـم جماعة اليهـود. غير أنَّ اخفـاق التعاون في الحفـاظ على الأمن والدفاع المشـترك، ونقض اليهـود بنود المعاهدة، جعل النبـيَّ يفكر في صيغة بديلة تؤمّـن تعاملًا شـاملًا مع الآخـر الديني في ظل الدولـة، فكانت الجزيـة، التي أقرَّت حمايتهم وأمنهم في ذمة المسلمين.

لعلَّ السنة التاسعة للهجرة كانت فيصلًا مهما في ارتكازِ وتَمَفْصُلِ النظامِ الضريبيِّ للدولةِ الفتيَّةِ، فيها نزلَتْ آيةُ الجزية[1]، {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُـونَ مَـا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُـولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِيـنَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـواْ الْكِتَابَ حَتَّـى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِـرُونَ} (التوبة29)، وفيها فُرِضَتْ الزكاةُ، وفيها فُرِضَتْ الجزيةُ[2].

هنا فرض الاسلام الجزية على غير المسلمين المعاهدين، في مقابل فرض الزكاة على المسـلمين، حتى يتسـاوى الفريقان؛ لانَّ المسـلمين والذمِّيِّين يسـتظلُّون برايةٍ واحـدة، ويتمتعون بجميع الحقـوق وينتفعون بمرافق الدولة بنسـبةٍ واحدة، ولذلك أُوجِبَـتْ الجزية للمسـلمين، نظيرَ قيامهـم بالدفاع عن الذِّمِّيّـن وحمايتهم في البلاد الاسـلامية التي يقيمون فيها[3]. ولعلها من باب المسـاواة في الدفاع والنصرة، فيرى

(1) - يرى نولدكة نشأة الآيات (28 - 35 من التوبة) التي تدعو الى محاربة النصارى حتى يدفعوا الجزية، في السنة الثامنة، في وقعة مؤتة، حيث اشتبكوا بالأيدي مع جنود مسيحيين. تاريخ القرآن، ص201.

(2) - البيهقي: نَزَلَ هَذَا حِيَن أُمِرَ النَّبِيُّ صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ بِغَزْوَةِ تَبُوكَ. السنن الكبرى 9/ 312.

(3) - سيد سابق: فقه السنة 2/ 663.

السرخسيُّ[1] أنَّ الجزية: «فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ هَذَا الْمَالُ خَلَفٌ عَنْ النُّصْرَةِ»، أي نصرة المعاهدين دار الإسلام بأموالهم، قبال نصرة المسلمين بأنفسهم وأبدانهم. ومهما يكن فإنَّ التطورات السياسيَّةَ دفعتْ بعدَ فتحِ مكَّةَ إلى ضرورةِ قيامِ مؤسساتٍ لإدارةِ شؤونِ الدولةِ، وقد حُوِّلَت الصدقةُ الطوعيَّةُ إلى صدقةٍ فرْضٍ أو زكاةٍ.

مِنْ تبلور هذه المفاهيم، وتطور المتغيرات التاريخيَّة، جاءت فكرة الْفُتُوح والمبادرة إلَى اثبات الوجود السِيَاسِيّ والعسكري والدّينيّ للدولة الْعَرَبِيّة الإِسْلَاميّة، فكانت غزوة تبوك وأيلة وأذرح ومقنا والجرباء، من أرض الشّام فِي سنة (9هـ/ 630م)، خطوةً استباقيَّة لتفحص الامكانات البَشَرِيّة والعَسْكَرِيَّة، ومعرفة الاستجابة ورد الفعل لمجتمعاتِها من جهة، ولحاميتها العَسْكَرِيَّة من جهةٍ أُخْرَى، ونتلمَّس تِلْكَ الملامحَ فِي وصف البلاذري[2]: «تجمَّعَ لَهُ منَ الرّوم وعاملة ولخم وجذام وغيرهم، وَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا، فأقامَ بِتَبُوكَ أيّامًا فصالحَهُ أهْلُها عَلَى الْجِزْيَة، وأتاه وَهُوَ بِهَا يحنة بْن رؤبة صاحب أيلة، فصالحه عَلَى أنْ جعل لَهُ عَلَى كُلِّ حالم بأرضه فِي السّنَة دينارا، فبلغ ذَلِكَ ثلاثمائة دينار، واشترط عَلَيْهِمْ قِرَى مَن مرَّ بِهِمْ منَ الْمُسْلِمِينَ، وكتب لَهُمْ كتابا بأنْ يحفظوا ويمنعوا. وَصَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ أَهْلَ أَذْرُحَ عَلَى مِائَةِ دِينَارٍ فِي كُلِّ رَجَبٍ، وَصَالَحَ أَهْلَ الْجَرْبَاءِ عَلَى الْجِزْيَة، وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا، وَصَالَحَ أَهْلَ مَقْنَا عَلَى رُبُعِ عُرُوكِهِمْ وَغُزُولِهِمْ، وَالْعَرُوكُ خَشَبٌ يُصْطَادُ عَلَيْهِ، وَرُبُعُ كُرَاعِهِمْ وَحَلَقَتِهِمْ، وَعَلَى رُبُعِ ثِمَارِهِمْ، وَكَانُوا يهودا».

وَكَانَ النَّبِيُّ غَزَا دُومَةَ الْجَنْدَلِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ فَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا، وَوَجَّهَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إلَى أُكَيْدِرَ بْن عَبْد الملك الكندي ثُمَّ السّكوني فِي شَوَّالِ سَنَةَ تِسْعٍ فأخذه أسيرا، وقدم بأكيدر عَلَى النَّبِيّ، وكتب لَهُ ولأهل دومة كتابا[3].

أمَّا كَيْفَ عامل الرّسول مُحَمَّد الْمَسِيحِيِّينَ؟ فبحسب العامل الزمني في نظر

---

(1) - المبسوط 10/ 81.

(2) - فتوح البلدان ص 67.

(3) - م. ن. ص69.

نولدكـة، أنَّ محمَّـدًا عـدَّ - في سـنواته الأولى فـي المدينـة - النصـارى الحقيقيِّين مؤمنيـن[1]، غيـرَ أنَّه في السنـة الثامنة كانت الآيـات (28 - 35 من التوبـة) تدعو الى محاربة النصارى حتى يدفعوا الجزية، وذلك في وقعة مُؤْتَة، حيثُ اشتبكوا بالأيدي مع جنود مَسِيحِيِّينَ[2].

بيدَ أنَّ الرسول محمَّد لم تلزمْه السنواتُ الأولى في المدينة بالاحتكاك بجماعاتٍ مسيحيَّـة، لعـدم وجودها في بيئته، مثـل جماعات اليهود، مثلما أضحـى مُلْزَمًا، عند توسُّـع نفوذه في السنوات الأخيرة، فـي التعامل مع مواطنَ مسيحيَّةٍ. على أنَّها كانت تَنْتَظِمُ على شـكلين: إما غيرُ خاضعةٍ الى إحدى الدول المحيطةِ، مثل روما وفارس، نحـو نَجْـرَان، فان الرسـول محمد لـم يدهمهم بجيـش، او يهددهم بسـلاح، وإنَّما تجاوزهـم في ذهابـه الى مؤتة، وهم الذين جاءوا الـى المدينة، وصالحوه على عهد بينَهم. أمَّا مواطنُ المَسِيحِيِّينَ التابعة الى بيزنطا، فقد مرَّ الرسول عليهم بجيشة دونَما حصارٍ، وصالحهم لِيَضْمِنَ طاعتَهم، وهذا ما يُؤَشِرُه نصُّ البلاذري السابق.

إنَّ منهـجَ الإسـلام النبويِّ كان ديباجةَ خيـرٍ في العلاقات الإسـلاميَّة المسيحيَّة، وكـان مـن النـادر في القرون الوسـطى أنْ تتقـدم جيوشٌ علـى قُـرَى، ولا تستبيحُها قتلًا وأسـرًا وسـبْيًا، وتكتفي بأنْ تطلبَ منها فروضَ الطاعةِ مقابلَ الأمانِ والحمايةِ، فـي عهودٍ مكتوبةٍ، تحافـظُ على أبسطِ القِيَمِ العربيَّة التي تهـدفُ الى إدامةِ التواصلِ، كإقـراء الوافديـن من المسلمينَ ثلاثةَ أيـامٍ. على أنَّ ماهيَّةَ التسامـحِ المُنْبَعَثَةَ منْ لَدُنِ المَسِيحِيِّـنَ، ولاسـيَّما أحبارُهم، الذين اعتادوا التعايشَ مـعَ أهلِ الدياناتِ الأخرى بسـلامٍ وطَمَأْنِينَةٍ، على نحوٍ يَضْمِنُ طولَ بقائهم، وسَـعَةَ انتشـارِ أفكارِهم الدينيَّة بينَ الناسِ، وهذه الطبيعةُ السَمْحَةُ كانتْ مَعِينًا خَصْبًا للإندماجِ معَ المسلمينَ، وساعدتْ عليهِ.

ثمَّةَ عاملٌ آخرُ، وهو العاملُ البيئيُّ، والتعاملُ مع الأغلبيَّةِ الدينيَّةِ المحيطةِ بِهِ، ففي

---

(1) - تيدور: تاريخ القرآن، ص172.
(2) - نولدكة: م. ن، ص 201.

نظـرِ «طه حسين»[1]: أما نصرانيَّةُ النَّصارى فلمْ تكنْ معارضتُها للإسـلام - إبَّانَ حياةِ النبـيِّ - قَوِيَّةً قُوَّةَ المعارضةِ الوثنيَّة واليهوديَّـةِ؛ لماذا؟ لأن البيئة التي ظهرَ فيها النبيُّ لمْ تكنْ بيئةً نصرانيَّةً، إنَّما كانتْ وثنيَّةً في مكَّةَ، يهوديَّةً في المدينةِ، ولو ظهرَ النبيُّ في الحِيـرةِ أو في نَجْرَان لَلَقِيَ مِن نصـارى هاتينِ المدينتينِ مثلَ ما لقيَ من مشركِي مكَّةَ ويهودِ المدينة. وفي الحقِّ إنَّ الإسـلامَ لمْ يكدْ يظهـرُ على مشركِي الحجازِ ويهودِه، ويُسَيْطِرُ على وسـطِ وجنوبِ جزيرة العرب، وإبَّانَ توجُّهِهِ نحوَ بلادِ الشامِ والعِرَاق، حَيْـثُ تَغْلِـبُ الديانةُ النصرانيَّةُ، حتَّى اسـتحالَ الجهـادُ - بينَه وبيـنَ النصارى - من جدالٍ ونضالٍ بالحُجَّةِ إلى الصِّدامِ المُسَلَّحِ، أدركَ النبيُّ أولَه، وانتهى به الخلفاءُ إلى أقصَى حدودِه.

إتَّجَـهَ الرَّسـولُ للتعامل مَـعَ الْمَسِيحِيِّـنَ الْعَرَب بَعْـدَ فراغه من قُرَيْـش واليهود، وَكَانَـتْ فتـرة توجهه إلَـى الْمَسِيحِيِّنَ قصيـرةً، لَمْ تتعـدَّ خمسَ سـنواتٍ. وَقَدْ دخل الإِسْـلَام فِي هَذِهِ الفترةِ القصيرة عددٌ قليلٌ من مسيحيّي دومة الجندل، وكَلْب، ونَفَرٌ قليـل من غَسَّان وبَـرَاء، وبعضُ التّغالبة. وَهَكَـذَا ظَلَّ أغلـبُ الْمَسِيحِيِّنَ فِي أطرافِ الشّام الجنوبيَّةِ عَلَى دينِهم عِنْدَ وفاةِ الرّسولِ. ويَنْسَحِبُ هَذَا عَلَى مسيحيِّي الجنوبِ؛ حَيْـثُ ظـلَّ مسيحِيُّو نَجْرَان عَلَى دِينِهـم، وَكَذَلِكَ كَانَ الأمرُ مَعَ أقسـامٍ مِن بنِي ناجيَةَ وكندةَ وحمير. وليس ثَمَّةَ ذِكْرٌ لأيِّ إتصالٍ مَعَ مسيحيّي العِرَاق فِي الفترة النَّبَوِيّة. وَقَدْ اعتمد الرّسـول فِي دعوة الْمَسِيحِيِّنَ للإِسْـلَام أسـلوبين؛ حَيْـثُ حَمَلَ عَلَى بعضهم عسكريًّـا، نحو: «دومـة الجندل وأطراف الشّام»، وبعثَ رُسُـلَهُ وكُتُبَهُ ومَنْ يحاوِرُ أَوْ يجـادِل مسيحيّيَ نَجْرَان. وَقَدْ تراوحـتْ مواقفُ الْمَسِيحِيِّنَ الْعَرَبِ بَيْنَ المقاومةِ فِي البدايـةِ، ثُـمَّ الخضوعِ، مثل: «كَلْـب ودومة الجنـدل» وَبَيْنَ التّحالف مَـعَ الرّوم ضد الْمُسْلِمِيـنَ كَمَـا فِـي جنوب بلاد الشّـام، أَوْ الاسـتجابة السّريعة للدخول فِـي الدّينِ الجديد، نحو: عبد القيس، سادة حِمْيَر، ناجية[2].

(1) - في الأدب الجاهلي، (ط3، مطبعة محمد عبد الرحمن، القاهرة،1933) ص70.

(2) - مُحَمَّد الخزعلي: «المسيحيّة العَرَبِيّة وتطوراتها». مجلة التّسَامُح، عدد2، سلطنة عمان.

مَـعَ ذَلِـكَ، لَا يُمْكِن الحَدِيـثُ عَنْ مُوَاجَهَةٍ كُبْـرَى بَيْنَ الإِسْـلَامِ والْمَسِيحِيَّة، كَمَا حَـدَثَ مَـعَ قُرَيْـشٍ واليَهُودِ، وفَـوْقَ هَذَا، لَيْسَ ثَمَّـةَ مَصْـدَرٌ يَذْكُـرُ أَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ قَدْ بَـادَرُوا بالهُجُـومِ عَلَى أيِّ مَوْقِعٍ مِـنْ مَوَاقِعِ الْمُسْلِمِيـنَ، وَلَمْ تَقَعْ تِلْـكَ الحَمْلَةُ، الَّتِي أَعَدَّ لَهَا الرّومُ لمهاجمة الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ سـيشارك فِيهَا مسيحيُّون عربٌ من جنوب بلاد الشّام، قَبْلَ غزوة تبوك. ويبدو أنَّ أسـلمةَ الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَب أوْ عدمها، ارتبطت بأسـبابٍ مُخْتَلفـة؛ فَقَدْ أسـلمَ بعضُهـم حفاظًا عَلَى مصالحِـه، مثلُ: سـادة حِمْيَر، أَوْ لعـدم تعمُّقِ الْمَسِيحِيَّـة فِي النّفوس حَيْثُ كَـانَ دخولُهم فِي الْمَسِيحِيَّـة حديثًا عِنْدَما أتى الإِسْـلاَم، نحو: «كَلْب دومة الجندل، عبـد القيس فِي البحرين». أَمَّا من تعَمَّقَتْ الْمَسِيحِيَّـةُ فِي نفوسِـهم فهُم أهـلُ نَجْرَان، فَقَدْ بقوا عَلَى دينِهـم، رغمَ كُلِّ محاولاتِ الرّسول لاستمالتِّهم إِلَى الدّين الجديد[1].

نتحصَّـل أنَّ النبـيَّ محمـدًا حقَّقَ المكاسـبَ والانجـازاتِ، منذ القـرآن المكيِّ، وفـي الستين الأوليَيْنِ من الإسـلام المدنيِّ، قبـلَ أنْ يُشَرَّعَ للجهـاد: وصايا بالعدل والإحسان والرحمة، ومكارم الأخلاق، والاعترافَ بالديانات المعروفةِ في عصره، كاليهوديَّة والمسيحيَّة والمجوسيَّة والصابئة، بما هُنَّ طريقٌ ممكنٌ للخلاصِ الروحيِّ للمؤمنيـنَ، والاعترافَ بالحريات الدينيَّة، بل وحتـى بحرِّيَةِ الضَّمِير، أي عدَمُ الأخْذِ بـأيِّ دِينٍ: {لا إكراه في الدين}(البقرة256)، و{لكم دينكم ولي ديني}(الكافرون6)، و{من شـاء فليؤمن ومن شـاء فليكفر}(الكهف29)، و{إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئـون ومـن آمن بالله واليـوم الآخر وعمـل صالحاً فلا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون} (المائـدة69)، ويعترف لمشركـي قريش: {وإنا وإياكـم لعلى هدى أو في ضـلال مبين} (سـبأ24)؛ قال نبيُّ الإسـلام: يا معشرَ قريش، نحـنُ المسلمون وأنتم المشركـون، قـد نكـونُ معًـا على هُـدَىً؛ إذنْ دينُ كـلٍّ مِنَّـا يصلحُ طريقـاً للخلاصِ الروحيِّ[2]. إنَّها مكاسـبُ جسَّدَتْ الحريَّةَ الدينيَّةَ، وعـزَّزتْ التَجَاذُبَ بينَ الدياناتِ،

(1) – الخزعلي: م.ن.
(2) – العفيف الأخضر: «نسخ الإسلام المكي وعواقبه»، الحوار المتمدن – العدد: 4144، 5/ 7/

والقبولَ بالآخرِ، وأفادتْ الإقبالَ على دينِ الإسلام.

مِهْمَـا يكنْ من أمْرٍ، إنَّ تجربةَ المدينة كانت قد شـكَّلَتْ النمطَ التأصيلي للظاهرة الإسـلامية، ونقطـةَ بدايتِهـا، وارتكازَ هُوِيَّـةِ الدَّولَـة العَرَبِيَّة، حتى أضحـتْ نموذجًا للعمل التاريخيِّ، وقُدْوَةً تُحْتَذَى مِنْ لَدُنِ أجيالٍ تَلَتْهَا[1].

6. الحياة الْكَنَسِيّة فِي عصر الرّسالة:

تتجلَّـى في دراسـةِ الحياةِ الكنسيَّـةِ - على عصور زمن البحـث - معالمُ الوجود الدينيِّ والعباديِّ للمَسِيحِيِّينَ، في ظِلِّ حكوماتِ الدَّوْلَة العَرَبِيَّة، وتُؤَشِّرُ حركةُ الرموزِ الكنسِيَّةِ مدَى إقرارِ الْحُرِّيَاتِ الدِّينِيَّة، على نحوٍ يُعبِّر عنْ شـكلٍ من أشـكالِ التواجُدِ فـي المجتمـعِ وعلاقاتِه. فقد أقـرَّتْ الدَّولَة العَرَبِيَّـة لغيرِ الْمُسْلِمِيـنَ اختيارَ رموزِهم الدِّينِيَّـة، والْمَسِيحِيِّـنَ بِخَاصَّةٍ انتخابَ بطاركتِهم ومطارنَتِهـم، من الَّذِينَ يضطلعون بمسؤوليتهم الدِّينِيَّة والدّنيويَّة فِي تنظيم العلاقةِ مَعَ الدّولةِ ومع الْمُجْتَمَع الإِسْلَاميّ؛ ومن القادة الرّوحيِّين الَّذِينَ لَعِبُوا دورًا فِي قبول دولةِ الإِسْـلَام، والتَّكَيّفِ الْمَسِيحِيّ فِي غضونها، ومهدُّوا لأرْساءِ عَلاقَاتِ تَعَايُشٍ وسلام، هُوَ:

- الجاثليـق ايشوعيـاب الجدالـي (6 - 24هـ/ 628 - 645م)[2]: انتخـب إلَـى كرسـي الكَنِيسَـة الشَّرْقِيَّـة فِـي المدائن، أواخـر الدّولة الفارسـيَّة، عصر شـيرويه بن كِسْـرَى أبرويز، وَكَانَ ايشوعياب عَلَى رأس بعثة رسـمية مَسِيحِيَّة[3] إلَى هرقل الرّوم، أرسلتها بوران ابنة كِسْرَى، لترطيب الأجواء، وتفعيل الهدنة بَيْنَ فَارِسَ وبِيْزَنْطة[4].

.2013

(1) - محمد آركون: العلمنة والدين الإسلام المسيحية العرب، (دار الساقي، بيروت، 1996م) ص49.

(2) - توما أسقف المرج: كتاب الرّؤساء، تعريب: الاب البير أبونا، (المطبعة العصرية، الموصل، العِرَاق) ص67.

(3) - من مطارنة الكنيسة الشّرقية هُمْ: قرياقوس مطران نصيبين، وبولس مطران حدياب، وجبرائيل مطران كرخ سلوخ، وايشوعياب الحديابي أسقف نينوى، وسهدونا أسقف ماحوزا اربون. توما المرجي: كتاب الرّؤساء ص 67؛ أبونا: تاريخ الكنيسة الشّرقية، 193.

(4) - قَالَ توما أسقف المرج: ارسله شيروي لما استوى عَلَىَ العرش. كتاب الرّؤساء، ص67.

وبمقتضى مسؤوليته الدّينيَّة الْمَسِيحِيَّة، لَمْ يغبْ التّدبيرُ السِيَاسِيّ لَدَى ايشوعياب، فحين صدح اسمُ الرّسول مُحَمَّد فِي أجواء السّياسة الدَّوْلِيَّة، لجأ إلَى تأسيس علاقة طَيِّبَة مَعَهُ، وَبِحَسَبِ المُؤَرِّخ ماري بن سليمان (ق6هـ/ 12م)[1]: «كَانَ الفطرك ايشوعيهب الجذالي»[2] يكاتب صاحب شريعة الإِسْلاَم، ويهدي لَهُ، ويسأله الوصاةَ برعيَّته فِي نواحيه؛ فأجابه إلَى ذَلِكَ، وكتب إلَى أصحابه كتبًا بليغةً مؤكّدة، وبَرَّهُ صاحبُ الشّريعةِ - عَلَيْهِ السّلام - ببرٍّ كَانَ فِيهِ عِدَّةٌ من الإبل وثياب عدنيَّة. وتأدَّى ذَلِكَ إلَى ملك الفرس، فأنكر عَلَى الفطرك فعله ومكاتبته، وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ورود هداياه، فداراه إلَى أنْ سَلِمَ مِنْهُ».

أمَّا الرّسولُ مُحَمَّدٌ فِي نظرِ علماء الكَنِيسَة - بحَسَبِ عيواص: «فَلَمْ يتناول عالم سُرْيانِيّ سيرة مُحَمَّد، الرّسول الْعَرَبِيّ الكريم، إلَّا واعترف بفضلِه وكرم أخلاقه، ومن جملة هَؤُلَاءِ العلماء العلامة مار غريغوريوس يوحنا ابن العِبْري مفريان المشرق (ت685هـ/ 1286م)، الَّذِي لخّص ترجمة حياة الرّسول الْعَرَبِيّ الكريم فِي كتابه تاريخ مختصر الدّول، الَّذِي ألّفه بالْعَرَبِيّة»[3]. وذكر سايروس ابن المقفع أنّه: «من بعد أيام يسيرة، ثار رجل من العرب، من نواحي القبلة من مكّة ونواحيها، اسمه محمّد، فردَّ عبّاد الأوثان الى معرفة الله وحده، وأن يقولوا أنّ محمدا رسوله. وكانت أمّته مختونة بالجسد لا بالناموس، ويصلون الى الجهة القبلية، مشرقين الى موضع يسمونه الكعبة. وملك (محمّد) دمشق والشام وعبر الأردن وسادها. وكان الرب يخذل جيش الروم قدّامه لجلِّ أمانتهم الفاسدة والحروم التي حلّت بهم لجلِّ مجمع خلقدونية من الآباء الأولين»[4].

(1) - ماري: فطاركة المشرق ص62 - 63.

(2) - الجاثليق الجدالي. ترجمه: ماري بن سليمان: فطاركة كرسي المشرق، ص62؛ ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة الشّرقية 1/ 189؛ ادي شير، رئيس أساقفة سعرد الكلداني: كلدو وآثور 2/ 253.

(3) - البطريرك مار إغناطيوس زكا الأول عيواص: «السّريان والإسلام تاريخ مشترك»، الموقع الرّسمي لبطريركية أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس. انظر: تاريخ مختصر الدول، ص160 وبعدها.

(4) - حسام عيتاني: الفتوحات العربية في روايات المغلوبين، ص116، نقلا عن مخطوطة ابن المقفع.

نخلص إِلَى ان الإسلام النبوي تميز بوضع مباني السّياسة للدولة الْعَرَبِيّة الإِسْلَامِيّة، وأسَّسَ العلاقةَ الْمُتَوازِنَةَ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ عايشَهم الرّسولُ مُحَمَّدٌ فِي مَكَّةَ قَبْلَ الإِسْلَامِ، وعرفَهُمْ وخصوصياتِهم الدّينِيَّة والسّلوكِيَّةِ فِي الإِسْلَامِ، وقدّم الْمَسِيحِيِّينَ عَلَى غيرِهم فِي السّماحةِ والوثاقةِ، وجعلَ الحوارَ بَيْنَ الأَدْيَانِ مِن المَقَاصِدِ الكُبْرَى للإِسْلَام، عَلَى أَسَاسٍ مِنْ الكَلِمَةِ السَّوَاءِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ الْمُشْتَرَكَاتِ.

تعميقا للُغَةِ الْمُعَايَشَةِ مَعَ أهلِ الكتابِ فِي ظِلِّ الدَّولَة العَرَبِيَّة، رَشُحَ مبدَأُ الميثاقِ والمعاهدةِ والصّلحِ الدّائمِ، لضمانِ حقوقِهم فِي الحياةِ، فأنتجَ عقْدَ الذِّمَّة: وَهُوَ إقرارُ غيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ فِي دارِ الإِسْلَام[1]، وحمايتُهم من أيِّ عُدْوَانٍ، والدّفاعُ عَنْهُمْ، بشرط بذلِ الْجِزْيَةِ، والتزامِ الأحكامِ الإِسْلَامِيّة. ونطقتْ بمعانيهِ تفسيراتُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيّةِ، وبحَسَبِ أهلِ اللغة[2]: أهل الذِّمَّة: أهل العقد، والعهد - أَيْضًا -. وَقَالَ أَبُو عبيد[3]: الذِّمَّة: الأمَان، فِي قول رسول الله: «يسعى بذِمَّتهم أدناهم»[4] أَوْ ينعقد[5]. والذّمة: الضّمان.

يمنح «أدمون رباط» الفرادة فِي تعامل الدّولة مَعَ رعاياها من غير دين أَوْ إثنيَّةٍ، إِلَى دولة الرّسول، فيَقُولُ: «من الممكن، وبدون مبالغة، القول بأنَّ الفكرة الَّتِي أدت إِلَى إنتاجِ هَذِهِ السّياسةِ الإِنْسَانِيَّة (اللبراليةِ) إِذَا جاز استعمال هَذَا الاصطلاح العصري، إِنَّمَا كَانَ ابتكارا عبقريًّا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ للمرَّةِ الأولَى فِي التّاريخِ، إِنْطَلَقَتْ دولةٌ هِيَ دِينِيَّةٌ فِي مبدئِها، ودِينِيَّةٌ فِي سببِ وجودِها، ودِينِيَّةٌ فِي هدفِها، أَلَا وَهُوَ نَشْرُ الإِسْلَامِ من الطُّرُقِ وبالأشْكَالِ الْمُخْتَلِفَةِ، إِلَى الإقرارِ فِي الوقتِ ذاتِه بأنَّ مِن حَقِّ الشّعوبِ

---

(1) - البلاد الَّتِي تجري فِيهَا أحكام الإسلام، ويأمن فِيهَا سكانها سواء كَانَ أغلبهم مسلمين أَوْ من غير الْمُسْلِمين. وتقابلها دار الحرب. عبد الوهاب خلاف (ت 1375هـ): السّياسة الشّرعية فِي الشّئون الدستورية والخارجية والمالية، (دار القلم،لا مكان،1988) ص 79.

(2) - الجوهري: الصّحاح تاج اللُّغَة وصحاح العَرَبِيّة 5/ 1926.

(3) - القاسم بن سلام: الأموال، ص241.

(4) - أحمد: المسند 11/ 402؛ ابن ماجه: السّنن 2/ 895؛ النّسائي: السّنن الكبرى 6/ 331؛ الحاكم: المستدرك عَلَى الصّحيحين 2/ 153.

(5) - عبد الرّزاق الصّنعاني: المصنف 5/ 226.

الخاضعـةِ لسُلطانِهم أنْ تُحافِظَ عَلَى مُعْتَقَداتِهـا وتقاليدِها وتراثِ حياتِها، وَذَلِكَ فِي زمنٍ كَانَ يُفْضِي المبدَأُ السّائدَ فِي إكراهِ الرّعايَا عَلَى اعتناقِ دينِ ملوكِهم»[1].

(1) - محاضرة، مجلة الصّباح اللبنانية، عدد31، بتاريخ 31 آذار 1981م، وانظر: مُحَمَّد سعيد رمضان البوصي: «فِي الفهم الاجْتِمَاعِي والسّياسي المشترك»، التّسَامُح العمانية، ص21.

الفصل الثّالث

العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيّة فِي عصر الخِلَافَة الرّاشِدة
(11 ـ 41 هـ/ 632 ـ 661 م)

1. تاريخ الخِلَافَة الرّاشدة:

عِنْدَ وفاة الرّسـول مُحَمّد، دبَّ الإختلاف في ماهيَّة وكيفيَّة الأمر بعده، ومن يتبوأ الخلافة. قالت فئة: إنَّه لم يوصِ لمن يخلفه، واسـتندوا الى النص القرآني {وَأَمْرُهُمْ شُـورَى بَيْنَهُمْ} (الشـورى38)، ولجأوا الى نظام القبيلة، فـي كبر السن، والقرب من المشجر النسبي لقريش، وأضافوا له صبغة دينيَّة، كالقدم في الإسلام والعمل فيه[1]. بيـد أنَّ فئـة ثانية تـرى أنَّ وصيَّه وخليفته بعده هو علي بن أبـي طالب، ذكره النبيُّ في خطبـة الغديـر ومواقف عدة[2]. من هنا انقسمَ الْمُسْلِمـون فِي المدينة إِلَى ثلاث فرق فِي اختيار خليفة لرسـول الله، لكل مِنْهَا مُرَشَّـحُها: الفرقة الاولى من الأنصار أيدوا اختيار سـعد بن عبادة الخزرجـي، والثّانية من المهاجرين[3]، وَقَـدْ أجمعوا فِي نهاية الأمـر عَلَى اختيار أبي بكر، والثّالثة تتألّف من الهاشـمية وفئة من الأُمَوِيّين بالإضافة إِلَى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وبعض الانصار[4]، كَانَتْ تميل إِلَى اختيار

---

(1) - الماوردي: الأحكام السلطانية، ص17 - 28.
(2) - أحمد محمود صبحي، نظرية الإمامة، ص 22ـ24.
(3) - كَانُوا ثلاثة: أَبُو بكر، وعمر، وابو عبيدة بن الجراح. الطبري: تاريخ الرّسل والملوك 3/ 202.
(4) - الطبري: فَقَالَتِ الأَنْصَارُ - أَوْ بَعْضُ الأَنْصَارِ، لا نُبَايِعُ إِلا عَلِيًّا. م.ن.3/ 202.

عَلِـيّ بن أبـي طالب[1]. أمَّا الفرقـة الثّالثّة فكانت منشغلة بتجهيز الرّسـول وغسله[2]، ومتيقنة ان الخِلَافَة لا تخرج عَنْهَا، فِي حِين إخْتَدَمَ سِـجَالٌ بَيْنَ الأَنْصَارِ والمهاجرين فِي سـقيفة بني سـاعدة، كَادَ يُفَتِّتُ وحدةَ الْمُسْلِمِينَ، لَوْلَا أنْ رجعوا إلَى تقديمِ بَيْضَةِ الإِسْـلَام، والحفـاظ عَلَـى كيانِ دولتـه، فتشاوروا فِي مَـنْ ينبغي أنْ يخلفـه فِي قيادة الْمُسْلِمِيـنَ ورعايـة أمورهم، وبعد المداولـة والمحاجحة توافقوا عَلَـى عبارة: «مِنَّا الْأُمَـرَاءُ وَمِنْكُمُ الْوُزَرَاءُ»[3]، وتوصلوا إلَـى أنْ يكونَ أَبُو بكر أوَّلَ خليفة، فبويع لَهُ فِي (20/ ربيع الأول/ 11هـ = 26/ 6/ 632م)[4].

خلافة ابي بكر (11 - 13هـ/ 632 - 634م)

لم يترسـخ الاسـلام في أطـراف جزيرة العـرب، لحداثته هنـاك، ولسلطة النزعة القبليَّة التي سـرعان ما عادت إثْرَ وفاة الرسـول محمد، فكانت الردَّةُ أشبه بالإنقلاب على الطاعة نحو المدينة، والإمتناع عن دفع ضريبة الصدقة. فلذا كان يُخْلَعُ الإسلامُ مـادَّةُ السلطـة المركزيـة، واللجوء الـى النظام القبليِّ، بإسـلوب اسـتحداث نبوَّاتٍ، اقربُ ما تكونُ على نسخةِ النبيِّ محمَّد ووحيه، ليُمكنَ لهم الجمعُ بين سـلطةِ الدينِ والسياسة. وعليه واجهتْ الخلافةُ الفتيَّة مُعْضِلَةً كادت تكسر شوكة الدولة، لو لا أنْ قام أَبُو بكر من أعمال بسَطَتْ لدولة الإسلام نفوذَها، أهمُّها:

- جهّـز الجيوش لقتال أهل الـرّدة[5] ومانعي الزكاة، والمتنبئيـن: فمُسَيْلِمَةَ[6] بِأَرْضِ

---

(1) - عبد العزيز الدوري: مقدمة فِي تاريخ صدر الاسلام (بيروت، 1960) ص48؛ السّيد عبد العزيز السّالم: تاريخ الدولة العَرَبِيَّة (دار النّهضة العَرَبِيّة، بيروت، د.ت) ص425.

(2) - ابن خلدون، عبد الرّحمن بن مُحَمَّد (ت 808هـ): ديوان المبتدأ والخبر فِي تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، (دار الفكر، بيروت 1988) 2/ 487.

(3) - تاريخ الرّسل والملوك 3/ 202. ولم يستوزر أحد من الانصار طيلة الخِلَافَة الرّاشدة.

(4) - انظر: ابن كثير: البداية والنّهاية 6/ 301.

(5) - الواقدي: كتاب الرّدة، ص: 29؛ فتوح البلدان، ص 102.

(6) - مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي، أَبُو ثمامة، متنبئ من المعمرين ولد ونشأ باليمامة، وتلقب فِي الجاهلية بالرّحمن، كَانَ مَعَ وفد حنيفة الَّذِي وفد عَلَى النّبي مُحَمَّد بعد فتح مكة، وأسلم الوفد وتخلّف مسيلمة فِي الرّحال خارج مكة، وَلَمَّا رجع الوفد ادعى مسيلمة النّبوّة،

الْيَمَامَةِ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، وطُلَيْحَةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيَّ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بِبِلادِ نَجْدٍ، وتنبَّأَتْ سَجَاحُ[1] فِي بني تميم، وَكَانَ الأسودُ بن كعب بن عوف العنسيّ قَدْ تكهن وادعى النّبوة فِي اليمن[2]، وارتدَّت خولان باليمن[3]، وبنو وليعة والأشعث بْن قيس فِي كِندة[4]. وَكَانَ خَالِد بن الوليد أبرز من حقق الانتصارات لجيش الْمُسْلِمِينَ.

- وجَّه أسامة بن زيد فِي حملته إِلَى قُضَاعَةَ وكَلْب، فَارْتَدَّ وَدِيعَةُ الْكَلْبِيُّ فِيمَنْ تَبِعَهُ، وَارْتَدَّ زُمَيْلُ بْنُ قُطْبَةَ الْقَيْنِيُّ، وَارْتَدَّ مُعَاوِيَةُ الْوَالِبِيُّ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ سَعْدِ هُذَيْم[5]، واستنْهَضَ أُسامةُ مَنْ أقامَ عَلَى الإِسْلَام إِلَى من رجَعَ عَنْهُ، فخرجوا هِرَابًا حَتَّى أُرْزُؤوا إِلَى دومةِ واجتمعوا إِلَى ودِيعَةَ، فمضى أُسَامَةُ حَتَّى أغار عَلَيْهِمْ، فأصاب فِي بني الضَّبَيْب من جُذام، وَفِي بني حَلِيل من لَخْم، ولَفَّها من القبيلتين، ثُمَّ انكفأ غانِمًا[6].

- وجَّه خَالِد بن الوليد إِلَى العِرَاق، حَتَّى نَزَلَ بِقَرْيَاتٍ مِنَ السَّوَادِ، يُقَالُ لَهَا: بَانِقْيَا (النّجف) وَبَارُوسْمَا[7]، فَصَالَحَهُ أَهْلُهَا[8]، ورؤساؤهم عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنُ عَمْرِو بْنِ

وعظم أمره بعد وفاة النّبي مُحَمَّد، وسار خَالِد ابن الوليد إِلَى بني حنيفة وقضى عَلَى مسيلمة، وقتل سنة 12هـ. السّيرة النّبوية 3/ 74، الرّوض الأنف 2/ 340، الكامل فِي التاريخ 2/ 137.

(1) - أم صادر سجاح بنت أوس بْن أسامة بْن العنبر بْن يربوع ابن حنظلة بْن مَالِك بْن زيد مناة بْن تميم، ويقال: هِيَ سجاح بنت الحارث ابن عقفان بْن سويد بْن خَالِد بْن أسامة، تنبأت وتكهنت فأتبعها قوم من بني تميم وقوم من أخوالها بني تغلب ثُمَّ أتت مسيلمة فتزوجته وجعلت دينها ودينه واحدا. فتوح البلدان، ص 104.

(2) فتوح البلدان، ص 109.

(3) - م. ن. ص105.

(4) - م. ن. ص105.

(5) - تاريخ الرّسل والملوك3/ 243؛ الكامل فِي التاريخ 2/ 201.

(6) - ابن عساكر: تاريخ دمشق 2/ 52.

(7) - بارُوسْما: الواو والسّين ساكنتان: ناحيتان من سواد بغداد يقال لَهُمَا باروسما العليا وباروسما السّفلى من كورة الاستان الأوسط. معجم البلدان 1/ 320.

(8) - الطبري: تاريخ الرّسل 3/ 343

بُقَيْلَـةَ، وَإِيَاسُ بْنُ قُبَيْصَةَ الطَّائِيُّ[1]، وابْـنُ صَلُوبَا[2]. وَأَمَّا يوم الولجة[3] فَقَدْ أصاب خَالِـد من أصاب من بَكْرِ بنِ وائِل، من نَصاراهُم الَّذِينَ أعانوا أهلَ فَارِسَ، غضِبَ لَهُـمْ نَصَارَى قومهـم[4]؛ وتجمعت فِي «أُلَيْـسَ»[5] فقاتلهم خَالِد وأسـراهم، حَتَّى بلغت قتلاهم يوم أَلَيس سبعين ألفا[6]، جلُّهم من «أمغيشيا»[7]. ثُمَّ سَـارَ خَالِد إِلَى الأَنْبَارِ فَصَالَحُوهُ وَوَجَّهَ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ إِلَى سُوقِ بَغْدَادَ فَأَغَارَ عَلَيْهَا[8]، وَكَانَ جيش الإِسْلَام قَدْ فتح بلاد العِرَاق من أطرافها[9].

- استعدَّ لغزو بلاد الرّوم، فجمع الصّحابة وشاورهم فِي ذَلِكَ، وعقد الألوية، وجعل «أبـا عُبَيْدَة بن الجراح» أميرا عَلَى الجيوش، فِي (صفر 13/ 2هـ= أبريل634/ 4م) وأمّـر الأمـراء وبعثهـم إِلَى فلسطيـن والأردن ودمشـق[10]، ثُمَّ أردفهـم بخالدّ من العِـرَاق، وَقَـدْ التّقـى الْمُسْلِمـون والـرّوم فِي سـلسلة حاميـة من المعـارك، مثل إجناديـن[11] ومرج الصّفر[12]، حقق الْمُسْلِمـون فِيهَا انتصارات. وَفِي العِرَاق أبقى

---

(1) - خليفة بن خياط: تاريخ، ص 118.
(2) - الكامل فِي التاريخ 2/ 234.
(3) - الولجة مِمَّا يَلِي كَسْكَرٍ مِنَ الْبرِّ، وَكَانَ بَيْنَ الولجة والقادسية فيض من فيوض الفرات. معجم البلدان 5/ 383؛ ابن عبد الحق البغدادي، (ت 739هـ): مراصد الاطلاع عَلَى اسماء الامكنة والبقاع (دار الجيل، بيروت، 1412هـ) 3/ 1444.
(4) - الطبري: تاريخ الرّسل 3/ 353؛ المنتظم فِي تاريخ الملوك والأمم 4/ 102؛،الكلاعي: الاكتفاء بِمَا تضمنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء 2/ 379.
(5) - اليس: قرية فِي منتصف الطريق بَيْنَ الحيرة والابله، وَفِيهَا يوم كَانَ أميره خَالِد. نهاية الأرب فِي معرفة أنساب العرب ص 81.
(6) - الكلاعي: الاكتفاء بِمَا تضمنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء2/ 382.
(7) - أمغيشيا: مِصْر (قصر) عَلَى الفرات كالحيرة، لما فرغ خَالِد بن الوليد من وقعة أليس، نهض فأتى أمغيشيا، وَقَدْ أعجلهم عما فِيهَا، وتفرقوا فِي السّواد، فأمر بهدمها وهدم كل شيء كَانَ فِي حيزها. ياقوت: معجم البلدان 1/ 254؛ الحِميرى، مُحَمَّد بن عبد الله (ت 900هـ) الرّوض المعطار فِي خبر الأقطار، (مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980) ص 31.
(8) - خليفة بن خياط: التاريخ، ص 118.
(9) - الطبري: تاريخ الرّسل 2/ 415.
(10) - فتوح البلدان، ص112.
(11) - الواقدي: م.ن. 1/ 60 وبعدها.
(12) - خليفة بن خياط: م. س، ص120.

المثنى الشّيباني عَلَى القيادة، وخِلَالَها توفي الخليفة أَبُو بكر فِي (23/ جمادي الثّانية6/ 13هـ = 634/ 9/ 5م).

خلافة عمر بن الخطّاب (13 - 23هـ/ 634 - 644م):

إستخلفه أَبُو بكر فِي مرضه[1]، وسار عَلَى نهج سلفه فِي الْفُتُوح، فعلى جبهة الشّام عزل خَالِد بن الوليد عَنْ القيادة وعيَّن أبا عُبَيْدَة بن الجراح، وعلى جبهة العِرَاق أعاد تنظيم الجيش وعين أَبَا عُبَيْدِ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ قائدا، وَقَدْ قُتِل فِي معركة الجسر[2]، وَفِي سنة (14هـ/ 635م) فُتِحَتْ حِمْصُ وبَعَلْبَكُ صُلْحًا، وتمّ فتح دِمَشْقَ مَا بَيْنَ صُلْحٍ وعَنْوَةٍ[3]، وفُتِحَتْ الأبلّةُ عَنْوَةً، ومُصِّرَتْ البَصْرَةُ[4]. ووَجَّهَ سعْدُ بن أبي وقّاص بالجيوش إِلَى العِرَاق[5].

وَفِي سنة 15هـ/ 636م، فُتِحَتْ الأردنُ كلُّها عَنْوَةً، إلَّا «طَبَرِيَّةَ»، فإنَّها فُتِحَتْ صُلْحًا. وَفِيهَا كَانَتْ وقعة اليرموك[6]، ووقعة القادسية[7]. وَفِيهَا مَصَّرَ سعدٌ الكوفة[8]، وَفِيهَا فرض عمرُ الفروضَ، ودوّن الدّواوين، وأعطى العطاء بمقتضى السّابقة فِي الإِسْلَام[9].

---

(1) - الطبري: م. س. 3/ 343 وما بعدها؛ ابن كثير: البداية والنّهاية 6/ 343؛ السّيوطي: تاريخ الخلفاء 67.

(2) - خليفة بن خياط: م.س. ص124 - 125.

(3) - خليفة بن خياط: م. ن. ص125؛ الفسوي، يعقوب بن سفيان(ت 277هـ): المعرفة والتاريخ، 1/ 28؛ الطبري: تاريخ الرّسل والملوك، 3/ 435.

(4) - فتوح البلدان، ص337.

(5) - قدم العِرَاق فِي ثلاثين الف فارس من بجيلة والنّخع وشيبان وربيعة وأخلاط العرب. فتوح الشّام2/ 170 - 172.

(6) - فتوح الشّام 148 - 208؛ خليفة بن خياط: التاريخ، ص130؛ الفسوي: المعرفة والتاريخ 3/ 299؛ فتوح البلدان، ص 138؛..

(7) - قَالَ الْوَاقِدِيُّ: كَانَتْ وَقْعَةُ الْقَادِسِيَّةِ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ، وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْكُوفَةِ ومُحَمَّد بْنُ إِسْحَاقَ يَقُولُ: كَانَتْ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ. قَالَ: وَالثَّبْتُ عِنْدَنَا أَنَّهَا كَانَتْ فِي سَنَةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ. الطبري: تاريخ الرّسل والملوك، 3/ 590؛ وقارن: خليفة بن خياط: التاريخ، ص 132؛ ابن حبيب: المحبر، ص 14؛ فتوح البلدان، ص 256.

(8) - الطبري: تاريخ الرّسل والملوك 3/ 598..

(9) - الطبري: م. ن.3/ 613؛ ابن الجوزي: المنتظم 4/ 194؛ ابن الاثير: الكامل فِي التاريخ 2/

فِي سنة 16هـ/ 637م، فُتِحَتْ الأهوازُ والمدائنُ[1]، وَفِيهَا كَانَتْ وقعة جَلُولاء[2]، وهُـزِمَ فِيهَـا «يزْدَجِرْدُ بـنِ كِسْرَى» وتَقَهْقَـرَ إلَى الـرّيّ، وَفِيهَا فُتِحَتْ تكريـت، وَفِيهَا شـهد عمر فتح بيت المقدس، وأقام بِهَا عشرة أيام[3]، وفُتِحَتْ قِنَّسْرين عَنْوَةً، وإيلياءُ وحلـبُ وأنْطَاكِيَـةُ ومَنْبِـجُ صُلْحًا[4]، وَفِـي ربيع الأول مـن هَذَا العام، كتـب التّاريخ الهِجْرِيّ بمشورة الإمام عَلِيّ[5].

وَفِي سـنة 18هــ/ 639م، إنْتَشَرَ طاعونُ عَمَـوَاس[6] بِالشّام، مَاتَ فِيـهِ: أَبُو عُبَيْدَة بْن الْجراح، ومعاذ بْن جبل، وَ يزِيد بْن أَبِي سُـفْيَان، وشـرحبيل بْن حَسَنَة، والْحَارث بْـن هِشَـام بن الْمُغيـرَة، وكثير من جند الْمُسْلِمِيـنَ[7]. وَفِيهَا فُتِحَتْ الرّها وسـميساط صُلْحًا، وحَرَّان ونصيبين وَطَوَائِف الجَزِيْرَة عَنْوَةً[8].

وَفِي سـنة 19هـ/ 640م، فُتِحَتْ قيسارية عَنْوَةً[9]. وَفِي سـنة عشرين فُتِحَتْ مِصْرُ صُلْحًا إلاَّ الإسكندريَّة فعَنْوَةً[10]، وَفِيهَا فُتِحَتْ المغرب عَنْوَةً، وَفِيهَا هلك قيصر عظيم

331.،

(1) - كَانَ فتح المدائن فِي شهر صفر. فتوح الشّام 2/ 191؛ تاريخ الطبري 4/ 20. وذكرها خليفة بن خياط: فِي سنة خمس عشرة. تاريخ ص133.

(2) - فتوح البلدان، ص 259.

(3) - أَبُو زُرعة الدمشقي، (ت281هـ) تاريخ أبِي زُرعة، (مجمع اللُغَة العَرَبِيّة - دمشق) ص 177؛ المقدسي: المطهر بن طاهر (ت 355هـ): البدء والتاريخ (مكتبة الثّقافة الدينية، بور سعيد)5/ 185.

(4) - خليفة بن خياط: تاريخ، ص134

(5) - الكامل فِي التاريخ 1/ 13؛ السّيوطي: الشّماريخ فِي علم التاريخ، تح: عبد الرّحمن حسن محمود (مكتبة الآداب، القاهرة) ص 14..

(6) - عَمَوَاسُ - بِالْفَتْحِ: مِنْ كُوَرِ الرَّمْلَةِ مَدِينَةِ فِلَسْطِيْنَ أَحَدِ أَجْنَادِ الشَّام. الْمُطَرِّزِيّ، برهان الدين، أَبُو الفتح الخوارزمي (ت 610هـ): المغرب فِي ترتيب المعرب (دار الكتّاب العربِي، بيروت) ص: 328.

(7) - الطبري: تاريخ الرّسل والملوك، 4/ 60.

(8) - خليفة بن خياط: التاريخ، ص 138.

(9) - فتوح الشّام 2/ 15.:

(10) - خليفة بن خياط: م. س.، ص142.

الـرّوم[1]، وَفِيهَـا أجلى عمـر اليهود عَنْ خيبر إلَـى الشّام، والنَّصَارَى عَـنْ نَجْرَان إلَى الكوفة[2].

وَفِي سنة 21هـ/ 642م، فُتِحَتْ الإسكندريَّة عَنْوَةً[3]، ونهاوند فِي وقعة مشهورة[4]، وَلَـمْ يَكُنْ للأعَاجِمِ بَعْدَهَا جَمَاعَةٌ. وَفِي سـنة اثنتين وعشريـن فُتِحَتْ أذربيجان عَنْوَةً وقيـل صُلْحًـا[5]، وَفِيهَـا فُتِحَـتْ الـرّي وجرجـان وقزويـن وزنجـان وطبرسـتان[6]، وهمـذان عَنْـوَةً[7]، وطَرَابُلُسُ الْغَرْبِ وَبَرْقَةُ[8]، وَفِي سـنة ثلاث وعشرين فُتِحَتْ بقية بـلاد الفرس: كِرْمَان، سِـجِسْتَان، قُمّ، قَاشـان، أصبهـان ونواحيها[9]. وكانت أشـهر المعـارك في الشرق، التـي فتَّت عَضُدَ الدولة الفارسـية، هما معركة القادسـية، التي مكنـت المسلمين من فتح العراق، ومعركة نهاوند، التي هيّأت لهم فتح بلاد فارس، وسُمِّيَت: «فتح الفتوح»[10].

دأب الخليفة عمر فِي توظيف كبار الصّحابة عَلَى الاموال والخراج في الأَمْصَار، إِذْ بَعَـثَ الـى الكوفة عَمَّارَ بْنَ يَاسِـرٍ عَلَـى الصّلاةِ وَالْحَـرْبِ، وَ عَبْدَ اللَّهِ بْـنَ مَسْعُودٍ عَلَـى الْقَضَاءِ وَبَيْتِ الْمَالِ، وَبَعَثَ عُثْمَانَ بْنَ حَنِيفٍ عَلَى مِسَاحَةِ الأَرَضِينَ فِي سـواد

---

(1) - ابن عبد الحكم: فتوح مِصرَ والمغرب ص 99.:
(2) - قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص 259؛ السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 107.
(3) - فتوح الشّام 2/ 68
(4) - خليفة بن خياط: م. س.، ص 147.
(5) - قَالَ ابْن إِسْحَاق: فتحت صلحا، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة: افتتحت عَنْوَةً. خليفة بن خياط: م. ن.، ص، 151.
(6) - ابن الوردي: تاريخ 1/ 141.
(7) - خليفة بن خياط: م. س.، ص 146؛ البلاذري: فتوح البلدان1/ 302؛ ابن تغري بردى: النّجوم الزاهرة فِي ملوك مصر والقاهرة 1/ 76.
(8) - الكامل فِي التاريخ 2/ 408.
(9) - فتوح البلْدان، ص 304. ويرى غيره: «كرمان» و«سجستان»، فتحا فِي خلافة «عثمان» صلحًا. ابن قتيبة: المعارف 568؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص140.
(10) - البلاذري: فتوح البلدان1/ 298؛ مسكويه: تجارب الأمم 1/ 380.

العِرَاق[1]، وبَعَثَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ عَلَى مَا وَرَاءَ دِجْلَةَ[2].

وَفِي عصره أخذ الاعتماد عَلَى الْمَسِيحِيِّينَ فِي وظائف الدّولة المُهِمَّة، ولاسِيَّمَا نشأة الدّواوين فِي الأَمْصَار المفتوحة، وَبِخَاصَّةٍ فِي الشّام، إِذْ دونت باللغة السّرْيانِيّة لغة المُجْتَمَع، نحو: ديوان بيت المال، والعطاء، والجند، ولذا نجد أنّ الخليفة عمر استعمل أبا زبيد الطّائي عَلَى صدقاتِ قومِه، وَلَمْ يستعملْ نصرانِيًّا غَيْرَهُ[3]. بَيْدَ أَنّهُ لَمْ يرْضَ لغيره تولية غيرِ الْمُسْلِمِينَ الوظائفَ المُهِمَّة، فَلَمَّا إستقدمَ أبا موسى الأشعري من البصرةِ، وَكَانَ عاملاً عَلَيْهَا للحساب، دخل عَلَى عُمَرَ، وَهُوَ فِي المسجد، فاستأذن لكاتبه، وَكَانَ نصرانيًّا، فقال لَهُ عُمَرُ: قاتلكَ اللهُ! وضرب بيدِه عَلَى فخذِه، وَلّيْتَ ذِمِّيًّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ[4].

فِي (26/ ذِي الْحِجَّةِ 12/ 23هـ = 14/ 11/ 644م)، طُعِنَ الخليفةُ عُمَرُ بيد أبي لؤلؤة فيروز، مولى المغيرة بن شعبة[5]؛ وَقَدْ ذكر فِي سبب قتله لَهُ، أنّهُ جاء إِلَى عمر يشكو من شدة الخراج وكثرته، فقال لَهُ: مَا خراجُك بكثير[6]. وَهَذَا يعني ان نظام العطاء الَّذِي فرضه الخليفة عمر عَلَى غير المساواة، بَلْ عَلَى مبادئ: القِدَمُ فِي الإِسْلَام، والقُرْبُ من شجرة الرّسول، قَدْ خلّف مجتمعًا طبقيًّا، فِيهِ الأغنياء من قُرَيْش والصّحابة، والفقراء من الموالي، وهم من شعوب البُلْدَانِ المفتوحة الَّذِينَ دخلوا فِي الإِسْلَام.

---

(1) – أَبُو يوسف: الخراج، ص 36، 46.

(2) – أَبُو يوسف: م. ن. ص 47؛ الماوردي: الأحكام السّلطانية، ص 261.

(3) – البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت 1093هـ): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (مكتبة الخانجي، القاهرة 1997) 2/ 155؛ ابن حجر: الإصابة فِي تمييز الصّحابة 7/ 137؛ شيخو: شعراء النّصرانية 7/ 15، النّصرانية وآدابها بَيْنَ عرب الجاهلية، ص 210.

(4) – الطرطوشي (ت 520هـ): سراج الملوك ص 136.

(5) – خليفة بن خياط: تاريخ 152؛ ابن شبة: تاريخ المدينة 3/ 943؛ المعارف 183؛ تاريخ الرسل: 4/ 190.

(6) – الذهبي: تاريخ الإسلام 3/ 277.

وِمِنْ ثَمَّ تَرْكُ الخِلَافَة شُورَى بَيْنَ سِتَّةٍ[1]، وَقَالَ لِـ«صُهَيْبٍ»: أَدْخِلْ عَلِيًّا وَعُثْمَانَ وَالزُّبَيْرَ وَسَعْدًا وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَطَلْحَةَ...، وَأَحْضِرْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ وَلا شَيْءَ لَهُ مِنَ الأَمْرِ، وَقُمْ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَإِنِ اجْتَمَعَ خَمْسَةٌ وَرَضُوا رَجُلا وَأَبَى وَاحِدٌ اضْرِبْ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِ اتَّفَقَ أَرْبَعَةٌ فَرَضُوا رَجُلا مِنْهُمْ وَأَبَى اثْنَانِ، فَاضْرِبْ رُءُوسَهُمَا، فَإِنْ رَضِيَ ثَلاثَةٌ رَجُلا مِنْهُمْ، وَثَلاثَةٌ رَجُلا مِنْهُمْ، فَحَكِّمُوا عَبْدَ اللَّهِ ابن عُمَرَ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ حَكَمَ لَهُ فَلْيَخْتَارُوا رَجُلا مِنْهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَرْضَوْا بِحُكْمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فَكُونُوا مَعَ الَّذِينَ فِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ[2].

شَعَرَ عَلِيٌّ بالغبن، فقال لِقَوْمٍ كَانُوا مَعَهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ: إِنْ أُطِيعَ فِيكُمْ قَوْمُكُمْ لَمْ تُؤَمَّرُوا أَبَدًا...؛ فَسَعْدٌ لا يُخَالِفُ ابْنَ عَمِّهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ صِهْرُ عُثْمَانَ، لا يَخْتَلِفُونَ، فَيُوَلِّيهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ عُثْمَانَ، أَوْ يُوَلِّيهَا عُثْمَانُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ، فَلَوْ كَانَ الآخَرَانِ مَعِي لَمْ ينفعاني[3].

خلافة عثمان بن عفان (24 - 35هـ / 644 - 656م)

اجتمع أهل الشّورى في ضوء وصية عمر بن الخطّاب، وكشفت محاوراتهم، الَّتِي أدارها عَبْدُ الرَّحْمَنِ بضعةَ أيامٍ، عَنْ خلاف عميق في مفهوم إدارة الدولة، أَبَى فيه عليٌّ ابن أبي طالب الخلافة دون التغيير، وقبِلَ عثمان أنْ يسير على سيرة الشيخين، فتمخضتْ عنه خليفةً للمُسْلِمِينَ، بُويِعَ لَهُ فِي المسجدِ، فاستقبلَ بخلافتِه المُحَرَّمَ سنةَ أربع وعشرين[4].

ومنذ الوهلة الأولى تواصلت الْفُتُوحات فِي الرّي وخراسان وأرمينية وَفِي سنة إحدى وثلاثين قتل يزدجرد ملك فَارِسَ[5]. وفُتِحَتْ قبرص، وأفريقيَّة والمغرب

---

(1) - ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت 799هـ): تبصرة الحكام فِي أصول الأقضية ومناهج الأحكام (مكتبة الكليات الأزهرية، 1986م) 2/ 154.
(2) - الطبري: تاريخ الرّسل والملوك 4/ 229.
(3) - الطبري: م.ن. ص؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ 2/ 442.
(4) - الطبري: م.ن. 4/ 242.
(5) - الطبري: م. ن.4/ 293. وفي: الدينوري: سنة ثلاثين للهجرة. الاخبار الطوال 139.

والنّوبـة والحبشـة. وكثر الخراج من جـراء ذَلِكَ، وأتى المال من كُـلِّ وجه، مِمَّا دعا لان يحظـى أقارب الخليفـة بالعطاءات الكبيـرة، فأَعْطَى عُثْمَانُ خُمُـسَ إِفْرِيقِيَّةَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَـعْدٍ فِي الْغَزْوَةِ الْأُولَى، وأَعْطَى مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ خُمُسَ إِفْرِيقِيَّةَ، خمسمائة ألف[1]، فِي الْغَزْوَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي افْتُتِحَتْ فِيهَا جَمِيعُ إِفْرِيقِيَّةَ[2].

وَمِمَّا تَمَيَّزَ بِهِ أَنَّهُ آثَرَ أقارِبَهُ بالوِلايةِ، ففي سـنة خمس وعشرين عزلَ عثمانُ سـعدَ بـنِ أبي وقاص عَـنْ الكوفة، وولّى عَلَيْهَـا الوليدَ بن عقبة بن أبـي معيط، أخو عثمان لأمّه. وَفِي سنة ست وعشرين عزلَ عمرو بن العاص عَنْ مِصْرَ، وولّى عَلَيْهَا عبدَ اللهِ بنِ سعد بن أبي سرح[3]، أخا عثمان من الرّضاعة[4]. وَفِي سَنَةُ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ عَزَلَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ عَنْ الْبَصْرَةِ، وَاسْتَعْمَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرٍ[5]، وَهُوَ ابْنُ خَالِ عُثْمَانَ[6]. مِمَّا جرّت هَذِهِ السّياسـة عَلَى الخليفة نقمةَ كثيرٍ مـن النّاس، فتألبوا عَلَيْهِ، وبعثوا إِلَيْهِ مِـن مِصْـرَ والكوفة والبصـرة مَن يناظره فِيمَـا فعل، وَفِيمَـا اعتمدَ من عـزلِ كثيرٍ من الصّحابـةِ، وتوظيـفِ جماعةٍ من بَنِي أُمَيَّـة فِي مكانِهم، بَيْدَ أَنَّ عثمـان نتهَى إِلَى إبقاءِ عمّالِه، كُلٌّ عَلَى عملِه، واعتذرَ إِلَى أهلِ الْأَمْصَار، وَكَانَ لـ«مروان بن الحكم»، مديرِ بيـتِ الخِلَافَة، دَوْرٌ فِي زيادةِ نِقْمَةِ النّـاسِ وتأجيجِ الفتنةِ، فعادوا، واجتمعوا عَلَيْهِ من كُلِّ صُوْبٍ، وأحاطوا بِهِ، وحصروه فِي داره[7]، وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ انتدابِ الصّحابةِ إِلَى حلِّ الأزمةِ وإرسالِ أبنائِهم إِلَى نُصْرَةِ الخليفةِ، وَبِخَاصَّةِ الإمام عَلِيٍّ، إِلَّا أَنَّ الفتنةَ لَمْ تنتهِ إِلَّا بقتلِ الخليفة عثمان فِي سنة خمس وَثَلَاثِينَ[8].

---

(1) - ابن عبد البر: الاستيعاب فِي معرفة الأصحاب 2/ 828؛ المُفَصّل فِي تاريخ العرب 18/ 457.
(2) الكامل فِي التاريخ 2/ 465.
(3) - خليفة بن خياط، تاريخ، ص 178.؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص200؛ فتوح البلدان، ص220..
(4) - ابن قتيبة: المعارف 1/ 301؛ الدينوري: الأخبار الطوال139.
(5) - بْنِ كَرِيزِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ (ت58هـ). ابن حجر: تهذيب التهذيب 5/ 272.
(6) - ابن الاثير: الكامل فِي التاريخ 2/ 472
(7) - ابن الطقطقي، مُحَمَّد بن علي بن طباطبا (ت 709هـ): الفخري فِي الآداب السّلطانية والدول الإسلاميّة، تح: عبد القادر مُحَمَّد مايو(دار القلم العَرَبِيّ، بيروت 1997) ص 103.
(8) - خليفة بن خياط: تاريخ، ص168 - 178.

كَـانَ من مزايا عثمان أَنَّـهُ متسامح مَعَ الْمَسِيحِيِّينَ، فَقَدْ تزوج من قبيلة كَلْب، نائِلَةَ بنـت الفرافصة، وَهِيَ نصرانيَّةٌ، عَلَى نسائه، وكَلْب كلهم يومئذ نَصَارَى[1]، وَهِيَ الَّتِي وثبـت لحظة مقتله، فصاحتْ وألقـتْ نفسَها عَلَيْهِ، وأخذتْ السّيفَ بيدها، فتعمَّدَها، فقطـعَ أصابعَ يدِها[2]. وَكَانَ أبوهـا يدخلُ عَلَى صِهْرِه الخليفة، واضعاً صليبَه الذّهبي عَلَـى صـدره[3]. وربَّما يحضُر إِلَى مجلسِه بعضُ النَّصَـارَى، مثلُ أبي زبيد الطّائي، إِذْ كَـانَ يقرّبُـه ويُدني مجلسه؛ لمعرفته بسيـر من أدركهم من ملوك الْعَـرَب والعجم[4]، وَقَدْ يسْتَنْشَدُهُ شَيْئًا من شعره[5].

خلافة عَلِيٍّ بن أبي طالب (36 – 40هـ/ 656 – 661م):

بويعَ الإمامُ عَلِيّ بن أبى طالب بيعةَ العَامَّة فِي مسجد رسول الله، وبايع لَهُ بالمدينة: طلحـة، والزّبيـر، وأهل بدر كافـة، وبايع لَهُ أهل البصرة. وَكَانَتْ بيعـةً قلقة، إِذْ قامتْ أيام خلافته سـلسلةٌ من الفتن والحروب والاضطرابات، ابتدأت بوقعة الجمل، الَّتِي دبَّـر لهـا طلحةُ والزبير وعائشـة[6]؛ تلتها وقعةُ صفين، والخصومـات الَّتِي قامت بَيْنَ جمهور الْمُسْلِمِينَ ومعاوية، والتّحكيم، وتبعتها فتنةُ الخوارج، ووقعة النّهروان[7].

جـدَّد الإمـام علـيٌّ المعاهـدات الَّتـي أُبْرِمَتْ فـي عهد سـابقيه، وأقـرَّ للبطريك النسطوري سـلطته، وعامل نصـارى نَجْرَانيَّـة الكوفة معاملة فضلـى، وكان يجالس قساوستهم، ويتباحث معهم، ويتحاور في أمور الدين والدنيا، حتى دخل قسم منهم

(1) – البلاذري: أنساب الأشراف 5/ 497؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 70/ 38.
(2) – ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 4/ 365، 5/ 55.
(3) – حسين أحمد شحادة: في ثقافة الغفران والاعتذار، مجلة الأزمنة، سوريا 2012 – 06 – 22.
(4) – ياقوت: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إِلَى معرفة الأديب) (دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1993) 3/ 1168.
(5) – ابن عساكر: تاريخ دمشق 12/ 321؛ ابن كثير: البداية والنّهاية 7/ 248.
(6) – ومروان بن الحكم، وعبد الله ابن عامر بن كريز، ويعلى بن منبّه – عامل اليمن – فلما تتامّوا بمكة تشاوروا فِيمَا يريدون من الطلب بدم «عثمان»، فتوجهوا إِلَى البصرة. فحبسوا عثمان بن حنيف الوالي، وقتلوا خمسين رجلا وأحدثوا أحداثا. المعارف، 105.
(7) – ابن قتيبة: المعارف 105؛ ابن كثير: البداية والنّهاية 7/ 234 وما بعد.

الإسـلام أو كـادوا، وثمَّ كتبَ الى عمالـه باحترام العهود والمواثيـق مع المعاهدين، ومن أبرزها عهده الى مالك الأشتر واليه على مصرَ الذي قال فيه: لا تدفعنّ صلحًا دعاك إليه عدوك، لله فيه رضًا، فإنَّ في الصلح دَعَةً لجنودك، وراحةً لهمومك، وأمنًا لبـلادك... وإنْ عقـدت بينـك وبين عدوك عقـدةً، أو ألبسته منك ذمّـةً، فحطْ عهدَك بالوفـاء، وارعَ ذمّتَـك بالأمانـة، واجعـل نفسَك جنّـةً دون ما أعطيـت، فإنه ليس من فرائض الله شـيءٌ، الناس أشـدُّ عليه اجتماعًا مع تفرّق أهوائهم، وتشتيت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود،... فلا تغدرنّ بذمّتك، ولا تخيسنّ بعهدك، ولا تختلنّ عدوّك، فإنّه لا يجترىء على الله إلا جاهل شـقيّ. وقد جعل الله عهدَه وذمّته أمنًا قضاه بين العبـاد برحمتـه، وحرمًا يسكنون إلى منعَتِه، ويستفيضـون إلى جوارِه، فلا إدغالَ ولا مخالسة ولا خداع فيه[1]. هذا هو منطق الإسلام النبوي في مجال احترام الأحلاف، والذي يحقق السلم والتعايش في أهم مبادئ العلاقات الاجتماعية.

لَمْ يواصل الامام ظاهرة الْفُتُوح الَّتِي أتتْ أكُلَها فِي عهد سـلفه، فِي إثبات الذّات الإِسْـلَامِيّة فِـي بـؤرة الصّراع الحضـاري، وإثبات الوجـود فِي المناخ الدّولـي، بَعْدَ ازاحة دولة فَارِسَ عَنْ الخَارِطَة السِّيَاسِيَّة، ولاسِيَّمَا بَعْدَ مقتل كِسْرَى، وانتهاء مقاومة فُلُولِه سنة (32هـ/ 644م)، والإنتهاء بِبِيْزَنْطَة إلَى قسطنطينة، مِنْ بَعْدِ أَنْ اقتطعتْ مِنْهَا أطرافَهـا الثّمينـة. فِي حِين ظـلّ يعالج الإضطرابـات والفتن الدّاخلية، تَـارَةً بالحوار والاقناع، وَأُخْرَى بالسّيف.

لَـمْ يدْرُجْ لَنَا أهْلُ الأَخْبَارِ لَهُ احتكاكًا عسكريًا مَعَ أهلِ الذِّمَّة، سِـوَى حادثةِ بعضٍ من بنِي ناجيةَ سنة (38هـ/ 658م)، إتّبَعُوا الخريت بن راشد، شَهِدوا مَعَ عَلِيٍّ الجملَ وصفيـنَ، ثُمَّ خرجوا بَعْدَ التّحكيم، وحاولَ الإمـامُ عَلِيّ إقناعَهم فَلَمْ يُجيبوا[2]، فنزلَ النّاجـيُّ جانِبًـا مِن الأهوازِ، واجتمعَ إلَيْـهِ من أهلِها كثيرٌ، أرادوا كَسْـرَ الخراجِ، ومَنْعَ الصّدقةِ، وَكَانَ فِيهِمْ نَصَارَى قَدْ أسلموا، فرجعوا إلَى دينِهم، وقَوْمٌ نَصَارَى ثَبَتوا عَلَى دينِهـم، ولُصُـوصٌ كثيرةٌ، وطائفـةٌ أُخْرَى من الْعَرَب تَـرَى رأْيَهُ، فانْتَفَضـوا هُنَاكَ، ثُمَّ

---

(1) - نهج البلاغة ص441؛ ابن حمدون، البغدادي (ت 562هـ): التذكرة الحمدونية 1/ 326.
(2) - الطبري: تاريخ الرّسل 5/ 112 وبعدها؛ الكامل في التاريخ 2/ 714 وبعدها.

أخرجوا سهل بن حنيف عامل علي على فارس، فارسل لهم الإمام علي كتابًا[1] مع معقل بن قيس قائد جيشه، الَّذِي قال لَهُ: «لا تبغ عَلَى أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمة»[2]، فعاد قسم مِنهُمْ إلَى رشده، وقاتل الباقين حَتَّى تشتتت فلولهم[3].

عامل الإمام عَلِيٌّ الخوارج عَلَى أَنَّهُمْ مخالفون فِكْريًا، ومعارضون سِيَاسِيّون، وأبقاهم فِي الكوفة مَا داموا لَمْ يخالفوا نظام الدّولة وهيبتها، وَهُوَ يحاورهم بَيْنَ الحين والآخر، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَهْدَأْ لَهُمْ بَالٌ، وَلَمْ تَنْتَهِ مِحْنَتُهُم إلا بِكَيْدِهِم فِي مَقْتَلِ عَلِيٍّ عَلَى يَدِ ابْنِ مُلْجِم. وَلَمَّا إشْتَدَّ بِهِ الوجعُ، طلبوا مِنْهُ أَنْ يُوصِيَ لِمَنْ بَعْدِهِ، وَقَالُوا: «إِنْ فَقَدْنَاكَ، يَا أَمِيرَ المؤمنِينَ، فَلَا نَفْقِدْكَ إِنْ نُبَايِعْ الحَسَنَ، فقال: لا آمُرُكُمْ وَلَا أَنْهَاكُمْ. فعادوا القول، فقال: كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَبْصَرُ»[4]. وتوفي فِي (21/ رمضان 9/ 40هـ= 9/ 2/ 661م).

خلافة الحسن بن عَلِيّ: (40 - 41هـ/ 661م)

بويع الحسن بْن عَلِيّ الخِلَافَة فِي الكوفة، لسبع بقين من شهر رمضان سنة (40هـ/ 661م)، أقرّ فِيهَا عُمَّال أَبِيه، وأقام فِيهَا سَبْعَة أشهر وَسَبْعَة أَيَّام[5]، ثُمَّ صالح معاوية فِي شهر ربيع الأول سنة 41[6]، وترك الأمرَ لمعاوية عَلَى أَنْ يكونَ بَعْدَهُ عَلَى الأمر، وذهب الحسن إِلَى المدينة، حَتَّى تُوُفِّيَ مسمومًا سنة خمسين[7].

---

(1) - بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من عَبْد الله علي أَمِير الْمُؤْمِنِيْنَ إِلَى من يقرأ عَلَيْهِ كتابي هَذَا من الْمُؤْمِنِيْنَ والمسلمين، والنصارى والمرتدين سلام عَلَيْكُمْ وعلى من اتبع الهدى وآمن بِالله ورسوله وكتابه والبعث بعد الموت وأوفى بعهد الله ولم يكن من الخائنين أَمَّا بَعْدُ، فإني أدعوكم إِلَى كتاب الله، وسنة نبيه، والعمل بالحق، وبما أمر الله فِي الكتاب، فمن رجع إِلَى أهله مِنْكُمْ وكف يده واعتزل هَذَا الهالك الحارب الَّذِي جَاءَ يحارب الله ورسوله والمسلمين، وسعى فِي الأرض فسادا، فله الأمان عَلَى ماله ودمه، ومن تابعه عَلَى حربنا والخروج من طاعتنا، استعنا بِالله عَلَيْهِ، وجعلنا الله بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، وكفى بِالله نصيرا!. الطبري: م. ن. 5/ 126.

(2) - الثقفي، إِبْرَاهِيم بنَ مُحَمَّد: الغارات 1/ 351.

(3) - الطبري: م. س.5/ 122 - 130.

(4) - القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة 1/ 293؛ ابن كثير: البداية والنهاية 7/ 362.

(5) - خليفة بن خياط: تاريخ، ص 203؛ وقيل: كَانَتْ خلافة الحسن خمسة أشهر ونصف، وقيل: ستة أشهر. المسعودي: التنبيه والإشراف (دار الصاوي، القاهرة) 1/ 260؛ الكامل فِي التاريخ 3/ 7؛ المقريزي: إمتاع الأسماع 5/ 359.

(6) - التنبيه والإشراف 1/ 260.

(7) - البلاذري: أنساب الأشراف 3/ 60؛ المقدسي: البدء والتاريخ 6/ 5.

إنْتَهَى عصرُ الخِلَافَة الرّاشدة، وَكَانَ أمدُه ثلاثين عاما، وَكَانَ إختيارُ الخليفةِ يقومُ - فِي الغالب - عَلَى الإنتخابِ، ففي الْأولى إنْتَخَبَ أُثْنَان ثالثًا، فرَشَّحَ أَبُو بكر خليفةً، وبايعـهُ النّاسُ. والثّانيةُ قامتْ عَلَى تعيينِ أَبِي بكرٍ عُمَرَ خليفةً، وبايعه النّاس. والثّالثة رَشَّحَ، من مشاورةِ ستَّةٍ مِنْ أهْلِ العقْدِ والحَلِّ، عثمانُ خليفةً، والرّابعة بانتخابِ أهلِ بَدْرٍ والنّاسِ عَامَّةٍ عَلِيًّا خَليفةً، والخامسة بانتخابِ أهلِ الكوفةِ الحسنَ خليفةً.

ويـرى «ديورانـت»[1] أن الحكومة الإِسْـلاَميّة، فِي الثّلاثين السّنـة الَّتِي تلت وفاة النّبـيّ، كَانَـتْ جمهورية ديمقراطية مـن الوجهة النّظرية، بالمعنى الَّـذِي كَانَ مفهوماً من هَذِهِ العبارة فِي الزمن القديم، وَهُوَ أنْ يشترك جميعُ الذّكور الرّاشِدِين فِي اختيار رأس الدّولة وتحديد سياسـتها. أمَّا من النّاحية العَمَلِيَّة فَقَدْ كَانَ الَّذِينَ يختارون أمير المؤمنين، ويرسمون سياسة الدّولة، فِئَةٌ قليلةٌ من أعيان المدينة. وَلَمْ يكُنْ يُنْتَظَرُ شيءٌ غيـر هَـذَا بطبيعة الحال، ذَلِكَ أن النّاس يختلفون فِـي ذكائهم وَفِي ضمائرهم، ولهذا فـإن الدّيمُقراطيَّـة فِي أحســن صورها لا بد أن تكون نسبيَّـة، ولا محيصَ من أنْ تنشأ صـورة مَا من صور الألجاركِيَّة فِـي المُجْتَمَعات، الَّتِي لا تتيسر فِيهَا سُبُل الاتصال، والتي تقلُّ فِيهَا نِسْبَةُ المتعلمينَ.

2. الفتوح الإسلامية ووَضْع الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة

قُبيل الفتح الْعَرَبِيّ لبلاد الشّام والشّرق الأوسـط كَانَتْ الكَنِيسَة السّرْيانِيّة، ومثلها الكَنِيسَـة النَّسْطُورِيّـَة، قَدْ أصبحت كَنِيسَـة غير قانونية، وبـات كهنوتها غير مشروع. كَـانَ البِطْرِيَرك اليُونانِيّ أَوْ الملكـي، بِطْرِيك الأرثوذكس فِـي أنْطَاكِيَة، الوحيد الَّذِي وافق عَلَيْهِ الإمْبرَاطُور البِيزَنْطي، وَكَانَ المطارنة ورجال الدّين الخلقدونيون التّابعون للإمْبرَاطُور وحدهم الَّذِينَ أجازت لَهُمْ الدّولة بالعمل. أمَّا النَّساطِرَة فكانوا قَدْ اختفوا وراء الحـدود البِيزَنْطيَّـة وعاشـوا فِـي أمان داخل بـلاد فَارِسَ بعيداً عَـنْ الإضـطهاد البِيزَنْطـي، ومن ناحية أُخرَى، تعـرّض السّريان الأرثوذكس الَّذِينَ كَانُوا الأغلبية فِي

(1) - قصة الحضارة 13/ 145.

سُورِيَةَ إِلَى اضطهاد شديد، مَا اضطرّهم إِلَى العمل سرّاً[1].

مَعَ قدوم الْعَرَب تغيّرت الصّورة عَلَى نحوٍ كامل. لَمْ يعرف أتباع الرّسول مُحَمَّد، فِي العقود الأولى، إلاّ القليل عَنْ الاختلاف بَيْنَ عَنْ الطّوائف الْمَسِيحِيَّة، ولو عرفوهم «بأهل الكتاب»، ووعدوهم بالحماية والعيش بأمان مَا داموا لا يتدخّلون فِي الإِسْلَام وجيوشه الفاتحة، وما داموا يدفعون الْجِزْيَة. ولما رفض اليهود والمسيحيون في النهاية اعتناق الإسلام قد أدّى بمكانتهم الاجتماعية في المجتمع الإسلامي أن تبقى دائما في وضع متغير. ذمتهم مشروطة بدفع الجزية، وقبول وضع ثانوي في المجتمع الإسلاميّ. ومع هذا، بحسب «فيرستون Firestone[2]: فإن وضع الأقليات الدينية المحمية (الذميين) كان بالتأكيد مُرضيًا، إنْ لم يكن أفضل من وضع الأقليات الدينية في أي نظام ديني أو سياسي معاصر لذلك الزمن. وهذا ما يوضح لنا كيف ازدهرت الحياة اليهوديّة والمسيحيّة في كثير من مناطق العالم الإسلامي.

كَانَتْ مصلحةُ الدّولةِ الجديدةِ فِي المقاطعاتِ الْمَسِيحِيَّة، الَّتِي احتلّها الْمُسْلِمون حديثاً، محصورةً بالتّعَايُشِ السّلميّ مَعَ أهل الذِّمَّة، وبجبايةِ نوعينٍ من الضَّرائب: الضَّريبة الأولى وَهِيَ الخراج، أَوْ ضريبة الأرض، ولقد فُرضت بالتّساوي عَلَى الْمَسِيحِيّ والمسلم دُونَ تمييز. والضَّريبة الثّانية وَهِيَ الْجِزْيَة، أَوْ ضريبة محدودة يدفعها الفرد، ولقد فُرضت هَذِهِ عَلَى البالغين من الْمَسِيحِيِّينَ فقط، وقُدّرت قيمتها بدينار واحد يُدفع عَنْ الشّخص الواحد بدلاً من الخدمة العَسْكَرِيَّة. ولقد عُدّلت ضريبة الْجِزْيَة لاحقاً لتتطابق مَعَ وضع الفرد الشّرعي، فانحصرت فِي الأفراد العاملين، واستثني مِنْهَا النّساء والأطفال والقساوسة والرّهبان والشّيوخ. وبذلك، أصبح الْمَسِيحِيّون اليَعَاقِبَة والنَّسَاطِرَة والأرثوذكس شعباً واحداً يتَمَتّع بالامتياز

---

(1) - عزيز عطية: «السّريان فِي التاريخ، تحت سيطرة الخلفاء»، ترجمة حنا عيسى توما، الباب الرّابع،26 ص، مجلة دراسات سريانية Syriac Studies.. 10 - 4 - 2008

(2) - ذرية ابراهيم، ص49.

نفسه، ويخضع للضريبة ذاتـها دُونَ تمييز[1].

أحـرز اليَعَاقِبَـة تَحْتَ إمرة الإِسْـلَام حقوقاً دِينِيَّـة لَمْ يعرفوها فِـي أثناء وجودهم مَـعَ البِيْزَنْطيين شـركائهم فِي الدّين. وتميّزت سِـجِلاّت الإِسْـلَام التّاريخيّة المبكّرة بـروح التَّسَامُـح والشّعور السّويّ بالعَدَالة، ورافَقَ هَـذَا الإحساس تلهُّفُ الْعَرَب إِلَى الإسـتفادة مـن الثّقافـة والعلوم المُتَقَدّمـة عِنْدَ الشّعـوب القديمة، الَّتِـي كَانَتْ تَحْتَ سـيطرتهم بغـضّ النّظر عَـنْ الاختلاف فِـي الأَدْيَان. وَهَـذَا الموقف السّليـم يفسّـر المكانة العالية، الَّتِي احتلّها اليَعَاقِبَة والنَّسَاطِرَة فِي بلاط الخلفاء.[2]

بدأ غـزو الْعَرَب الْمُسْلِمِينَ لبلاد الشّام سـنة 13هـ/ 634م، أي بَعْدَ غزوة الفرس للمنطقة بعشرين سـنة، إِذْ تضعضعت أركانهـا وتبددت أحوالها، ولَـمْ تسترجع قواها بَعْـدُ من شـدّة الضَّربة المؤلمـة الَّتِي ذاقتها مـن الفرس. وَكَانَ سـكان البلاد يتدينون بالْمَسِيحِيَّـة مَا خَـلَا أقلياتٍ يَهُودِيَّـةٍ ووَثَنِيّةٍ. وَأَمَّا من جهة اللُّغَـة فكانوا يقسمون إِلَى ثلاثة أقسام: سكانُ السّواحلِ أغلبُهم كَانُوا يتكلمونَ اللُّغَةَ اليُونانِيّةَ، وسكانُ الجنوبِ والشّـرقِ مِمَّـا يَلِي الباديةَ كَانُـوا يتكلمونَ الْعَرَبِيّةَ. وأهلُ الشّمالِ مَعَ سـكانِ أواسـطِ البلادِ كَانُوا يتكلمونَ الآراميةِ[3].

فِي فتـوح الشّام ومَصْر[4] كَانَتْ أول وقعة واقعها الْمُسْلِمون الرّوم فِي خِلاَفَة أَبِي بكـر أرض فلسطيـن، وعلـى النّاس عَمْرو بن العـاص، ففتح غزة، ثُمَّ فتـح بَعْدَ ذَلِكَ سـبسطية[5] ونابلس عَلَى أنْ أعطاهم الأمَان عَلَى أنفسهم وأموالهم ومنازلهم، وعَلَى

(1) - عزيز عطية: م. س. ص27.

(2) - عزيز عطية: م. ن، ص27.

(3) - نقولا الخوري، الأب: «أصل المسيحيّين فِي سوريا وفلسطين مِنْذُ فجر التاريخ حَتَّى الفتح العَرَبِيّ»، دراسات سريانية 14، أغسطس 2012، ص160.

(4) - البلاذري: فتوح البلدان ص 140؛ الأزدي مُحَمَّد بن عبد الله: فتوح الشّام،تح: وليم ناسوليس 1الأيرلاندي (مطبعة بتسن مشن، كلكتا، 1854)ص73؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة فِي ذكر أمراء الشّام والجزيرة، ص 401.

(5) سَبَسْطِيَةُ: بلدة من نواحي فلسطين، وبها قبر زكرياء ويحيى بن زكرياء، وهي من أعمال نابلس. ياقوت: معجم البلدان 3/ 184.

أَنَّ الْجِزْيَـةَ عَلَـى رقابهـم والخراج عَلَى أرضهـم، ثُمَّ فتح مدينة لِـدّ وارضها، ثُمَّ فتح يُبنـى[1] وعمواس وبيـت جبرين[2]، واتخذ بِهَا ضيعة تدعى عجلان، باسـم مولى لَهُ، وفتح يافا، وفتح رفح عَلَى مثل ذَلِكَ.

وقـدم عَلَيْـهِ أَبُو عُبَيْـدَةَ بَعْدَ أَنْ فتحَ قِنَّسْرين ونواحيها وَذَلِكَ فِي سـنة سـت عشرة وَهُـوَ محاصـر إيلياء، وإيلياء مدينـة بيت المقدس، فيُقَال: إنَّه وجَّهَـهُ إِلَى أنْطَاكِيَةَ من إيليـاء، وَقَدْ غدر أهلهـا ففتحها، ثُمَّ عاد فأقام يومين أَوْ ثلاثة، ثُمَّ طلب أهل إيلياء من أَبِي عُبَيْدَة الأمَانْ والصّلح، عَلَى مثل مَا صولح عَلَيْهِ أهل مدن الشّام، من أداء الْجِزْيَة والخـراج والدّخول فِيمَا دخل فِيـهِ نظراؤهم، عَلَى أنْ يكون المتولى للعقد لَهُمْ عُمَر بـن الخطّـاب نفسه، فكتـب أَبُو عُبَيْدَة إِلَى عُمَـر بِذَلِكَ، فقدم عُمَـر، فنزل الجابية من دِمَشْق، ثُمَّ صار إِلَى إيلياء، فأنفذ صلح أهلها وكتب لَهُمْ بِهِ، وَكَانَ فَتْحُ إيلياء فِي سنة سبع عشرة[3].

فِـي الشّـام ومَصْر كَانَـتْ الْفُتُـوح مُسْتَمِرَّةً والحـرب مُسْتَعِـرَةً، مَعَ ذَلِكَ ثَمَّـةَ قِيَمٌ وأَخْـلَاقٌ لَـمْ تُعْدَمْ، ولهـا دور فِي ادامـة العَلاقَات الإِسْـلَاميّة الْمَسِيحِيَّـة، وَلَمَّا فتح الْعَرَب بلْبِيس مِصْرَ، أخذت أرمانوسة ابنة الملك المُقَوْقَس، أسيرةً، وَكَانَ قسْطنطين بن هرقل قَدْ تزوج بارْمَانوسة؛ بَيْدَ أَنَّ القائد الْعَرَبِيّ عمرو بن العاص بعث بِهَا مكرمة الجانب معزَّزة الخاطر مَعَ جميع مَا معها مَعَ قيس بن سعد إِلَى أبيها فِي مدينة مَنْف، اكراما لَهُ؛ لِأَنَّهُ كاتب رسـول الله وبعث هدية لَهُ[4]، وعدَّ المُقَوْقَس هَذِهِ الفعلة جميلا ومكرَمَـةً من الْمُسْلِمِيـنَ، أودعها فِي ميـزان العَلاقَات الرّاجحة، مِمَّا سَـجَّلها بعض

(1) يُبْنَى: بليد قرب الرملة. ياقوت: م.ن. 5/ 428.

(2) بَيتُ جِبْرِينَ: بليد بين بيت المقدس وغزّة، وبينه وبين القدس مرحلتان، وبين غزّة أقلّ من ذلك. ياقوت: م.ن. 1/ 519.

(3) - فتوح البلدان، ص 140.

(4) - الواقدي: فتوح الشّام 2/ 40 - 44؛ المقريزي: الخطط 1/ 339؛ وقارن: القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، ص 401.

مُؤَرِّخي الكَنِيسَة[1] تدعيما للصلات والعَلاقَات السّريَّة مَعَ زعماء الْعَرَب، إِذْ عُدَّت من دواعي تواطُؤ المُقَوْقَس مَعَ الْعَرَب عَلَى قومِه الرّومان.

ومهْمَا يَكُـنْ من عَلاقَات، وَكَيْفَ فُهِمَـتْ، فأَنَّها أدَّت تاليًا إِلَى إقـرارِ الصّلْح بَيْنَ المُقَوْقَسِ والمُسْلِمِينَ بوثيقةٍ مَفَادُها أنْ يُعْطَى الأمَانُ للأَقْبَاطِ، ومَنْ أرادَ البقَاءَ بِمِصْرَ مِـن الـرّومِ، عَلَى أنفسِهم وأموالِهـم وكَنَائِسهم. وَفِي ضوءِ الصّلْـح تَنَامَتْ العَلاقَاتُ بَيْـنَ الْمَسِيحِيِّينَ والفاتحيـنَ الْمُسْلِمِينَ، إِذْ» تقدمُوا إِلَيْهِ وطلبُـوا أنْ يمنحَهم حرِّيتَهم الدّينِيَّـةَ، ويأمُـرَ برجـوعِ بِطْرِيَكِهـمْ مِـن مَنْفَـاهُ، فأجـابَ عمـرو طَلَبَهم، وأظهـرَ مَيْلَهُ للأقْبَاطِ، فازْدَادَ هَؤلاءِ ثِقَةً بِهِ ومالُوا إِلَيْهِ، بِخَاصَّةٍ لَمَّا رَأوْهُ يفتحُ لَهُمْ الصّدورَ، ويُبِيحُ لَهُـمْ إقامَةَ الكَنَائِسِ والمعابِدِ وَسـطَ الفسطـاطِ، الَّذِي بَنَاهُ بمساعـدةِ الأَقْبَاطِ وجعلَهُ عاصمـةَ الدّيـارِ المِصْريَّـةِ، عَلَى حِينِ أَنَّـهُ لَمْ يكـنْ للمُسْلِمِينَ معبدٌ، فكانـوا يُصَلّونَ ويَخْطبونَ فِي الخلاء«[2].

أحوال الْمَسِيحِيِّينَ بَعْدَ الْفُتُوح:

أشـار مُؤَرِّخـو السّريان إِلَـى أنَّ الْمَسِيحِيِّينَ حبَّـذوا حكمَ الْعَـرَب، وأنَّ الجاثليق ايشوعيهـب الجذالي بَذَلَ قُصَـارَى جهدِه لِكَيْ يُظْهِرَ الـولاءَ للفاتحين[3]، ويقال: أنَّ أميرًا نَجْرَانيًّا مسيحيًّا تَوَسَّـطَ بَيْنَ مذهبِه، ونالَ من الْمُسْلِمِينَ عهدًا، يكفل لَهُمْ حسن المعاملة[4]، ونقل عَنْ تاريخ كويدي، مَا يدلُّ عَلَى عدم تعاون الجاثليق مَعَ الفاتحين، أَوْ تَقَبُّلِـهِ الأمْـرَ على مَضَضٍ، قولـه: «حينما رآى الجاثليق أيشوعيـاب أنَّ الْعَرَبَ قَدْ احتلـوا ونهبوا ماحوزي (المدائن)، وأنَّ أبوابَها قَدْ نُقِلَتْ إِلَى العاقولاء (الكوفة)، فرَّ

---

(1) القمص: تاريخ الكنيسة القبطية ص 400 – 401.

(2) – القمص: م. ن. ص 402.

(3) – ماري سليمان: فطاركة المشرق ص ٦٢، صليبا بن يوحنان: أخبار بطاركة كرسي المشرق[المجدل]، (روما،1896) ص ٥٤ – 55، ابن العبري، التاريخ الْكَنَسيّ2/ ١١٥؛ ألبير أبونا: الكنيسة السّريانية الشّرقية، ص198

(4) – ألبير أبونا: م. ن. ص198 نقلا عَنْ التاريخ السّعردي 2/ 281

إلَى كرخ سـلوخ (كركوك) تَجَنُّبًـا للمَجَاعَة»[1]. أمَّا «ماروثـا» مطرافوليط[2] المشرق الَّـذِي كَـانَ فِي تكريت إبَّانَ الفتح الإسْـلَامِيّ، فَقَـدْ فتح أمام الْمُسْلِمِيـنَ أبواب قلعة المدينة، تَجَنُّبًا لوقوع المجازرِ الدّمويَّةِ فِيهَا، إنْ هِيَ فُتِحَتْ عَنْوَةً[3].

استطاع النساطرة إيجاد مشتركات مع المسلمين، وبادروا الى بناء علاقات معهم منذ عصر الإسلام النبوي، عن طريق نَجْرَان وتبادل الهدايا، إذ سأل إيشوعياب الثاني النبـيَّ «الإحسان الـى النصارى»، محـاولا التوصُّل الـى تساهل في دفـع الجزية[4]. ولعلهـم بعد الفتح العربي حاولوا حصـاد خيرات عميمة ونتائج طيبة في العلاقات. فـإنَّ النساطرة - بحسب «دوسـلييه» -[5] «يقولون: إنَّ المسلمين عاشـوا على وفاقٍ تـامٍّ معهم نظـرا لقربهم العقيدي مـن المَسِيحِيِّينَ»، وعندما كثر المسلمون وسـكنوا مدن الفرس، وهدموا بيوت النيران، فإنَّه لإرضاء أتباع الدين الحق فيما يبدو، وسـاد بينهـم اعتقـاد بأنَّ المسلميـن» أكرموا النصارى أكثر من أهل سـائر الأديـان»[6]. كما أن الجاثليـق إيشوعيـاب الثالث بادر الـى الإعتراف بأن المسلمين «لـم يمتنعوا عن مهاجمة الدين المسيحي فحسب، بل إنهم أوصوا بعقيدتنا خيرا، كما احترموا الكهنة وقديسي الرب، وكانت لهم أيادٍ بيضاء على الكنائس والأديار»[7].

يُرْجِعُ بعضُ العلماء الْكَنَسِيّين[8] إستقبال الْعَرَب الْمُسْلِمِينَ الفاتحين، الَّذِينَ قدموا مـن الجَزِيْـرَة الْعَرَبِيّة، من لَـدُنِ الْمَسِيحِيِّينَ، إلَى عواملَ عديدةٍ: نفسيَّـةٍ، وإجْتِمَاعِيَّة،

---

(1) - ألبير أبونا: م.ن، ص198.

(2) - المطرافوليط: رئيس أساقفة، يكون عَلَىَ رأس كل مقاطعة كنسية كبرى مطرافوليط، ينتخبه الشّعب، وينال الرّسامة من بد البطريك (الجاثليق). «تاريخ كنيسة المشرق «- الجزء 13 (تركية كنيسة).

(3) - ابن العبري: التاريخ الْكَنَسِيّ 2/ 125

(4) - دوسلييه: مسيحيو الشرق، ص 127، نقلا عن التاريخ السعردي، p.o، V111، ص619 وما بعدها.

(5) - مسيحيو الشرق والإسلام، ص 123.

(6) - تاريخ السعردي، ص628.

(7) - دوسلييه: م. س. ص 124.

(8) - البطريرك مار إغناطيوس زكا الأول عيواص: «السّـريـان والإسلام تـــاريخ مشتـــرك»، الموقع الرّسمي لبطريركية أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس.

وقوميَّةٍ، ودِينيَّة. ذَلِكَ أن السّريان كَانُوا ينوؤون تَحْتَ نَيْرِ الحكم البِيْزَنْطي فِي سُورِيَةَ، كَمَا كَانُوا مضطهدين فِي بلادِ فَارِسَ. إِذْ حاولَ الفُرْسُ إخضاعَهم لقبول الدّين المجوسي، مستخدمين لهذه الغاية كُلَّ أساليبِ العنفِ وسفكِ الدّماء، كَمَا أثقلوا عَلَى كاهلهم الضَّرائب الباهظة. أَمَّا السّبب الظّاهري، لإثارة البِيْزَنْطِيين الاضطهاد العنيف عَلَى السّريان، فَهُوَ لرفض السّريان قبولَ قراراتِ مجمع خلقيدونية (451م). وإنَّ من وراء ذَلِكَ قمعَ الأفكارِ التّحرريَّةِ، والوعي القومي، الَّذِي دبّ فِي صفوف السّريان، للتخلص من نَيْرِ المستعمر البِيْزَنْطيِّ، الَّذِي سلَبَ سُورِيَةَ خيراتِها الطّبيعيَّةِ.

وَفِي فتوح الشّام تَدُلُّ رِوَايَةُ الواقدي[1] عَلَى إرتياحٍ كبيرٍ مِن لَدُنِ الْمَسِيحِيِّينَ، بقوله: أنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ لَمَّا دخلَ دِمَشْقَ بأصحابِه، سارتْ القُسُسُ والرّهبانُ بَيْنَ يدَيْهِ، وَقَدْ رفعوا الإِنْجِيلَ والمباخرَ بالنَّدِّ والعودِ، ودخلَ أَبُو عُبَيْدَةَ من بابِ الجابيةِ، وما أحدٌ من أصحابِ أبي عُبَيْدَةَ جَرَّدَ سيفَهُ، والتَقَى عِنْدَ الكَنِيسَةِ جَيْشَ خَالِد.

فِي مِصْرَ كَانَتْ مُدَّةُ ولاية عمرو بن العاص (21 - 25هـ/ 642 - 647م) وخلافة عمر بن الخطّاب (13 - 23هـ/ 634 - 644م) أحسن أوقات الرّاحة الَّتِي ذاقَها الأَقْبَاطُ، وَلَمَّا تَوَلَّى الخِلَافَةَ عثمانُ بنُ عفانٍ عَزَلَ عمرو، وعَيَّنَ عبدَ الله بن سعد بن أبِي سرح، فَاشْتَدَّ عَلَى الأهالِي، وجمعَ مِنْهُمْ ضرائِبَ باهِظَةً[2]؛ فبَعْدَ أَنْ جَبَاهَا المُقَوْقَسُ - قَبْلًا - عشرينَ ألفَ ألفٍ، وأنَّ عَمْرًا جَبَاهَا اثني عشرَ ألفَ ألفٍ، جبَا ابنُ أبِي سرحٍ فِي أوَّلِ سنةٍ أربعةَ عشرَ ألفَ ألفِ دينارٍ، بزيادةِ مليونينِ عَمَّا كَانَ يَجْبُوهُ عمرو. فقال عثمان لعمرو: يا أَبَا عبدِ الله، دَرَّتْ اللَقْحَةُ بأَكْثَرَ مِنْ دَرِّهَا الأولِ، قَالَ عمرو: أضْرَرْتُمْ بِوَلَدِهَا، ذَلِكَ إنْ لَمْ يَمُتْ الفَصِيلُ[3].

ثَمَّةَ مكاسِبُ جَنَاهَا الأَقْبَاطُ من الفتحِ الْعَرَبِيّ لِمِصْرَ، مِنْهَا: تحريرُهم مِن العَنَتِ

---

(1) - فتوح الشّام 1/ 72.

(2) - سوريال عطية: تاريخ الكنيسة الشرّقية 105؛ القمص: تاريخ الكنيسة القبطية ص 406

(3) - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص 188؛ المقريزي: الخطط والآثار 1/ 149؛ القمص: م. س. ص 406.

والإضطِهادِ الدّينيِّ مِن جانـبِ السّلطاتِ البِيزَنْطيَّةِ وبطاركتِها. كَذَلِكَ تَمَكَّنَ الأَقْبَاطُ من ضَمِّ كثيرٍ مِن الكَنَائِسِ الملكانيَّةِ، ومُؤَسَّـسَاتٍ دِينِيَّةٍ أُخْرَى، إِلَى الكَنِيسَة القبطِيَّة، بَعْـدَ أَنْ تركَهـا البِيزَنْطِيُّونَ. وَفِـي الإِدَارَةِ المحليَّةِ، صارتْ الوظائفُ شُـبْهَ حِكْرٍ عَلَى الأَقْبَاطِ دُونَ غيرِهم، فمِنْهُمْ: الكتَبَةُ، وجامِعُو الضَّرائبِ، والقضاةُ المحلِّيُّونَ. كَمَا أَنَّ الثّقافةَ القبطِيَّةَ شَهِدَتْ إِنْتِعَاشًا هائِلًا، بَعْدَ أَنْ رحلَ البِيزَنْطيونَ عَنْ البلادِ[1].

ليـسَ أدَلّ عَلَـى رضا الْمَسِيحِيِّينَ عَنْ عصر الخِلَافَة الرّاشـدة، أنَّ السّريان هُمْ من أطلقـوا كلمة «فـاروق» عَلَى الخليفة عمر بن الخطَّاب، الَّتِـي مَا زَالَتْ متداولة تراود أذهانهـم - بحَسَبِ صليبا شـمعون[2]، وَقَدْ تدعم تسميـة عمر بالفاروق من لَدُنْ اهل الكتاب رِوَايَة ابن شهاب الزهري (ت124هـ / 742م)[3] قَالَ: «بلغنا أن أهل الكتاب كَانُـوا أول مـن قَالَ لعمـر: الفاروق، وَكَـانَ الْمُسْلِمون يأثرون ذَلِكَ مـن قولهم، وَلَمْ يَبْلُغْنَـا أنَّ رسـولَ اللـهِ ذَكَرَ من ذَلِكَ شـيئا». بيـد أنَّ الطبري[4] يخصُّ بهـا نبوءةً لبني إسـرائيل على لسـان كعب الأحبار في حديثه لعمر: «ثم أُديلـت الروم عليهم إلى أنْ وُلِّيت، فبعث اللَّه نبيًا على الكناسة، فقال: أبشري أورى شلم! عليك الفاروقُ ينقِّيك مما فيك».

لا عجـب إِذًا اتسـم موقـف الْمَسِيحِيِّـنَ فِـي المشـرق بارتياح لمجـيء الْعَرَب، ذَلِـكَ لأن الْمَسِيحِيِّـنَ ملُّوا من الظّلم الَّذِي تعرَّضوا لَـهُ فِي فترات عديدة من العهود الفارسـيَّة، وَكَانَ للصراع الدّائر بَيْنَ الرّوم والفرس دورٌ فِي كره الْمَسِيحِيِّنَ السّريان، ويأسـهم من كلتا الدّولتين[5]، فكانوا يطمحونَ للتخلُّصِ مِن اسـتبدادِهم بأَيَّةِ وسـيلةٍ

(1) عطية: م. س. ص106.

(2) - المار غريغوريوس صليبا شمعون: عصارة فكر، علاقة البطاركة والمفارنة بالخلفاء العباسيين، (ديوان أوقاف المسيحيّين والديانات الأُخرَى، الموصل، 2009) ص96.

(3) - أخرجها ابن سعد: الطبقات الكبرى 3/ 270؛ ابن شبة: أخبار المدينة 1/ 350؛ الطبري: التاريخ 2/ 562؛ ابن الأثير: أسد الغابة 4/ 106؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 44/ 51.

(4) - تاريخ الرسل والملوك 3/ 611.

(5) - سيّار الجميل: «المسيحيون العِرَاقيون» (ج3/ ق5)، مجلة ألفا (.elaph)، عدد: 11421، تاريخ 6/ 11/ 2010.

كَانَـتْ، فلعَلَّ الفاتحيـنَ الجُدُدَ يكونـونَ أكثرَ إِنْسَانِيَّـةً ورحمةً تجاهَهـم. وَقَدْ رَحَّبَ الْمَسِيحِيّـو ن – أَيْضًـا – بمجـيءِ الْعَـرَبِ للتقاربِ الكبيـرِ بَيْنَ لغتهـم السّرْيانِيّة ولغةِ الفاتحينَ الْعَرَبِيّةِ، لكونِ اللُّغَتَيْنِ تَنْتَمِيَانِ إِلَى دَوْحَةٍ واحِدَةٍ هِيَ الساميَّة[1].

لا غرو أنَّ السياسة التي اتبعها العرب المسلمون، منذ أولى فتوحاتهم، قد أعدّت أهل البلاد التي دانت لهم، الى تقبل سلطانهم، وهي سياسة كانت فتحا بذاتها وابتكارا فـي عالم السياسـة والدين[2]؛ لأنَّها اسـتندت على مبدأين مهمَّيـن، أولهما: «لا اكراه فـي الدين»، الذي يحمل الإقرار بحـق الشعوب الخاضعة أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدهـا وطراز حياتها. وثانيهما: إعطاء الجزية مقابل احتفاظهم بحقوقهم الدينية والحياتية، وحمايتهم في الحرب والسلم. ولعل هذه السياسـة سـاعدت على تعزيز مشتركات التعايش في بيئة التنوع.

إجمـالًا كَانَـتْ الحاجاتُ بَيْنَ الْمُسْلِمِيـنَ والْمَسِيحِيِّينَ متبادلـةً ومتوائمةً، تهدفُ إِلَـى تَحْقِيْقِ التّكاملِ فِي أنماطِ الحياةِ، فبحَسْبِ جرونيباوم Grunebaum[3]: «كَانَتْ العَلاقَاتُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ، فِي بواكيرِ صدرِ الإِسْلَامِ، مَرْضِيَّةً مقبولَةً»[4]، ويعلِّلها بارتولد Barthold[5]: بأنْ «كَانَ النَّصَارَى أحسنَ حالاً تَحْتَ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ فِي الأزمنة الأولى؛ لحاجة الفاتحين إِلَى هَذَا العنصر الْمَسِيحِيّ المتفوق عَلَى الْعَرَب حضارةً»[6].

وبمثـلِ مَـا عاهـد عَلَيْهِ رسـولُ اللهِ أهـلَ الدِّيَانَـاتِ الأُخْـرَى، أقَـام الخليفةُ عمر

---

(1) – أبونا: الكنيسة السّريانية الشّرقية، ص 199.

(2) – إدمون رباط: المسيحيون في الشرق قبل السلام، المسيحيون العرب، ص 27.

(3) – جرونبوم، جوستاف فون: مستشرق نمساوي (1909 – 1972م). ترجم لَهُ: نجيب العقيقي: الاستشراق والمستشرقون (ط5، دار المعارف، القاهرة، 2006م) 3/ 170.

(4) – حضارة الاسلام، (الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1997م) ص233؛ الشّحات السّيد زغلول، السّريان والحضارة الإسلاميّة، 122.

(5) – بارتولد، ف. ف.(1869 – 1930م): ترجم لَهُ: نجيب العقيقي: الاستشراق والمستشرقون 3/ 79.

(6) – تاريخ الحضارة الإسلاميّة، (مؤسسة المعارف 1983) ص51.

معاهـداتٍ مَـعَ اهالـي المـدنِ المفتوحةِ تُضَمَّـنُ فيهـا حقوقُهم، فمثـلا، صالحَ أهلُ إيليـاء بالجابيـة، وكتب لَهُـمْ فِيهَا الصّلْح: «بســم الله الرّحمن الرّحيم هَـذَا مَا أعطى عبـد الله عمر أميـر المؤمنين أهل إيلياء من الأمَان أعطاهـم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكَنَائِسهـم وصلبانهم وسـقيمها وبريئها وسـائر ملتها، أنَّهُ لا تسكـن كَنَائِسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص مِنْهَا، ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شـيء من أموالهم، ولا يكرهـون عَلَـى دينهـم، ولا يضار أحـد مِنْهُـمْ، ولا يسكن بإيليـاء مَعَهُمْ أحد من اليهـود، وعلـى أهـلِ إيلياءَ أنْ يعطـوا الْجِزْيَة كَمَـا يُعطِي أهـلُ المدائـنِ، وَعَلَيْهِمْ أنْ يُخرجـوا مِنْهَـا الرّومَ واللصوتَ[1]، فمن خـرج مِنْهُمْ فَإِنَّهُ آمِنٌ عَلَـى نفسِه ومالِه حَتَّى يبلغـوا مَأْمَنَهُـم، ومَنْ أقامَ مِنْهُـمْ فَهُوَ آمِنٌ، وعليه مِثْلُ مَا عَلَى أهـلِ إيلياءَ من الْجِزْيَة، ومَـنْ أَحَـبَّ مِنْ أهلِ إيليـاءَ أنْ يسيرَ بنفسِه ومالِه مَعَ الـرّوم، ويخلي بِيَعهم وصُلُبهم، فإنهـم آمنون عَلَى أنفسهـم وعلى بِيَعِهم وصُلُبِهم حَتَّى يبلغـوا مأمنهم، ومن كَانَ بِهَا مـن أهل الأرض... فمن شـاء مِنْهُمْ قعدوا عَلَيْهِ، مثل مَـا عَلَى أهل إيلياء من الْجِزْيَة، ومَنْ شـاءَ سـارَ مَعَ الرّوم، ومَن شـاءَ رجعَ إِلَى أهلِه، فَإِنَّهُ لا يؤخذُ مِنْهُمْ شـيءٌ حَتَّى يُحْصَـدَ حَصادُهُم، وعلى مَا فِي هَذَا الكتابِ عَهْدُ اللهِ، وذمةُ رسـوله، وذمَّةُ الخلفاءِ، وذمَّةُ المؤمنين»[2].

لَـمْ يقْتَصِرْ نظـامُ المعاهدةِ عَلَى اليهودِ والنَّصَارَى بَلْ شَـمِلَ المجـوسَ، فَقَدْ قَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ الْجِزْيَة مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، وَكَانُوا مَجُوسًا[3]، وَفِي الْفُتُوح صالح حذيفة بن اليمان أهل نهاوند عَلَى الخراج والْجِزْيَة وأمن عَلَى أموالهم وحيطانهم ومنازلهم[4].
وكذا صالح أَبُو عُبَيْدَة بن الجراح أهالي مدن الشّام عَلَى تَنَوُّع أجناسهم، وَمِنْهَا بَعْلَبَكّ فكتب: «هَذَا كتاب أمان لأهل بَعْلَبَكّ رومِها وفُرْسِـها وعَرَبِها عَلَى أَنْفُسِهم وأموالِهم

(1) - أي: اللصوص، اللَّصْتُ - بالفَتح، ويُثَلَّثُ: اللِّصُّ، عَنْ الفَراءِ فِي لغةِ طَيّىء، جمعه لُصُوتٌ.
الزبيدي: تاج العروس 5/ 77.
(2) - الطبري: تاريخ الرسل 2/ 449.
(3) - أبُو عبيد: الأموال،41.
(4) - البلاذري: فتوح البلدان 2/ 375.

وكَنَائِسهم ودورِهم، داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم،... ولتجارهم أن يسافروا إلَى حَيْثُ أرادوا من البلاد الَّتِي صالحنا عَلَيْهَا»[1].

لَعَلَّ التِزامَ الدَّولَةِ العَرَبِيَّة بالمحافظةِ عَلَى أهلِ الذِّمَّة، لَمْ يقفْ عِنْدَ حدِّ حمايتِهم مِنْ الإعتداءاتِ الدّاخليَّة مِن لَدُنِ المواطنينَ، أوْ مِنْ لَدُنْ موظَّفِي الدّولةِ، بَلْ يمتدُّ إلَى حمايتِهم من أيِّ اعتداءٍ خارجيٍّ، قَدْ يتعرضونَ لَهُ وحدُهم. ولهذا رَدَّ أَبو عُبَيْدَة بن الجراح الْجِزْيَةَ الَّتِي استوفُوها من بعضِ قُرَى أهلِ الذِّمَّةِ فِي الشّام، لَمَّا غلبَ عَلَى ظنِّه عدمُ قدرتِه عَلَى حمايتِهم، لإحتمالِ عودةِ الرّومِ ومهاجمتِهم لهذِهِ القُرَى[2].

فِي خِضَمِّ التَّسَامُح الَّذِي أبْدَاهُ الْمُسْلِمون تُجَاهَ أصحابِ الدِّيَانَات الأُخْرَى، بخِلافِ التَعَنُّتِ والعَسَفِ والظُّلْمِ دَيْدَنِ الدّولِ الحاكمةِ، الرّومِ والفرسِ، تَوَلَّدَتْ إستجابَةٌ لَدَى الأهالي الْمَسِيحِيِّينَ فِي الشّام، تَضَمَّنَها إعتقادٌ - بحَسَبِ «ارنولد Arnold» أنَّ الالـه: «أرسل أبناءَ إسماعيلَ من بلادِ الجنوبِ ليُخَلِّصَنَا عَلَى أيديهم من قبضةِ الرّوم»[3]، على أنَّهُ «مَعَ ذَلِكَ، لَمْ يكنْ كَسْبًا هَيِّنًا أنْ نَتَخَلَّصَ مِن قَسْوَةِ الرُّومِ وأذاهُمْ وحِنْقِهم وتَحَمُّسِهم العنيفِ ضِدَّنَا، وأنْ نَجِدَ أنْفُسَنَا فِي أمْنٍ وسلامٍ»[4]، وكتبوا إلَى الْعَرَب: يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَنْتُمْ أحَبُّ إلينا مِن الرّوم، وإنْ كَانُوا عَلَى دينِنا، أَنْتُمْ أوْفَى لَنَا، وأرْأَفُ بِنَا، وأكَفُّ عَنْ ظُلْمِنَا، وأحْسَنُ وِلَايَةً عَلَيْنَا، ولَكِنَّهُمْ غَلَبُونَا عَلَى أمْرِنَا وعلى منازِلنا»[5].

لَمْ يَتَوَقَّفْ الأمْرُ عِنْدَ الْمَسِيحِيِّينَ، بحَسَبِ ديورانت: كَانَ اليهود فِي بلاد الشّرق الأدنى قَدْ رحبوا بالعَرَب، الَّذِينَ حرروهم من ظلم حكامهم السّابقين، إلَّا أَنَّهُمْ فِي عهدهم قَدْ فُرضت عَلَيْهِمْ عِدَّة قيود، ولاقوا شيئًا من الاضطهاد من حِينٍ إلَى حِينٍ،

---

(1) - البلاذري: م. ن. 1/ 154.

(2) - أبو يوسف: الخراج، (دار المعرفة، بيروت، 1979م) 139؛ توماس أرنولد: الدعوة إلى الاسلام، 79.

(3) - سير توماس أرنولد: م. ن، ص72.

(4) - أرنولد: م. ن. ص.

(5) - أرنولد: م. ن. ص.

غَيْـرَ أَنَّهُـمْ مَعَ هَذَا كَانُوا يُعاملـون عَلَى قدم المساواة مَـعَ الْمَسِيحِيِّينَ، وأصبحوا مَرَّةً أُخْـرَى يتَمَتَّعـون بمزيد مـن الْحُرِّيَّة فِي حياتهم وَفِي مُمَارَسَـة شـعائر دينهم فِي بيت المقدس، وأثروا كثيراً فِي ظل الإِسْلاَم وَفِي آسية، ومَصْر، وأسبانيا، كَمَا لَمْ يثروا مِنْ قَبْـلُ تَحْتَ حكـم الْمَسِيحِيِّينَ. وَكَانَ الْمَسِيحِيّون فِي بلاد آسـية الغربية، خارج حدود الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة، يمارسـون شـعائر دينهم بكامل حريتهم، وبقيـتْ الكثرةُ الغالبة من أهل بلاد الشّام مَسِيحِيَّةً حَتَّى القَرْن الثّالثّ الإِسْـلاَميّ. ويحدثنا المُؤَرِّخون: أَنَّهُ كَانَ فِـي بلاد الإِسْـلَام فِي عصر المأمون أحد عشـر ألف كَنِيسَة، كَمَا كَـانَ فِيهَا عدد كبير مـن هياكل اليهـود ومعابد النّـار. وَكَانَ الْمَسِيحِيّـون أحراراً فِي الاحتفـال بأعيادهم علَنًـا، والحجـاج الْمَسِيحِيّـون يأتون أفواجـاً آمنين لزيـارة الأضرحـة الْمَسِيحِيَّة فِي فلسطين. وأصبح الْمَسِيحِيّون الخارجون عَلَى كَنِيسَة الدّولة البِيْزَنْطيّة، والذّين كَانُوا يلقون صوراً من الاضطهاد عَلَى يد بطارقة القُسْطَنْطِينِيَّة، وأورشـليم، والإسكندريَّة، وأنْطَاكِيَـةِ، أصبح هَؤلَاءِ الآن أحراراً آمنين تَحْتَ حكـم الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ لَمْ يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه[1].

موقف الْعَرَب الْمَسِيحِيِّينَ من الْفُتُوح:

أمام زحفِ الْعَرَب الْمُسْلِمِينَ عَلَى البلاد بجموعهم، وقفتْ فِي بادئ الأمر القَبَائِل الْعَرَبِيّـة المُتَنَصِّرَة فِي بلاد الشّام إِلَى جانب جيش الرّوم وقاتلوا الْمُسْلِمِينَ. وَقَدْ ذكر «جيبون Edward Gibbon»[2]: إِنَّ بَيْنَ المائة والخمسين ألف مقاتل، الَّذِينَ جمعهم الـرّوم لصـدّ الْعَـرَب عَنْ التّوغل فِـي البلاد، كَانَ سـتون الف جنـدي عَرَبِيّ مسيحي بقيادة جبلة بن الأيهم، آخر ملوك الغساسنة[3].

---

(1) - ديورانت: قصة الحضارة 13/ 132

(2) - إدوارد جيبون(1737 - 1794): تاريخ اضمحلال الدولة الرّومانية، ترجمة: مُحَمَّد علي أبُو ريدة القاهرة 1969

(3) - ذكر الواقدي: كَانَ جبلة بن الأيهم فِي المقدمة فِي ستين ألف فارس من العرب المتنصرة من غَسَّان ولخم وجذام. فتوح الشّام 1/ 154. وفي ابن الاعثم: فِي أربعين ألفاً من العرب المتنصرة. الفتوح 2/ 123.

تمكـن الرّوم من اسـتغلال الْعَرَب الْمُتَنَصِّـرَة، بأنْ أثاروا فِي نفوسِـهم العواطفَ الدّينيّـة عَلَى الْمُسْلِمِينَ، حينما عزم الْمُسْلِمون عَلَى فَتْح بِلادِ الشّام وطَرْدِ البِيْزَنْطِيِّين مِنْهَا، وأغروا سـادات القَبَائِل بالمال وبالهدايا وبالوعود حَتَّى اشتروهم فصاروا إلَى جانِبِهـم. إذ أنَّ المَصَالِـحُ الشَّخْصِيَّةُ هِيَ فَوْقَ كُـلِّ مَصْلَحَةٍ عِنْدَ سَـادَاتِ القَبَائِل، لا يَعْلُوهَا عِنْدَهُم مَصْلَحَةٌ، فَانْضَمُّوا إِلَيْهِمْ، وجَاءُوا بقَبَائِلِهِم لِتُحَارِبَ مَعَهُمْ[1]. في حين يرى «ولتر كيغي»[2]: لم يحسن البيزنطيون الإفادة من العرب المَسِيحِيِّينَ، فجعلوهم يقومـون بحماية المدن المسورة، بدلا مـن أنْ يشركوهم في الحرب الحركيَّة. وهذا ما شـكل ضررا، إذ أصبحوا على المدى استنزافًا للموارد، ولاسيما المواد الغذائية؛ مما سهل للفتوح النجاح.

قَـالَ مُؤَرِّخو الإِسْـلَام[3]: أَنَّـهُ لَمَّا وصل خَالِد بـن الوليد قائد جيـوش الْمُسْلِمِينَ إلَـى تَيْمَاء، صدمه الرّوم بجموعٍ أكثرها من الْعَرَب الْمُتَنَصِّرَة: بهراء، وتنوخ، ولخم، وسُلَيم، وجذام، وغَسَّان. إِلَّا أَنَّ جامعةَ اللُّغَة والجِنْس عادت، فرجحَتْ عَلَى جامعة الدّيـن، ولذلـك مـدّ الْعَـرَب الْمَسِيحِيّون أيديهـم إِلَى الْعَـرَب الْمُسْلِمِيـنَ، فتصافح الفريقـان، وانْضَـمَّ الْمَسِيحِيّون إِلَى اخوانِهم الإِسْـلَام، فشاركوهم فِي محاربة الرّوم فِي بلاد الشّام، كَمَا شـاركوهم فِي محاربة الفرس فِي العِرَاق، فعرف لَهُمْ الْمُسْلِمون فضلَهم فِي ذَلِكَ[4].

يتجلَّـى موقـف القبائـل المسيحيـة العربيـة فـي نصرتِهـم المسلمين فـي الشام، حيـن أقبل أبو عُبَيْدَة نحـو الروم، وقد تحولوا إلى»فحـل«، فنزلوها، وهي من أرض الأردن، وجـاء المسلمـون بأجمعهم حتى نزلوا بها وخرج علقمـة بن الأرت القيني

---

(1) - علي، جواد: الْمُفَصَّل فِي تاريخ العرب 12/ 170.

(2) - بيزنطة والفتوحات الإسلامية، (ط2، قدمس للنشر، دمشق، 2003) ص332.

(3) - الواقدي: فتوح الشّام 1/ 150، 154؛ ابن كثير: البداية والنّهاية 7/ 9؛ مُحَمَّد كرد علي: خطط الشّام 1/ 74.

(4) - نقولا الخوري، الأب: أصل المسيحيّين فِي سوريا وفلسطين مِنْذُ فجر التاريخ حَتَّى الفتح العَرَبِيّ، ص160.

فجمـع من أصحابه من بلقين، وجاءت لخـم وجذام وغسان وأفناء قضاعة، فدخلوا مـع المسلمين، وأخذ أهل البلـد من النصارى يراسـلون المسلمين، فيقدمون رجلا ويؤخرون أُخْرَى، ويقولون: يا معشر المسلمين، أنتم أحبُّ إلينا من الروم، وإن كانوا علـى ديننـا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا من الروم، ولكنَّهـم قد غلبونا على منازلنا[1].

ذكـر البلاذري: أنَّه لما جمع هرقل للمسلمين الجمـوع، وبلغ المسلمين إقبالُهم إليهـم لوقعـة اليرمـوك، ردُّوا عَلَـى أهل حمـص ما كانوا أخـذوا منهم مـنَ الخراج، وقالوا: قَدْ شـغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم عَلَى أمركم، فقال أهل حمص: لَولايتُكـم وعدلكـم أحبُّ إلينا مما كنا فيـه منَ الظلم والغَشْـمِ، ولندفعنَّ جندَ هرقل عن المدينة مع عملكم، ونهض اليهود فقالوا: والتوراةِ، لا يدخل عاملُ هرقل مدينة حمص إلا أنْ نُغْلَبَ ونُجْهَدَ، فأغلقوا الأبوابَ، وحَرَّسُوها، وكذلك فعل أهل المدن الَّتِي صولحت منَ النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم عَلَى المسلمين صرنا إِلَى ما كنا عَلَيْهِ، وإلا فإنَّا عَلَى أمرنا ما بقيَ للمسلمين عددٌ[2].

ومِـنْ هُنَا يصِفُ جرونباوم (Grunebaum)[3] نهوضَ الإِسْـلاَمِ فِي الجَزِيْرَة بِأَنَّهُ «يقظَةُ ضَمِير قوميٍّ، لا مُجَرَّدَ إِئتِلاَفٍ قَبَلِيّ»[4]، وَهُوَ تعبير لا يتناقضُ مَعَ صيغةِ الانتماءِ فِـي الفكرِ التَّاريخيِّ الْمَسِيحِيِّ فِي جَزِيْرَة الْعَـرَب[5]، وتعجَّبَ أوليري (de،O،leary

---

(1) - ابن عساكر: تاريخ دمشق41/ 130.

(2) - فتوح البلدان، ص 139.

(3) - غوستاف غرونبوم Gustave E. von Grunebaum (1909 - 1972 م) مستشرق نمسوي. من أهم كتبه كتاب «إسلام العصور الوسطى» صدر في عام 1946 م. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين (جرونبوم).

(4) - G. E. Von. Grunebaum: **the Nature of the Arab Unity before Islam**، Arabica X (1963). p. 13.

(5) - فكتور سحاب: العرب وتاريخ المسألة المسيحيّة، (دار الوحدة للطباعة، بيروت 1986) ص 102.

Lacy)[1] ممـن يَعجَب لوقوفِ النَّصَارَى الْعَرَب، نَسَاطِرَةً ويَعَاقِبَةً، عَلَى الخصوص، فِي صَفِّ الإِسْلَام ضِدَّ بِيزَنْطَةَ والفرس عِنْدَ ظُهوره.

لَمَّـا هَمَّ المسلمـون بوضع الْجِزْيَة عَلَى أهـل الذِّمَّة بَعْدَ الفتح، أَبَـتْ قَبَائِل تَغْلِب وإيـاد وأنمار أداءها. وكانـت من القبائل العربيَّة ذات العدة والعدد والعزة والسطوة، فقال عمرو بن الأيهم التغلبي في تغلب[2]:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ تَغْلِبَ أَهْلُ عِزٍّ | جِبَالُ مَعَاقِلٍ لَا يُرْتَقَيْنَا

شربنا من دماء بني تميم | بأطراف القنا حتى روينا

ولمَّـا بلـغ ذَلِكَ عمر بن الخطَّاب فاسـتشار أصحابـه فقال لَهُ بعضُهم «هُـمْ وَاللَّهِ الْعَرَبُ، يَأْنَفُونَ مِنَ الْجِزْيَة، وَهُمْ قَوْمٌ شَدِيدَةٌ نِكَايَتُهُمْ، فَلَا تُعِنْ عَدُوَّكَ بِهِمْ»[3]. فوافق ذَلِكَ مَا فِي نفسه ففرض عَلَيْهِمْ الصّدقة كَمَا تفرض عَلَى الْمُسْلِمِينَ[4].

فـي الوقـت الذي اعتمـد بعض المؤرخيـن الغربيّيـن[5] مقاربة: هجـرة قبيلة إياد الـى الأناضـول، وعرب من قبائل أخرى تبعتهم، كان قد سـهَّلَ هرب القبائل العربيَّة المسيحيَّة، مما أضعف المقاومة المسيحيَّة للمدِّ الإسلامي. في حين أكّد المؤرخون المسلمون على حرص الخليفة عمر على الوجود العربي في جزيرة العرب، فقالوا: كَانَ عمر شديد المحافظة عَلَى الجامعة الْعَرَبِيّة، لا يأذن للعرب النَّصَارَى فِي التّوغل ببـلاد الرّوم، وإذا فعلوا اسـترجعهم، وخاطب ملـك الرّوم بشأنهم؛ لِأَنَّـهُ يرى ذَلِكَ حقـاً لَـهُ. وكان هذا الحـال مع الجراجمة، وهـي قبيلة مسيحيَّة تقيم بجـوار أنطاكية، بادروا بالصلح عَلَى أن يكونوا أعوانًا للمسلمين، وعيونًا ومسالح... وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأنْ ينفلوا أسـلابَ من يقتلونَ من عدو المسلمين، إذا حضروا معهم حربًا

---

(1) – دي لاسي أوليري: علوم اليونان، ص97.

(2) – كراع النمل الأزدي (ت309هـ): المنتخب من غريب كلام العرب، ص 725، ابن عبد ربه: العقد الفريد 6/ 353.

(3) – ابن زنجويه: الأموال 1/ 130؛ ابن قتيبة: المعارف 574.

(4) – البلاذري: فتوح البلدان 113، 140.

(5) – ولتر كيغي: بيزنطة والفتوحات الإسلامية، ص 333.

في مغازيهم[1].

يبدو أنَّ منهج الحفاظ على الوجود العربي أختلف لدى الخليفة مع غسان، القبيلة العربية الكبيرة، وكان جبلة ملك غسَّان أتى عُمَر بن الخطَّاب، وهو عَلَى نصرانيته، فعرض عُمَر عَلَيْهِ الإِسْلام وأداء الصدقة، فأبى ذلك، وقال: أقيم عَلَى ديني وأؤدي الصدقة. فقال عُمَر: إنْ أقمت عَلَى دينك فأدِّ الجزيةَ فانَفَ منها، فقال عُمَر: ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث، أما الإِسْلام، وأما أداء الجزية، وأما الذهاب إِلَى حيث شئت: فدخل بلاد الروم في ثلاثين ألفا، فلما بلغ ذلك عُمَر ندم وعاتبه عبادة بْن الصامت فقال لو قبلت منه الصدقة ثُمَّ تألفته لأسلم[2]. وقد أوردت مصادر الفتوح أنَّهم أسهموا بثقلهم في الحروب الأولى في فتوح الشام الى جانب البيزنطيين[3]. فضلا عن أنَّ مشروع الجامعة العربية شمل - فيما بعد - وحدة الدين في جزيرة العرب، وإخراج المَسِيحِيِّينَ من ديارهم نَجْرَان. ومن هنا نتجلى أنَّ ازدواجيَّة التعامل ومزاجِيَّته مع القبائل العربية المسيحيّة كان لها أثرٌ في مسار العلاقة الاسلاميّة المسيحيّة سواء كان في الحرب أو السلم.

أوردتْ المصادرُ أنَّ الوليدَ بنِ عقبةَ لَمَّا سار لفتح العِرَاق والجَزِيْرَة، إنْضَمَّ إلَيْهَا عربُها النَّصَارَى إلَّا قبيلةُ إياد، فإنَّهم تحمّلوا إلَى بِلادِ الرّومِ، وكتبَ الوليدُ إلَى عُمَرَ بِذَلِكَ، فكَتَبَ عُمَرُ إلَى مَلِكِ الرّومِ: بَلَغَنِي أَنَّ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ تَرَكَ دَارَنَا، وَأَتَى دَارَكَ، فَوَ اللَّهِ، لَتُخْرِجَنَّهُ إِلَيْنَا، أَوْ لَنُخْرِجَنَّ النَّصَارَى إِلَيْكَ. فَأَخْرَجَهُمْ مَلِكُ الرّومِ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ، وَتَفَرَّقَ بَقِيَّتُهُمْ فِي مَا يَلِي الشّامَ وَالْجَزِيْرَة مِنْ بِلَادِ الرّومِ[4].

ويظهرُ أنَّ الْعَرَب الْمُتَنَصِّرَين - فِي إِبَّانَ حكم الرّوم - لَمْ يكونوا مرتاحين إلَى

(1) - فتوح البلدان، ص 160.
(2) - البلاذري: م.ن، ص 138.
(3) - الواقدي: فتوح الشام 1/ 150، 164.
(4) - الطبري: تاريخ الرّسل والملوك4/ 55؛ ابن الأثير: الكامل فِي التاريخ 2/ 357؛ ابن خلدون: تاريخ 2/ 546.

ذَلِكَ الحكم، فَقَدْ ذكر البلاذري[1]، وأيّد أقواله بعضُ مُؤَرِّخي الإفرنج: إنَّ أوَّلَ مدينةٍ فتحَهـا الْمُسْلِمون فِي فلسْطِين كَانَتْ غَزَّة. وأسـبابُ فتحِها أَنَّهُ كَانَ يسْكن - وقتئذٍ - فِي جنوبِ غزَّة قومٌ من قَبَائِل الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرِينَ، وَكَانَ قَدْ أصابَهم من قِبَلِ ولاةِ الرّومِ عَسَفٌ وجَوْرٌ. فالتّجأوا إِلَى عَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ، ودعَوهُم إِلَى فلسطينَ، فلبُّوا دَعْوَتَهم وزَحَفُـوا عَلَـى غـزَّة فِي (28/ ذو القعـدة 11/ 12هـ = 4/ شـباط / 634م) وظَفَرُوا بجَيْشِ الرّوم، وفتَحوا المدينة، وبعد أيَّام قليلةٍ أتمُّوا فتحَ بقيَّةِ مُدُنِ فلسطين[2].

وَفِـي العِـرَاق يؤكد المُؤَرِّخ جـورج البنّا[3] أنَّـهُ: «عندما دخل الْعَـرَب الْمُسْلِمون الفاتحـون العِرَاق رَحَّبَ بِهِـمْ الْمَسِيحِيّون ترحيبًا لا مَزِيدَ عَلَيْـهِ، لأَنَّهُمْ عربٌ، وملّوا حكْـمَ وظلْمَ الفـرس. وانزلوا جنودهم فِـي البِيَع والأَدْيِـرَة. وقـدَّمَ البِطْرِيَرك مارامة (647 - 649 م)[4] الميـرة والأرزاق إِلَى جيش الْمُسْلِمِينَ، وسـاعدهم فِي فَتْحِ مدينة الموصـل». ويشير ماري بن سـليمان[5] إِلَى أنّ الخليفـة عَلِيّ بن أبي طالب كتب إِلَى مارما «كتابا بالوصاة عَلَيْهِ بالنَّصَارَى، ورعاية ذِمَّتِهم، وَكَانَ يظهره لِكُلّ من يتولى من رؤساء الجيوش وأمرائهم فيمتثلونه».

بَيْـدَ أَنَّ الْمَسِيحِيِّـينَ لَـمْ تَكُـنْ لَدَيْهِـمْ مطامـع سِيَاسِـيَّة، وَقَدْ تطوَّع قسـم كثير من عـرب العِـرَاق الْمَسِيحِيِّينَ، وحاربوا مَعَ إخوانهم الْمُسْلِمِيـنَ، وعاونوهم فِي معارك فتـح العِرَاق، وَكَانَ لسكان الحِيرَة الْمَسِيحِيِّـينَ دورٌ كبير فِي مؤازرة إخوانهم الْعَرَب الْمُسْلِمِيـنَ، ولعـل مرجع ذلك الـى انفصام الوئام والثقة بين أهـل الحيرة وبين دولة فـارس؛ لقتلها النعمان بن المنذر، والفتك بـأولاده، وإزالة الملك من آل نصر. وفي

---

(1) - فتوح البلدان، ص 140.

(2) - نقولا الخوري: «أصل المسيحيّين فِي سوريا وفلسطين مِنْذُ فجر التاريخ حَتَّى الفتح العَرَبِّي». دراسات سريانية، ص160.

(3) - الموسوعة الكلدانية، سلسلة بطاركة الكلدان، ص72.

(4) - أسقف نينوى وعقدت لَهُ الفطركة فِي المدائن لمعاونته جيش المُسْلِمين فِي فتح الموصل. ماري بن سليمان: أخبار بطاركة كرسي المشرق، ص69.

(5) - م. ن. ص69.

إثرها انتفضت قبائل العراق على حكومة المدائن، وكانت وقعة ذي قار، التي سجل فيها العرب أول نصر على العجم.

هنا استشعر العرب المسلمون الطمأنينة مع نصارى الحِيرَة، فاتخذوا مدينتهم مقرًّا لحركات الفتوح في المشرق. ولا مناص من بذار النوايا الحسنة وتبادل الثقة بين الطرفين، فيضطلع النصارى بمهام انسانية في الحرب؛ بخاصة لما ترك المسلمون فِي الحيرة عيالات أهل الأيام، وأرسلوا إِلَيْهِمْ دقيقا وغنما وبقرا، كَانَ دليل الَّذِينَ ذهبوا بنصيب العيالات اللواتى بالقوادس إِلَى الحِيرَة عمرو بن عبد الْمَسِيح بن بقيلة[1]. لا شك أنَّ هَذِهِ المُمَارَسَات الاولى، تَجَلَّت عن بوادِرُ الثِّقةِ فِي التّعامل الجاد فِي المواقف الصّعبة والدّقيقة بَيْنَ الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَب والمُسْلِمِينَ، مِمَّا يُديم أهليَّة التَعَايُش، ويعزز بقاء الْمَسِيحِيَّة بَيْنَ قَبَائِل عرب العِرَاق زمنًا بَعْدَ الفتح فِي الحِيرَة والكوفة والأنبار.

لم يكن موقف غير المَسِيحِيِّينَ من الفتوح الإسلامية مختلفا، فقد كان اليهود يعيشون في الأماكن التي يقطنون فيها كأقليَّات دينيَّة، ولما تقدَّمت الجيوش الإسلاميَّة ضدَّ البيزنطيين والفُرس، فإنَّها لم تهاجم اليهود مباشرةً، على الرغم من أنَّ بعض اليهود اختاروا الالتحاق بمضيِّفيهم في الدفاع ضدَّ الغزوات. لكنَّ اليهود اختاروا – في غالبية الأحوال – إما عدم مقاومة المسلمين، أو التعاون النشيط معهم. فقد ساعد اليهود في حمص على منع الجيش الروماني من الدخول للدفاع عن المدينة. وساعد اليهود المسلمين على اختراق دفاعات مدينتي الخليل وسيزاريا (قيصرية: جنوب حيفا). وقاموا بثورة مسلحة في أسبانيا ضد حكامهم المَسِيحِيِّينَ، وعينوا من قبل المسلمين في محميات عسكرية لإبقاء المدن الأسبانية تحت سيطرة الإسلام[2].

---

(1) – الطبري: تاريخ الرّسل 3/ 469؛ الكلاعي: الاكتفاء بِمَا تضمنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء 2/ 425.

(2) – فيرستون: ذرية إبراهيم، ص50.

تظـلُّ العهود والضَّمانـات، الَّتِي منحها الْمُسْلِمـون للمَسِيحِيِّـنَ، مرفأ اطمئنان، ودستورَ تعامل، إِذَا مَا إحترمها المتعاهدون. فَقَدْ خُوِّلَ قادةُ الْفُتُوح بأنْ يكتبوا العهودَ فِـي العِرَاق والشّام ومصر والأَمْصَـار الأخرى؛ ويُسَجِّل الطّبـري[1]: أَنَّهُ عندما دخل خَالِد بن الوليد إِلَى الحِيرَة، كتب فِي (ربيع الأول - 12هـ/ حزيران - 633م) معاهدةً مَعَ أهلها مطلعها: «هَذَا مَا عاهدَ عَلَيْهِ خَالِد بن الوليد عَدِيًّا وعَمْرًا ابني عَدِي، وعمرو بن عبد الْمَسِيح، وإياس بن قبيصة، وحيري بن أكال؛ وَهُمْ نقباء أهل الحِيرَة».

وَمِنْهَـا - بحَسَـبِ المصـادر الْمَسِيحِيَّة[2] - عهد الخليفة عمـر بن الخطَّاب لأهل المدائـن، وبهـر سـير، والجاثليـق بِهَا، وقسَّانهـا، وشـمامستها. جعله عهـدا مرعيًا، وسِـجِلّا منشورا، وسُـنَّة ماضية فِيهِمْ، وذِمّةً محفوظة لَهُمْ. وَمِمَّـا وَرَدَ فِيهِ: «ولا يُغَيَّر أُسْـقُفٌ من أساقِفَتِكُمْ، ولا رئيسٌ من رؤسائكم، ولا يُهْدَم بيْتٌ من بيوتِ صلواتِكم، ولا بِيْعَـةٌ مـن بِيَعَكـم، ولا يُدْخَـل شَـيْءٌ من بنائكـم إِلَى بنـاء المساجـدِ، ولا منازلِ الْمُسْلِمِينَ، ولا يُعْرَض لعابرِ سـبيلٍ منكم فِي أقْطار الأرض، ولا تُكَلَّفُوا الخروجَ مَعَ الْمُسْلِمِيـنَ إِلَى عدوّهم لمُلاقاةِ الحرْب. ولا يُجْبَر أحَدٌ ممن كَانَ عَلَى مِلَّة النَّصْرَانِيَّة عَلَـى الإِسْـلَام، كرهًا لَمَّا أنزل اللـه إِلَيْهِ كتابه: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ قَدْ تَّبَيَّنَ الرّشْـدُ مِنَ الْغَيِّ} (لبقرة256)، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالتي هِيَ أَحْسَنُ} (العنكبوت46). وتَكُفّ أيدي المكرُوه عنكم حَيْثُ كنتم».

وتدور الضَّمانات والعهود الممنوحة بمنظور الرّوايات الإِسْـلَامِيّة والْمَسِيحِيَّة[3]

(1) - م. س. 2/ 660.

(2) - «تأريخ النَّسْطُورِيّين» فِي مجموعة تأليفات الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis (ج 13 ص 620 - 623)، كَمَا نقلها: مُحَمَّد حيد الله: مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة، ص: 195؛ وقارن مَعَ: روفائيل بابو اسحق: نصارى العِرَاق، ص 72 - 73.

(3) - وردت نصوص المعاهدات فِي المصادر المسيحيّة القديمة والحديثة، ومنها تاريخ السّعرتي وتاريخ الكنيسة السّريانية الشّرقية الجزء 2، وكتاب خلاصة تاريخيّة للكنيسة الكلدانية للكاردينال اوجين تسران، وكتاب كنيسة المشرق الكلدانية الاثورية للأب يوسف حبي، وكتاب سلسلة بطاركة الكلدان للمؤرخ جورج البناء. سيّار الجميل: «المسيحيّون العِرَاقيون» ج3/ ق5، مجلة ألفا (elaph)، عدد: 11421، تاريخ 6/ 11/ 2010.

حول مَحاوِرَ عِدَّة، أهمّها: ان الْمُسْلِمِينَ يحمُون الْمَسِيحِيِّينَ، ويجعلونَهم يعيشون بسلام، ولا يضْطَرُّونَهم للذهاب إلَى الحرْبِ بمَعِيَتِهم، كَمَا يضْمِنُون لَهُمْ حُرِّيَّة العبادَة وبناء الكَنَائِس والأَدْيِرَة وإصلاحها، ولا يقسرونهم عَلَى اعتناق الإِسْلَام، بَلْ ويحترمون شرائعهم وعاداتهم وتقاليدهم[1].

جدير بالبيان، أنَّ المعاهداتِ مَعَ غيرِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَتْ خاضِعَةً لقواعد محدودة، بَلْ يتغيَّر محتواها حسْبَ الظّرف والمكان، تَارَةً لصالح غير الْمُسْلِمِينَ إنْ كَانُوا أقوياء، وَتَارَةً لغيرِ صالحِهم، إن لَمْ يكونوا فِي وضْعٍ يمكِّنُهم منَ الدّفاعِ عَنْ أنفُسِهم. وأنَّ بَنِي تَغْلب، القبيلة الَّتِي عُرِفَتْ بسطوتِها، التَزَمَ أغلبُ أفرادِها بالْمَسِيحِيَّة، وأبَتْ عَقْدَ عهْدِ الذِّمَّةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وعَقَدَ مَعَهُمْ الخليفةُ عُمَرُ عهدًا يخْتَلِفُ عَنْ العهود الأُخْرَى، محتواه اللين، إِذْ اكتفى الْمُسْلِمون بجمع الزكاة المُضاعَفَةِ، كَي لا يدفعون بِهِمْ إلَى التّحالف مَعَ الأعداء.

في عام 33ه/ 635م تخلص الأرمن من سيادة بيزنطة على بلادهم، وخضعوا بمحضِ إرادتهم للسيادة الإسلاميَّة، التي تركت لهم حريتَهم الدينيّة في ضوء معاهدة بينهم. انفرد المؤرخ الأرمني «سبيوس» بذكر النص الكامل لاتفاقية السلام بين الأرمن والمسلمين؛ تفاوض القائد العربي (والي الشام) مع الأرمن، وقال: اتفقنا أنا وأنتم، لمدة زمنية تحددونها أنتم، إنني سوف لا أُجبي أيَّةَ جزيةٍ منكم لمدة ثلاث سنوات. ولكن -طبقا لهذا التعهد- ستدفعون بعدها الجزية التي ترغبون في دفعها، ويَحِقُّ لكم أنْ يكون لكم في بلادكم جيشٌ مؤلف من خمسة عشر ألف فارس، تزودونه بالخبز (الطعام)، وسأضع هذا في اعتباري عند حساب الجزية. وسوف لا أطالب من فرسانكم المجيء الى بلاد الشام. لكن على هؤلاء الفرسان أن يكونوا على أهبة الإستعداد للذهاب الى أي مكان يؤمرون بالتوجه إليه ليحاربوا جنبا الى جنب معناضد أي اعتداء علينا. وسوف لا أرسل أيَّ أميرٍ الى قلاعكم، ولا

(1) - سيّار الجميل: «المسيحيّون العِرَاقيون» (ج3/ ق5).

أيَّ قائـد عربيّ، ولا فارس واحد. كذلك سـنقف بالمرصاد أمام مجيء أيَّ عدوٍّ الى أرمينية، فإذا زحف البيزنطيُّون لقتالكم، سأرسلُ جيوشا لنجدتكم، وستحددون أنتم أعداد هذه الجيوش، أتعهد بذلك أمام الله عزَّ وجلَّ»[1].

بيـد أن سـبيوس - قبل ذكر المعاهـدة - وصف المتعاهدين مـع الأرمن الأوائل والحاليين بكلمات تعبر عن امتعاضه من الهيمنة، قال: «تحالفُ الأرمن مع الموت (المسلمين) تخلصًا من تحالفهم مع الجحيم (البيزنطيين)، وبذلك رفض ثيودور[2] وكل الأرمن التحالف مع الله»[3]. وعلق سبيوس - بعد ذكر المحادثة - قائلا: هكذا أصبـح عدو المسيـح (معاوية) أعظم حلفاء الأرمن، ونجح فـي فصلهم عن السيادة البيزنطيـة[4]. كما وعلَّق المؤرخ الأرمني البطريك جـون كاثوليكوس (ق4ه/ 10م): «تحالـف الأرمـن مـع المـوت، وأقسموا علـى الإخـلاص للجحيم، وابتعـدوا عن الإمبراطور البيزنطي». وعقب على المعاهدة المؤرخ الفرنسي رينيه جورسيه Rene Grusset: «كان الخليفة المسلم أكثر عدلا ووفاءً مما منحه ملوك الساسـان من قبل لأرمينية، ذلك لأن الإسلام أقرب الى المسيحيّة منه الى المجوسيّة»[5].

تجـدر المعاينة الى هذه المعاهـدة بأنَّها تختلف بطبيعتها ونتائجها وصياغتها عن المعاهـدات التي توردها المصادر الإسـلاميّة، وهي مشحونة بسطوة الدولة وهيبتها وإذعان الآخر، بينما هذه المعاهدة فيها معاني المساواة، فهي أشبه باتفاقيات الدفاع المشتـرك المُبْرَمَـة بيـن دولتيـن، وفيها تعهـد العرب بالدفـاع عن الأرمـن، ومن ثم اعتراف بالحكم الذاتي، وأقرار بعدم ارسال أي حاكم او قائد عربي.

---

(1) - فائز نجيب اسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن في كتابات سبيوس، ص 49.

(2) - ثيودور الرشتوني Theodor Rishtuni، الزعيم الحقيقي للشعب الأرمني، توفي سنة 34هـ/ 645م.

نيكولاي هوفهانيسيان: «العلاقات التاريخية الأرمنية - العربية»، الهيأة الوطنية الأرمنية - الشرق الأوسط، موقع على النت. http: / /www.ancme.net /studies /350

(3) - اسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن، ص 49 - 50.

(4) - اسكندر: م. ن، ص 50.

(5) - اسكندر: م. ن، ص 50.

أَمَّا مَا ذكر من معاهدة بَيْنَ الخليفة عمر والْمَسِيحِيِّينَ فِي سُورِيَةَ، اشتهرت بـ«عهد عمـر» أَوْ «العهـدة» أَوْ «الشّروط العمرية»، فلها أَهَمِّيَةٌ كُبْرَى، إِذْ تحوي عَلَى شـروطِ عُمَر، فِيمَا يتَعَلّق بعلاقة الْمُسْلِمِينَ مَعَ أهل الذِّمَّة. يذكرها الطّرشوشـي (ت520هـ/ 1126م)[1] عَـنْ عبـد الرّحمن بن غنم (ت78هـ/ 697م): قَالَ: كتبنـا إِلَى عمر حِينَ صالح نَصَارَى أهل الشّام:

بسم الله الرّحمـن الرّحيم، هَذَا كتابٌ لعبد الله عمر أميـر المؤمنين، من نَصَارَى مدينـة كـذا، إِنَّكُمْ لَمَّا قدمتم عَلَيْنَا، سـألنّاكم الأمَانَ لأنفسِنا وذرارينـا وأموالِنّا وأهلِ ملَّتِنا، وشـرطنا لَكُـمْ عَلَى أنفسنا أنْ لا نُحـدثَ فِي مدائننا، ولا فِيمَـا حولها ديراً ولا كَنِيسَـة ولا قليـة ولا صومعة راهب، ولا نُجدِّدَ مَا خربَ مِنْهَا، ولا مَا كَانَ مختطًا مِنْهَا فِـي خطـط الْمُسْلِمِينَ فِي ليل ولا نهار، وأنْ نُوسِـعَ أبوابَها للمـارَّةِ وابنِ السّبيل، وأنْ نُنْـزِلَ مَـنْ مَرَّ بِنا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثـلاثَ لَيالٍ نُطْعِمَهُم، ولا نأوِي، فِـي كَنَائِسنا، ولا فِي منازلنـا، جاسوسـاً، ولا نكْتُمه عَـنْ الْمُسْلِمِيـنَ، ولا نُعَلِّم أولادَنا القُـرْآن، ولا نُظْهِر شـرْعَنا، ولا ندْعُو إِلَيْهِ أحداً، ولا نَمْنَع أحداً من ذَوِي قراباتِنا الدّخول فِي الإِسْـلَام، إنْ أرادَه، وأنْ نُوقِّـر الْمُسْلِمِيـنَ، ونقـومُ لَهُمْ مـنْ مجالسِّنـا، إِذَا أرادوا الجُلوسَ، ولا نتشبَّه بِهِمْ فِي شـيء من لباسـهم: فِي قلنسوة، ولا عمامةٍ، ولا نعلينِ، ولا فرقِ شعرٍ، ولا نتكلَّـم بكلامهم، ولا نتكنَّى بكُناهم، ولا نرْكَـب بالسّروج، ولا نتقلَّد بالسّيوف، ولا نتَّخذ شـيْئًا من السّـلاح، ولا نحمِله معنا، ولا ننْقش عَلَـى خواتِمنا بالْعَرَبِيّة، ولا نبيع الخمورَ، وأنْ نَجزَّ مقادمَ رؤوسِـنا، ونلزِمَ زَيَّنـا حيثُما كُنَّا، وأن نشُدَّ الزنانيرَ عَلَى أوسـاطِنا، ولا نُظهِر صلبانَنا وكُتُبَنا فِي شـيْءٍ من طرقِ الْمُسْلِمِينَ ولا أسـواقِهم، ولا نضربُ نواقيسَنا فِي كَنَائِسنا إلا ضربًا خفيفًا، ولا نرفع أصواتَنا بالقراءةِ فِي كَنَائِسنا فِي حضـرةِ الْمُسْلِمِيـنَ، ولا نرفع أصواتَنا مَعَ موتانا ولا نُظْهِر النّيرانَ فِي شـيْءٍ من طُرُقِ الْمُسْلِمِيـنَ ولا أسْـواقِهم، ولا نُجاوِزُهم بموتانا، ولا نتخذ مـن الرّقيق مَا جرى عَلَيْهِ

(1) - الطرطوشي: سراج الملوك ص 135.

سِهام الْمُسْلِمِينَ، ولا نطَّلِع عَلَى منازِلِهم.

يبـدو للمُتَمَعِّـن فِي هَذِهِ المعاهدة، أَنَّهُ نصٌّ جاهـزٌ لِكُلِّ بلد، فِي حِين المعاهدات الأخرى، صيغت بحَسَبِ ظروف كُلِّ بلد وأهله، وما يُمْلِيه الفاتحُ، ويُدوَّن اسْمُ البلد، ولذا هِيَ مُخْتَلفة من بلد إِلَى آخر. وَهَذَا العهد جاء جامعا لأغلب مَا فِي المعاهدات مـن عبـارات، ولذا تميـزت بطولها عَـنْ باقي المعاهـدات، وأسـلوبها تقريري ذاتي يشوبُـه الإحبـاط، والعهود الأُخْـرَى مفعمة بلغة الأمـر، ويكتنفها الظّفـر. فَضْلًا عَنْ أَنَّ فِـي «الشـروط العمريـة» عباراتٍ تَمَـسُ حُقُوقَ أَهْلِ البَلَـدِ الدِّينِيَّـة والإِجْتِمَاعِيَّة، وتَسْلُبُهُمْ مَحَاسِـنَ وُجُودِهِمْ، وَتَبْخَسُ تَفَاعِلَهُمْ فِي المُجْتَمَع، وتشتمل عَلَى تناقُضٍ، لا يقرُّه الفكر الإِسْلَامِيّ، بَيْنَ عدم منع الدّخول فِي الإِسْلَام، وَبَيْنَ عدم قراءة القُرْآن، وتعليمه.

نتحصَّـل أنّها غريبة عَنْ مُطْلَق الكُتُب والمعاهدات الإِسْـلَاميّة، وأكبرُ الظّنّ، أنّها كُتِبتْ مَا بَعْدَ عصر المتوكل العباسـي (232 – 247هـ/ 846 – 861م)، الَّذِي أقْصَى اليَهُـودَ والنَّصَـارَى، وَلَمْ يستعمِلْهُمْ، وأذَلَّهُـمْ[1]، حَيْثُ تملأ الْولاَيَةُ العباسـيَّة الدّنْيَا، وتعـود الْكَنَائِس مَسَاجِد، والمذابح المستعبدة معابـد، والصَّلِيب الْمَرْفُوع حطبًا فِي المواقـد، والنّاقـوس الصّهل أخـرس اللهجة فِـي الْمَشَاهد[2]. وعزَّزهـا عصر فقهاء الدّولـة الَّذِينَ اختلفـوا فِي مبلغ الْجِزْيَة[3]، وبالغوا فِي تفسير أحكامهم، فَمَنَعوهُمْ مِنَ التكَلُّم بِكَلَامِ الْعَرَبِ لِئَلَّا يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ، كَمَا مُنِعُوا مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي زِيِّهِمْ وَلِبَاسِهِمْ وَمَرَاكِبِهِمْ وَهَيْئَاتِ شُعُورِهِمْ[4].

زِدْ عَلَـى ذَلِـكَ، إنَّ هَذِهِ المعاهدة لَمْ تذكرها مصـادر الْفُتُوح والسّير الأولى، الَّتِي دُوِنَـتْ فِيهَـا الكُتُبُ والمواثيقُ مَـعَ أهلِ الذِّمَّة، بَـلْ طفقَ ذكرُها فِـي القَرْن 6ه/ 12م،

---

(1) – الطرطوشي: سراج الملوك ص 136.

(2) – أبو شامة، عبد الرّحمن المقدسي (ت665هـ): عيون الرّوضتين في أخبار الدولتين النّورية والصّلاحية، (مؤسسة الرّسالة، بيروت، 1997) 3/ 183.

(3) – تاريخ دمشق2/ 121، 2/ 176، 177،179.

(4) – ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة 3/ 1313.

وذكرها ابن عساكر (ت571هـ/ 1176م) فِي أشكال عِدَّةٍ[1]، مَرَّةً كَانَ القائد أَبُو عُبَيْدَة، بواسطة أبي مَخْنَف لوط بن يحيى (ت157هـ/ 774م)، وَأُخْرَى عبد الرَّحمَن بن غنم. وشرحها ابن قيِّم الجوزية (ت751هـ/ 1385م)، وبنَى عَلَيْهَا أحكامَ أهل الذِّمَّة فِي ستَّة فصول[2].

ثَمَّةَ دراسةٌ توثيقية للعهدة العمرية[3]، رِوَايَة ودرايةً، تبيَّن - من خلال التتبُّع - وجودَ عدَّة نصوص للعُهْدَةِ، خلُصَتْ إلى عدم إمكانيَّة إثبات أيِّ نصٍ للعهدة من الناحية الحديثيَّة، حسْبَ مقاييس النقدِ عنْدَ المُحَدِّثين، وكذلك ردّ ما يسمى بالشروط العمريَّة لضُعفِ أسانيدها. فضلا عن هذا شكك بعض المستشرقين بأصالتها، ولاسيَّما «دي غويه De Goeie» و«كيتاني Caetani» قد أقاما الدليلَ، الذي لا يدَعُ مجالًا للشكِّ، على أنَّ هذه القيود قد أُسْتُحْدِثَتْ في بعض العصورِ المتأخرةِ، ومع ذلك فقد قَبِلَ فقهاءُ المسلمينَ، الذين عاشوا في أزمانٍ، أقلَّ تسامحًا، هذه العهودَ على أنَّها صحيحةٌ، ومن ثَمَّ كانتْ على جانبٍ من الأهميَّة في تكوينِ حكمٍ عن حالةِ الكنائسِ المسيحيَّة في ظلِّ الحكمِ الإسلاميِّ[4].

إسهام الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَب فِي الْفُتُوح:

إِذَا مَا تضرَّرَ قِسْمٌ من الْمَسِيحِيِّينَ فِي زمَن الْفُتُوح، لأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى قرب جُغْرَافِيٍّ وديمغرافيٍّ مَعَ بِيزَنْطَةَ أَوْ فَارِسَ، وما يترتَّبُ عَلَيْهِ من مصالحَ، فكثيرًا مَا استغلت بِيزَنْطا الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَب تَحْتَ وطأة وحدة الدِّين، ووعود غامِرة بمصالح مستقبليَّة أفضل، لتقديمهم فِي مواجهة الْعَرَب الْمُسْلِمِينَ، وقسْم من مسيحي الْعَرَب فِي العِرَاق والجَزِيْرَة، وما تربطُهم من مصالحَ ستراتيجيَّة وتبعيَّة سِيَاسِيّة مَعَ فَارِسَ، وقفتْ معها فِي مواجهة الْعَرَب الْمُسْلِمِينَ، غير أنَّ هَذَا لا يُعَدُّ موقفًا لازمًا لجميع

---

(1) - الطرطوشي: م. س. ص 136.
(2) - أحكام أهل الذمة 3/ 1167، 1346.
(3) - رمضان إسحاق الزيان: «روايات العهدة العمرية دراسة توثيقية»، مجلة الجامعة الإسلامية (المجلد الرابع عشر - العدد الثاني يونيو، 2006) ص169 - 203.
(4) - أرنولد: الدعوة الى الإسلام، ص 75.

الْمَسِيحِيِّينَ، أَوْ لأغلبهم، إِذْ ان القَبَائِل الْعَرَبِيّة - بحَسَبِ طبيعتها الْمُسْتَمَدَّة من الصّحراء - تتوافر عَلَى شَخْصِيَّة تحْيَى فِي فضاءٍ من الْحُرِّيَّة وقِلَّة التّبعيَّة للدول، وأنَّها تميل إِلَى أصلِ الْعَرَوبة، وتواشج القَبَائِل الْعَرَبِيّة نسبيًا وسببيًا فِي المصاهرة، وَهَذَا مَا استثمره الْعَرَب الْمُسْلِمون، فِي محاولة اجتذاب قَبَائِل وشخصياتٍ مَسِيحِيَّة عَرَبِيّة، إِلَى أَنْ تشاركَ مَعَهُمْ فِي الْفُتُوح، وتتَجَلَّى الفكرةُ فِي مقولة الخليفة عمر: «والله لأضربَنَّ ملوكَ العجم بملوك الْعَرَب»، فَلَمْ يدَعْ رئيسًا، ولا ذا رأيٍ وشَرَفٍ وبِسْطَةٍ، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا، إلّا رماهم بِهِ، فرماهم بوجوه النّاس[1]. وَكَانُوا عَلَى الأقلِّ يضمِنون حيادهم.

اختلفت مُقَارَبَات الباحثين فِي أسباب انحياز قسم من الْعَرَب الْمُتَنَصِّرَة إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فيرى بعضهم[2]: إِنَّ انحياز قَبَائِل: لخْم، وجُذام، وغَسَّان، وعامِلة، والقيْن، وقُضاعَة - إِلَى الْمُسْلِمِينَ قائم عَلَى مصلحة البقاء مَعَ الأَقْوَى والْمُنْتَصِر، وبَعْدَ أَنْ أدركوا أنَّ كفَّةَ الصّراع بدأت تميلُ لصالح الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ تردَّد نَصَارَى «فَحْل»؛ ولذا أَنَّ القَبَائِلَ الْمُتَنَصِّرَة كَانَتْ تغيِّر مواقفَها من الْمُسْلِمِينَ، كلما جمع البِيزَنْطيون حشدًا جديدًا، وَكَانَتْ أكثر القَبَائِل الَّتِي كَانَتْ لها مصلحة بالارتباط بالبِيزَنْطيين هُمْ الغساسنة، ويبدو أَنَّ إنتصار الْمُسْلِمِينَ فِي معركة أجنادين، قَدْ جعل القَبَائِل الْمُتَنَصِّرَة، تفكر جدِّيًا فِي الانحياز إِلَى أحد الجانبين.

ويرجع أدمون رباط[3] قبول الْفُتُوحات الْعَرَبِيّة إِلَى أَنَّ مِن الطّبيعةِ الإِنْسَانِيَّة أَنْ تُولِّدَ الانقساماتُ اللاهُوتِيَّةُ فِي تاريخِ الْمَسِيحِيَّةِ، والاضطهاداتُ الدّينِيَّةُ، نُفُورًا وكراهِيَّةً وعِدَاءً فِي بلاد الشام ومِصْرَ، حِيَالَ الإغريقِ فِي بِيزَنْطَةَ، كَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ

(1) ابن خلدون: تاريخ 2/ 523.

(2) مُحَمَّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين الفتوحات والإنجازات السّياسيّة، ص 239؛ وانظر: مُحَمَّد عبد القادر خريسات: «دور العرب المتنصرة فِي الفتوحات»، ضِمْنَ بحوث المؤتمر الدولي الرّابع لتأريخ بلاد الشّام - 1985م.

(3) - أدمون رباط: «المسيحيّون فِي الشرّق قبل الاسلام» ص 15 - 29، بحث في كتاب المسيحيّون العرب، ص25.

الحالـةُ النّفسيّـةُ فِي العِرَاق تجَاهَ السّاسانيِّينَ الفُـرْسِ، الَّذِينَ لَمْ يمتنعُوا هُمْ - أيضًا - عَـنْ اللجوءِ إلَى العُنْـفِ، وسفكِ الدّماءِ لإخضاعِ الْمَسِيحِيِّينَ، مـن نَسَاطِرَة ويَعَاقِبَة، إلَى سَيَاسَتِهِمْ المَجُوسِيَّة.

كـاد التعليـل الديني لتوضيـح نتائج معارك الفتـوح من انتصـارات او انهيارات، يشيـعُ في أنظـار المسلميـن والمسيحيـن، وترجمَ تلك النظـرةَ مؤرخـو الفتوح من لـدُنِ الطرفين[1]. ولو قرأنا إفاداتِ قدماءِ الكُتَّابِ الْكَنَسِيّـِينِ، لوجدْنَا أنَّهُمْ لَجَأُوا إلَى التّفسيـرِ اللاَهُوتِـيّ، إذْ أرْجَعُـوا هَذَا التّغييرَ إلَى إشَـاءَةِ اللهِ، عقوبةً للـرومِ الظّالمينَ، وخلاصًـا للمظلومين؛ وحَسْبُنا الاستشهادُ بقولِ مِيخَائِيل السّرْيانِيّ، بِطْرِيك السّريان الأرثوذكـس، بَعْـدَ خمسة قرون من الفتح، وَفِي تاريخـه الطّويل نجدُ عبارات: «لأنّ اللـه هُوَ المنتقم الأعظم، الَّذِي وحده عَلَى كُلِّ شـيء قدير، والـذّي وحده إنَّمَا يبدّل ملك البشر كَمَا يشاء، فيهبُه لمن يشاء، ويرفع الوضيع بدلاً من المتكبّر، ولأنّ الله قَدْ رأى مَـا كَانَ يقترفه الرّوم من أعمال الشّر، من نهب كَنَائِسنا ودياراتنا، وتعذيبنا بدون أيّة رحمة، فإنَّمَا قَدْ أتى من مناطق الجنوب ببني إسماعيل، لتحريرنا من نير الرّوم... وَهَكَذَا كَانَ خلاصُنا عَلَى أيديهِم مِن ظُلْمِ الرّومِ وشرورِهم وحقدِهم واضطهاداتِهم وفظاعاتِهم نَحْوَنَا»[2].

أمـا يوحنـا النيقوسـي (ق1هـ/ 7م)، الذي مـا فتئ يذكـر الاضطهاد الـذي أنزله المسلمـون بالمصريّيـن، وينـدِّد بمـا أنزلـه عمـرو بـن العـاص بالأقبـاط مـن عنف واضطهاد، ومضاعفة الضرائـب على الفلاحين، حتى باع المصريون أولادَهم لدفع الضريبـة؛ كمـا أنّه وصف عمـرا بـ«الشيطـان يستعبد مصر» وأنّـه «المخلوق الكريه الـذي استولـى علـى كـل ممتلكـات المَسِيحِيِّـنَ الهاربين»[3]. غيـر أنّه حَمِـلَ رؤيةً مسيحيَّة معاصرة للفتح الإسلاميِّ، إذْ ترجمَ صوت المجتمع المصري بنزول النقمة

(1) - ولتر كيغي: بيزنطة والفتوحات الإسلامية، ص 350.
(2) - أدمون رباط: المسيحيّون في الشرق قبل الإسلام، ص26.
(3) - عيتاني: الفتوحات العربية في رواية المغلوبين، ص114، نقلا عن حوليات يوحنا.

الإلهيـة وسوء العاقبة للحاكمين الرومان: بأنَّ طردَ الرومان وانتصار المسلمين ليس سـوى عاقبةٍ لطغيان الإمبراطـور هرقل، وما فعله بالأرثوذكس من أفاعيل[1]، وذهب أبعد من هذا الى أنَّ« الله حطَّ آمالهم وسلَّم المَسِيحِيِّينَ الى أعدائهم»[2].

لَعَـلَّ هَذَا الموقفَ الدِّينِيَّ الأخلاقيَّ، المُتَمَثِّلَ فِي نبذِ الإضطهادِ المَذْهَبِيِّ، أسهم فـي فصلهم تماما عن رِبْقَـةِ المسيحيَّـة البيزنطيَّة، ودفعَهُـم إلَى تَحْقِيْقِ شـخصيتِهم الدِّينِيَّة المستقلَّةِ، فِي الوقوفِ إلَى جِوَارِ أشـقائِهم الْعَـرَبِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ أضْحَوْا أعلَى مراكزِ القُوَّةِ فِي المنطقة.

ثمَّـةَ رأي، صدحـتْ به بعـض الكتابات المسيحيَّـة، ينصُّ علـى سياسيَّة السبب، ويعدُّ المسلمين كمثل الفُرْسِ، طالبي غزو وتسلط وجزية، بحسب سبيوس. وترسم «الحوليـات النسطوريـة» صورة تقريضيَّـة للدين الإسلامي، ترى فيهـا محمدا قائدا حربيـا، إذ نقرأ فيهـا أنّ الله حرض على الفرس، غزوة يقودهـا محمَّد ضمَّت حشْدًا مـن أبنـاء اسماعيل كرمل البحر، لا يُكال، ولا يُعَدُّ، ولم تفلـحْ أيَّةُ أسوارٍ، أو أبواب، أو أسلحةٍ، أو دروعٍ معهم[3].

في حين اتَّجه «ولتر كيغي»[4] الى منحى أكثر واقعيَّة، إذْ خرج من أحاديَّة السبب، وعزاها الى التطورات السياسيَّة والتغيرات الدينيَّة، فيرى أن الفتوحات الإسلامية لم تكـنْ أمرًا محتومًا، غير أنَّ تراكميَّةَ الأحداثِ والتبـدلاتِ الدينيَّةَ كانتْ حافزًا ومؤثِّرًا فـي انعطافَـةٍ بوصلـةِ النجـاح في هذه الفتـوح. ولعل انقطـاع المسيحييـن في البلاد المفتوحـة، عن ربقـة بيزنطا، دعاهم الـى التكيف مع الوضع الجديـد، وقبول الأمر الواقع، إذ تقطعت سبل العلاقة مع الامبراطورية الرومانية، التي كان تأثير الفتوحات

---

(1) - يوحنا النيقوسي: تاريخ العالم القديم ودخول العرب مصر، ص233؛ تاريخ مصر ليوحنا النيقوسي، رؤية قبطية للفتح الإسلامي، (عين للدراسات، القاهرة، 2003)، ص458.

(2) - عيتاني: الفتوحات العربية في رواية المغلوبين، ص122.

(3) - آلان دوسلييه: مسيحيو الشرق والاسلام، ص69. نقلا عن الحوليات النسطورية المغفلة hronique anonyme nestorienne.

(4) - بيزنطة والفتوحات الإسلامية، ص349.

الإسلامية، في ما بقي منها، كبيرا، وزاد في انقسامها على نحو أفدح[1].

ومهما يَكُنْ من سبب فَقَدْ فضَّل كثيرٌ من الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَب أنْ يقفوا مَعَ ابناء جلدتهم، فِي مواجهة الفرس، ولاسِيَّمَا فِي مدينتي الحِيرَة وبيروزشابور «Peroz Shapur» (الأنبار)؛ لأنَّهُمْ كَانُوا حانقين عَلَى الفرس الَّذِينَ اضطهدوا ملوكهم المناذرة، وقرضوا دولتهم، ونزل الْعَرَب فِي الحِيرَة بالكَنَائِس والأَدْيِرَة[2].

وسواء كَانَتْ وقفة الْمَسِيحِيِّينَ مَعَ ابناء جلدتهم أفرادا أَوْ قَبَائِل، فَهِيَ مُمَارَسَات ذات صدى تاريخيّ وقِيمِيّ فِي معرض التّقليد الْعَرَبِيّ، وعلى سبيل المثال: أَبُو زبيد الطّائي[3] كَانَ نَصْرَانِيًا، قدم الحِيرَة لبعض أموره، فحضَر مَعَ المثنى، وقاتل حِينَئِذٍ حَمِيّةً للعربية[4]. وَفِي معركة الجسر سنة (13هـ/ 634م) خرج أهل «أليس» عَلَى أصحابِ الأمْرِ فِيهَا، فأتوا بِهِمْ أَسْرَى، وعقدُوا مَعَ الْمُثَنَّى بن حارثة مُهَادَنَةً. وبعثَ المثنّى الرّسلَ فِي مَنْ يَلِيهِ مِن الْعَرَب، فَوَافُوهُ فِي جموعٍ عظيمةٍ، حَتَّى نَصَارَى بني النّمرِ جاءُوه، وَعَلَيْهِمْ أنس بن هلال، وَقَالُوا: نقاتلُ مَعَ قومِنا[5]. وقَدِمَ ابنُ مردى الفهر التَغْلِبِي، فِي أُنَاسٍ من بني تَغْلِبَ نَصَارَى، وجُلّابٍ جَلَبُوا خَيْلًا، وَقَالُوا – حِينَ رَأوا نزولَ الْعَرَب بالعجم: نُقَاتِلُ مَعَ قَوْمِنا. وَكَذَلِكَ قَالَتْ فِتْيَةٌ مِن بَنِي تَغْلُب فِي يوم الْبُوَيْب لَمَّا جلبوا خيلا للعرب[6].

---

(1) – جون. ب. نوس John. B. Noss: «المسيحية»، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، موسوعة تاريخ الأديان، تحرير: فراس السواح، 5/ 287

(2) – ادي شي: كلدو وآثور 2/ 252.

(3) اسْمُهُ حَرْمَلَةُ بْنُ الْمُنْذِرِ النّصرانّي، شاعر مشهور مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ولم يسلم، وَكَانَ أَبُو زبيد يجالسّ الوليد بْن عقبة، صفيا لَهُ، فَأَدْخَلَهُ عَلَى عُثْمَانَ فَاسْتَنْشَدَهُ شَيْئًا من شعره. ابن سلّام، مُحَمَّد الجمحي (ت 232هـ: طبقات فحول الشّعراء، (دار المدني، جدة) 2/ 593؛ أَبُو الفرج الاصفهاني: الاغاني (12/ 148 – 163؛ تاريخ دمشق 12/ 320 – 327؛ الرّوض الأنف 6/ 164؛ تاريخ الإسلام 3/ 359؛ البداية والنّهاية 7/ 248؛ ابن خلدون: تاريخ 2/ 525.

(4) – فتوح البلدان، ص 248؛ الكامل فِي التاريخ 2/ 278؛ ابن خلدون: التاريخ 2/ 522.

(5) ابن خلدون: م. ن. 2/ 522.

(6) – الطبري: تاريخ الرّسل والملوك 3/ 464؛ الكلاعي: الاكتفاء بِماَ تضمنه من مغازي رسول الله 2/ 421؛ روفائيل بابو اسحاق: تاريخ نصارى العِرّاق ص58.

لَمَّا طال القتال واشتد فِي البُوَيْبِ، عمَدَ المثنى إِلَى أنس بْن هلال، فقال: يا أنسُ، إنَّـكَ امرؤ عَرَبِيٌّ، وإن لَمْ تَكُنْ عَلَى ديننا، فإذا رأيتني قَدْ حملتُ عَلَى مهران (مرزبان الفُـرس) فاحمـلْ معي، وَقَالَ لابن مردى الفهر مثل ذَلِكَ، فأجابه فحمل المثنى عَلَى مهـران، فأزالـه حَتَّى دخل فِي ميمنتـه، ثُمَّ خالطوهم، واجتمع القلبـان وارتفع الغبار والمجنبـات تقتَتِـلُ،... وأوجع قلبُ الْمُسْلِمِينَ فِي قلـبِ المشركين، وقَتَلَ غلامٌ من التّغلبيِّين نَصْرانيٌّ مهرانَ، واستوى عَلَى فرسِه، ثُمَّ انتمى: أنا الغلامُ التَغْلِبيُّ، أنا قتلت المرزبان؛ فجعل المثنَّى سلبَه لصاحبِ خيلِه[1].

كَانَـتْ نصرة الْمَسِيحِيِّينَ جليَّةً يوم تكريـت سنة (16هـ/ 637م)، إثر اِجْتِمَاعِ أهل الموصل إِلَى الأنطاق، وإقباله بِهِمْ إِلَى تكريت حَتَّى نزل بِهَا، وَقَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِـنَ الـرّومِ، وَمِنَ الشّهَارِجَـةِ[2]، وَمِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ، مِـنْ إِيَادٍ وَتَغْلِـبَ وَالنّمِرِ، وَقَدْ خَنْدَقُوا بِتَكْرِيتَ، فَحَاصَرَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَمِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَزَاحَفُوهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً، مَا مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَيَنْتَصِرُ عَلَيْهِمْ، وَيَفُلُّ جُمُوعَهُمْ، فَضَعُفَ جَأْشُهُمْ، وَعَزَمَـتِ الـرّومُ عَلَى الذّهَابِ فِي السّفُـنِ بِأَمْوَالِهِمْ، وَأَقْبَلَتِ الْعُيُونُ مِـنْ تَغْلِبَ وَإِيَادٍ وَالنّمِـرِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَمِّ بِالْخَبَرِ، وَسَأَلُوهُ لِلْعَرَبِ السّلْمَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الدّخُولِ مَعَهُ فِي النّصْرَةِ عَلَى أَهْلِ الْبَلَدِ، فناصروه، وَلَمَّا أراد أهل الخندق عبور دِجْلَةَ، تَلَقَّتْهُمْ إِيَادٌ وَالنّمِرُ وَتَغْلِبُ، فَقَتَلُوهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا[3].

كتـب مطران الموصـل[4]: «لقد رحب السّريان بالْعَـرَب الفاتحين معتبرين إياهم محرريـن لا غـزاة، لأن طابـع الفتح كَانَ دِينِيّـاً وفِكْرِيّـاً وسلمياً، وَقَدْ مـارس رؤساء

(1) - البلاذري: فتوح البلدان 2/ 311؛ الطبري: تاريخ الرّسل والملوك3/ 466.

(2) - تل الشّهارجة قرب الموصل، يسكنه قوم من نصارى، ذو يسار. فتوح البلدان، ص 323؛ ابن حوقل، مُحَمَّد البغدادي (ت: بعد 367هـ): صورة الأرض،(دار صادر، بيروت 1938م) 1/ 217.

(3) - تاريخ الرّسل والملوك 4/ 35، 54؛ الكامل فِي التاريخ 2/ 348؛ البداية والنّهاية (ط هجر) 10/ 27.

(4) -. المار غريغوريوس صليبا شمعون: «عصارة فكر، علاقة البطاركة والمفارنة بالخلفاء العباسيين»، م. س..

الكَنِيسَة مسؤولياتهم مـن منطلق قول السَّيِّد الْمَسِيح: «كونوا حكماء كالحيَّات وودعاء كالحمـام» (مت 10: 16)... لِذَا كَانَ ماروثـا مفريان تكريت (628 – 649)، الَّذِي تميز بالحكمـة وبعـد النّظر، اليد الطّولى فِي فتـح أبواب تكريت أمام الفاتحيـن حاقناً بِذَلِكَ الدّماء».

حِيـنَ قدم الوليد بن عقبة سنة (17هـ/ 638م)، عَلَى بني تَغْلِب وعرب الجَزِيْرَة من ربيعة وتنـوخ، نهـض مَعَهُ مُسْلِمهـم وكافرهم، إلا إياد بن نـزار فإنهم ارتحلـوا بقليَّتهم، فاقتحموا أرض الـرّوم[1]. نلحـظ هُنَـا أن أغلبيـة الْمَسِيحِيِّيـنَ قدَّموا مناصـرة الْمُسْلِمِيـنَ، إمَّا للمنحى القومـي، أَوْ لتقريـر الأمر الواقع، فِي الخضـوع وتقديم التّنازلات الْمَالِيَّـة والعقائديَّة مقابل بقائهم عَلَى أرضهم، مَا عدا قبيلة أياد ارتحلت حفاظا عَلَى تدينها الرّاسخ.

ثَمَّـةَ نـوعٌ آخرُ مـن الْمُشَارَكَةِ، هو مشاركة رجـال من الكنيسة في الفتـوح، فَفِي فَتْحِ دِمَشْـقَ، بحَسَـبِ الواقـدي[2]: أنَّ خَالِدَ بن الوليد شَـدَّ عَلَـى جانِبِه بالقتالِ، وَكَـانَ هُنَاكَ قِسِّيـسٌ مـن قُسِسِ الـرّوم اسمه يونس بـن مرقص، وَكَانَـتْ داره ملاصقة للسـور، مِمَّا يلي باب شـرقي الَّـذِي عِنْدَهُ خَالِد... فَلَمَّا كَانَتْ تِلْـكَ الليلة نقب يونس من داره وحفر موضعا، وخرج طالبا أمانا لَهُ ولاهله، فأخذ خَالِد عهده عَلَى ذَلِكَ، وانفذ مَعَهُ مائة رجل مـن الْمُسْلِمِيـنَ، أكثرهـم من حِمْيَـر... ومضى أمامهـم القِسِّيسُ.. حَتَّـى قصدوا الباب وكسـروا الأقفـال وقطعوا السّلاسل، ودخل خَالِـد بن الوليد ومن مَعَهُ مـن الْمُسْلِمِينَ، ووضعـوا السّيـف فِي الرّوم، وَهُـمْ مُخْتَلفون بَيْنَ يديـه إلَى أن وصل إلَـى كَنِيسَة مَرْيَم، حَيْـثُ التَقـى بجيش أبي عُبَيْـدَة وأصحابه والرّهبـان سائرون بَيْنَ ايديهـم، وما أحد من أصحاب أبي عُبَيْدَة جرد سيفه، وَقَدْ فُتِحَتْ المدينة عَلَى يديه صُلْحًا.

وفي الجانب الآخر شارك نصارى العرب الروم في معاركهم الأولى ضد المسلمين، يذكر ابن عساكر[3]: كان بمؤتة (8هـ/ 629م) ابن أبي سبرة الغساني، وانتظم بها جموع

(1) الطبري: تاريخ الرّسل والملوك 4/ 54.
(2) – فتوح الشّام 1/ 72، 154.
(3) – تاريخ دمشق 2/ 10.

مـن نصارى العرب والـروم، بها تنوخ وبهراء، والتقوا المسلمين فاقتتلوا قتالا شـديدا، حتى قتل ثلاثة من قواد المسلمين، وانسحب بهم خالد بن الوليد. وفي موقعة اليرموك (13هـ/ 634م) خلـع هرقل علـى جبلة بن الأيهـم الغساني وضم إليه فـي ستين ألف فارس من العرب المتنصرة من غسّان ولخم وجذام، وقال لهم: كونوا في المقدَّمة، فإن هلاك كل شـيء بجنسه، والحديد لا يقطعـه إلا الحديد، ثم أمر القسوس أن يغمسوهم في ماء المعمودية. وبعد فشل حوار بين العرب المسلمين والعرب المتنصرة، لجذبهم الـى صفهـم تحت تأثير انَّهم من جلدة واحدة، أو اعتـزال المعركة، لجأوا الى السلاح، وخاضـوا وطيس الحرب، فـإذا جيش العرب المتنصرة منهزمـون[1]. ومثلها حدث في فتـح اجنادين وعزاز[2]. وفي العِرَاق نصارى أليـس اجتمعوا الى الفرس، فباغتهم خالد ولم يبقَ منهم أحدا على النهر، فجرى دمًا عبيطا، فسمي «نهر الدم» لذلك[3].

انفـرد المـؤرخ الأرمني سبيـوس بذكر أنَّ الأرمن شـاركوا في موقعـة القادسية الى جانـب الفرس سنة 15هـ/ 636م، وتمزق جيش الفرس وأعوانه من الأرمن، بعد مقتل القائـد الفارسي رستـم[4]. وكان لهم وجود وقيادة في حروب الشـام، يورد الواقدي[5]: إنَّ «ماهـان» الأرمنـي ملـك الأرمن، وقد جمع من الأرمن مـا لا يجمعه أحد من أهالي الملـك هرقل، وشـاركوا في وقعـة اليرموك. وحمل «جرجير» الأرمنـي في ثلاثين ألفًا من الأرمن على شـرحبيل بن حسنـة، وانكشف أصحابة[6]. وكان الأرمن من الأشـداء فـي الحرب فقد ثبتـوا في حلب، بينمـا البطريق المعظم يوقنا صاحـب حلب قد هرب من العرب[7]، وفي حَرَّان خرج أرسوس إلى لقاء المسلمين والتقى الجمعان، وكان قد قـدم أمام جيشـه بطلا من الارمن اسمه «أرجوك» في ثلاثـة آلاف فوقعت الهزيمة على

---

(1) - الواقدي: فتوح الشام 1/ 150، 164.

(2) - الواقدي: م. ن. 1/ 302.

(3) - ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 4/ 103.

(4) - فائز نجيب اسكندر: المسلمون والبيزنطيون والأرمن في كتابات سبيوس، ص 28.

(5) - فتوح الشام 1/ 203.

(6) - م. ن. 1/ 148، 190،

(7) - م. ن. 2/ 91.

الارمني[1].

نتائج الْفُتُوح:

- احدثـت تغييرًا فِـي نسيج المُجْتَمَع والتّـوازن الإجْتِمَاعِيّ فِي البُلْـدَانِ المفتوحة، بفـرض الْعَـرَب الْمُسْلِمِينَ كعنصر ثابت عَلَى الأرض، وَلَـهُ الأهَمِّيَة فِي مباني المُجْتَمَع الجديد ونظمه الحياتية.

- ظهـور قُـوَّة سِيَاسِيّـة جديدة انفردت بالسّيطـرة، وتمكنت من توسيـع نفوذها إلَى أكبـر رقعـة عَالَمِيَّة، بَعْدَئِذْ مسحت دولة فَارِسَ من خَارِطَة السّياسة، وقلمت أظافر دولة الرّوم، وأزاحتها إلَى حدود العاصمة قسطنطينة.

- ظهـور قُـوَّة دِينِيَّة جديدة، تفرض نفسهـا عَلَى الحياة العَامَّة بقُـوَّة أحد الخيارات: الإِسْلَام، أَوْ الْجِزْيَة، أَوْ السّيف.

- ظهـور طبقـة إجْتِمَاعِيَّـة سياديـة جديـدة، تمتلـك زمـام الحكـم، وإِدَارَة البـلاد، والوظائف السُّلْطَانِيَّة، دُونَ شعوب البُلْدَانِ المَفْتُوحَةِ، الَّتِي تمَثّل الأغْلَبِيَّة.

إنكفاء الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة من جَزِيْرَة الْعَرَب فِي عهد الخِلَافَة الرّاشدة:

فـي إثر وفـاة الرّسول مُحَمَّد، تذَبْذَبَتْ المحصِّلَة الدينيَّـة، وكانّها لم تستقرّ بعد، كَمَا وصفها ابن اسحاق[2]: «ارْتَدَّتْ الْعَرَبُ، وَاشْـرَأَبَّتْ اليَهُودِيَّـة وَالنَّصْرَانِيَّة، وَنَجَمَ النِّفَاقُ «أخـذت دولـة الخِلَافَـة عَلَى عاتقها اعـادة الأمور إلَـى نصابها، وبـدأت أول الاعمال العَسْكَرِيَّـة فاعليتهـا فِي قُضَاعَةَ وكَلْب، فَقَدْ ارْتَدَّ وَدِيعَةُ الْكَلْبِـيُّ فِيمَنْ تَبِعَهُ، وَارْتَدَّ زُمَيْلُ بْنُ قُطْبَةَ الْقَيْنِيُّ، وَارْتَدَّ مُعَاوِيَةُ الْوَالِبِيُّ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ سَعْدِ هُذَيْم[3]، واستنصروا بالقَبَائِل الْمَسِيحِيَّة فِي بلاد الشّام، إِلَّا أَنَّهُمْ هزموا، وَلَمْ يَنْجُ مِنْ القَتْلِ إلاّ قليلون، وَكَانَتْ الموقعةُ أوَّلَ مواجهةٍ طائفيَّةٍ - بَعْدَ مَوْتِ الرّسولِ - بَيْنَ عَرَبٍ مُسْلِمِينَ وعربٍ مَسِيحِيِّينَ. وَكَانَتْ سَجَـاحُ تَنَبَّـأتْ بِدِيـنٍ جَدِيـدٍ، وتَكَهَّنَـتْ، فأتَّبَعَهَا قوْمٌ مـن بني تميم، وقَـوْمٌ من أخوالها

---

(1) - م. ن. 2/ 118.

(2) - ابن هشام: السّيرة 2/ 665؛ ابن الجوزي: المنتظم 4/ 74؛ السّهيلي: الرّوض الأنف 7/ 601.

(3) - الطبري: تاريخ الرّسل والملوك3/ 243؛ الكامل فِي التاريخ 2/ 201.

نَصَارَى بني تَغْلِب؛ وَلَمَّا تقدم عَلَيْهِمْ جيش الْمُسْلِمِينَ سحقهم وصاروا أشتاتا[1].

دخَـلَ الإِسْلَام في بودقة العقل العربي بكلِّ أدواتِ القُـوَّة والعُنْفُوَانِ، لِنَشْرِ تَعالِيمِه، تَحْـتَ لِـواءِ الدّولة الفَتِيَّـة، فِي السّيطـرة عَلَى جَزِيْرَة الْعَـرَب وحوالها، وَكَانَـتْ القَبَائِل الْعَرَبِيّـةُ تشَكِّل مَرَاكِـزَ القوَّةِ السِّيَاسِيَّـة والعَسْكَرِيَّة فِيهَا، والدِّيَانَات الشّائعـة فِيهَا الوَثَنِيّة والْمَسِيحِيَّـة، والقَبَائِل -بطبيعتهـا - لَمْ تَكُنْ راسخة فِي الدِّيَانَة، لِـذَا أضحتْ فِي مَرْمَى محـاولاتِ الدَّولَة العَرَبِيَّة، لاستدراجِهـا إلَى الدّين الجديد. بات - من الضَّروري - أنْ يتمَّ إخضاعُ القَبَائِل تَحْتَ شبحِ القُوَّةِ العَسْكَرِيَّة، المتشحِ بالعباءةِ الإيمانيّةِ للإِسْلَام، ذي الصّبغة الإحتوائيّة، مثل: دين رب العالمين، وَهُوَ الدّين الإِبْرَاهِيمِيُّ، الَّذِي تَنْطَوِي تَحْتَهُ الدِّيَانَاتُ الكِتَابِيَّةُ، وَكَانَ اتِّبَعَ مَبَادِئَ الهيمنةِ أصولا، فِي مدِّ نفوذِ الدّولةِ الدّينيّةِ الجديدة، نحـو ثلاثية الخيار: (الإِسْلَام، الْجِزْيَة، الحرب). وتوظيف مناحيَ شـرعيّةٍ، نحو: إلْزَامِ الْحَرْبِـيِّ أَحْكَـامَ الإِسْلَام، واتباعِ قَتْـل الْمُرْتَدِّ حَدًّا مُسْتَحَقًا، لَا يَجُـوزُ تَأْخِيرُهُ بِمَالٍ، وَلَا يَجُوزُ تَرْكُهُ[2]، وشرط المعاهدات: «أن لا يُنَصِّرُوا أَبْنَاءَهُمْ[3]، وَلَا يَمْنَعُوا أَحَدًا مِنْهُمْ مِنَ الإِسْـلَام[4]». وَفِي ظل هَذِهِ التّشريعات انصهر فِي الإِسْلَام كثيرٌ من الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَب، أفرادًا، وقَبَائِلَ.

علـى أنَّ الطابـعَ القومـيَّ، الذي اصطبـغ به التوسـعُ الإثنيّ، والدخـول في صفوف جيـوش الغزوات العربيّـة، كان له الجاذبيّة في تحـول البدو المَسِيحِيِّـنَ الى الإسلام. وبحسب أرنولد[5]: لم يكنْ غريبًا أنْ نجدَ كثيرا من القبائلِ العربيَّة التي دانتْ بالمسيحيّة قرونـا، قـد نبذتها في ذلـك الوقت لتدين بالإسـلام، وكان من بين هـؤلاء قبيلة غسان،

---

(1) - فتوح البلدان، ص 104؛ الطبري: م. ن. 3/ 267 - 282.

(2) - السّرخسي، مُحَمَّد بن أحمد (ت483هـ): شرح السّير الكبير (الشّركة الشّرقية، القاهرة 1971م) ص 1704، 2016.

(3) - أبو يوسف: الخراج، ص 148؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ 2/ 352، 3/ 357؛ مُحَمَّد حميد الله: مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة، ص 524.

(4) - تاريخ الرّسل والملوك 4/ 55؛. الكامل في التاريخ 3/ 357؛ تاريخ ابن خلدون 2/ 546.

(5) - الدعوة الى الإسلام، ص65.

التي كان لها الملْكُ في قبائل الشمال، فكانوا أربابًا في الجاهليَّة، وأضحوا نجومًا في الإسلام.

وجاء إبعاد مسيحي نَجْرَان من الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة، فِي عهد الخليفة عمر، مؤشرا آخر عَلَى تضاؤل الْمَسِيحِيَّة، فأهل نَجْرَان مِنْ بَعْدِ أَنْ جددوا العهد والبيعة مَعَ الخليفة أبي بكر، وثبّتَ أوضاعهم. وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ ينقضوا عهدا، إِلَّا أَنَّ الخليفة أمر بجلائهم عَنْ نَجْرَان اليمن، خوفاً من تعاظمهم[1]، ونزل بعضهم الشّام وفقد أثرهم، ونزل أغلبُهم «النَجْرَانيَّة» قرب الكوفة وبهمْ سُمِّيَتْ، وظلّوا فِي ذمّة الْمُسْلِمِينَ. أوصى عمر أمراء الشّام والعِرَاق، بأنْ يوسعوهم أرضًا، وأنْ يُعفوا من الضَّريبةِ لمدة سنتين. وَلَيْسَ أدلُّ مِنْ أنَّ هَذَا الإجلاءَ أفْقَرَ النَجْرَانيين وأضعفَهم. ثُمَّ أَنَّهُمْ اشتكوا العثمان تَنَاقُصَ عدَدِهِمْ، فخَفَّفَ عَنْهُمْ الْجِزْيَة، وطلبوا من الإمامِ عَلِيٍّ إرجاعَهم إلَى وطنِهم الأصليّ، فاعتذَرَهُمْ، قائلاً: «إنَّ عُمَرَ كَانَ رَشِيدَ الْأَمْرِ[2]، وأنا أكْرَهُ خِلاَفَهُ[3]». فَكَانَ إبعادُهُمْ مُبَادَرَةً سِيَاسِيَّةً من عمر، وإنْ كَانَ بعضُهم حاولَ تبريرِها بِتَوْصِيَةٍ من الرّسولِ، لإبعاد الْمَسِيحِيِّينَ من الجَزِيْرَة الْعَرَبِيَّة. واستمرَّ وجودُ بعضِ المجموعاتِ الْمَسِيحِيَّةِ، عَرَبِيَّةً كَانَتْ أَوْ أعجميَّةً، فِي اليمنِ والأطرافِ الشَّرْقِيَّةِ للجَزِيرَةِ بَعْدَ عهد عمر بن الخطَّاب[4].

وحسْبُ مسيحِيّ نَجْرَان تناقصًا، إِذَا أخذْنَا بروَايَة الغزالي[5]: أنَّ أسقف نَجْرَان أسلَمَ عَلَى يَدِ الإمام عَلِيٍّ، وأَنَّهُ دخل عَلَيْهِ، وأخذا فِي تداول العِظَةِ. ومن خِلَالِ اجابته لمسيحي نَجْرَان، يبدو أن عَلِيَّ بن أبي طالب كَانَ يسعى إلَى إلحاقهم بالإِسْلَام، وأَنَّهُ

---

(1) - أَجْلاهُمْ لأَنَّهُ خَافَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِين، وَقَدْ كَانُوا اتَّخَذُوا الخَيْلَ وَالسّلاحَ فِي بِلادِهِمْ فَأَجْلاهُمْ عَنْ نَجْرَانَ الْيَمَنَ وَأَسْكَنَهُمْ نَجْرَانَ العِرَاق. أَبو يوسف: الخراج، ص 87

(2) - أَبو يوسف: م. ن، ص 87؛ ابوعبيد، القاسم بن سلام: الأموال: ص 128.

(3) - فتوح البلدان، ص 74.

(4) - الأرشمندريت اغناطيوس ديك: «القبائل العَرَبِيّة المسيحيّة فِي بلاد الشّام فِي عهد صدر الإسلام»، بحث فِي النّدوة الدَّوْلِيّة «بلاد الشّام فِي عصر الرّسول والخلفاء الرّاشدين» كلية الآداب، جامعة حلب، 2 - 4/ 5/ 2006. موقع كنيسة القديسة تيريزيا بحلب.

(5) - أَبو حامد، (ت505هـ): مقامات العلماء بَيْنَ يدي الخلفاء والامراء، (بيروت 2003) ص65.

حقق بعض النّجاح[1].

مهمـا يكـنْ من أمـرٍ، فإنَّ تطهيـرَ جزيرة العرب مـن الديانات الأخـرى، الذي أطلقـه الخليفة عمر، ونُسِـبَ الى قولِ الرسولِ: «لَا يَجْتَمِعُ دِينَـانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[2]، ولّدَ مشاعرَ الضياعِ، وفقدانَ الهُوِيَّةِ التاريخيَّةِ لَدَى مسيحيِّي نَجْرَان، وتَشَتُّتُهُم في البلـدانِ، واندماجَهم ديموغرافيًّا في بيئاتِ الكوفةِ والشامِ، شـكَّل خطرًا على وجودِهم الديني. مَرَدُّ ذلك الى إشتراعٍ على العهد النبوي الى مسيحيي نَجْرَان، او عـدم العمل بروحه في صيانتهـم الدينية، ومن جهة أُخْرَى، عدم قبول الإمام علي بردِّهم الى نَجْرَان، بسبب كراهيَّته لأنْ يغيِّرَ على سَلَفِهِ، وكان عليهِ أنْ لا تأخذُهُ في الحقِ لائمةٌ، إلَّا إذا كانتْ الكراهيَّةُ سياسيَّةً، وأنَّه خَشِيَ على مستقبلِهم أنْ يُجْتَرَحَ.

أَمَّـا فِـي عهد عثمان فَقَدْ ذَوَتْ الْمَسِيحِيَّةُ في عُمَان، ونتبيّن ذَلِكَ من رسالة البِطْرِيَرك النَّسْطُـورِيّ أيشوعـاب الثّالـث (648 – 658م)، ومَحاضِر جلسات المجمـع الْكَنَسِيّ، الَّـذِي عقده خلفـه جرجيس الأول فِي جَزِيْـرَة دارين[3] عـام 676م، أن ثَمَّةَ تمرُّد حدث في بيت قطرايـا[4]، وأن مسيحيّي عمان اعتنقوا الإِسْلاَم ليحافظوا عَلَى ثروتهم الماديّة. يَقُـولُ فِي رسالتّه: «أين أبنـاؤك أيها الأبُ؟ أين معابدُك أيها القِـسُّ؟... أَنَّهُمْ لَمْ يُجْبَرُوا لا بالسّيـف ولا بالنّار ولا بالتّعذيب والاضطهاد، بَلْ استولت عَلَيْهِمْ الرّغبة فِي الحفاظ عَلَـى نصف ثروتهم»[5]، مضيفاً أنّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يطلبوا مِنْهُمْ غيرَ نصفِ ثرواتهم مقابل بقائهم عَلَى دينهم.

---

(1) – سلوى بلحاج: المسيحيّة العَرَبِيّة، ص147.

(2) – مالك: الموطأ 1/ 257؛ أحمد بن حنبل: المسند 43/ 372؛ ابن زنجويه: الأموال1/ 275؛ الفاكهي: أخبار مكة3/ 23؛ الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) 5/ 289.

(3) – دارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند، فينسب إليها. ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع 2/ 509.

(4) – «قَطَر» الموضع المعروف اليوم على ساحل الخليج. جواد علي: الْمُفَصَّل فى تاريخ العرب 16/ 336؛ الجمري: «البحرين فِي القَرْن السّابع (4)... تمرد بيت قطرايا»، صحيفة الوسط البحرينيّة – العدد 3065.

(5) – اغناطيوس ديك: «القبائل العَرَبِيّة المسيحيّة فِي بلاد الشّام» م. س.

نَرَى أَنَّ قسمًا من بني ناجيةَ العمانيّين ظلّوا ثابتين عَلَى مسيحيّتهم فِي منطقة ساحل فَارِسَ فِي عهد الإمام عَلِيٍّ، وَقَدْ يكونون هاجروا إِلَيْهَا فِي عهد الخليفة عثمان أَوْ قبلُ. وَهَكَذَا فَلَمْ يعُدْ من وجودٍ ملموسٍ للجماعاتِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة.

وأخذَتْ الْمَسِيحِيَّةُ فِي التّناقصِ لَدَى القَبَائِلِ الْعَرَبِيّة أمامَ الإِسْلَامِ بإزاءِ الْفُتُوحِ، كَانَ حاضرُ قِنّسرين لتَنُوخ، فدعاهم أَبُو عُبَيْدَة إِلَى الإِسْلَام، فأسلم بعضُهم، وأقام بعضُهم عَلَى النَّصْرَانِيَّة، فصالحهم عَلَى الْجِزْيَة، وَكَانَ أكثرَ من أقام عَلَى نَصْرَانِيّته بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة[1]، وَكَانَ حاضرُ حَلَب لطيئ قديما، فَلَمَّا ورد أَبُو عُبَيْدَة عَلَيْهِمْ أسلم بعضُهم، وصالح كثيرٌ مِنْهُمْ عَلَى الْجِزْيَة، ثُمَّ إِنَّهم أسلموا بَعْدَ ذَلِكَ بيسير، الا من شَذَّ مِنْهُمْ. وَكَانَ بقرب حَلَب حاضِرٌ يجمع أصنافا من الْعَرَب من تَنُوخ وغيرِهم، فصالحهم أَبُو عُبَيْدَة عَلَى الْجِزْيَة، ثُمَّ أَنَّهُمْ أسلموا بَعْدَ ذَلِكَ[2].

تُعَدُّ بهراءُ فِي جملة القَبَائِلِ الْعَرَبِيّة الْمُتَنَصِّرَة قبل ظهور الإِسْلَام؛ تنصرَّت كَمَا تنصَّرت غسان وسُلَيْح وتَنُوخ والضَّجَاعِم وقومٌ من كِنْدَة، وَكَانُوا قَدْ تجمَّعوا إِلَى حصن الدّومة، وبَعْدَئِذٍ قاتلهم خَالِد بن الوليد وأثخنَ فِيهِمْ، أقبَلَ إِلَى حصن الدّومة فقتلهم حَتَّى سدَّ بِهِمْ بابَ الحصن، ودعا بالجودى فضرب عنقه، وضرب أعناق الأسرى[3].

وعلى جبهة العِرَاق توجّه خَالِد بن الوليد، حَتَّى نَزَلَ بِقَرْيَاتٍ مِنَ السَّوَادِ: بَانِقْيَا (النّجف) وَبَارُوسْمَا[4]، فعرض عَلَيْهِمْ: إِمَّا الإِسْلَامَ وإِمَّا الْجِزْيَة وإِمَّا الحرب؛ فقالوا: «مَا لَنَا مِنْ حَاجَةٍ بحربِكَ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نَدْخُلَ مَعَكَ فِي دِينِكَ، نُقِيمُ عَلَى دِينِنَا وَنُعْطِيكَ الْجِزْيَة»[5]، فَصَالَحَهُ أَهْلُهَا عَلَى تِسْعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَكَانَتْ أَوَّلُ جزية وقعت بالعِرَاق[6].

---

(1) – قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص 303؛ فتوح البلدان، ص146.

(2) – الخراج وصناعة الكتابة، ص 303.

(3) الكلاعي الحميري: الاكتفاء بِمَا تضمنه من مغازي رسول الله 2/ 393.

(4) – بارُوسْما: الواو والسّين ساكنتان: ناحيتان من سواد بغداد يقال لَهُمَا باروسما العليا وباروسما السّفلى من كورة الاستان الأوسط. ياقوت: معجم البلدان 1/ 320.

(5) – أَبُو يوسف: الخراج، ص157

(6) – خليفة بن خياط: تاريخ، ص 118؛ الطبري: تاريخ الرّسل 3/ 343، وقال أَبُو يوسف: عَلَى سِتِّين أَلْفًا. الخراج، ص157

ونقباء أهل الحِيرَة: عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنُ عَمْرِو بْنِ بُقَيْلَةَ، وَإِيَاس بْنُ قُبَيْصَةَ الطَّائِيُّ[1]، وحيري بن أكال، وابْنُ صَلُوبَا الَّذِي كتبَ لَهُ خَالِد عهدا[2]. وتجَمّع فِي الولجَة عَلَى الفرات قوم من نَصَارَى بكر بن وائل، ومن عرب الضَّاحية تَنُوخ، وغيرهم، لأعانة أهل فَارِسَ، وَقَدْ أصابهم خَالِد بالسّيف، فغضب لَهُمْ نَصَارَى قومهم[3]؛ وتجمعت فِي «أُلَيْسَ»[4]، فقاتلهم خَالِد، وقتل أسراهم، حَتَّى بلغتْ قتلاهم يوم أليس سبعين ألفا[5]، جُلّهم من أمغيشيا[6]، وأتَى خَالِد عين التَّمر فَحَاصَرَهُمْ حَتَّى نزلُوا عَلَى حكمه فَقتل وسبى[7]، ثُمَّ سَارَ إِلَى الأَنْبَارِ فَصَالَحُوهُ، وَوَجَّهَ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ إِلَى سُوقِ بَغْدَادَ فَأَغَارَ عَلَيْهَا[8]، فملأ الْمُسْلِمون أيديَهم منَ الصّفراء والبيضاء وما خفَّ محمَلُه منَ المَتاع[9]، وركب المثَنَّى إِلَى «سوق الخنافس»[10]، حَيْثُ يجتمعُ بِهَا تجّارُ المدائنَ والسّوادِ وخفراؤهم ربيعة وقضاعة، وأغار عَلَيْهَا[11]؛ أي استطاع أنْ يضربَهم فِي العصب الاقتصادي والمعين

---

(1) - خليفة بن خياط: م. ن، ص 118.

(2) - كَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لابْنِ صَلُوبَا السَّوَادِيِّ - وَمَنْزِلُهُ بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ - إِنَّكَ آمِنٌ بِأَمَانِ اللهِ - إِذْ حَقَنَ دَمَهُ بِإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ - وَقَدْ أَعْطَيْتَ عَنْ نَفْسِكَ وَعَنْ أَهْلِ خَرْجِكَ وَجَزِيرَتِكَ وَمَنْ كَانَ فِي قَرْيَتَيْكَ - بَانِقْيَا وَبَارُوسْمَا - أَلْفَ دِرْهَم، فَقَبِلْتُهَا مِنْكَ، وَرَضِيَ مَنْ مَعِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا مِنْكَ، وَلَكَ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ وَشَهِدَ هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ. الطبري: تارِيخ الرّسل والملوك، 3/ 344؛ ابن الأثير: الكامل فِي التاريخ 2/ 234.

(3) - الطبري: تاريخ الرّسل 3/ 353؛ ابن الجوزي: المنتظم فِي تاريخ الملوك والأمم 4/ 102.

(4) - اليس: قرية فِي منتصف الطريق بَيْنَ الحيرة والابله، وَفِيهَا يوم كَانَ أميره خَالِد. القلقشندي: نهاية الأرب فِي معرفة أنساب العرب ص 81.

(5) - الكلاعي،: الاكتفاء بِمَا تضمنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء2/ 382.

(6) - أمغيشيا: مصر (قصر) عَلَى الفرات كالحيرة، لما فرغ خَالِد بن الوليد من وقعة أليس، نهض فأتى أمغيشيا، وَقَدْ أعجلهم عما فِيهَا، وتفرقوا فِي السّواد، فأمر بهدمها وهدم كل شيء كَانَ فِي حيزها. ياقوت: معجم البلدان 1/ 254؛ الحِميرى: الرّوض المعطار فِي خبر الأقطار، ص 31.

(7) - خليفة بن خياط: تاريخ، ص 118.

(8) - خليفة بن خياط: م. ن. ص 119.

(9) - البلاذري: فتوح البلدان، ص 243.

(10) - تاريخ الرّسل والملوك3/ 473؛ الكامل فِي التاريخ 2/ 282؛ الأفغاني، سعيد بن مُحَمَّد (ت1417هـ): أسواق العرب فِي الجاهلية والإسلام، ص 375.

(11) - ابن خلدون: التاريخ 2/ 523

المعاشـي. وَكَـانَ جيشُ الإِسْـلَام قَدْ فتح بـلاد العِرَاق مـن أطرافها[1]؛ ومِـنْ هُنَا يجدرُ القـولُ: أنَّ خالدًا وجّـهَ ضَرْبَةً مُوجِعَةً إِلَـى الْمَسِيحِيَّة فِي العِرَاق كَـادَتْ تَشُلّها، لَوْلَا أنْ صَمَدَ قِسْمٌ مِنْهُمْ، وآثَرَ البَقَاءَ عَلَى دِينِهِ، ودفعِ الْجِزْيَة.

فِي حصار تكريت سنة 16هـ الَّذِي طال 40 يوما، أَرْسَلَ القائد عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَمِّ[2] إِلَـى الْعَـرَبِ الَّذِينَ مَعَ الْأَنْطَـاقِ يَدْعُوهُمْ إِلَـى نُصْرَتِهِ، وَكَانُـوا لَا يُخْفُونَ عَلَيْهِ شَـيْئًا... فَأَرْسَلَتْ تَغْلِبُ وَإِيَادٌ وَالنمِرُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بِخَبَرِ الرّوم، وَسَأَلُوهُ الأمَان وَأَعْلَمُوهُ أَنَّهُمْ مَعَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَسْلِمُوا. فَأَجَابُوهُ وَأَسْلَمُوا. وَنَهَدَ عَبْدُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ وَكَبَّرُوا وَكَبَّـرَتْ تَغْلِبُ وَإِيَادُ وَالنَّمِـرُ وَأَخَذُوا الْأَبْـوَابَ... فَأَخَذَتْ أَهْـلَ الْبَلَدِ سُيُوفُ الْمُسْلِمِيـنَ وَسُيُوفُ الرَّبْعِيِّينَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا تِلْكَ اللَّيْلَـةَ، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْ أَهْلِ الْخَنْدَقِ إِلَّا مَنْ أَسْلَمَ مِنْ تَغْلِبَ وَإِيَادٍ وَالنّمِرِ[3].

وَلَمَّـا قـدم الوليد بن عقبة سنة 17 هــ عَلَى بني تَغْلِب وعرب الجَزِيْـرَة، فان إياد ابن نـزار قَدْ ارتحلوا بقيتهـم، فاقتحموا أرض الـرّوم[4]. لَعَلَّ ارتحالَهم كَـانَ عَنْ خوفٍ من حربِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ عَنْ عدمِ رغبةٍ فِي تركِ دينِهم.

ثَمَّـةَ مَن يَرَى أَنَّهُ: انْضَمَّ مسيحِيُّونَ سُرْيَان إِلَى الإِسْلَام مِن طَيْءٍ، وتَكَارِتَة، فِي وَسَطِ وجَنُوبِ بلادِ الرّافدينِ، طَمَعًا بالمَغانِمِ، أَوْ تَهَرُّبًا من وَيْلَاتِ بعضِ رجالِ الدّينِ، أَوْ بسببِ عجزِهم عَنْ دفعِ الْجِزْيَةِ، الَّتِي كَانَتْ تُفْرَضُ عَلَى غيرِ الْمُسْلِمِينَ كضريبةِ حمايةٍ[5].

لَعَـلَّ تكرارَ الأمر، فِي توظيف الإِسْلَام أَوْ الْجِزْيَة أَوْ السّيف مَعَ القَبَائِل والقرى الَّتِي كَانَتْ عَلَى النَّصْرَانِيَّة، وشـأنُهم فِي ذَلِكَ شـأنُ أكثر أهلِ القرى فِي العِرَاق وَفِي الجَزِيْرَة

---

(1) - الطبري: م.س. 2/ 415.

(2) - عبد الله بن مالك بن المعتم العبسّي. ترجمته: ابن الأثير: أسد الغابة 3/ 293؛ ابن حجر: الإصابة 4/ 191.

(3) - ابن الأثير: الكامل في التاريخ 2/ 348؛ ابن كثير: البداية والنّهاية 7/ 83.

(4) الطبري: م. س. 4/ 54.،

(5) - سيّار الجميل: «المسيحيون العِرَاقيون» (ج3/ ق5)، مجلة ألفا (elaph)، عدد: 11421، تاريخ 6/ 11/ 2010.

وبلاد الشّام، أمْرٌ يُنْذِرُ بزوالِ الْمَسِيحِيَّةِ أَوْ ضُمورِها فِي البلاد المفتوحة.

أرجع بعض المستشرقين نقصانَ كفّة الْمَسِيحِيِّينَ فِي بلاد الْعَرَب، وشيوعَ اعتناقهم الدّين الإِسْلَامِيّ، إِلَى مناحيَ عدَّة، منها: طبيعة الْمَسِيحِيَّة المشرقية وما اكتنفها من ارهاصات دِينِيَّة وصراعات مَذْهَبِيّة، يرى» كايتاني - ليون» [1869 - 1926 م]: «إن انتشار الإِسْلَام بَيْنَ نَصَارَى الكَنَائِس الشَّرْقِيَّة، إِنَّمَا كَانَ نتيجة شعور باستياء من السّفسطة المَذْهَبِيّة، الَّتِي جلبتها الرّوح الهِلِينِيّة إِلَى اللاهوت الْمَسِيحِيّ، أَمَّا الشّرق الَّذِي عُرِفَ بحبّه للأفكار الواضحة البسيطة، فَقَدْ كَانَتْ الثّقافة الهِلِينِيّة وبَالًا عَلَيْهِ من الوجهة الدّينِيَّة، لِأَنَّهَا أحالتْ تعاليمَ الْمَسِيح البسيطةَ السّامِيَةَ إِلَى عقيدةٍ محفوفَةٍ بمذاهبَ عويصةٍ، مليئةٍ بالشّكوك والشّبهات، فأدّى ذَلِكَ إِلَى خلْقِ شعور من اليَأس، بَلْ زعزعَ أصولَ العقيدةِ الدّينِيَّة ذاتَها»[1].

ومنها ما يؤكّده نولدكة[2]: إنَّ المَسِيحِيِّينَ العرب، غالبا ما كانوا على معرفةٍ سطحيَّةٍ بدينهم، وتغلبُ إحدى القبائل التي كانتْ المسيحيةُ قد ضربتْ فيها جذورًا ثابتةً. واستشهدَ بما نُقِلَ عن الإمامِ عَلِيٍّ، أَنَّهُ اسْتَثْنَى نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ، وَقَالَ: لَيْسُوا عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ وَلَمْ يَأْخُذُوا مِنْهَا إِلَّا شُرْبَ الْخَمْرِ[3]. ومنها إنَّ أُسلوبَ التسامحِ كانَ لهُ دورٌ في اجتذابِ الآخرِ الدينيِّ، وجعلِه يقتنعُ بأنَّ الإسلامَ الذي وضعَهُ على خارطةِ المساواة، يمكنُ أنْ يعتنقَهُ، فهو أحدُ العواملِ المؤثرةِ التي إتَّبعها المنهجُ الإسلامي. يقول ول ديورانت[4]: «على الرغمِ من خطَّةِ التسامحِ الدينيِّ، التي كانَ ينتهجُها المسلمونَ الأوَّلُونَ، أو بسببِ هذه الخطَّةِ، إعتنَقَ الإسلامَ معظمُ المَسِيحِيِّينَ، وجميعُ

---

(1) - مُحَمَّد عمارة: «الانتشار السّلمي للإسلام»، مجلة المُجْتَمَع، العدد (1825) 3 ذو القعدة 1429هـ الموافق 1/ 11/ 2010م.

(2) - تاريخ القرآن، ص8.

(3) - الزمخشري، (ت538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(دار الكتاب العربي، بيروت،1407هـ) 1/ 607؛ الرازي، (ت606هـ): مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420) 11/ 293؛ البيضاوي، (ت 685هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل،، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1418م) 2/ 116.

(4) - قصة الحضارة 5 / 133.

الزرادشتيّينَ والوثنيّينَ إلا قليلاً منهم، وكثيرٌ من اليهود».

3. الحياة الْكَنَسِيّة فِي العصر الرّاشِدِيّ:

مـن خِلَالِ الاحتكـاك الْعَرَيض الَّـذِي أنتجتْهُ الْفُتُوح بَيْـنَ الْمُسْلِمِيـنَ والْمَسِيحِيِّينَ، فِـي ظـل الدَّوْلَة العَرَبِيَّة إِبَّانَ عصرهـا الأول، لَمْ تشرْ المصـادرُ التّاريخيّة إِلَى تدخلُ من لَـدُنِ الخليفـة أَوْ ولاة الأَمْصَـار فِي الشّـؤون الدّينيَّـة للمَسِيحِيِّيـنَ، ولا محاولة لتنظيم إِدَارَة الكَنِيسَـة، أَوْ تعييـن بِطْرِيَك أَوْ مفرمان أَوْ غيرهما مـن الوظائف الْكَنَسِيّة؛ لَعَلَّ هَذَا مُثْبَتٌ فِي المعاهداتِ والمواثيقِ، مِنْذُ أنْ كتبَها الرّسولُ مُحَمَّدٌ أَوَّلَ مَرَّةٍ، واتَّبَعَها الخلفاءُ الرّاشدون التّزامًا.

قُبيـل الفتـح الْعَرَبِـيّ لمَصْر وسوريـة والشّرق الأوسـط كَانَـتْ الكَنِيسَـةُ السّرْيانيّة، ومثلُهـا الكَنِيسَـةُ النّسْطُورِيّة، والكَنِيسَةُ القبطِيَّـة قَدْ أصبحتْ كَنِيسَةً غيـرَ قانونيَّةٍ، وباتَ كهنوتُهـا غيـرُ مشروع: كَـانَ البِطْرِيَـركُ اليُونانِـيُّ أَوْ الملكـيُّ، بِطْرِيـك الأرثوذكسِ فِي أَنْطَاكِيَـةَ، الوحيدُ الَّذِي وافـقَ عَلَيْهِ الإمْبِرَاطُورُ البِيْزَنْطيُّ، وَكَـانَ المطارنةُ ورجالُ الدّينِ الخلقدونيـونَ التّابعـونَ للإِمْبِرَاطُـورِ، وَحْدَهُمْ الَّذِينَ أجـازتْ لَهُمْ الدّولـةُ بالعملِ. أَمَّا النَّسَاطِـرَة فكانوا قَدْ اخْتَفَوا وراءَ الحدودِ البِيْزَنْطيَّة، وعاشـوا فِي أمانٍ داخلَ بلادِ فَارِسَ بعيداً عَنْ الإضـطهادِ البِيْزَنْطيِّ، ومِن ناحيةٍ أُخْرَى، تعـرَّضَ السّريانُ الأرثوذكس الَّذِينَ كَانُوا الأغلبيةَ فِي سُورِيَةَ إِلَى اضطهاد شـديد، مَا اضطرّهم إِلَى العمل سرّاً عَلَى مذهب يعقوب البرادعي[1].

مَـعَ قدوم الْعَرَب تغيّرت الصّورة عَلَى نحوٍ كامـل، فَقَدْ اعترف أتباعُ الرّسول مُحَمَّد بالْمَسِيحِيِّـنَ الموجودين فعليًّا عَلَى الخَارِطَـة الدّينيَّة فِي البلاد الْعَرَبِيّة، ومُنَحَ النَّسَاطِرَةُ واليَعَاقِبَـةُ والأَقْبَـاطُ حقوقَهـم الْكَنَسِيَّةَ كامِلَةً، وأضحـتْ لَهُمْ عَلاقَاتٌ طَيِّبَـةٌ مَعَ الدَّوْلَة العَرَبِيَّـة، زادَتْها انبساطًـا تعاونُ الْمَسِيحِيِّـنَ ومشاركتُهم الْمُسْلِمِينَ فِـي الْفُتُوحِ، دونَمَا تفضيـلِ مذهبٍ عَلَى آخَـرَ، أَوْ إستعداءِ طائِفَـةٍ عَلَى غيرِها. وبذلك أصبـح الْمَسِيحِيّون

(1) – عزيز عطية: «السّريان فِي التاريخ، تَحْتَ سيطرة الخلفـاء»، ترجمة حنا عيسى توما، الباب الرّابع،26 ص، مجلة دراسات سريانية.

اليَعَاقِبَة والنَّسَاطِرَة والأرثوذكس شـعباً واحداً، يتَمَتَّـع بالامتياز نفسه، ويخضع لضريبة الْجِزْيَة، دُونَ تمييز.

أحرز اليَعَاقِبَةُ والنَّسَاطِرَةُ والأَقْبَاطُ - تَحْتَ إمرة الإِسْلَام - حقوقاً دِينِيَّة، لَمْ يعرفوها فِي أثناء وجودهم مَعَ البِيْزَنطيين شـركائهم فِي الدّين. فَقَدْ كَانَ وضعُهم الجديد مزدهراً وممتـداً خـارج حدودهم إلَـى مناطق أبعد فِـي الشّرق، تَحْـتَ غطاء «السّلـم الْعَرَبِيّ»، وَلَعَـلَّ بدايـةَ القرونِ الأولَى من الحُكْمِ الْعَرَبِيِّ، سَجَّلتْ لَهُـمْ فتراتٍ عظيمةً مِن النّجاحِ والتّقَدُّمِ، إذْ تميَّزَتْ سِجلاّتُ الإِسْلَامِ التّاريخيَّةِ المُبَكِّرَةِ بِرُوحِ التَّسَامُحِ والشّعورِ السّويِّ بالعَدَالَةِ[1].

مـن الجدير التَّعَرُّفُ عَلَـى الحياةِ الدّينيَّـةِ للمَسِيحِيَّةِ فِي العصرِ الرّاشِـدِيِّ مِن خِلَالِ النّشاطاتِ الْكَنَسِيّةِ، الَّتِي يضْطَلِعُ بِهَا بَطاركةُ الْمَسِيحِيَّةِ وجثالقتُها ومفارنتُها، لِمَا لها من تنظيماتٍ، وأثرٍ فِي العَلاقَاتِ الإِسْلَاميّةِ الْمَسِيحِيَّةِ، إبَّانَ عصرِ الخِلَافَةِ الرّاشدة:

كَنِيسَة المشرق النَّسْطُورِيّةَ:

بعدئذ أفل نجم الامبراطوريّة الفارسيّة، إثر احتلال العرب العراق وبلدان المشرق، كـان ثمّـةَ ضغوطات علـى المسيحيّة مـن الانتشار السريـع للإسلام القـادم من جزيرة العـرب، في البـلاد المفتوحة. غيـر ان كنيسة المشـرق حققت وجودا نسبيًّـا في داخل الدولـة الجديـدة، ووجدت منفـذا للإنتشار في الشرق الأقصـى، وأكتشفت في الصين والتيبـت نصـوص مسيحيّة باللغة السريانيّة، لغة الطقوس الدينيّة، تؤشـر الى أنّها كانت منـذ القـرن السابـع للميلاد، وقـد استمـرت المسيحيّة بالحضـور بين الأقـوام الناطقة الإيرانية والتركية في آسيا الوسطى حتى القرن الرابع عشر للميلاد[2].

لعـلّ مـن أبرز أعمدة الكنيســة الشرقية الذين مثّلـوا الوجود المسيحـي بُعيد الفتوح الإسلامية، وظلّوا في الذاكرة الدينيّة والتاريخيّة، هم:

---

(1) - عزيز عطية: «السّريان في التاريخ»، ص27.
(2) - سركيس أبو زيد: المسيحية في إيران، ص35 - 36.

- ايشوعياب (الثّاني) الجدالي (6 - 24هـ/ 628 - 645م)[1]: الجاثليق[2] رقم (36)، عاش إلَى أيام عمر بن الخطّاب، فكتب لَهُ كتابا مؤكدا بالحفظ والحياطة، وأن لا يؤخذ من أخوانه وخدمه الْجِزْيَة، واشياعه - أَيْضًا. وَهَذَا الكتاب محتفظٌ بِهِ إلَى هَذِهِ الغاية»[3] بحَسَبِ ماري بن سليمان (ق6هـ/ 12م).

يؤكد مُؤَرِّخو الكَنِيسَة[4]: أن الجاثليق ايشوعياب بذل قصارى جهده، لكي يظهر الولاء للفاتحين، ويقال: أنَّ أميرا نَجْرَانيًّا مسيحيًّا توسَّط بَيْنَ مذهبه، ونال من الْمُسْلِمِينَ عهدًا يكفل لَهُمْ حسن المعاملة. ومِهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فإنَّ التّاريخ المغمور لكويدي يَقُولُ ببساطته المألوفة، «حينما رأى الجاثليق ايشوعياب أن الْعَرَب قَدْ احتلوا ونهبوا ماحوزي (المدائن)، وأن أبوابها قَدْ نقلت إلَى العاقولاء (الكوفة)، فرَّ إلَى كرخ سلوخ (كركوك) تجنبا للمجاعة»[5].

عِنْدَ قدوم الإِسْلَام فِي بداية القَرْن السّابع المِيلادِيّ، استبشر السّريان خيراً فِي البداية وبالأخص النَّسَاطِرَة، فَقَدْ عقدوا اتفاقاتِ سلامٍ وتفاهمٍ مَعَ الخلفاء الرّاشِدين، وبالأخص عمر بن الخطّاب، فإيشوعيهيب الثّاني الجذلاني بِطْرِيك النَّسَاطِرَة فِي بابلَ، كَانَ قَدْ زار الأمير عمر فِي الجَزِيْرَة وأخذوا مِنْهُ عهوداً بالأمَان إِذَا مَا فتح الْعَرَب الْمُسْلِمون بلاد السّريان، بابلَ وما يتبعُها، ويقال حَتَّى أَنَّهُ جرت مراسلات مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ

(1) - البطريك (36) مار ايشو عياب جدلايا الثّاني(628 - 644). «سلسلة بطاركة كنيسة المشرق الآشورية».

(2) - الجاثليق: لفظ يوناني «όςολιηΚαθ» معناهُ: العمومي، ويقابلهُ فِي السّريانية» كَتُّوليكُا»، وفِي الأرمنية» كاثوغكيس»، وفِي اللاتينية» Primatus»، وَقَدْ أطلق هذا الأسم فِي صدر النّصرانية عَلَى أربعة كراسي: الاثنان فِي آسيا والبنطس وَقَدْ انطمس ذكرهما مِنْذُ أجيال، والاثنان الآخران بقيا محفوظين حَتّى اليوم بالتسلسل فِي بِطْرِيكية السّريان الشّرقيين وهم الكلدان وفِي بِطْرِيكية الأرمن. اسحق أرملة السّرياني، القس: «جثالقة المشرق ومفارنة السّريان»، بحث أَبْرَشِيَّة حلب للسريان، /http: / /syrcata.org).

(3) - ماري: فطاركة المشرق ص62 - 63؛ توما أسقف المرج: كتاب الرّؤساء، ص67؛ أبونا: تاريخ الكنيسة السّريانية الشّرقية 189 - 192؛ ادي شير: كلدو وآثور، 2/ 244.

(4) - ماري: م. ن. ص ٦٢، صليبا: أخبار بطاركة كرسي المشرق، ص ٥٤ - ٥٥، ابن العبري: التاريخ الْكَنَسِيّ ١١٥؛ توما أسقف المرج: م. ن، ص70؛ أبونا: م. ن. 198.

(5) - ادي شير: كلدو وآثور2/ 253، نقلا عَنْ تاريخ كويدي.

الرّسول الْعَرَبِيّ[1].

ونقـلًا عَـنْ التّاريخ السّعـردي[2]: «أنّـهُ لَمَّا ملك عمـر بن الخطّاب لقيـه ايشوعياب كدالايـا، وخاطبـه بسبب النَّصَارَى، فكتب لَهُ ولأهل المدائن عهدًا، كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ قَدْ كتبَ عهْدًا وسِجِلًّا لأهلِ نَجْرَان النَّصَارَى»، غير أنَّ السّمعاني قَالَ: «لَمَّا فتح الْعَرَب بابل، لَمْ يغفل إيشوعياب بدهائه، مِن أنْ يستحصلَ مِنْهُمْ عَلَى منشورٍ، لتأمين النَّصَارَى القاطنينَ فِي ولايتها»[3].

أدَّى إيشوعيـاب الثّانـي دوراً هامـاً فِـي المباحثات بَيْـنَ الْعَرَب وسكان بابـل، وَقَدْ فُتِحَتْ بابل صُلْحًا بدون حرب، وَكَذَلِكَ رأس العين[4]، وطور عبدين[5]، فُتِحَتْ صُلْحًا فِـي عهد القائد الْعَرَبِيّ عياض بـن غنم[6]. وحرروا عقوداً بَيْنَهُمْ وَبَيْـنَ السّلطات الدّينيَّة للكَنِيسَة السّرْيانِيّة الأرْثُوذكْسِيَّة والنّسْطُورِيّة، يتعهد الْعَرَب الْمُسْلِمون بموجبها بحماية ديـار السّريـان، والسّماح لَهُـمْ بمُمَارَسَة حقوقهـم الدّينيَّة والثّقافِيّة، وبنـاء دور العبادة، وإعطائهم حريتهم الإِجْتِمَاعِيَّة لقاء دفع جزية سنويَّة معينة[7].

ثَمَّـةَ محـاولاتٌ خصبةٌ لانتشـار الْمَسِيحِيَّة فِـي أقصى الشّرق الآسيـوي، من خِلَالِ إرسـال الحمـلاتِ التّبشيريَّـةِ بتوجيهِ ايشوعيـاب، لتَحْقِيْـقَ التّوازن الدّينِـيّ، أوْ لإرساء كفَّـة ديانات العائلة الإِبْرَاهِيمِيَّة عَلَى شـواطئ البوذيةِ والوَثَنِيّة، فِـي مَا ذكرَ ابن العِبْري:

(1) - سامي نوح كرومي: «مقالات فِي التاريخ السّرياني»، (منتدى اللغات السّامية، جامعة حلب، 2010) نقلا عَنْ: مجلة الجامعة السّريانية السّنة الثّانية العدد الثّالث.

(2) - ادي شير: م. س. 2/ 253.

(3) - السّمعاني، بولس، الموفسنيور: تاريخ الآداب السّريانية (مطبعة المرسلين اللبنانيين، بيروت 1936)3/ 34.

(4) - رأس عين: من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودنيسر، وفيها عيون كثيرة، تجتمع كلّها في موضع فتصير نهر الخابور. ياقوت: معجم البلدان 3/ 14.

(5) - طُورُ عَبْدِينَ: بليدة من أعمال نصيبين في بطن الجبل المشرف عليها. ياقوت: م. ن. 4/ 48.

(6) - فتح بِلَادُ الْجَزِيرَةِ: (الرّها، وحران) صُلْحا، صَالَحَهُمْ عَلَيْهَا عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ، أَبُو يوسف: الخراج، ص 51؛ أَبُو عبيد: الأموال، ص 132.

(7) سامي نوح كرومي: «مقالات فِي التاريخ السّرياني»، نقلا عَنْ (المطران يوحنا دولباني: تاريخ دير مار كبرئيل ص58).

«بينما كَانَتْ الدِّيَانَةُ الإِسْلَامِيّة تتأصل فِي هَذِهِ البلاد، كَانَتْ الدِّيَانَةُ الْمَسِيحِيَّةُ بِهِمَّتِهِ [ايشُوعِيَاب] الجَزِيلَةِ تَنْتَشِرُ فِي بِلَادِ الصِّين، فَإِنَّهُ أَرْسَلَ سَنَةَ [635م] عِدَّةَ مرسلين إِلَى تِلْكَ البلاد الشّاسعة لينذروا فِيهَا بالإِنْجِيل»[1].

فِي ضوء سطوعِ الإِسْلَامِ وأفول المَجُوسِيَّة المُتَمَثِّلَةِ فِي دولةِ فَارِسَ المُنْكَسِفَةِ، حانتْ فرصةٌ لتوسُّع الإشعاع الْمَسِيحِيّ، إندفعَ - حينها - ايشوعياب الثّاني إِلَى إنشاء مقاطعات جديدة، مِنْهَا «بيث ماداي» ومركزها «حلوان»، وَهِيَ المقر الصّيفي للملك الفارسي، و«هراة» فِي أفغانستان مَعَ سبع أُسْقُفيات تابعة لها، و«بيث تركايي» ومركزها: سمرقند، والهند، والصّين، حَيْثُ انتشرتْ الدِّيَانَةُ الْمَسِيحِيَّة انتشاراً سريعاً فِي ظروفٍ مُؤاتية، حَتَّى قيل: إنَّ نحو 40 أُسْقُفية نشأت هُنَاكَ، وإن الملك «تاي تسونغ» أصدر مرسوماً لصالح الدِّيَانَة الْمَسِيحِيَّة[2].

نَرَى أَنَّ كَنِيسَة المشرق، إِبَّانَ الفتح الإِسْلَامِيّ، كانت منتشرةً ومستقرةً فِي معظم المقاطعات الواقعةِ شرقيّ الإمْبَراطُورِيَّة البِيْزَنْطِيَّة، وجميعُ هَذِهِ المقاطعات الْكَنَسِيّة خاضعة لسلطة مَرْكَزِيَّةٍ قَوِيَّةٍ هِيَ سلطةُ الجاثليق فِي المدائن، وأن تعاطف الْمُسْلِمِينَ تجاه المذهب الشّرقي سيتيح لهذه الكَنِيسَة أنْ تحيا، وتزداد امتدادًا نحو البُلْدَانِ الآسيويّة الشَّرْقِيَّة.

- مارامه[3] (مار أمّا) الإرزني[4] (26 - 29هـ / 647 - 650م)[5]، الجاثليق رقم

(1) - ادي شير: كلدو وآثور2/ 255.

(2) - أدور هرمز ججو النّوفلي: «تاريخ كنيسة المشرق - الجزء 13» (تركية كنيسة المشرق ومختلف الأنشطة فِيهَا)، منتديات باقوفا سبتمبر / 01 / 2007 www.baqofa.com.

(3) - أسقف نينوى ثُمَّ مطران جنديسابور وعقدت لَهُ الفطركة، وتوفي بالمدائن. ماري: فطاركة المشرق ص63.

(4) - سيّار الجميل: خضوع بلاد الرّافدين للدولة العَرَبِيّة الإسلاميّة: 2010 الأحد 21 نوفمبر.

(5) - مار أمّا. سلسلة بطاركة كنيسة المشرق الآشورية. (647 - 650)هذا التاريخ لا يتوافق مَعَ خلافة الإمام عليّ(36 - 40هـ/ 656 - 660م)؛ لَعَلَّ كتاب التوصية مرسل إِلَى الجاثليق الحديابي، الَّذِي يليه.

(37): قَـالَ عَنْهُ ماري بن سليمان[1]: «عقدت لَهُ الفطركـة لمعاونته جيش الْمُسْلِمِينَ فِي فتـح الموصـل، وإخراجه البِرَّ لَهُمْ... وكتب لَـهُ عَلِيٌّ بن أبي طالب كتابـا بالوصاة عَلَيْهِ بالنَّصَـارَى ورعايـة ذمَّتِهم، وَكَانَ يظهره لِكُلِّ مَنْ يتَوَلَّى مِـنْ رؤساءِ الجيوش وأمرائهم، فيمتثلونـه». وكونـه حمل الميـرة والأرزاق إِلَى جنود الْمُسْلِمِيـنَ، وساعد رئيسهم عَبْد اللَّـهِ بْـنِ الْمُعْتَمّ عَلَى الفتح[2]، لا تدلُّ عَلَى تدخُّلِ زعامةِ الْمُسْلِمِينَ فِي عقْدِ الفطركَة لَهُ، بَلْ لَعَلَّ شعورَ رجالِ الكَنِيسَةِ بحِكْمَةِ ماراما، وأهْلِيّته لإِدَارَةِ المرحلةِ الرّاهنَةِ، ومَا لَهُ من وجاهةٍ وقبولٍ لَدَى الْمُسْلِمِينَ، رشَّحَتْهُ إِلَى تسنُّم هذا المنصِبَ.

– مـار إيشوعيـاب الحديابي الثّالـث (29 – 40هـ/ 650 – 660م)[3] الجاثليق رقم (38): فِـي عهـده تمرد كُـلٌّ مِن بَيْتِ قطرايا (قطر) وريو أردشـير[4]، ضـدَّ سلطةِ جاثليقِ كَنِيسَـةِ الشّـرقِ النَّسْطُورِيّـةِ، مطالبيـن بالإستقلالِ عَنْـهُ، لَكِنَّ إيشوعياب حـاوَلَ توحيدِ الطّائفـةِ النَّسْطُورِيّـةِ[5]، وَقَـدْ اشْـتَدَّ هَذَا التّمَـرُّدُ بَعْدَ الإِسْـلاَمِ، حَيْثُ وافقـتْ السّلطاتُ الإِسْلاَميّـةُ - فِي تِلْـكَ المناطق - عَلَى استقلالِهم، ضِمْنَ شـروط معينة[6]. ونشأتْ فِي بيـث قطرايي، وَفِـي بيث مازونايي (عمـان) عَلَى ساحلي الخليج[7]، حركـةُ ارتدادٍ عَنْ الدّيـن الْمَسِيحِـيّ، والدّخولِ فِـي الدّين الجديد. لَكِـنَّ البِطْرِيَرك ايشوعيـاب حاول أنْ

---

(1) – فطاركة المشرق ص63.

(2) – سيّار الجميل: «خضوع بلاد الرّافدين للدولة العَرَبِيّة الإسلاميّة»، مجلة ألفا الالكترونية، الأحد 21 نوفمبر 2010.

(3) – السّمعاني، بولس: تاريخ الآداب السّريانية3/ 35.

(4) – مدينة فِي فارس، بناها اردشير، وتختصر ريشهر، بلد بخوزستان. الطبري: تاريخ 2 / 41؛ ياقوت: معجم البلدان 3/ 112؛ الفيروز آبادي: القاموس المحيط 3/ 36؛ الزبيدي: تاج العروس6/ 448.

(5) – الجمري: «البحرين فِي القَرْن السّابع (4)... تمرد بيت قطرايا»، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 3065، نقلا عَنْ (بوتس 2003،ج2 ص 1039).

(6) – الجمري: «البحرين فِي القَرْن السّابع (5): استقلال بيت قطرايا»، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 3072.

(7) – أن دخول المسيحيّة فِي تلك البقاع كَانَ قديما، يذكر أن أسقف بيث قطرابي كَانَ من الموقعين عَلَىَ أعمال مجمع مار اسحق المنعقد سنة 410م، وكذلك يوحنان أسقف مازون كَانَ من الموقعين عَلَى أعمال مجمع داديشوع سنة 424م. سامي خنجرو: كنيسة المشرق تحْتَ الحكم العَرَبِيّ الإسلاميّ، موقع مانكيش mangish.com، 04/ 09/ 2010.

يُخَلِّصَ قسْمًا مِن رعيَّتِه، فاستدعى الأَسَاقِفَة المُرْتَدِّينَ قَبْلَ إقْرَارِهِمْ بالإسْلَام، لَكِنَّهُمْ أبَوْا الحضُورَ فَنَالُوا الشَّجْبَ مِنْهُ. واسْتَغَلَّ ايشوعِياب الأَدْيِرَة فِي تِلْكَ البقاع، فكتبَ إلَى الرّهبانِ يحثُّهم عَلَى توقيفِ الحركة دُونَ الاكتراثِ لطاعةِ الأَسَاقِفَة المُرْتَدِّينَ الَّذِينَ بلغ عددهم قرابة عشرين أُسْقُفا عَلَى ساحلي الخليج. لَكِنَّهُم أمضوا اقرارَهم بالإِسْلَام، وأقفلوا أمامهم بابَ الرّجوع[1].

أكد إيشوعياب الثالث على التقارب المسيحيِّ الإسلاميِّ، وَهُوَ القائل فِي إحدى رسائله: «إنّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مكنهم الرّبّ من السّيطرة عَلَى العالم يعاملوننا كَمَا تعرفون: أَنَّهُمْ ليسوا أعداء النَّصْرَانِيَّة بَلْ يمتدحون ملّتنا ويوقرون قِسِّيسِينا وقدّيسِينا، ويمدّون يَدَ المعونَةِ إلَى كَنَائِسنا وأدْيرَتِنَا»[2]

- مار جيورجيس الأول (41 – 60هـ = 661 – 680م)[3] الجاثليق رقم (39): هدَّأ من ثورة مطراني نصيبين وفرات ميشان[4]، وزارَ بيتَ قطرايي (قطر) وبيث مازونايي (عمان)، لمتابعةِ الحياةِ الْمَسِيحِيَّة فِيهَا بَعْدَ الرّدَّةِ، وعَقَدَ مجمعًا لأساقفتِها سنة (56هـ/ 676م) فِي جَزِيْرَة دارين (البحرين)، وسُمِّي «مجمع دارين» أَوْ «مجمع جيورجيس»[5]، ونتجَ عَنْهُ عشرونَ قانونًا، مِنْهَا: دِينِيَّة، وإجْتِمَاعِيَّة، وسياسيَّة، رسمتْ علاقة الْمَسِيحِيِّينَ بغيرهم، وبالسّلطة[6].

بَطَارِكَة كَنِيسَة الإسكندريَّة:

---

(1) – سامي خنجرو: «كنيسة المشرق تَحْتَ الحكم العَرَبِي الإسلاميّ»؛ الجمري: م. س.

(2) – ا. س. ترتون، أهل الذمة فِي الإسلام، ترجمة، تحقيق: حسن حبش، (مكتبة الأسرة،1994)؛ وقارن: دوسلييه: مسيحيو الشرق والإسلام فِي العصر الوسيط، ص 124، نقلا عن كتاب الرسائل لإيشوعياب الثالث..

(3) – السّمعاني، بولس: تاريخ الآداب السّريانية 3/ 38.

(4) – توما أسقف المرج: كتاب الرّؤساء، ص79 – 83.

(5) – وَهُوَ رقم (11) من المجامع الَّتِي عقدت فِي كنيسة المشرق. أدور هرمز ججو النّوفلي: «تاريخ كنيسة المشرق – الجزء 13»، منتديات باقوفا، 01/ سبتمبر/ 2007 www.baqofa.com.

(6) – انظر التفاصيل: قاشا: احوال النّصارى فِي خلافة بني أمية، 2/ 339 – 343؛ الجمري، حسين: «البحرين فِي القَرْن السّابع (5): استقلال بيت قطرايا»، صحيفة الوسط البحرينية، العدد: 3072، فِي 03 فبراير 2011م.

- بنيامين، (3ق.هـ - 38هـ/ 620 - 659م) البِطْرِيَك الثّامن والثّلاثون، جلس عَلَى الكرسي الاسكندري، وَلَمْ يَكَدْ يُرَسَّمُ بِطْرِيَكًا حَتَّى أَوْفَدَ هِرْقَلُ، قَيْصَرُ الرّومانِ، وَالِيًا وبِطْرِيَكًا عَلَى مِصْرَ يدعى «كيروس»، وأبَى البابَا «بنيامين» قبولَ تعاليمِ الوالِي، فأخذ «كيروس» فِي اضطهاده مِمَّا دعاه إِلَى التّخفي من وجه العنف عشر سنين، وَلَمَّا بلغه قدوم عمرو إِلَى مِصْرَ، كتب إِلَى القبط يُعْلِمُهم أَنَّهُ لا تكون للرومِ دولةٌ، وأنَّ مُلْكَهُمْ قَدْ انقطع، ويأمرُهم بتلقّي الْعَرَب. فيقال: إِنَّ القبط الَّذِينَ كَانُوا بـ «الفرما» كَانُوا -يومئذٍ- لعمرو أعوانًا[1].

حِينَ استولى الْعَرَبُ عَلَى مِصْرَ قرَّبَ عمرو بن العاص كِبَارَ الأَقْبَاطِ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ رجل اسمه «شنودا»، فأعلمه بخبر البِطْرِيَك بنيامين وهروبه، فطلبَ مِنْهُ أَنْ يأمرَ بعودته، وكتب لَهُ كتابَ أمانٍ، فحضر البِطْرِيقُ، وأكرمه عمرو، وأقسم لَهُ بالأمَان عَلَى نفسه وعلى رعيته، وقيل أَنَّهُ طلب مِنْهُ أَنْ يُصَلِّيَ لأجلِه، حَتَّى إِذَا رجع مُنْتَصِرا من حروبه الأُخْرَى، يجيبه إِلَى كُلِّ مَا يطلبه، فدعا لَهُ البِطْرِيَك، وتم لعمرو مَا أراد، فعزل بِطْرِيَك هرقل، وأرجع بنيامين إِلَى مركزه مكرما...[2]. وينقل عَنْ بنيامين لَمَّا عاد إِلَى الإسكندريَّة قَالَ لأتباعه: «عدت إِلَى بلدي الإسكندريَّة، فوجدت بِهَا أمنًا من الخوف، واطمئنانًا بَعْدَ البلاء، وَقَدْ صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم»[3].

بطارقة الكَنِيسَة القبطِيَّة

- أغاثو - البِطْرِيَك التّاسع والثّلاثون، (38 - 57هـ/ 659 - 677م) جلس عَلَى كرسي البِطْرِيَكية بَعْدَ معلمه بنيامين. وَلَمَّا فتح الْعَرَب عدَّةَ ولاياتٍ وجُزُرٍ للروم فِي

(1) - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص80؛ أبو عبيد البكري: المسالك والممالك (دار الغرب الإسلاميّ 1992م) 2/ 597.

(2) - القمص، الشّماس منسي: تاريخ الكنيسة القبطية، ص379

(3) - المقريزي: الخطط 4 / 407، 408؛ مُحَمَّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين الفتوحات والإنجازات السّياسيّة (دار النّفائس، بيروت، 2003) ص316.

أمشير[1] سنة 659م فِي خلافة عَلِيّ بن أبي طالب[2]. نهبوا كُلّ مَا فِيهَا، وسَبُوا أهلَها، وأتوا بِهِمْ إلَى مِصْرَ، فَكَانَ البابا اغاثو يبتاعُ مِنْهُمْ الرّجالَ والنّساءَ بالفضَّةِ والذّهَبِ، ويأتي بِهِمْ إلَى بيوتِ الْمَسِيحِيِّينَ خوفًا منْ أنْ يُسْلِموا[3].

البَطَارِكَةُ السّريان الأرثوذكس فِي أنْطَاكِيَة[4]

إنَّ بَطَارِكَةَ أنطَاكِيَة بَعْدَئِذْ إفْتَتَحَها الْمُسْلِمون سنة (16هـ/ 637م) لا يمكن القطع ببطركتِهِم، إذْ لَمْ يجلسْ فِيهَا بِطْرِيَك إلَى سنة (124هـ/ 742م)، بَلْ كَانَ بَطَارِكَتُها يُقِيمُونَ فِي قُسْطَنْطِينِيَّة[5]؛ وَلَكِنْ نذكرُهم لأنَّهُمْ تم تسميتهم عَلَى أنطاكِيَةَ:

1 - البِطْرِيَك أثناسيوس الأول الجمال (28ق.هـ-10هـ/ 595 - 631): اعترف بِطْرِيَك القُسْطَنْطِينِيَّة مقدونيوس (6 - 19هـ/ 628 - 640م) بِبِطْرِيَك اليَعَاقِبَة اثناسيوس الجمال بِطْرِيَكا عَلَى أنطاكِيَةَ مُقَابِلَ اعترافِهِ بالطّبيعتين والمشيئةِ الواحِدَة[6]. إثْرَ المصالحة بَيْنَ مملكتي فَارِسَ وبِيزَنْطة سنة 628م، بعث «أثناسيوس» موفدا إلَى مفارنة تكريت، والتّفاوض مَعَهُمْ، فِي إسْتِئْنَافِ الإتّحَادِ مَعَ الكُرْسِيِّ الإنْطَاكِيِّ، دَعَامَةً لكَنيسَة المشرق، ورحب بالفكرة «مار خُريسطفورُس» مطران دير مار متي، وعقد مجمعا بحضور أربعة من أسَاقِفَة الابرشيات القريبة، لاعلان الاتحاد، الّذِي نظم صلاحيات ترسِيمَات الكرسي الانطاكي لأسَاقِفَة ميفرانية تكريت[7].

2 - البِطْرِيَك جاورجيوس الأول (19 - 35هـ/ 640 - 655م) الَّذِي أعلن قوله بالمشيئة الواحدة، ووافقه مقدونيوس عَلَى تعميمه فِي ابرشيات أنطاكِيَة، وَقَالَ بِهِ

(1) - أمشير: الشّهر السّادس من شهور القبط، وَهِيَ: توت - بابه - هتور - كيهك - طوبه - أمشير - برمهات - برموده - بشنس، بؤونه - أبيب - مسرى - انظر: المقريزي: الخطط 2/ 25.

(2) - لم يكن التاريخ دقيقا، إذْ أن 659م يوافق سنة 38هـ. ولعلها كانت في آخر عهد الخليفة عثمان (36هـ/ 656م)، حيث الفتوح فِي افريقيا والبحر الأبيض المتوسط.

(3) - القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، ص382؛ الموسوعة القبطية الشّاملة (اغاثون).

(4) - الموسوعة الحرة، ويكيبديا (بطاركة)

(5) - يوسف الدبس، المطران: تاريخ سوريا الديني والدنيوي، 5ج (دار نظير عبود) 5/ 64.

(6) - اسد رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية 2/ 39 - 40.

(7) - ابن العبري: التاريخ الكَنَسِي 3/ 117 وبعدها.

عدد من الأَسَاقِفَة، بضمنهم رهبان القديس مارون. وَفِي دوامة الحروب فِي المنطقة لَمْ يتمكن البِطْرِيق من الوصول إِلَى أَنْطَاكِيَة، فبقي فِي القُسْطَنْطِينِيَّة[1].

بَطَارِكَة أورشليم (بيت المقدس)

- زَكَرِيَّا (- 10هـ/ 609 - 631): فِي السّنة السّادسة لبطركته غزى كِسْرَى سُورِيَة، وافتتح أورشليم، وقبض عَلَى الْمَسِيحِيِّينَ، وباعهم إِلَى اليهود بأبخس الأثمان، وأخذ البِطْرِيكَ زَكَرِيَّا وخشبة الصَّلِيب إِلَى فَارِسَ، وردهما هرقل فِي غزوته فَارِسَ سنة (6هـ/ 628م) إِلَى أورشليم[2]، وكلا الغزوتين راهَنَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمون وأهل مَكّة، وَقَدْ تنبأ بِهِمَا القُرْآن (الرّوم2 - 3).

- مودست (10 - 13هـ/ 632 - 634م)[3]

- صفرونيوس بلنتاس (13 - 16/ 634 - 637م) هُوَ الَّذِي أشار عَلَى سكان أورشليم ان يستسلموا للفتح سنة (15هـ - 636م) عَلَى يَدَي الخليفة عمر بن الخطّاب، وَبِحَسَبِ خريسوستموس: هُوَ البِطْرِيك الَّذِي سلم أورشليم المدينة المقدسة إِلَى عمر[4]، وَكَانَ صفرونيوس من أصحاب المؤلفات، وَلَهُ: «مَرْيَم المَصْرية» و«تهذيب الفروض البيعية»[5].

بعدها تَوَقَّفَ تَسَنُّم البَطَارِكَة مناصبَهم فِي أورشليم حَتَّى سنة (86هـ/ 705م).

مفارنة[6] السّريان المنوفستيّين فِي المشرق (تكريت):

---

(1) - اسد رستم: م. س. 2/ 40.
(2) - يوسف: الدبس: م. س. 5/ 66.
(3) الدبس: تاريخ سوريا الديني والدنيوي 5/ 67.
(4) - بابادوبولس: تاريخ كنيسة انطاكية، ص532.
(5) الدبس: م. س. 5/ 68.
(6) - جمع مفريان: أسقف عمومي للسريان المنوفستيّين أصحاب الطبيعة الواحدة، يحاكي جاثليق النَسَاطِرَة فِي الرّئاسة والسّياسة، وأطلقوا عَلَيْهِ اسم مفريان مَفريُنُا، وَهُوَ لفظ سرياني مشتق من فعل اَفرِي ومعناهُ انشأ وأحدث واستنبط وأثمر، فكأنهم قصدوا بذلك إنشاء رئاسة حديثة خوّلوها امتيازات تتوسط ما بَيْنَ امتيازات البطاركة والأساقفة. اسحق أرملة السّرياني، القس: «جَثالقة المشرق ومَفارنة السّريان»، أبْرَشِيَّة حلب للسريان، http: / /syrcata.org/ .

ماروثـا التَّكريتـي: المَفرِيَان رقم (34)، تربى فِي دير نردس، وسـار إلَى الرّقة، وبَعْدَ أنْ أقام عشرين سنة فِي دير زكى، عاد إلَى الرُّها، وشـخص إلَى دير مار متَّى بالموصل، ونظَّـم لرهبانـه طقسـاً وقوانيـن جليلـة. ثُمَّ قصـد الكوفة واعتكـف فِي دير شـابور، ثُمَّ عـاد إلَى دير مار متـى. انتخبه أسَاقِفَة المشـرق[1] رئيسًا وطَبًا عموميًـا، فرسمه البِطْرِيَرك اثناسيـوس الجمَّـال بِطْرِيـك السّريان (28ق.هـ - 10هـ/ 595- 631م) مفريانًا، أي جاثليقـاً لتكريـت سنـة (8هـ/ 629م) وأناط بِـهِ سياسة كَنِيسَـة المشرق، وفـوّض إلَيْهِ أن ينصِّـب مطرانًـا لدير مار متـى، وعقد المفريـان والأَسَاقِفَة فِي دير مـار متى مجمعاً، ونظمـوا اثنتـي عشرة أَبْرَشِـيَّة أُسْقُفية، خاضعة لكرسـي مفريان تكريت وَهِـيَ: باعربايا (أرض ربيعـة)، وسنجـار، ومعلثـا (ملاصقة لزاخـو)، وأرزون (من نواحـي تكريت)، وجومـل، وبيـث رامان، وكرمـي (الأنبار)، وجَزِيْـرَة ابن عمر، وبيث نوهـدرا، وفيروز شـابور، وشـهرزور[2]، والْعَرَب التَغْلِبيين، وخصصوا نينوى بمطـران الدّير[3]. ثُمَّ توجّه ماروثـا المفريـان إلَـى تكريـت ورسم ثلاثـة أَسَاقِفَـة لـ: سجستـان وخراسـان وهراة. وشـيد دير العجاج بَيْنَ تكريت وهيت عَلَى طريق دجلـة إلَى الفرات والكوفة باسم مار سرجيس الشّهيد فِي عين جاج[4]، ورام أن يؤسس كَنِيسَة فِي الموصل، فصدَّه عَنْ ذَلِكَ يشوع الثّالثّ جاثليق النَّسَاطِرَة. وتوفي ماروثا (12/ شعبان8/ 28هـ = 12 أيار 649م) وساس كرسي تكريت عشرين سنة. ومن آثار قلمه تفسير الإِنْجِيل، ونافورة، وأناشـيد،

---

(1) - وهم: جورجي أسقف سنجار، ودانيال أسقف بيث نوهدرا (زاخو)، وغريغور اسقف بيث رمّان، ويزدفنه أسقف شهرزور(قرب دهوك)، وَكَانَ معهم ثلاثة رهبان، وهم: ماروثا، وايثالا، وآحا. اسحق أرملة: «جثالقة المشرق ومفارنة السّريان».

(2) - كورة واسعة فِي الجبال بَيْنَ إربل وهمذان، عَلَىَ مسافة من الدينور أربع مراحل، وكذلك من حلوان إلَى شهرزور أربع مراحل. الإدريسي (ت 560هـ): نزهة المشتاق فِي اختراق الآفاق (عالم الكتب، بيروت 1409) 2/ 676؛ ياقوت: معجم البلدان 3/ 375.

(3) - انظر: ابن العبري: تاريخ السّريان، ص 115؛ اسحق رملة: «فِي البطريكية الانطاكية»، مجلة المشرق (عدد21) [سنة1923]: ص503؛ أرملة: «جثالقة المشرق ومفارنة السّريان». ص 34، بحث، أَبْرَشِيَّة حلب للسريان الكاثوليك

(4) - سلوى بلحاج: المسيحيّة العَرَبِيّة وتطورها، ص 170.

وحسّايات[1].

دنحا الأول: المفريان رقم(35)، بَعْدَ وفاة ماروثا رأى ثاودور البِطْرِيَرك (28 - 47هـ/ 649- 667م) أن يرسم بيدِهِ مفرياناً لتكريت، فأوفد إلَى أسَاقِفَة المشرق والرّؤساء، واصطفوا دنحا تلميذ ماروثا، فنصبهُ عَلَى كرسيه. فقام برعاية الأبرشيَّة مدّة عشرة أعوام أحسن قيام، ولقي حتفهُ فِي(29/ جمادى أولى5/ 39= 3/ تشرين الثّاني/ 659). واتّفق آنئذٍ أن أمير الْعَرَب توَّغر عَلَى جرجس جاثليق النَّسَاطِرَة، واضطره أن يدفع لَهُ مبالغ جسيمة، والقاه فِي السّجن، وقوّض جملةً من كَنَائِس النَّصَارَى فِي الكوفة والحِيرَة معاً[2].

4. مظاهر عصر الخِلَافَة الراشدة:

يشير لوبون «Gustave Le Bo»[3] إلَى أن الأرمن القدماء قَدْ سَجَّلوا فِي سِجِلاَّتهم الْكَنَسِيّة، وتناقلوا فِي موروثهم بأنَّ تاريخهم لَمْ يعرف ارحم من الْعَرَب فِي تعاملهم مَعَ الأرمن إبَّانَ الامتدادات الْعَرَبِيّة الإِسْلَامِيّة الأولى.

وإثرَ مَا شرَّعَه القُرْآن، وما سنَّهُ الرّسول مُحَمَّدٌ فِي سيرته، تجاه أهل الكتاب والدِّيَانَات الأُخْرَى، ظَلَّتْ مكانَةُ أهلِ الذِّمَّةِ محمُودَةً فِي ظِلِّ الرّعايةِ الْحُقُوقيَّةِ لدولةِ الإِسْلَام، الَّتِي شَمَلَتْ تَنَوُّع الإِنْسَانِ كافَّةً، فِي اتخاذِها شعارَ «النّاس صنفان: إمَّا أخٌ لكَ فِي الدِّينِ أوْ نَظِيرٌ لكَ فِي الخَلْقِ»[4].

يلحَظُ تطبيقُ العدالة فِي حُقُوقِ الإِنْسَانِ، إبَّانَ خِلَافَة الإمام عَلِيّ (656 - 660م/ 36 - 40هـ) عندما مر شيخ مكفوف كبير يسأل، فقال، مُسْتَنْكِرا: مَا هَذَا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، نَصْرَانِيّ، فقال: استعمَلْتُمُوه، حَتَّى إِذَا كَبُرَ وعَجَز مَنَعْتُمُوه!؛ انفقوا عَلَيْهِ من

(1) - اسحق أرملة السّرياني: «جثالقة المشرق ومفارنة السّريان» ص34.

(2) - اسحق أرملة: م. ن، ص 35.

(3) - غوستاف لوبون (1841 - 1931): حضارة العرب، ص 435؛ سيّار الجَميل: «الأرمن العِرَاقيون. - الخصوصيّة والجاذبيّة والأسرار الحيويّة»، مقال: مجلة إيلاف، الأحد 17 أكتوبر ،2010.

(4) - للامام علي، انظر: ابن شعبة الحراني: تحف العقول، (مؤسسة النّشر الإسلاميّ،جماعة المدرسين، قم) ص127؛ القلقشندي: صبح الاعشى فِي كتابة الانشا 10/ 11؛ مآثر الانافة فِي معالم الخِلَافَة 3/ 7.

بيت المال[1]، وتبعه عَلَى هَذَا المنهج عمر بن عبد العزيز (718 - 720م / 99 - 101هـ) فِي كتابه إلَى عامله عَلَى البصرة: «وانظر من قبلك من أهل الذِّمَّة، من قَدْ كبرت سنُّه، وضعفت قوته، وولَّت عَنْهُ المكاسب، فأجْرِ عَلَيْهِ من بيت مال الْمُسْلِمِينَ مَا يصلحه»[2].

وأجمل هَذَا التّعامل «أ. س، ترتون» بقوله: إنَّ «فِي الأخبار النَّصْرَانِيَّة شهادة تؤيد هَذَا القول، وَهِيَ شهادة البِطْرِيَرك «عيشوبايه» الَّذِي تولى منصبه من سنة (647هـ - 657م)، إِذْ كتب يَقُولُ: إن الْعَرَب الَّذِينَ مكنهم الرّب من السّيطرة عَلَى العالم، يعاملوننا كَمَا تعرفون، أَنَّهُمْ ليسوا بأعداء للنَصْرَانِيّة، بَلْ يمتدحون ملتنا، ويوقرون قديسينا وقِسِّيسِينا، ويمدون يد المعونة إِلَى كَنَائِسنا وأديرتنا»[3].

وَقَدْ أخرج عمر بن الخطَّاب اليهود والْمَسِيحِيِّينَ من جَزِيْرَة الْعَرَب، لِأَنَّهَا أرض الإِسْلَام المقدسة، وتعزو إِلَيْهِ إحدى الرّوايات غير المؤكدة «عهداً» قَيَّدَ فِيهِ حقوقهم بوجهٍ عام، لَكِنَّ هَذَا العهدُ، إنْ كَانَ قَدْ عُقد، فَقَدْ أُغْفِلَ العَمَلُ بِهِ، وظلت الكَنَائِس الْمَسِيحِيَّة فِي مِصْرَ تَتَمَتَّع فِي أيام هَذَا الخليفة بالميزات، الَّتِي منحتها إِيَّاهَا الحكومةُ البِيْزَنْطيَّة قَبْلَ الفتح الْعَرَبِيّ[4].

أهم مظاهر العصر:

- تمازج حضاري قائم عَلَى الأثر والتّأثر بالأَقْوَى فِي العادات والتّقاليد والقيم الاِجْتِمَاعِيَّة والدّينيَّة، وصياغتها بالصّيغة الْعَرَبِيّة الإِسْلَاميّة، مِمَّا أسهم فِي ضمور اهتمام الشّعوب بقيمها الحَضَارِيَّة تدريجيًّا، والابتعاد عَنْ تراثها. واذا أخذنا بفكرة اعدام مصادر التّراث العلمي والفِكْرِيّ للحَضَارَات الأُخْرَى، كما حدَثَ في الإسكندرية وفارس، بهدف إرساء تراث القُرْآن، تكون العَمَلِيَّة مدبّرة، ومشبعة بالأحتوائية، وعَلَى الرَّغمِ مِنْ إحاطتها بأصالة الحرص عَلَى الدّين الجديد، إِلَّا أَنّها تكشف عَنْ سذاجتها،

---

(1) - الطوسي: تهذيب الأحكام، (ط4، دار الكتب الإسلاميّة، طهران) 6/ 293؛ الحر العاملي: وسائل الشّيعة 15/ 66.

(2) - أبو عبيد: الأموال 45 - 46.

(3) - ا. س. ترتون، أهل الذمة في الإسلام، (مكتبة الأسرة،1994)ص 93.

(4) - ديورانت: قصة الحضارة، 13/ 131

لكونها العصا الَّتِي وضعت فِي عجلة التّطوّر العلميّ والمعرفيّ العالميّ لقرنين، حَتَّى عصر الترجمة، والاستعانة بكتب اليونان وعلومها عَنْ طريق السّريان، وأرستْ الحجابَ الحاجز لمعرفة تاريخ حَضَارَات، شغلت الدّنيا وأنماط نظمها، كالحضارة الفارسيَّة، الَّتِي لَمْ نعرف مِنْهَا الا الفتات، الَّذِي اضطلع بِهِ مؤلفو الإِسْلَام ومُؤرِّخوه، من خلال اطّلاعهم على الحضارة الهنديّة، التي تاثرت بالفرس، ولاسيما بعد الفتوح الإسلامية، إبّان هجرة النخب الفاعلة في المجتمع الفارسي إليها.

- فرض لغة الْعَرَب، لغة القُرْآن والفروض العِبَادِيَّة الإِسْلَاميّة، ولغة الدّولة الحاكمة والمعاملات، عَلَى نحو ضمرت فِي الاتجاه الآخر لغات الشّعوب المفتوحة كالسّرْيانيّة والقبطِيَّة واليُونانِيّة. يبدو أنَّ أوَّلَ ورقةَ بَرْدِيٍّ مكتوبةٍ باللغةِ اليُونانِيّةِ والْعَرَبِيّةِ مَعًا ظهرتْ سنةَ 22هـ/ 643م، وآخِرَ واحدَةٍ سنةَ 100هـ/ 719م[1]، يُؤَكّدُ تَقَدُّمَ الكتابةِ الْعَرَبِيّةِ عَلَى لغاتِ العصْرِ آنَذَاكَ فِي بِضْعَةِ عُقُودٍ، كَمَا وأكّدَ الحرفُ الْعَرَبِيُّ وأبجديتُه السّيادةَ عَلَى الكتابةِ الفارسيَّةِ والتّركيَّةِ وغيرِها[2]، وبُغْيَةَ سَدِّ حَاجَةِ التَّعارُفِ، والتّفاعُلِ بَيْنَ الشّعوبِ، نَمَتْ اللُغَةُ الْعَرَبِيّةُ، واتّسَعَتْ قوامِيسُها، وادَّخَرَتْ مُفرداتٍ عَدِيدَةً من غيرِها، سُمِّيَتْ بالمُعَرَّبِ والدَّخِيلِ والمُوَلَّدِ[3]، ونشأتْ – عَنْ

---

(1) – قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة، ص38.

(2) – اللُغَة التترية: يانكا إملا. اللُغَة الباشقوردية. اللُغَة الأوردية. اللُغَة الكشميرية. اللُغَة البشتونية. اللُغَة الطاجيكية. لغة ديفيهي. اللُغَة القمرية. اللُغَة البربرية. اللُغَة الكردية. بهاسا. لغة ماندينكا. اللُغَة الملاوية. اللُغَة البلوشية. اللُغَة البالتية. اللُغَة البراهوية. اللُغَة البنجابية. اللُغَة السّندية. اللُغَة الويغورية. اللُغَة الكازاخية. اللُغَة القرغيزية. اللُغَة الأذرية. اللُغَة الأروية. اللُغَة المالايالامية بحروف عَرَبِيّة. اللُغَة الأفريكانية: أفريكانس عَرَبِيّة. اللُغَة البيلاروسية بحروف عَرَبِيّة. اللُغَة المستعربة. اللُغَة الجيلاكية. اللُغَة الطبرية اللُغَة اللورية. اللُغَة السّرائيكية. اللُغَة الدارية. اللُغَة الجغاتية (الشّاغاتية). اللُغَة الشّياورجنة. اللُغَة الشّيشانية. «لغات تستخدم الأبجدية العَرَبِيّة رسمياً»، أرشيف منتدى الفصيح لعلوم اللُغَة http: / /www.alfaseeh.com /vb /showthread.

(3) – انظر: أبو بكر، مُحَمَّد بن القاسم الأنباري: الزاهر فِي معاني كلمات النّاس، (مؤسسة الرّسالة، بيروت، 1992) 1/ 154؛ السّيد اذي شير: معجم الألفاظ الفارسية المعربة، (مكتبة لبنان، بيروت 1990) ص 96؛ حلمي خليل، الدكتور: المولّد فِي العَرَبِيّة (دار النّهضة العَرَبِيّة، بيروت 1405) ص128؛ مُحَمَّد حسن عبد العزيز: التعريب فِي القديم والحديث، (دار الفكر العَرَبِيّ، القاهرة)؛ مُحَمَّد السّيد بلاسي: «اللغة العَرَبِيّة بَيْنَ التأثر والتأثير»، مجلة اللسان العَرَبِيّ، العدد (34) 1410 – 1990؛

تمازُجِ الْعَرَبِيّةِ ببعضِ لُغَاتِ البلادِ المفتوحةِ - لُغَاتٌ مُوَلَّدَةٌ[1].

- اتساع رقعة الإِسْلَام عَلَى خَارِطَة الأَدْيَان، وَهُوَ مَا تهدف إِلَيْهِ الدَّولَة العَرَبِيَّة، وضمرت أَوْ ذوَت قبالها الأَدْيَان فِي البلاد المفتوحة عَلَى نحو تدريجيّ، وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وجود الْحُرِّيَات الدّينِيَّة فِي مقابل الْجِزْيَة، بَيْدَ أَنَّ حجمَ الضَّغوطِ السِّيَاسِيَّةِ والاقتصاديَةِ والِاجْتِمَاعِيَّةِ والنَّفسِيَّةِ والإِدَارِيَّةِ عَلَى غيْرِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ لَهُ الأثَرُ البالِغُ، كمَا تَحَصَّلَتْ المَسِيحِيَّة فِي الحِيرَة والكوفةِ والبحرين حَتَّى عُمان.

- اعتماد العنصر الْعَرَبِيّ فِي الوظائف السُّلْطَانِيَّة، وتفضيله فِي العطاء، وتكريمه مطلقا، فِي وقت شاع الدّخول فِي الإِسْلَام من غير الْعَرَب، برزت طبقة كبيرة سميت" الموالي"، وَهُمْ غَيْرُ الْعَرَب المنتسبين إِلَى القَبَائِل الْعَرَبِيّة، حفاظًا عَلَى الكرامةِ والتّقديرِ فِي الْمُجْتَمَع الْعَرَبِيّ. وَكَانُوا فِي عهدِ الرّسولِ مُحَمَّدٍ يَحْظَوْنَ بالمساواةِ مَعَ باقِي الْمُسْلِمِينَ فِي العطاءِ وغيرِه، وكَذَا أَبُو بكر كَانَ يَقُولُ: وَهَذَا مَعَاشٌ فَالأُسْوَةُ فِيهِ خَيرٌ مِنْ الإِثْرَةِ[2]. وَلَمَّا أُسْتُخْلِفَ عُمَرُ بن الخطَّاب قَالَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَأَى فِي هَذَا الْمَالِ رَأْيـا، وَلِي فِيهِ رَأْيٌ آخَرُ، لَا أَجْعَلُ مَنْ قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ كَمَنْ قَاتَلَ مَعَهُ[3]، ففي سنة (15هـ/ 636م) دُونَ بيت المال[4]، وقسم العطاء عَلَى القدم فِي الإِسْلَام والعمل فِيهِ وبدأ بِبَنِي هَاشِمِ رَهْطِ النَّبِيِّ[5]، فالاقربُ من قُرَيْش، إِذْ فرَضَ إلاَّ عَلَى القَبَائِل[6]، قَالَ

أحمد رضا: مولد اللُّغَة (دار الرّائد العَرَبِيّ، بيروت 1983م) ص108.

(1) - أن نشوء اللُّغَة الأوردية جاء نتيجة لأثر اللغتين الفارسية والعَرَبِيّة عَلَى اللهجات الأصلية فِي شبه القارة الهندية (وعلى الأخص فِي السّند والبنجاب) عندما خضعت للحكم الإسلاميّ، فأصبحت الفارسية والعَرَبِيّة بمثابة لغة الاشتقاق للغة الأوردية الَّتِي تطورت بدورها فوطدت لنفسها استقلالاً. عمر حليق، الدكتور: الاتجاهات الحديثة فِي الثّقافة الأوردية، مقال، مجلة الرّسالة، 1004/ 18.

(2) - أَبُو يوسف: الخراج، ص 53.

(3) - أَبُو يوسف: م. ن، ص 54.

(4) - الطبري: تاريخ الرّسل والملوك3/ 613؛ ابن الأثير: الكامل فِي التاريخ 2/ 331. وقال البلاذري: فِي سنة عشرين. فتوح البلدان، ص 439.

(5) - أَبُو يوسف: م. س، ص 55.

(6) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب 1/ 5؛ عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية 2/ 205.

الجاحظ[1]: «وفرض لِسِوَى هَؤلاَءِ النَّفَرِ مِن العَجَمِ من الحاشِـيَةِ، والعَوَامِ مِمَّنْ سُبِيَ وأُسِـرَ، وخَرَجَ فِـي الصّلْحِ مَعَ رئيسِـهِ وقائِدِهِ، فِي أقلِّ مِمَّا فرضَ للأعرابِ وحاشـيةِ الْعَرَبِ وعوامِّهم».

وَكَانَ البون شـاسعا فِي العطاء المتفاوت بَيْنَ اثني عشر ألف درهم لكبار الصّحابة، وَبَيْـنَ ثَلاثَمِائَةٍ أَوْ مائتين فِـي السّنَةِ للموالي[2]، مِمَّا ولّد تباينا طبقيا، وحقدا عصبيا؛ بِهَذَا المعنـى قـرأه ابـن شـاذان[3]: «فضَّل المهاجريـن عَلَى الأنصـار، وفضَّل الأنصـار عَلَى الْعَـرَب، وفضَّـل الْعَرَب عَلَى الموالي، فَلَـمْ تزل العصبيَّةُ ثابتةً فِي النّـاس، مِنْذُ ذاكَ إِلَى يومنـا هَـذَا، ورسول الله يَقُـولُ: الْمُسْلِمون إخوة تتكافؤ دماؤهـم ويسعى آخرهم بذمة أولهم[4]».

أوعـز بعـضُ المؤلفين إِلَى مَا كَانَ يستشعره الموالي مـن قِلَّةِ العطاءِ، سبَّبَ فِي مقتلِ الخليفـة عُمَـر، فإِنَّ أَبَا لؤلـؤة فيروز[5] كَانَ يستقل عطـاء عمر، فَإِنَّهُ كَانَ يفـرضُ لَهُ عَلَى مَـا ذُكِرَ عشريـن دِرْهَمًا[6]، أَوْ أَنَّهُ كَـانَ يشْكُو للخليفةِ أنَّ الخراجَ كَثُـرَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُخَفِّفْ عَنْهُ[7].

مَـا آلَـتْ إِلَيْـهِ الْمَسِيحِيَّـة الْعَرَبِيّة فِـي عهد الخلفـاء الرّاشِـدِين، يخلصُ فِي أَنَّـهُ بَعْدَ

---

(1) – الجاحظ: العثمانية، ص 213.

(2) – فَرَضَ لِلْعَبَّاسِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَلِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَشَرَةَ آلاَفٍ، وَزَادَ عَائِشَةَ أَلْفَيْنِ، وَلِلْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْرًا خَمْسَةَ آلاَفٍ، وَلِلأَنْصَارِ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْرًا أَرْبَعَةَ آلاَفٍ، ثُمَّ فَرَضَ لِلنَّاسِ ثَلاثَمِائَةٍ وَأَرْبَعَمِائَةٍ لِلْعَرَبِيِّ وَالْمَوْلَى. أَبُو يوسف: م.س، ص54 – 56؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى 8/ 67؛ أَبُو عبيد: الأموال، ص 289؛ ابن زنجويه: الأموال 2/ 501.

(3) – الفضل بن شاذان الأزدي (ت260هـ): الإيضاح، (مؤسسة انتشارات دانشگاه، طهران، 1405هـ) ص250 – 253.

(4) – القرطبي: فَقَالَ: «الْمُسْلِمونَ تتكافؤ دِمَاؤُهُمْ». وَإِذَا كَانُوا فِي الدِّمَاءِ سَوَاءً فَهُمْ فِي غير ذَلِكَ شي وَاحِدٌ. التفسير 3/ 76.

(5) – قَالَ ابن الوردي: كَانَ أَبُو لؤلؤة نَصْرَانِيًا. تاريخ 1/ 142؛ ومُحَمَّد بن حبيب، قال: كَانَ مجوسيا. المحبر 12؛ وابن كثير، قال: مَجُوسِيُّ الأَصْلِ، رُومِيُّ الدَّارِ. البداية والنّهاية 7/ 137.

(6) – الباقلاني: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، (مؤسسة الكتب الثّقافيّة – بيروت 1993م) ص538.

(7) – ابن شبة: تاريخ المدينة 3/ 893؛ ابن حبان، البُستي (ت 354هـ): الصّحيح، (مؤسسة الرّسالة، بيروت، 1988م) 15/ 331؛ الحاكم: المستدرك عَلَى الصّحيحين 3/ 97.

الاتصــالات الأوليّة بَيْــنَ الْمُسْلِمِيــنَ وبعض الْمَسِيحِيِّــنَ فِي عهد النّبوّة، شــهدت فترة الخِلَافَـة الرّاشـدة بداية ضمـور الْمَسِيحِيَّة بَيْـنَ الْعَرَب فِـي الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّـة، وتقلّصها وتلاشِيها فِي الشّام والعِرَاق. فَقَدْ تمّ الانتصار عَلَى مسيحيّي الأطراف الشّماليّة للجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة الَّذِينَ تمردوا كَمَا فِي دومة الجندل، ثُمَّ الاستحواذ عَلَى الحِيرَة رغم بقائها مركزاً للمَسِيحِيَّـة الْعَرَبِيّـة حَتَّى ذَلِكَ الحين. لَكِنَّ خِلَافَةُ عُمَر شَـهِدَتْ تَحَوُّلَاتٍ عديدةً؛ مثل: إجلاء مسيحيّـي نَجْرَان، وتوطينهم فِي نَجْرَانيَّة الكوفة، وارْتِحَال جماعات الْمَسِيحِيِّنَ الْعَـرَب، إياد وغَسَّان، من الشّام والعِرَاق إِلَى بـلاد الرّوم، فِي حِينَ تحول قسم مهم من مسيحيّي الشّام والعِرَاق إِلَى الإِسْلَام.

و شهدت خِلَافَة عثمان زوال الْمَسِيحِيَّة من عمان. ويمثل قضاء عَلِيّ بن أبي طالب عَلَـى تمـرد مسيحيّي بني ناجية قرب ساحل فَارِس، وإرجاعهـم إِلَى الإِسْلَام، المرحلة الختاميـة من تاريخ الْمَسِيحِيَّة فِي عهد الخلفاء الرّاشِـدِين. وَهَكَذَا لَمْ تتمكنْ الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة من مقاومةِ الإِسْلَام، أَوْ الصّمود أمامَ زحفِه عَلَيْهَا، كَمَا كَانَ الحال مَعَ الْمَسِيحِيَّة السّرْيانِيّة والْمَسِيحِيَّة اليُونانِيّة، خَاصَّة فِي الشّام والعِرَاق[1].

---

(1) - مُحَمَّد الخزعلي: «المسيحيّة العَرَبِيّة وتطوراتها. مجلة التّسَامُح، عدد2، وزارة الأوقاف، سلطنة عمان.

الفصل الرّابع
العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيّة فِي عصر الدّولة الأُمَوِيّة

1. الدّولة الأُمَوِيّة - نشأتُها وميزاتها

تنسب الدّولة الْأُمَوِيّة إِلَى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ثانية الأسرات الَّتِي مثَّلت دورًا مهمًّا فِي قبيلة قُرَيْش من مَكّة أم القرى إِلَى الدَّوْلَة العَرَبِيَّة فِي أوسع آفاقها، وَكَانَ بنو أمية من المتأخرين فِي دخول الإِسْلَام، إِذْ أسلم أَبُو سفيان بن حرب عِنْدَ فتح مَكّة. الا أنَّ لَهُمْ وجودًا ملحوظا فِي فتوح الشّام، فأثبتت لَهُمْ قدم الولاية فِيهَا مِنْذُ خِلاَفَة عمر بن الخطّاب، يتمثل بـ: يزيد بن أبي سفيان، فمعاوية أخيه بين18 – 19هـ/ 639 – 640[1].

كَانَ لنشأة الدّولة الْأُمَوِيّة قصّةٌ مشهورة، مهّدت لها فتنةُ مقتل الخليفة عثمان، واتكأتْ عليها، إبّان اعتزال معاوية بالشّام عَنْ خِلَافَة عَليّ بن أبى طالب، بحجّة أنَّ عليًّا تهاون فِي الدّفاع عَنْ عثمان. وأسفرت هَذِهِ الفتنة عَنْ معارك عنيفة بَيْنَ الجانبين، استمرت حَتَّى مقتل الامام عَلَى يد الخوارج، يوم 17 رمضان سنة 40 هجرية. وَكَانَ من الممكن أنْ تستمرَّ هَذِهِ المحنة طويلاً، لَوْلَا أنَّ الحسن بن عَلَى، الذّى بويع بالخلافة بَعْدَ أبيه، فضّل التّنازل عَنْ الأمر لمعاوية حقنًا لدماء الْمُسْلِمِينَ فِي عام 41هـ/ 661م.

من ميزات الدّولة الْأُمَوِيّة، الَّتِي اختارت دِمَشْقَ عاصمةً لها، واستغرقت طولا قرنًا الا

---

(1) - البلاذري: أنساب الأشراف 5/ 11؛ ابن الأثير: أسد الغابة 4/ 715.

بضعَ سنين، وشغلت عرضًا مساحات شاسعة من القارات الثّلاث: أسيا، أوربا، افريقيا، إذْ أنّها تُعَدُّ دولة فتوحات، وأنّها - فِي المنظور الإيديولوجيّ - لَمْ تقمْ كسابقتها الدّولة الرّاشـدة عَلَـى الغطاء الدّينيّ، والقدم فِي الإِسْلَام، والعمـل فيه، بَلْ اتخذت من القَبَائِل العربيّـة ووفودها غطاء للدولة، ولاسِيَّمَا العصبيَّة عَلَى درجاتها، لقَبَائِل الشّام أوّلًا، وما بعدها دونها، وأنّها ألغَتْ نظامَ الشّورى فِي الحكم والانتخاب، واعتمدت الأخذ بمبدأ حكـم الفرد الوراثـي، ويتبع هَذَا الحكم مبدأ التّصرف بالاموال الّتِي كَانَتْ فِي بيت مال الْمُسْلِمِيـنَ تنفق لحاجاتهم، واصبحـت تصرف لمصلحة الدّولة ولبقائهـا بِمَا يتفقُ معَ رغبـةِ الخليفةِ ومصلحةِ الأسرةِ الحاكمةِ. والخليفةُ جاءَ بأمرٍ مِن اللهِ، والنّاسُ مجبرُون عَلَـى طاعتِـه، فَهُوَ ظِلُّ اللـهِ عَلَى الأرضِ، فليسَ مِن رقابةٍ شـعبيَّةٍ عَلَى الخليفةِ، أو على أعمالِـه[1]. وإنَّها نَزَعَتْ إلَى العُنْصُرِ الْعَرَبِيّ مطلقًا فِي بناءِ الدّولةِ ومفاصلِها، وقُدِّم عَلَى غيرِه مِن شـرائحَ فاعلةٍ في المجتمعِ، نحوَ: الموالِي وأهْلِ الذِّمَّة. فكثرتْ الثّوراتُ ذاتُ الطّابعِ الدّينيِّ، وشـاركَ فِيهَـا الموالِي وأهلُ الشّعوبيّةِ[2]. لَعَلَّ هَـذِهِ المِيزَاتِ أسْهَمَتْ - بشكلٍ أوْ بآخرَ - فِي قِصَرِ عُمْرِ الدّولةِ الأُمَوِيّة، فِي مقايسَتِها بِعُمْرِ الدّولةِ العباسِيَّةِ.

أمّـا الْفُتُوحـاتُ فِـي العهـدِ الأُمَـوِيِّ فَقَدْ توسَّـعَـتْ، وشَـمِلَـتْ ثلاثةَ ميادينَ: - آسيا الصّغـرى ضِدَّ الـرّوم، وَقَدْ امتـدَّتْ، فشَمِلَتْ حصـارَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ وبعضَ جُـزرِ البحرِ المتوسّـط. - الشّمال الأفريقيّ والغرب الأوربيّ، وَقَدْ امتدتْ حَتَّى المحيط، ثُمَّ عَبَرَتْ مضيـقَ جبـلِ طارقٍ، وامتـدَّتْ إلَى أسبانيا. - الميـدان الشّرقيّ: امتد شـرق العِرَاق، ثُمَّ تفرع شمالا تجاه مَا وراء النّهر، وجنوبًا فشمل بلاد السّند[3].

---

(1) - يوسف العش، الدكتور: الدولة الأُمَوِيّة - والاحداث الّتِي سبقتها ومهدت لها،(دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق 1992) ص 338 وبعدها.

(2) - صادق شاكر محمود: «الشّعوبية وردود العلماء المُسْلِمين فِي المشرق والمغرب». بحث، مجلة كلية الفقه - جامعة الكوفة، العدد التاسع، السّنة الخامسة، 2009م، ص 127 - 147

(3) - أحمد معمور العسيري: موجز التاريخ الإسلاميّ من عهد آدم إلىَ عصرنا الحاضر (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرّياض) ص 143.

خلفاء الدّولة الأُمَوِيّة:

البدء الحَقِيقِيّ للدولة الأُمَوِيّة حِينَ أخذت البيعة لمعاوية بن أبى سفيان بالكوفة، إثْرَ تنازل الحسن بن عَلِيّ عَنْ الخِلَافَة فِي (25/ 3 ربيع الأول/ 41هـ = 17/ 7/ 661م). وَقَدْ توالتْ عَلَى الدّولة الأُمَوِيّة أسرتان، وَكَانَ خلفاؤها اثني عشر خليفة. وغطّتْ العُقُودُ السّتّةُ من القَرْن الأوّل الهِجْرِيّ، مَوْضُوع البحث، عهود ثمانية من خلفاء الدّولة الأُمَوِيّة، هُمْ:

الأسرة السّفيانية: وَقَدْ حكمت أربعًا وعشرين سنة (41 - 64هـ/ 661 - 684م):

- مُعَاوِيَة بن ابي سُفيان (41 - 60هـ/ 661 - 679هـ)

اتسعت فتوحات الدّولة الأُمَوِيّة اتساعاً عظيماً، فكانت عَلَى عدة ميادين:

- بلاد الرّوم (تركيا): عُمِلَتْ ثُغُورٌ دائِمَةٌ هُنَاكَ، وَكَانَتْ الحَملاتُ مستمرَّةً، وَكَانَ الهدفُ فَتْحَ القُسْطَنْطِينِيَّة، حوصرت عام 50هـ/ 670م، ثُمَّ من 53 - 61هـ/ 672 - 680م وَلَمْ تُفْتَحْ.

أنشأ معاوية أسطولًا ضخمًا مجهزًا فِي البحر المتوسط (1700 سفينة)، وحقق بِهِ عدة انتصارات، ففتح جَزِيْرَة جربا (بصقلية) عام 49هـ/ 669 م، وجَزِيْرَة رودوس[1] عام 53هـ/ 672م، وجَزِيْرَة أرواد[2] عام 54هـ/ 674م، وجَزِيْرَة كريت عام 55 هـ/ 674 م، وجزر بحر إيجه قرب القُسْطَنْطِينِيَّة عام 57هـ/ 677 م[3].

- فِي أفريقيا: فُتِحَتْ بنزرت[4] عام 41هـ/ 661 م[5]، وفُتِحَتْ قمونية (قرب القيروان) عام 45هـ/ 665 م، وسوسة فِي العام نفسه، وفتح عقبة بن نافع سرت ومغداس وطرابلس وأعاد فتح ودان، ودخل فزان وقفصة، وبنى مدينة القيروان سنة

(1) - عام 52هـ/ 672م. البلاذري: فتوح البلدان 233.
(2) - هِيَ جزيرة «كزيكوس» «البلاذري: م. ن. 233؛ ابن الأثير: الكامل فِي التاريخ 3/ 91.
(3) - العسيري: موجز التاريخ الإسلاميّ، ص 144
(4) - بنزرت: مدينة عَلَىَ البحر قريبة من تونس، خصبة. ابن حوقل: صورة الأرض 1/ 74.
(5) - النّاصري، أحمد بن خَالِد (ت1315هـ): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، (دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت) 1/ 134.

50 هـ/ 670 م[1]. وأسلم البربر، وَكَانُوا نَصَارَى[2]، وفتح كورًا من بلاد السّودان، وأخيرًا وصلت الْفُتُوحات إلَى الغرب الأوسط (الجزائر)[3].

- فِي الشّرق بلاد مَا وراء النّهر، والسّند. أمَّا بلاد مَا وراء النّهر (أَوْ مَا بَيْنَ النّهرين: سيحون وجيحون)[4]، ومعظم سكان تِلْكَ الجهات أمم وَثَنِيّة، غزا الْمُسْلِمون بلاد مَا وراء النّهر عام 41هـ/ 661م، ففتحوا سجستان عام 43هـ/ 663م[5]، وبعض طخارستان فِي 45هـ/ 665م[6]، ووصلوا إلَى قوهستان فِي عام 55هـ/ 624م، ثُمَّ إلَى تلال بخارى، وَفِي عام 44هـ/ 664م غزا الْمُسْلِمون بلاد السّند والهند. وَكَانَ سكان تِلْكَ البلاد يَنْكِثُونَ مَرَّةً بَعْدَ أُخرَى، وَلَمْ تَسْتَقِرْ الأوضاعُ نهائيًا إلَّا فِي عَهْدِ الوليدِ بن عبد الملك[7].

- يزيد بن معاوية 60 - 64هـ/ 679 - 683 م.

بسبب الأحداث الدّاخلية هدأت الْفُتُوحات، مَا عدا فِي أفريقيا، واصل عقبة بن نافع الْفُتُوحات غربًا، ففتح بلاد المغرب كلها، ووصل إلَى المحيط الأطلسي.

الأحداث الدّاخلية:

- فاجعة كربلاء (10محرم61هـ/ 680م)[8]: لَمْ يبايع الحسين بن عَلِيّ يزيد، وطلبه أهل العِرَاق ليبايعوه، وألحوا عَلَيْهِ، فخرج إلَيْهِمْ، وأخذ مَعَهُ أهلَ بيته وخَاصَّة جماعته، وَهُنَاكَ لقيته خيل عبيد الله بن زياد والِي البصرةِ والكوفةِ، فعدلَ إلَى كربلاءَ، واختارَ القتال، وقُتِلَ، وكلّ أصحابِه، ومعظمَ أهلِ بيتِه، وحُمِلَتْ رؤوسُهم إلَى يزيد.

---

(1) - قدامة: الخراج وصناعة الكتابة، ص 344، خليفة بن خياط: تاريخ، ص 210

(2) - ابن حزم: الرسائل 2/ 128

(3) - اب عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص 220 - 224؛ البلاذري: فتوح البلدان ص 222.

(4) - أهم ممالكها: طخارستان (عاصمتها بلخ)، صفانيان (عاصمتها شومان)، الصّغد (سمرقند وبخارى)، فرغانة (عاصمتها جخندة)، خوارزم (عاصمتها الجرجانية)، أشروسنه (عاصمتها بنجكث)، الشّاش (عاصمتها بنكث). عبد الهادي شعيرة، «الممالك الخليفة أوْ ممالك ما وراء النّهر»، مجلة كلية الآداب، (جامعة فاروق الأول، مطبعة التجارة بالإسكندرية، مجلد 4/ 1948) ص206.

(5) - الطبري: تاريخ الرّسل والملوك 4/ 181 وبعدها؛ الكامل فِي التاريخ 2/ 424 وبعدها.

(6) - البلاذري: م. س، ص409.

(7) - العسيري: موجز التاريخ الإسلاميّ، ص 145.

(8) - اليعقوبي: التاريخ 2/ 243؛ ابن كثير: البداية والنّهاية 8/ 172.

- وقعة الحَرَّة واستباحة المدينة (ذو الحجة 63 هـ/ 683 م)[1]: لَمَّا وصل خبر كربلاء إلَى المدينة، أعْلَنَ عبدُ اللهِ بن الزبير خَلْعَ يزيدَ، وأخَذَ البيعةَ لنفسِه، فبايعَهُ أهلُ المدينةِ، فأرسلَ يزيدُ جيشًا دخلَ المدينةَ، فاستباحَ حرمتَها[2] وقتلَ المئاتِ من الصّحابةِ وأبنائِهم[3].

- رمي البيت بالمنجنيق: واصل الجيش إلَى مَكّة، وَكَانَ ابن الزبير قَدْ لجأ إلَيْهَا، واحتمى بالبيت الحرام، فحوصرت مَكّة ورمي البيت بالمنجنيق وأُحْرِق بالنّار، ثُمَّ مات يزيد أثناء حصار مَكّة[4].

- معاوية بن يزيد بن معاوية 64هـ/ 683 م

تَوَلَّى - بَعْدَ مَوْتِ يَزِيدَ - ابْنُهُ مُعَاوِيَةُ، ثُمَّ تَنَازَلَ، فَاعْتَزَلَ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا.

- الأسرة المروانية: وَقَدْ حكمت سبعة وستين عامًا (64 - 132هـ/ 684 - 750م):

- مروان بن الحكم 64 - 65 هـ/ 683 - 684 م.

بَعْدَ اعتزال معاوية الثّاني، بايع الأُمَوِيّون مروان بن الحكم فِي الجابية فِي رجب 64هـ/ 683 م، فاستطاع أنْ يُخْضِعَ الشّام كلَّها لسيطرته، ثُمَّ استولى عَلَى مِصْرَ من ابن الزبير عام 65هـ/ 684م، واستعمل عَلَيْهَا ابنه عبد العزيز، وتُوفي فِيهَا، بَعْدَ أنْ عهد لابنه عبد الملك[5].

- عبد الملك بن مروان 65 - 86 هـ/ 684 - 705 م.

---

(1) - خليفة بن خياط: التاريخ 192؛ ابن قتيبة: المعارف 351.

(2) - أنهب مُسلم بن عقبَة المَدِينَة ثَلاَثَة أَيّام وافتض فِيهَا ألف عذراء. السّيوطي: الخصائص الكبرى (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت) 2/ 240.

(3) - أنّ قتلى الحرة، كَانُوا سبعمائة من وجوه النّاس، من قريش والمهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من وجوه الموالي، وممن لا يعرف، ثُمَّ إِنّ مسلماً بايع من بقي من النّاس عَلَى أَنَّهُمْ خوَل وعبيد ليزيد بن معاوية. أَبُو الفداء: المختصر فِي أخبار البشر 1/ 192؛ ابن الوردي، (ت 749هـ)،: التاريخ 1/ 165.

(4) - السّخاوي: التحفة اللطيفة فِي تاريخ المدينة الشّريفة (الكتب العلميه، بيروت 1993م) 2/ 37

(5) - خليفة بن خياط: م.س، ص 253؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 57/ 231 - 255؛ الدِّيار بَكْري:: تاريخ الخميس فِي أحوال أنفس النّفيس (دار صادر، بيروت) 2/ 306.

لَـمْ تحدث فتوحات واسعة فِي عهده؛ لانشغالـه فِي قتال ابن الزبير والخوارج وابن الأشـعث، وعاد إلَـى قتال الـرّوم، وَكَانُوا يهددون بـلاد الشّام. أعيد فتـح بلاد الغرب، وأشهر القادة فِي ميدان الشّمال الأفريقي موسى بن نصير، الَّذِي أعاد الاستقرار للمنطقة بَعْدَ موت عقبة بن نافع، وفتح طنجة وسبتة[1]. وحورب التّرك فِي الشّرق وبلاد مَا وراء النّهـر، وسار مُحَمَّد بـن القاسم الثّقفي لفتح السّند[2]، وَلَـمْ تَحْصَلْ فتوحاتٌ واسعةٌ فِي المشرق، وَلَكِنَّ إستقرارَ عَهْدِه مَهَّدَ لفتوحاتٍ عظيمةٍ فِي عَهْدِ ولدِه الوليد.

أهم الاحداث:

- حركـة التّوابيـن (65هــ/ 685مـ)[3]: كَـانَ سليمان بـن صرد الخزاعـي (ولد 28 ق.هـ/ 595م) صَحَابِيًّا جَلِيلًا نَبِيلًا عَابِدًا زَاهِدًا، رَوَى عَنْ النّبيّ، وَشَهِدَ مَعَ عَلِيٍّ صِفِّينَ، وَكَانَ أَحَدَ مَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ الشّيعَةُ فِي دَارِهِ لِبَيْعَةِ الْحُسَيْنِ، وَكَتَبَ إِلَى الْحُسَيْنِ فِيمَنْ كَتَبَ بِالْقُـدُومِ إلَـى العِرَاق، فَلَمَّا قَدِمَهَا، لَمْ ينصروه؛ لمحاصرة الوالي لهم، فندموا، ورأوا أن لا كفّـارة فِي ذَلِكَ إلا الاستماتة دُونَ ثأره، ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي هَذَا الْجَيْشِ، وَسَمَّوْا جَيْشَهُمْ جيـش التّوابين، وسموا أميرهم سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ أَمِيرَ التَّوَّابِينَ، فَقُتِلَ سُلَيْمَانُ فِي الْوَقْعَةِ بِـ «عَيْنِ وَرْدَةَ».

- استيـلاء عبد الملك عَلَى العِرَاق والمدينة: خرج عبد الملك بنفسه لقتال مصعب بـن الزبير، فانهزم مصعب وقتل سنة (71 هــ/ 690م) فخضعت العِرَاق لعبد الملك[4]، ثُمَّ قدم الجيش إلَى المدينة المنورة، فأخضعها.

- مقتـل عبـد الله ابـن الزبير، وإخضاع مَكّة: سيـر عبد الملك جيشًا كبيـرًا إلَى مَكّة

---

(1) - خليفة بن خياط: م. س، ص278؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص 231
(2) - ابن خلدون: تاريخ 3/ 76.
(3) - الطبري: تاريخ الرّسل والملوك5/ 583؛ مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم 2/ 110؛ ابن الجوزي: المنتظم فِي تاريخ الملوك والأمم (6/ 35)؛ ابن كثير: البداية والنّهاية 8/ 280؛ ابن خلدون: تاريخ 3/ 216.
(4) - الطبري: م.س. 6/ 162؛ مسكويه: م. س. 2/ 240؛ القلقشندي: مآثر الإنافة فِي معالم الخِلاَفَة، 1/ 129

بقيادة الحَجّاج بن يوسف الثّقفي، وَكَانَ ابن الزبير متحصنًا بِهَا، حاصر الحَجّاج مَكّة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وتخاذل النّاس عَنْ ابن الزبير، فقاتل مَعَ خاصته بشجاعة نادرة عِنْدَ الكعبة، حَتّى سقطت عَلَيْهِ إحدى شرفات الكعبة فقتلته فِي عام 73 هـ/ 692م.

- حركة عبد الرّحمن بن الأشعث 81 - 85هـ/ 700 - 704م[1]: سيره الحَجّاج، والي العِرَاق، إلَى قتال بلاد التّرك سنة 81 هـ، فحقق انتصارات، ثُمَّ خلع طاعة الحَجّاج وعبد الملك، وأخضع العِرَاق، ثُمَّ دان لَهُ المشرق مَا عدا خراسان. جرت معارك ضخمة بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأُمَوِيّين إلَى أنْ انهزم وفرَّ فِي عام 82 هـ وقتل عام 85 هـ. في إثر قمع هذه الحركة، قتل الحَجّاج كثيرًا من العلماء الَّذِينَ تبعوا ابن الأشعث، ومنهم التّابعي سعيد بن جبير، وَكَذَلِكَ إتَّهَمَ الدّهاقينَ مِن نَجْرَان الكوفةِ بموالاتِه، فضاعفَ الضَّريبةَ إلَى ألفٍ وثمانمائةِ حُلَّةٍ وأخَذَهُم بحُلَلٍ وَشِيٍّ[2].

- الخوارج[3]: قويَ نشاطهُم فِي العِرَاق والجَزِيْرَة، بقيادة قطري بن الفجاءة، وشبيب الشّيباني[4]، وزوجه غزالة. ظلوا مثار قلقٍ كبير للدولة الأمويّة، ولاسيما واليها الحَجّاج، حتى استطاع المهلب بن أبي صفرة أنْ يُحَقِّقَ انتصاراتٍ عظيمةً عَلَيْهِمْ، ويقضي عَلَى أعداد كثيرة مِنْهُمْ[5].

- الوليد بن عبد الملك 86 - 96 هـ/ 705 - 714 م.

حدثت فتوحات واسعة وعظيمة جدًا، واتسمت بامتدادها عَلَى مُخْتَلف الجبهات، فِي الشّرق والغرب والأندلس وفرنسا.

الجبهة الغربية: فِي بلاد الرّوم وصل مُسْلِمة بن عبد الملك إلَى عمورية (أنقرة)

---

(1) - ابن قتيبة: المعارف، ص735؛ الدينوري: الاخبار الطوال، ص319؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 34/ 487.

(2) - البلاذري: فتوح البلدان 74.

(3) - خليفة بن خياط: التاريخ 212؛ الدينوري: الاخبار الطوال، ص276 - 280؛ الطبري: تاريخ الرّسل والملوك 6/ 190؛ ابن الجوزي: المنتظم فِي تاريخ الملوك والأمم 6/ 192.

(4) - شبيب الخارجيّ: هُوَ: شبيب بن يزيد بن نعيم. من: «بني شيبان». ويكنى: أبا الصّحاري. المعارف، ص410.

(5) - خليفة بن خياط: م. س. ص 277 - 279.

وهِرَقْلَة[1]، ففتحها سنة 89 هـ/ 707م، ووصل الْمُسْلِمون إلَى خليج القُسْطَنْطِينِيَّة، وغزوا أذربيجان، وَكَانَ السّكان ينقضون مَرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ، فكثرت الغزوات فِي تِلْكَ الجهات عام 93 هـ/ 711م.

فِي البحر المتوسط: فتح الْمُسْلِمون جَزِيْرَة صقلية، وميورقة، ومنورقة[2] سنة 89 هـ/ 707م. وَفِي أفريقيا: وطَّد موسى بن نصير الْفُتُوحات هُنَاكَ. ثُمَّ عمل عَلَى نشر الإِسْلَام بَيْنَ البربر[3].

- فتح الأندلس[4]: قرر القائد موسى بن نصير أن يعبر المضيق وينشر الإِسْلاَم فِي بلاد أوروبا ويدخلها فِي نطاق الدَّولَة العَرَبِيَّة، فسيَّر القائد البربري طارق بن زياد إلَى الأندلس بحرًا، فخاض معارك عظيمة، وقتل حاكمها «لذريق»، وفتحها سنة 92هـ/ 710م، وصل طارق وموسى إلَى جبال البرانس (Pyrenees)[5]، وأخضعا كُلَّ تِلْكَ المناطق مَا عدا جِلِّيقِيَّةَ[6].

الجبهة الشَّرْقِيَّة، فِي بلاد مَا وراء النّهر[7]: اشتهر هُنَاكَ القائد قتيبة بن مُسْلِم الباهلي، فتح مدينة بيكند سنة 87 هـ/ 705م - وغزا بلاد الصّغد، ونسف، وكش عام

(1) - هِرَقْلَةُ: مدينة ببلاد الروم سمّيت بهرقلة بنت الروم بن اليفز. (ياقوت: م.س. 5/ 398)؛ وبها كرسي ملك القياصرة، بناها هرقل أحد القياصرة. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 566.

(2) - مَيُورْقة ومنورقة جزيرتان بَيْنَ صقلية والأندلس. خليفة بن خياط: م. ن. ص 302.

(3) - ابن الأثير: الكامل فِي التاريخ 4/ 21.

(4) - قصة الحضارة 13/ 282.

(5) - جبال «البرانس «هي سلسلة من الجبال الإسبانية، تقع شرقي ماردة، وجنوبي طليطلة، وَهِيَ الَّتِي تعرف فِي الجُغْرَافِيَّة الحديثة بجبال المعدن Sierra de Almaden، لوقوعها عَلَى مقربة من مدينة «المعدن». وسيمت فِي الجُغْرَافِيَّة العَرَبِيَّة «بالبرانس «نسبة لقبيلة البرانس البربرية، الَّتِي كَانَ منزلها فِي الأندلس عَلَى مقربة من هَذِهِ الجبال. البيان المغرب 2/ 143؛ عنان: دولة الإسلام فِي الأندلس 1/ 82.

(6) - ابن خلكان، (ت 681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (دار صادر، بيروت1994م) 5/ 329.

(7) - اليعقوبي: البلدان (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت1422هـ)، ص 124؛ ابن الفقيه، (ت 365هـ): البلدان، ص 624.

89هـ/ 707م[1]، وفتح بخارى فِي 91 هـ/ 709م. ثُمَّ فتح الطّالقان، والفارياب، وبلخ. ثُمَّ سمرقند عام 93 هـ/ 711م، وغزا بلاد الشّاش وفرغانه، حَتَّى بلغ خوقند عام 94 هـ/ 712م - وفتح كابل فِي 94 هـ/ 712م - أَيْضًا، وفتح مدينة كاشْغَر[2] عام 96 هـ/ 714م[3]. استطاع هَذَا القائد أنْ يمدَّ فتوحاتِه إلَى كُلِّ البلاد الواقعة بَيْنَ النّهرين وبلاد أفغانستان، ثُمَّ واصل حَتَّى دخل الصّين، وفرض الْجِزْيَة عَلَى ملكها. إلَى هُنَا توقف قتيبة شرقًا، وَقَدْ أخضع قتيبة مناطق شاسعة جدًا[4].

أرسل الحَجّاج إلَى بلاد السّند[5] جيشًا ضخمًا بقيادة القائد الشّاب مُحَمَّد بن القاسم الثّقفي (ابن أخيه)، تمكن خِلَالَها من تَحْقِيقَ انتصارات ضخمة هُنَاكَ، وقتل داهر ملك السّند، واحتل بلاد السّند فِي الفترة 90 - 94هـ/ 708 - 712م[6]، فكانت تِلْكَ من أعظم الْفُتُوحات. بلغت الدَّولَة العَرَبِيَّة فِي هَذَا العهد أقصى اتساع لها عبر التّاريخ.

- سليمان بن عبد الملك 96 - 99هـ/ 714 - 717 م.

كَانَتْ الْفُتُوحات محدودة فِي أيامه، فعلى الجبهة الغربية: فتح مَدِينَة الصّقالبة[7]،

---

(1) - ابن خلدون: تاريخ 1/ 17.

(2) - أو قاشغر: من أهم مدن تركستان الشّرقية، قريبة من سمرقند. وقد اجتاحت تركستان الشرقية القوات الصينية سنة 1949م واحتلتها، فأطلق عليها الصينيون اسم (سينكيانج) أي: المستعمرة الجديدة. موسوعة ويكيبيديا (كاشغر).

(3) - الطبري: تاريخ الرّسل والملوك6/ 496؛ مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم 2/ 422؛ معجم البلدان 4/ 430.

(4) - تجاوزت مساحتها 4 ملايين كيلو متر مربع تمتد من أواسط بلاد القفقاس إلىَ جنوب بحر الخزر، ثُمَّ تمتد شمالا لتتعمق فِي آسيا الوسطى، وتتصل شرقًا إلَى أواسط تركستان الشّرقية، ثُمَّ تتجه غربًا نحو كابل (أفغانستان، سجستان). محمود شاكر: العهد الأمَوِيّ، ص 227.

(5) - بلاد السّند هِيَ البلاد المحيطة بنهر السّند «Indus»، الَّذِي كَانَ يسمى مِنْ قَبْل «نهر مهران»، وهو ينبع من عيون فِي أعالي السّند وجبالها من أرض قشمير «كشمير»، ويصب فِي بحر السّند «المحيط الهندي». وتمتد هَذِهِ البلاد غربا من إيران إلَى جبال «الهمالايا» فِي الشّمال الشّرقي، تاركة شبه القارة الهندي فِي جنوبها. وتكون - الآن - جزءا كبيرا من دولة باكستان الحالية. طه عبد المقصود عبد الحميد أَبُو عُبيَّة: موجز عَنْ الفتوحات الإسلاميّة،(دار النّشر للجامعات، القاهرة) ص 17.

(6) - النّويري: نهاية الأرب فِي فنون الأدب21/ 304؛ القلقشندي: مآثر الإنافة فِي معالم الخِلَافَة 1/ 135.

(7) - خليفة بن خياط: تاريخ، ص 315. الصّقالبة جيل حمر الألوان صهب الشّعور، يتاخمون بلاد

وغـزا القُسْطَنْطِينِيَّـة برًا وبحرًا تَحْتَ قيـادة مُسْلِمة بن عبد الملك، ورابـط بنفسه هُنَاكَ، وأقسـم ألا يعـود حَتَّـى يفتحها، فتوفي أثنـاء حصارها عام 99هـ/ 717م. عَلَى الجبهة الشَّرْقِيَّة: فتح يزيد بن المهلب جُرْجَان[1] وطَبَرِسْتَان[2] عام 98 هـ/ 716م[3].

كَانَتْ الفترة الأولى من حكمه مملوءة بالانتقام لشخصه. من الَّذِينَ كَانُوا قَدْ وافقوا أخـاه الوليد عَلَـى عزله وتَوْلِيَةِ العهد لابنـه، وَهُمْ: مُحَمَّد بن القاسـم الثّقفي، وقتيبةُ بن مُسْلِـم. وَكَذَلِكَ آلُ الحَجّاج بنِ يوسفَ، فبَطَشَ بهَؤلاءِ جميعًا. ونَكَّلَ بالقائِدِ مُوسَى بنِ نَصِيرٍ. وأخيرًا عَهَدَ مِنْ بَعْدِهِ لِابْنِ عَمِّهِ عُمَر بن عبد العزيز.

- عُمَر بن عبد العزيز بن مروان 99 - 101 هـ/ 717 - 719 م.

كَـانَ عَهْدَ إصْلَاحٍ، فَقَدْ استرَدَّ الخليفةُ من بني أُمَيَّـةَ كُلَّ مَا أُعْطُوا مِنْ قَطَائِعَ وهِبَاتٍ، وأعادَهَـا إلَى بَيْتِ المَـالِ، وعَزَلَ الوُلاةَ الظَّالمين[4]. وعلـى جبهات القتال: فَكَّ حصارَ القُسْطَنْطِينِيَّـة، وأمَـرَ بعَـوْدَةِ الجيُوشِ الإِسْلَاميّـة، واستمَرَّتْ الحَمْـلاتُ عَلَى التّرك فِي بـلاد الرّوم. غـزا المُسْلِمـون فَرَنْسَا، واخترقُوا جِبَـالَ البَرَانِسِ، ووصلوا إلَـى مقاطَعَتَيَ

الخزر في أعالي جبال الرّوم، وقيل: الصّقالبة بلاد بَيْنَ بلغار وقُسْطَنْطِينِيَّة وتنسب إليهم الخزم. ياقوت: معجم البلدان 3/ 416.

(1) - أو كركان (بالفارسية: گرگان) - وكانت قديمًا تسمّى أستراباذ أو أستراباد - إحدى المدن الشهيرة في إيران. وتقع في شمالي إيران حالياً. موسوعة ويكيبيديا (جرجان).

(2) - هو إقليم عرفه العرب والفرس باسمه منذ القرون القديمة، وهو يَقع في شمال دولة إيران اليوم ويَمتد في مُعظمه على الساحل الجنوبي لبحر قزوين. موسوعة ويكيبيديا (طبرستان).

(3) - فتوح البلدان، ص 327؛ الطبري: تاريخ الرّسل والملوك6/ 532؛ المقدسي: البدء والتاريخ 6/ 42؛؛ القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخِلَافَة 1/ 140.

(4) - أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلاميّ 2/ 72.

سبتمانيا[1] وبروفانس (Provence)[2]، وحاصروا طُلُّوزَة (Toulouse)[3]، ولَكِنْ لَمْ يحَقِقْ الْمُسْلِمون نتائجَ مَلْمُوسَةً فِي فَرَنْسَا[4].

- فترة تداخل إمارة الأُمَويّين مَعَ خِلَافَة عبد الله بن الزبير.

عهد عبد الله بن الزبير (64 – 73 هـ/ 683 – 692 م)

بَعْدَ مقتل الحسين فِي كربلاء، خلع ابن الزبير يزيد من الخِلَافَة، ودعا لنفسه، فبايعته المدينة ومَكّة، فقاتل يزيد أهل المدينة، واستباح حرمتها، ومات يزيد أثناء حصار مَكّة عام 64هـ/ 683م؛ فاستقرت الأمور لابن الزبير، وبايعته جميع الأَمْصَار، وَلَمْ يَبْقَ لِبَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا جُزْءٌ من الشّام فقط. فصار هُوَ الخليفة الشّرعي[5].

- حركة المختار الثّقفي 65 – 67هـ/ 684 – 686م: كَانَ من أتباع ابن الزبير بمَكّة، ثُمَّ تمرد ورحل للكوفة، ودعا بإمامة المهدي من آل البيت، فاستولى عَلَى الكوفة والموصل سنة 66هـ/ 685م، فقاتله عبد الملك فغلبه المختار، وقتل قتلةَ الحسين ونكّل بِهِمْ إرضاء للشيعة، وقتل عبيد الله بن زياد، ثُمَّ قضى عَلَيْهِ مصعب بن الزبير،

---

(1) - مقاطعة أسسها السّمح بن مالك الخولاني، وتعرف هَذِهِ المقاطعة الآن بساحل الرّيفيرا الموجود فِي فرنسا. راغب السّرجاني: الأندلس من الفتح إِلَى السّقوط (موقع الشّبكة الإسلاميّة http: // www.islamweb.net) 3/ 7.

(2) - إقليم «بروفانس» - يقع إِلَى الشّمال الشّرقي من «سبتمانية» - وعاصمته مدينة «أبنيون»، وتقع عَلَى وادي رودنة «نهر الرّون». طه عبد المقصود عبد الحميد أَبُو عُبيَّة: موجز عَنْ الفتوحات الإسلاميّة، ص 104؛ خليل إِبْرَاهِيم السّامرائي، عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح مصلوب: تاريخ العرب وحضارتهم فِي الأندلس (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2000م)،ص 50؛ عنان: دولة الإسلام فِي الأندلس 1/ 112.

(3) - يسميها قسم من العرب تولوز، وطولوشة، مدينة طولوز جنوبي فرنسة، أنظر: شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب 13؛ الحميري: الرّوض المعطار 123؛ محمود شيت خطاب (ت 1419هـ): قادة فتح الأندلس (مؤسسة علوم القرآن - منار للنشر والتوزيع2003م) 2/ 8.

(4) - مُحَمَّد عبد الله عنان: م. س. 1/ 75.

(5) - بناءً عَلَيْهِ فخلافة معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان (فِي مدته الأولى) خلافتهم باطلة (هؤلاء حكموا فِي الشّام فِي فترة ابن الزبير) وَهَذَا ما ذهب إِلَيْهِ أغلب أهل العلم. ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/ 393؛ السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 212 – 215.

والي البصرة قِبَلَ أخِيهِ عبد الله سنة 67هـ/ 686م[1]. ويروي أحد المؤرخين السريان[2] معلومـات مفصَّلـة عن المساعدات التـي قدمها النصارى للخلافـة الأموية أثناء حربها ضد المختار بن عبيد الثقفي.

2. تَطَوّر العَلاقَات الإِسْلَامِيّة الْمَسِيحِيَّة فِي العصر الأُمَوِيّ

بـلاد الشّـام كَانَتْ منبـت الْمَسِيحِيَّـة، عَلَـى أدِيمِها أُودِعَـت نواتُهـا، وتَرَعْرَعَتْ فِي شُـعُوبِها مـن آرامِيِّين وعبرِيِّين وعَـرَبِ، وَكَانَتْ القَبَائِـل الْعَرَبِيّة تَرْسَخُ فِيهَـا الْمَسِيحِيَّة، مـن قضاعة[3]، وبنـي سُلَيْح[4]، وغَسَّان، وتَنُوخ، وأزْد السَّـرَاة، وَكَذَلِكَ كَلْب[5]، وطَيْء، وعامِلَة، ولَخْم، وجُذَام، وبَهْرَاء، وبَلِي، وإياد؛ فِي من نزح إلَى الشّام وتَنَصّر فِيهَا[6].

لَمَّـا دخل الْمُسْلِمون بلاد الشّام معقل الْمَسِيحِيَّـة، ألقوا عصاهم فِيهَا واستقروا بِهَا، وتمازجـوا فِـي مَعِيِّتِهَـا بحُكْمِ التّقـاربِ اللُّغَوِيِّ، والتّعصـب القبليِّ للعروبـة، والتّآلف الدّينِـيّ، وجـاء اتخاذ الشّام عاصمة للدولة الأُمَوِيّة، فِي ظـل اسناد القَبَائِل لهذا الوجود الجديـد، مؤكدا عَلَى عَمْقِ التّواصُل مَعَ الجُذُور، وحَجْم التّفاهم لبناء أسُسِ الدّولةِ فِي ضوء المصالح الْمُشْتَرَكة[7].

ثَمَّـةَ عَلَاقَـةٌ نِسْبِيَّة بَيْـنَ الْأسْرَةِ الْأمَوِيَةِ فِـي الإِسْلَام مَعَ بَنِي كَلْـب، وَبِخَاصَّةٍ من ظلَّ

---

(1) - خليفة بن خياط: التاريخ، ص273؛ ابن قتيبة: المعارف، ص356؛ الطبري: تاريخ الرّسل والملوك 6/؛ عَلوي بن عبد القادر السّقاف، ومجموعة من الباحثين: الموسوعة التاريخيّة (الدرر السّنية، dorar.net) 1/ 267..

(2) - هو ابن بنكاية من قدماء مؤرخي السريان. انظر: جاسم صكبان علي: «التاريخ العربي والإسلامي من خلال المصادر السريانية العِرَاقية»، بحث في مجلة عالم الفكر، الكويت 1984 ص68 نقلا عن J.Bar – Penkay‹The Chronicle of Bar – Penkay ed.

(3) - اليعقوبي: تاريخ 1/ 421؛ المسعودي: مروج الذهب 1/ 421.

(4) - ابن الكلبي: نسب معد واليمن الكبير2/ 449؛ ابن الأثير: الكامل 2/ 303.

(5) - يوليوس، فلهاوزن: تاريخ الدولة العَرَبِيّة من ظهور الإسلام الى نهاية الدولة الأُمَوِيّة، ص126.

(6) - الأرشمندريت اغناطيوس ديك: «القبائل العَرَبِيّة المسيحيّة فِي بلاد الشّام فِي عهد صدر الإسلام»، بحث فِي النّدوة الدَّوْلِيَّة «بلاد الشّام فِي عصر الرّسول والخلفاء الرّاشدين».

(7) - إبْرَاهِيم احمد العدوي: الأُمَوِيّون والبيزنطيون،(ط2، الدار القومية للطباعة والنّشر، القاهرة، 1963 م) ص74.

عَلَى نَصْرَانِيَّتِه، فَقَدْ تزوج عُثْمَان بْن عَفَّان نائِلَةَ بِنْتِ الفَرَافصَة الْكَلْبِيَّة سنة 28هـ/ 649م[1]، وَكَانَ سعيد بن العاص تَزَوَّجَ أُخْتَ نائِلَة، وَهُوَ أميرٌ عَلَى الكوفة[2]، وتَزَوَّجَ مُعَاوِيَةُ مَيْسَونَ الْكَلْبِيَّة[3]، فولدت يزيد[4]، وَكَذَلِكَ أخوال خَالِد بن يزيد مسيحيّون من كَلْب[5].

فِي خِلَافَة معاوية تَمَتَّع رعايا الدّولة من غير الْمُسْلِمِينَ، ولاسِيَّمَا الْمَسِيحِيِّنَ، بمساحة من التَّسَامُح والرّفق، وحصلوا عَلَى جُملة من امتيازاتهم. فَقَدْ كَانُوا يعملون فِي مُخْتَلف الوظائف الحكوميَّة، ذَلِكَ أنَّ معاوية أبقى عَلَى النّظم البِيْزَنْطيَّة والقبطِيَّة الَّتِي كَانَ معمولًا بِهَا فِي الشّام ومَصْر والمغرب. كَمَا أبقى عَلَى النُّظُم الفارسيَّة فِي العِرَاق وخراسان[6]. لِأَنَّهُ كَانَ مبهورا بخيطها، لَعَلَّه ترك هَذِهِ النّظُم عَلَى مسراها بسبب نقصِ مَن كَانُوا يعرفون لغاتِ ونظمَ إِدَارَة البلاد من الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ الْفُتُوح فِي الشّام والعِرَاق حَتَّى أوائلِ العهد الأُمَوِيّ، زد عَلَى ذَلِكَ أنّها كَانَتْ عَلَى مقربة مِنْهُ وَفِي حياضه.

كَانَ طبيبُ معاوية الخاص «ابن أُثال»[7] النَصْرَانِيّ، اصطفاه لنفسه وأحسن إِلَيْهِ، وَكَانَ كثيرَ الإفتقاد لَهُ والإعتقادِ فِيهِ[8]، واستعمله عَلَى خراج حِمْص، وَلَمْ يستعمل النَّصَارَى أحدٌ مِن الخُلَفَاءِ قَبْلَهُ[9]. وَكَانَ كَاتبُ الرّسائلِ عبيدَ بْن أَوْس الغَسَّاني، وعَلى الدّيوَان وَأمره كُله «سرجون بن مَنْصُور»[10]، وَكَانَ يكتب لَهُ عَلَى الخراج[11]، أيْ هُوَ

---

(1) – خليفة بن خياط: تاريخ، ص160.
(2) – ابن عساكر: تاريخ دمشق 70/ 137.
(3) – ميسون بنت بحدل بن أنيف بن ولجة بن قنافة بن عدي بن زهير بن حارثة الكلبي. الطبري: تاريخ 3/ 362؛ ابن الاثير: اللباب فِي تهذيب الأنساب 2/ 162.
(4) – ابن عساكر: م. س. 65/ 399؛ الذهبي: تاريخ الإسلام 5/ 271.
(5) – الأرشمندريت اغناطيوس ديك: «القبائل العَرَبِيّة المسيحيّة فِي بلاد الشّام فِي عهد صدر الإسلام».
(6) – العقيلي، عمر سليمان: خلافة معاوية، (طبعة الرّياض، 1404هـ). ص74.
(7) – اليعقوبي: تاريخ 2/ 223.
(8) – ابن اصيبعة: عيون الأنباء فِي طبقات الأطباء 1/ 171.
(9) – اليعقوبي: تاريخ 2/ 223.
(10) – خليفه بن خياط: م. س.، ص228؛ الطبري: م. س. 6/ 180.
(11) – الطبري: م. س. 3/ 264، 534؛ قال: خليفة بن خياط: وعلى الديوان وأمره كله سرجون بن منصور الرّومي. تاريخ 228.

من أكبر مستشاريه نفوذا، وَقَدْ أورثه ابنَه يزيد، وكتب - أَيْضًا لمروان بن الحكم، ولعبد الملـك بن مروان كَانَ كاتبـه عَلَى الخراج والجند[1]. واستعمل معاويـة «ابْنَ مِينَا» عَلَى صَوَافِي الْمَدِينَةِ[2]، وابن النّضير[3] مولاه من عماله عَلَى الصّوافي[4]. غير أنَّ هَذَا التّوفيق والجاه لَمْ ينل الا بعض الْمَسِيحِيِّينَ، الَّذِينَ كَانُوا عَلَى سُدَّةِ الوظائف السُّلْطَانِيَّة من قبلُ.

يوجـز تاريخ العلاقة بَيْـنَ الْأُمَوِيّين والْمَسِيحِيِّينَ «دلا فيـدا Della Vida»[5]، بقوله: «انتفـع معاوية فِي إِدَارَة البلاد الدّاخليـة بخبرة الْمَسِيحِيِّينَ أكثر مِمَّا انتفع أسلافه، وَكَانَ قَـدْ اتصـل بالْمَسِيحِيِّـنَ اتصالا وثيقـا، إِبَّانِ ولايته عَلَـى الشّام فِي عهـد عمر وعثمان، وعرفَ مَبْلَغَ علْمِهم ومقدرتِهم المَعْرِفِيَّة»[6].

ثَمَّـةَ رأيٌ آخـرُ لـ«ماكـس فانتاجـو Vintajoux Max» أنَّ معاوية وخلفـاءَه من بَعْدِهِ فِـي دِمَشْقَ أخذوا بالعادات اليُونانيّة، فحوَّل الخلفاءُ الْأُمَوِيّون جمهوريةَ المدينةِ الدِّينيَّة الْعَرَبِيّـة إِلَـى إمْبَرَاطُورِيَّـةٍ حَقِيْقِيَّةٍ سُورِيَّـةٍ، فضرَبُوا الدّنانيـرَ الذّهبيَّةَ عَلَـى نَسَقِ الدّراهمِ البِيْزَنْطيَّـةِ، وجعلُوا الخِلَافَةَ وراثيَّةً بَعْـدَ أَنْ كَانَتْ انتِخَابِيَّة، واستعملُوا عُمَّالاً كثيرين من اليونـانِ والسّريانِ[7]. لأنَّ الْعَـرَبَ وجدوا أنفسَهم حكامًا لمنطقة كَانَـتْ ولاية رُومَانِيّة،

---

(1) - ابن عبد ربه: العقد الفريد 4/ 156؛ الجهشياري: مُحَمَّد بن عبدوس الكوفي: الوزراء والكتاب، (دار الكتاب، القاهرة، ١٩٣٨م)، ص45؛ قَالَ ابن عساكر: ذكره أَبُو الحسين الرّازي فِي تسمية كتاب أمراء دمشق. تاريخ دمشق 20/ 161؛ عبد الجبار محسن عباس السّامرائي: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية فِي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان: 65 - 86 هـ/ 648 - 705 م، جامعة بغداد، 1988، رسالة ماجستير، ص134.

(2) - أَبُو العرب، مُحَمَّد بن أحمد المغربي، (ت 333هـ): المحن، (دار العلوم، الرّياض،1984م) ص 171.

(3) - البلاذري: أنساب الأشراف 4/ 123؛ الصّلابي: معاوية بن أبي سفيان - شخصيته وعصره، (دار الأندلس، مصر 2008) ص 342.

(4) - الصّلاّبي: الدولة الْأُمَوِيّة عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، (دار المعرفة، بيروت، 2008) 1/ 302.

(5) - دلافيلا، ليفي (1889 - 1967م). ترجمته: العقيقي: المستشرقون 1/ 440.

(6) - دائرة المعارف الإسلامية، «الأُمَوِيّون»، (طهران)2/ 671؛ الشّحات: السّريان والحضارة الإسلاميّة 124.

(7) - ماكس فانتاجو (Vintajoux Max): المعجزة العَرَبِيّة، دار الكشاف، بيروت 1954م)، ص 121؛ الجمل، أحمد مُحَمَّد عَلَى: أثر جهود السّريان عَلَى الحضارة العَرَبِيّة الإسلاميّة ص14.

خاضعةً لقانونٍ رومَانِيٍّ كاملِ التّطوّرِ، وإِدَارَةٍ مُنَظَّمَةٍ جدًّا، وَقَدْ أَبْقَوْا كُلَّ هَذَا كَمَا كَانَ[1].

ثَمَّـةَ حَقِيْقَةٌ لا مَنَـاصَ من الوقوفِ عَلَيْهَا، هِـيَ إِنَّ الإِسْلَام التّاريخيّ لَيْـسَ هُوَ نَفْسُهُ الإِسْـلَام النّبَـوِيّ أَوْ القرآنِـيّ، فالإِسْـلَام التّاريخِيّ أَخَـذَ نَمَطِيَّـةَ الرّسَالَـةِ المُنْغَلِقَةِ عَلَى مصالـحِ الـذّاتِ، بَـلْ - أحيانًا - أخـذ دَوْرًا مُغَايِرًا للإِسْـلَام النّبَوِيّ[2]، وَهَذَا شـأنُ كثيرٍ مِمَّـا دُرِجَ فِي الإِسْلَام التّاريخيّ من معالجاتٍ وحـوادثَ أخذتْ مَنْحًى مِن القَبُولِ لَدُنِ الإِخْبَارِيّيـن؛ لاستنادها إِلَى حجية الصّحابي أَوْ إِلَى أولي الأمر السِيَاسِيّ، وإن اختلفت عَـنْ مصداقيّـة الشّريعة فِي القُرْآن والسّنّـة النّبَوِيّة. ولعلّ المتغيـرات التاريخية سمحت للدولـة العربيّة الإسلاميّة، بعد أن انقضـت المرحلة النبوية القصيرة، أنْ تتغلغل الأمثلة الإمبراطوريـة البيزنطية والفارسية فـي حنايا النظم الإسلامية، فأضحت دولةً يميل فيها الـولاء الديني الى الإنصهار مـع الإنتماء السياسي، واتضحت هـذه الصورة مع الدولة الأموية.

فالْحُرّيّـات الدّينِيَّـة الَّتِي وجدتها الدّولة الأُمَوِيّة فِـي بواكيرها راسخة فِي مجتمعات البُلْـدَانِ المفتوحة، باتت خاضعة لرغبـات السّلطان ومعياريته، فِي أنْ يتركَ الحبلَ عَلَى الغـارب، أَوْ يمنعهـا، ويحاسـب عَلَيْهَـا، فَهُوَ تَارَةً معطـاءٌ وهابٌ، وَأُخْـرَى مناعٌ نهابٌ، وَهَذِهِ هِيَ ازدواجيةُ لعبةِ السّياسةِ، بِمَا يَسْتَصْحِبُ مزاج الخليفة أَوْ الوالِي. وَلَيْتَهَا أفادَتْ الرّعَايا أصحابَ البُلْدَانِ المفتوحَةِ الأصليّينَ، بِقَدَرِ مَا أضرَّتْ بِهِمْ فِي مستقبلِهم الدّينيّ والإِجْتِمَاعِيّ والاقتصادِيّ.

لَـوْ أعذنـا النّظرَ فِي الكَنِيسَـة الَّتِي صارَ نصفُها مسجـدًا، لاعتبارِ فتـحِ دِمَشْقَ نصفِها عَنْـوَةً عَلَى يد خَالِد، والنّصف الآخر صُلْحًا عَلَى يـد أبي عُبَيْدَة، ثُمَّ حاول معاوية داهِيَةُ السّياسـة الأُمَوِيّة - بحَسَبِ النّصـوص التّاريخيّة - أن يُوَظِّفَ إرادته فِي «أن يزيدَ كَنِيسَة يوحنّـا فِي المسجد الجامع بدمشق، فأبَى النَّصَارَى ذَلِكَ فأمْسَكَ، ثُمَّ طلبها عبد الملك

(1) - أوليري: مسالك الثّقافة الإغريقية إلىَ العرب، ص 206.

(2) - جرادي، شفيق: «الحوار الإسلاميّ المسيحيّ: التحديات والفرص»، موقع «بونا» يصدر عَنْ المركز الكاثوليكي للدراسات والاعلام. 12/ 06/ 2012

بـن مـروان فِي أيامه لمثل مَا كَانَ طلبها معاوية، وبذل لَهُـمْ مالا، فأبوا أن يسلموها إِلَيْهِ، ويرى فلهوزن[1]: إنَّ عبد الملك عَدل عَنْ ضَمِّ كَنِيسَةِ القديس يوحنا احتراما للنَصَارَى. وَهَذَا لا يكشف عَنْ مدى علاقة عبد الملك برعاياه النَّصَارَى.

ثُمَّ أنَّ الوليد بن عبد الملك جمعهم فِي أيَّامِه، وبذلَ لَهُمْ مالًا عظيمًا، عَلَى أنْ يُعطُوه إيَّاهـا فأبَـوْا، فقال: لئِنْ لَمْ تفعلوا لأهْدِمَنَّها، فقال بعضُهم: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ مَنْ هدَمَ كَنِيسَـةً جُـنَّ، فأحْفَظَهُ ذَلِكَ، حَتَّى دعـا بمُعْوَلٍ، فجعل يهدم بعـضَ حيطانها بيده، وَكَانَ عَلَيْهِ قباءُ خَزٍّ أصفرُ، ثُمَّ جمع الفَعَلَةَ والنَّقَّاضِين، فهدمَها، وأدْخَلَها فِي المسجد[2].

قَالَ مُحَمَّد بن حبيب: صعد الوليد المنبرَ، فسمع صوتَ ناقوسٍ، فقال: مَا هَذَا؟ قِيل: البِيْعَـةُ، فأمر بهدمِها، وتَوَلَّى بعضَ ذَلِكَ بيدِه، فتَتَابَعَ النَّاسُ يهدِمُون، فكتب إِلَيْهِ الأخرمُ ملكُ الرّوم: إنَّ هَذِهِ البيعةَ قَدْ أقرَّها من كَانَ قبلَك، فإنْ يكونوا أصابوا فَقَدْ أخطَأْتَ، وإنْ تَكُنْ أصَبْتَ فَقَدْ أخْطَأُوا[3].

فَلَمَّـا اُسْتُخْلِـفَ عُمَر بن عبد العزيز شَـكَى إِلَيْهِ النَّصَارَى مَا فَعَلَـهُ الوليد، فكتب إِلَى عاملِـه، يأمـرُهُ بِرَدِّ مَا زِيدَ فِي المسجدِ مِنْهَا عَلَيْهِـمْ، فكتب إِلَيْهِ، إنَّ أهل دِمَشْقَ قَدْ كَرِهُوا ذَلِـكَ، وَقَالُوا: يُهْدَم مسجدُنـا بَعْدَ أَنْ أذَنَّا فِيهِ وصَلَّينا، ويُـرَدُّ بَيْعَةً، وفيهم يومئذٍ سليمان بـن حبيب المحاربي وغيـرُه من الفقهاء، وأقبلوا عَلَى النَّصَـارَى، فسألوهم أنْ يعوضوا مِنْهَا رَدَّ جميعِ كَنَائِسهم بالغوطَةِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْهُمْ عَنْوَةً، وصارت فِي أيدي الْمُسْلِمِينَ، عَلَى أنْ يُصْفِحُوا عَنْ كَنِيسَة يوحنَّا، ويُمْسِكُوا عَنْ المطالبةِ بِهَا؛ فرَضَوا بِذَلِكَ وأعجبهم، فكُتِبَ بِهِ إِلَى عُمَر فسَرَّه، وأمْضَى الأمْرَ فِيهِ»[4].

وَفِـي إعادة قراءة النّص مـن الدّاخل، تجِد أنَّ المحاولاتِ الَّتِـي استخدمها الخلفاء لإقنـاع الْمَسِيحِيِّينَ قَدْ بـاءَتْ بالفشل، أمامَ تَشَبُّثِ النّاسِ برموزِهـم الدّينيَّة، عَلَى الرَّغْمِ

(1) - تاريخ الدولة العَرَبيّة 209.
(2) - فتوح البلدان، ص 128.
(3) - المسعودي: مروج الذهب 3/ 275.
(4) - قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص294؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص 127.

مِـنْ سَطْوَتِهِم السُّلْطَانِيَّـة الَّتِي وظفوهافي تحقيق ارادتهم، إلَـى ان جاء الوليد واستتبت لَهُ الدّولةُ، مشرقُها ومغربُها، فرغبهم يُسْرًا، وزاد لَهُمْ سِعْرًا، لَكِنَّهُ واجه جدار صمودهم إذْ «قالـوا: لا نبيـع، ولا نأذن فِـي هدمها، ولنا ذمة وعهـد الله»[1]؛ ثُمَّ أمـر عُسْرًا بهدمها وضمِّها إلَى المسجد. وَهُنَا أرادَ الوليدُ إيقاظَ الضَّغينَةِ الطّائفيَّةِ بين المَسِيحِيِّينَ واليهود، فدَعَا اليهودَ أنْ يأتُوا عَلَى هَدْمِها، فجاءُوا، فهَدَمُوهَا[2].

عندمـا توَلَّـى الخلافة عمر أحرج فِي عدالتـه، إذْ جاءه الْمَسِيحِيّـون بظُلامتهم، وفْقَ الضَّوابـط المكتوبة فِـي معاهدات الذِّمَّة، «لَا تهدم بيعَة يَهُـودِيّ وَلَا كَنِيسَة نَصْرَانِيّ»[3]، حتـى لانَ لهم أو كاد. هُنَـا جاء دور الفقهاء فِي المساومـة، واستكمال حَلَقَات الضَّغط النَّفسي، فِي استبدال بيع احتلها الْمُسْلِمون مِنْذُ نيفٍ وسبعينَ سنةً بكَنِيسَة يوحنا، المركزِ الرّئيسِ للعبادةِ، ومَحَجَّتِهِمْ فِي الأعيادِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي دِمَشْقَ.

وَالتَقَتْ حَلْقَتَا الْبِطَانِ بالفقهاء بأنَّ جعلت سنّة، مَا ذكره الرّازي عَنْ الفقيه مُحَمَّد بن عيسـى أنّـهُ قَالَ: لَمَّا افتتح الْمُسْلِمون الأندلس، استدلوا بِمَـا فعل أَبُو عُبَيْدَة وخالدٌ، عَنْ رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب، من مشاطرة الرّوم فِي كَنَائِسهم مثل كَنِيسَة دِمَشْقَ وغيرها مِمَّا أخـذوه صُلْحًا. فشاطر الْمُسْلِمون أعاجم قرطبة فِي كَنِيسَتهم العظمى الَّتِي كَانَـتْ بداخلهـا، وابتنى الْمُسْلِمون فِي ذَلِكَ الشّطر مسجـدا جامعا. وبقى الشّطر الثّاني بأيدي الرّوم، وهدمت عَلَيْهِمْ سائر الكَنَائِس[4].

مَـعَ هَذَا كلِّه يتبجَّح بعضُ الباحثين[5]، فيَقُولُ: «كَانَ لرعايا الدّولة من غير الْمُسْلِمِينَ - أَيْضًـا - حُرِّيَّـةٌ تامَّة، هِيَ مُمَارَسَة طقوسهم الدّينيَّـة؛ فاستجاب معاوية لطلب نَصَارَى

(1) - ابن عساكر: تاريخ دمشق 2/ 254.
(2) - ابن عساكر: م. ن. 2/ 255.
(3) - أَبُو يوسف: الخراج، ص 152.
(4) - ابن عذاري المراكشي، (ت 695هـ): البيان المغرب فِي أخبار الأندلس والمغرب، (ط3، دار الثّقافة، بيروت1983) 2/ 229؛ الذهبي: سير أعلام النّبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، (ط3، مؤسسة الرّسالة، 1985م) 8/ 248.
(5) - العقيلي: خلافة معاوية، ص80؛ الصّلاّبي: الدولة الْأُمَوِيّة عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار 1/ 303

دِمَشْـقَ بعدم زيادة كَنِيسَة يوحنا فِي مسجد دِمَشْـقَ». وكذا قولهم: «فَلَمْ يحاول الخليفة عبـد الملك الاستيلاء عَلَى كَنِيسَة يوحنـا، عندما رفض أهل الذِّمَّة تسليمها إِلَيْهِ، كَمَا أَنَّهُ سمـح لَهُـمْ بمُمَارَسَة طقوسهم الدِّينِيَّة بحرِّيـة»[1]. لَكِنْ لَمْ ينبِسُوا بِشَفَةٍ عَـنْ مَا اجْتَرَحَهُ الوليدُ فِي هَدْمِ الكَنِيسَة.

وللوليـد مآثر مَـعَ الكَنِيسَة، ففـي أَنْطَاكِيَـةَ - أَيْضًا - كَنِيسَة بولـس، وتعرف بـ «ديـر البراغيـث»، وَهِيَ مِمَّا يلـي باب فَارِسَ، وبها - أَيْضًـا - كَنِيسَة أُخْرَى تدعى أشمونيت، وبها يقام عيد عظيم للنَّصْرَانِيَّة، وَكَذَلِكَ بِهَا كَنِيسَة بربارا، وكَنِيسَة مَرْيَم وَهِـيَ كَنِيسَة مدورة، وبنيانها من إحدى عجائب العالم فِي التّشييد والرّفعة، وَكَانَ الوليـد اقتلـع من هَذِهِ الكَنِيسَة عُمُـدا عجيبة من المرمر والرّخـام لمسجد دِمَشْقَ، حُمِلَتْ فِي البحر إِلَى ساحل دِمَشْقَ[2].

وفقًـا لكثـرة التجـاوزات على حقـوق الأقليات، أو أتبـاع الديانـات الأخرى، فقد كثـرت الشكوى لـدُنِ الكتابِ المَسِيحِيِّـنَ على طوائفهم، ولا سيَّمـا المعاصرين منهـم للفتوح، أمثال «سبيوس الأرمني» و«يوحنـا النيقوسي»، من فدح ما ارتكبه العـربُ الفاتحـون مـن المجازر، على نحـو يُذهل الذهـن، ومن قسـوة في إدارة الحكـم، فقد عَدُّوهم كسلفِهم الفـرس من الغزاة الذين استباحـوا البلادَ والعبادَ، ولـم يرعـووا في اللجـوء الى أعمـال العنـف والقهـر والإزدراء للرعايـا من غير المسلميـن. فيصـف سبيوس[3] «هَوْلَ غـزو الإسماعليِّين، الذين أشـعلوا البحر والبـر...: مـا دهى زماننا من المصائـب والويلات برياح سمـوم مُدَمِّرَةٍ، عصفتْ بِنَا، وأحرقتْ الأشجار الجميلة، والحدائق المُورقة». ويحجِمُ «يوحنا النيقوسي» عن سَرْدِ هولِ ما ارتكبه الفاتحون: «فلنصمت الآن، إذْ يشقُّ علينا أنْ نَرْوِي جميعَ

---

(1) - الصّلاَّبي: م. ن. 1/ 661.

(2) - المسعودي: مروج الذهب، 2/ 339.

(3) - تاريخ هرقل، ص104، 129

ما اقترفتهُ أيدي المسلمينَ من فظائعَ عندَ احتلالِهم جزيرةَ نيقوس»[1]. ولذا نجده يحمل علـى المسلمين، بقوله[2]: «وكأنَّهم (المسلميـن) وضعوا على المصريين نيْـرًا يحملونـه، أثقل مـن النِّيْرِ الـذي فرضه فرعـون على إسرائيـل، والذي عاقبه اللـه بعقاب عـادل... فليوقعْ الله هـذا العقاب على الإسماعيلييِّـن... فإنَّه بسبب خطايانـا، سمـح اللـه أنْ يعاملونا هكـذا، ولكنه - بطـول أناته - سينظـر إلينا ربُنا ومُخَلِّصُنا يسوع المسيح».

ونتيجـة لتلك الممارسات المُجْحِفة بحـق غير المسلمين، تولَّدَت استجابات حقـد وكراهيَّـة، وردود فعل اضطلعـتْ بها مقالات بعض رجـال الكنيسة وأقلام الكتاب المَسِيحِيِّينَ، توجهت الى صاحب الشريعة بالإساءة. فهذا يوحنّا الجاثليق (279هـ/ 892م) يقول عن النبي: «إنَّه قد سقط في هاوية الهلاك الأبديِّ، عندما لـم يُـرِحْ سيفه المتعطش للدم، سيف الذي طالما رواه بـدم أعدائه الأمراء، الذين قتلهم أو أسرهم في الحروب، التي شنَّها على المؤمنين»[3].

مـن الأحـداث المثيـرة لمشاعر الآخـر الدينـي، والتي عبـر خلالهـا المؤرخ «غيفونـت» بـأن المسلمين أتباع الشيطان، ما نقله: «فـي السنة السادسة عشرة من حكـم عبد الملك، وسوس لـه الشيطان فأمر جيشه باجتيـاح أرمينيا ثانية، وكلَّفَ بذلك محمَّد [بن مروان] السَّفاح الممسوس، الذي أقْسَمَ أمامَ مولاه، بأنْ لا يُعيدَ سيفَه الى غمْدِه قبلَ أنْ يصلَ الى قلبِ البلاد[4]». ومن هذا القبيل، أنْ يشُنَّ يزيد بن عبد الملك عـام (104هـ/ 723م) حملة لتحطيم الأيقونات، وتهشيم الصلبان، وكـلِّ مـا يخُـصُ الحيـاة المسيحيَّـة، حتَّـى الخنازيـرُ أهلكهـا، مما دعـا المؤرخ «غيفونت» الى وَسْمِ هذا السلوك بالجموح الشيطاني[5].

---

(1) - تاريخ مصر، ص448 - 449؛ وانظر: ألان دوسلبيه: مسيحيو الشرق والإسلام، ص50 وبعدها
(2) - تاريخ العالم القديم ودخول العرب مصر، ص227.
(3) - ألان دوسلبيه: م. س، ص86، نقلا عن: يوحنا الجاثليق Jean le Katholicos، ص70.
(4) - ألان دوسلبيه: م. ن، ص87.
(5) - ألان دوسلبيه: م. ن، ص88 - 89.

وفيما يأتي، نعرض من النّصوص التّاريخيّة أمثلةً، تكشف عَنْ أحوال الْمَسِيحِيِّينَ وعلاقتهم الهشة مَعَ السّلطة:

فِي عهد الوليد بن عبد الملك، الَّذِي يصفه المسعودي[1] بِأَنَّهُ متسلّطٌ، عنيفٌ، وظالم، وأظهر مزيداً من الحماس الدّينِيّ. وَقَدْ ورد لَدَى مِيخَائِيل السّرْيانِيّ[2]: «منع الوليد كتابة الحسابات باليُونانِيّة، وَكَانَ الوليدُ يبغضُ الْمَسِيحِيِّينَ، فهدَمَ الكَنَائِسَ، وأوّلُ كَنِيسَةٍ هدمَها كَنِيسَةُ دِمَشْقَ الكُبْرَى، وشيّدَ جامعاً عَلَى أنقاضِها، وَهَكَذَا فعلَ فِي أماكنَ عديدةٍ. أصدرَ الوليدُ، أميرُ الْمُسْلِمِينَ، قرارًا بقتلِ أسرَى الْمَسِيحِيِّينَ، فقُتِلُوا داخلَ الكَنَائِسِ فِي جميعِ مُدِنِ سُورِيَةَ».

لما وجد معاوية أنّ أغلبيَّة السكان في الشام من المَسِيحِيِّينَ، وأكبر الظنِّ أنَّهم قد يعطون ولاءهم للروم، كان عليه أنْ يطعِّم البلاد بالجاليات الأخرى، ليقلِّص الوجود المسيحيّ، ويحقق التوازن الديموغرافي. فضلا عن القبائل العربية التي نزلت إبان الفتوح وبعدها، من يمن وسليح وزَبيد وهمْدان ويحصُب، فإنَّه نقل قوما من الفرس الى سواحل الأردن وصور وصيدا سنة 42هـ/ 662م، ونقل من أساورة البصرة والكوفة الى أنطاكية، ونقل قوما من زُط[3] البصرة والسَّبَابِجة[4] الى سواحلها سنة 49هـ/ 669م[5]. وبحسب اليعقوبي[6]: شملت ناقلة الفرس كورة عرفة وطرابلس وبيروت وجبيل وبعلبك، حتى صار أهل هذه الكور كلها من الفرس. واصل حملة التغيير الديموغرافي عبد الملك بن مروان، فأقطع فُرسَ

(1) - مروج الذهب 5/ 361.
(2) - تاريخ ميخَائِيل 2/ 374 - 375.
(3) - الزُّطُّ، بالضَّمِّ: جِيلٌ من النَّاسِ، الجِيلُ، لَيْسَ بعَرَبِيٍّ مَحْضٍ؛ قيل: هم جِنْسٌ من السُّودانِ طِوالٌ، أو أَنَّهُم: جِيلٌ من الهِنْدِ. الزبيدي: تاج العروس 19/ 322.
(4) - السَّبَابِجة: قومٌ من السِّند يُستأجَرُون ليُقاتِلوا، فيكونون كالمُبَذْرِقة،... وكَانُوا بِالْبَصْرةِ جَلاوِزَةً وحُرّاسَ السِّجْنِ، والهاءُ للعُجْمة والنَّسَبِ. ابن منظور: لسان العرب 2/ 294؛ الزبيدي: م.ن 6/ 27.
(5) - البلاذري: فتوح البلدان، ص 120، 163.
(6) - البلدان، ص 165.

بعلبـك الخمس من مدينة طرابلس، فسكنوهـا وغيرها من مدن الساحل. وتابعها الوليـد بْن عَبْـد الملك، إذ نقل إِلَى أنطاكية قوما مـنَ زط السند ممن حمله مُحَمَّد بـن الْقَاسِم إِلَـى الحَجّاج، فبعث بهم الحَجّاج إِلَى الشـام، حتى أضحتْ بانطاكية محلة تعرف بالزط[1].

شـملت سياسـة التفريق والإجلاء، التـي اتُبِعت في الشـام، الجَراجمة، بعدئذ كانـوا يقطنـون الجُرجومـة علـى جبل اللكـام، إبان الفتـوح بدروا بطلـب الأمان والصلـح، فصالحوا حبيب بْن مسلمة الفهري عَلَـى أن يكونوا أعوانا للمسلمين، وعيونـا ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يؤخـذوا بالجزية وأن ينفلوا أسلاب من يقتلـون من عدو المسلمين، إذا حضروا معهم حربا فـي مغازيهم[2]. وعلى مقالة البلاذري[3]: كـان الجراجمة يستقيمون للولاة مـرَّةً، ويعرجون أخرى، فيكاتبون الـروم، ويُمالِئونهـم، ولاسيمـا أيام ابْـن الزبير، وكـان عبد الملك قد شـدَّ عليهم فتفرقـوا في قرى حمص ودمشق وأنطاكيـة، ثم أناخ مسلمة بْن عَبْد الملك عليهم وأمرهم أن ينزلوا بحيث أحبوا منَ الشام، ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه أنطاكية، ثم هرب الى بلاد الروم.

كَـانَ شَـمْعَلَةُ بـن عامر بن عمرو بـن بكر، أخو بنـي فائد، نَصْرَانِيّـا، رئيس بني تَغْلِـب، وَكَـانَ ظريفا، فدخل عَلَـى بعض خلفاء بني أميَّة، فقال: أسلم يا شـمعلة، قَـالَ: لا - واللـه - لا أسلِـمُ كارها أَبَـدًا، ولا أسلِـمُ إِلَّا طائعًا إِذَا شـئت، فغضبَ الخليفـةُ، فأمـر بِهِ، فقُطِعَـتْ بِضْعَةٌ من فخذه، وشـويت بالنّار وأُطْعِـمَ إياها. فقال أعشى بني تَغْلِب فِي ذَلِكَ: [الطّويل]

أمِنْ حُذَّةٍ بالفَخْذ منك تباشرتْ ... عُدَاكَ فلا عارٌ عليك ولا وزْرُ

(1) - البلاذري: م. س، ص 163.
(2) - البلاذري: م. ن، ص 159.
(3) - م. ن، ص 161 وبعدها.

وإنّ أميرَ المؤمنين وجَرْحَه   لَكَالدّهْرِ لا عارٌ بِمَا فعل الدّهرُ[1]

ومن أكثر الممارسات الخاطئة شيوعًا كانت تتمُّ في جباية الضرائب، ولاسيما الخراج والجزية، إنَّها تستشري في التعسُّف منذ بداية جَرْدِ المكلَّفين بالختم على رقابهم، حتى تبرأ ذمَّتهم ضريبيا، فإنَّ الخليفة عُمَرُ شرعَ في هذا المنهج، إذْ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ أَنْ يَخْتِمُوا رِقَابَ أَهْلِ الذِّمَّةِ[2]. إنهم يدفعون الضريبة سواء في الحياة أو الموت، وفي اليسر أو العسر، وقد استنكر عُمَر بن عبد العزيز هذا الواقع المهين والمؤلم، بكتابه إِلَى عُرْوَة بن مُحَمَّد: «أما بعد فَإِنَّك كتبت إِلَيّ تذكر أَنَّك قدمت الْيمن فَوجدت على أهلهَا ضريبة من الْخراج مَضْرُوبَة ثابتة فِي أَعْنَاقهم كالجزية يؤدونها على كل حَال إِن أخصبوا أَو أجدبوا أَو حيوا أَو مَاتُوا؛ فسبحان الله رب الْعَالمين، ثمَّ سُبْحَانَ الله رب الْعَالمين، ثمَّ سُبْحَانَ الله رب الْعَالمين»[3]. وتتضارب الروايات[4] في من سنَّ جزية الأموات يدفعها الأحياء، لأنَّهم بمنزلة العبيد، هل سنَّها عمر بن الخطَّاب ورفضها عُمَر بن عبد العزيز[5]، أو أنَّ من سنَّها هو عمر بن عبد العزيز نفسه. وأما إذا تعذَّرَ دفع الجزية على المكلفين، فإنَّهم يعرض عليهم بيع أعزّ ما لديهم، ولو كانوا أبناءهم، لاستحصال الجزية، فقد صَالَحَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ أَهْلَ أَنْطَابُلْسَ، وَهِيَ مِنْ بِلاَدِ بَرْقَةَ بَيْنَ إِفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ عَلَى الْجِزْيَةِ، عَلَى أَنْ يَبِيعُوا مِنْ أَبْنَائِهِمْ مَا أَحَبُّوا فِي جِزْيَتِهِمْ»[6].

وقد أفرط بنو أميَّة في إثقال كاهل الذميِّين بدفع الضرائب، باستثناء عمر بن

(1) – الأغاني 11/ 284؛ قارن: المبرد: الكامل، 3/ 117؛ الزمخشري، جار الله (ت 538ه) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، 5ج (مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1412هـ)؛ شيخو: شعراء النّصرانية 8/ 119.

(2) – أبو يوسف الخراج، ص 141؛ أبو عبيد: الأموال 1/ 66.

(3) – ابن عبد الحكم، (ت 214هـ): سيرة عمر بن عبد العزيز، (عالم الكتب، بيروت، 1984) ص 108.

(4) – ابن عساكر: تاريخ دمشق، 37/ 9، أبو عبيد: م. س. 1/ 61.

(5) – شافية حداد السلامي: نظرة العرب الى الشعوب المغلوبة من الفتح الى القرن الثالث (دار الانتشار العربي، بيروت، 2009) ص295.

(6) – ابو عبيد: م. س. ص 193.

عبد العزيز الذي أسقط الجزية عن كل مسلم من الذميّين[1]. وأكّد هذه الممارسة أَبُو عُبَيْدٍ[2]: أَفَلاَ تَرَى أَنَّ هَذِهِ الأَحَادِيثَ قَدْ تَتَابَعَتْ عَنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى بِإِسْقَاطِ الْجِزْيَةِ عَمَّنْ أَسْلَمَ، وَلَمْ يَنْظُرُوا: فِي أَوَّلِ السَّنَةِ كَانَ ذَلِكَ وَلَا فِي آخِرِهَا، فَهُوَ عِنْدَنَا عَلَى أَنَّ الإِسْلَامَ أَهْدَرَ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْهَا، وَإِنَّمَا احْتَاجَ النَّاسُ إِلَى هَذِهِ الْآثَارِ فِي زَمَانِ بَنِي أُمَيَّةَ، لِأَنَّهُ يُرْوَى عَنْهُمْ، أَوْ عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَهَا مِنْهُمْ وَقَدْ أَسْلَمُوا، يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ الْجِزْيَةَ بِمَنْزِلَةِ الضَّرَائِبِ عَلَى الْعَبِيدِ يَقُولُونَ: فَلَا يُسْقِطُ إِسْلَامُ الْعَبْدِ عَنْهُ ضَرِيبَتَهُ، وَلِهَذَا اسْتَجَازَ مَنِ اسْتَجَازَ مِنَ الْقُرَّاءِ الْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ.

وعلى تلك الشاكلة، كان الحَجّاج يتعسَّف في أخذ الجزية، من أجل الحفاظ على ميزانية الدولة في سقفِها الأعلى، إذْ أَنَّ عُمَّالَ الْحَجَّاجِ كَتَبُوا إِلَيْهِ: إِنَّ الْخَرَاجَ قَدِ انْكَسَرَ، وَإِنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ قَدْ أَسْلَمُوا وَلَحِقُوا بِالأَمْصَارِ. فَكَتَبَ إِلَى الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهَا: إِنَّ مَنْ كَانَ لَهُ أَصْلٌ مِنْ قَرْيَةٍ فَلْيَخْرُجْ إِلَيْهَا. فَأَخْرَجَ النَّاسَ لِتُؤْخَذَ مِنْهُمُ الْجِزْيَةُ[3].

انتقد الكتاب المسيحيُّون والمسلمون الممارسة المتعسّفة في أخذ الجزية، فبيَّن «التلمحري»[4] أنَّ عمال الخراج أَجْبَرُوا الفلاحين على دفْعِ الخراج ذهبًا، بدلًا من دفعِهِ عينًا، وأيَّده أبو يوسف[5]: «أَنَّ عُمَّالَ الْخَرَاجِ يَبْعَثُونَ رِجَالا مِنْ قِبَلِهِمْ فِي الصَّدقَات، فيظلمون، ويعسفون، ويأتون مَا لَا يَحِلُّ وَلا يَسَعُ». وكشف ابن المقفع عَنْ حركة هروب من الأرض والفلاحة، للتخلص من الْجِزْيَة والضَّرائب المفروضة، وأحيانًا تكونُ الضَّرائبُ وِفْقَ مِزَاجِ الوالِي، فإنه قد يغلط فِي الكَلامِ

---

(1) – السلامي: نظرة العرب الى الشعوب المغلوبة، ص293.

(2) – م. س. ص 60.

(3) – ابن الأثير: الكامل في التاريخ 3/ 491.

(4) – من مؤرخي السريانية القدماء، وتاريخه ينتهي الى عام 158هـ/ 774م. انظر: جاسم صكبان علي: «التاريخ العربي والاسلامي من خلال المصادر السريانية»، بحث في عالم الفكر، الكويت، ديسمبر 1984، ص69.

(5) – الخراج، ص 93.

لمن لايقدر على دفع الضريبة، أويُسلّمه لمُتَرَسّمين إِلَى أنْ يقوم بدفعها، أَوْ يعذب ويهـان بشدة[1]. وعدّ أبو عبيد[2] من أَعْظَمُ مَـا أَتَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بَعْدَ نَبِيِّهَا... أَخْذُهُمُ الْجِزْيَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أي مِنَ الذِّمِّيِّ بَعْدَ إِسْلَامِهِ.

أَمَّا عمر بن عبد العزيز فَكَانَ مُتديّناً، وسار عَلَى خطى الخلفاء الرّاشِدِين، إلا أنّ سيرته لا تخلو من ممارسات خاطئة في حق غير المسلمين، وقد اضطلع الكتاب المسيحيـون والمسلمون في تحليلهـا أو تسويغها. فيَقُولُ مِيخَائِيـل السّرْيانِيّ فِي صـدده: «مِنْـذُ تَوَلِّيهِ الحكـمَ أخذَ عمرُ يُسِيءُ إِلَـى الْمَسِيحِيِّينَ لسببيـنِ: أَوّلًا رغبةً فِـي تعظيم الشّريعـة الإِسْلَامِيّة، ثانياً لفشـلِ الْمُسْلِمِينَ فِي احتـلال القُسْطَنْطِينِيَّة. وَكَـانَ يشدِّدُ الخِنَاقَ عَلَـى الْمَسِيحِيِّـنَ، ليُكرِهَهم عَلَى اعتنـاقِ الإِسْلَام، فأصدَرَ قـرارًا يقضي بإعفـاء من الْجِزْيَة كُـلَّ مسيحِيٍّ يعتنـقُ الإِسْلَامَ، فأسلـمَ الكثيرون. كَمَـا قـرّرَ عَدَمَ قبولِ شـهادةِ الْمَسِيحِيّ عَلَى الْمُسْلِم، وعـدم توليَةِ مسيحيٍّ فِي أيِّ مجـال، كَمَا منـع الْمَسِيحِيِّينَ من رفع أصواتهم فِي الصّـلاة، ومن لبس الأخضر، وركـوب حصان مسرّج. وإذا قتـل مُسْلِم مسيحيّاً لا يحكم بالقتـل، بَلْ بدفع ديّته خمسة آلاف دِرْهَم، ومنع تقدمة النّذور للأَدْيِرَة والرّهبنات؛ لا بَلْ صادرَ قسْمًا من أمـلاكِ الكَنَائِسِ والأَدْيِرَةِ والفقـراء»[3]. وَهَذِهِ القراراتُ لَمْ تُطَبَّقْ دومًا كَمَا يستدلّ مـن إعادة التّذكير بِهَـا. إِنَّمَا ظَلَّتْ كسيفٍ مُسَلَّطٍ عَلَى رقابِ الْمَسِيحِيِّينَ، وأخذتْ - في ضوئها - المذاهب الفقهيّة تحدّد أوضاع أهل الذِّمَّة، وتضيّق عَلَيْهِمْ[4].

أَمَّا يزيد بن عبد الملك (101 - 105هـ/ 720 - 724م) فَقَدْ أصدر مرسوماً يحظّـر تصوير الكائنات الحيّـة، وحطّم الصّلبان والصّور فِـي الكَنَائِس، وأخضع الرّهبـان والكَنَائِس للضرائب، الَّتِي كَانَتْ معاهدات الصّلْح أعفتهم مِنْهَا، وشـدّد

---

(1) - ساويرس: تاريخ البطاركة 2/ 14 - 36.

(2) - الأموال، 1/ 60.

(3) - تاريخ مِيخَائِيل 2/ 384.

(4) - سيّار الجميل: «المسيحيون العِرَاقيون (3/ 5): العِرَاق والإسلام: التحدّي والاستجابة»، مجلة ألفا(elaph.)، عدد، 11421، تاريخ 6/ 11/ 2010.

الخناق عَلَى الَّذِينَ لَمْ يتمكّنوا من دفع الْجِزْيَة، ورد الكَنِيسَة الَّتِي اقتطعها بنو نصر مِنْ بَعْدِ أَنْ أخرجهم عَنْهَا عمر بن عبد العزيز[1].

ألغى هشام بن عبد الملك (105 - 125هـ/ 724 - 743) قرارات أخيه التّعسّفية، وَكَانَ مولعاً بالطّقوس الْمَسِيحِيَّة، ويستَمْتِعُ بالأناشيد الدّينِيَّة والصّلوات، الَّتِي كَانَتْ تُتْلَى أيامَ الأعيادِ فِي الكَنِيسَةِ المُلاصقةِ لقصره[2]، وَقَدْ سمحَ للملكيّينَ بأَنْ يُقيموا لَهُمْ بِطْرِيكاً فِي أَنْطَاكِيَةَ عَلَى أَنْ يكونَ من أهلِ البلادِ[3].

وقام من بعْدِه الوليد بن يزيد (125 - 126هـ/ 743 - 744) الَّذِي قطَعَ لِسَانَ البِطْرِيَرك الملكي استفانس الثّالث، ولسان بطرس أُسْقُف دِمَشْقَ الملكي[4]؛ لأَنَّهُما تعرّضا للإِسْلَام. كَمَا قُدِّمَ إِلَى القتل فِي الحقبة الأُمَوِيّة الثّانية عدّةُ أشخاصٍ مَسِيحِيِّينَ، لاسِيَّمَا من أصْلٍ عَرَبِيٍّ لتراجُعِهِم عَنْ الإِسْلَام، أَوْ التّشهير بِهِ، نحو: بطرس كابيتولياس، أَوْ مايوما، عبد الْمَسِيح الَّذِي استُشْهِدَ فِي الرّملةِ، ومِيخَائِيل السّابائي[5]، وفارِسٌ من إياد من بني حذافة، كَانَ هاجر إِلَى بلاد الرّوم، وأُسِرَ لَدَى غزوِ القُسْطَنْطِينِيَّة، وظلّ متمسّكاً بدينه الْمَسِيحِيّ؛ فأمرَ هشامُ بقطعِ رأسِه[6].

أمّا العمّالُ الَّذِينَ ولَّاهم عبد الملك عَلَى العِرَاق، لاسِيَّمَا أخاه مُحَمَّد والحجّاج، فكانوا أكثر تشدّداً. وإنّ الوالي مُحَمَّدًا حاولَ إكراهَ الْعَرَبَ الْمَسِيحِيِّينَ عَلَى اعتناقِ الإِسْلَامِ، فاستدعَى «موعد»، زعيمَ التّغالبة، وأكرهَهُ عَلَى إشهارِ

---

(1) - البلاذري: فتوح البلدان 126.

(2) - قصر هشام ملاصق لكنيسة القديس سرجيوس فِي مدينة الرّصافة، الَّتِي تبعد 30 كم جنوب غربي مدينة الرّقة (البازيليكا) وَهِيَ كنيسة مبنية عَلَى طراز المحاكم الرّومانية بهياكلها المميزة والتي شيدتها المسيحيّة الأولى. البازيليكا الكبرى كنز الرّصافة، 2009 ،August 20، موقع kaldaya.net.|

(3) - اغناطيوس ديك: «المسيحيّون فِي عهد الخلفاء الرّاشدين والأمويّين الأوائل»، موقع القديسة تيريزا بحلب؛ السّيد عبد الله سالم: «شعراء النّصرانية»، ق2، الحوار المتمدن - العدد: 4047 - 2013 / 3 / 30

(4) - مِيخَائِيل السّرياني: التاريخ 2/ 401

(5) عبد الله سالم: «شعراء العَرَبِيّة النّصارى».

(6) - ابن الفقيه: البلدان، ص 458؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 16/ 180؛ ياقوت: معجم البلدان 2/ 44.

إِسْلَامِـه، وإذْ لَمْ يُذْعِـنْ قَتَلَهُ، وأمرَ بعـدمِ دفنِه، لتمسُّكِه بدينِـه الْمَسِيحِيّ. وعذَّبَ إسماعيلَ التَغْلِبي المعترف الطّاوباوي، بأنْ قطَعَ قطعةً من فخْذِه، وشووها بالنّار، ووُضِعَـتْ فِـي فمِه[1]. وأحـرقَ جماعةً مـن الأرْمَن فِـي كَنِيسَتِهم، وحظَـرَ ظُهورَ الصّلبانِ فِي الشّوارِع[2].

تطلعنا رِوَايَة الكَلْبي، أنَّ صاحب النَجْرَانية بالكوفة كَانَ يبعث رسلَه إِلَى جميعِ مَنْ بالشّامِ والنّواحِي، من أهلِ نَجْرَان، فيُجْبُونَهُمْ مالًا يُقَسّمَهُ عَلَيْهِمْ لإقامةِ الحُلَلِ، فَلَمَّا وَلِيَ معاويةُ أَوْ يزيدُ بْن معاوية، شَكَوْا إِلَيْهِ تَفَرُقِهِمْ، ومَوْتِ مَنْ ماتَ، وإِسْلَام من أسلم مِنْهُمْ، وأحضروه كتاب عُثْمَان بْن عَفَّان، بِمَا حطَّهم منَ الحلل، وَقَالُوا: إِنَّمَا ازْدَدْنَا نُقْصَانًا وضَعْفًا، فوَضَعَ عَنْهُمْ مائتَيْ حُلَّةٍ، يتمُّه أربعمائة حلَّة.

لَمَّـا وُلِّـيَ الحَجّاج بْـن يوسـف العِـرَاق (75 - 95ه/ 623 - 714م)، خرج ابْن الأشعث عَلَيْهِ فِي (82هـ/ 701م) اتَّهم الدّهاقين بموالاته، واتَّهم النَجْرَانيين مَعَهُـمْ، فَرَدَّهُمْ إِلَى أَلْفٍ وثمانمائةِ حُلَّةٍ، وأخَذَهُمْ بِحُلَلٍ وَشِـيٍّ[3]. فَلَمَّا ولي عُمَر بْن عَبْد العزيز الخِلَافَة (99هـ/ 718م) شَـكَوا إِلَيْهِ فناءَهم، ونقصانَهم، وإلحاحَ الأعـرابِ بالغارةِ عَلَيْهِمْ، وتحميلهم إِيَّاهم المُـؤَنَ المُجْحِفَةَ بِهِمْ، وظُلْم الحَجّاج إِيَّاهـم؛ فأمر فأُحْصُـوا، فوُجِدُوا عَلَى العُشْـرِ من عِدَّتِهم الأولى، فقـال: أرى هَذَا الصُّلْـحَ جِزْيَـةً عَلَـى رؤوسِهِـمْ، وَلَيْـسَ هُوَ بصلـحٍ عَـنْ أَرْضِهِمْ، وجزيـةُ المَيتِ والمسلمِ ساقطةٌ، فألْزَمَهُم مائتي حُلَّةٍ، قيمتُها ثمانيةُ ألفِ دِرْهَمٍ، فَلَمَّا وُلِيَ يوسف بْن عُمَر الثّقفي العِرَاق (120 - 126هـ/ 738 - 744م)، فِي أيام الوليد بْن يزيد (125 - 126هـ/ 743 - 744م) ردَّهم إِلَى أمرهم الأوّل عصبيَّةً للحجاج[4].

يبـدو أنّ منْ أكثرِ الأمور أثرًا، فـي تلكُّؤ مسيرة العلاقات الأسلاميّة المسيحيّة،

---

(1) - مِيخَائِيل السّرياني: التاريخ 2/ 376.

(2) - مِيخَائِيل السّرياني: م. ن. 2/ 370.

(3) - يُقالُ: بُردٌ وَشِيٌّ (فَعِيْلٌ) منَ الوَشْيِ، والوَشْيُ: النَّقْش. أَبُو هلال العسكري: التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، (ط2، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، 1996م) ص 141.

(4) - البلاذري: فتوح البلدان، ص74.

هـو التدخـل في تنصيـبِ الرموز الكنسيَّـة، أو تغيير هـا، أو منعها مـن أداء مهامِّها الكنسيَّـة. فمثـلا كـان مشهدُ تدخُّـلِ الدّولـة الأُمَوِيّة فِـي تَنْصِيبِ يوحنَّـا الأبْرَص جاثليقا، وإخراجِ «حنانيوشـع» الجاثليـقِ المُسَمَّى فِي المدائنِ سنةَ 74هـ[1]، كَانَ سافِرا ومُزْرِيًا. فِي ضوئِه عانتْ كَنِيسَةُ المشرقِ مَرَائِرَ فِي عَهْدِ البِطْرِيَركِ حنانيشوع الاول (38 - 81هـ/ 658 - 700م).

وَكَـانَ سبـبُ هَذِهِ الويـلات - بحَسَبِ ابن العِبْـري: أنَّ البِطْرِيَركَ ألقَـى السّلامَ عَلَى الخليفَـةِ الأُمَوِيّ عبـدِ الملكِ بنِ مروان بدونِ كِيَاسَةٍ، واستغَـلَّ المَوْقِفَ مطرانُ نَصِيبِينَ يوحنَّا الأبْرَص، الَّذِي كَانَ خَصْمًا للبِطْرِيَركِ، للوشايةِ بِهِ عِنْدَ الحجّاجِ بنِ يوسفَ الثّقفي الوالـي الأُمَوِيّ عَلَـى العِرَاق. ولقـد اخْتَلَسَ يوحنَّا الأبـرَص الكرْسِـيَّ البِطْرِيَركِيَّ مدّةَ سنـةٍ وعشرةِ أشـهر (72 - 74هــ/ 691 - 693م)، لكِنَّـهُ ذهبَ منكَسِـرًا، نتيجةَ أعمالِه المُنْحَرِفَةِ، بَعْدَ أنْ طارده الحَجّاج، وماتَ غيرَ فَقِيدٍ ولا حَمِيد.

عَلَـى أنَّ الحَجّـاج» إستمـرَّ فِـي سياسَتِـه التّعَسُّفِيَّـةِ، فمَنَـعَ الْمَسِيحِيِّينَ مِـن تنصيبِ جاثليـق[2]، وأصدر أمْرًا بمنعِ البِطْرِيَركَ من زيارةِ الابرشـياتِ الوُسْطَـى والجنوبيَّةِ الَّتِي كَانَـتْ تَحْـتَ وِلايَةِ الحَجّاج. فبقِـيَ البِطْرِيَركُ يُدِيرُ الأبْرَشِـيَّاتِ الشّماليَّـةَ فَقَطْ. وَهَكَذَا بَـدَأتْ نَكْسَـةٌ جديـدةٌ للمَسِيحِيَّةِ فِي مناطـقِ الكرسـيِّ البِطْرِيَركيِّ والمناطـقِ الجنوبيةِ، الَّتِـي ظَلَّـتْ بدُونِ أسَاقِفَةٍ إلَى وفـاةِ الحَجّاج، وَحَتَّى جلـوسِ البِطْرِيَرك مار بثيون (113 - 132هـ/ 731 - 741م) عَلَى الكرسي[3].

لَـمْ تَخْتَـصّ الأَعمـالُ السّلبِيَّـةُ بالرّمـوزِ الْمَسِيحِيَّـة وتراثِهم لَـدُنْ قسْمٍ مـن الحكام الأُمَوِيّين، بَلْ إنَّ آل الزبير فِي ولايتهم لَمْ يكونوا بأقلَّ مِن غيرِهم. تعرِّفُنا رِوَايَة الْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ الثّقَفِيِّ؛ بأنْ دَخَلَ أُسْقُفُ نَجْرَان عَلَى مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ والِي العِرَاق(68_72هـ/

(1) - ماري: فطاركة المشرق، ص63 - 64، وص66.

(2) - ماري: م. ن. ص64.

(3) - سامي خنجرو: «كنيسة المشرق تحتَ الحكم العَرَبِّي الإسلاميّ»، موقع مانكيش mangish.com، 04 - 09 - 2010.

688 - 691م)، فَضَـرَبَ وَجْهَهُ بِالْقَضِيبِ فَأَدْمَاهُ، فَقَالَ الأُسْقُفُ: إِنْ شَـاءَ الأَمِيرُ أَخْبَرْتُهُ بِمَـا أَنْـزَلَ اللهُ عَلَى عِيسَـى: لا يَنْبَغِي لِلإِمَـامِ أَنْ يَكُونَ سَفِيهًا، وَمِنْهُ يُلْتَمَـسُ الْحِلْمُ، وَلا جَائِرًا، وَمِنْهُ يُلْتَمَسُ الْعَدْلُ[1].

وَفِي خبر الأَصْمَعِيِّ: قَالَ أُسْقُفُ نَجْرَان لِمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ حِينَ قَنَّعَهُ بِقَضِيـبٍ فِي رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ الأسقف: لا يَنْبَغِـي لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْضَبَ؛ لأَنَّ الْقُدْرَةَ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِـهِ، وَلا يَكْـذِبُ؛ لِأَنَّهُ لا يَقْـدِرُ أَحَدٌ عَلَى اسْتِكْرَاهِـهِ عَلَى غَيْرِ مَا يُرِيـدُ، وَلا يَبْخَلُ؛ فَإِنَّـهُ لا يَخَـافُ الْفَقْـرَ، وَلا يَحْقِـدُ؛ لأَنَّ خَطَرَهُ قَدْ جَلَّ عَـنْ الْمُجَازَاةِ[2]. عَلَـى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ النّصيـن من طريـق الإِخْبَارِيّين الإِسْلَاميّين، فانَّهما يدلان عَلَى بلاغة المعاني، وبيان الالفاظ، وثبات الوقفة لَدَى الأُسْقُف فِي وجه حاكم جائر.

وَفِـي الحجـاز حُمِلَ إِلَـى ابن الزبيـر من صنعـاء الفسيفسـاءُ، الَّتِي كَـانَ بناها أبرهة الحبشـي فِي كَنِيسَتـه (القُلَيس) الَّتِي اتخذهـا هُنَالِكَ، ومعها ثـلاثُ أساطين من رخام، فِيهَا وَشْـيٌ منقوش، قَدْ حُشي النّقش السّندروس وأنواع الألوان من الأصباغ، فمنْ رآه ظنَّـه ذهبًا، وشَـرَعَ ابن الزبير فِي بناء الكعبة، وشـهد عِنْدَهُ سبعون شـيخاً من قُرَيْش: أن قُرَيْشـاً حِينَ بنت الكعبة عجزتْ نفقتُهم، فنقصـوا من سَعَة البيت سبعةَ أذرع من أساس إِبْرَاهِيم الخليل، الَّذِي أسسه هُوَ وإسماعيل، فبناه ابن الزبير وزاد فِيهِ الأذرُع المذكورة، وجعل فِيهِ الفسيفساءَ والأساطينَ، وجعل لَهُ بابين: بابا يدخل مِنْهُ، وبابا يخرج مِنْهُ، فَلَمْ يـزل البيت عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى قَتَـلَ الحَجّاج عبدَ الله بن الزبير، وكتبَ إِلَى عبد الملك بن مـروان يُعْلِمُهُ بِمَـا زاده ابن الزبير فِي البيت، فأمره عبد الملك بهدمـه، ورده إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ آنفاً من بناء قُرَيْش[3].

لَمْ تذكر الاخبار ان عبد الملك استنكر مَا سُلِبَ من بيوت العبادة، واستثمر فِي بيت

---

(1) - الدينوري، أحمد بن مروان المالكي (ت 333هـ): المجالسة وجواهر العلم، (دار ابن حزم، بيروت، 1419هـ) 4/ 349؛ الطرطوشي: سراج الملوك، ص281.

(2) - الدينوري: م. س. 6/ 387.

(3) - المسعودي: مروج الذهب، (1956) 3/ 282.

الله الحرام، ولا أرجعَ مَا سُرِقَ من الكَنِيسَةِ ورمَّمَها، بقدرِ مَا كَانَ حريصًا عَلَى أنْ يمسحَ مَا عَمَلَه خصْمُه ابنُ الزبيرِ من سِجِلِّ التّاريخ.

فِـي مِصْـرَ، مبتدأ الدّولة الأُمَوِيّة كَـانَ الأَقْبَاطُ ملازِمين الهـدوءَ والسّكينة؛ لاستقامَةِ الحَـالِ مَعَهُـمْ، لاسِيَّمَا فِـي ولاية عمرو بن العاص (38 – 43هـ/ 658 – 646م) الَّذِي يعـد مثالًا فِي العلاقة الطيبـة معهم. وعلى العكسِ مِنْهُ، أضحوا فِي ولاية سعيد بن يزيد (62 – 64هـ/ 682 – 684م)، إِذْ اضطُهِـدَ بِطْرِيَكُ الأَقْبَاطِ إضطهادًا شـديدًا. وَلَمَّا وُلِّيَ عبـد العزيـز مِصْرَ (65 – 84هـ/ 685 – 703م)، كَانَ فِـي مبدَأ أمرِه محاسِنًـا الأَقْبَاطَ، وعملَ إئتلافًا مَعَ البِطْرِيَك الـ (41) إسحاق، إِلَّا أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ أخْضَعَ البلادَ كلَّها، تغيَّرَ عَلَى الأَقْبَـاطِ، وأمرَهم بـأنْ لا ينتخبوا بِطْرِيَكَهم بعيـدًا عَنْهُ، وأعْلَى الضَّرائـبَ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ الأكْلِيـروس[1] يُعْفَـوْنَ من الْجِزْيَـة؛ فألزمَ كُلَّ واحدٍ مِنْهُـمْ بدينارٍ فِي السَّنَـة، والبِطْرِيَكَ بثلاثةِ آلافِ دينارٍ[2].

وَلَمَّـا إسْتَمَـرَّ إنْحِطَاطُ المَمْلَكَـةِ الرّومانيَّةِ، لَمْ يَعُدْ عبد العزيز يَعْبَـأ بمُهَادَنَةِ الأقباطِ، فمدَّ إِلَيْهِمْ يَدَ الأذى، وشـرَعَ فِي نَهْبِ أموالِهـم، وسلْب مقتنياتهم، وأمر بكسر الصّلبان الَّتِي فِي كورة مِصْرَ، ثُمَّ علّقَ رقاعًا عَلَى أبوابِ البِيَعِ، كُتِبَ فِيهَا» مُحَمَّدٌ أعظمُ رسلِ الله، وعيسى – أَيْضًا – رسولُ الله، والله لَمْ يلدْ وَلَمْ يولدْ«[3].

غيـر أنَّ هَـذَا لا يمنـع من الإيجابي فِـي إِدَارَة بلادٍ، أغلبِيَّـةُ سكانِها مـن الْمَسِيحِيِّينَ، والاوضاعُ السِّيَاسِيَّةُ قَلِقَةٌ، ولاسِيَّمَا مَعَ بيزَنْطَةَ، والحوادثُ الدّاخليَّة، تستوجبُ تحسينَ مستوَى التّعاملِ مَعَ حاجاتِ السّكانِ، مِن تَرْمِيمِ كَنِيسَةٍ، أَوْ اعطاءِ الإِذْنِ بتجديدِ بَيْعَةٍ.

لَعَـلَّ مـن المفيدِ الَّذِي أشـغلَ الْمُؤَرِّخيـن، تعييـنَ الْمَسِيحِيِّينَ، وإشـغالَ الوظائفَ، ولاسِيَّمَـا الْمَالِيَّةَ مِنْهَا، فِي ظِلِّ السّلطـةِ الإِسْلَامِيّةِ، أَوْ إبقائِهم عَلَى وظائِفِهم، ففي مِصْرَ

(1) – إكليروس (clergy) كلمة يونانية المقصود بها أصحاب الرّتب الكهنوتية من أساقفة وكهنة وشمامسة. معجم المصطلحات الطقسية: (إكليروس).

(2) – القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، ص406.

(3) – القمص: م. ن. ص 407.

كَانَ من إختصاصِ الْأَقْبَاطِ، وَقَدْ أَوْرَدَ «ساويرس ابن المقفع» أسماءَ كثيرٍ من كبار الموظفين[1]. وَفِي سُورِيَةَ ثُلَّةٌ من الْمَسِيحِيِّينَ المقربين للدولةِ، ظلُّوا يُقَدِّمون خدماتِهم فِيهَا. فَلَمَّا وُلِّيَ أثناسيوس برجوميا السّرْيانِيّ الرّهاوي الإِدَارَةَ الْمَالِيَّة فِي مِصْرَ، فأحسنَ هَذَا التّصرفَ فِي الوظيفةِ، وَكَانَ عهدُه عهدَ بركةٍ وإقبالٍ عَلَى الدّولةِ الأُمَوِيّة[2]. إلاَّ أنَّها - جُمْلَةً - لَمْ تَكُنْ الوظائفُ لعَامَّةِ الْمَسِيحِيِّينَ، وإنَّمَا كَانَتْ لأخَصّ الخَاصَّة، وَهُمْ قلَّةٌ، نِسْبَةً إلَى مجتمعات تَغْلُب عَلَيْهَا الْمَسِيحِيَّة، وَهَذِهِ القِلَّةُ بدَتْ تَتَنَاقَصُ الحَاجَةُ إلَيْهَا فِي أروقة الوظائف السُّلْطَانِيَّة، إِبَّانَ تغيير لغة الدّواوين إلَى الْعَرَبِيّة من جانب، وبخاصة بعد تدريب الْمُسْلِمِينَ عَلَى مهام الوظائف المُهِمَّة.

3. الحَرَاكُ الدّينِيّ الْمَسِيحِيّ:

إنَّ الحياةَ الدّينِيَّةَ الْكَنَسِيّةَ ظلت موجودةً، تعبرُّ عَنْ نشاطٍ يتَجَدَّدُ، فَثَمَّةَ آثارُ كَنَائِس جديدةٍ بُنِيَتْ فِي القَرْن السّابع. ففي دير أيوب[3]، جنوب نوى ساكف، كَنِيسَة مُؤَرّخ بناؤها عام20هـ/ 641م، فِي عهد رئيس الدّير ايلياس. وَفِي العفر فِي جبل الْعَرَب[4]، شُيِّدَ مَعْبَدٌ للقدّيس جاورجيوس عام31هـ/ 652م، وَفِي عام 43هـ/ 663م كُرِّسَتْ موزاييك للعذراءِ مَرْيَمَ فِي كَنِيسَة مادبا فِي الأردن. ودُشِّنَتْ كَنِيسَةٌ عَلَى اسْمِ النَّبِيّ ايليا فِي ارمان جبل الْعَرَب عام 48هـ/ 668[5]، واستغلّ سرجون بن منصور، والدّ يوحنّا الدّمشقي، نفوذه فِي البلاط الأُمَوِيّ ليبني كَنِيسَة جديدة خارج باب الفراديس بدلاً من

---

(1) - تاريخ البطاركة 2/ 8.

(2) - البطريرك مار إغناطيوس زكا الأول عيواص: «السّريان والإسلام تاريخ مشترك»، الموقع الرّسمي لبطريركية أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس.

(3) - دير أيوب: قرية بحوران من نواحي دمشق. ياقوت: معجم البلدان 2/ 499؛ الصّالحي الشّامي: سبل الهدى والرّشاد فِي سيرة خير العباد 2/ 207.

(4) - فِي بِلاَدِ الشَّامِ قرب حَوْرَانَ، وَهِيَ السّفُوحِ الْغَرْبِيَّةِ لِجَبَلِ الدُّرُوزِ (اسْمُهُ جَبَلُ الْعَرَبِ). الحربي، عاتق بن غيث: معجم المعالم الجُغْرَافِيَّة فِي السّيرة النّبوية (دار مكة للنشر، السّعودية) ص 44.

(5) - جوزيف نصر الله: تاريخ الحركة الأدبية فِي الكنيسة الْمَلَكِيّة، (634 - 750م) ج1/ 40 - 41 بالاستناد إِلَى دوفريس: البطريركية الأنطاكية، ص. 225، 231، 233؛ الأرشمندريت اغناطيوس ديك: «المسيحيّون فِي عهد الخلفاء الرّاشدين والأمَوِيّين الأوائل»، موقع كنيسة القديسة تريزا - حلب.

الكَنَائِس الَّتِي صُودِرَتْ إِبَّانَ الفتح[1]، وإنّ معاويةَ أمَرَ بإعادَةِ بِنَاءِ كَنِيسَةِ الرَّهَا (أُديسًا Edessa)[2] الَّتِي دمّرتها الزلازل 59هـ/ 679م[3]. كَمَا بُنِيَتْ أوَّل كَنِيسَة بالفسطاط فِي حارة الرّوم فِي ولاية مَسْلمة بن مخلد[4] عَلَى مِصْرَ (47 - 62هـ/ 667 - 682م)[5]، وشيّدَ أثيناسُ، كاتبُ ديوانِ خراجِ مِصْرَ عَلَى عهدِ عبدِ العزيزِ، كَنِيسَةَ «أمّ الإلهِ» فِي الرَّهَا، كَمَا شيّدَ فِي مِصْرَ - أَيْضًا - كَنِيسَتَيْنِ وديرًا[6]؛ ويبدو أنَّ «اثيناس» متولّيَ الخراجِ كَانَ واسِعَ السّلطاتِ، عظيمَ النّفوذِ فِي مِصْرَ[7].

وَفِي العِرَاق بني دير القيارة[8] «مارزينا «لليعقوبية[9] عَلَى شاطئ دجلة من الموصل فِي ذكرى الأُسْقُف مارزينا (ت19هـ/ 640م)، ذكر الشّابشتي: تَنَصَّرَ فِيهِ فِي يوم واحد زهاء ستة آلاف[10] نفس[11]، وأسس النّاسك خوداهوى (ق1هـ/ 7م) دير بيث حالي (دير الطّين) فِي برية الحِيرَة[12].

---

(1) - ابن عساكر: تاريخ دمشق 20/ 161؛ العدوي: الأُمَويّون والبيزنطيون ص291.

(2) - كَانَتْ يفخر ببنائها وجمالها، وَهِيَ من عجائب الجزيرة، «ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرّها» ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 161؛ ابن الفقيه: البلدان، ص 180؛ ابن العديم: بغية الطلب فِي تاريخ حلب 1/ 87.

(3) - سنة 990 يونانية / . مار مِيخَائِيل السّرياني الكبير: التاريخ، 2 / 352؛ فلهوزن: تاريخ الدولة العَرَبِيّة، ص128؛ حَتّى: تاريخ سوريا ولبنان 2/ 41.

(4) - ابن صامت بن نيار الزُّرَقِيّ الأنصاري (ت62هـ). ابن كثير: البداية والنّهاية 8/ 217؛ زامباور: معجم الانساب والاسرات الحاكمة، ص38.

(5) - فتوح مصر، ص132.

(6) - ارنولد: الدعوة إِلَىٰ الإسلام، ص85.

(7) - السامرائي: الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص135.

(8) ياقوت: معجم البلدان 2/ 529؛ القزويني (ت682هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، ص371.

(9) - ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع عَلَىٰ اسماء الامكنة والبقاع 2/ 572.

(10) - لعله لا يقصد العدد بعينه، بَلْ استخدم لفظ» زهاء ستة آلاف «فِي كتابات المُسْلِمين، لبيان الكثرة. انظر: فتوح الشّام 1/ 197؛ العقد الفريد 5/ 69؛ أَبُو حيان: البصائر والذخائر 5/ 73؛ أَبُو نعيم: أخبار أصبهان 1/ 47؛ ابن بسام: الذخيرة فِي محاسن أهل الجزيرة 1/ 184؛ الكامل فِي التاريخ 2/ 596؛ ابن العديم: بغية الطلب 2/ 700...

(11) - علي بن مُحَمَّد (ت388هـ): الديارات، تح: كوركيس عواد، (دار الرّائد العَرَبِيّ، بيروت، 1986) ص417.

(12) - توما أسقف المرج: كتاب الرّؤساء، ص56؛ الأب ألبير أبونا: ديارات العِرَاق،(بغداد:

تأسَّسَ إبَّانَ العصر الأُمَوِيّ عـددٌ من الكَنَائِس والأَدْيِرَة فِي أصقاع متنوعة من البلاد الْعَرَبِيَـة، أكَـد ذَلِكَ بعض الكتـاب الْكَنَسِيّين[1]، وَكَـانَ الْمَسِيحِيّـون يحتفلون بأعيادهم ويمارسـون عباداتهـم وطقوسهـم بحُرِّيَـة، وَلَهُـمْ محاكمهـم الخَاصَّـة[2]، وتحولـتْ الصّراعـات الدّينِيَّة المعقدة فِي الْمَسِيحِيَّة نفسها إلَى جدلياتٍ فِكرِيَّة، وحواراتٍ رائعةٍ، بَعْدَ أَنْ بلغت أقصى مداها فِي القَرْنين السّابع والثّامن المِيلادِيين، وَكَانَ قَدْ حضر مجمع القُسْطَنْطِينِيَّـة خمسة من أكبر المطارنة إبّـانَ العهد الأُمَوِيّ من الشّام، وانبثقت عَنْ تِلْكَ الجدالات الَّتِي مُورِسَتْ على درجة من الْحُرِّيّة، المناظرةُ التّاريخيّة المشهورة بَيْنَ خَالِد بـن يزيد ويوحنا الدّمشقي، وثيودور أَبُـو قُرّة، وبولص الانطاكي، ويعدُّ يوحنا الدّمشقي مـن أكابـر المفكريـن العقلانيين، الَّذِيـنَ أبدوا آراءهم بكـل حُرِّيَّة عهـد ذاك. وَكَانَ من نتائـج ذَلِكَ الجدل العقائدي الَّذِي دار بَيْـنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ، نُشوءُ بعضِ الفِرق والحركات الدّينِيَّة والفِكرِيَّة[3].

فِـي القَـرْن 1هـ/ 7م كَـانَ أَوَّلُ ظهـورٍ للمارونِيَّةِ فِي العصرِ الأُمَـوِيّ، ففي سنة (66هـ/ 686م) أخذَ الكرسيُّ البِطْرِيَكيُّ للطائفةِ، فِي ديرِ مار مارون[4]، مكانةً فِي نَشْرِ مُعْتَقَدِه. يذهب الكتاب الموارنة الى أن «يوحنا مارون»[5] هو أول بطاركتهم، وأن الاختيـار وقع عليه لشغل هذا المنصب بعد وفاة «ثيوفانس» بطريرك أنطاكية الخلقيدونـي. وأنّهـا طائفـة دينيـة اتفقت مـع الملكييـن الإنطاكييـن على مجمع خلقيدونيـة مـع المحافظـة علـى التـراث السريانـي[6]. فـي حيـن أن ديونيسيوس

2006م) ص 409 _ 482.؛ بلحاج: المسيحيّة العَرَبِيّة وتطورها، ص170.

(1) - يوحنا بن فنكايي: تاريخ الكلدان، ص 101، نقلا عَنْ سيّار الجميل: «خضوع بلاد الرّافدين للدولة العَرَبِيّة الإسلاميّة»، مجلة ألفا، تاريخ 21 نوفمبر2010.

(2) - روفائيل بابو اسحق: نصارى العِرَاق، ص 60.

(3) - سيّار الجميل: «خضوع بلاد الرّافدين للدولة العَرَبِيّة الإسلاميّة».

(4) - فِي قرية كفرحي من اعمال البترون. أسطفان الدّويهي، البطريك: «سلسلة بطاركة الطائفة المارونية»، نشره رشيد الخوري الشّرتوني، مجلة المشرق،السّنة الأولى، 1898، ص247.

(5) - يوسف الدبس (المطران):: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل (بيروت، 1905) 1/ 67 وبعدها؛ متي موسى: الموارنة في التاريخ، ص 114.

(6) - بولس نعمان وآخرون: المارونية في أمسها وغدها، (منشورات دير سيدة النصر، غوسطا 1997)

التلمحري، بطريرك أنطاكية السرياني الأرثوذكسي (ت230هـ/ 845م)، كان أول من ذكر تبني رهبان دير مارون للمونوثيلية[1]، إلى عامي (5، 6هـ/ 629، 630م)، وهو الزمن الذي فرض فيه الإمبراطور البيزنطي هرقل المونوثيلية على شعب سورية[2]. وكانت المونوثيلية قد أدينت أخيراً في مجمع القُسْطَنْطِينِيَّة السادس عام (60هـ/ 680م) باعتبارها «مونوفيزية»[3]. غير أنّ جبرائيل ابن القلاعي (ت922هـ/ 1516م) كان أول كاتب ماروني ذكر: أن الكنيسة المارونية وكنيسة روما اعتنقتا نفس الإيمان ودافعتا عن الخلقيدونية[4]. وتابعه الكتّاب الموارنة يعلنون صراحة، بأنهم كانوا دائماً متمسكين بإيمان خلقيدونية، وإنهم متّحدون بكنيسة روما منذ القرن الخامس[5].

النّظام الدّينيّ الْكَنَسِيّ:

نشطَتْ الكَنِيسَتان اليَعْقُوبِيّةَ والنَّسْطُورِيّةَ فِي القَرْن السّابع. وَلَعَلَّ عدَمَ ارتباطِها بقُوَّة سِيَاسِيّة كَانَ من أهمِّ عواملِ التَّسَامُح معها، وكانَ للأَدْيِرَة الَّتِي ظَلَّتْ عامرةً زُهاءَ ثلاثةِ قرون، دَوْرٌ فِي تَوْطِيدِ الْمَسِيحِيّةِ في البلادِ العربيَّة. وَكَادَتْ المصادرُ السّرْيانِيّةُ تتيحُ لَنَا معرفةَ الأبرشيّاتِ الْعَرَبِيّةِ التّابعةِ للكَنِيسَةِ اليَعْقُوبِيّةِ، وبضمنِها أسماءُ عديدٍ من أساقفتها[6].

ص 25.

(1) – المونوثيليتية أو المشيئة الواحدة (باليونانية: Μονοθελητισμός)، هي عقيدة مسيحية تعالج العلاقة بين الألوهية والبشرية في يسوع المسيح. وترى أن للمسيح طبيعتان منفصلتان ومشيئة واحدة.، (موسوعة ويكيبيديا). هي الإيمان بأن طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية متحدتان في إرادة واحدة وقدرة واحدة في التجسّد. متي موسى: الموارنة في التاريخ، (المؤسسة الأمريكية للدراسات السريانية)، ص7.

(2) – متي موسى: الموارنة في التاريخ، ص9، 92.

(3) – متي موسى: م. ن، ص95؛ قارن: علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السّابقة للإسلام، ص111.

(4) – كتابه «مارون الطوباني»، (مخطوطة الفاتيكان الكرشونية 640). متي موسى: م. ن، ص7.

(5) – الدبس: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل 1/ 67؛ بولُس نُعمان: المارونية في أمسها وغدها، ص25 وبعدها؛

(6) – انظر: سلوى بالحاج: المسيحيّة العَرَبِيّة وتطوراتها، ص170 – 179.

- أبْرَشِيَّة التّغالبة. كَانَ لَهُمْ أَسَاقِفَة حَتَّى القَرْن الرّابع الهِجْرِيّ. وَكَانُوا يقيمون لَمَّا جاء الإِسْلاَم فِي المثلث القائم بَيْنَ الحِيرَة ومَنْبِج وجَزِيْرَة ابن عمر. وَفِي سنة 70 هجريّة انحصرت إقامتهم بَيْنَ الخابور ودجلة والفرات.

- أبْرَشِيَّة نَجْرَان والكوفة. جاء إِلَيْهَا النّازحون من نَجْرَان عام20هـ، التّحق قسم مِنْهُمْ بالكَنِيسَة النَّسْطُورِيَّة، وبقي لَهُمْ أبْرَشِيَّة تابعة لليَعَاقِبَة، ودمجت فترة مَعَ أبْرَشِيَّة التّغالبة. وبعد القَرْن العاشر يصمت التّاريخ الْكَنَسِيّ عَنْ أبْرَشِيَّة النَجْرَانيين. وإِلى جانب النَجْرَانيين فِي جنوب العِرَاق جماعة مَسِيحِيَّة أُخْرَى، بنو عجل وجماعة من بني شيبان. ويتضح من روايات طبقات الشّعراء: أن الْمَسِيحِيَّة ظَلَّتْ منتشرة فِي عائلات من بني شيبان زمن الفرزدق، إِذْ تزوج هَذَا مِنْهُمْ إمرأة مَسِيحِيَّة[1] فهجاه جرير. ويَرِدُ مَرَّةً اسْمُ أُسْقُف لأبرشيَّة عاقولا الكوفة.

- أبْرَشِيَّة الْعَرَب أَوْ القَبَائِل، من أساقفتها المشهورين مار جرجس (ت 106هـ/ 724م)، وَهُوَ عَرَبِيّ الأصل، ولُقِّبَ بأُسْقُف القَبَائِل الْعَرَبِيّة، عُيّن مطرانًا لجماعة الْعَرَب أصحاب الطّبيعة الواحدة عام 687م فِي أبْرَشِيَّة تضمُّ العاقوليّين، والطّائيّين، والتّنوخيّين، والتَغْلبيّين، وعرب الجَزِيْرَة، وَذَلِكَ فِي مَا بَيْنَ النّهرين فِي سقيفة العاقولا (الكوفة). وَكَانَ تلمذ عَلَى يعقوب الرّهاوي فِي دير قِنَّسْرين ونال شهرة كبيرة[2].

وتذكر المصادر النَّسْطُورِيَّة أبرشيتين عَرَبِيّتين الحِيرَة والأنبار ظلّ فِيهَا أَسَاقِفَة حَتَّى القَرْن الحادي عشر، كَانَ المجال الْعَرَبِيّ اليَعْقُوبِيّ أوسع من المجال النَّسْطُورِيّ إِلَّا أَنَّ الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة النَّسْطُورِيَّة عمّرت أكثر وَكَانَ للنَسَاطِرَة الْعَرَب دور أهم من اليَعَاقِبَة داخل كَنِيسَتهم[3].

---

(1) - تزوج حدراء بنت زيق بن بسطَام بن قيس بن مَسْعُود بن قيس بن خَالِد بن ذى الجدين وَهُوَ عبد الله بن عَمْرو بن الحَارِث بن همام بن مرّة بن ذهل بن شَيبَان عَلَى حكم أَبِيهَا بمئة من الْإِبِل وَهِيَ نَصْرانِيَّة. ابن سلام: طبقات فحول الشّعراء 2/ 392؛ أَبُو الفرج: الاغاني 14/ 242.

(2) - اوليري: علوم اليونان، ص١٩١ - ١٩٢؛ مراد كامل: تاريخ الأدب السّرياني، ص276؛ بدر الدين: قِنَّسْرين أَوْ عش النّسور، ص ٢٤٦.

(3) - الأرشمندريت اغناطيوس ديك: القبائل العَرَبِيّة المسيحيّة فِي بلاد الشّام فِي عهد صدر الإسلام،

المجامع الْكَنَسِيّة

لا شك ان المجامع المسكونية وغيرها يعقدها كبار البَطَارِكَة، ويشترك فِيهَا من بَطَارِكَة الكَنِيسَة الشَّرْقِيَّة، لتناقش مشكلات العصر الَّتِي تواجه الْمَسِيحِيَّة، والفكر والمجتمع الْمَسِيحِيِّينَ، ومن ابرز المجامع المنعقدة فِي العصر الأُمَوِيّ، هِيَ:

- مجمع القُسْطَنْطِينِيَّة الثّالث (المسكوني السّادس): (26/ محرم/ 61ـــ 13/ ذي القعدة/ 61هـ = 7/ تشرين الثّاني/ 680 - 16/ أيلول/ 681م)[1]. وَكَانَ قَدْ التّأم المجمع المسكوني السّادس فِي القُسْطَنْطِينِيَّة وحضره أكثر من 170 أُسْقُفا، بَيْنَهُمْ مكاريوس بِطْرِيك أنْطَاكِيَة. عقد المجمع ثماني عشرة جلسةً، رأسها جاورجيوس بِطْرِيك القُسْطَنْطِينِيَّة. وفيه دان المجمع القائلين بالمشيئة الواحدة، وأصدر تحديده العقائدي فِي التّعليم بأنَّ: يسوع كَانَ لَهُ مشيئتان طبيعيّتان، وفعلان طبيعيّان، مِن دونِ انقسامٍ، أَوْ تَحَوُّلٍ، أَوْ انفصالٍ، وتَبَعًا لذلك فإنَّ مشيئتَهُ الإنْسَانِيَّةَ لا تُصادِمُ، ولا تُقاوِمُ مشيئتَهُ الإلهِيَّةَ، الكُلّيَّةَ القُدْرَةِ، بَلْ بِالأَحْرَى تَخْضَعُ لَهَا.

- مجمع القُسْطَنْطِينِيَّة الرّابع (73هـ - 692 م)[2]: نتيجة لحروب القَرْن السّابع وفِتَنِهِ، وإهْمَالِ القوانِينَ الْكَنَسِيّة، دعا لعقده الإمْبَرَاطُور البِيْزَنْطِي يوستينيانوس الثّاني (685 - 695؛ 705 - 711م) من أجلِ وضع دستور تَشْرِيعِيّ للكَنِيسَة، وهو الَّذِي صار فِيمَا بعد جزءًا من الحقِّ القانونيِّ الأرثوذكسيِّ، والذّي رفضته الكَنِيسَة الكاثوليكيّة. اشترك فِي أعماله 227 - 240 أُسْقُفا، أبرزهم من البلاد الْعَرَبِيّة: بطرس بِطْرِيَك الإسكندريّة، وجورجيوس بِطْرِيَك أنْطَاكِيَة، وانسطاسيوس بِطْرِيَك أورشليم.

كَنِيسَة الشّرق:

- مجمع دارين (56هـ/ 676م)

بحث فِي النّدوة الدَّوْلِيَّة "بلاد الشّام فِي عصر الرّسول والخلفاء الرّاشدين.

(1) - دنتسنغر - هونرمان: الكنيسة الكاثوليكية فِي وثائقها، الجزء الأول. من سلسلة الفكر المسيحيّ بَيْنَ الأمس واليوم.) منشورات المكتبة البولسية، بيروت، 2001) ص310؛ أسد رستم: كنيسة مدينة الله 2/ 49 - 51.

(2) - أسد رستم: م. ن. 2/ 51.

دعـا الجاثليـق جرجيـس الأول (661– 680م) إلَى عقـد مجمع كنسيٍّ فِـي جَزِيْرَة دارِيـن، وَذَلِـكَ لحـل الأزمة، ويشيـر محضر المجمع إلَـى حضور أَسَاقِفَـة بيت قطرايا الرّئيسييـن، وَهُـمْ: أيشوعياب أُسْقُـف دارين، وبوسيـه أُسْقُف هَجَر، وشـاهين أُسْقُف الخَط، وَكَذَلِكَ حضر توماس رئيس أَسَاقِفَة بيت قطرايا. تؤكِّد المراجع أن هَذَا المجمع عقـد لحـل أزمة تمرد بيـت قطرايا ضد الانصياع لكبيـر أَسَاقِفَة ريو أردشـير الَّتِي كَانَتْ تابعـة لَـهُ، وبذلك يكون بيت قطرايا يطالب بالاستقلال عَنْ ريو أردشـير، ليكون منطقة كنسيَّـةً، وَلَيْسَ الاستقلال عَنْ جاثليـق كَنِيسَة الشّرق، أي أَنَّهُ لَمْ يعد ثَمَّةَ عصيان مُشْتَرَك بَيْـنَ ريو أردشـير وبيت قطرايا ضد الجاثليـق فِي العام 676م (كَمَا كَـانَ عَلَيْهِ الحال فِي الفترة بَيْنَ 649 و659م). وَقَدْ ظهر - جراء ذَلِكَ - إقليمٌ كنسيٌّ جديد (أي بيت قطرايا) عَلَى رأسه رئيسٌ للأَسَاقِفَة خاصٌّ بِهِ[1].

التّنظيمات الْكَنَسِيَة:

الجثالقـة والبَطَارِكَـة والمفارنـة: يـدل وجودهـم وتعاقبهـم عَلَـى ديمومـة الدِّيَانَـة الْمَسِيحِيَّـة، وحَرَاكهـا بِحَسَبِ تَنَوُّعِهـا فِي البلادِ الْعَرَبِيَّـة، ومن أهمِّ الكَنَائِـسِ الكُبْرَى، الَّتِـي لهـا الدّور البالغ عَلَـى الخَارِطَـة الْمَسِيحِيَّة، هِـيَ: المدائن، وتكريـت، وأَنْطَاكِيَة، والإسكندريَّة. ونظم رواد الجثالقة والبَطَارِكَة والمَفارِنَة الحياةَ الدّينيَّة فِيهَا:

جثالقة كَنِيسَة المشرق (المدائن) بَيْنَ 41 – 100هـ/ 661 – 719م

– مار جيورجيس[2] الأول (41 – 60هـ/ 661 – 680م) الجاثليق التّاسع والثّلاثون، كَـانَ مطـران أربيل، خلـف أيشوعيـاب الثّالث استـاذه، وَفِي عهـده أعلن بيـت قطرايا استقلاله الرّسمي عَنْ ريو أردشير، وبذلك أصبحت بيت قطرايا كمنطقة كنسية مستقلة، أي أَنَّـهُ سيكـون لها كبير للأَسَاقِفَة، وَقَـدْ تمادى أَسَاقِفَة بيت قطرايـا إلَى أبعد من ذَلِكَ، عندمـا اتفقـوا عَلَى تسمية الأُسْقُف «توماس» (أَوْ توما) مطـران بيت قطرايا، وبذلك لَمْ

(1) – حسين مُحَمَّد حسين: «البحرين فِي القَرْن السّابع (5): استقلال بيت قطرايا»، صحيفة الوسط البحرينية.

(2) – ولد فِي كفري (كفرا) بَيْنَ بغداد وكركوك. توما المرجي: كتاب الرّؤساء، ص76 – 83.

يبـقَ أمام الجاثليـق جورجيس إلَّا الانصياع لمطالب بيـت قطرايا وإعطائهم الاستقلال بصـورة رسميـة، وَذَلِكَ فِي مجمع عـام 676م الَّذِي عقد برئاسـة جيورجيس فِي دَيرَين (البحرين)[1].

- مار يوحنا الاول (61 - 64هـ/ 681 - 684) المعروف بـ «ابن مارتا»[2]، الجاثليق الأربعون: من أهل الأهواز، كَانَ مطرانا فِي جنديسابور، وعُقِدَتْ لَهُ الفطركةُ فِي المدائن بعد تنيّحِ جيورجيس، وَلَمْ يأْتِ باعمالٍ تُذْكَرُ، لِقِصَرِ مُدَّتِهِ، وانشغالِه بمُلازمَةِ المَرَضِ[3].

ترك موته المفاجئ فراغا فِي كرسي الجاثليق، فنزى عَلَيْهِ مطران البصرة ايشوعياب بمساعـدة عبد الله بـن مطيع[4]، ودون انتخاب وترسيم الآباء، وَفِي ظل سيطرة المختار الثّقفـي عَلَـى الكوفة سنة 66هـ/ 686م، ألقِـيَ المطران فِي السّجـن، وسمح للآباء فِي انتخاب الرّئيس؛ فاختاروا خنانيشوع فِي المدائن[5].

- مـار خنانيشـوع الاول (الاعـرج) (67 - 81هــ/ 686 - 700م) الجاثليق الواحد والاربعـون: كَانَ عالما مشهورا بالفضـل وتدوين الكتب، وَلَمَّا عقدت لَهُ الفطركة ظهر لَـهُ خصوم استغلوا التّغيرات السِّيَاسِيَّة[6] حَتَّى انبسطَ الأمرُ لعبد الملك، فقصدَه «يوحنَّا الأبْـرَص» وأقـام عَلَى بابـه أربع سنين يبذل الأمـوال، فكتب عبد الملك إلَـى ابنه بِشْر، المقيـم بالكوفة: إنَّ نَصَـارَى مملكتنا اختاروا يوحنَّا، وَقَدْ سلطنـاه وأطلقناه لَهُ؛ ليتسلم من حنانيوشع الَّذِي نصَّبه المختار ومصعب المخالفان عَلَيْنَا.

فأحضـر بشر بـن عبد الملـك الجاثليق وأخـذ بيرونه وعكـازه وسلمه إلَـى يوحنا،

(1) - حسين مُحَمَّد حسين: «البحرين فِي القَرْن السّابع (5): استقلال بيت قطرايا»؛ سهيل قاشا: احوال النّصارى فِي خلافة بني أمية 2/ 332 - 344.

(2) - ماري: بطاركة المشرق، ص63.

(3) - ابن العبري: التاريخ الْكَنَسِي، ص134؛ قاشا: احوال النّصارى فِي خلافة بني أمية 2/ 345.

(4) - العدوي: والي الكوفة لابنَ الزبير، أخرجه عَنْهَا المختار بن عبيد سنة 66هـ. ابن قتيبة: المعارف 1/ 356.

(5) - ماري: م. س، ص63.

(6) - فِي مقتل المختار عَلَى يد مصعب بن الزبير، ثُمَّ مقتل مصعب عَلَىَ يد عبد الملك، الَّذِي دخل الكوفة، وبايع لَهُ أهلها. ابن قتيبة: المعارف 1/ 356؛ الطبري: تاريخ الرّسل 6/ 93.

وأخرجه خازيا. وَلَمَّا لَمْ يعترف النَّصَارَى ليوحنا بالرّئاسة، إذ كَادَ لـ«حنانيوشع» وقبض عَلَيْهِ بمعاونة السّلطان، ونفي إلَى جبل بالصّامغان، غير أنَّ حنانيوشع واصلَ إدَارَةَ الجثلقةِ وإسَامَاتِه للمطارِنَةِ مِن نصِيبِينَ لسبعِ سنينَ حَتَّى تُوفِيَ، وَكَانَتْ مدته أربعة عشر سنة وتسعة أشهر[1].

- مار يوحنا الثّاني (81 - 95هـ/ 700 - 714م) الجاثليق الثّاني والاربعون: ذكرنا كَيْفَ إسْتَوْلَى عَلَى كرسِيِّ الجَثْلَقَةِ، وبَعْدَئِذٍ تُوفِيَ بِشْرُ بن عبد الملك، تَقَلَّدَ الحجَّاجُ العِرَاق سنةَ 79هـ/ 698م[2]، وطالبَ يوحنَّا الأبْرَص بِمَا ضَمِنَهُ، ولَزَّهُ (شَدَّهُ)، وحَبَسَهُ، وجماعةً من الأَسَاقِفَة، حَتَّى أُضطُرَّ إلَى بَيْعِ آلاتِ البِيَع، ثُمَّ هَرَبَ إلَى قريةٍ من سوادِ الكوفةِ، وتُوفِيَ بِهَا، ومُدَّةُ تَغَلّبِهِ سنةٌ وعشرةُ أشهرَ. وَكَانَ الحجَّاجُ قَدْ منعَ مِن تنصيبِ جاثليقٍ، وبقيتْ البيعةُ بالمدائنِ، وما يَلِيهَا مِن أعْمَالِ الحَجّاج عشرينَ سنةً بِلَا جَاثليق[3].

- مار صليبا زخا (95 - 110هـ/ 714 - 728)[4] الجاثليق الثّالثُ والاربعون: جعله حنانيوشع أُسْقُفا عَلَى الأنبار، ثُمَّ أسامه مطرانا عَلَى الموصل وحزّة، ووقع الإجْتِمَاع عَلَيْهِ وأسيم جاثليقا بامر يزيد بن عقيل[5]، المقلد مكان الحَجّاج[6]، فجدد الرّسوم وبناء البيع، وبعد تقلد يزيد بن عبد الملك (101 - 105هـ/ 719 - 723م) تحسّن التّعامل مَعَ الْمَسِيحِيِّينَ، إِذْ رد النَّصَارَى إلَى خدمته وأكرمهم، وتوفي فِي خِلَافَة هشام فِي المدائن[7].

(1) - ماري: م. س، ص63 - 64.
(2) - خليفة بن خياط: تاريخ، ص 279.
(3) - ماري: بطاركة المشرق، ص64 - 65.
(4) - توما أسقف المرج: كتاب الرّؤساء، ص95 - 96.
(5) -.السّلمي، من أهل دمشق: والي قِنّسْرينوالجزيرة لسليمان ين عبد الملك، ولم يزل فِيهَا إلىَ أن توفي عمر بن عبد العزيز. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة فِي ذكر أمراء الشّام والجزيرة، ص 114.
(6) - مات الحجاج سنة 95هـ، وَفِيهَا ولي الوليد بن عبد الملك يزيد بن أبي كبشة عَلَىَ الحرب والصّلاة بالمصرين: الكوفة والبصرة. الطبري: تاريخ 6/ 493؛ خليفة بن خياط: تاريخ، ص310؛ ابن قتيبة: المعارف 359.
(7) - ماري: م. س، ص 65.

مفريانية ~~تكريت~~ السّريان المنوفستيين[1]

- بَرْيشـوع (49 - 64هــ/ 669 - 684م)[2]: رقّاه إلَـى المفريانيّة عام 669 البِطْرِيك سويـرا الثّاني (668 - 680) وَذَلِكَ بعد عشر سنوات لفراغ الكرسي المفرياني. وساس المفريان بريشوع أبرشـيته بغيرة ونشاط، وأسّـس فِي تكريت كَنِيسَة مستطرفة عَلَى اسم الشّهيديـن سرجيـس وباخس، ولقي ربّه فِـي 17/ كانـون الأول/ 684، وخدم خمس عشرة سنة ودُفن فِي ضريح سالفيه.

- إِبْرَاهِيـم الثّاني (64 - 65هـ/ 684 - 685م)[3]: نصبه مفرياناً البِطْرِيك أثناسيوس الثّاني (884 - 688) وما لبث أن عاجلتهُ المنية، ولُحِد فِي ضريح أسلافه.

- داود الأول (65 - 66هــ/ 685 - 686م)[4]: لَمَّـا توفي إِبْرَاهِيم الثّاني التّام أَسَاقِفَة المشـرق حالاً، ورسمـوا داود الأول مفرياناً قَبْـلَ أن ينصَّب بِطْرِيـك جديد. وبعد ستة أشـهر انطلق المفريان فِي قوم من أساقفته إلَى ديار بكر؛ لانتخابالبِطْرِيك يوليان الثّالث (688 - 709) وَهُنَاكَ توفي المفريان. وظلّ الكرسي فارغاً مدة ست سنوات.

- يوحنا الأول (66 - 68هـ/ 686 - 688م)[5]: هُوَ رئيس دير مار متى، نصبهُ مفرياناً ستّة من الأَسَاقِفَة فِي تكريت سنة 686، وخدم سنةً وستة أشـهر، ورسم ثلاثة أَسَاقِفَة، واخترمته المنيَّة يوم الاثنين 14/ كانون الثّاني/ 688، ودُفن فِي كَنِيسَة سرجيس وباخس بتكريت.

- دنحـا الثّاني (68 - 110هــ/ 688 - 728م)[6]: نصبه أَسَاقِفَـة المشرق مفرياناً فِي 13/ آذار/ 688، دُونَ استشـارة البِطْرِيَرك يوليان الثّالث، وعلى رغمِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ أوفد إِلَيْهِـمْ مطراناً إجابةً إلَى طلـب بعض الرّهبان، وظلّوا ممتعضين عَلَيْهِ حَتَّى كتب لَهُمْ فِي

(1) - قاشا: احوال النّصارى فِي خلافة بني أمية،2/ 363 - 387.
(2) - اسحق أرملة الخوري السّرياني، القس: أنباء الزمان فِي جثالقة المشرق ومفارنة السّريان،(بيروت، 1920) رقم 36، ص24 - 25، «جثالقة المشرق ومفارنة السّريان».
(3) - أرملة، الخوري: أنباء الزمان فِي جثالقة المشرق ومفارنة السّريان، رقم 37، ص25، «جثالقة المشرق ومفارنة السّريان»، رقم 37 موقع أبْرَشيَّة حلب للسريان الكاثوليك.
(4) - أرملة، الخوري: م.ن، رقم 38، ص25، جثالقة المشرق، رقم 38
(5) - أرملة، الخوري: م. ن، رقم 39، ص25، جثالقة المشرق، رقم 39.
(6) - أرملة، الخوري: م. ن، رقم 40، ص26، جثالقة المشرق، رقم 40.

الصّلح، فرفضوا ذَلِكَ زماناً، ثُمَّ توجّه إِلَيْهِ المفريان فِي بعض الأَسَاقِفَة، فنبطهُ البِطْرِيَرك ايليـا الأول (709 – 723)، هـادن المفريـان دنحـا، واستصحبـهُ إِلَى تكريـت وصالحهُ مَـعَ الجماعـة. واستغرقـت مفريانيّة دنحـا أربعين سنـة، وحلّت وفاته فِـي 19/ تشرين الأول/ 728، ولحـد فِـي الكَنِيسَة الجديدة الَّتِي شـادها فِي تكريـت عَلَى اسم آحو دامه رأس المفارنة.

البَطَارِكَة السّريان الأرثوذكس فِي أنطَاكِيَة[1]:

- البِطْرِيَك ثيودور (38 – 47هـ/ 649 – 667م)
- البِطْرِيَك سيوريوس الثّاني ابن مسكى (47 – 61هـ/ 667 – 681م)
- البِطْرِيَك أثناسيوس الثّاني (63 – 66هـ/ 683 – 686م)
- البِطْرِيَك يوليان الثّاني (66 – 89هـ/ 686 – 708م)
- البِطْرِيَك إيليا الأول (90 – 102هـ/ 709 – 723م)

الكَنِيسَة المَلَكِيَّة وبِطْرِيَكيَّة القُدس

أَمَّا الكَنِيسَة المَلَكِيَّة فظَلَّتْ – منذ بداية العصر الأُمَوِيّ – فِي فراغ؛ لِأَنَّهَا محسوبة فِي انتمائهـا إِلَى الرّوم، وَكَانَ الصّراع مَعَهُـمْ عَلَى قدم وساق، ولذا أَنَّ الكراسيَ البِطْرِيَركيّة بقيَـتْ فَتْرَةً شـاغِرَةً، يُديرُهَا مُدِيرُونَ بِطْرِيكيّونَ أَوْ بَطَارِكَةٌ مقيمـون فِي القُسْطَنْطِينِيَّة. ثُمَّ سمـح الأُمَوِيّـون للبَطَارِكَـةِ أَنْ يقيمـوا – عَلَـى رأس كراسيهم – بِطْرِيـك القدس ابتداء مـن عام87هـ – 706م، وبِطْرِيَرك الإسكندريَّة ابتـداء من عام109هـ/ 727م، وبِطْرِيَرك أَنْطَاكِيَةَ ابتداء من عام 129هـ/ 742م[2].

وَكَانَـتْ بِطْرِيَكية أورشـليم القدس قد توقفَـت عن تسمية البَطَارِكَـة فِيها بَيْنَ (36 – 86هـ/ 656 – 705م)، الى أَنْ سُمِّيَ – يوحنا (86هـ/ 705م)[3].

---

(1) – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة (بطاركة).

(2) – الأرشمندريت اغناطيوس ديك: «ثاوذورس أَبُو قره أسقف حران الملكي جسر بَيْنَ الحضارات والأديان فِي بلاد الشّام والرّافدين، فِي العصر العباسي»، موقع كنيسة القديسة تريزا – حلب.

(3) – الدبس: تاريخ سوريا 5/ 70.

- أنبـا أغاثـون (أغاثـو) - البِطْرِيَـك التّاسـع والثّلاثـون، (38 - 57هــ/ 659 - 677م)[1]، وَكَـانَ قَـدْ تضايق من تصرفات ثيودوسيوس مـن الخلقيدونيين، الَّذِي مضى إلَـى دِمَشْـق، وقدم رشـوة إلَى يزيـد بن معاويـة، وأخذ مِنْهُ أمـرا يتسلط بِهِ عَلَى شـعب الإسكندريَّـة وكَنَائِسها، وسعـى إلَى مضايقة البابا أغاثو، وأخذ مِنْـهُ 36 دينارا جزيةً كُلّ سنـة عَنْ تلاميذه، وقـرَّرَ عَلَيْهِ دَفْعَ كُلّ مَا ينفقه عَلَى النّواتية فِـي الإسطول، ثُمَّ منع البابا من الخروج من باب قلايته، وَكَانَ غرضه أنْ يكونَ بِطْرِيَكًا عوضَه[2].

- يوحنـا الثّالـث: البِطْرِيَك الأربعـون، إنتخب لكرسي البِطْرِيَكية فِـي أوَّلِ كيهك[3] سنـة 677م، فِـي عَهْدِ معاوية بن أبي سفيان...، وَكَانَ قَدْ مرت عَلَيْهِ أيام صعبة، إذْ أوذي بسبب وشـاية بعـض الخلقيدونيين إلَى الوالي سعيد بن يزيد[4] الَّـذِي فرض عَلَيْهِ مبالغ مـن المال لا قِبَـلَ لَهُ عَلَيْهَـا، وَكَانَتْ معظم الكَنَائِـس الأرْثُوذَكْسِيَّة فِـي الإسكندريَّة فِي يـد الملكييـن... فَلَمَّا استولى عبـد العزيز عَلَى مِصْـرَ[5]، اتخذ لَهُ كاتبيـن أرثوذكسيين، وهمـا اثناسيوس واسحاق، فكتب البِطْرِيَك إلَيْهِمَـا يعرفهما حال الكَنَائِس، وَكَيْفَ هِيَ بيـد الخلقيدونيين، الَّذِينَ لقلَّة عددهم لَمْ يكونوا يشغلونها... واستخدم هذان الكاتبان

(1) - ذكرناه فِي فصل المسيحيّة فِي العصر الرّاشدي - الكنيسة القبطية.

(2) - ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة - تاريخ مصر، 2/ 6؛ القمص: تاريخ الكنيسة القبطية ص281 - 383.

(3) - الشّهر الرّابع من أشهر القبط، كيهك أوْ كياك(10/ 11 ديسمبر12= 28/ محرم 1/ 58هـ. والأشهر القبطية: 1 - توت(11/ 12 سبتمبر9)؛ 2 - بابة(10/ 11 أكتوبر10)؛ 3 - هاتور(10/ 11 نوفمبر11)؛ 4 - كيهك أوْ كياك(10/ 11 ديسمبر12)؛ 5 - طوبة(9/ 10 يناير1)؛ 6 - أمشير(8/ 9 فبراير2)؛ 7 - برمهات (10/ 11 مارس3)؛ 8 - برمودة(9 أبريل4)؛ 9 - بشنس(9 مايو5)؛ 10 - بؤونة (8يونيو6)؛ 11 - أبيب(8 يوليو7)؛ 12 - مسره (مسرى)7 أغسطس8. الموسوعة الحرة ويكيبيديا (شهور القبط).

(4) - ابن علقمة بن يزيد بن عوف الأزدي، وليّ مصر ليزيد بن معاوية (رمضان 62 - شعبان 64هـ/ مايو (آيار) 682 - أبريل (نيسان)684م). زامباور: معجم الانساب والاسرات الحاكمة، ص38

(5) - عبد العزيز بن مروان، استولى لاخيه عبد الملك فِي (رجب 65 - جمادي الأخرة 84هـ/ فبراير (شباط)685 - يوليو (تموز) 703م). زامباور: م. ن، ص38

نفوذهمـا، وأرسـلا رسـلًا إِلَى الإسكندريَّـة، كلفاهم فتـحَ الكَنَائِـس، وتسليمها جميعا للبِطْرِيَـق القبطِـيِّ. عَلَـى أَنَّ الشّعب والفقراء قَدْ وجدوا فِي عصـره الرّخاء، وَفِي رعايته بنيت بيعة مار مرقس الإِنْجِيلي[1].

- إسـحاق[2]: البِطْرِيَـك الحادي والأربعون، فِي سنة (66هـ - 686م) أُجْلِسَ عَلَى الكرسـي بموافقـة الوالـي عبد العزيز بـن مروان، وَكَـانَ قَدْ أقـام بيعـة القديس مرقس الكبيـرة، وعلى يديـه تجدَّدت كَنَائِس عديـدة، وبنى بيعة بحلوان بموافقـة الوالي الَّذِي بنـى قصرا، وأمر أراخنـة الصّعيد وسائر الأقاليم، بأنْ يبني كُلُّ واحـدٍ مِنْهُمْ لنفسه مكانًا بحلوان. توفيَ فِي التّاسع من هاتور[3] لسنة 689.

- سـيمون الأول[4]: البِطْرِيَك الثّاني والأربعـون، وَهُوَ سُرْيانِيّ من أهل الشّرق، قدم عَلَـى الكرسـي فِي بيعة الإِنْجِيليين فِي شـهر كيهك سنـة 689م[5]، أجاز لَـهُ الوالي ببناء بيعتين بحلوان، وتوفي فِي الرّابع والعشرين من أبيب[6] سنة 700م.

- الاكسـندروس الثّانـي: البِطْرِيَـك الثّالثّ والأربعـون، أقيم بِطْرِيَكا فِـي برمودة[7] سنـة 703م، بعدمـا خلا الكرسي إثـر وفاة سيمون ثـلاث سنين، وأدارَ أعمـال الكَنِيسَة - بـإذن الوالـي - الأنباغريغوريـوس، وأكثر مَا عانـى البِطْرِيَك من طريـق الجور الَّذِي

(1) - ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة - تاريخ مصر،2/ 16 وبعدها؛ القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، ص 383.

(2) - ترجمته: ساويرس ابن المقفع: م. ن،2/ 42 وبعدها؛ القمص: م.ن. ص386 - 389؛ الموسوعة القبطية الشّاملة (إسحق أو(إيساك).

(3) - الثّالثّ من أشهر القبط، هاتور (10/ 11 نوفمبر) = 20/ 11، وتوافق 19/ جمادي الأولى5/ 70هـ.

(4) - ساويرس ابن المقفع: م. س، 2/ 53 وبعدها؛ القمص: م. س. ص 389 - 395؛ الموسوعة القبطية الشّاملة (سيمون).

(5) - الرّابع من أشهر القبط، كيهك أوْ كياك(10/ 11 ديسمبر/ كانون أول)؛ الموافق جمادي الآخرة 6/ 70هـ

(6) - أبيب: الشّهر الحادي عشر من السّنة القبطية، ويقابله (8 يوليو/ تموز) = 2/ 8/ 700م، ويوافق 29/ جمادى الأولى 5/ 81هـ.

(7) - الثّامن من أشهر القبط، برموده: (9 أبريل/ نيسان) فِي الميلادِيّة، وربيع الاول (3) لسنة 84 هـ.

انتهجـه الوالـي عبد الله بن عبد الملك[1]، من حبس وتغريم البِطْرِيَك ثلاثة آلاف دينار، وتبعـه عَلَى تكرار هَذِهِ الغرامة مرتين الوالي «قُـرَّة العَبْسِي»[2]، فَضْلاً عَنْ» أنَّ البِطْرِيَكيَّة قَدْ أحيطت من كُلِّ جانب بالجنود، فقبضوا عَلَيْهِ وعلى أصحابه، وطرحوه إِلَى الأرض، وعوقبـوا حَتَّى سالـتّ دماؤهم وكادوا يموتـون»[3]. وَلَمَّا تولي «حَنْظَلَـة بن صفوان»[4] (102هــ/ 721م[5]) أراد أن يسِـمَ أيـدي النَّصَارَى بصـورة أسد، وقبض عَلَـى البِطْرِيَك لِيَسِمَهُ، فامتنع، وتوفي فِي محنته في2 أَمْشِير[6] سنة 726م[7].

مـن أجل تقويم المرحلة، بعيدا عن مؤرخي الدولة، نتجلّى في اليوميات التي كتبت بأقـلام قبطيّة، ذات طابع دينـي، نقف على نصوص لـ«ساويرس ابـن المقفع» (302 - 377هــ/ 915 - 987م) الذي ينفرد عَنْ مُؤَرِّخي مِصْرَ إِبَّانَ الحكم الأُمَوِيّ، فِيمَا يَخُصُّ الكَنِيسَةَ والأَقْبَاطَ، وموقفهم مِن السّلطةِ، فِي أمورٍ، مِنْهَا:

- لَـمْ تَكُـنْ للسلطةِ الإِسْلَاميّةِ سياسةٌ ثابتـةٌ فِي بناءِ الكَنَائِسِ والأَدْيِـرَةِ، فتارةً تسمحُ ببنائِها، وَأُخْرَى تَمْنَعُهُمْ حَتَّى مِن إِصْلاحِ الكَنَائِسِ القديمةِ.

- أَنَّهُ يُرْجِعُ تناقصَ الْمَسِيحِيِّينَ فِي مِصْرَ عَلَى نحوٍ مُضْطَرِدٍ، وتحوُّلَهم إِلَى الإِسْلَام، بسببِ الظّروفِ الاقتصاديّـةِ، المُتَمَثِّلَةِ فِي الْجِزْيَةِ والخراجِ، والتّعسفِ فِي جبايتها، كَمَا فِي ولاية أسامة بن زيد التّنوخي خراجَ مِصْرَ فِي خِلَافَة سليمان بن عبد الملك.

- أَنَّـهُ يكشـف عَـنْ حركـة هـروب مـن الأرض والفلاحـة، للتخلُّـص مـن الْجِزْيَة

(1) - ولايته (11/ جمادى الأُخْرَى6/ 84 - 12/ ربيع أول 3/ 90هـ = 13/ 7/ 703 - 9/ 2/ 709م). زامباور: الاسرات الحاكمة، ص 38.

(2) - قُرَّة بن شريك بن مرثد بن الحارث بن حبش العبسي (13/ ربيع أول 3/ 90هـ - مسنهل/ ربيع أول 3/ 96 هـ = 10 / 2/ 709 - آخر/ نوفمبر (تشرين ثاني)/ 714م). زامباور: م. ن. ص 38.

(3) - القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، ص411.

(4) - ولي ليزيد [الثّاني] بن عبد الملك (101 - 105هـ/ 720 - 724م).

(5) - أورد القمص(م.س، ص 412) تولية حنظلة سنة 703م، وَهُوَ خطأ، والصّواب ما أثبتناه. انظر: زامباور: م. س. ص 38.

(6) - السّادس من أشهر القبط: أمشير(8/ 9 فبراير/ شباط)= 20/ رمضان 9/ 107هـ.

(7) - ساويرس ابن المقفع: م.س،2/ 103 وبعدها؛ القمص: م. س. ص412 - 413؛ الموسوعة القبطية الشّاملة (الكسندروس).

والضَّرائـب المفروضــة، وحفاظـا عَلَـى دينهـم، بِخَاصَّـةٍ فِي ولايـة «قرّة بن شـريك»، الَّـذِي تشدد فِي قمع الحركة والقضاء عَلَيْهَا. وعليـه عُمِلَتْ سِجِلَّاتٌ للأهالي «البطاقة الشَّخْصِيَّة»، تنظِّمُ حركةَ الأَقْبَاطِ وتَنَقُّلَاتِهم.

– كَانَـتْ الَأدْيِرَة والرّهبان معفيّين من الضَّرائـب حَتَّى تولية «عبد العزيز بن مروان» مِصْـرَ، الـذي أمر باحصاء الرّهبـان وفرض الْجِزْيَـة عَلَيْهِمْ، وألـزم الأَسَاقِفَة بالضَّرائب السّنويـة، فَضْـلًا عَنْ خـراج أوقاف الأَدْيِـرَة والكَنَائِس. وَهَـذَا مَا كَانَ يولـد كراهيّة عندَ الرّهبان تجاه السّلطة الإِسْلَاميّة.

– بسبب عدم كفاية الجهاز الإِدَارَي الإِسْلَاميّ، تمكن بعض الأَقْبَاطِ من أنْ يتقلدوا وظائف عُليا، كتَّابا ووزراءَ، وازداد نفوذهم، مِمَّا أدّى إِلَى شكوى الْمُسْلِمِينَ، واحتجاج فقهـاء الدّيـن، الأمر الَّذِي دعا الخليفة عمر بن عبد العزيز إِلَـى ان يأمر بعزل أهل الذِّمَّة من مناصب الدّولة المُهِمَّة[1].

– تكلـم عَنْ ارقـام ضريبية كبيرة، نحوَ: خراجِ الإسكندريَّةِ كُلَّ يـومِ ألفِ دينارٍ عَيْنًا؛ لِتُدْفَـعَ إِلَـى إمْبَرَاطُورِ بيزَنْطَةَ لمـدةِ عشرِ سنينَ، بحَسَبِ الهُدْنَةِ مَـعَ عبد الملك. وأحيانًا تكـونُ الضَّرائـبُ وِفْـقَ مِـزَاجِ الوالِي، مثـلا: إنَّ الوالي عبـد العزيز بن مـروان حِينَ زار الإسكندريَّـة أحضـر الطّوباني «أنبا يوحنا» إِلَى الإيوان عَنْوَةً، وأغلظ لَهُ فِي الكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ لَـمْ يـأت لالقاء التّحية عَلَيْـهِ، وسلمه لمترسّمين إِلَـى ان يقوم بدفع مائة ألـف دينار، أَوْ يعذب ويهان بشدة[2].

وَفِـي لحظة غضـب أُخْرَى، يأمر «عبد العزيز» بكسر جميـع الصّلبان فِي كورة مِصْرَ حَتَّى صلبان الذّهب والفضة، وكتب رقعا عَلَى ابواب البِيَع فِيهَا «مُحَمَّد الرّسول الكبير الَّـذِي لله، وعيسى – أَيْضًا – رسول اللـه، وأن الله لَمْ يلد وَلَمْ يولد»[3]. وثالثة يأمر عبد الملـك واليـه أن يضرب القديس «آبا سيمون» مائتي سوط، ويؤخذ مِنْهُ مائة ألف دينار،

---

(1) – ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة – تاريخ مصر، 2/ 6 – 14.
(2) – ساويرس: م.ن2/ 14 – 36.
(3) – ساويرس: م. ن 2/ 49 – 50.

ويحمل إِلَى الخليفة؛ إِذَا ثبت أَنَّهُ ارسل رسائل بتولِيَةِ قسٍ فِي أُسْقُفية الهند[1].

انكفاء الْمَسِيحِيَّة:

خلصت الباحثة «بلحاج»[2] إِلَى أن الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة بعد مرور أربعة قرون فِي ظل الإِسْلَام، ستزول بشكل تلقائي، بسبب الموت الطّبيعي والأسلمة التّلقائية وانفتاح الْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَب عَلَى الْمُسْلِمِينَ ومصادقتهم ومصاهرتهم.

يبدو أنَّ القولَ بزَوَالِ الْمَسِيحِيَّةِ كَانَ محض مُقَارَبَةٍ، تَفْتَقِرُ إِلَى الدّليلِ العقلِيِّ والتّاريخيِّ؛ فقد واجهتْ الْمَسِيحِيَّةُ العربيَّةُ ضَغْطًا مضافًا إِلَى مرتكزاتِ الفكرِ الدّينِيِّ، والصراعِ المذْهبيِّ، في معاييرَ ناظمةٍ للفضاءِ الدينيِّ في مجتمعِ الدولةِ الجديدةِ، تَتَحَصَّلُ في أنَّ الإِسْلَامَ خاتِمُ الأَدْيَانِ، وآخِرُ مَا ارتَضاهُ اللهُ للناسِ (المائدة 3)، والمِلَّةُ النَّاجِيَةُ، وَلَنْ يُقْبَلَ غيرُه دِينًا فِي الآخرةِ (آل عمران85)، فَضْلًا عَنْ الشّعورِ بالامْتِهَانِ النَّفْسِيّ والإِجْتِمَاعِيّ مِن تشريعِ الْجِزْيَةِ، عَلَى نحوِ أَنِفَهُ بعضُ القَبَائِلِ الْمَسِيحِيَّةِ الْعَرَبِيّةِ، وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ مشاركتهم في الحياة الإِجْتِمَاعِية، واجهتهم عقباتٌ، مِنْها: ندرة قبولِهم فِي وظائفِ الدّولةِ الَّتِي أضْحَتْ رِبقَتُهَا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ.

عَلَى أنَّ تعسف بعضِ الخلفاءِ والولاةِ، وتَعَنّتِهم فِي إضطهاد الرعية، ولاسيما غير المسلمين، وإِمْتِهَانِ الْمَسِيحِيِّينَ، أمثال: الوليد، والحجاج، في العصر الأمويّ، والمهدي، والمتوكل في العصر العباسيّ؛ ومن سارَ في ركابهم من الْمُشْتَرِعَةِ والفقهاء، الذين وضعوا فتاواهم في خدمة استبداد الحاكمين، في مجتمع يُقَدِّسُ دينَ السلطان، نتج عنه أنَّ الأقلياتِ الدينيَّةَ أمْسَتْ تعاني من ظاهرة الخوف، وأنَّ المسيحيَّةَ العربية باتت على شكل مجموعات تدجَّنتْ على غريزة الحماية في ظل أنظمة مستبدة[3].

فكانوا، أمام الضّغوطات السِّيَاسِيَّة والإِدَارِيَة والإِجْتِمَاعِيَّة، إما أنْ يدخلوا في الإسلام،

---

(1) - م. ن. 2/ 75 - 86.

(2) - سلوى بلحاج: المسيحيّة العَرَبِيّة وتطوراتها، ص216 وبعدها.

(3) - انظر: انطوان مسرة، «العلاقات الإسلامية المسيحية في السياسات الدولية»، جريدة النهار، الأحد 27/ كانون الثاني/ 2013.

وإما أنْ يحفظوا دينهم ويرحلوا باتجاهِ الجبال، لتكونَ مُسْتَقَرًّا ومَأْمَنًا لَهُمْ، كَمَا هُمْ عَلَيْهِ الموارنة فِي لبنان، والسّريانُ الكِلْدَانُ والآشوريُّون فِي العِرَاق.

لمـا كان للغزوات المغوليّـة المتكررة للشّرق العربيّ الإسلامي، لَـهُ أثرٌ سلبيٌّ على الشعـوب القاطنة فيها، ولا سيما عَلَى الْمَسِيحِيَّـة، وَبِخَاصَّةٍ غزو تيمورلنك واضطهادِه سنـة (782هـ/ 1380م) كَانَ لَهُ أسـوأ الأثر فِي الكَنِيسَة النَّسْطُورِيَـة، وكاد يعدمها، وَلَمْ يَبْـقَ مِنْهَـا فِي العِرَاق وايران وسوريا الا جماعات قليلـة[1]. وَهَذَا دليل عَلَى استمرارهم إِلَى عصور متأخرة.

أَمَّـا القـولُ فِي بقيةِ الْمَسِيحِيِّـنَ «هُمْ متعرَبون فِي الأسـاس»[2] فيحتاج إِلَى دليل فِي تاريـخ الانسـاب، وَحَتَّى الدّليل النّسبـي من الصّعوبة بمكان توثيقـه وقبوله، فإن مثلهم كمثـل الفـرس والرّوم الَّذِينَ دخلوا فِي موالاة القَبَائِل فِي العِـرَاق، ومثل القَبَائِل الْعَرَبِيّة الَّتِـي قطنت بلاد فَـارِسَ، ومنهم العلويّون، مـذ زمن الْفُتُوح، وزمن الدّولـة الأُمَوِيّة فِي خراسـان وغيرهـا، ايـن موقعهم مـن الْعَرَبِيّـة والنّسـب الْعَرَبِـيّ بعد بضعة قـرون. كَمَا ويُلحـظ أنَّ الإخْبَارِيّين يطلقون عَلَى قَبَائِل «الْعَـرَب الْمُتَنَصِّرَة» أوْ عَلَى أكثرها «الْعَرَب المستعربـة»، وَهُـمْ لا يقصـدون بِذَلِـكَ نسبها، لأنَّ مِـنْ بَيْنِهَا - كَمَا نعلم - مَـنْ هُوَ مِنْ أَصْلٍ قحطانِـيٍّ بحَسَبِ مذهبِ أهلِ الأنسابِ. وإنَّمَا يريدون من هَذَا المصطلح القبائل الَّتِـي سكنـت بلاد الشّـام، وَالعِرَاق من حدود نهـر الفرات إِلَى بادية الشّـام، فَهُوَ يشمل إذًا القَبَائِـل النّازلـة عَلَى طرفي الهلال الخصيب وَفِـي طرفي القوس الَّتِي تحيط بحدود الإمْبِرَاطُوريتيـن، وَبِخَاصَّةٍ تِلْكَ القَبَائِل الَّتِي دانـت بالنَّصْرَانِيَّة وتأثرت بثقافة الآراميين وبلهجتهـم، وَذَلِـكَ لظهور هَذَا الأثر فِيهَا، وعلى لهجتها خَاصَّـة، مِمَّا حدا بعلماء اللُّغَة أن يتحرجوا فِي الاستشهاد بشعرها فِي قواعد اللُّغَة[3].

---

(1) - قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة، ص30.

(2) - سلوى بلحاج: «حوارات من تونس»، حاورها: نبيل درغوث، موقع اللادينيين العرب، 17/ مارس/ 2009.

(3) - علي، جواد: المُفَصَّل فِي تاريخ العرب 12/ 175.

نخلص الى أنّ منهاج الإسلام النبوي ظلّ شاخصا في سيرة عدد من الصحابة، إبّان مهمات خطيرة تمفصلت خلال إدارة البلدان وقيادة الجيش، إثر تمدد الإحتكاك مع الآخر الديني، ولاسيّما المَسِيحِيِّينَ، في تبيان التعامل الإيجابيّ معهم. وقد مرَّ على ملاحظتنا أبو عُبَيْدَة بن الجراح في فتح دمشق يمشي والرهبان حوله بصلبانهم ونواقيسهم، وكيف أنّه استرجع لهم أموال الجزية؛ لأنّه قدَّر عدم تمكُّنِهِ من توفير الحماية لهم. وبنى عمرو بن العاص علاقات طيبة مع آباء الكنيسة اليعقوبية في مصر، ودعاهم لبناء كنائس في الفسطاط الممصَّرة. وتفصح سيرة الخليفة عمر والإمام علي عن أنّهما كانا يساعدان فقراء المَسِيحِيِّينَ، ويكتبان للشيوخ والضعفاء العطاء من بيت المال.

لا شك أنّ تواشج المصالح الإسلامية المسيحية، وأنّ جملة ما قدّمه الأسلام التاريخيّ في إعمال الخير وصنيعه مع الآخر الديني، أفرز على الأمد الآني تضامن القبائل العربية المسيحيّة مع الجيش العربي الإسلامي في العِرَاق وبلاد الشام. لعل أبرز ما يغنينا من شاهد في المقام، إن شابًّا مسيحيا يقتل القائد الفارسي في القادسية. وتعاظم تفاعل المسيحيين، على نحو يعبّر عن حجم وجودهم، في تدعيم أسس الدولة الإسلامية الاداريّة والاقتصاديّة، وتوطيد أركان الخلافة الأموية، ومن أبرز اسهاماتهم، أنّهم كانت لهم اليد الطولى في إنشاء الأسطول الذي منح العرب تفوقا في البحر ثلاثة قرون[1]. ويبقى هذا التفاعل – على الأمد البعيد – رفدا في رحاب الإنسانية، تستظل به في بناء علاقات سويَّة قائمة على قيم العرف التي لا تضيع بين الله والناس.

وعلى الشاطئ الآخر من الإسلام التاريخي تتمظهر إدارة شديدة وأعمال تتسم بالقسوة ضد الآخر الديني والإثني، ففي الجانب العسكري تطفق أعمال خالد بن الوليد في «أليس» الفرات وقتل أهلها المَسِيحِيِّينَ، وإدامة القتل في أهل «عين التمر»، من الفرس وغيرهم، وسبي نسائهم وأطفالهم، وإرسالها مع الغنائم الطائلة الى عاصمة

(1) – سركيس أبو زيد: المسيحية في إيران، ص 118.

الخلافـة. ومثلهـا دخول دمشق بحَدِّ السيـفِ وجَلَبَةِ الخَيْلِ، وفـي المقابل كان -ثَمَّة - دخول بقوة الكلمة وحسن الجدال.

فـي الجانب الإداري يأتي إجلاء الخليفـة للمَسِيحِيِّينَ من نَجْرَان موطنِهم الأصليِّ، بعـد أنْ ثبَّتهـم التاريـخُ النبـوي بعهد صريـح، يمنـع أيَّ تجاوز علـى حقوقهـم الدينية والدنيويـة. يسجـل تحويـل الكنائس الى مساجـد خرقا للقيـم الدينيـة، واضطهادا في حفريـات الوعـي التاريخي المسيحيّ، ويعظم أثـره مع حجم فاعليتـه وقيمته العبادية، فـان اقتسـام كنيسة دمشق الكبرى، وتحويله الى جامـع، ومن ثم في زمن الوليد بن عبد الملك أجْبرَ المَسِيحِيِّينَ على تركِ الكنيسةِ وهدمِها وضمِّها الى الجامع[1]، فضلاً عن ما اجترحَهُ الولاة في العِرَاق ومصر من تعنيفٍ للمَسِيحِيِّينَ ورموزهم الدينية.

تُشَكِـلُ السلوكياتُ السياسيَّة المعبَّأة بالدافع الديني ثلمةً كبيرة في خارطة العلاقات الاسلاميّـة المسيحيّـة، إذ أثارت جدلًا واسعًـا عبر التاريخ، تكشـف خلاله المتغيرات التاريخيَّـة والفكريَّة بـأنَّ الإِسْلَام التّاريخيّ، ليس هُوَ نَفْسُهُ الإِسْـلَام النَّبَوِيّ أَوْ القرآنِيّ، بـل إنَّـه أتخَذَ نَمَطِيَّةً قائمة عَلَى مصالـحِ الذّاتِ التاريخية، أو أخـذ دَوْرًا مُغَايِرًا للإِسْلَام النّبَوِيّ، كما يحدث الآن في العراق وسوريا مع الآخر الدينيّ والمذهبيّ والإثنيّ.

(1) - ظل هذا المشهد يتكرر في الأندلس (أسبانيا) في قرطبة وطليطلة، وفي تركيا (القسطنطينية) كنيسة آياصوفيا.

الباب الثّاني

الْمَسيحِيّة والتّشريعات الإِسْلَامِيّة والدّور الحضاري

الفصل الأول

الْمَسِيحِيّة والعَلاقَات الدّينِيَّة فِي القُرْآن الكريم

إنَّ توالـيَ الدِّيَانَاتِ الكِتَابِيَّةِ زمنيًا، لَهُ أهَمِّيَّةٌ كبيـرةٌ فِي فَهْمِ العلاقةِ الدِّينيّة والتاريخيّة بَيْـنَ تِلْـكَ الدِّيَانَـاتِ. وإنَّ العَلاقَـاتِ الإِسْلَاميّةَ الْمَسِيحِيَّـةَ فِي المائةِ الأولى قَـدْ مُنِيَتْ بمقدمـاتٍ تاريخيّةٍ ودِينِيَّـةٍ، وفَرّتْ المُنَاخَ النّفسـيَّ لتأسيسِ لَبِنَاتِها، نحـو انتشار الفرق المسيحيَّة في العِرَاق والشام ومصر والحجاز، وضمور التناحر الطائفي فيما بينها.

لَـمْ تَكُنْ نشأة الإِسْـلَام فِي البلادِ الْعَرَبِيّـة إعتباطًا، بَلْ جاءَ لسَدِّ الفـراغِ الدّينِيِّ الَّذِي سَبَّبَـهُ توسعُ الشّتاتِ فِـي الأفكارِ والمذاهـبِ الدّينِيَّةِ، إذ انقسمـت المسيحيَّة في القرن الخامـس الـى طوائف شـتَّى، ومذاهب متناحرة، فضـلًا عن وجودٍ لافـتٍ لليهوديَّة في اليمـن ويثـرب، والحنفيّـة الإبراهيميّة في مكّة، وانتشـارٍ للوَثَنِيَةِ فِي البـلادِ الْعَرَبِيَّةِ. ولا يمكن فصل أثر الفضاء الفضاء السياسيّ، المتمثل في الدولتين الكبريين بيزنطا وفارس، والصـراع المستمر بينهما، وتخوف العرب من إطالتـه لهم؛ والفضاء الاقتصاديّ الذي اتجهـت بوصلته النمائيّة الى مكة. يشكل هذا التراكم البيئـة الخارجيّة والداخليّة، التي تمخـض في تفاعلاتهـا تكوين ديـن الإسـلام، ومنظومته القيميَّـة المعبِّرة عـن محيطه بكـل معالمه. وكان خير نتاج لهذا المشروع الحيـويّ، استهل بالوحي الإلهي، وترجم لـروح النُظُـم، والتقاليد، والمُثُـل العليا للحياة العربيّة، وما يُحيـق بها من ثقافات، على المستويين التاريخيّ والجغرافيّ، هو القرآن الكريم.

1. القُرْآن والآخر الدّينيّ:

القُـرْآن الكريـم كتابُ الله المُنَزّل عَلَـى الرّسول مُحَمَّد، وَهُـوَ أوّلُ الكتبِ السّمَاوِيَّةِ يستشـرفُ الأَدْيَـانَ الأُخْـرَى، ويفصِّـلُ فِيهَا، ويُبْـدِي رأيَـة المُنبَثِق من المفهـومِ الدّينيِّ للإِسْـلَام، بِهِ أُكْمِلَـتْ الأَدْيَانُ، وإلَيْـهِ مَرْجِعُ تراثِ العبـادةِ الحنيفةِ، ديانـةِ إِبْرَاهِيمَ، فَهُوَ حاضنـةُ الأَدْيـانِ ومحتواها العبادِيُّ. إستعرضتْ نصوصُه أَدْيـانَ عدّة، وأنبياءَ عديدينَ، وَكَادَتْ الْمَسِيحِيَّة تفوز بمساحة أكبر بَيْنَ الأَدْيَان فِي النّص القرآني.

والقـرآن هُـوَ المصدرُ التّاريخـيُّ المعتمد الصّحيـح؛ لِأَنَّهُ يرمز إِلَى مَاهِيَّـةِ الوَحْيِّ[1] والظّـروف الَّتِـي حَفَّـتْ بِبِدْئِهِ وتَوَاصُلِـهِ... وكَثِيـرًا مَا اتَّخَـذَ القُرْآن أسلـوبَ المُحاجَّة والإقنـاع، ومِـنْ ثَـمَّ اهتـمَّ - بصفة بالغـةٍ - بوصـفِ مُصداقيَّةِ العلاقـة الإلهيَّـة النّبوِيّة، ولاسِيَّمَـا عندمـا تتَّخِذُ صيغـةَ التّبليغ، وصيغةَ الأمـر والنّهي، والتّعليـم[2]، لتمتَدَّ جذوةُ العلاقـة إِلَى النّاس، وفيما بينهم، وَهُمْ خلائفُ فِي الأرضِ، وَهُمْ مُخْتَلفون فِي مشاربَ شتَّى، لَكِنْ شريطةَ أنْ يتعارفوا، ويُنْشِئُوا عَلائِقَ فِي نظامٍ أخلاقيٍّ، مِعْيَارُه الإيمانُ بالله.

القُرْآن نفسه يُعَدُّ من أكْبَرِ مصادرِ التّنَوُّعِ الدّينِيّ، وعلاقةِ الأَدْيَانِ - ولاسِيَّمَا السّمَاوِيَّة - بالمجتمعـاتِ، إِذْ كَانَتْ رُوحِيَّـةُ القُرْآنِ تُنَظِّمُ السّلوكَ اليَوْمِيَّ والعَلاقَاتِ الإِجْتِمَاعِيَّةَ، وتُشْبِعُ جَوًّا حَيَوِيًّا من خِلَالِ ربْطِ الشّريعةِ الدّينِيَّةِ بالأخلاقِ، بحَسَبِ ريسلر[3]: أَنَّهُ يهدفُ إِلَى إِسْتِتْبَابِ النّظامِ والوحدةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ، والى الحدِّ مِنْ البُؤْسِ والقَسْوَةِ والشّعْوَذَاتِ، وأَنَّهُ يَنْزَعُ إِلَى رَفْعِ البُسَطَاءِ، ويُقِيمُ مَلَكُوتَ الإِحْسَانِ، ويدعو إِلَى اللاعُنْف.

يُعَـدّ القـرآن أوّل كتاب في علم تاريـخ الأديان، فهو يعترف بما هـو حقٌّ في كل من اليهوديّـة والمسيحيَّـة، وينكر كل ما هو باطل فيهمـا، فالقرآن لم ينتقـدْ الديانة بلْ انتقد الممارسـة. ولـم يقفْ القرآنُ عنـدَ ذكرِ الديانـاتِ الكتابيَّـةِ، وكانَ غالبُ الذكـر لليهودِ

---

(1) - الوحي- لغة: الإشارة، وهو الإتصال الإلهي بالبشر في الديانات، وفي المصطلح الاسلامي يدل على الهداية الربانية، وفي المصطلح المسيحي «Revelation». توفيقي: دروس في تاريخ الأديان، ص275.

(2) - هشام جعيط: الوحي والقرآن والنّبوة (دار الطليعة، بيروت، 2000) ص18.

(3) - جاك ريسلر: الحضارة العَرَبِيّة، ص57.

والنصـارى، وتعـدَّى الى ذكرِ ديانات جزيـرة العرب المعاصرةِ للرسالـة، والتي تُشَكِّلُ هَمًّـا وعنايةً من لدُنِ الرسـول محمَّد، وهي: إبراهيميَّة حنيفيَّة، ومجوسيَّة، وصابئة، غير أنَّ عبادةَ الشركِ هي البيئة التي وُلِدَ فيها الرسولُ، والتي حاربها الإسلامُ، أخذتْ مساحةً وافرةً من الذكر القرآنيِّ.

نسج القُـرْآن نظامًا عامًّا فِي الإنتِماء الدينيّ، متجاوزا فضاءاتِ عصْر النزول، القبليَّة والقوميَّـة، فَقَـدْ أكَّـد عَلَى الإنتماء إلَـى الإسْلَام، ومِنْ ثَمَّ لَـمْ ينغلقْ عَلَـى مُعطَيَات هَذَا الإنتمـاء، بَـلْ عَدَّ منهجًا للولوج إلَـى المجتمع الإِنْسَانِيِّ، ودعا إلَـى ممارسة حَضَارِيَّة، هدفُهـا التعارف مَعَ المجتمعات البشريَّة، ولاسِيَّمَا الدينيَّـة مِنْهَا، عَنْ طريق «تعالوا إلَى كلمـة سـواء بَيْنَنَا وبينكم» «وجادِلْهم بالَّتـي هِيَ أحسَن». فَضْلًا عَنْ أَنَّـهُ دعا إِلَى التبَصُّرِ فِـي تجارِبِ الحَضَارَات الدينيَّـةِ السابقة، والإعتبارِ مِنْهَا فِي إيجابياتِها وسلبياتِها. ولعلَّ دعوتَـه الـى الإسلامِ بالمَعْنَى العامِّ، هيَ الهدايةُ الى اللـه، وماهيتُها التي تحمَّلها الأنبياءُ السابقـون، من ابراهيم الى عيسى، فهُمْ مسلمون في منظـور القرآن، هذه الدعوةُ كانت رابطًا فاعلًا بين الاسلام كدينٍ، بجذورِ الديانات السماويَّةِ السابقة، وهمزةَ وَصْلٍ معها، تمنحُه أصالةَ الوجودِ وديمومةَ البقاءِ. لاسيَّما اذا أخذنا بعين الإعتبار، أنَّه اضطلعَ بفكرة إكمـال الدين الرَّبَّانِـيّ وإتمامه بالإسلام (المائدة3)، وأنَّ خاتمةَ قصـةِ الحضارة الدينيَّةِ السماويَّةِ مُتَأَصِّلَةٌ فيه.

شـغل الآخـرُ الدينـي فـي القـرآن مجالًا كبيـرًا يربُـو علـى نصفِه، من سـردِ قصص الحضارات الدينيَّةِ السابقة، وذكرِ رموزِها، وشغلتْ فكرةُ التسامحِ مع الآخر حيِّزًا مُهِمًّا فيه، حتى باتتْ صفةً فيه، وأنَّ اشكاليَّةَ الاختلاف في التفسير أو التأويل هيَ من ضعَّفت مـن قيمتِـه، بحسـب مقاربـة الثعالبـي[1]، الذي يؤكِّـد أنَّ التسامـحَ هو مِن أهَـمِّ صفاتِ الإسـلامِ، وأنَّ الأفكـارَ الداعيَة إليه لا توجدُ في آية قرآنيَّةٍ واحـدةٍ أو آيتينِ، بلْ في ستٍ وثلاثينَ سورةً، ومئةٍ وخمسٍ وعشرينَ آيةً، أذْ يرجِعُ التخلِّي عن هذه النظرةِ المتسامحة،

(1) – عبد العزيز الثعالبي: روح التحرر في القرآن، (دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1985) ص 61.

وتحويلِ القرآنِ إلى أداةٍ للتعصُّبِ والتزمُّتِ، إلى «الأفكار الضيقةِ» التي تبنّاها بعضُ المفسِّرين، والى عجزِهم عن تأويل الآيات القرآنية تأويلاً صحيحاً، وكذلك إلى عدم إلمامِهم، إلماماً دقيقاً، بمجرياتِ التاريخ الإسلامي.

دأبَ القرآن يدعو فِي آياتِه إلَى صهْرِ الإيمانِ الروحيّ والسّلوك العمليّ، فِي بودقةِ العدل الاِجْتِمَاعِيّ، للوصول إلَى مُحَصِّلَةِ التّسامي الدّينِيّ، أنْ {لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ؛ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (البقرة177).

ويؤكد القُرْآن أنَّ النّبيَّ مُحَمَّدًا يقرُّ بالإيمانِ بأنَّ الأنْبياءَ أخوةٌ، لا تفاضُلَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَيْثُ الرّسالة، وأنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أنْ يؤمِنوا بِهِمْ جميعًا {قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ} (آل عمران84).

عُني الإِسْلَام وتراثُه بالتّجاربِ الدّينِيَّةِ النّبَوِيّة، فعددُ الأنْبياء فِي الرّواياتِ عَنْ الرّسول مُحَمَّد 124 ألفَ نبيٍّ[1]، والمذكورون مِنْهُمْ فِي القُرْآن 25 نبيًّا ورسولاً، مِنْهُمْ 18 نبيًّا فِي سورة الأنعام[2]، وحظَتْ الدّيَانَاتُ الكِتَابِيّة باهتمامٍ كبير، فاليهودُ واليَهُودِيَّة كَانَ لها السّهمُ الأوفر فِي الذّكر القرآني، فَقَدْ تعرض لها مِنْذُ عصر التّكوين إلَى مجيئ المنقذ

---

(1) - عَنْ ابي ذر، قلت يا رسول الله: كم النّبيون؟ قَالَ: مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي. قلت: كم المرسلون مِنْهُمْ، قَالَ: ثلاث مائة وثلاثة عشر. أحمد: المسند 5/ 526؛ الطبري: تاريخ 1/ 95؛ الحاكم: المستدرك عَلَى الصّحيحين 2/ 652.

(2) - {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} (الأنعام: 82 – 86).

الْمَسِيا (الْمَسِيح)، ونقلَ أخبارَهم، وذكرهم فِي نيِّفٍ وثمانينَ آيَةً[1]، وحسْبُ اليهوديَّة أَنَّهُ وَرَدَ ذِكْرُ مُوسَى دُونَ أنبيائِهم حوالَى 131 مَرَّةً، مِنْهَا 109 مرات فِي آيَاتٍ مَكِّيَّة، اغلبُها فِي سرْدِ قصصِ موسى، الَّتِي تُلْقِي الضَّوْءَ عَلَى حَضَارَةِ الدِّيَانَة اليَهُودِيَّة، ومختلَفِ عصورها، وما اضطلعتْ به من قِيَم، فَكَانَ يَصِفُ التَّوراةَ بِأَنَّهُ حَمَّالُ الحُكْمِ العَادِلِ، {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ}(المائدة43)، وفِيهِ مَوْعِظَةٌ وهُدًى إلهيٌّ {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء} (المائدة44).

بَيْدَ أنَّ القُرْآن فِي آخر الآيات المَكِّيَّة الَّتِي نزلت بمَكَّة، دعا إِلَى الحوار الشّفاف مَعَ أهل الكتاب، والتّركيزِ عَلَى المُشْتَركات العقَدِيَّة، الَّتِي ينتظمون فِيهَا مَعَ الإِسْلَام، كَأَنَّهُ يُعِدُّ إِلَى نقطةِ تَحَوُّلٍ جديدةٍ، يُهَيِئُ النّفوسَ لمرحلةِ التَّعَايُش بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ أهل الكتاب، والى ترسيخِ قَبُولِ الآخَر فِي الحياة الدّينيَّة القابلةِ، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت46).

تعَدُّ نبوةُ عيسى وديانتُه بيضةَ الميزان الدّينيّ، إِذْ هِيَ حلقةُ تواصلٍ تاريخيّ لحضارتين: الماضي اليهوديّ والمستقبل الإِسْلَاميّ، فمن آيات الْمَسِيح أنّه بشَّرَ بحضارة دِينِيَّة فِي ضوء التَّنَوُّع {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} (الصَّف6).

2. القُرْآن وتأسيس العلاقة بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ:

دَأَبَ القُرْآن – فِي وقت مبكّر جدًّا من تاريخ الإِسْلَام – عَلَى تأسيس العلاقة المُبَكِرَةِ

---

(1) – لم أجد أمة من الأمم السّابقة تناول القرآن الكريم تفصيل نشأتها وتأريخ تكوينها وبيان أحوالها ودقائقها ودخائل نفوس أفراده وخصائص شخصيتها مثل أمة اليهود...حيث يستمر الحديث عَنْهُمْ فِي نيف وثمانين آية فأول سورة بعد الفاتحة تسمى سورة البقرة، وَهِيَ بقرة بني إسرائيل، وتأتي السّورة الثّانية سورة آل عمران، أسرة من أسر بني إسرائيل.والسّورة الرّابعة تسمى المائدة، وَهِيَ المائدة الَّتِي طلبها بنو إسرائيل، وخصصت سورة باسمهم هِيَ سورة الإسراء الَّتِي تسمى سورة بني إسرائيل». مصطفى مسلم: معالم قرآنية فِي الصّراع مَعَ اليهود..ص8.

السّمحـة بَيْـنَ الْمُسْلِمِينَ وأهل الكتاب، فإذا قيلَ: إنَّ السّـورَ ذاتَ العلاقة بأهل الكتاب فِي العهد المدنيّ، قَدْ يشوبها المنحى السِيَاسِيّ لدولة الإِسْلَام الفتيَّة فِي علاقتها مَعَهُمْ، فـإِنَّ السّـور المَكِّيَّةَ تبقى كفيلةً بنشر صورة صافية، لتأصيـل العلاقة الطّيبة بَيْنَ الدِّيَانَات الكِتَابِيّة، ولاسِيَّمَا مَعَ الْمَسِيحِيِّينَ، كثقافة أَوْ عقيدة. فمنَ السّور المَكِّيَّة:

1 ـ سـورة (مَرْيَم) وَهِـيَ مَكِّيَّة، وَفِي هَذِهِ السّورة: تعريفٌ بمعجـزة حملِ مريم، وميلادِ عيسـى، وتأصيـلٌ عَقَديٌّ منهجيٌّ لهـا: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَـمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً... ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} (مريم16 – 34). وَفِـي ثنايـا تأصيل معجـزة حمل الْمَسِيـح وميلاده: بـراءة قاطعة لأمه مريـم البتول، وشـهادة بطهرها. فالمعجزة كلها: بحكمة الله وعلمه وإرادته وقدرته المطلقة، وَفِي ذَلِـكَ نقضٌ تامٌّ لافتـراءات المفترين عَلَيْهَا. ومِنْ هُنَا، يجـدر العلمُ بأنَّ معجزةَ حمل الْمَسِيح وميلاده، عقيدةٌ أسسها القُرْآن، وأصّلَها فِي صدور الْمُسْلِمِينَ بادئ ذي بدء.

2 ـ سـورة (الكهـف): مَكِّيَّة، وَفِـي صدرِها قصَّةُ أصحـابِ الكهفِ، وَهُمْ فِتْيَـةٌ نَصَارَى تعرَّضُـوا للأذَى والإضطهادِ مِن لَدُنِ الإمبراطور الرّوماني فِي منتصف القَرْن الثّالثْ للميـلاد[1]، فدافـع القُـرْآن عَنْهُـمْ، وكرمهـم واحتفى بِهِـمْ، وانتصر لمنهجهـم، وَقَدْ سُمِّيَـتْ السّورةُ نفسُها باسم كهفهم: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً} (الكهف9).

3 ـ سـورة (البـروج): مَكِّيَّـة، ولقـد انتظمت فِي شـأن جماعـة – بحَسَبِ قـول عَلِيّ بن أبـي طالـب[2] – من أهل كتاب، من نَصَـارَى نَجْرَان، فِي 523م عروضـوا – من لَدُنْ دولـة حمير اليَهُودِيَّة[3] – عَلَـى فنون العذاب، مِنْهَا النّار فِي الأخدود، عَلَى أنْ يغيروا

(1) – نقل المؤرخ «جيبون» فِي تدهور وسقوط الدولة الرّومانية»: إن الإمبراطور الَّذِي عذَب الفتية السّبعة المسيحيّين المؤمنين هُوَ «دِقيوس». وَقَدْ حكم «دقيوس» الإمبراطورية الرّومانية فِي الفترة ما بَيْنَ 249 و251 ميلادية. اشتهرت فترة حكمه بألوان العذاب الَّتِي مارسها ضد أتباع النّبي عيسى. محمود الدسوقي: «بحث فِي زمان اهل الكهف»، جريدة\الاهرام، عدد 6522، تاريخ 28/ 4/ 2011.

(2) – الطبري: جامع البيان فِي تأويل القرآن، 24/ 338.

(3) – زمن الملك ذو نواس، وقيل: ابنه يوسف. لزيادة المعلومات عَنْ محرقة الاخدود. انظر: اغناطيوس

دينهـم فأبوا، ورضـوا بالشّهادة؛ خلّـد القُرْآن ذكرهـم، ووصفهم بالمؤمنيـن، وقبّح مُضطهِديهـم ومعذبِيهم: {قُتِـلَ أَصْحَابُ الْأُخْـدُودِ* النَّارِ ذَاتِ الْوَقُـودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُـودٌ* وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُـهُودٌ* وَمَا نَقَمُوا مِنْهُـمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} (البروج 4 – 8).

4ـ سورة (المدثر) هِيَ السّورة الثّانية فِي ترتيب النّزول، أي نزلت بعد سورة (العلق) أَوْ (اقـرأ).. وَفِيهَا {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، وَيَـزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً، وَلَا يَرْتَابَ الَّذِيـنَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ وَالْمُؤْمِنُونَ} (المدثـر 31). وَفِي هَذَا النّص إيمـانٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِيـنَ وأولِي الكتاب، إيمـانٌ وتسليمٌ بـالغيب الَّذِي جاء القُـرْآن ليثبته، ويزيده عِنْدَ أولِي الكتاب، وعند الْمُسْلِمِينَ. فَهِيَ هُنَا تؤكّد أنَّ التّنويهَ بالعلاقةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وأهلِ الكتابِ سَطَعَ فِي بداياتِ تنزيلِ القُرْآن[1].

ثمَّة إشكاليةٌ في تأصيل العلاقةِ مع الآخر الدينيِّ، بين السور المَكّيَّة والسور المَدَنِيَّة، فبلحـاظ هذا التقسيم، منهم من يرى أنَّ المرحلة المَدَنِيَّة نسخت المرحلة المَكّيَّة، التي كانـت تتسم بالعفـو والصفح؛ وهـذا رأي المتشدّدين الذيـن يُنَظِّرون الـى لغة الحرب مـع الآخـر. إنَّ هذا التجزيءَ الى مكيٍّ ومدنيٍّ، ليس سوى مرحلـةٍ انتقاليَّة للرسالة، وما آلـتْ إليها مـن أحداثٍ وممارساتٍ، فإنَّ النـصَّ القرآنيَّ واكـبَ مظاهرَها بين السماحة والتشدُّد. فأنَّ طبيعة المرحلة المَكّيَّة كانت تتصف بالعفو والصفح والمسامحة والصبر علـى الأذى، لأنَّها مرحلة تأسيس وترتكز على الإقناع والجدال. ناهيكَ عن أنَّ الآخرَ، ولاسيَّمـا أهلُ مكة في ردِّهم، لـم يتطوَّر الأمر لديهم إلى النفي والتآمر بالقتل والتصفيةِ الجسديَّة إلا بعد حِينٍ، فلمَّا تحولوا الى هذه المرحلة، كان القرآن معهم شديدا.

أمَّـا اليهوديَّة والمسيحيَّة، فإنَّه دعاهم الى التحاور واعتماد المشتركات، محاولةً في

يعقوب الثّالث: الشّهداء الحميريون العرب فِي الوثائق السّريانية(طبع المجلة البطريكية، دمشق، 1966)؛ مقاتل بن سليمان (ت 150هـ): التفسير (دار إحياء التراث، بيروت 1423 هـ).

(1) – زين العابدين الرّكابي: «العلاقة بأهل الكتاب، الشّرق الأوسط»، السّبـت، 5 يناير 2008، العدد 10630.

اقناعهم في الدخول الى الإسلام، أو يقبلون به ويعترفون به، مثلما هو يقرُّ بهم، ويحترم رموزَهم الدينية، وكان الرسول يَرى أنَّهم أقربُ اليه في باب التوحيد والإبراهيميَّة، وهذا بعينه فتحَ بابَ التواصل مع الآخر وعبَّدَ طريقَ العلاقات. غير أنَّ ردَّ الفعل اختلف بين اليهود والمسيحيِّين، فاليهود الذين شاركوا المسلمين المدينة، بدت عليهم علائم الانقلاب، ومصانعة أهلِ مكَّةَ الوثنيِّين، وانتهت العلاقة مع المسلمين بالحروب. أما المسيحيون وباقي الديانات الواردة في القرآن فلم يصدر عنهم في المرحلة المَدَنيَّة ما يكدِّر الأجواء، ويؤدِّي الى تغيّر الموقف مع المسلمين، فلذا ما ورد في القرآن عنهم في السور المَكِّيَّة هو مجزٍ، لا يحتاج الى تكرار، ما عدا ما صدر، بعدما توسعت دولة الرسول، من احتكاكات عسكرية مع غير المسلمين في أطراف الجزيرة، دعا القرآن الى التوجه إليهم وإخضاعهم إما بالسلم ودفع الجزية، وإما بالحرب.

مِنْ هُنَا تتَجَلَّى مُقَارَبَة: أنَّ القُرْآن المَكّيَّ الَّذِي أسَّس لعلاقة طَيِّبَة مَعَ المَسِيحِيِّينَ لَمْ يُنسخ، بدليل أنَّ القُرْآن المدنيّ قَدْ أكَّدَ القُرْآنَ المَكّيّ وعزَّزَه؛ إذَا مَا أخذنا بالمشهور: انَّ سورة (المائدة) هِيَ آخر القُرْآن نزولا، وَفِيهَا يتمخَّض المُمْعِنُ عن حجم العلاقة بَيْنَ المُسْلِمِينَ واليهود والمَسِيحِيِّينَ، أوْ خلاصة العلاقة فِي التّجربة القرآنية، وَفِيهَا يتَّخِذ قرارًا حاسمًا في معياريَّة العلاقات بين التباعد والتقارب، في إيحاء شفاف للمستقبل: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا، وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} (المائدة82).

لَعَلَّ الآياتِ المَكِّيَّة أسهمتْ في بناءِ العلاقاتِ بينَ الأديانِ، من خِلَالِ رفع شعارِ الحرياتِ الدينيَّةِ، وكلٌّ لهُ دينُهُ وحقوقُهُ الطقوسيَّةُ، وكانَ مُجْمَلُها يدعو إلَى التواصلِ والحوارِ بالَّتِي هيَ أحسنُ. أمَّا الآياتُ المَدَنِيَّة فكانتْ ترتكِزُ على إثباتِ دعائمِ الدولة الدينيَّةِ، وتسييرِ نظمِها، في علاقتِها مع الشعوبِ الأُخرَى، والدياناتِ المختلفةِ في البلادِ العربيَّةِ وخارجِها.

3. الرّموز المَسِيحِيَّة فِي القُرْآن:

احتلت رموز الدّيَانَة: الْمَسِيح[1]، مَرْيَم، النَّصْرَانِيَّة[2]، والنَّصَارَى، فِي القُرْآن مساحة واسعة، وَقَدْ اوردها فِي حوالَى 117 آية. ويُعَدُّ القُرْآن من المصادر القديمة فِي التّراث الدّينِيّ الْمَسِيحِيّ، فَقَدْ ذكر الْمَسِيح فِي 31 آية، وَكَانَ يُسَمِّيه: «عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ»[3] فِي 16 آية، وسمَّاه: «الْمَسِيح» فِي 9 آيات[4]، وأمّه العذراء مَرْيَم فِي 31 آية، وأورد النَّصَارَى فِي 14 آية، وذكر الرّهبان[5]، والقِسِّيسِين[6]. وفوق هذا كثيرا ما كان يشير الى النصارى بلفظ «أهل الكتاب»، بل ويصفهم بالمؤمنين من بني اسرائيل (الصف 14). ومن وسْعِ ما ورد من ذكر للمسيح وأصحاب ديانته في القرآن، حتى أعتقد بعض المؤلفين المَسِيحِيِّينَ أنَّ القرآن دعوة نصرانيَّة[7].

أفْرَدَ القُرْآن سورة باسم آل عمران (رقم 3) وَهِيَ مَدَنِيَّة، وأل عمران أسرة التّقوى فِي بني إِسْرَائِيلَ اصطفى الله مِنْهَا بذرة الْمَسِيحِيَّة، وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ فِي القُرْآن سورةً كاملة باسم الحضارة الحاضِنة للمَسِيحِيَّة، تحمل اسم« الرّوم» (رقم 84)، ودّتْ انتصارهم عَلَى الفرس؛ فان السّورة الَّتِي أفردها باسم «مَرْيَم» (رقم 19) وَهِيَ مَكِّيَّة، أي فِي مبدأ نشأة الإِسْلَام فإنّها مَدَّتْ خيوط العلاقة الأولى، وأسست مباني التّواد بَيْنَ الدّينِيّن، وَقَدْ أفاد مِنْهَا الْمُسْلِمون فِي هجرتهم الأولى إِلَى الحبشة، إِبَّانَ حوارهم مَعَ النّجاشي الملك الْمَسِيحِيّ، مضيِّفِهم.

---

(1) – مأخوذة من الكلمة اليونانية «إفاجيليون» ومعناها «بشارة» أَوْ «خبر طيب»، فالإِنْجِيل إعلان الأخبار المفرحة عَنْ الخلاص، وتستخدم للدلالة عَلَى حياة يسوع المسيح وتعاليمه والرّسالة التى تكرز بِهَا المسيحيّة. دائرة المعارف الكتابية (إِنْجِيل).

(2) – «النّصرانية» الَّتِي تطلق فِي العَرَبِيّة عَلَىَ أتباع المسيح، من الألفاظ المعربة. يرى بعض المستشرقين أنها من أصل سرياني هُوَ: «نصرويو «Nosroyo»، «نصرايا «Nasraya»، ويرى بعض آخر أنها من Nazerenes التسمية العبرانية. علي: المُفَصَّل فِي تاريخ العرب 6/ 582. شحادة بشير: موسوعة الكتاب المقدس(ناصريين).

(3) – فِي إِنْجِيل متّى 1: 16 {و يعقوب ولد يوسف رجل مريم الَّتِي ولد مِنْهَا يسوع الَّذِي يدعى المسيح}، وينسبه إِلَى إِبْرَاهِيم فِي 42 جيلا. 1:1 – 17.

(4) – آل عمران 45، النّساء 157، 171، 172، المائدة 17، 72، 75، التوبة 30، 31.

(5) – المائدة 82، التوبة31، 34، الحديد 27.

(6) – المائدة 82.

(7) – أنظر: يوسف درة حداد: القرآن دعوة نصرانية (ط2، منشورات المكتبة البولسية، 1986) 741ص.

- الْمَسِيح

مـن الرّسـل المفضلين عِنْدَ اللـه، أيده بروح القدس {تِلْـكَ الرّسُلُ، فَضَّلْنَـا بَعْضَهُمْ عَلَـى بَعْضٍ، مِنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ، وَأَيَّدْنَـاهُ بِـرُوحِ الْقُدُسِ} (البقـرة253)، وَلَهُ فرادة فِـي الخلق، وَهُوَ ثاني اثنيـن {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} آل عمران59

يسميـه القُـرْآن «عيسى» فِي أغلب مـوارده، وكذلك «المسيـح، وكلمة «مسيح «في اللغـة العبريَّـة هـي «ماشـيح ـ [illegible] ـ Mashiakh» مـن الفعل العبري «مشـح «أي «مسح «وتنطـق بالآراميَّـة «ماشـيحا «ويقابلها في اللغـة العربيَّة «مسيح»، ومعناهـا، في العهد القديـم، الممسوح «بالدهن المقدس»، ونقلت كلمة «ماشـيح «إلـى اللغة اليونانية كما هـي ولكن بحروف يونانيـة «ميسـي Messias – Μεσσίας»[1]. والْمَسِيح تفسير كلمة «الْمَسِيـا» ومعنـاه «المخلص» (يوحنـا 4/ 42)، الَّذِي كَانَ ينتظر مجيئـه مجتمعُ اليهودِ المتديِّن[2].

ذكـر أنَّ اسمـه «الْمَسِيح» {يَا مَرْيَـمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّـرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُـهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْـنُ مَرْيَمَ} (آل عمران45)، وَلَكِـنْ لا يعطي القُرْآن كلمة «مسيح» المعنى المقصود فِي العهديـن القديم[3] والجديـد[4]. بَلْ إِنَّهُ رسولٌ ونبيٌّ مُفَضَّلٌ عَلَـى الأنْبِياء. يتوافق القُرْآن مَعَ العقيدة الْمَسِيحِيَّة، إِذْ يذكر حبْلَهُ البتوليَّ من مَرْيَمَ دُونَ مباشرةِ رجلٍ، ويذكر أَنَّهُ رُفع

---

(1) - وعن اليونانية نقلت إلى اللغات الأوربية «ماسيا – Messiah «كما ترجمت الكلمة إلى اليونانية، أيضاً ترجمة فعلية «خريستوس – christos ـ Χριτός» أي المسيح أو الممسوح، من الفعل اليوناني «خريو – chriw» أي يمسح والذي يقابل الفعل العبري «مشح «والعربي «مسح»، وجاءت في اللاتينية «كريستوس ـ Christos» وعنها في اللغات الأوربية «Christ». القمص عبد المسيح بسيط أبو الخير: «مميزات المسيح في جميع الكتب» *www.father – bassit.com /st – patricia /father – bassit /07*.

(2) - الخضري، حنا جرجس، القس: تاريخ الفكر المسيحيّ، (دار الثّقافة، القاهرة، 1994) 1/ 269.

(3) - الممسوح بزيت الابتهاج، لتقديسه لخدمة معينة من الرّب، فَكَانَ يُمسح: الملوك، الكهنة، الانبياء. و«مسيح «استخدمت للدلالة عَلَى الشّعب الَّذِي اختاره الرّب. دائرة المعارف الكتابية (مسح).

(4) - «الممسوح «من الله، والمسيح الرّب يسوع، ويُشار إِلَى سكنى الرّوح القدس فِي المؤمن بِأَنَّهُ مسحه. روح التحرر في القرآن (مسيح).

حياً إِلَى السّماء، وأجرى معجزاتٍ جمّةً من شفاءاتٍ وإقامة الأموات[1].

أ - أَنَّهُ دُعيَ «كلمة الله» و«روحٌ مِنْهُ»: وَقَدْ تكرر هَذَا اللقب، فِي قوله {إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ: يَا مَرْيَم، إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ، اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} (إل عمران45). وورد {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} (النّساء171)، ولا غرْوَ إنَّ هذين اللقبين يدلان عَلَى مركز رفيع للمسيح فِي القُرْآن لَمْ يتَمَتَّع بِهِ غيرُه.

ب - ولادته المعجزيَّة من عذراء: لَمْ يقتصر الأمر عَلَى كُنْهِ الْمَسِيح أَوْ طبيعته مِنْ حَيْثُ هُوَ «كلمة الله وروح مِنْهُ ألقاها إِلَى مَرْيَم»، وَهَذَا وصف لَمْ يوصَف بِهِ أحد من البشر، وإِنَّمَا الطّريقة الَّتِي وُلِدَ بِهَا، والتي شرحها القُرْآن فِي سورة مَرْيَم، كَانَتْ طريقة عجيبة معجزية، لَمْ يولد بِهَا أحد غيرُه من امرأة. زادها غرابة أَنَّهُ «يُكَلِّمُ النّاسَ فِي الْمَهْدِ» (آل عمران 46)، الأمر الَّذِي لَمْ يحدث لأحد، من قبلُ ولا من بعدُ[2]، أنْ تتوالى له الكراماتُ، وتُثْنَى له وسادةُ المعجزاتِ من المهد.

جـ - معجزات الْمَسِيح: وأخُصُّ مِنْهَا مِمَّا ورد فِي القُرْآن - غير إبراء الأكمة والأبرص وأحياء الموتى - معجزتين فوق طاقة البشر جميعًا، لَمْ يقم بمثلهما أحد من الأنبياء، وهما القدرة عَلَى الخلق، وعلى معرفة الغيب. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ القُرْآن عَلَى لسان الْمَسِيح {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ... وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (ال عمران 49).

د - وفاته ورفعه إِلَى السّماء: وَقَدْ ورد فِي ذَلِكَ: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(1) - الأرشمندريت أغناطيوس ديك: «موقف الإسلام من المسيحيّة والمسيحيّين»، موقع كنيسة القديسة تريزا، حلب.

(2) - شنوده الثّالث، البابا: «القرآن والمسيحية»، مجلة الهلال - عدد ديسمبر 1970.

إلَـى يَـوْمِ الْقِيَامَةِ» (آل عمـران 55). والْمَسِيحِيَّة تؤمن بمـوت الْمَسِيح وصعوده إلَى السّمـاء[1]. وَلَكِـنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يُبَيِّن كَيْفَ رُفِعَ الْمَسِيـحُ، ومَتَى حدثَ ذَلِكَ، وبقَى الأمْرُ عجبًا.

هـ - إنَّهُ موئلُ السّلام، فِي مَحْيَاهُ ومَمَاتِهِ، وَإنَّهُ يُبْعَثُ حَيًّا يَوْمَ القيامةِ، ليكونَ شاهدًا عَلَى أهلِ الْمَسِيحِيَّةِ {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ، وَيَوْمَ أَمُوتُ، وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً} (مَرْيَم33)، وَهُـوَ «قول الحق» كلمة اختـصَّ بِهَا دُونَ الأنْبِياء المذكورين فِي القُرْآن {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} (مريم34)

و - صفـات الْمَسِيح الأُخْرَى: أطلق عَلَيْهِ القُـرْآن «المبارك» أنَّى كَانَ، ولا تحدُّه حدود الزمـان والمكـان {وَجَعَلَنِـي مُبَارَكاً أَيْنَ مَـا كُنتُ} (مَرْيَـم31). وأنّه وَجِيهٌ فِـي الدّنْيَا وَالآخِـرَةِ»، وَهُـوَ آية للعالمين (الأنبياء91). وَقَدْ شـرح أئمة المفسريـن[2] معنى هَذَا الوصوفـات باستفاضة، وخرجوا: بعلو مركز الْمَسِيـح علوّا عجيبًا، وبأنّه فِي الآخرة تكون لَهُ شفاعة فِي النّاس.

إذًا شـخْصُ الْمَسِيح لَهُ فِي القُرْآن مركـزٌ كبير، إنَّهُ كلمةُ الله، وروحٌ مِنْهُ، ورسولٌ من أولِي العَزْمِ، وَقَدْ تابعهُ القُرْآنُ تاريخيًا، مِنْذُ قُبَيْلِ ولادتِه إلَى وفاتِه، وعرَّجَ عَلَى معجزاتِه وعقيدتِه، لكوْنِه شَـخْصِيَّةً تاريخيّةً تَتَمَاهَى روحِيًّا ودِينِيًّـا. ومَيَّزَهُ القُرْآنُ بِأَنَّهُ وُلِدَ بطريقةٍ عجيبـةٍ، لَـمْ يولدْ بِهَـا إنسانٌ من قَبْـلُ، ولا من بَعْدُ، بـدونِ أبٍ جسديٍّ، ومـن أمٍّ عذراءَ طهـورٍ، لَمْ يمسَّها بشـرٌ، عاشَ عَلَى الأرضِ يهدِي النّاسَ، ويقـومُ بمعجزاتٍ لَمْ يعملْها أحدٌ مِثْلُهُ، وتُوفِيَ ورُفِعَ إلَى السّماءِ بطريقةٍ عجيبةٍ حَارَ فِيهَا المفسرونَ والعلماءُ.

وأوردَ معجزاتِـه غَيْرَ مَرّةٍ فِي آياتٍ منفـردةٍ تَارَةً، وجَمَعَها، وفَصَّلَ فِيهَا فِي آيةٍ واحدةٍ أُخْـرَى: {إِذْ قَالَ اللّـهُ: يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ، اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْـكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ، إِذْ أَيَّدتُّكَ

(1) - إنْجِيل مرقس: «أن الرّب بعدما كلمهم (تلاميذه) ارتفع إلَىَ السّماء، وجلس عَنْ يمين الله، وأما هُمْ فخرجوا وكرزوا فِي كل مكان، والرّب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التابعة» (مر 16: 19 و20).

(2) - الوجية الَّذِي لَهُ القدر والمنزلة الرّفيعة. ابن النّحاس: معاني القرآن، (جامعة أم القرى، مكة، 1409هـ) 1/ 401؛ الطبري: جامع البيان 25/ 477.

بِـرُوحِ الْقُدُسِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْـدِ وَكَهْلاً، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي، فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي، وَتُبْرِئُ الأَكْمَـهَ وَالأَبْـرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَـى بِإِذْنِي، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِـي إِسْرَائِيلَ عَنكَ، إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ: إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} (المائدة110).

ومـن المعجـزات – فِـي المنظـور القرآنـي – أنَّ عيسى نفسَـه، وَهُوَ آخـر أنبياء بني إِسْرَائِيلَ، قام بالتَّبشير بنبُوَّة مُحَمَّد: {وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} (الصَّف 6). وَهَـذَا التَّبشير يمنح الرسول مُحَمَّدًا إجازةَ حملِ التّـراثِ الدِّينيِّ الإِبْرَاهِيميِّ، الَّذِي ارْتَضَاهُ الله للعالمين دينا حنيفا، فِي صورته الأخيرة، وتبشير المسيح – في الوقت ذاته – وضع لبُنَةَ الأساس في علاقة طيِّبة مع نبيٍّ بعده، تكون مرتكزًا للعلاقة بين المَسِيحِيِّينَ والمسلمين.

- الإِنْجِيل:

سمَّـى القُرْآنُ مُقَدَّسَاتِ الدِّيَانَات الأُخْرَى بأسمائهـا، وَقَدْ أطلق عَلَى أسفار اليهود، أي كتبهـم المقدسـة، العهد القديم «التَّـوراة»[1]، وَقَدْ أورده (16) مَـرَّةً[2]، وسمى العهد الجديد، كتاب الْمَسِيحِيِّينَ، «الإِنْجِيل»، الَّذِي ورد ذكره 12 مَرَّةً[3]، وعطفه عَلَى التَّوراة فِـي 8 مواضـع[4]، ووصفه بِأَنَّـهُ كتاب الله، ومن آيـات الْمَسِيح، فِيهِ نـورٌ وحكمةٌ، وَهُوَ امتـداد للتـوراة عَلَى هَدْيِهِ، وأنَّ فِيهِ هُـدًى ومَوْعِظَةً للمتقين (المائـدة 46)، ودعَا أتباعَه للحُكْـمِ بتشريعاتِه؛ لِأَنَّهَا مُجْزِيَةٌ فِي إثباتِ الْحُقُـوق (المائدة47)، وإذا مَا أقاموه أفاضَ

(1) - كلمة «توراة» مشتقة من الفعل العبري «يرى» بمعنى يعلم أوْ يرشد أوْ يرى. كَمَا إنها تعني «وصية» أوْ «ناموس» ولكن لا يقتصر معناها عَلَى الشَّرائع والأحكام، لكنها أسلوب للحياة يستند إِلَى علاقة العهد بَيْنَ الله ليتنبأ. وتستخدم الكلمة أصلا للدلالة عَلَى أسفار موسى الخمسة. دائرة المعارف الكتابية (توراة)

(2) - آل عمران: 50،48،3، 65، 93؛ المائدة43، 44، 46، 66، 68، 110، الاعراف157، التوبة111، التح 29، الصَّف6، الجمعة5.

(3) - آل عمران 3، 48، 65، المائدة 46، 47، 66، 68، 110، الأعراف 157، التوبة 111، الفتح29، الحديد27

(4) - آل عمران 3، 48، 65؛ المائدة 66، 68، 110؛ الأعراف 157؛ التوبة 111.

عَلَيْهِمْ بركاتِ السّماءِ والأرضِ (المائدة66).

والإنجِيـلُ لَهُ مكانة عظيمة فِي القُرْآن، إذْ كَـانَ مُصَدِّقًا لَهُ، وداعِيًا النّاسَ إلَى الإيمانِ بِـهِ، وَلَـمْ يُذكَرْ فِي القُرْآنِ أنّهُ نَسَـخَ التّوراةَ أوْ الإنجِيلَ، بَلْ ذَكَـرَ أنَّ المؤمنينَ ليْسُوا عَلَى شَيْءٍ حَتَّى يقيموا التّوراة والإنجِيل (المائدة68).

- الْمَسِيحِيَّة

سمّاهـا القُرْآنُ النَّصْرَانِيَّة، شَـرَحَ عَنْهَا: كَيْفَ أنّها ديانةٌ سماويّـةٌ، ديانةٌ إلهيَّة، أرسلَها اللـهُ هُـدًى للناسِ ورحمـةً، عَلَى يدِ الْمَسِيـحِ بن مَرْيَـم. والمؤمنـونَ بالْمَسِيحِيَّةِ سَجَّلَ القرآنُ لَهُمْ أجرَهُم عِنْدَ ربِّهِم، وَأنَّهُمْ غيرُ المشركينَ، وغيرُ الَّذِينَ كفروا. وَأوردَ - أيْضًا: أنَّهُمْ أقربُ النّاس مَوَدَّةً إلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأنَّهُمْ متواضعون لا يستكبرون[1].

استعمـل القُرْآنُ مجتمعَ عيسـى، تلاميذه الحواريِّين، مثالًا فِـي الإخلاص والنّصرة للـه، دعا خلالَـه مجتمعَ مُحَمَّد (المؤمنين) للحذو حذوهم: {يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْـنُ أَنصَـارُ اللَّـهِ} (الصّف14). وشـبَّهَ مجتمعَ الرّسـولِ مُحَمَّدٍ - فِـي موقفهم الثّابت أخلاقِيًّا وإيمانِيًّا - بِقَرِينٍ لَهُ فِي الإنجِيل {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَـطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَـظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الـزُّرَّاعَ} (الفتح29). ووصفَ أتباعَ الْمَسِيحِ بعُلُوّ القيَـمِ الإنْسَانِيَّةِ {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ} (الحديد27).

قـدم القـرآن المسيحية على أنّها ديانـة توحيد، وأنَّ ما اعتراها مـن تغيير، كان نتيجة {لِّلَّذِيـنَ يَكْتُبُـونَ الْكِتَـابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُـمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنـدِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِـهِ ثَمَناً قَلِيلاً} (البقرة79)، لعلّه إشـارة الى ما شـهده تاريخ المسيحيَّة الباكر من خلافات مذهبية حادة حـول طبيعة المسيح، والخلافات التي كانت بيـن آريوس وأثناسيوس في القرن الرابع للميلاد[2].

---

(1) - شنوده: «القرآن والمسيحية»، م.س.

(2) - قصة الحضارة، ملحق/ ص19.

- العذراء مَرْيَم

أمُّ الْمَسِيح لها مركز مائزٌ فِي القُرْآن، فِي بتوليَّتِها، وطُهْرِها، ونُسْكِها، وعبادتها، وتشريفِ الله لها، واصطفائها عَلَى نساء العالمين. يشرح القُرْآن فِي سورة آل عمران: أن مَرْيَم نذرت للربّ، وَهِيَ فِي بطن أمّها، وأنّها تربّت فِي الهيكل[1] تَحْتَ رعاية زَكَرِيَّا[2]، وأنّها كَانَتْ تُطعَم طعامًا من السّماء {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (آل عمران37).

وعلو مركز العذراء مريم عند الله عظيم، إذْ اصطفاها على النساء، ولم يردْ فِي القرآنِ أنّـهُ اصطفى غيرَها، {وَإِذْ قَالَتْ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ} (آل عمران 42). وأنّها علامة تتماهى عالميًّا، {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء91)، وَهَكَذَا ارتفعت مَرْيَم فِي نظر الإِسْلَام فوق نساء العالمين. وَكَانَتْ عذراءَ، عابدةً، تسجد وتركع مَعَ الرّاكعين، وَكَانَتْ تحيا فِي وحدةٍ وتأمُّلٍ {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً، فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابا} (مريم 17،16). وَقَدْ تصومُ صمتًا {نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً} (مَرْيَم 26).

---

(1) - شنوده: م. س.

(2) - فِي التراث الإسلاميّ: زكريا من آخر أنبياء بني اسرائيل (الطبري: جامع البيان 6/ 363). وفِي التراث المسيحيّ: زكريا بن يهوياداع الكاهن فِي عهد يوآش ملك يهوذا (2 أخ 22: 1 - 12، 24: 15، 16)، فهو ابن يهوسعة أخت أخزيا الملك، وعليه كَانَ زكريا ابن عمه الملك يوآش. وحدث بعد موت يهوياداع، أن ارتد الشّعب عَنْ الرّب، حتي «لبس روح الرّب زكريا بن يهوياداع الكاهن فوقف فوق الشّعب وقال لَهُمْ: «هَكَذَا يقول الله: لماذا تتعدون وصايا الرّب فلا تفلحون. لأنكم تركتم الرّب قَدْ ترككم. ففتنوا عَلَيْهِ ورجموه بحجارة بأمر الملك فِي دار بيت الرّب. ولم يذكر يوآش الملك المعروف الَّذِي عمله يهوياداع أبوه معه، بَلْ قتل ابنه. وعند موته قَالَ: الرّب ينظر ويطالب» (2 أخ 24: 20 - 22). والأرجح أن زكريا بن يهوياداع هُوَ الَّذِي قصده الرّب يسوع بقوله للكتبة والفريسيين: «لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك علي الأرض، من دم هابيل الصّديق إلي دم زكريا بن برخيا الَّذِي قتلتموه بَيْنَ الهيكل والمذبح» (مت 23: 35،انظر أيضاً لَوْ 11: 51). فالرّب يسوع يذكر أول شهيد للبر ذكر فِي أول أسفار الكتاب المقدس (تك 4: 8)، وآخر شهيد ذكر فِي آخر أسفار الكتاب المقدس فِي التوراة العبرية، وَهُوَ سفر أخبار الأيام الثّاني. دائرة المعارف الكتابية (زكريا).

- تَجَلّيات تاريخيّة للمسيح وأمّه مريم فِي القُرْآن

يمكـن استِجْـلاء عددٍ مـن القيم فِـي المُمَارَسَـات التّاريخيّـة والدّينيّة فِـي المنظور القرآني عَنْ الْمَسِيح وأمه:

- علـوّ قيمـة مَرْيَم وَهِيَ نذر محـرر لخدمة الهيكل، فِي مجتمـع يحتقر المرأة، توافرت لها الرّعايةُ الرّبَّانِيَّةُ، وكفالةُ نبيِّ اللهِ زَكَرِيًّا لها، ورزقُها الرّبَّانِيُّ فِي الهيكل (آل عمران 35 – 38). وَمِمَّـا يُزِيـدُ مِنْ مَكانةِ مَرْيَـمَ وسمُوِّهَا عِنْدَ اللهِ، أنّه دَعَـا زَكَرِيًّا ربَّهُ – عَلَى إثـر العنايةِ الرّبَّانِيَّـةِ بمَرْيَمَ وكفالتِّهِ لَهَا – أنْ يرزقَهُ بولدٍ مِن امرأتِه العاقِر، يَحْمِلُ النّبُوَّةَ بَعْـدَهُ فاستجابَ الله: {فَنَادَتْـهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} (آل عمران39)
- اصطفـاء اللـه مَرْيَـم عَلَى نسـاء العالميـن، وتطهيرها من الدّنـس والإثـم وتبتّلها مَعَ العابديـن، حَتَّى استحقّتْ أنْ تكونَ صاحبةَ النّعمةِ والهِبَةِ الإلهيّة، فِي حملِها بعيسى، كلمةِ الله، وروحٍ مِنْهُ. (آل عمران 42 – 43).
- المحـاورةُ التي جَـرَتْ بَيْنَ مَرْيَمَ وَبَيْـنَ المَلَكِ المُبَشِّرِ لها بغـلامٍ، تحمِلُ بِهِ، يكونُ ذا شـأنٍ عظيـم.(آل عمـران45 – 58) وكيفيَّـةِ الـولادةِ، ومكانِها، وملابسـاتِ الوضعِ واقعيًّا ونفسِيًّا.(مَرْيَم 22 – 26).
- التّهمةُ الّتِي واجهتْ مَرْيَم، وموقفُها من الدّفاع، وتبرئةُ الوليدِ لها فِي نطقِه فِي المهدِ. (مَرْيَم28 – 33).
- بيـانُ حَقِيْقَةِ خلقِ الْمَسِيح. (آل عمران59، النّساء172)، ومعجزاتُ الْمَسِيح، ووظيفةُ رسالتِه. (آل عمران49 – 51)
- تاريـخُ حيـاةِ الْمَسِيحِ من ولادتِه {فَأَجَاءهَـا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَـةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِـتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيـاً مَّنسِيّاً. فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِـي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّـاً} (مَرْيَـم23 – 24) حَتَّى محاولة قتله، والجدل مَعَ اليهود فِـي قتله {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَـا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ

الَّذِيـنَ اخْتَلَفُـواْ فِيهِ لَفِي شَـكٍّ مِنْهُ مَـا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْـمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَـا قَتَلُوهُ يَقِيناً}
(النّساء157).

- نفي الألوهةِ لمريمَ، ورد فِي ذَلِكَ «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِـي وَأُمِّـيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ. قَـالَ: سُبْحَانَكَ» (سورة المائـدة 116). بَيْدَ أَنَّ الْمَسِيحِيَّـةَ لَـمْ تقـلْ - فِي يوم من الأيـام - بألوهية العذراء مَرْيَم. بَـلْ أنَّ مَرْيَم نفسها تقـول فِـي الإِنْجِيل {هُوَ ذا أنا أَمَةُ الرّبِّ}(لوقا 1: 38) فتأخذ وضعها كعبدة أمام الله. فإنْ كَانَتْ قَدْ قامتْ بدعةٌ تنادي بتأليه العذراء، فإنَّ الْمَسِيحِيَّةَ تحاربُها بكلِّ قُوَّة[1].

- النَّصَارَى:

عِنْـد سِيبَوَيْـهِ جمـع نصـران للمذكر، ونصرانـة للمؤنـث، والغالبُ فِـي الإِسْتِعْمَال النسبـةُ نصرانـيّ ونصرانية، وَالْأَصْل نَصْرَانٌ، فَإِذا جمـع رَدّ إِلَى الأَصْل، فَيُقَال نَصَارى، قَالَ الشَّاعِر:

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وأَسْجَدَ رَأْسُها   كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لم تَحَنَّفِ[2]

سمّى القرآن أتباع المسيح «النصارى»، ولم ينسبهم إليه، مع العلم أنّ القرآن يعترف بـأن عيسى (يســوع) هو المسيح، ويبـدو أنَّ هذه اللفظـة معروفة لدى عـرب الجزيرة، ولعلهـا مستفادة مـن الآراميّـة أو السريانيّة[3]، أو أنّهـا من استعمالات اليهـود[4]، ولهم

---

(1) - شنوده: م.س.

(2) - ابن سيدة: المخصص 5/ 161.

(3) - يرى بعضهم: إن نصارى كان اسمًا قديمًا للمسيحيين، ويُدْعم زعمه عن طريق أقدم التسميات في اللغات السامية المختلفة، ويعتقد آخر: أن الإسلام أخذ التسمية «نصارى» عن إحدى النسخ الآرامية أو السريانية. ففي نسخة البسيطة [illegible] الآرامية، نجد في الآية التسمية [illegible] (نصارى)، مقابل التسمية العبرانية في النص ذاته [illegible] (نصريم). نبيل فياض: النصارى، تاريخهم وعقائدهم (دمشق، 1997م) ص5.

(4) - يرى بعض المستشرقين أنها من Nazerenes التسمية العبرانية الَّتِي أطلقها اليهود عَلَىَ من اتبع ديانة المسيح. فإن أقدم إشارة إلى طائفة النصارى وردت فِي العهد الجديد فِي سفر «أعمال الرّسل» (24: 5) عَلَى لسان يهود (شيعة النّاصريّين). أَوْ أن لها صلة بـ النّاصريين «Nasarenes» احدى الفرق القديمة اليَهُودِيَّة المتنصرة. وَقَدْ بقي اليهود يطلقون عَلَى من اتبع ديانة المسيح «النّصارى»، وبهذا المعنى وردت الكلمة فِي القرآن الكريم، ومن هُنَا صارت النّصرانية علماً لديانة المسيح عِنْدَ الْمُسْلِمِين.

وجود مؤثر في الحجاز واليمن.

لعل أقدم إشارة إلى شخص يسوع، هي لفظ «ناصريّ» نجدها في العهد الجديد[1]، وثمة اشارة نسبت «يسوع» الى الناصرة في سفر أعمال الرسل: {يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة} (10: 38). كما أنّ أقدم ذكر الى طائفة النصارى، ورد في سفر الأعمال {فاننا اذ وجدنا هذا الرجل مفسدا ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة ومقدام شيعة الناصريين} (24: 5). ثمّة من يرى أن «نصارى» تسميةٌ معرّبة من الفَهلَوِيَّة الساسانيَّة بلفظ «ناجاران»[2]، ومنها عرفت في جزيرة العرب.

لمْ يعطِ القرآنُ معنًى للنصارى بحسبِ المكانِ الذي كانتْ فيه نشأةُ المسيحِ الأولى، أيْ نسبةً الى الناصرةِ[3]، وإنَّما أعطاها المعنَى من دلالةِ الفعلِ «نَصَرَ»، فهم طائفةٌ من بني إسرائيل آمنتْ بالمسيح، وقد قامت الدعوة القرآنية لنصرتهم على الذين كفروا بالمسيح من بني إسرائيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} (الصف14). يُلْحَظُ الترادفُ بين أنصارِ عيسى وكلمة نصارى. ففي اصطلاح القرآن، أن بني إسرائيل طائفتان: النصارى من بني إسرائيل، الذين آمنوا بالمسيح على دعوة الحواريين أنصاره؛ واليهود من بني إسرائيل الذين كفروا بالمسيح[4]. ويقوّي معنى

علي: المُفَصَّل في تاريخ العرب 6/ 582. شحادة بشير: موسوعة الكتاب المقدس(ناصريين).

(1) – متى 2:23؛ 26:71؛ لوقا 18:37؛ يوحنا 18:5؛ 19:19؛ أعمال الرسل 2:22؛ 3:6؛ 4:10؛ 22:8؛ 26:9.

(2) – فكتور الكك، تقرير حول الاطروحة «العلاقات الاسلامية المسيحية» مقدم الى كلية العلوم الدينية في جامعة القديس يوسف.

(3) – يرى بعض المؤرخين أنّ لها صلة «بالنّاصرة» الَّتِي كَانَ مِنْهَا «يسوع» حيث يقال: «يسوع النّاصريّ». (الطبري: التفسير 1/ 318). وورد في متي: {و اتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة لكي يتم ما قيل بالانبياء انه سيدعى ناصريا} (2: 23). علي: م.ن 6/ 582.

(4) – يوسف درة حداد: القرآن دعوة نصرانية، ص29.

«النصـرة» تَسْمِية الرسـول محمّد من آمن بدعوته من أهل يثرب بـ«الأنصار»، ويصوّب ابـن الأنبـاري(1) هذا المعنى، فيقـول: «سُمّوا نصارى، لنصرتهم عيسـى في أوّل الأمر. يدل على هذا أنّهم يُسَمُّون النصارى: أنصاراً. قال الشاعر:

لمّا رأيتُ نَبَطًا أنصارا... شمَّرتُ عن رُكْبَتِيَ الإِزارا...

كنتُ لها من النصارى جارا... »

فضـلا عن أنّ القُـرْآنَ خصَّ أتباع المسيح بلفظ «النَّصَـارَى»، لكنّه يشملهم بتسمية: «أهـلَ الكتـاب»، أوْ «الَّذِيـنَ أوتـوا الكتاب مـن قبلكـم»، أوْ «الَّذِينَ أتيناهـم الكتاب». يصفهـم القُرْآن بالإيمان وعبـادة الله، وعمل الخير. ويَقُولُ فِي ذَلِـكَ «مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَـرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِـكَ مِنَ الصَّالِحِينَ» (آل عمـران113). ويَقُولُ – أيْضًا: {الَّذِيـنَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ}(البقرة121). {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِـن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُـمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ} (النّسـاء131). {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِـنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ} (القصص52).

هُـمْ إذًا مـن المؤمنيـن، يعبدون اللهَ، ويسجدون للـهِ، وَهُمْ يتلون آيـاتِ الكتابِ طوال الليـل. يؤمنـون بالله وبالكتـاب وباليوم الآخر، وَهُمْ مـن الصّالحين. ولذلـك أمر القُرْآن بالحـوار مَعَهُـمْ عَلَى نحو ترتقي فِيهِ أَدَبِيّـات الحوار، {وَلا تُجَادِلُوا أَهْـلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، منطلقا من الثّوابت والمُشْتَرَكات الدّينِيَّة: {وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت 46).

لَـمْ يَقْتَصِـرْ القُرْآنُ عَلَى الأمْرِ بحُســنِ مجادلةِ أهلِ الكتابِ، بَلْ أَكْثَـرُ مِنْ هَذَا؛ وَضَعَ القُـرْآنُ النَّصَـارَى فِي مَعْرَضِ الإفتاءِ فِـي الدّينِ، والسؤال في اللاهـوت، بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ سَبْـقٍ دِينِيّ، وخِبْراتٍ فِي فَهْـمِ المُجْتَمَع وسلوكِه، فقال: {فَإِن كُنتَ فِي شَـكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا

(1) – الزاهر في معاني كلمات الناس 2/ 213.

إِلَيْـكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ} (يونس 94). وَقَالَ - أَيْضًا: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (الأنبياء 7).

وصـف القُـرْآن النَّصَارَى بِأَنَّهُـمْ ذو رأفة ورحمـة: {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَـمَ، وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيـلَ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَـةً} (الحديد 27). وعدَّهم أقربَ النَّـاس مَـوَدَّةً إِلَى الْمُسْلِمِينَ، في معرض مقارنتهم باليهود: {لَتَجِدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِيـنَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُواْ، وَلَتَجِـدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُـواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} (المائدة 82). لِلَّذِينَ آمَنُوا (الْمُسْلِمِينَ) والذّين أَشْـرَكُوا (قُرَيْـش والقَبَائِل الْعَرَبِيّة فِـي الجاهلِيّة)، ونلحظ فِي هَذِهِ الآية القرآنيَّة تمييز النَّصَارَى عَنْ الَّذِينَ أشـركوا. لأنَّهـا هُنَا تذكرُ ثلاثَ طوائفَ واجهَهَا الْمُسْلِمونَ، وَهِيَ: اليهود، والذّين أشـركوا فِي ناحيـة، والنَّصَارَى فِي ناحية أُخْرَى. فلو كَانَ النَّصَارَى من المشركين، لَمَا صحَّ هَذَا الفصلُ والتّمييزُ.

إنَّ التّمييـز والفصـل بَيْنَ النَّصَارَى والمشركين أمْرٌ واضحٌ جـدًا فِي القُرْآن، وتدعمه ثَمَّـةَ أمْثِلَـةٌ أُخْـرَى. مِنْهَـا قولـه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هَـادُوا وَالصَّابِئِيـنَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُـوسَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُوا، إِنَّ اللَّـهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَهِيدٌ} (الحج 17). نفس هَذَا التّمييز نجده فِي الآية 186 من آل عمران، ونتبيَّنه واضحًا فِـي أحكـام التّزوج الْمُشْتَـرَك، وَفِي قوانيـن الْجِزْيَة. ويكفي فِي نظرة القُـرْآن إِلَى إيمان النَّصَـارَى بالله، أن نـورد قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَـادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَـنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة 62؛ المائدة 69).

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ معارضته للعقيدة الْمَسِيحِيَّة، فالقرآن لا يساوي فِي أحكامه النَّصَارَى والمشركيـن. فالنَّصَارَى لا يرغمون عَلَى الإِسْلَام مقابل دفع الْجِزْيَة. ويتيح للمُسْلِمِينَ أنْ يأكلوا من أكلهم، وأن يتزوجوا من نساءهم، ويسكت القُرْآن عَنْ زواج الْمُسْلِمة من الكِتَابِيّ. وما جاء فِي الآية 10 من سورة الممتحنة، يحرّم زواج الْمُسْلِمة من الكافر، هل يجـوز تطبيقه عَلَى الْمَسِيحِيّ؟. وتـرى سلوى بالحاج أنّ المفسّريـن انقادوا إِلَى تأويل

القُرْآن بحيث يمنع زواج الْمُسْلِمة من كِتَابِيّ انطلاقاً من موقف اِجْتِمَاعِي[1].

ومع ذَلِكَ ورد فِي القُرْآن أنَّ بعضًا من النَّصَارَى متعصبون لدينهم، وكارهون للمُسْلِمِينَ: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} (البقرة120)

تصدّى القُرْآن لأهم العقائد الْمَسِيحِيَّة، فإنَّه ينفي الثّالوث {وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ}(النّساء 171؛ المائدة 73). وَأَنَّهُ يلتقي مَعَ الْمَسِيحِيَّة بأنَّ عيسى يولد بدون أب بَشَرِيّ، وإنَّه قَالَ عَنْهُ: «كلمةُ الله»، و«روح مِنْهُ»، غير أنّ هَذَا التّشابه ينحصر في الشكلِ دون المفهوم، فالقرآن لا يعطي العبارتين المدلول اللاهُوتِيّ الَّذِي يعطيه الْمَسِيحِيّون. (مائدة 72، 116، 177).

- الرّوح القدس

ذكر فِي القُرْآن، وانفرد بِهِ الْمَسِيح {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} (البقرة 87،253؛ المائدة 110) إلّا أنَّهُ لا يَرِدُ بالمعنى الْمَسِيحِيّ (الأقنوم الثّالث). فالمقصود بالثّالوث ثلاثة آلهة، فَضْلًا عَنْ كون القُرْآن عدَّ مَرْيَم لا الرّوح القدس عنصراً من عناصر الثّالوث[2].

وَهَذِهِ خَاصَّة بالشّرك بالله كَمَا لَوْ كَانَ هُنَاكَ ثالوثٌ مُكَوَّنٌ مِن: اللهِ، وصاحبةٍ، وابنٍ، أنْجَبَهُ الله من صاحبتِه!، وَهَذَا - بحسب شنودة[3] - كُفْرٌ مُبِينٌ تَتَنَزَّهُ عَنْهُ الْمَسِيحِيَّةُ، وَلَيْسَ ثالوثُ الْمَسِيحِيَّةِ مِن هَذَا النّوعِ الوَثَنِيّ، كَمَا وَرَدَ فِي العباداتِ المِصْرِيَّةِ القديمةِ، فِي قُصَّةِ «إيزيس» و«أوزوريس» وابنهما الإله «حورس»[4]، أو مجموعتي التثليث

(1) - المسيحيّة العَرَبِيّة، ص125.

(2) - والذي يدل عَلَيْهِ القرآن التصريح مِنْهُمْ بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة. الزمخشري: الكشاف 1/ 493.

(3) -« القرآن والمسيحية»، م. س.

(4) - أسطورة دينية: أن إيزيس Isis إلهة الأمومة، هِيَ الَّتِي عثرت عَلَىَ القمح والشّعير حين كانا ينموان نمواً برياً فِي أرض مصر، وكشفت عنهما لأوزيريس Osiris. وَهِيَ أم الإله حورس (إله الشّمس)

الإلهي البابلي[1]. إنْ وُجِدَتْ بِدْعَةٌ مِنْ هَذَا النَّوْعِ يُحَارِبُها القُرْآنُ، فالْمَسِيحِيَّةُ تُحَارِبُها - أَيْضًا. ولا يمكنْ أنْ تؤمِنَ بمثلِ هَذَا الكُفرِ؛ أَمَّا ثالوثُ الْمَسِيحِيَّةِ فغيرُ هَذَا كُلِّهِ، نقولُ فِيهِ «الآبُ، والابنُ، والرّوحُ القدسُ».

ويُشيـر «غريغوريوس» أنَّ مَرْيَم: رفعَها الكاثوليكُ إلَـى مقامِ الألوهيةِ: «وَكَمَا أخطأَ الكاثوليـكُ فرفعوُها إلَى مقـامِ الألوهيَّةِ والعِصْمَـةِ، كَذَلِكَ ضَـلَّ البروتستانت... حِينَ احتقرُوهـا، وجهلُـوا، وتجاهَلُوا نعمةَ اللهِ عَلَيْهَا وَفِيهَا، وَلَكِـنَّ الكَنِيسَةَ الأرْثُوذَكْسِيَّةَ قَدْ عَلَّمَتْ العذراءَ تَعْلِيمًا مستقيمًا، فَلَا نُؤَلِهُهَا، ولا نَحْتَقِرُها»[2]. في حين يخالف رفع مريم الـى مصـاف الألوهية «الأب بيـار»[3]، إنَّه يرى: أنَّ مريم لها دور فـي التألُّه الإنسانيّ، إذ صـار ممكنًـا بتجسُّد الإبن من مريم، أنَّها كانت مسكنـا حلَّ فيه الروح القدس، فأعطت الحياة للكلمة، وأنَّ فيها قد تمجَّدَ الثالوث.

وترى سلوى بالحاج: «إذَا اعتبرنا أنّ عقيدة التّثليث الرّسميّة للكَنِيسَة الْمَسِيحِيَّة غير ذَلِكَ فِي عناصرها ومقصدها، فإنَّنا نجد أنفسَنا مدفوعين إلَى التّساؤل، إنْ لَمْ يكنْ القُرْآنُ تعـرّض فِـي نصّه إلَى الرّدّ عَلَـى بعض المُعْتَقَـدات الْمَسِيحِيَّة، الَّتِـي واجهت بِهَا بعض الفرق المتواجدة فِي الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة، الرّسالة المُحَمَّدية، وَلَيْسَ عَلَى العقيدة الْمَسِيحِيَّة

الَّذِي حملت فِيهِ بمعجزة من المعجزات، وَكَانَ المصريون يعبدون عبادة قائمة عَلَى الحب والإخلاص فصوروا لها صوراً من الجواهر لأنَّها فِي اعتقادهم أم الإله. ولقد كَانَ لهذه الأساطير أعمق الأثر فِي الطقوس المسيحيّة وفي الدين المسيحيّ، حَتَّى إن المسيحيّين الأولين كَانُوا أحيانا يصلون أمام تمثال إيزيس الَّذِي يصورها وَهِيَ ترضع طفلها حورس، وكانوا يرون فِيهَا صورة أخرى للأسطورة القديمة النّبيلة أسطورة المرأة الخالقة لكل شيء والتي تصبح آخر الأمر أم الإله. ول ديورانت: قصة الحضارة 34/ 408

(1) - هما: مجموعة (آنو) إله السماء، و(إنليل) إله الهواء، و(إيا) إله الماء. ومجموعة (شِمش) إله الشمس، و(سين) إله القمر، و(عشتار) إلهة الخصب. حسين توفيقي: روح التحرر في القرآن، ص42.

(2) - الأنبا الأرثوذكسي: كتاب العذراء مريم، حياتها، رموزها وألقابها، فضائلها، تكريمها (لا. ط، القاهرة، رقم ايداع 14357/ 2005) ص 129.

(3) - بيار نجم ر.م.م.: مريم العذراء في فكر القديس أفرام السرياني (ت373م)، (منشورات جامعة سيدة لويزة، بيروت، 2004) ص54 - 55.

عَامَّة، وبشكل منهجيّ وكامل[1]. لعلها أشبه بالإشكاليَّة التي يوردها القرآن عن اليهود {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ} (التوبة30)، ولم يكن في عُرْف المسلمين، عن عامة اليهود، أنَّهم ذهبوا الى انَّ عزير ابن الله، بل رأى قدماء المفسرين[2] أنَّها إشارة الى بعض الأفراد أو الجماعات اليهودية في جزيرة العرب تعتقد بهذا، تأثرا بالمشركين في قولهم: الملائكة بنات الله.

4. الجدل والحوار بَيْنَ الأَدْيَان فِي القُرْآن:

الإِسْلَام دين الحوار مِنْذُ بزوغه، وَهُوَ الَّذِي وفَّر الأمن والسّلامة لمخالفيه فِي العقيدة والرّأي، ورفع شعار الْحُرِّيَّة الدّينِيَّة {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (الكافرون6)، ودعا إلَى نظام المشاركة مَعَ وجود الاختلاف فِي العقيدة، مادام الحاكميَّة والمرجعيَّة إلَى الله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} (الحج17).

هل مَثَّلَ القرآنُ الحياةَ الدينيَّةَ عندَ العربِ، نعم مثَّلها أصدقَ تمثيلٍ، ولكنَّه لا يمثِّلُ الحياةَ الدينيةَ وحدَها؛ وإنَّما يمثِّلُ شيئًا آخرَ غيرَها، لا نجدِهُ في الشعر الجاهليِّ، يمثِّلُ حياةً عقليَّةً قويَّةً، يمثِّلُ قُدْرَةً على الجِدالِ والخصامِ، أنفقَ القرآنُ في جهادِها حظًّا عظيمًا. أليسَ القرآنُ قد وصفَ أولئك الذين كانوا يجادلونَ النبيَّ بقوةِ الجدالِ، والقدرةِ على الخصامِ، والشدَّةِ في المحاورَةِ ؟! وفيمَ كانوا يجادلونَ ويخاصمون ويحاورون؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المُعْضِلَةِ، التي ينفق الفلاسفةُ فيها حياتَهم دون أنْ يُوفقوا الى حلِّها: في البعثِ، في الخلقِ، في إمكانِ الاتصالِ بينَ اللهِ والناسِ، في المعجزةِ وما إلى ذلك[3].

---

(1) – المسيحية العَرَبِيّة، ص 115.

(2) – الطبري: جامع البيان 14/ 201 – 204؛ ابن أبي حاتم، الرازي (327هـ): تفسير القرآن العظيم 6/ 1781؛ الواحدي، علي بن أحمد (ت468هـ): التَّفْسِيرُ البَسِيْط، 2/ 599.

(3) – طه حسين: في الأدب الجاهلي، ص69.

حفـل القُرْآن بوضع مُقَارَبَات تؤسـس لحوار ناجح بَيْنَ الأَدْيَـان، ولاسِيَّمَا بَيْنَ أهل الكتـاب، ودعـا الْمُسْلِمِيـنَ إِلَـى مجادلتهـم - بأحسن مَـا يمكن من أساليـب - فِي فن الحـوار وأَدَبِيَّاتـه، من دونِ فرضِ رأيٍ، أَوْ إلغاءِ الآخر، أَوْ الحكمِ عَلَيْهِ، لأنَّ الأمرَ مُرجَأٌ إِلَـى حكـمِ اللهِ، {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَـةِ وَجَادِلْهُم بِالتي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (النّحل125).

مـن أبجديات خلـق الحـوار النّاجح هُـوَ النّهوض بتأصيـل الفكر فِـي الرّجوع إِلَى أصولـه النّاصعـة، فالقرآن أرجع الإِسْلَام إِلَـى بودقة الدِّيَانَـات التَّوْحِيدِيَّةِ، وصاغ فكرة «الأرومـة الإِبْرَاهِيميَّـة»، وأنَّ إِبْرَاهِيمَ مَا كَانَ يهوديًا ولا مسيحيًّـا، ولَكِنْ كَانَ حنيفًا (آل عمـران67). فهذه الفكرة -بحَسَبِ يواكيم مبارك - كَانَـتْ الأَصْلَ فِي التّعبيرِ عَنْ إرادةِ انفتـاحِ بَيْنَ الدِّيَانَاتِ التَّوْحِيدِيَّةِ بعضِها عَلَى بعضٍ، من أجـلِ تبادُلِ الإعترافِ فِيمَا بَيْنَهَا تَحْتَ مظلَّةِ الشّجرةِ الإِبْرَاهِيميَّةِ[1].

ويؤكّـد عَلَى النّقاط المُشْتَرَكـة فِي الدِّيَانَات الكِتَابِيّة، بغية التّعـارف بَيْنَهُمْ عَلَى تَنَوُّع الثَّقَافَـات الدّينيَّة والأخلاقية والْحُقُوقيَّة {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالتي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِيـنَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالذّي أُنـزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُـمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}(العنكبوت46).

فالمُشْتَرَكـات العقديـة بَيْـنَ الْمَسِيحِيَّة والإِسْـلَام[2] تَتَجَلَّى فِي الاعتقـاد بإله واحد، خالـق السّمـاوات والأرض وكـلِّ مَـا يُـرى ومـا لا يُـرى، وأنَّ وجود اللـه يُثْبِتُـهُ العقلُ ويؤكّـده الوحيُ، والله عالـم الغيب والشّهادة، وَهُوَ غفور رحيم، محبٌّ لعباده، الحميد المجيد[3]. ومن أهم المعاني المُشْتَرَكة بَيْنَ الْمَسِيحِيِّنَ والمُسْلِمِينَ هُوَ الاعتقاد بأنَّ الله لَـمْ يترك الإِنْسَانِيَّة عَلَى حالِها عبادِيًّا، فأرسـلَ الأَنْبِياءَ بعدةِ طرائقَ مِن الوحْيِ والتَّكْلِيمِ،

---

(1) - جورج طرابيشي: «عَنْ يواكيم مبارك، الإنسان الإستثنائي» جريدة الحياة، العدد 15398، في 29/ 05/ 2005.

(2) - انظر: غسّان سليم سالم: محاور الإلتقاء ومحاور الإفتراق بين المسيحية والإسلام، (دار الطليعة، بيروت 2004) ص76 - 190.

(3) - جورج شحاتة قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبيّة، ص 17 - 19.

فالْمَسِيحيُّونَ والمُسلمونَ - عَلَى السّواء - يُسَمُّونَ إِبْرَاهِيمَ خليلَ اللهِ، ومُوسَى كليمَ اللهِ، والْمَسِيحَ روحَ اللهِ[1]، {ولا تحزنوا روح الله القدوس الَّذِي بِهِ ختمتم ليوم الفداء} (رسالة بولس 4/ 30)، وإن كَانَتْ الْمَسِيحِيَّة تُلْبِسُ «روح الله» عديدا من الأنبياء، ومِهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ فإنَّ الْمَسِيحِيِّينَ والمُسْلِمِينَ يتَّخذون مِنْهُمْ الأسْوَةَ الحسنةَ، والمثالَ الأعلَى فِي الإيمانِ والطّاعةِ.

كَمَا يتشهد الْمُسْلِمون بـ «أن لا إله الا الله»، يترنم الْمَسِيحِيّون بـ «مَنْ إلهٌ غيرُ الرّبِّ، مَنْ صخرةٌ سِوَى إلهنا» (المزامير17/ 32). ومثل {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدُ} (الإخلاص 4)، {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ...}(الحديد3)، فَهُوَ {الأول والآخر...} (اشعيا 41/ 4). و{اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوم}(البقرة ٢٥٥)، تشْبَهُ {لأنَّ اللهَ هُوَ القيوم المتين، لا يتعبُ ولا ينسى}(أشعيا 40/ 28).

أقل مَا يُرْجَى - من مُقَارَبَةِ المُشْتَرَكاتِ - الإقرارُ بدينِ الآخرِ، أَوْ تبادلُ الإعترافِ والإحترام؛ لتنمية روح التفاهم والتعايش {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ} (آل عمران64).

عرضَ القُرْآنُ ألوانًا من عدمِ إقرارِ الأَدْيَانِ بعضِها لبعضٍ عَلَى المبدأ الإنحصاريِّ، الَّذِي لا يرى الا نفسَه {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}(البقرة113). وَهُنَا يعرضُ الإِسْلَامُ نفسَهُ حَلًّا وَسَطًا لِتَسْوِيَةِ الخلافَاتِ بَيْنَ اليهودِ والْمَسِيحِيِّينَ، إِذْ يُؤَكِّدُ عَلَى العناصرِ المُشْتَرَكةِ بَيْنَ الدّيانتينِ، في وقتٍ ينقد ظاهرةَ تجريح الآخر وتهميشِه في الديانات الإبراهيمية، وينسبُ الجهلَ الى من يدَّعي له مرجعيَّة الحكم على الآخر، لأنَّها من الإختصاص الإلهي. بَيْدَ أَنَّ ظاهرةَ عدمِ قبولِ الآخرِ قَدْ تطبعُ العلاقةَ بين

(1) - قنواتي: م. ن، ص 20.

الديانـات، وأكثـرَ ما تُوَجَّهُ نحوَ الدّين الجديـد {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُـودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّـى تَتَّبِـعَ مِلَّتَهُـمْ قُلْ إِنَّ هُـدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} (البقـرة120)، وَلَكِنَّ هَـذَا لَنْ يمنعَ من الحـوارِ، لأَجْـلِ الإعترافِ أَوْ الإقْتِنَاعِ مَا زَالَتْ المرجعيَّةُ إِلَـى اللهِ وهُدَاه، وَلَنْ يُقَلِّلَ مِنْ قِيمةِ دعوى الحوارِ، الَّتِي رفعَها الإِسْلَام.

عِنْدَمَـا يشتد التّجاذب بَيْنَ اليَهُودِيَّة والإِسْـلَام، وتتصاعد الاحداث إِلَى الأحتراب، واستعـداء اليهود الوَثَنِيّين عَلَى الْمُسْلِمِينَ، ويستشري العـداء، فِي حِينَ تظل الْمَسِيحِيَّة محافظـة عَلَى مبادئ المَـوَدَّة والسّلام مَعَ الأَدْيَـان، مَعَ مَيْلٍ للمُسْلِمِيـنَ، كَمَا فِي هجرة الْمُسْلِمِيـنَ إِلَـى الحبشـة الْمَسِيحِيَّـة، ورعايتها لَهُـمْ؛ يلحـظ أَنَّ القُرْآنَ ينتهـجُ أسلوبَ الموازنـة والتّقويم بَيْنَ الدِّيَانَات على أساس سلوكي بين معتنقيها، ويفضل المَسِيحِيِّينَ على اليهود والمشركين {لَتَجِدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُـمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} (المائدة82). فـي حين أن اليهودية أكثر توافقا مع الإسلام عقديًّا من المسيحية، لاسيَّما في أصل الإيمان بوحدانيّة الله، فقد عدَّت اليهودية أنّ المسيحية تجـاوزت الإيمان الإيماني اليهوديّ بوحدانيَّة الله فـي الإعتقاد بأن عيسى ابن الله، وأن فكرة الثالوث انتهاك للوحدانيَّة[1]، كما أنّ القران استنكر الإبنويَّة والتثليث[2].

أدوات الحوار الدّينِيّ فِي القُرْآن:

الاقـرار بِمَـا عِنْـدَ الآخر عَلَى تَنَوُّعه بَـلْ الإيمان بِهِ: فِي مثـل قوله: {قُولُـواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَـا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَـى وَعِيسَى وَمَا أُوتِـيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (البقرة136).

سـرد قصص الأَنْبِيـاء السّابقين، ونقل أخبارهم ونشرها وتداولهـا، والاستدلال بِهَا

(1) - روبن فايرستون: ذرية ابراهيم، ص37.
(2) - انظر: سورة النساء 171، المائدة 116،.

عَلَى نحو إيجابي فِي تقريب النّفوس، للإرتقاء فِي الفضاء الإيماني. {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران52).

إبداءُ رأيٍّ وسطيٍّ يُيَسِّرُ عَمَلِيَّة الحوارِ، ويُوازِنُ المسألةَ المُخْتَلَفَ عَلَيْهَا، مثلًا: إنَّ الْمَسِيح ابنُ الله لَدَى الْمَسِيحِيِّينَ، وهُوَ ابنٌ غيرُ شرعي فِي المنظور اليهوديِّ، فالقرآن وجد حلًّا لبنُوَّةِ الْمَسِيح، تمثل وجهة نظر الإِسْلَام فِي معرض الحوار اليهوديِّ الْمَسِيحِيّ، استنبطه من العمق التّاريخيّ للخلق: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (آل عمران59)، لَكِنَّهُ لَمْ ينتقصْ من قيمتِه، بَلْ منحه الفرادة فِي هَذَا النّوع من الخلق باليد الإلهِيَّة، فِي كونه ثانيًا، وَلَمْ يسَجِّلْ تاريخ التّكوين ثالثًا مثله.

إعلان رأيه الأخير، مِنْ بَعْدِ أَنْ يستعرض آراء الآخرين، مستفيدا من الموازنة التّاريخيّة أَوْ المنطق العقلي، لصالح تأصيل المنهج الإبْرَاهِيمِيِّ فِي ديانة التّوحيد: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (البقرة135).

5. منهج القُرْآن فِي إِدَارَة العَلاقَات الدّينِيَّة:

إِضْطَلَعَ القُرْآنُ بالمسؤولِيَّةِ الإلهِيَّة فِي واقعِ التَّنَوُّع الدّينِيّ تاريخيّاً ومَوْضُوعياً، ولاسِيَّمَا تعَدّدية الدِّيَانَاتِ النَّبوِيّةِ وإرسالِ الرّسلِ، ورفْعِها عَنْ كاهلِ الْمُجْتَمَعاتِ، حَتَّى يخفف من وطأة أثرها وعواقبها فِيمَا بَيْنَهُمْ، فِي مثل قوله: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} (الحديد 27). ويُحيل مُقَارَبَةَ التَّنَوُّع إِلَى حَقِيْقَة عقلية وإيمانية، لأنَّ مَا تأتي بِهِ الرّؤيا المُطْلَقة يختلف - فِي الاسباب والنّتائج والأثر - عَنْ مَا يأتي بِهِ النّاس أَوْ بعضهم، أي مَا يصدر عَنْ ارادة السّماء، يمكن أَنْ يلقى قبولًا، بَلْ يستلزم أَنْ يُنظَر إِلَيْهِ بعين الطّاعة، لِأَنَّهُ ناتِجٌ عَنْ المشيئةِ الإلهِيَّة: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ} (النّساء64)، عَلَى خلاف مَا يخرج عَنْ رأي مجموعة من النّاس، فَإِنَّهُ أقرب إِلَى الرّد وتأجيج الاختلاف والتّشتت، لوجود الحَسَد والنّفاسَة وتضاد الأهواء، بَيْنَ

النّاس أوْ المجموعات فِي المُجْتَمَع الواحد.

لعلنـا نلمح إمكانيَّـة المنهج الحواريّ الَّذِي ركَّزه القُرْآن الكريـم للنبيِّ مُحَمَّد، وَهُوَ قولـه: {وَإِنَّـا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (سبأ24)، فِي مَوْضُوعيَّة الحوار، وعـدم احتوائيَّة فكرة مُعينة لأحد طرَفَيْه، حَيْثُ لَمْ يعـرض المحاورُ صوابيَّة فكره، وَلَمْ يؤكِّدْهـا، وَفِـي الوقـتِ نفسِه لَمْ يظهرْ خطـأُ الفكرِ الآخَر، بَـلْ كَانَتْ قائمـةً عَلَى معادلةٍ فِكرِيَّة، تتساوى فِيهَا احتماليَّةُ الخطإِ والصّواب، عَلَى نحوٍ يعزِّزُ من فُرَصِ إدَارَة الحوارِ، بأكْبَـر قَدْرٍ مـن المَوْضُوعيَّة العِلْمِيَّة، الَّتِـي تنشد الحَقِيْقَة من موقفٍ حيـاديٍّ، دونَمَا أيِّ تعقيدٍ أوْ تهويل[1].

فِـي محاولـة تخفيفِ حِـدَّةِ الأزمـةِ الَّتِـي أدَّتْ إلَـى كراهيَّـةٍ تاريخيَّـةٍ بَيْـنَ اليَهُودِيَّةِ والْمَسِيحِيَّـة، وَكَانَـتْ قَـدْ انبثقتْ من صَلْـبِ يَسُوعَ الْمَسِيـحِ عَلَى يدِ اليهـودِ، نلحظُ أنَّ القُـرْآنَ تَحَمَّـلَ مسؤوليـةَ إدَارَة المرحلـة، وخَـرَجَ بمُقَارَبَـة جديدةٍ، نقلـتْ الصّلْبِ من الحَقِيْقَـةِ إلَى التّشبيهِ، أي مِن الجُزْمِ اليَقِينِي إلَى الجُزْمِ الظَّنِّي: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً} (النّساء157). وثمة إشارة الـى معطيـات تاريخية، تؤكِّـد أنَّ الله ينصر رسلَه فـي الحياة الدنيا علـى أعدائهم، كما نصَّـت عَلَيْهِ آيـات القرآن، وأنَّ إنكار صلب المسيح يمنـح المسيحَ نفسَه الظفرَ والنصر في المواجهة مع قومه، وتاليًا يعطي القوة والصلابة وديمومة الانتصار للرسول محمد، ويؤكد استمراريَّة الدعم الإلهيِّ له في مجتمع التنوع الديني.

وَهُنَـا يُـؤَدِّي دَوْرَ الوسيـطِ القَوِيِّ، الَّذِي يساعـدُ عَلَى تخفيفِ الأَزْمَـةِ لَدَى الطّرفينِ المتنازعيـنِ، وينزعُ مِنْهُمَا روحَ الكراهيةِ، الَّتِي إتسعـتْ دائرتُها تاريخيًا بَيْنَ المُجْتَمَعينِ الدينيَّينِ، ويجعلُ إمكانيةِ التّقارُبِ والتّسَامُحِ بَيْنَهُمَا مُتَاحَةً. ومِنْ ثَمَّ ينظرُ طرَفَا الخُصُومَةِ

(1) – فضل الله، مُحَمَّد حسين: «فِي أسس الحوار بَيْنَ الأديان»، جريدة النّهار، لبنان، الأحد، 10 تموز 2005.

بعَيْنِ التّقديرِ إلَى مَن أسْهَمَ فِي نَزْعِ فَتِيلِ الأَزْمَةِ، ويكونَا فِي معرضِ الإجتذابِ إلَى مركزِ المساعـدةِ، دينِ الإسْلَامِ فِـي إدَارَته النّزاع، الّتِـي أرْسَتْ نَظَرِيَّةَ وَسَطِيَّـةِ الأُمَّةِ {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُـمْ أُمَّـةً وَسَطـاً لِّتَكُونُـواْ شُـهَدَاء عَلَـى النَّاسِ وَيَكُـونَ الرَّسـول عَلَيْكُمْ شَـهِيداً} (البقرة143).

يستعمـل القـرآن -أحيانًا - التّذكيـرَ بعمق الصّلات بَيْـنَ المُخْتَلفيـن، ليشعرهم أنَّ بعضَهـم امتدادٌ لبعض فـي الوعيّ الدينيّ، بإسلوب مُشْبَعٍ بالتوكيـد اللفظيّ والمعنويّ: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَم، مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُـورٌ، وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} (المائدة46). ثُـمَّ يوظِّف عنصرَ الإطراء الَّذِي يُعَدُّ مُهِمًّا فِي التّقريـب بَيْنَ الفئتين المُخْتَلفتين، {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَـى ابْنِ مَرْيَم وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً} (الحديـد27). وكَـمْ يرتقي هُنَـا بمجتمع الإنْجِيل فِـي إيمانيته المترجمـة اِجْتِمَاعِيا إلَى قيَـمٍ أخلاقيَّة تقبـل التّواصل مَعَ الآخر. وجلُ مَا تقدم يؤدي إلَـى تحَقِيْقِ الاجتذاب إلَى الطّرف الثّالثّ الّذِي قام بإدَارَة الإختلاف.

وتاليا يستخدم المجاراة عَلَى سبيل التّحضيض، وتوظيف المثال التّاريخيّ ليخلص إلَى مُقَارَبَة، تتجاوز حدود اجتذاب الآخر واستمالتّه، إلَى الوقوف مَعَهُ وإسناده {يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا كُونـوا أَنصَارَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ عِيسَـى ابْنُ مَرْيَم لِلْحَوَارِيِّيـنَ: مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّـهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنصَارُ اللَّـهِ، فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} (الصّف14).

ثُـمَّ أنَّ القُـرْآنَ يصـفُ مجتمـعَ النّبيِّ مُحَمَّـدٍ بِأَنَّـهُ: متراصٌ فِـي وقفتِه ضِـدَّ الأعداءِ {مُحَمَّد رَّسُولُ اللَّهِ وَالذّينَ مَعَهُ أَشِـدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ}، ومتماسكٌ فِيمَا بَيْنَهُ فِي العَلاقَات الإجْتِمَاعِيَّـة {رُحَمَاء بَيْنَهُـمْ}، وَفِي العلاقةِ العِبَادِيَّة مَعَ الله {تَرَاهُـمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السّجُودِ}، لَكِنَّهُ لَمْ يكتفِ بِهَذَا، بَلْ يربطه بوازع المِثليَّة فِي التّاريخ الدِّينِيّ، الواعية الايمانية فِي مجتمعي التّوراة والإِنْجِيل: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى

عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ} (الفتح29).

هُنَا يمنح مجتمع مُحَمَّدٍ قُوَّةً فِي مجتمع المشاركة التّاريخيّة مَعَ مجتمع موسى وعيسى، ويُمَتِّنُ روحَ المواءمة والمحبّة بَيْنَ فئات الدِّيَانَات الكِتَابِيّة الثّلاث. ولذا نَجِدُ أنَّ اللهَ يَعِدُ مُجْتَمَعَ المؤمنينَ في حزمة إيمانية واحدة من تأصيل التاريخ الديني في الأرومة الإبراهيمية، وما أنتجته من المعرفة الدينيَّة عبر كُتبها {وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقرآن} (التّوبة111)، ويرْسِمُ لَوْحَةَ التّوادِ والتّسامُحِ فِي التّاريخ المُستقبَلِ الَّذِي سَيَشْتَمِلُ عَلَيْهِمْ فِي مجتمعِ المشاركةِ. وبَوْصَلَةِ هَذَا التّمْتِينِ، ملاكُها: إستمدادٌ من الماضِي، وتفعيلٌ فِي الحاضِرِ، وإعْدَادُ المستقبلِ للتَعَايُشِ السّلميِّ الآمِنِ، والاحترامِ المُتبادَلِ بَيْنَ أطرافِ المعادلةِ الإجْتِمَاعِيَّةِ والدّينِيَّةِ.

مِنْ أسْمَى آياتِ الإقرارِ بالآخَرِ اليهوديِّ فالْمَسِيحيِّ، أنَّ القُرْآنَ يدعوهُم إلَى الثّباتِ عَلَى وجودِهم القيمِيِّ، فِي التّزامِهم بكتبِهم المُنْزَلَةِ مِن اللهِ {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} (المائدة68). وأنَّ القُرْآنَ يشهدُ أنَّ مَا لَدَيْهِمْ من كتابِ التّوراةِ هُوَ مصدرُ التّحكيمِ الأوَّلِ فِي تاريخِ الدِّيَانَةِ الكِتَابِيّةِ {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ} (المائدة43)، ومَرْجِعُ حُكْمِ النّبيّينَ والصّالحينَ عَلَى تَنَوُّعِهم، {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء} (المائدة44)، وفَضْلًا عَنْ كونه مُنْزَلًا مِن اللهِ فَهُوَ مُسْتَحْفَظٌ فِي صدورِ الصّالحينَ، فالقرآنُ حَفَظَ عَديدًا مِن قِيَمِ التّوراةِ الإيمانِيّةِ والتّاريخيّةِ، لتكونَ عِبْرَةً وشاهِدًا، تُسْهِمُ فِي التَّقَارُبِ النّفسيِّ الإجْتِمَاعِيِّ فِي معرضِ الإختلافِ.

فِي مُقَارَبَة تستشرف مستقبل التَّنَوُّع، وتنقل الذّهن الدّينيّ عبر المسار التّاريخيّ إلَى توسيع دوائر التَّنَوُّع الدّينيّ من خِلَالِ الاقرار النّبَوِيّ من لَدُنِ الْمَسِيح برسالة مُحَمَّد، {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} (الصّف6)، وفَضْلًا عَنْ كونها تضيف اعجازا إلَى ثبت معجزات الْمَسِيح بحَسَبِ القُرْآن، إنّها تُسْهِمُ فِي إضفاء التّقارب

الرّوحيّ بَيْنَ الدِّيَانَات النَّبوِيّة، والاستعداد النّفسيّ لتكامل الحَضَارَات الدِّينيَّة.

استعمـل القُرْآن المُشْتَرَكات، لرسم خـطٍ تنتظمُ فِيهِ الدِّيَانَـاتُ السّمَاوِيَّة، عَلَى تجاه بوصلةِ الألوهة المُرْسِلَةِ للنبيِّين، بهدف نَسْجِ فَرْشَـةِ تعارُفٍ وتقارُبٍ، كخطوةٍ إِلَى إِدَارَة التَنَوُّع، فِي اعداد وحدة شعور مُشْتَرَك فِي الأصول العِبَادِيَّة والنّشأة: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران64)[1]. ومن أهم المشتركات:

- الحاجـة الفطريَّة إِلَى الدّين {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الرّوم30)

- وحـدة التّشريـع فِـي الرّسـالات النّبَوِيّة {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا} (الشّورى13).

- الوحـي[2] لغـةُ الله فِي بـثِّ المنظومات العِبَادِيَّة إِلَـى صدور الأنبياء: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ} (النّساء163).

- الميثاق: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى

---

(1) - الطوسي: فِي من نزلت هَذِهِ الآية ثلاثة أقوال: أحدها - ذكره الحسن، والسّدي، وابن زيد، ومُحَمَّد بن جعفر بن الزبير: أَنَّهُمْ نصارى نجران. والثّاني - قَالَ قتادة، والرّبيع، وابن جريج: أَنَّهُمْ يهود المدينة، وَقَدْ روى ذَلِكَ أصحابنا. الثّالث - ذكره أَبُو علي الجبائي أنها فِي الفريقين من أهل الكتاب عَلَى ظاهر الكلام. التبيان 2/ 488

(2) - الوحي هُوَ إبلاغ الله انبياءه تعاليمه بوسائط عدّة: الكلام المباشر أَوْ شبهه، الرّؤيا المنامية، ظهور الملائكة، روح من الله تحل عَلَى العبد. أحمد عبد الوهاب: الوحي والملائكة فِي اليَهُودِيَّة والمسيحية والاسلام، (مكتبة وهبة، القاهرة، 1979م) ص45. وَهُوَ إبلاغ الحق الإلهي للبشر، وَهُوَ عمل روح الله، (الرّوح القدس) يعمل فِي أفكار أشخاص مختارين وفي قلوبهم، ويجعلهم أداة للوحي الإلهي. {ومد الرّب يده، ولمس فمي. وقال الرّب لِي: ها قَدْ جعلت كلامي فِي فمك} (ارميا 1 / 9). نخبة من اللاهوتيين: قاموس الكتاب المقدس (وحي).

ابنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً} (الأحزاب7).

- الكتـاب ووحدة التّنزيل: {نَـزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَـا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ} (آل عمران3).

نستنتج أنَّ القُرْآن سَجّل موقفا من الْمَسِيح والعقيدة الْمَسِيحِيَّة، فَقَدْ ميّز بَيْنَ الْمَسِيح والْمَسِيحِيِّـنَ؛ إِذْ نزَّهَـهُ عَنْ مَا اجتهدوا فِي رسالتـه السّمَاوِيَّة من قراءات وأفعال، تصل إِلَى إمالة محصِّلة رسالة عيسى، وتحريف كتاب الله الإِنْجِيل.

وقـد عَدَّ القُرْآنُ رسالةَ عِيسَى رِسَالَـةَ تَوْحِيدٍ، تتَدَرَّجُ فِي سِلْسلَةِ الأَنْبِياءِ بدءًا بِإِبْرَاهِيمَ الخليـلِ مرورًا بموسَـى، وانتهاءً بمُحَمَّد، الَّـذِي أتَى مكمِّلاً لهَؤلَاءِ الرّسـل، الَّذِينَ أتوا جميعًا برسالة الإِسْلَام.

مِـنْ هُنَا كَانَ القُرْآن هُوَ المِعْيَار، لمَدَى صحةٍ أوْ خطأٍ مَا يراه النَّصَارَى حول الْمَسِيح عيسـى وأمِّـه مَرْيَم، وإنَّ مَا يخالـف مَا جاء فِي القُـرْآن عَنْهُمَا لَيْسَ مـن الحقيقة بشيء. وفـوق هَـذَا، فَقَدْ عَدَّ القُرْآن أنَّ مَنْ يُصَدِّقُ رسالَةَ مُحَمَّدٍ، الَّتِي بَشَّرَ بِهَا عِيسى والإِنْجِيل، هُـمْ أتبـاع عيسى الحَقِيْقيُّون، وبذلك ينبغي أنْ يؤمنوا بالإِسْلَام؛ لأنَّهم أصدقُ من حمَل الحقيقة الدينيَّة في المنظور القرآنيّ، فهم أولى في الإيمان بالإسلام، لحجم المشتركات ومحـاور اللقـاء[1]، على الرغم مما يحمله المعنى من إحتـواء للآخر الديني. ومع ذَلِكَ فَقَـدْ وقف القُرْآن مـن الْمَسِيحِيِّينَ موقفًا مَرِنًا وإيجابيًّا، مقارنةً بموقفِهِ مِن اليهود. ولَكِنْ مَـنْ يُدَقِّـقْ فِي ردودِ القُرْآنِ عَلَى الْمَسِيحِيَّةِ، يَلْحُظْ أنَّهُ لَمْ يتَّبِعْ فِي ذَلِكَ منهجًا معينًا، وَلَمْ يُفَنِّـدْ كلَّ عقائدِها، كَمَا جاءَتْ فِي المجامع الْكَنَسِيَّة السّابِقة عَلَى الإِسْلَام. إِنَّمَا يبدو أنَّ تِلْكَ الرّدودَ كَانَتْ عَلَى مَا شاعَ عَنْ عقائدَ بَيْنَ الْمَسِيحِيِّينَ فِي الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة وأطرافها، وَهِـيَ عقائـدُ لها بعضُ الخصوصيَّة. ولأنَّ القُرْآن عَـدّ الْمَسِيحِيِّينَ أهلَ كتاب، فَقَدْ حدَّدَ التّعامُلَ مَعَهُمْ، فِي حال تمسُّكِهم بعقيدتهم، بأنْ يدفعوا الْجِزْيَة تمييزًا لَهُمْ عَنْ الوَثَنِيِّين، الَّذِينَ لَمْ يكنْ أمامَهم إلا الإِسْلَام أوْ السّيفُ.

---

(1) - انظر: غسّان سليم سالم: محاور الإلتقاء ومحاور الإفتراق بين المسيحية والإسلام، ص76 - 190.

يجدر القول بأنَّ خطابَ القُرْآن عَنْ الْمَسِيحِيَّة، تَطَوّر من الدّعوة للإِسْلَام عَنْ طريق الْـحُجَّـة والتّرغيب والتّرهيب، إلَى التّحذير والتّهديد ثُمَّ إلَى القتال، فِي نهاية المطاف، إذَا رفضوا أداء الْجِزْيَة[1].

(1) - مُحَمَّد الخزعلي: «المسيحيّة العَرَبِيّة وتطوراتها». مجلة التَّسَامُح العمانية، عدد2.

الفصل الثاني

الآخر والجهاد والفتوح في المفاهيم الإسلامية

1. الآخَر الدّينيّ فِي المفهوم الإِسْلَاميّ:

قَصَرَتْ الرُّؤْيَةُ الإِسْلَاميّةُ «الوحدةَ» عَلَى الذّاتِ الإلهِيَّةِ وحدِها، وشملتْ كُلَّ المظاهرِ المخلوقةِ بالتَّنَوُّعِ والتّعدُّدِ، وَبِحَسَبِ «جوفروا» تَنْبَعُ النّظريةُ الإِسْلَاميّةُ للتعَدّدِ من مبدأٍ منطقيٍّ، بِمَا أَنَّ اللهَ فِي الإِسْلَامِ هُوَ الواحدُ الأحدُ، فإنَّ كُلَّ مَا عداهُ - تعالى - أي خَلْقِهِ يُحْسَبُ عَلَى التّعَدّدِ[1]. وأضحَتْ التّعَدّديَّةُ فِي الخلقِ والمخلوقاتِ مِن سُنَنِ اللهِ الَّتِي لا تبديلَ لها، نحو تعَدُّدِيةِ القومياتِ والاجناسِ فِي اخْتِلَاف السّنَتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ، وتعَدّديةِ الشّعوبِ والقَبَائِلِ فِي اطارِ التّعارفِ بَيْنَ بنِي الإِنْسَانِ، وتعَدّديةِ الشّرائعِ فِي إطارِ الإيمانِ بالألوهيَّةِ الواحدةِ والعملِ الصّالح[2].

وان مشروعية الدِّيَانَات فِي الإِسْلَام تنتظم فِي التّوحيد، وإنْ تَنَوَّعَتْ فِي قِبَالِ الشِّرْكِ والوَثَنِيّة، من منظورٍ إلهيٍّ، هُوَ الَّذِي {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالذّي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} (الشّورى13). وأنَّ الَّذِينَ اختلفوا فِي مُعْتَقَاداتهم يَجْمَعَهُم خَيْطُ الإِيمَانِ والعمل فِي حِياضِ المصلحةِ العَامَّةِ، لتكونَ مُحَصِّلَتُهم باتجاهِ الجزاءِ والثّوابِ هِيَ الحُسْنَى، {إِنَّ

---

(1) - إريك Eric Geoffroy: «التعدد في الاسلام، أَوْ الوعي بالآخرية، مجلة الأديان»، ص31 - 43،(مركز الدوحة الدولي لحوار الاديان، العدد صفر، 2009).

(2) - مُحَمَّد عمارة: التعددية، الرّؤية الإسلاميّة والتحديات الغربية، (نهضة مصر للطباعة، القاهرة 1997)ص4.

الَّذِيـنَ آمَنُـواْ وَالَّذِينَ هَـادُواْ وَالنَّصَـارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَـنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة62)

فِـي الفكرِ الدّينِيّ النَّبوِيّ، وَبِخَاصَّةِ الإِسْلَامـيّ، إنَّ أوَّلَ مَن غَرَسَ بذورَ التّعَدّديةِ فِي العالـمِ، هُوَ اللهُ تعالـى، الَّذِي أرْسَلَ رُسُلًا وأنبيـاءَ مُخْتَلفين، وتَجَلَّى لِكُـلِّ واحد مِنْهُمْ بمظهـرٍ خـاصٍّ، وبعثَ كُـلَّ واحـدٍ مِنْهُمْ إلَى مجتمـعٍ خاصٍّ، ورسـمَ تفسيـرًا للحَقِيقَةِ المطلقةِ فِي ذهنِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ، يختلفُ عَنْ الآخر[1].

مـن يُمْعِـنُ فِي بِيئَةِ النّشوءِ وتاريـخِ الإِنْسَانِ وطبيعتِه، يَجِدُ أنَّ العاطفـةَ الدّينِيَّةَ حاجةٌ لازمتْ الإنسانَ - عِبْرَ مراحِلِ تَطَوّرِه - فِي تَصَوُّرِ الأُلُوهَةِ، وتَلَمُّسِ القُوَّةِ المقدسة، مِنْذُ البرهـة الأولى فِي محاكاة الطّبيعة، وتجسد إدراكـه إياها فِي الظّواهر الطّبِيعيَّةِ والإيمانِ بِهَا، مِمَّا أتاحَ لَهُ فكرةَ تعَدّديةِ الآلهةِ بِمَا يتناسبُ مَعَ حاجاتِه[2]. وصاحَبَتْهَا ظاهرةُ إرسالِ اللهُ النّبواتِ المتعَدّدةِ، لأجلِ ترسيخِ الفكرِ الدّينِيِّ، ومَدِّ خيوطِ التّواصلِ بَيْنَ الأَدْيَانِ فِي الطّقوسِ، عَلَى نَحْوٍ يؤسِّسُ لقوانينَ التّطَوّرِ الدّينِيِّ والاِجْتِمَاعِيِّ.

عُنِيَـتْ الدِّيَانَـاتُ التَّوْحِيدِيَّـةِ فِي الآخرِ الإِنْسَانِـيِّ، وجعلتْهُ قريبًا إلَـى النّفسِ، وعلى الضَّفةِ الأُخْرَى من المعاملةِ والتّقديرِ، وبالغتْ فِي حُبِّهِ إلَى مَرْتَبَةِ الأيمانِ. فمِن نصوصِ التّـراثِ الدّينِيِّ الدّالةِ عَلَـى العنايةِ بالآخرِ، ففي التّوراة: «وأحببْ قريبَك حبَّكَ لنفسِك» (سفـر الاحبـار 19/ 18)، وَفِـي الإِنْجِيـل: «كَمَـا تريـدونَ أنْ يُعامِلَكُمْ النّـاسُ فكَذَلِكَ عامِلُوهُـم» (لوقا 6/ 31؛ متـى 7/ 12)، وَفِي الحديث النَّبَـوِيّ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِـبَّ لِأَخِيهِ مَـا يُحِبُّ لِنَفْسِـهِ»[3]. وَفِي ضوء هَـذِهِ الاستشهادات الَّتِي كثيـرا مَا يرددها اليهـود والْمَسِيحيـون والمسلمـون تجاه الآخـر - بحَسَبِ آركون - مَا هِـيَ الا دعاوى استباقيـة، يحـاول أنْ يُبَرْهِنَ كُـلٌّ مِنْهُمْ أنَّ تراثَه الدّينِيَّ هُوَ مَنْ دَشَّـنَ إحترامَ الآخرِ، وأنَّهُ

---

(1) - سروش، السّراطات الدينية، ص27.

(2) - صادق محمود: «حول كتاب «من هُوَ الله؟ جواب الأديان الكبرى» بحث مقدم إلَى جامعة القديس يوسف، 2013.

(3) - البخاري: الصّحيح 1/ 12.

لَيْسَ إِلَّا نوعًا من التّبجيلِ الإسقاطيِّ العاطفيِّ، فاحترام الآخر كإِنْسَانٍ - بغض النّظر عَنْ انتماءاته الدّينيَّة أَوْ المَذْهَبِيّة شيء جديد، لا يعرف الا فِي عصر الحداثة الفِكرِيَّة والفَلْسَفِيَّة التّنويرية[1].

غيرَ أنَّ وجودَها، في التراثِ الدينيِّ الكِتَابِيِّ، دالٌ على عنايتِها بالآخَر، في تساوقٍ أخلاقيٍّ، وليْسَ ثَمَّةَ تزاحمٌ، ما زالتْ التجاربُ الدينيةُ تَتْرَى وتَتَسَلْسَلُ تاريخيًّا، وما قالَه أصحابُها كانَ من بابِ التَذَاكُرِ والتّبْيَانِ. وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ النّصَّ التّوراتِيَّ مُخْتَصٌ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ بحَسَبِ السّياقِ[2]، ومُحَصِّلَةُ المَعْنَى ظَلَّتْ مقصورةً فِي الْمَسِيحِيَّة والإِسْلاَم، فانَّ الدّينَيْنِ قاما عَلَى مبدأ التّبشير إِلَى النّاس جميعًا، وتَلَمُّسِ العَالَمِيَّة الدّينِيَّة، ومن الطّبيعي أنَّ أيَّ دينٍ لا يرَى إِلَّا نفسَه ومُقَدَّسَاتِه فِي ظلِّ ظروفٍ يُسَوِّغُها لصلاحيَّته، وَهَذَا مَا يدفعُه إِلَى الإنحصاريَّة وتقييدِ الآخرِ أَوْ إلغائِه أحيانًا.

على أنَّ الواقعَ العمليَّ، وميدانَ التّعَايُشِ الدّينيِّ، هُوَ المعيارُ الحقُّ، وَقَدْ أُتِيحَ للأَدْيَانِ التَّوْحِيدِيَّةِ، فاخفقتْ اليَهُودِيَّةُ فِي تَحَمُّلِ الْمَسِيحِيَّةِ، وجعلتْها فِي نشأَتِها الأولَى طرائقَ قِدَدًا، بدأ اضطهادُ اليهودِ للمَسِيحِيِّينَ مِنْذُ أيامِ يسوع (يوحنا 22/ 9)، ودورهم فِي صلبه (لوقا 2/ 22)، ثُمَّ يذكر سفر أعمال الرّسل (1/ 8 - 3) اضطهاد اليهود للمَسِيحِيِّينَ، ولاحقًا قام ذو نواس، الملك الحميري، اليهوديّ، بقتلِ الْمَسِيحِيِّينَ فِي نَجْرَان اليمن سنة 524م[3].

لَمْ تُحَقِّقْ الْمَسِيحِيَّةُ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ محاولاتِ قسطنطين (285 - 337م) أَوْ جوستنيان (527 - 565م) - إستيعابَ المذاهبِ المتعَدّدة عَلَى أساسِ المَشِيئَةِ، وأبعدَتْهَا إِلَى أطرافِ دولةِ بِيْزَنْطا، وعندَما أصبحتْ الْمَسِيحِيَّةُ دِينَ الإِمْبِرَاطورِيَّةِ الرّومانِيَّة فِي مطلعِ القَرْنِ الرّابعِ، أضْحَى موقفُ الدّولةِ سَيِّئًا تجَاهَ اليهودِ، فأخذتْ الْمَسِيحِيَّةُ باضطهادِ اليَهُودِيَّةِ، فطُرِدَ اليهودُ أَوَّلًا من الإسكندريَّة، وعاشوا خِلَالَ

(1) - مُحَمَّد آركون: نحو تاريخ مقارن للاديان التوحيدية، ص333.
(2) - لا تنتقم ولا تحقد عَلَىَ ابناء شعبك بَلْ تحب قريبك كنفسك. 19: 18.
(3) - الأزرقي: أخبار مكة 1/ 135، ابن قتيبة: المعارف، ص 637.

الإمْبرَاطورِيَّةِ البِيْزَنْطيَّةِ خارجَ المدنِ الكُبْرَى...[1]،

أَمَّا الإِسْلاَمُ فقدْ إِسْتَثْمَرَ التَّطَوّرَ الدّينِيَّ والإِجْتِمَاعِيَّ، فَكَانَ قبُولُ الآخرِ، والإعترافُ بـهِ وبأنبيائِـه من سُنَنِهِ، ونجحَ نجاحًا ملحوظًا - فِي حـدود عصرِه - فِي التَّعَايُشِ الدّينِيّ وإِدَارَتِـه، سـواءً فِـي المدينةِ فِي ضـوءِ النّصـوصِ القرآنيَّةِ المؤكّـدةِ عَلَى حُرِّيَّـةِ الدّينِ، ومبـادئِ وثيقـةِ الرّسولِ مُحَمَّدٍ ومعاهداتِه، وما تَبِعَهُ مـن تَعَايُشٍ فِي البلادِ المفتوحةِ فِي عَصْرِ الخِلاَفَة.

فِـي الفكرِ الإِسْلاَمِيّ، اللـهُ يريدُ للإِنْسَانِ أنْ يسيرَ فِي طريـقٍ إيمانيٍّ واحدٍ، رسمهُ لَهُ استنـاداً إِلَـى حكمتِهِ ورحمتِـه وعلمِه المحيطِ بكلِّ شـيءٍ، إِلَّا أَنَّهُ - فـي الواقع العمليِّ - تـركَ للإِنْسَانِ حُرِّيَّةَ القرارِ، فِـي الإنضمامِ إِلَى معسكرِ التّوحيـدِ والرّسالاتِ الإلهيَّةِ، أَمْ السّيـرِ فِـي ركابِ المُعْتَقَداتِ الأُخْرَى. فالتّعَدّدُ فِي هَـذَا المجالِ واقعٌ وموجودٌ، وَلَمْ يشـأ اللـهُ أنْ يتدخَّل لإلغائه؛ لِأَنَّهُ أحدُ مجـالاتِ اختبارِ الإِنْسَانِ وإرادتِـه، هَذَا الاختبار الَّذِي يشكل الهدف الأساس للخلق: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَـاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ} (المائدة48).

وإذا كَانَ اللهُ الخالقُ قَدْ شاءَ عدمَ التّدخُّلِ لإكراهِ النّاسِ عَلَى السّيرِ فِي سبيلِه الرّشيدِ والواضـحِ، فَكَيْـفَ يَحِـقُ للنـاسِ أنْ يُجْبِرَ بعضُهم بعضـاً عَلَى سلوكِ الصّـراطِ القويمِ، والإيمـانِ بالحـقِّ؟ إذًا عَلَيْهِـمْ - كَمَا عَلَـى الرّسلِ - البـلاغُ، والهدايـةُ، وإراءةُ الطّريقِ للآخريـنَ، ومساعدتِهم عَلَـى انتخابِ سليمٍ فِي الحيـاة: {فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَـدْ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (آل عمران20).

---

(1) - وفرض عَلَيْهِمْ بدءًا من القَرْن الحادي عشر التخصص بمهن معينة؛ ثُمَّ صدر عام 1492 مرسوم طردهم من إسبانيا، فِي حال عدم اعتناقهم المسيحيّة، الأمر الَّذِي كَانَ فاتحة طرد اليهود من أوروبا برمتها: فطردوا من فيينا سنة 1441، وبافاريا 1442، وبروجيا 1485، وميلانو 1489، ومن توسكانا 1494، وأخذوا يتجهون نحو بولندا وروسيا والإمبراطورية العثمانية، ورغم تحسن أوضاع اليهود مَعَ استقلال هولندا الليبرالية، وقيام الثّورة الفرنسية، إلا أن الحروب بَيْنَ بولندا وأوكرانيا دمرت نحو ثلاثمائة تجمع يهودي، وقتلت كثيرا مِنْهُمْ فِي القَرْن السّابع عشر. موسوعة ويكيبيديا (المسيحية واليَهُودِيَّة).

تُعْـزَى نقطـةُ الارتكاز للوعي بالآخـر في الإسلام الى أصلين، همـا، أولا: التكوين الإسلامـي بأنّـه دينٌ كونـيٌّ، فلا مناصَ للمسلمين مـن الإعترافِ بالديانـاتِ الموجودةِ علـى الخارطةِ. وثانيا: تأصيلُ القـرآنِ والسُنَّةِ لهذا المنحى، فبحسب «جوفروا» تكرّس النصوص المقدسة في الإسلام التنوع فيما بين الأديان في صلب الوحي نفسه؛ فالقرآن هـو الكتاب المقدس الوحيد الذي يقيم في حرفيته حتى، بل ننزع إلى القول في طبيعته نفسهـا، كونيـة الوحي، أن تكون مسلمـا؛ إذاً يعني أن تعترف بحقيقة كـل الأديان، التي أوحى بها الله قبل الإسلام[1].

وعلى صعيد القرآن، يرى البنا[2]: إن الإِسْلاَمَ يُؤْمِنُ بحُرِّيَّةِ الفكرِ والإعتقادِ، وأنَّ هَذِهِ الْحُرِّيَّـةَ هِـيَ أمُّ التَعَدّديَّة، أَوْ هِيَ البابُ الَّذِي يُؤَدِّي إلي التَعَدّديَّة، إنَّ القُرْآنَ الكريمَ يفتحُ بابَ حُرِّيَّةِ الإعتقادِ على مَصْراعَيْهِ، عندما يقرر: {فَمَنْ شَـاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَـاءَ فَلْيَكْفُرْ}، ويخلـصُ إلَى أنَّ الإيمانَ والكفرَ قضيَّةٌ شَـخْصِيَّة، لا تَهُمُّ الا صاحبَها، ولا تَمَسُ النّظامَ العام[3].

حينما يرسي الله المبدأ {لا إِكْرَاهَ فِي الدّينِ}، وعندما يقيِّد سلطةَ وصلاحية الرّسول، فَهُـوَ لَيْسَ حَفِيظًا عَلَى المؤمنين، ولا مُسَيْطِـرًا، ولا حَتَّى وكيلًا، وَلَيْسَ لَهُ سلطةُ الإكراهِ والجَبْـرِ، وإنَّمَا عَلَيْهِ – فحسب – أنْ يبلّغ رسالتّـه، ويدَعَ النّاسَ وما يختارون لأنْفُسِهِمْ؛ إِذْ أنَّ الهدايـة مرجعُها إلَى الله، وطبقًا لمشيئته، {لَيْـسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} (البقرة272).

ان التّعَدّد الثّقافِيّ – بحَسَبِ أرنست ترولتش Ernst Troeltsch – يقتضي تعَدّد وحي اللـه، وتاليًا فإنَّ مدخلَ الله إلَى النّاس متعَـدّدٌ بتعَدّد ثَقَافاتِهم، أَوْ انَّ لِكُلّ ثقافة حَضَارِيَّة خَاصَّـة دينًـا خاصًا، يرتضيه اللـه لَهُمْ. فِي نهاية المطاف، فإن الله وحـدَه قادرٌ أنْ يقارنَ

(1) – إريك جوفروا: «التعدد في الإسلام، أو الوعي بالآخرية»، مجلة أديان ص36.
(2) – جمال البنا: التعددية في مجتمع اسلامي، ص11
(3) – جمال البنا: حُرِّيَّة الفكر والاعتقاد في الاسلام،(دار الفكر الاسلامس، القاهرة) ص7.

بَيْـنَ الأَدْيَـان؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي سمح بتعَدّديتها[1]. نَـرَى أَنَّ مُقَارَبَة ترولتش قريبة من الفكر الإِسْلَاميّ، فِي انَّ تعَدّدية الأَدْيَان شـأن إلهيّ، وَهُـوَ الَّذِي بعث الأَنْبِياءَ ودياناتِهم تَتْرَى، ثُمَّ هُوَ الَّذِي لَهُ الحَقُّ فِي المقارنة بَيْنَ الدِّيَانَات، كَمَا نجده فِي آيات القُرْآن الكريم.

تـؤدِّي محصِّلَةُ القول إِلَى أنَّ التَّنَوُّعَ الدِّينِيّ ظاهِرَةٌ طَبِيعيَّـةٌ وأصيلةٌ بأصالةِ المُجْتَمَعِ نفسِـه، وإنَّ الْتِصَـاقَ الخُصُوصِيَّـةِ الثَّقافِيّة والتَّاريخيَّـة والِاجْتِمَاعِيَّة بـأي دين، يعني أنَّ التَّعَـدّدَ الدِّينِيَّ هُوَ ظاهرةٌ طَبِيعيَّـةٌ ملازِمَةٌ للطبيعةِ الإِنْسَانِيَّة نفسِها، الَّتِي اِقْتَضَى وجودُها عَلَـى الارضِ أنْ يكونَ مُتَنَوِّعًا ومتعَدّدًا ومُخْتَلفًـا ومُتفاوتًا، طالَما أنَّ التّعدُّدَ المُجْتَمَعِيَّ والثّقافِيّ هُوَ السّمَةُ الطّبيعيَّة، بَلْ والمنطقيَّةُ للوجود الإِنْسَانِيِّ[2].

ينبغـي العلـمُ أنَّ إِدَارَةَ التَّنَوُّعِ خاضِعَةٌ إِلَـى قواعدَ، لا تَقْتَصِرُ عَلَى المعرفـةِ المُتَبَادَلَةِ والتَّسَامُحِ، بَلْ تشملُ حقوقًا ونظامًا عامًا فِي هَذَا السّياقِ، إِذْ يرتقِي العدلُ عَلَى الإيمانِ؛ لِأَنَّهُ يرتبطُ بالكرامةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وكوْنِ الإِنْسَانِ قيمةً ذاتيّةً[3].

أَمَّـا جاك ريسلـر Jack Ressler[4] فيرى: أنَّ الإِسْلاَمَ كَانَ يعتـرفُ - بوفاءٍ نادرٍ جدًّا فِـي تاريخِ الأَدْيَانِ - بأنَّ الكتبَ العبرانيَّـةَ أوْ الْمَسِيحِيَّةَ كَانَتْ مُنَزَّلَةً، وَكَانَ يَتَقَبَّلُ قَصَصَ التّـوراةِ اليَهُودِيَّـةِ الْمَسِيحِيَّـةِ، ويُؤَكِّدُ بروايتِهـا صِحَّتَهَا، وكبرهانٍ عَلَـى رسالتِه الإلهِيَّة، يعترفُ النّبيُّ، ويحتجُّ حَتَّى بالتّوافقِ القائم بَيْنَ القُرْآنِ والتّوراةِ. ومرجعيةُ ذَلِكَ أنْ تؤمنَ شريعةُ الإِسْلَامِ، ويعتقدَ الْمُسْلِمونَ أنَّ الأَدْيَانَ كلَّها تستقِي من معينٍ واحدٍ: {شَرَعَ لَكُم مِّـنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...} (الشّورى13).

---

(1) - أرنست ترولتش اللاهوتي البروتستانتي: «المسيحية فِي صفاتها الكونية وتاريخ الأديان» محاضرة ألقاها العام 1902. مركز دلتا للابحاث المعمقة. http: / /khitabdelta.org /details. php?id=139&cid=480

(2) - وجيه قانصو: «التعدد الديني - واقع يحتاج إِلَى تفسير»، النّهار البيروتية، 29 - 01 - 2006.

(3) - انطوان مسرة: «اعادة الاعتبار إِلَى الحوار من خلال وجوهه الرّيادية»، وجوه حوارية (منشورات الكلية الدينية، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2013) ص155.

(4) - الحضارة العَرَبِيّة، تعريب: خليل أحمد خليل (منشورات عويدات، بيروت - باريس، 1993) ص17.

يحترمُ الإِسْلَامُ التَعَدّديَّةَ النَبَوِيّةَ، وما بزغَ عَنْهَا مِن أَدْيَانٍ مُتَنَوِّعَةٍ، مَا زَالَتْ مُحَصِّلَتُها، وكَلِمَتُهـا السَّـواءُ، وحدانيَّـةَ الإلوهـةِ. وتؤكّـد الشّريعةُ فِيـهِ عَلَـى أَنَّ الأنْبِيـاءَ أخوةٌ، لا تَفَاضُـلَ بَيْنَهُمْ مِـنْ حَيْثُ الرّسالـةِ، وأنَّ عَلَى الْمُسْلِمِيـنَ أنْ يُؤمِنُوا بِهِـمْ جميعًا إيمانَهُم بالنّبـيّ مُحَمَّد، ولا يُفَرِّقُـونَ بَيْنَهُمْ: {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَـا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيـلَ وَإِسْحَـاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَـا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَـا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِـن رَّبِّهِـمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}(البقرة136). وبصيغة أُخْرَى عَلَى سبيـل الحكايـة: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...} (البقرة285).

كفلـتْ الشّريعـة الإِسْلَاميّـة الْحُرِّيَّـة فِي إبـداءِ الـرّأي، والسّماع للـرأي المخالف، والإجتمـاع، مَعَ توفيـر أجواء المجادلة مَـعَ الدِّيَانَات الأُخْرَى، عَلَـى الأساس الفِكْرِيّ والمنطقـي فِـي مقارعـة الحجـج والبراهيـن: {أَمِ اتَّخَـذُوا مِـن دُونِـهِ آلِهَـةً قُـلْ هَاتُـوا بُرْهَانَكُمْ...} (الأنبياء24).

شَـهِدَ أتباعُ الدِّيَانَـاتِ الأُخْرَى، ولاسِيَّمَا اهـلُ الكتابِ فِي المُجْتَمَعـات الإِسْلَاميّة، عنايـةً طيِّبَةً، فإنَّهم نَعَمُوا فِي ظلِّ الإِسْلَام بالرّخـاءِ، والأمنِ والسّلامةِ، فَقَدْ رسمَ القُرْآنُ وأحاديثُ الرّسولِ خَارِطَةَ الطّريقِ للمُسْلِمِينَ فِي معاملتِهم بالحُسْنَى، وأنْ يكونوا مَعَهُمْ بـرَرَة وعُـدُولا: {لَا يَنْهَاكُـمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِيـنَ لَمْ يُقَاتِلُوكُـمْ فِي الدّينِ وَلَـمْ يُخرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة 8).

يُبِيحُ الإِسْلَامُ للمُسْلِمِينَ أنْ يؤاكلوا غيرَ الْمُسْلِمِينَ من أهل الكتابِ، وأن يصاهروهم {وَطَعَـامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُـمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَـاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ} (المائدة 5). ولَا شَـكَّ أنَّ المصاهرةَ تَخلُـقُ امتزاجًـا بَيْنَ هَؤلَاءِ وأولئكَ، فأخوالُ الأولادِ سيصبحـونَ مِن أهلِ الكتابِ، وأنّهُ يَسْتَصْحِبُ من أخوالِه الخصالَ والخلائقَ، ففي قول امرئ القيس[1]: [الطّويل]

---

(1) – ديوان امرئ القيس، تحقيق: عبد الرّحمن المصطاوي (ط2، دار المعرفة – بيروت، 2004) ص 100.

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلاً وَمِن خالِهِ وَمِن يَزِيدَ وَمِن حُجُرْ

سَمَاحَةَ ذَا وَبِرَّ ذَا وَوَفاءَ ذَا وَنَائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَاذا سَكِرْ

فِي المفهوم الِاجْتِمَاعِيّ الْعَرَبِيّ، أنَّ الخالَ بمثابةِ الوالدِّ، أَوْ قرينُه، يفخَرُ بِهِ، ويطلُبُ ثأرَه، ويحذو حذوَه فِي المكارم، كَمَا فِي قول النّمر بن تولب[1]: [الطّويل]

وإنّ ابنَ أختِ القومِ مُصْغَى إناؤُه إِذَا لَمْ يُزاحِمْ خالَه بأبٍ جَلْدِ

ومـن الواضـح أنَّ فِي هَـذَا رباطًا كبيرًا فِـي سُنَنِ الْعَرَب، أباحَـهُ اللهُ بَيْـنَ الْمُسْلِمِينَ وغيرِهم، مِمَّا يدُلُّ عَلَى أنَّ الإِسْلَام دينُ الإِنْسَانِيَّة[2].

ومـن تَسَامُـح الإِسْلَام مَعَ أهـل الكتاب: أَنَّـهُ أَبَاحَ لَهُمْ مَـا أباحَتْهُ لَهُـمْ أَدْيَانهم، وإِنْ حَرَّمَهَـا الإِسْـلَام عَلَـى الْمُسْلِمِينَ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مـن حَرَجٍ عَلَى أهـلِ الكتاب أن يشربوا الخمـرَ، أَوْ يأكلـوا لحمَ الخِنْزِيـر[3]. وَقَدْ يدخلُ الابـنُ الإِسْلاَم، ويظـلُّ الأبُ عَلَى غيرِ ديـنٍ، وَهُنَا يدعو الإِسْلَام الابـنَ أنْ يظلَّ طيِّبَ الصُّحْبَةِ مَعَ أبِيـه عَلَى اختلافِ الدّين[4]، {وَإِن جَاهَـدَاكَ عَلَـى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَـلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدّنْيَا مَعْرُوفاً} (لقمان15).

أمَـلَ الْمُسْلِمـون أنْ يساعدَ اليهودُ الإِسْـلَامَ عَلَى الوَثَنِيَّةِ، وأنْ يقِفُـوا مِنْهُ مَوْقِفَ الوُدِّ أَوْ الحِيَـادِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُـمْ أصحابُ كتبٍ منزلةٍ ودينِ توحيد، والإِسْـلَام قريبٌ مِنْهُمْ، وَقَدْ اعتـرَفَ بالأديـانِ السّابقة لَهُ، ونَزَّهَ الأنْبِيـاءَ والمرسلين، وَهُوَ دينُ توحيـدٍ كَذَلِكَ. ثُمَّ إنَّ الرّسـولَ تَـوَدَّدَ إِلَيْهِـمْ حِينَ دخولِـه يَثْرِب، وآمَنَهُـمْ عَلَى أمْوَالَهُـم وأَنْفُسَهُـمْ، وَزَارَهُمْ، وطَمْأَنَهُمْ، ثُمَّ تعاهد مَعَهُمْ فِي صحائف كتبت لَهُمْ، فِيهَا العهد بالوفاء لِمَا اشـترط لَهُمْ، مَـا داموا موفين بالوعد وبالعهـد، وَقَدْ طلب إِلَى جميع الْمُسْلِمِيـنَ الوفاء بِمَا جاء فِيهَا، ومنعـوا من التّجاوز والتّطـاول عَلَى من فِي يَثْرِب من يهـود[5]، وجعل لليهود نصيباً فِي

---

(1) – ابن قتيبة: عيون الأخبار 3/ 89، المبرد: الكامل 1/ 346

(2) – أحمد الشّلبي: مقارنة الأديان 1/ 168.

(3) – عَنْ ابي حنيفة. الطوسي: الخلاف، 3/ 185؛ النّووي: المجموع 9/ 238.

(4) – أحمد الشّلبي: م.س. 1/ 169

(5) – ابن هشام: السّيرة 3/ 197

المغنم إِذَا قاتلوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا شرط عَلَيْهِمْ النّفقة مَعَهُمْ فِي الحروب[1].

لَمْ تَكُنْ عَلاقَاتُ اليَهودِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئَةً فِي الأيامِ الأولى مِنْ مَجِيءِ الرّسولِ إِلَى يَثْرِب. رأتْ جمهرةُ يَهُود أنَّ الإِسْلَام دين اعترف بالأنبياء، وأنّهُ دِينُ توْحِيدٍ وأنّهُ فِي جُمْلَةِ أحْكَامِهِ قَرِيبٌ مِنْ أَحْكَام دِيَانَتِهِمْ وقَوَاعِدِهِمْ، وأنّهُ يُنَاهِضُ الأَوْثَانَ، وَقَدْ أشَادَ بفضلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وبتَفَوُّقِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، بِظُهُورِ الأنْبِيَاءِ مِنْ بَيْنِهِمْ، ثُمَّ إنَّ قبْلَتَهُ إِلَى القُدُسِ، وَقَدْ تَسَامَحَ مَعَهُمْ، فأباحَ للمُسْلِمِينَ طَعَامَ أهْلِ الكِتَابِ[2].

وَهُوَ دِينٌ إعْتَرَفَ بأُبُوَّةِ إِبْرَاهِيمَ للعَرَبِ وللدياناتِ الكِتَابِيّةِ، وجَعَلَ سنّتَهُ شِرْعَةً للمُسْلِمِينَ. وَقَدْ تَسَامَحَ مَعَ اليهود، وحفظَ ذِمَمِهِمْ، فَلَمْ ترَ فِي انتشارِهِ بَيْنَ أهلِ يَثْرِبَ مَا يُضِيرُهم شيئاً، أَوْ يُلْحِقُ بِهِمْ أذًى؛ ولذلك أظْهَرَتْ استعدادَها لعَقْدِ حِلْفٍ سِياسيٍ مَعَهُ، ووقوفَها موقف ودٍّ مِنْهُ، أَوْ موقفَ حيادٍ عَلَى الأقلّ، عَلَى أَنْ لا يطلِبُ مِنْهَا تَغْيير دينِها وتبديلِه، والدّخول فِي الإِسْلَام.

وَلَمَّا دخل أهل يَثْرِب فِي الإِسْلَام أفواجاً، وتوجه الْمُسْلِمون إِلَى اليهود يدعونهم إِلَى الدّخول فِيهِ، والى مشاركتهم لَهُمْ فِي عقيدتهم، باعتبار أَنَّهُمْ أهل دين، يَقُولُ بالوحي ويؤمن بالتّوراة، وبرسالة الرّسل؛ فهم لذلك أولى بقبول هَذِهِ الدّعوة من الوَثَنِيّين، أدركت جمهرتهم ان الإِسْلَام إِذَا مَا استمر - عَلَى هَذَا المنوال - فِي المدينة من التّوسع والانتشار، ومن توجيه دعوته إِلَى اليهود - أيْضًا، فسيقضي عَلَى عقيدتهم الَّتِي ورثوها. وَهِيَ عقيدة لا تعترف بقيام نبيّ من غير بني إِسْرَائِيلَ، ولا بكتب غير التّوراة والكتب الَّتِي دوّنها علماؤهم، ثُمَّ هُمْ يَرَوْنَ: أنَّ النّبُوَةَ قَدْ خُتِمَتْ، وَلَنْ يكونَ الْمَسِيحُ إلا مِنْهُمْ؛ فَكَيْفَ يعتقدونَ بِنَبِيٍّ عَرَبِيٍّ؟ وَهُوَ مِن الأمِيينَ.

وَهَكَذَا رفضَ اليهودُ الدّخولَ فِي الإِسْلَامِ، وأبَوْا تَغْيِيرَ دينِهم، ودافعُوا عَنْ عقيدتِهم وتمسّكوا بِهَا، ورَفَضُوا التّسليمَ بِمَا جاءَ فِي الرّسالةِ الجديدةِ، مِنْ أَنَّ مُحَمَّدًا نبِيٌّ أُرْسِلَ للعالمينَ كافّةً، وأنّه خاتِمُ الأنبياءِ والمُرسَلِينَ، وأنَّ القُرْآنَ كتابٌ مصدّقٌ مِنْ اللهِ، وأنَّ

(1) - السّهيلي: الرّوض الآنف 2/ 16

(2) - المائدة، آية 48.

أحكامَـه مؤيِّـدَةٌ لِمَا جاءَ فِي التّـوراة، وناسِخَةٌ لبَعضِهـا. وَقَدْ جادلوا فِـي ذَلِكَ، وانبرى أحبارُهـم للدفـاعِ عَنْ عقيدتِهم، ولمجادلةِ مَنْ يأتِي إلَيْهِمْ مِـنْ الْمُسْلِمِينَ، لإقناعِهم فِي الدّخـولِ فِي الإسْلَام. وَفِـي القُرْآنِ صُوَرٌ مِنْ جَدَلِهم هَذَا، ومِـن محاجَّتِهم الرّسولَ فِي دعوتِه[1]، كَمَا نجدُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الحديثِ النَّبوِيّ، وَفِي كُتُبِ السِّيَرِ[2].

وَبِحَسَـبِ جـون هيـك (John Hick) ان التّعَدّديـة فِـي الإِسْـلَام نابعة عَـنْ «اعتقاد راسـخ بـأنَّ مُحَمَّداً هُـوَ خاتم الأنبياء، وانّ اللـه كشف فِي القُرْآن انّ الإِسْـلَام هُوَ الدّين الأكمل والأصحّ، وَهُـوَ المتمم لجميع الدِّيَانَات السّمَاوِيَّة السّابقة، ولهذا، فإنّ الْمُسْلِم يتعامـل تعاملًا ودّياً مَـعَ أولَئِكَ المُعْتَقِدِيـنَ بالإعتقاداتِ الإِبْرَاهِيمِيَّـة، بَلْ وتتسع نظرته أحيانًـا لتستوعبَ كلَّ أهـل الكتاب، حَتَّى أُولَئِـكَ الَّذِينَ يواجهـون المقدس من أنصار الهندوسيَّةِ والكونفوشيوسيَّةِ والطّاويَّةِ، وَكَذَلِكَ الكتب المقدسة لليهود والْمَسِيحِيِّينَ، أي أَنَّهُ يختزن احساساً متدفقاً للوحدة الفريدة، ومن خِلَالِ الوحي القرآني نفسه»[3].

إذًا إنَّ الإِسْـلَام لَيْـسَ ديانـة مفصولـة، أوقعت قطيعة مَـعَ باقي الأَدْيَان، بَـلْ هُوَ دين النّبـوّات الَّتِـي استكملـت حركتها، مِنْذُ بـدء تاريـخ البَشَرِيّة ببعثة نبـي الرّحمة والهدى والعلـم والتّزكية رسول الله مُحَمَّد، وإنَّه دين يؤمـن بالأنبياء، ولا يفرّق بَيْنَ أحدٍ مِنْهُمْ، وإنْ كَانَ يحدد أفضل الأنبياء من أولي العزم، وَهُمْ: نوح، الَّذِي عدّ التّأسيس الثّاني بعد آدم لتاريخ المخلوقات الحيّة. وإِبْرَاهِيم مِفصَل حركة النّبوّات، أَوْ بدقة أكثر الرّسالات العَالَمِيَّـة الكُبْرَى الجامعة، والتي ختمت برسالـة النّبيّ مُحَمَّـد... وموسى قائد رسالة المستضعفين، وحامي قواعدهم فِي وجه عُتاة الأرض من الفراعنة المتألّهين. وعيسى، كلمة الله، وقول الحقّ، النّاشر لألوية المحبّة، والتّوق للقاء الله سبحانه. وآخرهم النّبيّ مُحَمَّـد، الَّـذِي جمع غايات الأنبياء، فَكَانَ المطمح فِيهَا، ليكون المسُّ بأيّ نبيّ هُوَ مسٌّ بمُحَمَّد، كَمَا أَنَّ المسَّ بمُحَمَّدٍ هُوَ مسٌّ بكلِّ نبيٍّ ورسول.

---

(1) – انظر: سورة آل عمران، 183؛ سورة النّساء، 153

(2) – المُفَصَّل فِي تاريخ العرب 6/ 544.

(3) – مختار الاسدي: «التعددية الدينية رؤية اسلامية»، الموسوعة الإسلامية، 22/ 12/ 2012، http: / /www.balagh.com /mosoa /pages /tex.php?tid=1067

لَعَلَّ هَذَا الفَهْـمَ الإيمانيَّ يسمحُ ببناءِ جبهةِ إيمانٍ كُبْـرَى، تهدفُ لإقامة الصّلاح فِي مكامِـنَ وأُطُرِ الحيـاة، فِي انتظاماتِ البشـرِ، وقيمِهم الأخلاقيَّةِ والرُّوحِيَّـةِ والمجتمعيَّةِ العَامَّة، ولَا شَـكَّ أَنَّها هِيَ المساحةُ المفتوحةُ لِكُلِّ حوارٍ دِينِيٍّ، يُدْعَى إِلَيْهِ أهلُ الإِسْلَام والْمَسِيحِيَّـة[1]. وحَـوْلَ هَذَا مَا وَرَدَ فِـي قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِيـنَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِيـنَ مَـنْ آمَـنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِـرِ وَعَمِلَ صَالِحـاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ، وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة62).

2. الجهاد في الفكر الإسلامي:

الجِهَـادُ نهـجٌ إسلاميّ، جاءَ القـرآنُ الكريمُ على ذكرِه. أبصر هـذا المفهوم النور في المدينـة، إبّان غزواتِ النبي محمد الأولى ضدَّ المكيِّين[2]، وعلى مرِّ السنينَ والعصورِ. تعـدَّدتْ التفسيـراتُ حولَه بيـنَ صفوفِ المسلميـنَ أنفسِهم، بعـضٌ منهم يَعِـدُّ الجِهَادَ دعامـةَ الإسلامِ السادسةَ، في باب الوجوب. وإستنادًا إلى القرآنِ الكريمِ، يُؤَمِّن الجِهَادُ مكافـآتٍ عديدةً، مـن بينِها الجنَّةُ، والجِهَـادُ أفضلُ ما قدْ يُقَدِّمُهُ المسلـمُ طَوْعًا. وبعضٌ آخـرُ يرفَعُ الجِهَادَ عنْ الواجباتِ المفروضـةِ كالصلاةِ والصومِ والزكاةِ والحجِ، ويضعُهُ فـي مَنْزِلَةٍ أَسْمَى[3]. وبعض ثالث ينظر الى الجهـاد في باب الاختيار والاستحباب. من هنا، ينبغي تبيان موضوعة الجِهَاد من خلال العقيدة الإسلامية.

ماهيَّة الجِهَاد:

يُشْتَقُ لفظ «الجهادُ» من الجذرِ (ج هـ د)، تَكَرَّرَ لَفْظُ «الجُهْد» و«الجَهْد» فِي الْحَدِيثِ النبويِّ كَثِيرًا، وَهُوَ - بِالضَّمِّ: الوُسْعُ والطَّاقةُ، وبالفَتْحِ: المَشَقَّةُ. وَقِيلَ: المُبَالَغةُ والْغَايَةُ. وَقِيلَ: هُمَا لُغتَان فِي الوُسْع والطَّاقَة[4]. والجهادُ - في اللُّغةِ - له معانٍ عِدَّةٌ: الْجَهَادُ: هِيَ

(1) - شفيق جرادي: «الحوار الإسلاميّ المسيحيّ: التحديات والفرص»، موقع ابونا، يصدر عَنْ المركز الكاثوليكي للدراسات والاعلام. 12/ 06/ 2012

(2) - ج. ود. سورديل: معجم الإسلام التاريخي، ترجمة: أ. الحكيم (الدار اللبنانية للنشر الجامعي، بيروت،2009) (الجهاد).

(3) - ن.س.ر.ك. رافي: «الجِهَاد في الفكر الإسلامي وتطوير رد مسيحي»، موقع ديانات العالم، http: / /ar.4truth.net /fourtrutharpbworld.aspx?pageid=8589981041

(4) - ابن الأثير:النهاية في غريب الحديث والأثر 1/ 319.

الْأَرْضِ الصُّلْبَةُ. وَفُلَانٌ يَجْهَدُ الطَّعَامَ، إِذَا حَمَلَ عَلَيْهِ بِالْأَكْلِ الْكَثِيرِ الشَّدِيدِ[1]. والجَهَادُ: الأَرْضُ المستويةُ، وَقِيلَ: الغليظةُ، ويُوصَفُ بِهِ، فَيُقَال: أَرضُ جِهَاد[2].

الجِهَـاد – فـي المصطلح: مُحارَبـةُ الكُفَّارِ، وَهُـوَ المُبَالَغةُ، واسْتِفْراغُ مَـا فِي الوُسْعِ والطَّاقـة مِـنْ قَـوْلٍ أَوْ فعْلٍ. يُقَالُ: جَهَـدَ الرجُل فِي الشَّـيء: أيْ جَدَّ فِيـهِ وبالَغ، وجَاهَد فِي الحَـرْب مُجَاهَدَة وجِهَادا[3]. وأُطْلِقَ عليه: «الجهـادُ السائغُ» لكونِه للدفاعِ عن بيضةِ الإسـلام[4]. أو هـو «الحـرب الشرعية» بقـدر تعلقها بالمجهـود الحربي الـذي تأمر به الشريعة ضد الكافرين[5].

مِـن المسلميـنَ مَنْ عرَّف» الْجهَـادَ بِأَنَّهُ: جِهَادُ النَّفـسِ فِي ذَاتِ اللـهِ»[6]. وعُدَّ جهادُ النفـسِ أفضَـلَ الجهادِ، ففي الروايةِ عـن الرسولِ: «أفضلُ الجهادِ مَـن جاهدَ نفسَه التي بيـنَ جَنْبَيْـهِ»[7]. وأُطلِـقَ عليْـهِ: «الجهادُ الأكبـرُ»، لأنَّه كَبْـحُ جماحِ النفـسِ وضبطُها[8]. وعليـهِ قدَّمـوا الجهادَ النفسيَّ على الجهـادِ الحربيِّ، بقولِهم: «الجهـادُ الأصغرُ محاربةُ المشركيـنَ، والجهادُ الأكبرُ جهـادُ النفسِ»[9]. إستنادًا الى رواية: «أن النبيَّ بعثَ بسريَّةٍ، فلما رجعوا، قال: مرحبا بقوم قضوا الجهادَ الأصغرَ، وبقيَ عليهم الجهادُ الأكبرُ. قيل: يا رسولَ الله، وما الجهادُ الأكبرُ؟ قال: جهادُ النفسِ»[10].

لعـل فكرةَ جهادِ النفس، في الفكـر الإسلامي، وبخاصَّةٍ لدى الصوفيَّة، مستمدَّةٌ من الرهبانيَّـة في المسيحيَّة، غيرَ أنَّها أضحتْ أكثـرَ تطوّرا، من الاندماج في الذات الإلهيَّة،

---

(1) – أحمد بن فارس (ت395هـ): مقاييس اللغة 1/ 487.
(2) – ابن سيدة (ت458هـ): المحكم والمحيط الأعظم 4/ 154؛ ابن منظور (ت711هـ): لسان العرب 3/ 134.
(3) – ابن الأثير: م. س. 1/ 319.
(4) – أحمد فتح الله: معجم ألفاظ الفقه الجعفري، ص145.
(5) – ج. ود. سورديل: معجم الإسلام التاريخي، (الجهاد).
(6) – ابن قيم الجوزية (ت751هـ): الروح، (دار الكتب العلمية، بيروت) ص 247.
(7) – الصدوق (ت381هـ): الامالي، ص 553؛ النوري، حسين: مستدرك الوسائل 11/ 127.
(8) 2 – أحمد فتح الله: معجم ألفاظ الفقه الجعفري، ص145.
(9) – ابن ابي الحديد (ت656هـ): شرح نهج البلاغة 10/ 54.
(10) – الكليني: الكافي، وجوه الجهاد، 5/ 12؛ الحر العاملي: وسائل الشيعة 15/ 161.

الـى الجود بالنفـس في سبيل اللـه. بدلالة ما ورد فـي الحديث: «عليكـم بالجهاد فإنّه رهبانيَّـة أمّتـي»؛ يريد أنَّ الرهبان، وإن تركوا الدنيا وزهدوا فيها، وتخلّوا عنها، فلا تركَ، ولا زهـدَ، ولا تخلّـيَ، أكثـرُ من بذلِ النفس في سبيـل الله. كما أنّه ليـسَ عندَ النصارَى عملٌ أفضلُ من الترهُّبِ، ففي الإسلام، لا عَمَلَ أفضلُ من الجهادِ، بدالة قول الرسول: «ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[1]، لاَ يَنَالُهُ إِلاَّ أَفْضَلُهُمْ[2].

فـرَّقَ أبو هلالٍ[3] بينَ الغَزْوِ والجِهَـادِ: أنَّ الغزوَ ما كانَ الغرضُ الأصْلِيُّ فيه الغنيمةُ، وتحصيـلُ المـالِ؛ وإنْ استلـزَمَ ذلكَ الحربَ والمقاتلـةَ. والجهادُ: ما كـان الغرض فيه المحاربةُ لقهرِ العدوِّ؛ وإنْ استلزمَ ذلك تحصيلَ الغنائمِ والفوائدِ.

وردتْ في القرآن صيغةُ «جاهد» في «28 آية»[4]، وبلفظ «جهاد» في «4 مرات»[5]، تدل على معانٍ مُتَنَوِّعَةٍ، يحومُ أغلبُها حولَ حوادثَ العهدِ المدنيِّ، وبناءِ الدولةِ الدينيَّةِ للرسولِ. يَتَّخِـذُ الجِهَادُ في النصوصِ الدينيَّةِ، القرآنِ والحديثِ، بحسب «سيريل جلاس»[6]، معنًى الصـراعِ ضِـدَّ النزعـاتِ الشريرةِ، أو النضالِ مـن أجلِ تمكينِ الأخلاقِ فـي المجتمعِ، أو تعزيـزِ نشـرِ الإسلامِ. غيـرَ أنّ الجِهَادَ يَتَّخِذُ المعنَـى الحربيَّ، أكثرَ مـن المعنَى الشموليِّ، المقصـودِ به في القـرآنِ والحديث. كما وردَ في القرآنِ أنَّ المؤمنيـنَ الذين يشاركونَ في الجِهَـادِ لهـم حظوةٌ وأجرٌ عنـد الله: {فَلْيُقَاتِـلْ فِي سَبِيلِ اللّـهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَـاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} (النساء 74)، {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (العنكبوت69).

---

(1) – أحمد بن حنبل (ت241هـ): المسند، 36/ 375؛ ابن منظور (ت711هـ): لسان العرب 1/ 438.
(2) – ابن أبي عاصم (ت287هـ): الجهاد 1/ 153.
(3) – العسكري (ت395هـ): معجم الفروق اللغوية، ص 384.
(4) – البقرة218، آل عمران142، النساء95، المائدة35، 54، الأنفال72، 74، 75، التوبة16، 19، 20، 41، 44، 73، 81، 86، 88، النحل110، الحج78، الفرقان52، العنكبوت6، 8، 69، لقمان15، محمد31، الحجرات15، الصف11، التحريم9.
(5) – التوبة24، الحج78، الفرقان52، الممتحنة1.
(6) – Cyril Glasse، The Concise Encyclopedia of Islam، (San Francisco: Harper and Row، 1989)، pp. 209 – 10 الموسوعة المختصرة للإسلام.

هل الجِهَاد فريضة؟

فـي أكثرِ مـن آيةٍ، خاطبَ القـرآنُ النبيَّ محمَّدًا بأسلـوبِ الأمرِ في الجهـادِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (التوبة73، التحريـم9)، دَلَالَـةً في جعلـهِ نظامًا عباديًا في الإسـلام. وفيه قال الرسـول: «أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ الناسَ حتَّى يقولوا: لا إلهَ إلَّا الله»[1].

فالجِهَـاد فريضـة من فرائـض الإسلام، وركن مـن أركانه[2]، أي واجـبٌ[3] على كل مسلـم، بدلالـة الآية: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} (البقـرة 216)؛ هـل هـو واجبٌ مطلـق أم مقيَّدٌ بشـرط؟ قال أغلبُ علماءِ المسلمينَ بكونِهِ واجبًا كِفَائِيًّا[4]، وقال بعضُهم: أنَّه مِن فروضِ الأعْيَانِ[5]. وقال آخرون «إلَّا أنْ يكـونَ النفيرُ عامًّا، يكـونُ واجبًا عَيْنِيًّا[6]، بدلالة {انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} (التوبة41). بيد أنَّ بعـضَ التابعين نحو: عطاء بن أبي رباح (ت114ه/ 722م)، عبد الله بن شـبرمة (ت144هـ/ 761م)، وسفيان الثوري (ت161هــ/ 778م)، خالفَ إجماع المسلمين، ونظر الى الجهاد على أنَّه أمرٌ اختياريٌّ ومستحـبٌّ، ويقتصـر وجوبُه على الضرورة لصدِّ هجوم الأعداء، بدلالـة {فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} (البقرة191)[7].

---

(1) - زكريا الأنصاري: فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1998) 2/ 296.

(2) - الطوسي: النهاية في مجرد الفقه والفتاوى (انتشارات قدس محمدي، قم، إيران، لا. ت) ص288.

(3) - قاله المسلمون عدا ابْن شبرْمَة قَالَ: الْجِهَاد لَيْسَ بِوَاجِب والقائمون بِهِ من الْمُسلمين أنصار الله». الطحاوي، أحمد بن محمد (ت321هـ): مختصر اختلاف العلماء (دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1417هـ) 3/ 509.

(4) - فرض على الكفاية إذا قام من في قيامه كفاية سقط عن الباقين. الطوسي (ت460هـ): الإقتصاد، (مطبعة الخيام، قم، 1400هـ) ص312؛ وقارن: ابن قدامة: المغني 10/ 364؛ زكريا الأنصاري: م. س. 2/ 296.

(5) - عن سعيد بن المسيب. حسين العوايشة: الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة، (المكتبة الإسلامية، عمان 1423هـ) 7/ 9.

(6) - المرغيناني (ت593هـ): الهداية في شرح بداية المبتدي (دار احياء التراث العربي، بيروت) 2/ 378.

(7) - وهبة الزحيلي: آثار الحرب في الإسلام، ص87؛ عباسعلي الزنجاني: القانون الدولي في الإسلام،

ثمَّـة نظرية لبعـض المستشرقيـن[1] وعلمـاء القانون، تفصـح عن أنَّ الجهـاد يحدِّد العلاقة الأصليَّة لدار الإسلام بالعالم الخارجي، إذ أنَّ الإسلام لمَّا عجزَ عن كبح الجبِلَّة المتمثِّلة بحبِّ القتال لدى العرب، فإنَّه اختَدَمَ هذه الوسيلة لقمع غير المسلمين، بهدف بسـط سيطرتـه وتوسيع رقعته في أنحـاء المعمورة؛ وهذا يتحقق فـي ظروف لا يجدي الجهاد معها نفعًا[2].

ومـن المسلميـن من يـرى أنَّ الجهـادَ وسيلةٌ لا هَـدَفٌ، لأنَّ الهدفَ مـن الجهاد هو الهداية، ولو كانت الهدايةُ ممكنةً بغير الجهاد، فإنَّ هذا الأسلوب مقدمٌ على الجهاد[3]. لعـل مـا يشوب هذه المقاربـة، أنَّ الهدفَ المتمثل بالهداية يتضمـن لونًا من الإكراه لما يحملـه من عنف، والإكراه ليس وسيلةً للهداية من منظـار الإسلام {أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} (يونس99).

بيـد أنَّ الغايـةَ الأساسَ من الجِهَادِ هـيَ الدفاع وحماية الحـقِّ أو الحقيقة، فالحرب المشروعـة فـي الإسـلامِ هيَ الحـربُ الدفاعيَّـةُ، والدفاعُ هنـا ينطوي علـى الدفاعِ عن النفـسِ، والإغاثةِ الواجبـةِ لشعبٍ مسلمٍ، أو حليفٍ عاجزٍ عـن الدفاعِ عن نفسِه، ويلجأ إليهـا الإسلامُ لجوءَ المُضْطَرِ، فلئنْ ينتهـي الى صلحٍ يحقنُ الدماءَ خيرٌ من إنتصارٍ باهرٍ يُزْهِقُ الأرواحَ، وتُسْفَكُ في مجازرِه الدماءُ[4].

مـن البدهـي إنَّ كلَّ دينٍ أو معتقدٍ يـرى معتنقُوه أنَّه يحوزُ كمالَـه الخاصَّ، وبحسب «دوسلييـه»[5]: تمثَّـل كمـال الدين الإسلامـي في نظر أتباعـه بالجهـاد، بالمعنى الأكثر عمقًـا للمصطلح، الـذي يتضمَّن قيادةَ النفـس، والآخرين جميعِهم، الـى إكتمالٍ دينيٍّ وأخلاقيٍّ، ليس سوى إتمامٍ لجميع الرسالات السابقة، التي لا ينكرها الدين الإسلاميُّ

ص338.

(1) – جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص 39.

(2) – عباسعلي الزنجاني: م. س، ص338.

(3) – الزنجاني: م. ن، ص338.

(4) – عبد الحافظ عبد ربه: فلسفة الجهاد في الإسلام (دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972) ص45.

(5) – ألان: مسيحيو الشرق والإسلام في القرن الوسيط، ص693.

البتَّـة، بلْ يدَّعِي أنَّـه يتخطَّاها، أو يأخذ بالأحرى بيدها، لإيصالهـا الى قمَّة نُضجها، أي إليـه. إنَّ اعتناقَ الإسلام – بالنسبة للمسلم – هـو تقاربٌ، ينبغي أنْ يوصِلَ جميع «أهل الكتاب» في نهاية المطاف الى الإتِّحاد معه في الحقيقة التي سوف يتشاركونها جميعًا، بفضل ما تبذله الأمَّة الإسلاميَّة من جهدٍ لا ينقطع لهدايتهم إليها.

بيدَ أنَّ الجهادَ لا يهدفُ الى فرضِ العقيدةِ على الناسِ، بلْ يهدفُ الى إزالةِ معوقاتِ انتشـارِ الإسـلامِ فـي الأرضِ، سواءٌ بإضعـافِ القـوى السياسيَّةِ المعاصـرةِ، أو القضاءِ عليهـا، بحيثُ يتمُّ استعـلاءُ المسلمينَ في الأرضِ[1]. أي أنّ الجِهَـادَ هو نَهْجٌ للردِّ على كـلِّ مَن حـاولَ رفعَ العقباتِ للحـدِّ من إنتشارِ الإسـلامِ. والقرآنُ يدعمُ هـذا الموقفَ: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} (فصلت53).

يُنَمِّـي الجهـادُ الواعـزَ الدينيَّ، والـوازعَ الروحيَّ، وتقـعُ – من خلالِـه – على عاتقِ المسلميـنَ مسؤوليتـانِ. الأولـى: هـيَ هدايـةُ الجاهليِّينَ إلـى الإسلامِ طريـقَ الطاعةِ، وبالسُّبُـلِ كافَّـةً. والثانيةُ: يقضِي بوضعِ اللهِ في منزلةٍ أسْمَـى مِن الذينَ نُحِبُهُم، والثروةِ، والطموحـاتِ الدنيويَّةِ، وتكريسِ النفسِ للهِ بالوسائـلِ والطرقِ كافَّةً – بما فيها الصراعُ الروحيُّ الداخليُّ[2].

فالجِهَـادُ هو التزامٌ على صعيدِ الفردِ والمجتمعِ، لنشرِ الإسلامِ والدفاعِ عن الإيمانِ بـهِ. وأنَّ ملَّةَ التوحيدِ الإسلاميَّةِ هي الملَّةُ التي تَتَمَاهى دينيًا، وتلتزمُ في مسؤوليتِها تجاهَ الأنسانيَّـةِ، هُنـا تَرِدُ الآيةُ: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّـهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُـمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِـي الدِّيـنِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيـمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْـلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ} (الحج78).

ما أنواعُ الجهادِ؟

الجِهَـادُ – لـدَى المسلميـنَ – حملـةٌ مقدسةٌ لإطلاقِ ثـورةٍ روحيَّةٍ فـي العالمِ. هذا

---

(1) – أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة، ص21.

(2) – ن.س.ر.ك. راڤي: «الجِهَاد في الفكر الإسلامي وتطوير رد مسيحي»، موقع ديانات العالم، http: / /ar.4truth.net /fourtrutharpbworld.aspx?pageid=8589981041

الصراعُ قد يكونَ دفاعيًّا وهجوميًّا في آنٍ واحد. فنشرُ الإسلامِ مدعومٌ عبْرَ السُّبُلِ السلميَّةِ أو بالقُوَّةِ. ويعتقدُ العلماءُ المسلمونَ أنّهُ من الممكنِ إتمامُ الجِهَادِ بثلاثِ طُرُق:

آ – الجِهَادُ السِّلميُّ، باللسانِ أو قولِ الحقيقةِ والحقِّ، ويتوفَّرُ فيه عنصرُ الإقناعِ عن طريقِ الحوارِ، تَرِدُ الآية: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (النحل125). وبحسب القرآن، في حالَ شجَّعَ الأهْلُ أولادَهم على اعتناقِ ديانةٍ غيرِ الإسلامِ فعلَى هؤلاءِ عصيانُ أوامرِهم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (العنكبوت8)[1].

ب – الجِهَاد العرفانيُّ، بالوجدانِ أو بالمشاعرِ أو بالنوايا، فالجهادُ على سبيلِ شُكْرِ المنعمِ، يُسْتَمَدُّ من الآيةِ: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ} (الحج ٧٨). فالجهادُ غِنى روحيٌّ، وهوَ جهادُ النفسُ في ذاتِ اللهِ، وجهادُ الهوَى: {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} (العنكبوت ٦)، وأنّهم على هُدًى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}. (العنكبوت69).

ج – الجِهَاد الحربيُّ، بالتدابيرِ الدفاعيَّةِ والهجوميَّةِ، يُشَجِّعُ القرآنُ الجِهَادَ بالسيفِ، ففي وضعِ الدفاعِ، يُعَدُّ الجِهَادُ حربًا من أسبابِها المصالحُ الدوليّةُ. بَيْدَ أنّ الحربَ أو القتالَ، في موضعِ الهجومِ، يُمْكِنُ جعلُهما في سبيلِ اللهِ، والعملُ بهما حسبَ تعليماتِ القرآنِ الكريمِ. فالقتالُ هو وجهٌ من وجوهِ الصراعاتِ بُغْيَةَ نشْرِ الإسلام، وغالبًا ما يكونُ مدعومًا من الدَّولَة المطبوعة بالإسلام. وفي هذه الحالة، يَتَّخِذُ الجِهَادُ مَعْنًى أوْسَعَ وأشملَ. وهذا الجهاد[2] على أنواع عدة:

---

(1) – الجهاد السلمي اضطلع به فكر الإسلاميين التنويريين، أمثال: الكواكبي، والافغاني ومحمد عبده، للمزيد أنظر: ماهر الشريف: «تطور مفهوم الجهاد في الفكر الإسلامي»، الحوار المتمدن – العدد: 2322 – 2008 / 6 / 24.

(2) – وهو ما اتخذه منهجا الإسلاميون المتشددون، مثل: المودودي وعبد الله عزام، للمزيد انظر: ماهر الشريف: م.ن.

الجِهَـاد ضد الكفار، وردت الآيات: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِـدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِـمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (التوبة73)، و{"فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} (الفرقان52).

الجِهَاد في سبيل الله، أكثر من آية في هذا المضمار، منها {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (البقرة 218).

الجِهَاد ضد الوثنيين، في الآية: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْـهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُـمْ وَخُذُوهُـمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَـإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (التوبة5(.

الجِهَـاد ضد أهل الكتاب، من الممكن أنْ تتمَّ الدعوةُ إلى الجِهَاد ضد أهل الكتاب، أي المَسِيحِيِّـينَ واليهود. كما ورد في: {«قَاتِلُـواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُـونَ مَـا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِـنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة29).

الجِهَـاد رداً علـى الظلـم والاعتداء، كمـا في الآيـة: {وَقَاتِلُواْ فِـي سَبِيلِ اللّـهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّـنْ حَيْـثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَـدُّ مِنَ الْقَتْـلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِـدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُـمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِيـنَ... وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} (البقرة 190 – 193).

ثَمَّـةَ أنـواعٌ مـن الجهـادِ ذكرهـا المتأخـرون[1]، مثـل: جهـادُ التعليـم، جهـادُ الأمرِ بالمعـروفِ والنهي عن المنكـرِ، جهادُ الكلمةِ والحجَّـةِ، جهاد التعبئةِ والبنـاءِ، الجهادُ السياسـيُّ، جهادُ إيديولوجيـة الكفرِ والفقر، الجهـاد الاقتصاديُّ، جهـاد تَّوحيد الأمَّة، جهـاد الدعوة الى الدين. ويرى بعض الباحثيـن[2] أنَّ بنيويَّة الجهاد وماهيَّته واحدةٌ وإنْ

---

(1) – انظر: أبو اليسر رشيد كهوس: «أبواب الجهاد في الفكر الإسلامي»، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، ذوالحجة 1431 هـ = نوفمبر – ديسمبر 2010م، العدد: 12.

(2) – محمد فتح الله كولن: روح الجهاد وحققيقته في الاسلام، ص8 وما بعدها

تعـددت أنواعـه، فمَنْ يُقْصِر الجهـادَ على الجهاد الأكبر، أي مجاهـدة النفس الإنسانيَّة فحسـب، فانَّـه ينسحبُ الـى الذات ويتـرك الدعوة الـى الدين، وهي الجهـاد الأصغر. وعلى العكس مَن يُقصِرْ على جهاد الدعوة، ويترك جهاد النفس، كلاهما له نصيب من الخطأ والتطرُّف، فإنَّ تلازمَ ضبْطِ النفس، والدعوة الى الدين، يرسم نمطيَّةً أخلاقيَّةً في وعْيِ الآخرِ الدينيِّ.

نخلـص الـى أنَّ الإسـلامَ الذي حرَّمَ قتـلَ النفسِ، ولـمْ يُكْرِه الناسَ علـى الدينِ، لا يمكـنُ له أنْ يَسَلَّ سيفَه على الشعـوبِ تحتَ رايةِ الجهادِ، إلا دفاعًا عن الدينِ والدولةِ، مثلَمـا كانـتْ حروبُ الرسولِ تحملُ طابعًا دفاعيًّا، بدلالـةِ {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُـمْ وَلاَ تَعْتَـدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ} (البقـرة 190). ولعلَّ تأسيسَ الدولةِ الدينيَّـة لـمْ يعرفْها تاريخُ الإسلامِ إلَّا في عهدِ الرسـولِ، لأنَّ حكمَه كان مؤيَّدًا بالوحي، بدالَّـة ما جـاء في القرآن مـن النصـوص الحاثَّةِ عل الجهـادِ، كانتْ بمناسبـة الحوادث التاريخيَّـةِ لعصرِ الرسالـة، وامتدادًا لمعطياتِ حوادثِ الرسالـةِ، جاء تأصيلُ الدولة في عصرِ الخلافةِ الراشـدةِ، وإتمامِ تكوينِها، في ظلِّ الصـراعِ الحضاريِّ، لإثباتِ وجودِها المرموقِ على الخارطةِ السياسيَّةِ والدينيَّةِ.

وَأمَّـا الـدول، التي تسنَّمت سُـدَّةَ الحكم بعد ذلـك، من أمويَّـة وعباسيَّة، وتوسعت فـي الأرض علـى حساب الشعوب الأُخْرَى، أضحت الدَّولَـة العَرَبيَّة لذلك أقوى دولة في العالم، فقد شـهد عصرُهـا خلافاً كبيراً حول تفسير النـص القرآني والحديثي حول الجهـاد، إذ قـام فقهاء الدولة بتوجيـه فقه الجهاد الحربي على أسـاس تقسيم الدنيا إلى دار إسلام ودار حرب. في هذه الحقبة كان الجهاد الحربي والفتوح قد فقدت جذوتها، ونزعت مشروعيتَها، ولـم تـؤتِ أكُلَها، سوى اضطهاد الشعوب المفتوحة باسم الجهاد في الدين. فتحولت من جهاد ينشر الدين الى غزو يشيع العنف والرهبة، ويستحوذ على الغنائـم. لـم يتوقف هذا عند إيقـاد جذوة الكراهية في قلوب الشعـوب الأُخْرَى، وكان لـه إسَهـامٌ في انتاج الشعوبيـة. بل اتسعـت دار الحرب، وتوسعت جبهاتهـا مع الغرب المسيحـيّ، في محاولة الإلتفـاف عليه في السيطرة على أسبانيـا (الأندلس) في أواخر

القرن الأول الهجري، وأثرها في الإستجابة الغربية المسيحية لوازع الحرب، ورد الفعل الـذي ترجمته الحروب الصليبية التي يطلق عليهـا «حروب الاسترداد Reconquista» فيما بعد، والتي أضحت عاملًا في خلق تربةٍ خِصبة لإشاعة روح الإكراه التي ترعرعتْ لدى المسلمين، وولّدت العنف بين صفوفهم.

وهكذا باتت العلاقة بين المسلمين وغيرهم تحكمها فكرةُ دار الكفر ودار الإسلام، التـي ظلَّ خلالها غيرُ المسلمين، وبخاصةٍ المَسِيحِيِّينَ، الذين كانوا يُسْحَبون على تَبَعِيَّةِ دولـةِ بيزنطـا، وكان يتفاوت التعاملُ معهم بينَ الشدَّة والتهاوُنِ، بحسب نوع العلاقة مع دار الحـرب؛ فـإذا أزِمَ الصراعُ فـإنَّ المَسِيحِيِّينَ يتحمَّلون قِسْطًا مريـرًا، وهذا ما سجلته الممارسـة التاريخية في عهد عبد الملك (65 - 85هــ) إبان تصاعد الأزمة مع بيزنطة، وما تبعهُ في عهد هارون الرشيد (170 - 193هـ)، وعهد المتوكل (232 - 247هـ) في ذات الأزمة.

نتحصل مما تقدم أنّ قراءة الجهاد والفتوح في القرن الأول وما يليه، بلسان حاكمية الشريعـة، وسلطـة الخلافـة[1] وطائفيَّـة النخـب المتسلطة على سُـدَّة النظـام السياسي والدينـي والإجتماعـي، وكانـت قـد تمظهـرتْ وكشفـتْ عـن منحنياتهـا الطائفية في الممارسـة التاريخيـة مع غير المسلمين، أنَّها - لا منـاص - كانت نواةً خِصْبَةً لمشاريع فكريَّـة مُتشـدِّدة عبر حِقَبِ الأسلام التاريخـيِّ، أخذت تسْتَصْحِـبُ ايديولوجيَّةَ التكفير والإخـراج من الملَّة منذ الوهلة الأولى، على نحوٍ يُشَرْعِـنُ العنفَ ويوجبَ القَتْلَ، كما تبَيَّن لدَى فرقةِ الخوارجِ في مفهومِهم للجهاد. الأمر الذي جعل الفارقَ يكبُر بين مفهوم الجهـاد لدَى الفرق المغاليةِ، والجهـاد الذي جاء به الإسلام[2]، وفي ضوء هذه الأفكار الميَّالة للعنف الممتزج بالوصول الى مراكز التأثير والسلطة، صدحت حركات التطرُّف الدينيِّ في الأسلام التاريخيِّ، على نحو «البربهاري» في القرن الرابع، و«ابن تيمية» في

(1) - أنظر: تقي الدين النبهاني: نظام الحكم في الإسلام، (منشورات حزب التحرير، القدس، 1959) ص15 وبعدها.

(2) - انظر: جودت سعيد: كن كابن آدم (دار الفكر، دمشق 1997) ص18 وبعدها.

القرن الثامن، و«محمد عبد الوهاب» في القرن التاسع عشر.

ومـن هنا ظهر على الضفة الأُخْـرَى من أعادوا قراءة النصـوص المقدَّسة، وصبغوا تفسيراتِهـم بصبغـة الإصلاح، واعتقدوا بوحدة النوعِ البشري فـي إطار تنوُّعه وتفاعله، ودعَوا إلى التآلف بين أهل الأديان السماوية الثلاثة، وإلى نَبْذِ التعصُّب والغلوِّ في الدين، وإلـى البعد عن التكفير، وشـدّدوا على أنَّ الإسلام قـد تميّز بصفة أساس، هي التسامح النابـع مـن اعتقـاد المسلمين بأنَّ ديـنَ الله واحـد، لا يختلف إلا في صـوره ومظاهره. وعليـه، فقد فهموا الجهادَ، بمفهومـه الواسع، الذي يشمل ما سُمِّيَ بـ «الجهاد الأكبر»، جهـاد النفس، والذي قـد «يفضل «جهاد الأعداء في الحرب، وفنَّـدوا دعاوى من زعَمَ أنَّ الإسلام قد انتشر بالسَّيف، وأكدوا أنَّ القتال في الإسلام، بوصفِهِ «فرضَ كفاية»، لمْ يكنْ أبدًا منْ أجل الإكراه على الدين، وإنَّما كان فقط من أجل حماية المسلمين والدفاع عـن عقيدتهـم، وهو ما التزَمَ به الرسـول نفسُه، الذي جاءت زعامتـه عن طريق الرسالة لا غيـر، وانتهت الرسالـة بموته، والذي رفض أنْ يحملَ النـاسَ على الإيمانِ بالإسلام بالقـوَّة. ورأوا أنَّ الفهـم الخاطئ لمعنى الجهاد، قـد نَجَمَ - في الأساس - عن الجهل، أو عـن التأويـل الخاطئ لبعض الآيـات القرآنية، الذي استند إلى رؤيـةِ الأقدمين، التي ارتبطت بمستواهم العقليِّ وبدرجة العلم، التي بلغوها في زمانهم[1].

وتأتـي تجربـة الثعالبي[2] علـى قدر من الأهمية، فـي إطار إعادة الاعتبـار للتواصل البشري، والتضامن بين المجموعات الإنسانية، من خلفيَّة تأويل النصوص، فقد تناول بالتحليل والنقد مسألة الجهاد، وتعرّض إلى تحريفات المفسّرين، وقرن أحكام الجهاد بأسبـاب نزول الآيات الدّالة عليها، إذ «لا نزاع بالنسبة لكافة المسلمين، أنّ لكلّ آية من الآيات سببًا معيّنًا واضحًا لا يمكن أنْ يتطرّق إليه أيّ شـكّ»[3] وكأنّه لم يكنْ مقتنعًا بما

---

(1) - ماهر الشريف: م. س.

(2) - عبد العزيز الثعالبي(1876 - 1944م(، زعيم تونسي سياسي وديني، وصف بأنه داعية الإصلاح والتجديد والمقاومة. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة،(الثعالبي).

(3) - عبد العزيز الثعالبي: روح التحرر في القرآن، ص 109.

أقرّه الأصوليون، حين اعتبروا أنّ العبرةَ بعموم اللفظِ لا بخصوص السبب، وأنّ صورة السبب داخلةٌ دخولا أوّليا في النصّ، ورأى أنّ المفسّرين اجتهدوا «في الانتقال من الخاص إلى العام، بدون أيّ عذرٍ، وبطرق ملتوية، لا يدركها معظم القرّاء»[1] وفي هذا الإطار أعاد قراءة آيات الجهاد [90 و191 و192 من سورة البقرة] وذهب الى أنّ «هذه الآيات لا تبيح إلاّ القيام بحرب دفاعية، وهي تدعو المؤمنين إلى الإمساك عن هدر الدماء بدون جدوى، وتوضّح لهم أنّ الله يمكن أن يغفر حتى للأعداء، إذا وضعوا حدّا لهجوماتهم؛ فكيف أمكن للمفسّرين أن يستخرجوا - من تلك الآيات - تلك المشاعر المشحونة بالحقد والبغضاء، وتلك الدعوة إلى شنّ حرب على غير المسلمين؟»[2].

ونتحصل أنَّ الجهاد الحربي، كنظام إسلاميٍّ وُلِدَ في حاضنة الدفاع عن بيضةِ الإسلام وحياضِه، كان له ضرورة ماسَّةٌ في حلِّ عقدة الصراعِ الحضاريِّ ذي الصبغة الدينيَّة، وما صاحبها من حوادث فصلت بين دار الحرب ودار السلام. وأما في دار السلام فإنه يتسامى الى جهاد النفس والارتقاء بها دينيًا وأخلاقيًا، وهو الجهاد الأكبر، من أجل الحياة الحسنى في الدنيا والآخرة.

من خلال استحضار الذاكرة المسيحيَّة والذاكرة الإسلاميَّة في تجربة المائة الأولى للعلاقات، وتوظيف القراءة المتسامحة للنصوص، يمكن تحفيز مسيرة التضامن الإنسانيِّ، وتنشيط التواصل بين المنظوماتِ الثقافيَّةِ الدينيَّة على طريق الرُقِيِّ والحضارةِ والسلامِ العالميِّ.

3. الفتوح في الفكر الاسلامي

الفتح من مأسسة الفكر الإسلامي، أول ما ورد في القرآن {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} (النصر 1)، وكان يخصّ مكّة الوثنيَّة، وما فيها من مقدسات تخص الإبراهيميّة، وقد جعلها الرسول محمد من موروثه الدينيّ، لاسيَّما أنّها كانت موطنَ أجداده وعشيرته الأقربين، المخصوصين بالتبشير الديني، {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} (الشعراء214).

(1) - الثعالبي: م. ن، ص109.
(2) - الثعالبي: م.ن، ص111.

علـى أنّ معنـى الفتح تمدد في الإسـلام التاريخيّ الى مساحات خـارج جزيرة العرب، وكانت تكثر في بلاد فارس المجوسيّة، وفي العراق، والشام، ومصر، المسيحيّة.

الفتوح من أهم ظواهر القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، تولدت عن مفهوم الجهـاد، الذي يضمن استقلال الدولة الجديدة، وتوسيـع سلطتها، وهذه الظاهرة أدَّت الى قيام عالم إسلاميٍّ حقيقيّ شـاسعِ الأطراف ومنتصر[1]. يشير بعض الباحثين الى أنَّ الإسـلام كان العامل التوحيـديّ، الذي جمع القبائل العربيَّة معًـا، ومن ثَمَّ، فإنَّه أضاف كثيـرًا الى تحقيق الفتـوح الإسلاميَّة، وتثبيتها، واستمرارها، والـى دور الدين في تمتين وتصميم النخبة العمليّ على القيام بتوسع[2].

تنامـتْ القـوَّةُ العسكريَّة لـدَى الرسولِ محمَّـدٍ، وتضخَّمَ جيشُ الإسـلامِ، إثْرَ صلحِ الحديبيَّةِ (6هـ/ 628م) ووفدتْ القبائلُ العربيَّةُ، التي اشتهرتْ بمزاولةِ الحربِ والقتالِ فـي جزيرة العربِ، للأنضمامِ الى خميسِه، ورفدِه بمعطياتِ العزوةِ والتوحُّدِ، وأكتسبَ الجيشُ الإسلاميُّ خبراتٍ إضافيَّةً، واشـتدَّتْ شكيمتُه في معاركَ عدَّةٍ، نتجَ عنْها: توسعٌ في الجنوبِ، وفتحُ اليمنِ التابعةِ لدولةِ فارس، وإخضاعُ اليهودِ وكسْرِ شـوكتِهم (7هـ/ 629م)، وفتـحُ مكَّـةَ وكسـرُ الأوثانِ (8هــ/ 630م)، وحـربُ الطائفِ التـي دانتْ فيها أكبـرُ القبائـلِ، هوازن وثَقِيف، والتوجُّهُ نحـوَ الشمالِ الغربي، لاخضـاعِ القبائلِ العربيَّة المسيحيَّـة على حـدودِ دولةِ بيزنطة، أو ضِمْنَ تبعيتِها، مثل: غَسَّـان ومُزَيْنَةَ وجُهَيْنَةَ، في غزوتَـي مُؤْتَـةَ وتَبُوك (8، 9هــ/ 631م). ومن ثَمَّ الغاراتُ الواسعة، التي شـنَّها الجيشُ الإسلامـيُّ في عهـدِ الخليفة أبي بكـر (11 - 13هــ/ 632 - 633م)، لإخضاعِ جيوبِ الردَّةِ والقبائلِ الرافضةِ لسلطةِ دولةِ الاسلامِ وضرائبِها.

إنَّ هذه التحركاتِ العسكريةَ والانتصاراتِ الباهرةَ، بما حملته من توسُّعٍ على أرضِ جزيـرةِ العربِ، وانتشارٍ لسلطاتِ الدَّولَة العَرَبِيَّة اليافعةِ، أضحتْ لافتةً لأنظار الدولتينِ الكبريـنِ، فـارس وبيزنطـةَ، اللتين لهما البـاعُ والسَّطْـوَةُ النافذتان، وتتقاسمـان النفوذ

(1) - ج. ود. سوريديل: معجم الإسلام التاريخي، (الفتوحات).
(2) - ولتر كيغي: بيزنطة والفتوحات الإسلامية، ص 329.

والسلطـة على أطـراف جزيرة العـرب، لاسيما أنَّ ثمّـةَ محاولاتٍ للجيـش الاسلاميِّ للإحتكاك بأطرافهما، وانتزاع أجزاء ثمينة منها.

إنّـه أمـر بالغ الأهمية، أخذ يهـدِّدُ مصالح فارس وبيزنطة في المنطقـة، فلم يُعُدْ يُظَنُّ أنَّ الأمـرَ يُحْسَنُ السكوتُ عَلَيْهِ من لدنْهما، وبمعيَّتِهما الـدولُ الاقليميَّةِ المحيطةِ ببلادِ العـرب، ولا أحـدٌ يضمِنُ عَدَمَ اتفاقِهم معًـا، وتوجُّهِهم نحوَ كسرِ شـوكةِ دولةِ الاسلامِ اليافعـة[1]. من هنا بدتْ علائمُ الحربِ تبثُّ أضغانَها، وتنشـرُ أوزارَها، وتُلَوِّحُ براياتِها، في انتظارِ العودِ التي تُشعِلُها، ومَنْ يتجَهَّزُ بروحِ المبادرةِ إليها.

مـنْ قبلُ، كانتْ تُخِيفُ الحجازَ وتُهَامَةَ أطماعُ الدولِ فيها، والسيطرةُ على أراضيها، فقـد حدثَ أنْ احتلَّتْ الحبشةُ اليمنَ، بواعزٍ من بيزنطةَ، وأخضعتْ نَجْرَان في (101ق. هـ/ 525م) إثرَ نزاعٍ دينيٍّ سياسيٍّ، وهدَّدَ جيشُ ابراميوس (أبْرَهة) مكَّةَ، وتوَعَّدَ بتهديمِ البيـتِ الحرامِ في(85ق.هـ/ 540م)، لولا أصابتْهم كارثةٌ، ومن ثَمَّ كان الغزو الفارسي لليمن في عام (54ق.هـ/ 570م)، وجعلها مقاطعة فارسيّة. ظلَّ هذا التهديدُ، وما اجتلبَه مـن خوفٍ، يلازمُ أهلَ مَكَّةَ، فكانتْ قريشٌ تخشَى مِنْهَا كثيرًا، وبخاصةٍ منْ أنْ تتلاقفَهم بيزنطةُ وفارسُ، إذا ما برَقَ منها بارقٌ يُهَدِّدُ مصالحَها، أو تراعي من أنْ تتخطفهم القبائل الكبرى؛ لذا اتخذَتْ سياسةَ المُحايدةِ مع الدولِ الإقليميَّةِ، والمُهادنةِ مع القبائل، كنظام يوفر الحماية والأمن لجناحي مكّة: الدين والإقتصاد.

هناكَ رواياتٌ تشيرُ الى أنَّ الرسول كانَ يدعو الناس في مكَّةَ إلى الإسلام، ويخبرهم بـأنَّ الله - تعالى - وَعَدَهُ أنْ يُـورِثَ أمَّتَهُ مُلْكَ كِسْرَى وقيصر[2]، وأنَّهُ قال لأصحابه: أنَّ

---

(1) - حدث مثلها في التاريخ الحديث، محمد علي باشا والي مصر (1805 - 1848م)، بعد أن اشتد ساعده وقويت سلطته، تحول لمهاجمة الدولة العثمانية، التي يخضع لها، حيث حارب جيوشها في الشام والأناضول، وكاد يسقط الدولة العثمانية، لولا تعارض ذلك مع مصالح الدول الغربية، التي أوقفت محمد علي وأرغمته على التنازل عن معظم الأراضي التي ضمها. موسوعة ويكيبيديا (محمد علي باشا).

(2) - محمد بن سليمان الكوفي: مناقب الإمام أمير المؤمنين 1/ 361؛ الهيتمي: مجمع الزوائد 6/ 170.

أمَّتَـهُ ستستولِـي على مُلْكِ كِسْرَى وقيصر[1]، ودعم القرآنُ هذه النبوءة بقوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء، وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء، وَتُعِزُّ مَن تَشَاء، وَتُذِلُّ مَن تَشَـاء، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ} (آل عمـران26). ومما ساعدَ المسلمين علـى مدِّ أبصارهم الى مُلْكِ الـروم والفرس، المعاركُ الطاحِنَةُ بينَهـم، فكانوا يتناوبون الغَلَبَةَ والخَسَارَةَ حتى أُنهِكوا واُسْتِضْعِفوا، وتوقَّع حالَهم هذا القرآنُ {غُلِبَتِ الرُّومُ*فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} (الروم2، 3)، وكانت آخرَ جولاتِ الصراعِ بينَ القُوَّتَين العُظْمَيَيْنِ (4ق.هـ – 6هـ/ 619 – 628م). واستبقتْ في العِرَاق إنتصاراتُ قبائـل العـرب على جيش الدولـة الفارسية في يـوم ذي قار (2هــ/ 624م)[2]، وقال فيه الرسـول محمـد: «اليوم أوّلُ يوم انتصفَ فيـه العربُ من العجم، وبـيَ نُصروا»[3]. لعلَّ فـي تراكم الحوادث، ومحاكاة النصوص القرآنيّة والنبويّة لها، تشكَّلت الروح المعنويَّة المُتسامِيَـة للعـرب المسلمين، علـى نحوٍ وجَّهَ بوصلـةَ الطمأنينة الكاملـة في الداخل، وعزز الروح القتالية للمقاتلين.

إنَّ إرسـالَ الرسولِ محمَّـدٍ الرسائلَ الى الملـوكِ والعظمـاءِ (6ه/ 622م) ودعوتهم الـى الإسـلام، كانت سابقـة جريئة وفريـدة، وكانت الإجابـات بين مستهـزِءٍ ومجامل ومهـدد ومغاضـب؛ غير أنَّ ما نتج عنها كان لـه دورٌ تصعيديٌّ، فتُأَشِّـرُ رواية الواقدي[4] الـى أنَّ الحـارث بن عمير الأزدىّ، مبعوث رسول الله إِلَى مَلِكِ بُصْرَى، حينَ نَزَلَ مُؤْتَةَ عَرَضَ لَهُ شُـرَحْبِيلُ بْنُ عَمْرِو الْغَسَّانِيّ فَأَمَرَ بِهِ... فَضَرَبَ عُنُقَهُ، فأشْـتَدَّ على رسولِ اللهِ والمسلمينَ، فجهزوا لغزوة مؤتة.

تعدُّ غزوة مُؤْتَةَ، باتجاه حدود الروم في الشام، إنطلاقَ شرارة المواجهة، وقد وثَّقها

(1) – الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن 7/ 288؛ الواحدي: أسباب نزول الآيات، ص231؛ محمد جواد مغنية: تفسير الكاشف 2/ 38.
(2) – ابو الفرج: الأغاني 24/ 66 – 75.
(3) – الطبري: تاريخ الرسل والملوك 2/ 193؛ ابن عبد البر: الاستيعاب 1/ 73.
(4) – المغازي 2/ 755.

بعض المؤرخين الغربيّين[1]، على أنّها الإختراقات الإسلاميّة الأولى للمنطقة البيزنطيّة، وقد سُجِّلَت الغلبَةُ في مؤتة للقوى البيزنطيّة على المسلمين. بيدَ أنَّ الإنكسار الميدانيَّ لـمْ يتبَعْه انكسارٌ نفْسِيٌّ ونكوصٌ يمنعُ من الخوضِ في معاركَ أخرى. فسرعانَ ما حرَّكَ النبـيُّ محمَّـد جيشًا باتجاهِ تبوك، وفرضَ وجودَه العسكريَّ فـي غربيِّ الجزيرةِ العربيَّة، على أيْلَةَ (العقبة)، وجرباء وأذْرُحَ (شرقي الأردن). ومن ثم جهَّز الرسول جيشَ أسامة بن زيد، واوصَى بإنفاذه الى أرض البلقاء قبيل وفاته[2]. ولعلَّ من أهم فوائد المواجهات الأوْلـى كسرَ حاجز الخـوف والرهبة الذي كـان يحمله أهل جزيرة العـرب، وبخاصة تُهَامَـة والحجاز، من البيزنطيين، ورفعت الروح المعنويَّة لدى المسلمين، على نحو لم تكن موفورة لدى القوى الكبرى في المنطقة، من رُوم وفُرْس.

ثمَّةَ محفزات متنوعة هيّأت للفتوح، أشارتْ لها المصادر[3]، منها اقتصاديَّةٌ تتمثل في: انهيـار التجارة العربيَّة، التي كانت تعبر الجزيرة كلَّها، بعد عَقْدٍ من الحروب، والمجاعة المستديمـة التـي كانـت تعيث فـي الجزيـرة العربيّـة. ومنهـا اجتماعيَّة، تمثلهـا الطبيعة الديموغرافيـة القبليـة، واكتظـاظ السكان. ومنها فكريـة، تشكّلهـا إرادة توحيد العرب، كمـا اضطلـع بهـا الرسول محمد والخلافة الراشـدة. كانـت هذه كلُّها أمـورًا تدخل في الحسبـان، وصـارتْ واضحةً أكثرَ فأكثر، بقدر ما كان الفتحُ يتقدم. لكن الإراديَّة الحربيَّة وايديولوجيـا الصراع (الجهاد) كانتـا تتقدمان تلك الحوافـز والدوافع، فلم تكن تدخل إطلاقـا، فـي حساب تلـك الإيديولوجيا، فكرة اعتنـاق الشعوب الأُخْـرَى للإسلام، بلْ كانت تدخل في حسابِها - فقط - فكرةُ إقامة سلطان الله، من خلال هيمنة الإسلام[4].

لم يكن القرآن في معزل عن المسلمين، إبَّان مراحل الإعداد النفسيِّ والتاريخيِّ في عصر الرسالة، فكـان المقياسَ النفسيَّ للنبيِّ وصحبِه، فتارةً يحثُّهم على العزَّة، ووحدةِ

---

(1) - ولتر كيغي: بيزنطة والفتوحات الإسلامية، ص109.

(2) - المقدسي (ت355هـ): البدء والتاريخ 5/ 59.

(3) - الطبري: تاريخ الرسل 3/ 499؛ ابو يوسف: الخراج، ص29.

(4) - جعيط: الفتنة، ص43.

الكلمـة، وأنَّهم أشـبهُ بأصحاب عيسى في قوَّةِ الشخصيَّـة الدينيَّة والثبات (الصف14)، وأُخرَى يمدُّهم من الميتاتاريخ بآلاف من الملائكة (آل عمران124)، لإنجاز النصرِ في المعركـة، وثالثة ينقلُهم الى مستقبلٍ أخضرَ، من بعد أنْ يذكرهم بمسْحَةٍ نفسيَّة ماضويَّة متصحِّـرة، {وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيـلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُـمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَـاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (الأنفال26)، ويُشَرْعِنُ لهـم الجهادَ (التوبـة29)، اعدادًا منه ليكونوا أمَّةً ضارِبةً، تحقِّـقُ الفتْحَ المبينَ بأمْرٍ إلهيٍّ (الفتح1).

مـن المسلَّم به – لدى الكتاب المسلميـن – أنَّ الدافعَ للمسلمين في مشاركتهم في الفتـوح نشرُ الإسـلام، والتمكينُ لـه، وتنظيمُ المناطـقِ المفتوحة، والإجتهـادُ في حلِّ المشاكـلِ المستجـدّةِ وِفْقَ تعاليمِ الإسـلامِ، لم يكنْ دافعًا دنيويًّـا، ولا رغبةً في التسلط والإستحواذِ، ولا طمعًا في خيرات البلاد المفتوحةِ، ولا فرارًا من شـظف الحياة[1] في الصحراء[2]، بحسب ما ذكره بعض المستشرقين.

مـن جانـب آخر، تجدر القـراءة: أنَّ سياسةَ الفتوحِ واتسـاعِ رُقْعَةِ الدَّوْلَـة العَرَبِيَّة في سرعـةٍ مُذْهِلَـةٍ، أَرْبَـكَ الحياةَ الدينيَّـةَ لَدَى الشُّعـوبِ، وأخضع الحيـاة الاجتماعيَّة الى عمليـات التغييـر الديموغرافي، وكـانَ مِن مُخْرَجَاتِهـا التَّطْهيرُ الدينـيُّ لجزيرةِ العربِ، وقـدْ نُسِبَ جُزَافًا الى قـولِ الرسولِ محمَّدٍ، وهذا التطهيرُ ولّـدَ مشاعرَ الضياعِ، وفقدانَ الهُوِيَّـةِ التاريخيَّةِ لَدَى مسيحيِّي الجزيـرة، وتَشَتُّتَهُم في البلدانِ، واندماجَهم ديموغرافيًّا في بيئاتٍ جديدة، مما شكَّل خطرًا على وجودِهم الديني.

فـي الجانـب السياسي وأثـره على النشـاط الديني، يـرى «دوسلييـه»[3]: أنَّ الفتحَ الإسلامـيَّ، عِـوَضَ أنْ يوحِّـد المَسِيحِيِّـينَ، أدّى – على العكس تمامًـا – إلى مزيد من الانقسـام بيـن مختلف الفئـات المسيحيَّـة. إذْ كانت نظـرةُ المَسِيحِيِّـينَ الشرقيِّين تجاه

(1) – مثلا: كايتاني: حوليات الإسلام، 1 – 35هـ؛ أكرم العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة، ص18.
(2) – أكرم العمري: م. ن، ص19.
(3) – آلان دوسلييه: مسيحيو الشرق والإسلام في العصر الوسيط، ص 235.

المَسِيحِيِّـينَ الغربيِّين - دوما - تزداد سلبيَّةً باطراد، وصار ينظر إلى المسلمين - مقارنة بالطـرف الأول - علـى أنَّهم الدرع الأخير الحامـي لثقافة مسيحيِّي الشـرق وإيمانهم. وكانت محصِّلةً لإضعاف دولة بيزنطا في تغيير خارطتها السياسيَّة، وضمورِ هيبتِها على المَسِيحِيِّينَ، ولا سيَّما أهمُّ الكنائس في الشرق ومصر التي أضحت تحت سيطرة العرب المسلميـن، وأنَّ الكنيسة الملكانيَّة قـد خَفَتَ أوارُها، بسبب دعـم المسلمين للكنائس اليعقوبيَّـة والنسطوريَّـة، التي ينتمي اليهـا أغلبُ السكان في مصـر والشرق، فضلًا عن مشاركـة قسم كبير مـن المَسِيحِيِّينَ الحرب الى جانب المسلميـن، لعدة أسباب، منها: اضطهـاد بيزنطة لهم دينيًّا وسياسيًّا، وانتماؤهم الى العرب نسبيًّا، على نحو حفَّزَهم فيه المسلمون، وحركوا نخوتهم.

ثمـة أفكار صدرت عن أهـل الكتاب من المعاصرين لزمن الفتـوح، فسَّرت الفتوح تفسيـرا دينيًّـا، قد يتساير مع بعض القراءات الإسلاميّـة، أو يتفق معها في قراءة مشتركة للعائلـة الإبراهيمية. يشير مؤلفـا «الهاجريّون»[1] الى سفر يهـوديّ، يرجع الى منتصف القـرن الميـلادي الثامـن، يدعى «أسرار الحَبْر شـمعون بـن يوحاي»، علـى أنّه يحتفظ بتفسير مسيانيّ[2] للغزو العربي.

فـي النـص: «حيـن رأى أنّ مملكـة إسماعيـل كانت آتيةً، شـرع يقول: ألـمْ يكنْ ما فعلتـه بنا مملكـة إدوم[3] الشريرة، حتـى تأتينا مملكة إسماعيل - أيضًـا؛ وللفور أجاب

(1) - باتريشيا كرون، مايكل كوك: الهاجريّون، دراسة في المرحلة التكوينيّة للإسلام، ص21.

(2) - نسبة الى المسيا، وهو المخلص، والزمن المسياني اشارة الى العصر اليهودي المسيحي. دائرة المعارف المسيحية، (مسيا).

(3) - برنارد لويس: من الواضح أنّ الأولى أدوم، تعني: روما وبيزنطة. أما الثانية فلا ريب، أنهّا الإسلام. نصان يهوديان حول بدايات الإسلام، اعداد نبيل فياض، (بيروت 1998) ص16. مع العلم أن ادوم منطقة جنوب وجنوب شرقي البحر الميت سكنها الأدميون منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وتنسبهم المصادر القديمة (التناخ) إلى «إدوم» وهو عيسو ابن اسحاق بن إبراهيم. وتاريخ مملكة إدوم السياسي والحضاري غامض بسبب قلة الآثار والمصادر الأصلية الموثوقة التي تتحدث عنهم. موسوعة المعرفة (إدوم).

«متاترون»[1]، أمير التشجيع، بقوله: لا تخف، يا ابن الإنسان، فالقدوسُ المبارك لا يأتي بمملكة إسماعيل، الا لتُخَلِّصَكم من هذا الشرّ. إنّه بحسب إرادته يقيم عليهم نبيًّا، وسوف يفتح لهم الأرضَ، وسوف يأتون ويحيونها بعظَمَةٍ، وسيكون هنالك خوف مريع بينهم، وبين أبناء عيسو»[2]. ويتحدّث النصُّ عن عيسى راكب الحمار، ومحمّد راكب الجمل، في إشارة الى قول النبي أشعيا: «فيرى ركبًا، أزواج أسفار، ركَّاب حمير، وركّاب جمل» (21/ 7).

هذا النص يقدم «دور الإسماعليّين ونبيّهم، باعتباره جوهريًا، بالنسبة للحوادث الميسانيَّة ذاتها، وهذا التفسير يصبح ذا معنى، حين يوضح جانب شهادة «عقيدة يعقوب» القائلة: إنّ النبيّ كان - في الواقع - يعلن عن مجيئ المسيا، وفي الوقت ذاته، يقدِّم تأكيدًا مستقلًا على على موثوقيته، قد يبدو غريبًا -بالطبع - أن يقبلَ اليهودُ بأوراق اعتماد نبيٍّ عربيّ مفترض، باعتباره بشير المسيا، لكن ثمّةَ سابقة يهوديَّة معروفة لقيام أحد العرب بهذا الدور»[3].

وقدَّم المؤرخ الأرمني «سبيوس» - في سياق عقائدي - وصفًا للطريقة، التي قدّم بها النبي محمّد الاساسَ المنطقيّ للتدخل العربيّ، في تمثيل المسيانية اليهوديّة في النَّسَبِ والهجرة، أما النسب فهو أساس مكوَّن من استلهام ثنائيّ الطبيعة للاصل الإبراهيميّ للعرب، وذلك بوصفهم إسماعيليين[4]. وأما الهجرة فإنّ تسمية «المهاجرون» التي أطلقها النبيّ محمّد على المسلمين، الذين هاجروا الى الحبشة المسيحيّة مرّةً، والى يثرب، ذات الطابع الكتابيّ اليهوديّ أخرى، كان لها جذور عميقة في التاريخ العقائديّ الإبراهيميّ، ترجِع الى هجرة إبراهيم الى بيت المقدس، ومن ثم هجرته، وزوجه

(1) - هذا الملاك ميتاترون (Metatron = حارس)، حارس إسرائيل؛ هو إنسان في صورة الله القدوس، مبارك هو، الذي هو انبثاق منه [من الله]؛ نعم فهو [the Metatron] يهوه. والذي لا يمكن أن يقال عنه أنه مخلوق أو تشكل أو صُنع؛ بل هو الانبثاق من الله. دائرة المعارف المسيحية (ميتاترون).

(2) - كرون، كوك: الهاجريّون، ص21؛ نصان يهوديان حول بدايات الإسلام، ص16.

(3) - كرون، كوك: م. ن، ص22.

(4) - م. ن، ص23.

هاجر وابنه اسماعيل، الى البيت الحرام، وهم الذين أطلق عليهم «الهاجريّون» أو «الإسماعيليون» فيما بعد، قبل «سيبيوس» والمصادر الإسلاميّة. على أنّ هذه التسمية كشفت عنها المصادر اليونانيّة بصيغة: «ماغريتاي Magaritai»، في بَرْدِيَّة تعود للعام (642م/ 21ه)، وأما في السريانيّة فهي «ماهغري Mahgre» أو «ماهغراية Mahgraye» التي ظهرت في أربعينيات القرن السابع[1].

كلا الجذرين الموغلين في العمق العقائديّ، النسب الإبراهيمي والهجرة الى الأرض المقدسة، كانا يترعرعان في الوعي الباطني للنبيّ محمّد، وأوّل تجسيد للهجرة في (7ق.ه/ 615م) أُسْرِيَ بالنبيّ محمّد من البيت الحرام إلى بيت المقدس[2]، على نحو إعجازيّ، عبّر عنه النص القرآني: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} (الإسراء1). أكّدت هذا المنحى صلاة النبيّ من البيت الحرام الى بيت المقدس، وجعله الأخير قبلةً للمسلمين، لسنة وسبعة أشهر في المدينة[3]. وحين حقق المعاد الى البيت الحرام في صلح الحديبيّة في (6هـ/ 628م)، تحرك الوازع العقائدي في احتواء الأرومة الإبراهيميّة، وسيرة إبراهيم في الهجرة، فأرسل الرسل الى الملوك، وتبعها بحملات عسكريّة الى مُؤْتَة وتَبُوك في (8، 9هـ/ 631م)، في محاولة لوضع مقدمات صحيحة للوصول الى بيت المقدس، وكان يؤكّد على حملة أسامة بن زيد قُبَيل وفاته، مما عمّق في وعي المسلمين الهدف، ليكون موضع قدمهم في بيت المقدس، وتحقّق لهم السيطرة في الفتوح، على الرغم من الوجود البيزنطيّ العاتيّ، وبمباركة البِطْرِيك «صفرونيوس بلنتاس»، الَّذِي سلّم أورشليم المدينة المقدسة إِلَى عمر بن الخطّاب[4]، وبحضور مؤثر لـ«كعب الأحبار»[5]،

---

(1) - م. ن، ص24.
(2) - ابن اسحاق: سيرة، ص 295.
(3) - انظر مبحث« الرّسول محمّد وأهل الكتاب فِي المدينة»، هذه الأطروحة: ب1، ف2،ص75.
(4) - بابادوبولس: تاريخ كنيسة انطاكية، ص532.
(5) - أنّ إسلامه كان في قدوم عمر بن الخطّاب الشام. الخركوشي، أبو سعد (ت407هـ): شرف المصطفى 1/ 275.

وهـذا النحـو يؤكّد وجود أثافـي العائلة الإبراهيميّـة في بيت المقـدس، وأصالة الهوية الدينيـة العربية في المشاركـة الإسماعيليّة، واستلهامها للأصـل الإبراهيميّ، واحتوائه للشجـرة الإبراهيميّة، وأفنانها المقدسة، كما أنَّ لـه إسهامًا في التقبّل النفسي للمجتمع المسيحي بأزاء الفتوح الإسلامية.

نستنتـج أنّ الجهادَ توسَّـع مفهومه، وتشعّبت أنواعه في عصـر الفقهاء، وأكَّد أغلبها علـى نشر سلطة الدَّولَـة العَرَبيَّة، والحفاظ على هيبتها، علـى حساب حقوق الرعيَّة في الأقاليـم والأَمْصَـار التي دخلـت تحت سيطرتها، ممـا ارتكز على نظـام طائفيَّة الدولة الدينيّـة. ولعـل التشكيـل الطائفي غيـر المنظم في مجتمـع القـرن الأول، والقائم على التحـول الديموغرافـيّ، المتمثل فـي نمو العرب المسلمين داخـل المدن على حساب أهلها الأصليّين، من مَسِيحِيِّنَ وغيرهم.

ظهرت القراءة المتشددة للنصّ القرآني في أزمنة من الإسلام التاريخي، في إخراجه مـن بيئـة الحدث وموضوعِه، ومن ثم إعمامـه، مثلا {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْـثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} التي جـاءت مختصة بالمشركيـن، ولا سيما أهل مكَّةَ، بحسب قرائن نصيَّة وموضوعيَّة، غير أنَّها اتخذت جانب العموم، واشتملت الآخر الدينيّ أحيانًا في أزمنة تاليةٍ. من هنا يجدر العلم أنَّ مفاهيم الجهاد والفتوح كما تجلَّت في الممارسة التاريخية كانت في أغلبها لا تتوافق مع الحرية الدينية والحوار مع الآخر.

الفصل الثّالث

حقوق الْمَسِيحِيِّينَ فِي الشّرع الإِسْلَاميّ وتشريعات الدّولة

اتسمت روح الشريعة الإسلامية بإفساح أرحب المجال للأعمال البشرية، إذ أنَّ «الإسلام هو دين الإنسان» – بحسب «رينان Renan»[1]، وهنا يتفق المشترعون المسلمون والفقهاء الغربيّون على أنّ القاعدة الأساسية في القانون هي الإباحة، غير أنّها غير مطلقة، بل مقيدة، وتقف عند حقوق الآخر وحريّاته في المجتمع، ومن هنا وضع المشرّع حدودًا للأعمال البشرية، أطلق عليها «الأحكام» بغية تنظيم الحياة الاجتماعيّة. في نفس الوقت، إنّ الشريعة الإسلاميّة تحضّ الفرد على الإندماج في المجتمع، وتحثّه على كل نشاط عمليٍّ مُجْدٍ يُغْنِيه عن السؤال والحاجة[2].

حدد الشّرع الإِسْلَاميّ، المُتَمَثّل فِي القُرْآن الكريمِ والسُّنَّة النَّبَوِيّة، الوضعَ القانونيَّ لأهل الكتاب من سكان الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة، حَتَّى من قَبْلِ الفتحِ، الَّذِي ضَمَّ إِلَى دار الإِسْلَام جماعاتٍ من أهلِ الكتاب، النَّصَارَى بِخَاصَّةٍ، مِمَنْ كَانُوا رعايا فِي الامْبَرَاطورِيَّة السّاسانية الفارسيَّة، عرب ونبط (آراميون)، والامْبَراطورِيَّة البِيْزَنْطِيَّة (روم). هَذَا الوضع هُوَ وضع المعاهدين[3]. فَقَدْ سمح لهَؤلاءِ النّاس الَّذِينَ لَمْ يدخلوا فِي الدّين الجديد بأنْ يستمروا فِي الإقامةِ بدار الْمُسْلِمِينَ. كَانُوا يتَمَتَّعون بحماية (ذمّة) الْمُسْلِمِينَ، وَكَانُوا

(1) – نقلا عن: دافيد دي سانتيللانا David de Santillana: القانون والمجتمع، بحث في تراث الإسلام، تحرير: سير توماس أرنولد، 2/ 103 – 144، (دار الجمل، بيروت، 2012) 2/ 112.

(2) – دافيد دي سانتيللانا: القانون والمجتمع، تراث الإسلام، 2/ 112.

(3) – جان موريس فييه: أحوال النّصارى فِي خلافة بني العباس، (دار المشرق، بيروت، 1990) ص34.

يُعْفَوْن من الخدمة العَسْكَرِيَّة، عَلَى شـرط أنْ يخضعوا لشرائع الإِسْلَام ويؤدُّوا الْجِزْيَة، ولذلك سُمُّوا بـ: أهل الذِّمَّة أَوْ الذِّمِّيِّين.

وعقـد الذِّمَّـة: هُوَ إقرار غير الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا هُـمْ عَلَيْهِ فِي دار الإِسْلَام، وحمايتهم مـن أيِّ عدوان، والدّفاع عَنْهُمْ، بشرط بذْلِ الْجِزْيَة والتّزام الأحكام الإِسْلَاميّة. ونطقتْ بمعانيه تفسيراتُ اللُّغَة الْعَرَبِيّة، بحَسَبِ الجوهري[1]: أهلُ الذِّمَّة: أهل العقد، والعهد - أيْضًـا. وَقَالَ أَبُو عبيد[2]: الذِّمَّة: الأمَان، فِي قـول رسول الله: «يسعى بذِمَّتهم أدناهم»[3] أَوْ ينعقد[4]. والذّمة: الضّمان.

خلافًـا لِمَـا قَالَ اللاهُوتِيّ ثيودور أَبُـو قرّة (ت205هـ/ 820م)[5] بـأنَّ الذِّمَّة تتناقض ورسالـة الإِسْـلَام العَالَمِيَّة، كتـبَ السّرَخْسِيُّ بأنَّ الغرض من عقد الذِّمَّـة لَيْسَ ماليًّا، بَلْ يستهـدف من ورائه إِلَى هَدْيِ الذِّمِّيّ إِلَى الإِسْلَام بالمعـروف، كَمَا أمرنا بِهِ القُرْآن {ادْعُ إِلَـى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} (النّحـل 125). يعقد عقد الذِّمَّة من قَبْلِ إمـام الأمّـة أَوْ خليفته إنْ توفـرت الشّروط، فَلَيْسَ لأحد من الطّرفيـن أنْ يأبَى قبولَه. أمَّا الَّذِيـنَ عدَّهـم الفقـهُ الإِسْلَامـيّ ممن يجوز عقـدُ الذِّمَّة مَعَهُـمْ فهُمْ: اليهـود والنَّصَارَى والمجوس والصّابئة، ويَقُولُ الأحناف: أَنَّهُ مَعَ المشركين يجوز عقد الذِّمَّة إنْ لَمْ يكونوا عربًا، أَمَّا الإمام مالك فيرخص عقد الذِّمَّة حَتَّى مَعَ المشركين الْعَرَب، ولَكِنْ شريطَةَ أنْ لا يكونوا مِن قُرَيْش[6].

مِـنْ هُنَـا يتَجَلَّى حَـقُّ الذِّمِّيّ فِـي الشّريعـة الإِسْلَاميّة فِـي كونِه قائمًا عَلَـى المساواة

---

(1) - الصّحاح تاج اللُّغَة وصحاح العَرَبِيّة 5/ 1926.

(2) - القاسم بن سلام: الأموال، ص241.

(3) - أحمد: المسند 11/ 402؛ ابن ماجه: السّنن 2/ 895؛ النّسائي: السّنن الكبرى 6/ 331؛ الحاكم: المستدرك عَلَى الصّحيحين 2/ 153.

(4) - عبد الرّزاق الصّنعاني: المصنف 5/ 226.

(5) - أحد آباء الكنيسة الشّرقية، أسقف حران الملكي، كتب بالعَرَبِيّة وباليونانيّة وبالسّريانيّة، من أوائل النّقلة، كَانَ يحاور المتكلمين المُسْلِمين فِي مجلس الخليفة المأمون. انظر: عادل خوري،» أَبُو قرة،« منتدى الحكواتي2011/ http: / /al - hakawati.la.utexas.edu /12/ 26/

(6) - تامر باجن أوغلو: حقوق أهل الذمة فِي الفقه الإسلاميّ، ص21.

مَـعَ الْمُسْلِـم بلحاظ قول الرّسـول مُحَمَّد: «فَـإِذَا قَبِلُوا عَقْدَ الذِّمَّـة فَأَعْلِمْهُـمْ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِيـنَ، وَعَلَيْهِـمْ مَـا عَلَيْهِمْ» وَهَذَا يَقْتَضِـي أَنَّ كُلَّ مَا ثَبَتَ فِي حَـقِّ الْمُسْلِمِينَ يَثْبُتُ فِـي حَـقِّ الذِّمِّيِّينَ، لاَ أَنَّ حَقَّهُـمْ يَزِيدُ عَلَى حَـقِّ الْمُسْلِمِينَ، وَلأَنَّ عَقْـدَ الذِّمَّة خَلَفٌ عَنْ الإِسْلَام، فَيَثْبُتُ بِهِ[1].

فالجزيـة تـدبير يخضع للملاءمـة الـسياسية. وهـي لا تفـرض علـى امرأة، ولا علـى طفـل، ولا علـى رجـل ديـن. فهـي قـد تفـرض فحسب علـى مـن هم فـي سن الخدمة العسكرية مـن غيـر المسلمين، مراعـاة لمشاركتهم فـي الـدفاع عـن الـوطن بالمال، مع ربـط تلـك المـشاركة الماديـة بالاستطاعة، والتحـول عـن الأخـذ منهم إلـى إعطائهم عنـد عـدم القـدرة مـن بيـت المـال، مراعـاة لعـدم إلـزامهـم بالتـضحيـة بـالنفس دفاعا عـن ديـن لـم يـدخلوا فيـه، مـن بـاب التأكيـد علـى الحريّـة الدينيّـة. ومـن يقبـل مـنهم الانتظـام مختـارا فـي الجيـش مـن مـدخل الـدفـاع عـن الـوطـن وتكـون يـده مـع المـسلميـن باختيـاره، فإنّـه لا ترفـع عنـه الجزيـة فحـسب، وإنمـا يتـساوى مـع المجاهـد المـسلم فـي العطـاء علـى قـدم المـساواة.

تَمَتَّـع أهـلُ الذِّمَّة، ومنهـم الْمَسِيحِيّـون، بحقوقهـم أُسْـوَةً بإخوانهـم الْمُسْلِمِينَ أَوْ كادوا، ومن خِلَالِ سنَّة الرّسول مُحَمَّد وسيرة الخلفاء الرّاشِـدِين، رشُـحَتْ العلاقةُ مَعَ أهـل الذِّمَّـة، ولاسِيَّمَا فِي كتابة عهـود الصّلْح والأمَان لَهُـمْ، وحُدِّدَ مَا لغيـرِ الْمُسْلِمِينَ مـن حقـوقٍ، ومـا عَلَيْهِمْ من واجباتٍ، فِـي نظامِ سُمِّي فِـي الشّرائـع الإِسْلَامِيّة «أحكام أهـل الذِّمَّـة»، الـذي تعهـده الفقهاء، وربمـا زادوا في القيـود، وضاعفوا فـي الشروط، والتفريق ببعض الحدود بينهم وبين المسلمين، مما حدا بهم انْ يصبحوا أقليات دينيّة. وفـي المقابل كانـت ادارة الدولة أكثر منهـم تسامحا مع أهل الكتـاب، فكثيرا ما قرّبت المسيحييـن، ولاسيما في العصر الأمويّ، واستعانت بهم، وقدرت معرفتهم وخدمتهم

(1) - الموسوعة الفقهية الكويتية 13/ 170.

في الطب والعلوم الأخرى.

ظلّت «أحكام أهل الذِّمَّة» تندرجُ تحتها: الأحكام الْمَالِيَّة، نحو: الْجِزْيَة، والخراج، وعشور التّجارة؛ وأحكام الأحوال الشَّخْصِيَّة، نحو: الزواج، والطّلاق، والميراث؛ وأحكام المعاملات، نحو: البيع، والشّراء، والاجارة، والشّفعة.

هَذَا المنهج الَّذِي تعامل بِهِ الْعَرَب الْمُسْلِمون مَعَ الأقليات الدّينِيَّة، يَكَادُ يُشَكِّلُ سابقةً لَدَى المِلَلِ نفْسِهَا مَعَ الدّوَلِ المُتَسَلِّطَةِ قَبْلًا، ويُشِير «روم لاندو Rome Landau»[1]: «عَلَى نقيض الإمْبِرَاطورِيَّة النَّصْرَانِيَّة، الَّتِي حاولت أنْ تفرضَ الْمَسِيحِيَّة عَلَى جميع رعاياها فرضًا، اعترف الْعَرَب بالأقليات الدّينِيَّة وقبلوا بوجودها. كَانَ النَّصَارَى، واليهود، والزرادشتيون، يعرفون عندهم بـ(أهل الذِّمَّة)، أوْ الشّعوب الْمُتَمَتِّعَة بالحماية. لقد ضُمِنَتْ حُرِّيَّةُ العبادةِ لَهُمْ من طريق الْجِزْيَة، الَّتِي أمسَتْ تُدْفَعُ بدلاً من الخدمة العَسْكَرِيَّة. وَكَانَتْ هَذِهِ الضَّريبةُ مضافًا إِلَيْهَا الخراج، أقلَّ فِي مجموعها من الضَّرائب الَّتِي كَانَتْ مفروضةً فِي ظِلِّ الحكمِ البِيزَنْطيِّ. كَانَتْ كلُّ فرقةٍ من الفرقِ الَّتِي تُعامَلُ كَـ«مِلَّةٍ»، أيْ كطائفةٍ نصفِ مستقلةٍ استقلالاً ذاتيًا ضِمْنَ الدّولة. وَكَانَتْ كلُّ مِلَّةٍ تخضَعُ لرئيسِها الدّينيّ».

يجدر بالمقارنة أنَّ ضريبةَ الرأس (Caput tax) التي فرضها الرومان على الأمم التي خضعت لهم، كانت تتراوح ما بين تسعة دنانير وخمسة عشر ديناراً في السنة على الشخص الواحد[2]. في حين كانت على عهد الرسول محمد دينارا واحدا في السنة. ويبدو أنَّها كانتْ تُفرض على غير المسيحيِّين من سكان الدولة[3]. أما بقية الفقرات فهي متقاربة، فقد فرضتها الدولة البيزنطية على سن الرابعة عشرة إلى الستين سنة،

---

(1) - الإسلام والعرب، ترجمة: منير البعلبكي، (دار العلم للملايين، بيروت، 1962)، ص119

(2) - جورجي زيدان: تاريخ العرب قبل الإسلام، مراجعة: حسين مؤنس،(ط3، دار الهلال، القاهرة، لا. ت) ص219.

(3) - رنسيمان، ستيفن: الحضارة، ترجمة عبد العزيز توفيق، مكتبة الهيئة المصرية، القاهرة، 1961 م)، ص109؛ عاشور، سعيد، تاريخ، ص201..

وأعفي منها الشيوخ والأطفال والنساء وأبناء الجند[1]، وبقي هذا النظام في مصر حتى الفتح الإسلامي[2].

بدأت المنظومات الفقهيَّة الإسلاميَّة تتشكَّل في القرن 2هـ/ 8م، واكتملتْ، أو كادتْ، في قرون تلَتْهُ، وهي حِقْبَةٌ تأخرت أكثرَ من قرن عن زمن الفتوح، ومعنى هذا أنَّ الفقهاء وجدوا أمامهم سلوكًا تاريخيًّا للسلطة والجماعة الإسلامية، فيما يتصل بأهل الذمة، وهذا الإدراك إنْ أعطى فكرة عن محدوديَّة تأثير الفقهاء في البداية، فإنَّه لا ينبغي أنْ يدفعَ الى التطرف في تتبع مُجريات الواقع، باعتباره الحكم الأول والأخير، ذلك أنَّ المسلك العامَّ للجماعة الإسلاميَّة كان في النهاية شيئًا غير تصرفات الأفراد[3].

1. الْحُقُوق الإِجْتِمَاعِيَّة

تُعَدُّ الشَّخْصِيَّةُ الجماعيَّةُ للأقلياتِ، أَوْ لِكُلِّ مُكَوِّنٍ فِي الْمُجْتَمَعِ، مُعْتَبَرَةً لَدُنِ الْمُشَرِّعِ الإِسْلَامِيِّ، باعتبارِها من الشّعوب المتَمَتِّعة بالحمايَةِ، وأطلقَ عَلَيْهَا الرّسول - في وثيقة المدينة - لَفْظَ: «أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ»، فَهُوَ يقدِّرُ عَلاقَاتِهِم بَيْنَهُمْ، ويَقُرُّ قِيَمَهُم ومبادِئَهم الاِجْتِمَاعِيَّة، وإِدَارَتَهم القضائيَّةَ بينهم، فلا يتدخَّل فِيهَا، فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ، يلتزمُ باحترامِ مشاعِرهم فِي أفراحِهم وأحزانِهم بأعلَى معانِي الإِنْسَانِيَّةِ، بَلْ يقفُ مَعَهُمْ الْمُسْلِمون ويؤازونَهم أَوْ يواسونَهم فِي مشاعِرهم. وَقَدْ أوردت لَنَا مصادر التّراث الفِكْرِيّ الإِسْلَامِيّ مَا يغني المَوْضُوع.

أُسْنِدَ[4] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (ت78هـ/ 697م)، قَالَ: مَرَّتْ بِنَا جِنَازَةٌ، فَقَامَ لَهَا رَسُولُ اللهِ، وَقُمْنَا مَعَهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، قَالَ: «إِنَّ الْمَوْتَ فَزَعٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْجِنَازَةَ فَقُومُوا». وصارت أثرًا دالًا على الإحترام للآخر فِي سلوك الصّحابة. وعن ابْنَ أَبِي لَيْلَى (ت83هـ/ 702م)، قَالَ: كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ(ت38هـ/ 658م)، وَ

(1) - بينز، نورمان، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1950م)، ص161.

(2) - حسين الشيخ: الرومان، (دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1989) ص101.

(3) - رضوان السيد: «المسيحية في الفقه الإسلامي»، المسيحيون العرب، ص35.

(4) - أحمد: المسند 14/ 211، 22/ 327؛ البخاري: الصّحيح 2/ 85.

قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ(ت60هـ/ 680م) قَاعِدَيْنِ بِالقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّة، فَقَالاَ: إِنَّ النبيَّ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟»[1]، إشارةً رائدة إِلَى الشّعور بِتَوَحُّدِ النّفسِ الإِنْسَانِيَّة، واحترام مشاعرها، وإِنْ اختلفتْ النِّحَل والأهواءِ والملل.

كَانُـوا يشيِّعون أمواتهم علنا، وَكَانَ الرّسول مُحَمَّد قَدْ أجاز أَنْ يحضرَ الْمُسْلِمُ جنائز أقاربـه مـن أهل الذِّمَّة، وَفِي رِوَايَة كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ: جَاءَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَـمَّاسٍ[2] إِلَى النّبِيِّ مُحَمَّد، فَقَالَ: «إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَهِيَ نَصْرَانِيَّةٌ[3]، فَأُحِبُّ أَنْ أَشْـهَدَهَا؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ: ارْكَبْ وَتَقَدَّمْهَا، فَإِنَّكَ إِذَا كُنْتَ أَمَامَهَا تَكُنْ مَعَهَا»[4].

فِـي الكوفة إِبَّانَ خِلاَفَة الإمام عَلِيّ، كَانَتْ جنائز الْمَسِيحِيّن تشيع فِي الأسواق أُسْوَةً بجنائزِ الْمُسْلِمِينَ، ينقل الدّينوري[5]: إِنَّ ابنَ ملجم[6] «خرج ذات يوم إِلَى السّوق متقلِّدًا سيفَـه، فمـرت بِهِ جنازةٌ، يُشَيِّعُهَا أشـرافُ الْعَرَب، ومعها القِسِّيسُـون، يقرأون الإِنْجِيل. فقـال: ويْحَكُـمْ!، مَا هَذَا؟ فقالوا: هَذَا أبجر بن جابر العجلى مات نَصْرَانِيًا، وابنه حجار بن ابجر سيد بكر بن وائل، فاتَّبعها أشرافُ النّاس لسؤددِ ابنه، واتَّبعها النَّصَارَى لدينه». وأضـاف البـلاذري[7] «ونَصَارَى الحِيـرَة يحملونه، ومع ابنه حجار بْن أبجر: شَـقِيقُ بنُ

---

(1) – البخاري: صحيح 2/ 85؛ الطبراني: المعجم الكبير 6/ 90.

(2) – ابن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن الأعز بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج. (خليفة بن خياط: الطبقات، ص 414) وَهَذَا دليل عَلَى وجود النّصرانية فِي يثرب.

(3) – أمه امرأة من طي. ابن عبد البر: الاستيعاب فِي معرفة الأصحاب 1/ 200.

(4) – الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت463هـ) تاريخ بغداد، تح: مصطفى عبد القادر عطا (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 1417 هـ) 9/ 116. وبصيغة: «إذا كنت أمامها لا تكُنْ معها» فِي تاريخ بغداد، تح: بشار عواد (دار الغرب الإسلاميّ، بيروت 2002م) 10/ 165. انظر الحديث: ابن الجوزي: العلل المتناهية 2/ 219.

(5) – أبُو حنيفة (ت 282هـ): الأخبار الطوال، (دار إحياء الكتاب العَرَبِي، القاهرة، 1960 م) ص 214؛ وقارن: الطبري: تاريخ الرّسل والملوك، 5/ 145.

(6) – عبد الرّحمن بن ملجم المرادي الخارجي، قاتل الإمام علّي بن أبي طالب، وقتل بِهِ سنة 40هـ/ 660م. ابن عبد البر: الاستيعاب 4/ 1447.

(7) – جمل من أنساب الأشراف، 2/ 494.

ثَوْرٍ[1]، خالدٌ بن المعمر[2]، حُرَيث بن جابر[3]، وجماعة من الْمُسْلِمِينَ يمشون فِي ناحية إكراما لحجار». وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا إِلَا بَعْضُ شَـوَاذِ النَّاسِ، الَّذِينَ قَدْ تَسْتَهْوِيهِمْ مُخَالَفَةُ النِّظَامِ، فيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ للمُسَاءَلَةِ مِنْ لَدُنِ الإمامِ[4]. زِدْ عَلَى ذَلِكَ إِنَّ للنَصَارَى مقبرةً يدفنون فِيهَا موتاهم، وَهِيَ معروفةٌ، أسماها أَبُو الفرج[5]: «ناووس[6] الكوفة».

فِـي ولايـة الحـارث بن عبـد الله بن أبـي ربيعة[7] عَلَـى البصـرة (65 - 67هـ) لابن الزبيـر، تكـرر المشهد، إِذْ ذكر أهـل الآثـار[8]: «أَنَّ أُمَّ الْحَـارِثِ تُوُفِّيَتْ وَهِـيَ نَصْرَانِيَّةٌ، فَخَرَجَ الْحَارِثُ مَعَ جَنَازَتِهَا، وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، يَمْشُونَ مَعَ جَنَازَتِهَا».

تأبى أخلاقُ النَّصَارَى إِلَّا أَنْ يبادلوا الْمُسْلِمِينَ المواساة فِي المشاعر، ينقل ياقوت[9]: إن نَصَارَى نَجْرَان الكوفة، كَانَتْ لَهُمْ يدٌ فِي حمل نعش عَلِيّ بن أبي طالب فِي النَجْرَانية.

---

(1) - أَبُو الفضل السّدوسِي البصري، (ت64هـ) رَئِيسُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ فِي الإِسْلام، وَكَانَ حَامِلُ رَايَتِهِمْ يَوْمَ الجَمَلِ، وَشَهِدَ صِفِّينَ مَعَ عَلِيٍّ.. ابن الاثير: الكامل فِي التاريخ 3/ 261؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 5/ 124.

(2) - خَالِد بن المعمر بن سلمان بن الحارث ابن شجاع بن الحارث بن سدوس بن شيبان بن ذهل ابن ثعلبة بن عكاثة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الذهلي شهد صفين مَعَ علي ثُمَّ غدر بالحسن بن علي ولحق بمعاوية. ابن عساكر: تاريخ دمشق 16/ 205.

(3) - ابن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة، الحنفي، شهد صفين مَعَ علي، وَكَانَ أميرا عَلَىٰ لهازم البصرة. ابن العديم، (ت 660هـ) بغية الطلب فِي تاريخ حلب 5/ 2197؛ ابن حزم، الظاهري (ت 456هـ): جمهرة أنساب العرب، ص312.

(4) - قَالَ ابن ملجم: والله لَوْلاَ انى ابقى نفسي لامر هُوَ اعظم عِنْدَ الله من هذا؛ لاستعرضتهم بسيفي، فإنهم قَدْ أتوا أمرًا عظيما،! فأخذ وأتِيَ بِهِ إِلَى علي فَقَالَ: هل أحدث حدثا؟ قَالُوا: لا. فخلى سبيله. الأخبار الطوال، ص 214؛ أنساب الأشراف 2/ 494.

(5) - الأغاني 4/ 312، 18/ 349.

(6) - النَاووس والنّاوس مقبرة النّصارى معرب نأوس باليونانية جمع نواويس. دوزي: تكملة المعاجم العَرَبِيَّة 10/ 335.

(7) - ابْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْزُومٍ، ويلقب «القباع». ابن سعد: الطبقات الكبرى 5/ 20؛خليفة بن خياط: الطبَقات، ص409.

(8) - أَبُو يوسف، (ت 182هـ): الآثار، ص 81؛ مصعب الزبيري: نسب قريش، ص 318؛ ابن الكلبي: جمهرة أنساب العرب، ص32؛ الفسوي، (ت 277هـ): المعرفة والتاريخ 3/ 194؛ البلاذري: أنساب الأشراف 7/ 9؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 11/ 445.

(9) - معجم البلدان 5/ 269.

وَقَالَ عبيد الله بن موسى بن جار بن الهذيل الحارثي يرثيه:

بكيت عليًا جهد عيني فَلَمْ أجد عَلَى الجهد بعد الجهد مَا أستزيدها

فما أمسكت مكنون دمعي وما شفت حزينا ولا تسلى فيرجى رقودها

وَقَدْ حمل النّعش ابن قيس ورهطه بنَجْرَان والأعيان تبكي شهودها

ونلحظ مدى العدالة مَعَ الآخر الدّينيّ، من خلال الدفاع عن تراثه الفِكْرِيّ في رواية: إنَّ الإمام عَلِيًا مرَّ مَعَ اصحابه عَلَى أحد الأَدْيِرَة المُهَدَّمَة فِي عاقولا (الكوفة)، فوجد أحدهم كَانَ يغتسل فِيهَا، فنظره معاتبًا، فقال الرجل، مُسَوِّغًا فِعْلَه، مُوَجِّهًا خطابَه إلَى اطلال الدّير: لطالَما كُفِرَ بالله ها هُنَا... فردَّ عَلَيْهِ الإمام: بَلْ قُلْ: طالما عُبِدَ اللهُ ها هُنَا[1].

وَفِي السّماح لغير الْمُسْلِمِينَ الدّخول إلَى المسجد، فَقَدْ ذُكر: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ من وُفُودِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، كَانُوا يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ عَلَى رسول اللَّهِ، فَإِنَّهُ رُوِيَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ دخل الْمَسْجِدَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَكَذَا وَفْدُ ثَقِيفٍ، دَخَلُوا الْمَسْجِدَ، وَقَالَ رسول اللَّهِ يوم فَتْحِ مَكّة: من دخل الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ جَعَلَ عَلَيْهِ الصّلاَةُ وَالسّلاَمُ الْمَسْجِدَ مَأْمَنًا وَدَعَاهُمْ إلَى دُخُولِهِ[2].

وعليه اختلف الفقهاء، فقال الشّافعي: لا يجوز لَهُمْ أنْ يدخلوا المسجد الحرام بحال، لا بإذنِ الإمام، ولا بغيرِ إذنِه، وما عداه من المساجد، لا بأسَ أنْ يدخلوها بالإذن[3]. وَقَالَ أَبُو حنيفة: يدخل الحرم والمسجد الحرام وكل المساجد بإذن[4]. قَالَ الزركشي: يجوز دخول الذِّمّيّ المسجد بلا إذْنٍ، لحاجةٍ إلَى مسلم أوْ حاجة مسلم

(1) - ضياء الموسوي: «شيعة العِرَاق»، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 884، الأحد 06 فبراير 2005م؛ جواد العطار: «حوار بمناسبة اليوم العالمي للتسامح»، شبكة العِرَاق الثّقافية، www.iraqcenter.net.

(2) - علاء الدين الكاساني: بدائع الصّنائع في ترتيب الشرّائع 5/ 128.

(3) - النّووي، محيي الدين: المجموع 2: 174 و19: 433 - 434؛ الجصاص: أحكام القرآن 3/ 88.

(4) - ابن العَرَبِيّ: أحكام القرآن 2/ 902؛ الطوسي: الخلاف 1 / 518.

إِلَيْهِ[1].

ومـن الحقوق الإجتماعيـة صيانة الجار، والحفـاظ على كرامته، فقـد قال الرسول محمـد: «والله لايؤمن، ثلاثا، قيلَ: من يا رسولَ الله، قال: مَنْ لاَ يأمَنُ جارُهُ بوائِقَهُ»[2]. وكان النَّبِيُّ يكرم جاره، ويقدمه، ولوكان على دين آخر، ففي رواية أنّه قَالَ لِعَائِشَةَ - عِنْدَ تَفْرِيـقِ لَحْمِ الْأُضْحِيَةِ: «ابْدَئِي بِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ». واستمرَّ هذا التكريم بعده سنّةً، فَرُوِيَ أَنَّ شَـاةً ذُبِحَـتْ فِي أَهْلِ عَبْدِ اللَّـهِ بْنِ عَمْرٍو، فَلَمَّا جَاءَ، قَالَ: أَهْدَيْتُـمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟، ثَـلَاثَ مَرَّاتٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يقول: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[3].

2. الْحُقُوق الدّينِيَّة

أَمَّـا الْحُقُـوق الدّينِيَّـة فكانـت محفوظـةً لَهُـمْ، بحَسَـبِ شـريعة القُـرْآن والرّسول، ومعاهدات الصّلْح، وكتُبِ التّوصية الصّادرةِ عَنْ النّبيّ مُحَمَّد والخلفاء الرّاشِدِين بحق أهـل الذِّمَّة، ومن أهمِّهـا حُرِّيَّةُ الدّين والعبادة، فعلى الرغم مـن أنَّ الدعوة الى الإسلام هدف مشروع، بحسب النص {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِـي هِيَ أَحْسَـنُ} (النحل125)، الّا أنّه لا يبيح إكراه غيـر المسلمين على ترك دينهم، واعتنـاق الإسلام، بدلالـة {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ قَدْ تَّبَيَّنَ الرّشْـدُ مِنَ الْغَـيِّ} (البقرة256). أكد الفقهاء على هذا المنحى، واتفقوا على أنَّ لأهل الذِّمَّة حقَّ القيام بواجباتهم الدّينِيَّة والعِبَادِيَّـة فِي معابدهم[4]. أما ما يتصـل بالشعائر الدينيَّة من عقائد وعبادات، وما يتصل بالأسْرَى مـن زواج وطلاق، فلغيـر المسلمين المعاهديـن فيها الحريـة المطلقة، تبعًا للقاعدة الفقهية: «اتركوهم وما يدينون»[5].

فِـي مطلع دخول الإِسْـلَام إِلَى المدينة، واحتكاكـه بالدِّيَانَات الموجـودة فِيهَا، كَانَ

(1) - النّووي، (ت676هـ): روضة الطالبين، (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت) 1/ 102.
(2) - القرطبي: التفسير 5/ 184.
(3) - القرطبي: م.ن. 5/ 188.
(4) - تامر باجن أوغلو: حقوق أهل الذمة فِي الفقه الإسلاميّ، ص24.
(5) - سيد سابق: فقه السنة 2/ 663.

ثَمَّـةَ مُمَارَسَة سَجَّلها أهل التّاريخ[1]، فِـي سبب نزول آية {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}. قيل: أنها نزلت فِي رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال لَهُ الحصين، كَانَ لَهُ ابنان تنصَّرا عَلَـى تجار من الشّام قدمـوا إِلَى المدينة، وَكَانَ هُوَ رجلًا مسلمًا، فقال للنبي مُحَمَّد: أَلَا أستكرههما؟، فإنهما قَدْ أَبَيَا إلا النَّصْرَانِيَّة، فأنزل الله فِيهِ ذَلِكَ، وَكَانَ رسول الله يَقُولُ: «قَدْ خُيِّرَ أصحابُكم، فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهـم فهم مِنْهُمْ»[2].

كَانَـتْ الْحُقُـوق الدِّينِيَّة هِـيَ المتصدِّرة فِي طبيعـة العلاقَة بَيْنَ الدَّولَـة العَرَبِيَّة وأهل الذِّمَّـة، فأقـدمُ مواردِها العهـودُ والمواثيق، الَّتِي كتبهـا الرّسولُ مُحَمَّد إِلَـى أهل الذِّمَّة، وَكَانَـتْ فِـي مطلعها صحيفةُ المدينـة، الَّتِي أفصحت عن حقوق الآخـر الديني وحريته فـي التعبد لمـا يعتقد، وقـد وردت بِرِوَايَة ابن شـهاب الزهـري (ت124هــ)[3]، بعبارة تكـررت توكيـدا للحقوق الدِّينِيَّـة والسِّيَاسِيَّة: «وَإِنَّ يَهُـودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَـعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُـودِ دِينُهُـمْ، وَلِلْمُسْلِمِيـنَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِـمْ وَأَنْفُسُهُمْ»[4]، وتلتها معاهـدات مَعَ: وَفْد نَصَـارَى نَجْرَان[5]، وأَهْلِ أَذْرُحَ[6]، ونَصَـارَى بني تَغْلِب[7]، فِي غيرهم؛ وما كتبه الخلفاء الرّاشـدون فِي الْفُتُوح إِلَى النَّصَارَى من كتـب أمان، جميعها تؤكِّد عَلَى الْحُقُوق الدِّينِيَّة والسِّيَاسِيَّة.

ثَمَّـةَ مُمَارَسَـات تدل عَلَى احتـرام الْحُقُوق الدِّينِيَّـة، مِنْهَا: محادثـة يرويها من تَنُوخ رسـول هرقل إِلَى النَّبيّ مُحَمَّد، الَّذِي قَالَ لَهُ النَّبـيّ: «هل لك فِي الإِسْلَام، الحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ أبيك إِبْرَاهِيم؟ فقلت: إنِّي رسولُ قوم، وعلى دينِ قوم، لا أرجع عَنْهُ حَتَّى أرجعَ إِلَيْهِمْ؛

---

(1) - أخرجه ابن إسحق وابن جرير عَنْ ابن عباس. السّيوطي: الدر المنثور (دار الفكر، بيروت، 1993) 2/ 21.

(2) - الطبري: جامع البيان 5/ 410؛ البيهقي: السّنن الكبرى 9/ 186.

(3) - أوردها: أبو عبيد: الاموال، ص291 - 294؛ ابن زنجويه، (ت251هـ): كتاب الاموال، 2/ 466 - 470.

(4) - ابن هشام: السّيرة النّبوية 1/ 503.

(5) - السّهيلي، (ت 581هـ): الرّوض الأنف 5/ 5.

(6) - البيهقي: دلائل النّبوة 5/ 248.

(7) - الصّالحي، (ت 942هـ): سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد، 9/ 126.

فضحـكَ النّبـيّ، وَقَالَ: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّـهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}»[1].

إنَّ نَصَـارَى[2] نَجْـرَان[3] كَانُوا مِمَّنْ وَفَـدَ عَلَى الرّسول فِي السّنـة التّاسعة للهجرة[4]، واستقبلهـم الرّسـول مُحَمَّدٌ فِي مسجـد المدينة، المركز الإِدَارِي للحكـم، وسمح لَهُمْ بالصّـلاة فِي مسجـده[5]، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ممانعةِ ثُلَّةٍ من أصحابـه، إقرارا مِنْهُ بأنَّ الصّلاة للـه، وإنْ اختلفـت الدِّيَانَات، وأنَّ مـن حقهم مُمَارَسَة طقوسهم الإيمانيَّة أنّى شـاءوا مَا دامت بيوت العبادة لله.

ومحـاورة هند بنـت النّعمان، وَقَدْ دخلـت عَلَى خَالِد بن الوليـد (ت21هـ/ 642م) لَمَّـا افتتح الحِيرَة، فقال لها: أَسْلِمِي، حَتَّى أزوجك رجلا شـريفا من الْمُسْلِمِينَ، قَالَتْ: أمّـا الدّيـن فلا رغبةَ لي عَنْ دينى، ولا أبغِي بِهِ بدلًا؛ وَأَمَّا التّزويج فلو كَانَتْ فِيَّ بقيّةٌ، لَمَا رغبـتُ فِيـهِ؛ فَكَيْفَ، وأنا عجوز هامـةٌ اليوم أَوْ غد؟. قَالَ: سلينى حاجـةً. قَالَتْ: هَؤلَاءِ

(1) - القصص 56، انظر: الصّالحي: م. ن. 5/ 458.

(2) - قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله - صَلّىَ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفْدُ نَصَارَى نَجْرَانَ، سِتّونَ رَاكِبًا، فِيهِمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فِي الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ إلَيْهِمْ يَئُولُ أَمْرُهُمْ الْعَاقِبُ أَمِيرُ الْقَوْمِ وَذُو رَأْيِهِمْ وَصَاحِبُ مَشُورَتِهِمْ وَالّذِي لَا يُصْدِرُونَ إلّا عَنْ رَأْيِهِ وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ وَالسّيّدُ لَهُمْ ثِمَالُهُمْ وَصَاحِبُ رَحْلِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ وَاسمه: الْأَيْهَمُ، وَأَبُو حَارِثَةَ بْنُ عَلْقَمَةَ، أَحَدُ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، أُسْقُفُهُمْ وَحَبْرُهُمْ إمَامُهُمْ وَصَاحِبُ مِدْرَاسِهِمْ. ابن هشام: السّيرة النّبوية 1/ 573؛ ابن سعد: الطّبقات 1/ 2/ 84؛ البلاذري: فتوح البلدان 70؛ البيهقي: دلائل النّبوة، 5/ 383؛ النّويري: نهاية الأرب، 18/ 121.

(3) - نَجْرَانَ: مدينة بالحجاز من شق اليمن، سُمِيتْ بِنَجْرَانَ بْنِ زَيْدِ بْنِ يُشْجَبَ بْنِ يَعْرُبُ بْنِ قَحْطَانَ وَأَمّا أَهْلُهَا فَهُمْ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ مِنْ مَذْحِجَ. البكري (ت487هـ): معجم ما استعجم، 4/ 1299؛ السّهيلي: الرّوض الأنف 3/ 240.

(4) - ذكر المؤرخون كالطبري وابن الأثير والمقريزي: أن نصارى نجران إنما وفدوا عَلىَ رسول الله سنة عشر من الهجرة، وذكر آخرون كأبي الفداء فِي البداية والنّهاية ونظيره فِي السّيرة الحلبية: أن ذَلِكَ كَانَ سنة تسع من الهجرة. الطباطبائي: الميزان فِي تفسير القرآن 3/ 293.

(5) - وَلَمَّا قدم وفد نجران ودخلوا المسجد النّبوى بعد العصر حانت صلاتهم فقاموا يصلون فِيهِ فأراد النّاس منعهم فقال عَلَيْهِ السّلام دعوهم فاستقبلوا المشرق وصلوا صلاتهم. البيهقي (ت 458هـ): دلائل النّبوة 5/ 382؛ الدّيار بَكْري، (ت 966هـ): تاريخ الخميس فِي أحوال أنفس النّفيس.

النَّصَارَى الَّذِينَ فِي أيديكم تحفظونهم[1].

حددت المعاهدات طبيعة أداء الطقوس لأهل الذمة، من إظهار الصلبان وضرب النواقيس وما إليها، فقد اشتمل عهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة على أنْ لا يمنعون من ضرب النواقيس ولا من إخراج الصلبان في يوم عيدهم[2]. وعهده لأهل عَانَاتٍ[3] وقَرْقِيسْيَاءَ[4]» أنْ لاَ يَهْدِمَ لَهُمْ بَيْعَةٍ وَلا كَنِيسَةٍ وَعَلَى أَنَّ يَضْرِبُوا نَوَاقِيسَهُمْ، فِي أَيِّ سَاعَةٍ شَاءُوا، مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إلا فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ، وَعَلَى أَن يخرجُوا الصلبات فِي أَيَّامِ عِيدِهِمْ»[5]. ومن الممارسة التاريخية، إن ابا عُبَيْدَة الجراح أذِنَ لنصارى الشام بِإِخْرَاجُ الصُّلْبَانِ فِي يَوْمٍ مِنَ السَّنَةِ، وَهُوَ يَوْمُ عِيدِهِمُ الَّذِي فِي صَوْمِهِمْ[6]،

يرى فقهاء الحنفية[7] أنْ يُكره - في أمصار المسلمين - إظهارُ الصلبان وضرب النواقيس خارج الكنيسة والمعبد، مراعاة لمشاعر المسلمين، وخشية من تزاحمها شعائر الإسلام في أوقات الصلاة اليوميَّة، والجمع، والأعياد. لكنها في القرى والمواضع، التي للمَسِيحِيِّينَ وغيرهم من أهل الذمَّة، يحق لهم إظهار طقوسهم الدينية.

كَانَ الْمَسِيحِيّون يؤدُّون طقوسَهم الدّينِيَّة فِي الكَنَائِس والبيع، ويضعون الصّلبان الصّغيرة عَلَى رقابهم، أوْ عَلَى ملابسهم تعبيرا عَنْ انتمائهم الدّينِيّ فِي الحياة العَامَّة، إذْ أنَّ الصَّلِيبَ من المستلزمات الدّينِيَّة لَدَى الْمَسِيحِيِّينَ، وَإِنْ اقْتِنَاؤُهُمْ لَهُ عَلَى وَجْهٍ يُقَرُّونَ عَلَيْهِ، كَالذّي يَجْعَلُونَهُ فِي دَاخِلِ كَنَائِسهِمْ أَوْ بُيُوتِهِمْ، فَإِنْ غَصَبَهُ غَاصِبٌ وَجَبَ

---

(1) - البكري: م. س. 2/ 604.

(2) - أبو يوسف: الخراج، ص 157؛ عبد الوهاب خلاف: السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية (دار القلم، 1988) ص 101؛ محمد حميد الله: الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة 1/ 387.

(3) - قرى عانات بناها كسرى، وكانت بين هيت وقرقيسيا على الفرات. السمعاني: الأنساب 9/ 167.

(4) - أبو يوسف: م. ن، ص 160.

(5) - بلدة بين الحيرة والشام، في إقليم الجزيرة، ينظر: ياقوت: معجم البلدان 4/ 328؛ كي ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص 138.

(6) - أبو يوسف: م. س، ص 155.

(7) - السرخسي: شرح السير الكبير 1/ 1533؛ الموسوعة الفقهية الكويتية 38/ 159.

رَدُّهُ اتِّفَاقًا. أَمَّا إِنْ أَتْلَفَهُ مُتْلِفٌ،... فَعِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ: فِيهِ الضَّمَانُ، بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمْ فِي ضَمَانِ الْمُسْلِمِ خَمْرَ الذِّمِّيِّ؛ لِأَنَّهُ مَالٌ مُتَقَوَّمٌ فِي حَقِّهِمْ... وَقَدْ أُمِرَ الْمُسْلِمون بِتَرْكِهِمْ وَمَا يَدِينُونَ[1].

والصَّلِيب يحلفون بِهِ فِي أَيْمَانِهِم أمامَ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي حوار ذكره أهلُ الأخبار[2]: إنّ المغيرة بن شعبة، عاملَ الكوفة[3]، طلبَ هند بنت النّعمان فِي ديرها. قَالَتْ: فما حاجتك؟ قَالَ: جئتك خاطِباً. قَالَتْ: لَوْ جِئْتَنِي لِجَمَالٍ أَوْ لِمَالٍ لأَجِبْنَاكَ... هَذَا، والصَّلِيبِ، مَا لا يكونُ أَبَدًا، أَوَ مَا يكفيكَ فَخْرًا، أَنْ تكونَ فِي ملك النّعمانِ وبلادِهِ، فتُدَبِّرَها كَمَا تُرِيدُ... فخرجَ المغيرةُ وَهُوَ يَقُولُ:

فَلَقَدْ رددتِ عَلَى المغيرةِ ذهنَه ... إنَّ الملوكَ ذكيَّةُ الأذهانِ

إنّي لِحلفِكِ بالصَّلِيبِ مُصَدِّقٌ ... والصُّلْبُ أصدَقُ حِلْفَةَ الرُّهْبَانِ

وَفِي مفاخرة بَيْنَ جرير والأخطل، تستدعي الأخطل إِلَى القَسَمِ بالصَّلِيب[4]: لمَّا قال جرير:

إِذَا أَخَذتْ قَيْسٌ عليكَ وخِنْدِفٌ ... بأقطارِها لم تَدْرِ من اين تَسْرَحُ

قال الأخطل: لا أين سَدَّ، واللهِ ... عليَّ الدنيا، فلما أنشد قوله

فما لك في نَجْدٍ حَصَاةٌ تَعُدُّها ... وما لكَ من غَوْرَيْ تُهَامَةَ أبطَحُ

قال الأخطل: لا أبالي، والله، أَلَّا يكونُ فتحٌ لي، والصليبِ، ليَ القول، ثم قال:

ولكنْ لَنَا بَرُّ العِرَاق وبَحْرُه ... وحيث تَرَى القرْقُورَ في الماء يَسْبَحُ

وَفِي حضرة بشر بن مروان والي العِرَاق (71 – 74هـ) يقسم الأخطل بربِّ النَّصَارَى

---

(1) – الموسوعة الفقهية الكويتية 12/ 89.

(2) – أبو الفرج: الأغاني 2/ 131، الديارات، ص28؛ البكري: م. س. 2/ 605؛ عبد القادر البغدادي (ت1093هـ): خزانة الادب ولب لباب لسان العرب، 7/ 70.

(3) – ولي الكوفة مرتين: الاولى للخليفة عثمان بن عفان22 – 24هـ والثّانية لمعاوية بن أبي سفيان41 – 50. زامباور: معجم الانساب والاسرات الحاكمة، 67.

(4) – ابن سلام الجمحي (ت 232هـ): طبقات فحول الشّعراء، 2/ 487؛ أبو الفرج: الأغاني 8/ 328.

ورب الرّهبان[1]:

إنِّي وربِّ النَّصَارَى، عِنْدَ عيدِهمُ	والمُسْلِمِينَ، إذَا مَا ضمَّها الجمعُ
وربِّ كلِّ حبيسٍ فوقَ صومعةٍ	يمشِي ولا همُّه الدّنيا ولا الطّمع

كَانَ الْمَسِيحِيّون يعنَوْنَ بأمكنة العبادة الخَاصَّة بِهِمْ، ويدافعون عَنْهَا إِذَا امتدت إِلَى ضمِّها أعينُ السّلطان، وأضحىٰ بناء الكَنَائِس، وأعمارها فِي العصر الأُمَوِيّ، ظاهرةً مألوفة لَدَى الدّولة وبرعايتها، أَوْ من أوقاف الْمَسِيحِيِّينَ أنفسهم، إِذْ سُمِحَ لَهُمْ بإيقاف الأموال عَلَى الكَنِيسَة، وَذَلِكَ فِي عهد عمر بن عبد العزيز (99 – 101هـ)[2]. سرى هذا المبدأ الى مقال الفقهاء، فكان الراجح منها ما ذهبَ إليه الزيديَّة وبعض المالكية، من أنّه يجوز لأهل الذمة إحداث الكنائس والمعابد الأخرى في أمصار المسلمين، وفيما فتحوه عُنْوَةً، إذا أذِنَ لهم الإمام بذلك[3]، لأنَّ الإسلام يقرُّ أهلَ الذمَّة على عقائدهم، ومن لوازم الإقرار السماح لهم بإنشاء معابدهم.

استدل على هذا المنحى «تريتون A. S،Tritton»[4]، واستشهد بالممارسات التاريخيَّة عليه، في قوله: «إنَّ الكَنَائِس كَانَتْ تُبْنَى بحرِّية، وَكَانَتْ بموافقة السّلطة وأصحاب الأمر والنّهي، بَلْ أحيانًا بمساعدتهم»، وَقَدْ رمّم معاويةُ كَنِيسَة الرّها (أُديسًا) والتي كَانَتْ قَدْ تهدمت من جرَّاء الزلازل[5]، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ استجابَ لطلب نَصَارَى دِمَشْقَ بعدم زيادة كَنِيسَة يوحنا فِي مسجد دِمَشْقَ[6]، كَمَا بنيت أول كَنِيسَة بفسطاط مِصْرَ

(1) – ديوان الأخطل، شرح: مُحَمَّد مهدي مُحَمَّد ناصر الدين (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت 1994) ص203.

(2) – المسعودي: مروج الذهب، تح: شارل بلا 3/ 215.

(3) – زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، ص98.

(4) – آرثر ستانلي تريتون: أهل الذمة فِي الإسلام، ص 51.

(5) – إِبْرَاهِيم احمد العدوي: الأَمَوِيّون والبيزنطيون، ص291.

(6) – العقيلي، عمر سليمان: خلافة معاوية، ص80

فِي حارة الرّوم فِي ولاية مسلمة بن مخلد[1] عَلَى مِصْرَ (47 - 62هـ)[2].

لَمْ يُحاوِلْ الخليفةُ عبد الملك الاستيلاء عَلَى كَنِيسَة يوحنا، عِنْدَمَا رفضَ أهلُ الذِّمَّة تسليمَها إلَيْـهِ[3]، كَمَا أَنَّهُ سمح لَهُمْ بمُمَارَسَـة طقوسهم الدِّينِيَّة بحرية، وبناء الكَنَائِس والأَدْيِـرَة، فَقَدْ شـيّد أثينـاس، كاتب ديوان خـراج مِصْرَ عَلَـى عهد عبد العزيـز، كَنِيسَة «أم الإلـه» فِي الرّها، كَمَا شـيّد فِي مِصْـرَ - أَيْضًا - كَنِيسَتين وديراً، فَضْلًا عَنْ أشـغالهم مناصب عالية فِي إِدَارَة الدّولة[4]. وَكَذَلِكَ شـهد القَرْن السّابع بداية ظهور كَنِيسَة جديدة فِي سوريا هِيَ الكَنِيسَة المارونية[5].

يَكَـادُ الوضـعُ القانونِـيُّ للمعابـد يحظى باتفـاق بَيْنَ الفقهـاء، فلا يجوز بنـاءُ معابدَ للذميين فِي المواضع الإِسْلَامِيّة أَوْ المحيط المجاور لهـا، الا مَعَ الرّخصة من الإمام، إِذَا تأكّد أنَّ بناء الكَنَائِس والمعابد تخدُم المصلحة. ويجوز إعادة بناء الكَنَائِس والمعابد المتهدِّمة عِنْدَ مالك والشّافعي وأبي حنيفة مَعَ عهد الصّلْح، ولا يجوز عِنْدَ الحنابلة بناء المعابد والصّوامع، ولا يجوز ترميم مَا انهدمَ مِنْهَا فِي بلاد الْمُسْلِمِينَ[6].

عَلَيْهِ نتحصل أنَّ للقرن الاول الهِجْرِيّ/ السّابع المِيلادِيّ أهميَّةً شديدة، عَلَى تاريخ المنطقـة الْعَرَبِيّـة، وعلى تاريخ الكَنَائِـس الْمَسِيحِيَّة بشكل عـام، ففيه حدثت تحولات جذريـة مِـنْ حَيْثُ السّلطـة الحاكمة والدّين الْمَسِيطـر، إِذْ حفل بقـدوم جحافل الْعَرَب الْمُسْلِمِيـنَ وانتصارهم الهائل عَلَى بِيزَنْطَةَ، والتّـام عَلَى الفرس، وسيطرتهم عَلَى كامل مناطـق الشّام، واستبـدال سلطة الدّيـن الْمَسِيحِيّ بسلطـة الدّين الجديـد، وَكَانَ للدين

---

(1) - ابن الصّامت الأنصاري. ترجمته: ابن سعد: طبقات 7/ 2/ 195؛ ابن الجوزي: المنتظم 6/ 10؛ وابن حجر: الإصابة 1/ 399، تهذيب التهذيب 10/ 148.

(2) - ابن عبد الحكم، (ت257هـ): فتوح مصر والمغرب، ص159

(3) - البلاذري: فتوح البلدان، ص131.

(4) - آرنولد: الدعوة إلىَ الإسلام، ص85.

(5) - منذر نزهة: «الكَنَائِس المسيحيّة وتاريخها فِي سورية» (5 - 8) (مقال) جريدة الجمل - 2012 - 03 - 28.

(6) - أبو يوسف: كتاب الخراج، ص 127؛ تامر باجن أوغلو: حقوق أهل الذمة فِي الفقه الإسلاميّ، ص27.

الإسْلَاميّ أهَمِّيَّة معيَّنة فِي تَطَوّر الكَنَائِس فِي المنطقة، في سيادة الشعور بالمساواة، فَلَمْ تَعُـدْ تتغَلَّب كَنِيسَةٌ عَلَى أُخْرَى بفضل إعتقادِ الحاكـمِ برأيِها، وَلَمْ تَعُدْ تتعرَّض كَنِيسَة أَوْ طائفـة لاضطهاد من لَـدُنْ كَنِيسَة أُخْرَى من أجل تغيير مذهبها، وإنَّمَا أصبح أتباع جميع الكَنَائِس يتعرضون لضغوط واحدة، من أجل تحولهم عَنْ الْمَسِيحِيَّة إِلَى الإِسْلَام[1].

فِـي ظِلِّ حُرِّيَّة المُمَارَسَـة الطَقْسِيَّة نمَا تعداد بيوت العبـادة الْكَنَسِيّة إنشاءً وإدامة، إذْ بلغ أشـدَّه فِي نهاية القَرْن الثّاني للهجرة، بحَسَبِ «ديورانت»[2]: «يحدثنا المُؤَرِّخون أَنَّهُ كَـانَ فِـي بلاد الإِسْلَام - فِي عصر المأمون - أحدَ عشرَ ألـف كَنِيسَة، كَمَا كَانَ فِيهَا عدد كبيـر من هياكل اليهود ومعابـد النّار. وَكَانَ الْمَسِيحِيّون أحـراراً فِي الاحتفال بأعيادهم علنًـا، والحجـاج الْمَسِيحِيّـون يأتـون أفواجًـا آمنيـن لزيـارة الأضرحـة الْمَسِيحِيَّـة فِي فلسطيـن». وعدَّ بعض فقهـاء هَذِهِ الحقبة أنَّ بناءَ الكَنَائِس مـن المظاهر الحَضَارِيَّة الَّتِي تحـف بالبلاد، فَقَدْ قَـالَ الليث بن سعد (ت175هـ)، وعبد اللـه بن لهيعة (ت174هـ): «هـى عمـارة البلاد، واحتجا بأنَّ الكَنَائِـس الَّتِي بمَصْر لَمْ تبنَ إلا فِـي الإِسْلَام فِي زمان الصّحابة والتّابعين»[3].

لَعَـلَّ الْحُرِّيَّةَ الدِينِيَّةَ الَّتِي انْمَازَ بِهَا الْمَسِيحِيّون فِي العصر الأُمَوِيّ، لَمْ يحْظَ بمثلها - مـن قبـلُ ومن بعدُ - أهلُ دينٍ، فِي ظِلِّ أَيَّةِ دولةٍ أُخْرَى، وَقَدْ يشملُ هَذَا المبنَى الأقلياتِ الدِّينِيَّـةَ الأُخْـرَى، فِيمَـا أَشَـارَ إِلَيْـهِ «ول ديورانـت»[4]: «كَانَ أهـل الذِّمَّـة الْمَسِيحِيّون، والزردشـتيُّون، واليهـود، والصّابئـون يستَمَتَّعون فِي عهـد الخِلَافَـة الأُمَوِيّة بدرجة من التَّسَامُـح، لا نجـد نظيرًا لها فِي الْمَسِيحِيَّة فِي هَذِهِ الأيام. فَلَقَدْ كَانُوا أحرارًا فِي مُمَارَسَة

---

(1) - منذر نزهة: م.س. (5 - 8).

(2) - قصة الحضارة، 13 / 131.

(3) - الكندي، مُحَمَّد بن يوسف (ت 355هـ): كتاب الولاة والقضاة (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 2003) ص100؛ المقريزي، (ت845هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار2/ 109؛ ابن تغري بردي، (ت 874هـ): النّجوم الزاهرة فِي ملوك مصر والقاهرة، (وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة) 2/ 66.

(4) - قصة الحضارة، 13 / 130.

شعائر دينهم، واحتفظوا بكَنَائِسهم ومعابدهم... وَكَانُوا يتَمَتَّعون بحكم ذاتي، يخضعون فِيهِ لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم».

غير أنَّ الْمَسِيحِيِّينَ أجادوا فِي استثمارِ الْحُرِّيَّـة الدّينيَّة المُتاحَة لَهُمْ، لَيْسَ فِي مجالِ الأعتقـادِ ومُمَارَسَةِ الشّعائـرِ فحسْبُ، بَلْ فِي محاولاتِ نشرِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي بُلْدَانِ الشّرقِ الإِسْلَامـيِّ مِن أدْنَـاهُ إلَى أقصاهُ، كَمَا «وأثْرَوا كثيراً فِي ظِـلِّ الإِسْلَام وَفِي آسية، ومَصْر، وأسبانيا، كَمَا لَمْ يُثروا من قبل تَحْتَ حكم الْمَسِيحِيِّينَ. وَكَانَ الْمَسِيحِيّون فِي بلاد آسية الغربية، خارج حدود الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشّام مَسِيحِيَّة حَتَّى القَرْن الثّالثَ الإِسْلَاميّ»[1].

بَيْـدَ أنَّ هَـذَا النّشـاط يكشف عَـنْ أنَّ الكَنِيسَة الشَّرْقِيَّـة السّرْيانِيّة اعـادت تنظيماتِها، ووجهتْ باكورةَ عملِها إلَى التّبشير الدّينيّ، انطلاقًا من العِرَاق، وأرسلوا البعوث الدّينيَّة إلَى الهند والصّين فِي القَرْن (1هـ/ 7م) ثلاثَ بعثاتٍ: سنة (15هـ/ 636م)، و(29هـ/ 650م)، و(41هـ/ 661م)، واستكملـتْ فِي القَـرْن (2هـ/ 8م) ببعثتيـن فِي (125هـ/ 743م)، و(161هـ/ 778م) حَتَّـى ارتقـتْ إِدَارَةُ الكَنِيسَـة فِيهَا إلَى درجـةِ المطرانيَّة[2]. وأمتـدتْ أعمالهم التّبشيريَّة إلَى بلاد التّركسْتان والدّيْلَـم وأذرْبيجَان وَحَتَّى افغانستان؛ مَـعَ العلم أنَّ الدَّولَة العَرَبِيَّة كَانَ بميسورها أنْ تَحِدَّ من حَرَاكهم هَذَا، إلَّا أنّها تركت لَهُمْ ولغيرهم الْحُرِّيَّة الدّينيَّة[3].

3. الْحُقُوق الشَّخْصِيَّة:

تَمَتَّـع الْمَسِيحِيّون بحقوقهم الشَّخْصِيَّة وحرياتهم، كحُرِّيَّة السّكن والعمل والملبس والمأكـل والمشـرب، خِـلَالَ الحدود الَّتِي صالحتهـم عَلَيْهَـا الدَّولَـة العَرَبِيَّة، فشرب الخمـر وتربيـة الخنزير وأكل لحمه، والبيع والشّراء فِيهِمَا ضِمْـنَ ولايتهم، لَيْسَ للإمام

(1) - ديورانت: م.ن.، 13 / 132.

(2) - مَسعد، بولس، البطريق: (- 1890م): الدر المنظوم فِي الرّد عَلَىَ البطريرك مكسيموس مظلوم (مطبعة الرّهبانيين اللبنانيين، بيروت، 1863م) ص38؛ قاشا: أحوال النّصارى فِي خلافة بني أمية 2/ 213.

(3) - قاشا: م.ن. 2/ 214.

أنْ يمنعهـم مِنْهُ[1]. بـل يتوجب عليه الحفاظ عليهـا، قَالَ الفقهاء: «وَمَـنِ اسْتَهْلَكَ خَمْرَ الذِّمِّـيِّ أَوْ خِنْزِيـرَهُ فَعَلَيْهِ قِيمَتُهُ، وَلَوْ كَانَا لِمُسْلِمٍ فَلَا شَـيْءَ عَلَيْهِ»؛ لِقَوْلِ الرسول محمد: «اتْرُكُوهُـمْ وَمَا يَدِينُونَ»، وَإِنَّهُمْ يَدِينُونَ بِمَالِيَّتِهِمَا؛ فَـإِنَّ الْخَمْرَ وَالْخِنْزِيرَ عِنْدَهُمْ كَالْخَلِّ وَالشَّـاةِ، بَلْ هُمَا مِنْ أَنْفَسِ الْأَمْوَالِ عِنْدَهُمْ. وَقَالَ الرسـول: «إِذَا قَبِلُوهَا»: يَعْنِي الْجِزْيَةَ «فَأَعْلِمْهُـمْ أَنَّ لَهُـمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِـمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِيـنَ»، وَلِلْمُسْلِمِينَ التَّضْمِينُ بِإِتْلَافِ مَا يَعْتَقِدُونَهُ مَالا[2].

وسـرى هَذَا المنهج إِلَـى العبيد من الْمَسِيحِيِّـنَ، وَهُمْ فِي خدمـة الْمُسْلِمِينَ تَمَتَّعوا بحرِّيتهم الشَّخْصِيَّة، فِي شـرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وبيعه أَوْ شرائه. قَالَ الإمام مالك: «ولا ينبغي للمسلم أنْ يمنعَ عبده النَّصْرَانِيّ أنْ يشرب الخمر، أَوْ يأكل الخنزير، أَوْ يبيعها، أَوْ يبتاعها، أَوْ يأتي الكَنِيسَة؛ لأنَّ ذَلِكَ من دينهم»[3].

ومـن الشّواهد عَلَـى احترام الشَّخْصِيَّـة النَّصْرَانِيَّة فِي المُجْتَمَـع الإِسْلَامِيّ: لَمَّا قدم عَلَـى رَسُـول اللَّـه عدي بْن حَاتِـم الطَّائِي فِي قومه من طيـئ، وَكَانَ نَصْرَانِيّـا، فَمضى بِهِ رَسُـول اللَّـهِ، وَأَدْخلهُ إِلَى بَيتـه، وَتَنَاول وسَادَة مـن أَدَم، حشوها لِيـف، فطرحها، وَقَالَ لَـهُ: «اجْلِسْ عَلَيْهَـا» فَقَالَ: بَلْ أَنْتَ فاجلسْ عَلَيْهَا يَا رَسُـول اللَّه، فَجَلَسَ رَسُول اللَّه فِي الأَرْض، وَأَجْلسـهُ عَلَى الوسـادة، ثُمَّ لَمْ يزل يكلمهُ ويعرض عَلَيْهِ مَا فِـي دِينِهِ النَّصْرَانِيَّة مِمَّـا أحدثـوه فِيهِ، ويعرض عَلَيْهِ الإِسْـلَام، ويخبره أَنَّهُ دين سيبلغ مَا بلـغ اللَّيْل وَالنَّهَار، وَأَنَّـهُ لَا يبْقـى عَرَبِيّ إِلَّا دخل فِيـهِ طَوْعًا، أَوْ كرها، فَقبل عـدي الإِسْلَام، وَأسلم وَحسن إِسْلَامه، وَتَبعهُ قومه فأسلموا[4].

مـن الحريات التي يتمتع بها غيـر المسلمين حرية الشخص فـي الرواح والمجيء، والتنقـل داخل الدولة وخروجه منها وعودته إليهـا[5]، فأول نص يشرِّع لهذه الحرية فِي

(1) - أبو عبيد: كتاب الأموال، ص62؛ ابن قيم الجوزية، (ت 751هـ): أحكام أهل الذمة 1/ 184.
(2) - ابن مودود الموصلي، (ت 683هـ): الاختيار لتعليل المختار، 3/ 65.
(3) - مالك بن أنس(ت179هـ): المدونة الكبرى (مطبعة السّعادة، القاهرة،1323هـ) 4/ 51.
(4) - ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسّير، ص 256.
(5) - عز الدين عبد الله: القانون الخاص المصري 1/ 381؛ زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين، ص87.

وثيقة المدينة [المادة 47] «أَنَّهُ من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم، أَوْ أثم». وفي معرض الممارسة، كَانَ أَبُو زبيد الطَّائِي[1] الشّاعر النَصْرَانِيّ يحظى بحُرِّيَّة واسعة وعلاقات طَيِّبَة، إِذْ تنقل إِلَى بلاد مُخْتَلفة، وَأَنَّهُ دخل مَكَّة والمدينة، واستعمله عمر بن الخطَّاب عَلَى صدقاتِ قومه، وَلَمْ يستعملْ نَصْرَانِيّا غَيْرَهُ[2]، وَكَانَ الخليفة عثمانُ يُحِبُّ مجالسَتَه، وسكن مُدَّةً فِي الكوفة ينادم الوليد بن عُقْبَة[3]، وظَلّا نديمينِ حَتَّى تُوفِيَا ودُفِنَا معًا[4].

ذكر أَبُو الفرج: أنَّ أَبَا زبيد وفَدَ عَلَى الوليد بن عقبة حِينَ استعمله عثمان عَلَى الكوفة (25 – 30هـ/ 646 – 651م)[5]، فأنزله الوليد دار عقيل بن أبي طالب، وَهِيَ دار القبطِيِّ عَلَى باب المسجد، فاستوهبها مِنْهُ فوهبها لَهُ؛ فاحتجَّ عَلَيْهِ أهلُ الكوفة، أنَّ أَبَا زبيد كَانَ يخرج إِلَيْهِ من داره، يخترق المسجد وَهُوَ نَصْرَانِيّ، فيجعلُهُ طريقاً. وقيل: أَنَّهُ كَانَ يخرج من منزله حَتَّى يشقَّ الجامع إِلَى الوليد، فيسمُر عِنْدَهُ ويشرب مَعَهُ، ويخرج فيشقُّ المسجد وَهُوَ سكران، فَذَلِكَ نبَّهَهُم عَلَيْهِ[6].

4. حقوق الانسان

نَظَمَتْ وضعَ أهلِ الذِّمَّة فِي دار الإِسْلَام مجموعةٌ من الأحكام والاجتهادات، الَّتِي استنبطها الفقهاء من مصادر الشّريعة الإِسْلَامية، كالقرآن والسّنَّة النَبَوِيّة، بِخَاصَّةٍ فِي

(1) – اسمه حَرْمَلَة بن المُنْذر شاعر معمّر عاش خمسين ومائة سنة، وعداده فِي المخضرمين، أدرك الإسلام ولم يسلم ومات نصرانيا.. ابن سلام: طبقات فحول الشّعراء 2/ 593؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 12/ 320؛ ياقوت: معجم الأدباء 3/ 1167.

(2) – ابن حجر: الإصابة فِي تمييز الصّحابة 7/ 137.

(3) – ابن معيط بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس. ترجمته: ابن عبد البر: (ت 463هـ): الاستيعاب فِي معرفة الأصحاب، 4/ 1554، ابن الأثير: أسد الغابة فِي معرفة الصّحابة، 5/ 420؛ المقريزي: إمتاع الأسماع 13/ 217.

(4) – مات الوليد بن عقبة فويق الرّقة ومات أَبُو زبيد فدفنا جميعا فِي موضع واحد، فقال أشجع السّلمي وَقَدْ مر بقبريهما: مررت عَلَى عظام أبي زبيد * وَقَدْ لَاحت ببلقعة صلود

وَكَانَ لَهُ الوليد نديم صدق * فنادم قبره قبر الوليد الأغاني 5/ 161

(5) – زامباور، ادوارد فون: معجم الأنساب والاسرات الحاكمة فِي التاريخ الإسلاميّ، ص67.

(6) – الأغاني 5/ 148؛ شعراء النّصرانية 2/ 70.

الفترة مَا بَيْنَ القَرْنيـن الثّامن والحادي عشـر للميلاد[1]، وتعبيـرا عَنْ التَّسَامُـح الدّينيّ والتّعَايُـش الإِجْتِمَاعِيّ، جاءت هَذِهِ الاحكام فِـي مؤلفاتهم، لتعرف وتبين مَا لَدَيْهِمْ من حقوق وواجبات، تشمل الْحُقُـوق الشّرعية والشَّخْصِيَّة والْمَالِيَّة وغيرها. وأنَّ الْحُقُوقَ لا تضيـعُ بتقادم الزمن، سـواء كَانَ حاضرًا، أَوْ غائبًا، أصيـلا، أَوْ وكيلا، وكل مَا جازت النّيابة فِيهِ من الْحُقُوق، جازت الوكالة فِيهِ كـ: البيع، والشّراء، والإجارة، وقضاء الدّيون، والخصومة فِي المطالبة بالْحُقُوق، والتّزويج، والطّلاق، وغير ذَلِكَ[2].

أَمَّـا الْحُقُـوق فَـإِنَّ الشّريعة جاءت بحفظ حقـوق أرباب الْحُقُـوق بكل طريق، وسد الطّـرق المُفْضِيَـة إِلَـى إضاعتِهـا[3]. فَقَـدْ رفَعَ رسـولُ الإِسْلاَم حـقَّ المساواة بَيْـنَ ابناء الإِنْسَانِيَّـة، «إِنَّمَا النّـاسُ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ...»[4]، وَفِي خطبتـه قَالَ الرّسول: «يَا أَيُّهَا النّـاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُـمْ وَاحِـدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُـمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْـلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَـى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِـيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى»[5]. وَفِي كتابـه إِلَـى مالك واليه عَلَى مِصْرَ، قَالَ الإمام عليّ: «وَلَا تكونن عَلَيْهِ سَبُعًا ضَارِيًا، تَغْتَنِمُ أَكْلَهُم، فَإِنَّهُم صنفان: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ»[6].

وَلَمَّا كَانَتْ الآيات القرآنيَّة الدّالَّةُ عَلَى الحكم بالعدل بَيْنَ النّاس[7]، لَمْ تخصَّصْ فِي مـورد معيّن، وإِنَّمَا هِيَ عَامَّة بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وغير الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ الرّعايا الَّذِينَ يعيشون فِي ظِلِّ دولة الإِسْلَام – سواء أكانوا مُسْلِمِينَ أم غير مُسْلِمِينَ – لَهُمْ حق التّقاضي. وعليه ينبغي الحكم بالحق بَيْنَ الْمُسْلِم وغيره، أَوْ بَيْنَ غير الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، لا تمييزَ بَيْنَهُمْ

(1) – أليكسي جورافسكي: الاسلام والمسيحية، ص153.
(2) – ابن قاسم: الإحكام شرح أصول الأحكام (ط2، لا ناشر، 1406هـ) 3/ 242.
(3) – ابن قاسم: م. ن. 3/ 229.
(4) – أبو الشّيخ الأصبهاني، (ت 369هـ): كتاب الأمثال في الحديث النّبوي، (الدار السّلفية، بومباي 1987) ص203؛ ابن القيسراني، (ت 507هـ): تذكرة الحفاظ، (دار الصّميعي للنشر والتوزيع، الرّياض1994) ص 434.
(5) – أحمد بن حنبل (ت241هـ): مسند أحمد، 28/ 474.
(6) – القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة 3/ 7.
(7) – {وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ} النّساء58

عَلَى أساس الإنتماء العقديّ، فالجميع متساوون أمام القضاء، ونصَّت معاهدة رسول الله وأهل نَجْرَان عَلَى أَنَّ: «لنَجْرَان وحاشيتِها جوارَ الله، وذمَّة مُحَمَّدٍ النّبيّ رسولِ الله، عَلَى أنْفسِهم ومِلَّتِهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم (وعشيرتهم وبيعهم) وامثلتهم، لا يُغيَّر مَا كَانُوا عَلَيْهِ، ولا يُغيَّر حقٌّ من حقوقهم وأمثلتهم،... ومن سأل مِنْهُمْ حقًّا فبينَهم النّصْفُ، غير ظالمين ولا مَظْلُومينَ بنَجْرَان»[1].

من عهد للإمام عَلِيّ إلَى واليه عَلَى مِصْرَ، مُحَمَّد بن أبي بكر: «أمره بتقوى الله،... وبالعدل عَلَى أهل الذِّمَّة، وبانصاف المظلوم، وبالشّدة عَلَى الظّالم، وبالعفو عَنْ النّاس، وبالاحسان مَا استطاع،... وأمره أن يحكم بَيْنَ النّاس بالعدل، وأنْ يقيمَ بالقسط»[2].

ومن المُمَارَسَات فِي تاريخ التّقاضي، فِي عصر الرّسالة إتّهم الانصارُ اليهودَ بقتل أحدهم، إذْ وُجِد فِي ساقية من سواقي خيبر، فتحاكموا إلَى رسول الله، فقال لَهُمْ: «أ لَكم بينةٌ؟» فقالوا: لا، فقال: «أ فتقسِمُون؟»، فقالوا: كَيْفَ نُقْسِم عَلَى مَا لَمْ نره؟ فقال: «فاليهود يقسمون»، فقالوا: يُقسمون عَلَى صاحبنا، وَكَانَتْ نتيجة الحكم أنْ برّأ رسولُ الله اليهود من التّهمة، وأعطى ديَّة المقتول مِنْ عِنْدِه[3].

وَفِي معرض الخصومة بَيْنَ الْمَسِيحِيّ والمسلم يلجأ المتضرر إلَى القضاء، ويدافع عَنْ حقِّه، حَتَّى لَوْ كَانَ خصمَهُ الخليفةُ عينُه، ويكونُ الحُكْمُ لِصالحِ صاحبِ البَيِّنَةِ، ففي رِوَايَة الشَّعْبِيِّ[4]، قَالَ: «خَرَجَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إلَى السّوقِ، فَإِذَا هُوَ بِنَصْرَانِيٍّ يَبِيعُ دِرْعًا، فَعَرَفَ عَلِيٌّ الدّرْعَ، فَقَالَ: هَذِهِ دِرْعِي، بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ قَاضِيَ الْمُسْلِمِينَ شُرَيْحٌ،... فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَا شُرَيْحُ، فَقَالَ شُرَيْحٌ: مَا تَقُولُ يَا

(1) - ابن هشام: السّيرة النّبوية 1/ 573؛ ابن سعد: الطبقات 1/ 2/ 84.
(2) - الحرّاني: تحف العقول، ص 118..
(3) - الصّدوق (ت381هـ): من لا يحضره الفقيه 4 / 99؛ الحر العاملي (ت1104هـ): وسائل الشّيعة، 19/ 119.
(4) - أخرجها البيهقي: السّنن الكبرى 10/ 230؛ وقارن: وكيع: أخبار القضاة 2 / 194؛ أبو نعيم: حلية الأولياء 4/ 140؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، 23/ 23؛ ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق 10/ 296.

أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِيـنَ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ: هَـذِهِ دِرْعِي ذَهَبَتْ مِنِّي مِنْذُ زَمَانٍ، فَقَالَ شُـرَيْحٌ: مَا تَقُولُ يَا نَصْرَانِـيُّ؟ فَقَـالَ النَّصْرَانِيُّ: مَا أُكَذِّبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، الدِّرْعُ هِيَ دِرْعِي، فَقَالَ شُـرَيْحٌ: مَا أَرَى أَنْ تُخْرَجَ مِنْ يَدِهِ؛ فَهَلْ مِنْ بَيِّنَةٍ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ: صَدَقَ شُرَيْحٌ، فَقَالَ النَّصْرَانِيُّ: أَمَّا أَنَا، أَشْهَدُ أَنَّ هَذِهِ أَحْكَامُ الأنبياء، أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَجِيءُ إِلَى قَاضِيهِ، وَقَاضِيهِ يَقْضِي عَلَيْهِ...»

كَـانَ الْمُسْلِمون فِي شـبيبة دينهـم وعنفوان قوَّتهـم يحترمون مخالفيهـم فِي الدِّين، ويسـاوون بَيْنَهُـمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ فِـي الْحُقُوق، على قاعدة «لَهُمْ مَا لَنَـا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا»، وَهَـذَا فِي حق الذِّمِّيّ والأجنبـي المُعَاهِدُ دُونَ الحَرْبِيِّ، وَقَدْ ذُكِرَتْ محاكمةُ الإمامِ عَلِيّ مَـعَ يهودي عِنْدَ الخليفـة عمر بن الخطَّاب، ومعاتبة عَلِيّ لعمر بعد المحاكمة عَلَى عدم المساواة بَيْنَهُ وَبَيْنَ خصمه، حَيْثُ كناه وسمى خصمه[1].

وَفِـي رِوَايَـة أُخـرَى: أن عليًّا تحاكـم مَعَ يهودي أمـام قاض مسلم، فكنـاه القاضي، ونادى الآخر: يا يهودي! فغضب عَلِيّ من القاضي وَقَالَ لَهُ: مَا كَانَ لك أنْ تفعل هَذَا فِي موقف القضاء؛ بَلْ كَانَ يجب أنْ تسمِّيني وتسمِّيه[2].

وعَلَـى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كـلَّ مِلَّةٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّة، فُوِّضَ إِلَى كبارِها الرّوحانيينَ الحَلَّ فِي نزاعاتِهم، والفَصْلَ فِي خُصوماتِهم، فَإِنَّهُ يَحقُّ للمَسِيحِيِّينَ التَّرَافُعُ إِلَى حَاكِمِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ إِلَـى حكّامِهـم، وإذا ترافعوا إِلَـى حاكمِ الْمُسْلِمِيـنَ، فينبغي عَلَيْهِ إِلْتِمَـاسُ العدْلِ فِي الحُكْـمِ، سـواء أكـان بَيْـنَ مسيحيٍّ وآخرَ مـن أهلِ الذِّمَّـةِ، أَوْ بَيْـنَ مسيحـيٍّ ومسلمٍ[3]. ويَتَرَتَّـبُ العقابُ عَلَـى الْمُسْلِمِ إنْ ثَبَتَ تَجَاوزُهُ عَلَيْهِمْ، طِبْقًا للتشريعات المَوْضُوعة فِي ابواب القضاء، ويُرَدُّ الحقُّ للذمِّيِّ المُعْتَدَى عَلَيْهِ[4].

و يقبـل - أحيانـا - قاضي الْمُسْلِمِينَ للحكم بِمَا يخـصُّ الْمَسِيحِيِّينَ كالخمرة، كَمَا

---

(1) - مُحَمَّد رشيد رضا (ت1354هـ)، «التعصب»، مجلة المنار 1/ 483.
(2) - مُحَمَّد رشيد رضا: «آداب الإسلام فِي معاشرة المخالفين ومعاملتهم»، مجلة المنار 17/ 545.
(3) - مالك بن أنس: المدونة الكبرى، 3/ 389، 6/ 95.
(4) - الخميني، روح الله: تحرير الوسيلة 2/ 409، 464

فِي رِوَايَة ابن إدريس[1] قَالَ: رأيت ابن شُبْرُمَة[2] يختصم إِلَيْهِ النَّصَارَى فِي الخمر فيحكم بَيْنَهُـمْ. أمَّـا إِذَا اختصموا فِـي قضايا ربوية، فَلَـمْ يُجَابوا للقضاء بَيْنَهُـمْ، استنادا إِلَى نهي الرَّسول مُحَمَّد لَهُمْ عَنْ الرِّبا.

وَأمَّـا استحـلاف أهل الكتاب فيكون بالله، أَوْ بشيءٍ من أسمائِـه، وَقَدْ رُوِيَ: جواز أنْ يَحْلِفُـوا بِمَـا يَرَوْنَ هُـمْ الإستحلافُ بِهِ، ويكونُ الأمرُ فِي ذَلِـكَ إِلَى الحاكمِ، وما يراه أَنَّـهُ أردع لَهُـمْ، وأعظم عَلَيْهِمْ[3]. وَقَدْ يرسله القاضي إِلَـى الكَنِيسَة، أَوْ البيعة للتوثق من يمينه، ففي رِوَايَة ابن ميسرة[4]، قَالَ: «جاء مسلم بنَصْرَانِيّ إِلَى الشّعبي، فَقَالَ: النَصْرَانِيّ: أنا أحْلِفُ، فَقَالَ: الشّعبي: اذهبْ فادخلْهُ البَيْعَةَ، ثُمَّ أحْلِفْهُ بِمَا يَحْلِفُ بِهِ أهلُ دينِه».

وعليـه بُنِـيَ رأيُ مالـك: «يَحْلِـفُ الْيَهُـودُ وَالنَّصَارَى فِـي كَنَائِسِهِـمْ وَحَيْـثُ يُعَظِّمُونَ، وَيَحْلِـفُ الْمَجُـوسُ فِي بَيْتِ نَارِهِمْ وَحَيْـثُ يُعَظِّمُونَ»[5]. وَكَانَ ابـن عجلان القاضي[6] يُحَلِّـف اليهـود يـوم السّبت، والنَّصَارَى يـومَ الأحد، لِأَنَّـهُ رآهم يرهبون ذَلِـكَ[7]. وثَمَّةَ ألفـاظٌ يُسْتَحْلَـفُ النَصْرَانِيُّ بِهَا، وَلَعَلَّ أشـهرَها صَيغَةُ: «بِاللَّه الَّذِي أنْـزَلَ الْإِنْجِيلَ عَلَى عِيسَى»[8].

وَفِـي إقامةِ الحدودِ، فَإِنَّ الإمـامَ، أَوْ حاكمَ الْمُسْلِمِينَ العادلَ، مخيّـرٌ بَيْنَ إقامة الحَدِّ عَلَى الذِّمِّيّ أَوْ الذِّمِّيَّةِ، بِمَا تَقْتَضِيهُ شـريعةُ الإِسْـلَام، وَبَيْنَ تسليمِهِ إِلَى أهلِ دينِه، أَوْ دينِ

(1) - وكيع: حَدَّثَنِي أَحْمد بْن بشير المريدي قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرّحمن بْن يونس قَالَ: حَدَّثَنَا ابن إدريس. مُحَمَّد بْنُ خَلَفِ (ت306هـ): أخبار القضاة 3/ 88.

(2) - عبد الله بن شبرمة من ضبة، كَانَ قاضيا لأبى جعفر عَلَىَ سواد الكوفة. ابن قتيبة: المعارف، ص470.

(3) - الطوسي، (ت460 هـ): النّهاية فِي مجرد الفقه والفتاوى، ص347؛ ابن إدريس الحلي، (ت598هـ): كتاب السّرائر الحاوي لتحرير الفتاوي 2/ 183.

(4) - وكيع: أَخْبَرَنَا حمدان بْن علي الوراق، قَالَ: حَدَّثَنَا عبيد الله بْن موسى، قَالَ: حَدَّثَنَا إسحاق بْن ميسرة بنو الغصين. أخبار القضاة 2/ 415.

(5) - المدونة الكبرى 5/ 201

(6) - مُحَمَّد بن عجلان الأزدي، سرقسطي سمع قديًما من سحنون وغيره من شيوخ المالكية. عياض: ترتيب المدارك4/ 274.

(7) - عياض: م. ن. 4/ 275.

(8) الطحاوي: مختصر اختلاف العلماء، 5/ 188؛ ابن حزم: المحلى بالآثار 8/ 461.

المرأةِ، لِيُقِيمُوا عَلَيْهِمْ الحدودَ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ[1].

وإذا مَا فعلوا مَا لا يجوز فِي شـرع الإِسْلَام، نُظِرَ فِيهِ، فإنْ كَانَ غير جائز فِي شـرعهم - أيْضًـا، كَمَـا لَوْ زَنَـوْا، أَوْ لَاطُوا، أَوْ سَرَقُـوا، أَوْ قَتَلُوا، أَوْ قَطَعُوا، كَـانَ الحكمُ فِي ذَلِكَ كالحكـمِ بَيْـنَ الْمُسْلِمِينَ فِي إقامةِ الحدودِ؛ لأَنَّهُمْ عقـدوا الذِّمَّةَ بشرطِ أنْ تُجْرَى عَلَيْهِمْ أحكامُ الْمُسْلِمِينَ. وإنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يجوزُ فِي شرعَهم، مثلَ: شربِ الخمرِ، وأكلِ لحمِ الخنزيـرِ، ونكـاحِ ذواتِ المحارمِ، فلا يجـوزُ أنْ يتعرضَ لَهُمْ مَا لَـمْ يُظْهِرُوه ويَكْشِفُوه؛ لأنَّا نقرُّهم عَلَيْهِ، ونتركُ التعرضَ لَهُمْ فِيهِ؛ لأَنَّهُمْ عقدوا الذِّمَّةَ، وبذلوا الْجِزْيَةَ عَلَى هَذَا. فإنْ أظهروا ذَلِكَ وأعلنوه، مَنَعَهُمْ الإمامُ، وأدَّبَهم عَلَى إظهَارِهِ[2].

أختلـف فقهاء الإِسْلَام فِي جواز شـهادتهم، ففي حال الضَّـرورة تجوز الشّهادة بَيْنَ أهل الملل عِنْدَ الإمام جعفر الصّادق (ت148هـ)، قَالَ: «لا تجوز إلاّ عَلَى أهل ملَّتهم، فانْ لَمْ يوجد غيرهم جازت شـهادتهم عَلَى الوصيَّة؛ لِأَنَّهُ لا يصلح ذهاب حق أحد»[3]. وَقَالَ الشّعْبِيُّ (ت104هـ): «لاَ تَجُوزُ شَـهَادَةُ أَهْلِ المِلَلِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ»[4]، وتابعه الإمـام مالك (ت179هـ)[5]، فِي حِين أنَّ أَبَا إسحـاق [السّبيعي] (ت131هـ) فِي روايته قَالَ: «شـهدت شـريحاً، شـهد عِنْدَه يهـودي، أَوْ نَصْرَانِيٌ؛ فقال: إشـهدْ بدينِكَ، إشـهدْ بدينك»[6].

وَفِـي قضايا الدّيات يتساوى الْمُسْلِمون وغيرُهم من أهل الملل، أي «دِيَةُ الذِّمِّيّ دِيَةُ الْمُسْلِـم»[7]، قَـالَ الإمـام عَلَى: «إِنَّمَا أعطيناهـم الذِّمَّة، وبذلوا الْجِزْيَـة، لتكون دماؤهم

(1) - الطوسي: النّهاية 696.

(2) - الطوسي: المبسوط في فقه الإمامية، 2/ 60 - 61؛ العلامة الحلي، (ت 726 هـ): تذكرة الفقهاء 9/ 388.

(3) - الطوسي: تهذيب الاحكام، 6/ 252؛ الحرّ العاملي: وسائل الشّيعة 27 / 390.

(4) - البخاري، (ت256هـ): الجامع الصّحيح، 3/ 181.

(5) - المدونة الكبري، 5/ 175.

(6) - وكيع: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حسان؛ قَالَ: حَدَّثَنَا ابن مهدي، عَنْ سُفْيَان، عَنْ أبي إسحاق. أخبار القضاة 2/ 271.

(7) - عبد الرّزاق الصّنعاني: المصنف 6/ 128، 10/ 98.

كدمائنا وأموالهم كاموالنا»[1]. وَقَالَ [ابن شهاب] الزُّهْرِيِّ (ت124هـ): دِيَةُ اليهوديِّ وَالنَّصْرَانِيِّ وَكُلِّ ذِمِّيٍّ مِثْلُ دِيَةِ الْمُسْلِم... وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - حَتَّى كَانَ مُعَاوِيَةُ، فَجَعَلَ فِي بَيْتِ الْمَالِ نِصْفَهَا، وَأَعْطَى أَهْلَ الْمَقْتُولِ نِصْفَهَا، ثُمَّ قَالَ: قَضَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِنِصْفِ الدِّيَةِ، وَأَلْغَى الَّذِي جَعَلَهُ مُعَاوِيَةُ فِي بَيْتِ الْمَالِ، قَالَ: وَأَحْسَبُ عُمَرَ رَأَى ذَلِكَ النِّصْفَ الَّذِي جَعَلَهُ مُعَاوِيَةُ فِي بَيْتِ المال ظلما مِنْهُ[2].

وإذا عجز الذِّمِّيّ عَنْ دفع الدّية لقتله مسلماً خطأ، فديته عَلَى بيت المال[3]، أي: يعامل الذِّمِّيّ فِي هَذِهِ الحالة كَمَا لَوْ كَانَ مسلمًا بِلَا فرق.

القصاص فِي الإِسْلَام قائم عَلَى العدل، لا ينظر إِلَى الاختلاف فِي الدّين، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى} (البقرة178). لِذَا إنْ مُسْلِمٌ قتَلَ ذِمِّيًّا يُقْتَلْ بِهِ، هَذَا عِنْدَ أبي حنيفة. بينما ذهب مالك والشّافعي وأحمد بن حنبل إِلَى عدم جواز القصاص بالمسلم، إلا من قتل ذميًّا، أَوْ مستأمنًا بخدعة يقتل بِهِ[4].

قال أبو حنيفة والثوري: يقتل المسلم بالمعاهد إذا قتله عمدًا بمحدّد؛ وذلك لأنّنا أخذنا عليهم العهد بأنْ يكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولأنّنا أعطيناهم العهد بحقن دمائهم. ولو لم يقتصّ لهم لكان في ذلك إخلال بالعهد، ولأنّهم وقد عقدوا الذمة معنا، صار دمهم حراما كدمنا، ولأنّنا إذا وُجِدَ من يسرق الذِّمِّيّ قطعنا يده، ومؤدى ذلك أنَّ مالَه غير مباح، فبالأولى دمُه[5].

لا شك ان هَذَا الحكم العادل يطال القاتل ولو كَانَ ابن خليفة وقتل ثأرا لأبيه، قَالَ

(1) - السّرخسي، شمس الدين: المبسوط 26/ 85.
(2) - ابن عبد البر (ت463هـ): الاستذكار 8/ 119.
(3) - الطوسي: النّهاية: 749.
(4) - تامر باجن أوغلو: حقوق أهل الذمة في الفقه الإسلاميّ، ص29.
(5) - أبو زهرة، محمد بن أحمد (ت 1394هـ): زهرة التفاسير، 1/ 534.

البـلاذري[1]: وَكَانَ عبيد اللَّه بْن عمر بن الخطَّـاب لما قُتِلَ أَبُوه، اتَّهَمَ الهرمزان، ورَجُلاً - مـن أهل الحِيـرَة - نَصْرَانِيًا، كَانَ سعد بن أبي وقاص أَقْدَمَـهُ المَدِينَةَ مَعَهُ، فَكَانَ يعلم ولـده والنّاس الكتـاب والحساب يقال لَهُ: جفينة - بالموالاة لأبي لؤلؤة، فقتلهما وقتل ابنـه أَبِـي لؤلؤة، فوقع بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُثْمَان فِي ذَلِكَ كلام حَتَّـى تغاضبا، ثُمَّ بويع عَلِيّ فَقَالَ: لأقيدن مِنْهُ من قتل ظلما. فهرب إِلَى الْكُوفَةِ، فلَمَّا قدِمَهَا عَلِيّ نزل الموضع الَّذِي يعرف بـ«كويفـة ابْـن عمـر»، وإليه ينسـب[2]، ودس من طلب لَهُ مـن عَلِيّ الأمَان، فَلَـمْ يُؤَمِّنْهُ، وَقَالَ: لئن ظفرت بِهِ فلا بُدَّ لي من أنْ أقيدَ مِنْهُ وأقتله بمن قتل.

فِـي مسائلِ الزِنَـا المتعلقةِ بالشّهودِ وبالتّوبةِ وبالعقوبةِ، يَـرَى الفقهاءُ أَنّهُ «لا فرقَ فِي الأحكـام بَيْنَ كـونِ الزانِي مسلمًا أَوْ كافرًا، وكَذَا لا فَرْقَ بَيْنَ كـونِ المزنِيِّ بِهَا مسلمةً أَوْ كافـرةً، وَأَمَّـا إِذَا زنَـى كافرٌ بكافـرةٍ، أَوْ لاطَ بمثلِه، فالإمـامُ مُخيَّرٌ بَيْنَ إقامَـةِ الحَدِّ عَلَيْهِ، وَبَيْـنَ دَفْعِـهِ إِلَى أهلِ مِلَّتِهِ لِيُقيموا عَلَيْهِ الحَدَّ»[3]. وَفِي رِوَايَـةٍ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ كَتَبَ إِلَـى عَلِـيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي مُسْلِمٍ زَنَى بِنَصْرَانِيَّةٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَنْ يُقَامَ الْحَـدُّ عَلَى الْمُسْلِمِ، وَتُـرَدُّ النَّصْرَانِيَّة إِلَى أَهْـلِ دِينِهَا[4]؛ لِيُعْطِيَهم حَـقَّ مُمَارَسَة قضائِهم وعدالَتِهم.

أما حق الكرامة فقد عني الإسلام به، ويراد بالكرامة: امتلاك الإنسان، بما هو إنسان، للشـرف والعـزّة والتوقير. فلا يجوز انتهـاك حرمته وامتهان كرامتـه، فالإنسان مخلوق مُكرَّم، قد فضله الله على كثير من خلقه {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} (الإسراء70).

ويحمـي الإسـلامُ عرض الذِّمِّيّ وكرامتِـه، كما يحمي عرضَ المسلـم وكرامته، فلا

---

(1) - أنساب الأشراف 2/ 294.

(2) - اخطأ البلاذري، وتابعه ياقوت، والصواب: انها كُوَيْفَةَ عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ، نسبت له قبل الاسلام، سَارَ اليها سَعْدٌ قبل تمصير الكوفة. الطبري: تاريخ 3/ 579؛ البكري: معجم ما استعجم 4/ 1144.

(3) - الخوئي، أبو القاسم: منهاج الصّالحين 2/ 34؛ سعيد كاظم العذاري: سماحة الإسلام وحقوق الاقليات الدينية - في مدرسة آل البيت ص88.

(4) - ابن حزم: المحلى بالآثار 8/ 520.

يجـوز لأحدٍ أنْ يسبّـه، أو يتّهمه بالباطل، أو يُشَنِّع عليه بالكـذب، أو يغتابه، ويذكره بما يكـره، في نفسِه أو نسبِه أو خلقِـه أو غير ذلك مما يتعلق به. وحماية أعراض أهل الذمة واجـب، بإجماع فقهاء الأمة، لما ذكر من أحاديث الرسـول: «مَنْ قَذَفَ ذِمِّيًا حُدَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ بِسِيَاطٍ مِنْ نَارٍ»[1]. ومنها: يجب كفُّ الأذى عن الذِّمّيّ، وتحرم غيبتُه كالمسلم، فالمسلمـون مأمـورون بكـفّ الأذَى عـن خلق اللـه، فـإنْ تحققَ الأذى حـرم، وخصَّ المؤمن لأهميته، كفَّ الأذى عنه، وإلا فكفُّ الأذى عن الذِّمّيّ واجب[2].

ولهـم حق التعليم وفـق ديانتهم، وانشاء المدارس الخاصة بهـم، وظلّت مدارسهم المشهـورة فـي الرُهَا وقِنّسْريـن تستقبل طلابهـا لتعليم اللاهوت والعلـومْ الأخرى في تاريـخ الإسلام، وأحيانـا تستقطب المسلمين بين طالبي المعرفة، في إطار توسيع دائرة التلاقـح المعرفي. احترم الإسلام –منذ الوهلة الأولـى – كتبهم المقدسة، لما فيها من حكمـة وموعظة، وهي من أهم مصادرهـم التعليمية. ليس أدل على ذلك من أنَّ القرآن أسماهـم أهـل الكتاب، وكان يدعوهـم الـى الرجوع إليه. وفي معـرض الممارسة، بعد فتح خيبر (6هـ/ 628م)، وانتصارهم على اليهود، وضع المسلمون يدهم على الغنائم، وجمعت مصاحف فيها التوراة، فأمر الرسول بردِّها الى اليهود[3].

أَمَّا حق السّكن فَقَدْ ضمنت الدَّولَة العَرَبِيَّة حق السّكن لجميع رعاياها، وَبِخَاصَّةٍ أهل الذِّمَّة الَّذِينَ عاهدوهم عَلَى الحياة الكريمة، وتمكينهم من حقوقهم المَدَنِيَّة المشروعة، ولاسِيَّمَا حق السّكن، وحُرِّيَّة التّنقل، مَا داموا قَدْ التزموا بتَحْقِيْق مَا عَلَيْهِمْ من واجبات تجاه الدّولة. وأوّل من أرْسَى هَذَا المعنى الرّسول مُحَمَّد فِي وثيقة المدينة [المادة 47] «أَنّـهُ من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينـة، إلا من ظلم، أَوْ أثم». اتّصفت العهود التي تلتها بهذه الرحابة، فسمحت لمن شاء من السكان والرهبان، والموظفين، بالهجرة الى الأراضـي البيزنطيّة، فغادر دولة الإسلام عدد وافر من نصارى سورية، وأقاموا فيَ بلاد

(1) – الطبراني: المعجم الكبير 22/ 57؛ السيوطي: الجامع الصغير، الرقم: 8921.
(2) – المناوي: فيض القدير 1/ 320.
(3) – المقريزي: إمتاع الأسماع 1/ 318.

الـروم، وحافـظ الباقون على كنائسهـم وأموالهم وحريتهم الدينية وشـرائعهم الخاصة بقيادة أساقفهم[1].

وَأَنَّهُـمْ إِذَا مَـا أداموا شـروط معاهـدة الذِّمَّـة وثبتوا عَلَيْهَـا، يبقـون محروسين بعين الدّولـة، وإذا مَا أخلُّوا بشروط العهد فإنَّهم قَدْ يُعرِّضون أنفُسَهم وأهْلِيهم إلَى عُقوباتٍ، مِنْهَـا الجـلاء عَنْ ديارهم، وَهَذَا مَا حدث فعلا مَعَ بعضِ قَبَائِـل يَهُود فِي عصْرِ الرّسالة، نحو: بني النّضير الَّذِينَ «قَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ مُحَمَّد، حَتَّى صَالَحَهُمْ عَلَى الْجَلَاءِ فَأَجْلَاهُمْ إِلَى الشّـامِ»[2]، بسبب نقضهم العهد، فِي مكاتبتهم كفار مَكّة[3]، ومحاولتهم الغدر بالرّسول مُحَمَّد[4]. فِي حِين أنَّ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ أَقَرَّ أَهْلَ خَيْبَرَ بِهَا إِلَى أَنْ قَبَضَهُ اللَّهُ، وَهِيَ مِنْ جَزِيرَة الْعَرَبِ، وَأَصْرَحُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ مَاتَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِالْمَدِينَةِ عَلَى ثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ أَخَذَهُ لِأَهْلِهِ[5].

أَمَّـا نَصَـارَى نَجْرَان فَقَدْ عاهدهم الرّسـول مُحَمَّد، عَلَى أنْ لا يُغيِّر عَلَيْهِمْ شـيء فِي فضـاءات حياتهـم الدّينِيَّة والإجْتِمَاعِيَّـة والاقتصاديّة «أَبَـدًا»، كَمَا نصـت عَلَيْهِ معاهدة نَجْـرَان: «وَلَهُـمْ – عَلَى مَا فِي هَـذِهِ الصّحيفةِ – جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّـدٍ النّبيِّ أَبَدًا، حَتَّى يأتي أمر الله، مَا نصحوا وأصلحوا فِيمَا عَلَيْهِمْ، غير مُكْلِفِين (مثقلين) شيئا بظلم»[6]. ثُمَّ جَاءُوا مِنْ بَعْدُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَكَتَبَ لَهُمْ (جدّدَ العهد)، وَفَاءً لَهُمْ بِكُلِّ مَا كَتَبَ لَهُمْ مُحَمَّد النّبيُّ[7].

---

(1) – سركيس أبو زيد: المسيحية في إيران، ص118.

(2) عبد الرّزاق الصّنعاني: المصنف 5/ 358.

(3) – قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ: وَكَانُوا قَدْ دَسُّوا إِلَى قُرَيْشٍ فِي قِتَالِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَضُّوهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَدَلُّوهُمْ عَلَى العورة. ابن سيد النّاس، (ت 734هـ): عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسّير 2/ 70.

(4) – الواقدي: المغازي، 1/ 363؛ ابن هشام: السّيرة 2/ 190؛ البيهقي: دلائل النّبوة 3/ 353.

(5) – ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة 1/ 387

(6) – البلاذري: فتوح البلدان 1/ 76؛ ابن شبّة: أخبار المدينة 1/ 311؛ أبو عبيد: الأموال 1/ 245؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة 1/ 272.

(7) – أبو يوسف: الخراج، ص 85.

لَمَّـا أُستخلـف عُمَـرَ أَرَادَ إِجْلَاءَ اليهود، استنـادا الى قَوْل الرسـول «لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَـرَبِ»، وَأَجلَاهُمْ وَلَمْ يَتَلَفَّتْ إِلَـى مَا اعْتَرَضُوا بِهِ عَلَيْـهِ مِنْ قَوْلِ الرسول: «أَتْرُكُوهُـمْ وَمَا يَدِينُونَ»[1]. وكذلك اسْتَجَازَ إِخْرَاجَ أَهْلِ نَجْرَان وَهُمْ أَهْلُ صُلْحٍ؛ ويعلل أَبُو عُبَيْدٍ[2]: وَإِنَّمَا نَرَى لِحَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ مُحَمَّد فِيهِمْ خَاصَّةً، فَإِنَّهُ قَالَ: «أَخْرِجُوا أَهْـلَ نَجْرَان وَيَهُـودَ أَهْلِ الْحِجَـازِ مِنْ جَزِيْـرَة الْعَـرَبِ»[3]؛ لِنَكْـثٍ كَـانَ مِنْهُـمْ، أَوْ لِأَمْرٍ أَحْدَثُـوهُ بَعْدَ الصّلْحِ[4]. وَكَذَا قَـوْلُ الرسول لِعَلِيٍّ بن أبي طالب: «أَخْرِجْ أَهْلَ نَجْرَان مِنْ جَزِيْـرَة الْعَرَبِ»[5]. وعلل أَبُـو يوسف[6]: أَجْلاهُمْ عَنْ نَجْرَان الْيَمَـنَ، وَأَسْكَنَهُمْ بِنَجْرَان العِـرَاق؛ لِأَنَّـهُ خَافَهُـمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ. وأحتجـوا بإعتذار الإمام عَلِـيّ لَهُمْ فِي خلافته، وَكَـانَ هُـوَ من كتب عهد الرّسـول مُحَمَّد إِلَيْهِمْ. فِي رِوَايَة ابْنِ أَبِـي الْجَعْدِ[7]، قَالَ: «جَاءَ أَهْلُ نَجْرَان إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالُوا: شَفَاعَتُكَ بِلِسَانِكَ، وَكِتَابُكَ بِيَدِكَ، أَخْرَجَنَا عُمَرُ مِنْ أَرْضِنَا فَرُدَّهَا إِلَيْنَا صَنِيعَةً، فَقَالَ: وَيْلَكُمْ إِنَّ عُمَرَ كَانَ رَشِيدَ الأَمْرِ، وَلَا أُغَيِّرُ شَيْئًا صَنَعَهُ عُمَرُ»[8].

---

(1) – البابرتي، (ت 786هـ): العناية شرح الهداية 2/ 244.

(2) – القاسم بن سلام: الأموال، ص 129.

(3) – أخرجه احمد: المسند 1/ 195 (1691)؛ الدارمي: السّنن3/ 1622؛ قَالَ: الرَّمَادِيُّ إِبْرَاهِيم بْنَ بَشَّارٍ لَمْ يَرْوِ ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ هَذَا الشَّيْخِ (إِبْرَاهِيم بْنُ مَيْمُونٍ) إِلَّا هَذَا الْحَدِيثَ. الطحاوي: شرح مشكل الآثار7/ 184

(4) – الأموال، ص 129.

(5) – ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة 1/ 384.

(6) – الخراج، ص 86.

(7) – أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ الأَعْمَشِ عَنْ سَالِمِ ابْنِ أَبِي الْجَعْدِ. م. س. 128؛ أَبُو يوسف: م. ن. 87؛ ابن قيم الجوزية: م. س.1/ 384.

(8) – ثَمَّةَ رِوَايَة أخرى: ابن القيم: ذَكَرَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرِيُّ – مِنْ حَدِيثِ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى الْحُلْوَانِيِّ – حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ [جَنَّادٍ]: حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ مُسْلِمٍ الْحَلَبِيُّ، عَنْ صَالِحٍ الْمُرَادِيِّ، عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ قَالَ: رَأَيْتُ عَلِيًّا صَلَّى الْعَصْرَ فَصَفَّ لَهُ أَهْلُ نَجْرَانَ صَفَّيْنِ، فَنَاوَلَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ كِتَابًا، فَلَمَّا رَآهُ دَمَعَتْ عَيْنُهُ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ: «يَا أَهْلَ نَجْرَانَ، هَذَا وَاللَّهِ خَطِّي بِيَدِي وَإِمْلَاءُ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَعْطِنَا مَا فِيهِ. قَالَ: وَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ رَادًّا عَلَى عُمَرَ يَوْمًا، فَالْيَوْمَ يَرُدُّ عَلَيْهِ! فَقَالَ: لَسْتُ بِرَادٍّ عَلَى عُمَرَ شَيْئًا صَنَعَهُ، إِنَّ عُمَرَ كَانَ رَشِيدَ الأَمْرِ، وَإِنَّ عُمَرَ أَخَذَ مِنْكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَعْطَاكُمْ، وَلَمْ يَجُرَّ عُمَرُ مَا أَخَذَ مِنْكُمْ إِلَى نَفْسِهِ، إِنَّمَا جَرَّهُ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ». أحكام أهل الذمة 3/ 1165

ومن خِلَالِ قراءة النّصوص التّاريخيّة من مثل رِوَايَة الشّعْبِيُّ: قَالَ عَلِيٌّ حِينَ قَدِمَ الْكُوفَةَ: مَا جِئْتُ لِأَحُلَّ عُقْدَةً شَدَّهَا عُمَرُا» و«لست براد عَلَى عمر شيئا صنعه»[1]، إنَّ عليًّا كَانَ يكره أنْ يُغَيِّرَ عَلَى عمر شيئًا، قَدْ اتَّخِذ عُرْفًا، أَوْ سنّة بَيْنَ النّاس، وأكبر الظّن أنّهُ كَانَ يخشى عَلَى مسيحي نَجْرَان الَّذِينَ استقروا فِي الكوفة، مَا يحصل لَهُمْ بَعْدَهُ إِذَا مَا رَدَّهُم إِلَى نَجْرَان.

مِنْ هُنَا يشوب الأسباب والرّوايات مَا يوجب الكَلَام فِيهَا، فَمِنَ القدماءِ نبّه ابن القيّم الجوزية[2] إِلَى ذَلِكَ: «قُلْتُ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَدِيثَ عَلِيٍّ غَيْرُ مَحْفُوظٍ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ عِنْدَهُ عَنْ النَّبِيِّ، أَمْرُهُ بِإِخْرَاجِ أَهْلِ نَجْرَان مِنْ جَزِيْرَة الْعَرَبِ، لَمْ يَعْتَذِرْ بِأَنَّ عُمَرَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَكَانَ رَشِيدَ الْأَمْرِ».

لَعَلَّ ورودَ حديثِ الإخراجِ، تَارَةً فِي سياق إجلاء أهلَ خيبرَ[3]، وأهلَ نَجْرَان أُخْرَى، وجمع بينهما ثالثة[4]، للمشركين رابعة[5]، كَانَ موعزا للنظر في سند الرواية، وموردًا للشكّ في مفهومها ودرايتها، من جانب مخالفة الإجراء لسنّة الرسول، مما كان مدعاةً لمَلْحَظِ الطّبريّ الشّيعيّ[6]، وردّه: أنّ مَا فَعَلَهُ عُمَرُ مَعَ أهل نَجْرَان وخيبر يخالفُ عهودَ النّبيِّ مَعَهُمْ، وصُلْحَهُ وإقرارَهم عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ.

---

(1) – ابن قيم الجوزية: م. ن. 3/ 1165، 1166.

(2) – م. ن. 1/ 385.

(3) – القاسم بن سلام: حَدَّثَنَا حَجَّاجُ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِإِخْرَاجِ الْيَهُودِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. الأموال، ص 127.

(4) – القاسم بن سلام: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، عَنْ حَمَّادٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، حَتَّى لَا أَدَعَ فِيهَا إِلَّا مُسْلِمًا». وعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْمُونٍ، مَوْلَى آلِ سَمُرَةَ، عَنِ ابْنِ سَمُرَةَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ كَانَ آخِرَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: أَخْرِجُوا الْيَهُودَ مِنَ الْحِجَازِ، وَأَخْرِجُوا أَهْلَ نَجْرَانَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. الأموال، ص 128، 129.

(5) – القاسم بن سلام: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَجْلَى عُمَرُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَقَالَ: لَا يَجْتَمِعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ. الأموال، ص 128.

(6) – مُحَمّد بن جرير (– ق4هـ): المسترشد، ص 527.

كانت أسباب الإجلاء مختلفة - في نظر العلماء - باختلاف المجليّ، بيد أنَّ أحمد بـن حنبـل يختزلها في قتـال النبي، ويفرق بيـن المشركين وبين النصـارى واليهود، في روايـة «أبو بكر المـروذي» قَالَ: سئل أبو عبد الله عن قول النبـي: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب». قَالَ: هم الذين قاتلوا النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليست لهم ذمة، ليس هم مثل اليهود والنصارى[1].

أمَّـا مَـا قَالَـه القدمـاء فِـي الأسبـاب الموجبـة لإجلاء مسيحـيّ نجـران، مثـلًا: أَبُو يوسف[2]: «لِأَنَّهُ خَافَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ». وأَبُو عُبَيْدٍ: «لَنَكْثٍ كَانَ مِنْهُمْ، أَوْ لِأَمْرٍ أَحْدَثُوهُ بَعْـدَ الصّلْـحِ»؛ فيكتنفهـا إبهـامٌ وإطلاق، ودونَمـا تحديد حادثة تذكـر، وَلَمْ يُـورِدْ أَهْلُ الأخبـارِ حَادِثًا دَالًّا عَلَى نَكْثِهِمْ بِنُودَ الصُّلْحِ؛ ولذا مَا ذُكِرَ، لَمْ يرقَ إِلَى الأسبابِ المُقْنِعَةِ والمُوجِبَةِ لِإِجْلائِهِمْ.

يبـدو أنَّ الأسبـابَ الَّتِـي وَرَدَتْ فِي المصادِرِ الإِسْلَاميّـةِ، والتي تُسَـوِّغُ تَنْحِيَتِهِمْ فِي نظـرِ الْمُسْلِمِينَ تَعْتَوِرُهَا تناقُضَاتٌ، نحو: تكاثر أهل نَجْرَان، وخوف الخليفة مِنْهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِيـنَ، والشّـك بطاعتهم النّاتج عَنْ ضعـف التّزامهم بشروط العهـد. فِي حِين أنَّ كِتَابًـا بَعَـثَ بِهِ عُمَرُ، كُتِبَ فِيهِ وُجُوبُ حمايتِهم، فَضْلًا عَنْ وَصِيَّتِه[3]. وَبِحَسَبِ تريتون[4] «لَمَّـا تدانَى أَجَلُهُ، أوصَى مِن بعدِه وَهُوَ عَلَى فراشِ الموتِ، بقوله: «أوصي الخليفة من بعـدي بأهل الذِّمَّة خيـرًا، وأنْ يُوفِيَ لَهُمْ بعهدِهِم، وأنْ يقاتِلَ مِـن ورائِهم، وألَّا يُكَلِّفَهُمْ فَوْقَ طاقتِهِم».

ثمـة إشـكالية يتوخاهـا البحث بإيجـاز عن ماهية «جزيـرة العرب» فـي الأثر؟، وما

(1) - أبو بكر الخَلاَّل، (ت311هـ) أحكام أهل الملل والردة من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل، ص55.

(2) - الخراج، ص 86.

(3) - تامر باجن أوغلو: حقوق أهل الذمة في الفقه الإسلاميّ، ص١٧؛ جعفر مرتضى، الصّحيح من سيرة النّبي الأعظم 8/ 149 ـ 163؛ حيدَر حب الله: «إخراج غير المُسْلِم من الجزيرة العَرَبِيّة»، بحث437، مركز الفقاهة للدراسات والبحوث الفقهية، 30/ 3/ 2012.

(4) - آرثر ستانلي تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص 158 – 159.

حدودهـا، قبل الفتوح وبعدها؟ وما رأي العلمـاء المسلمين فيها؟ نجد تفسيرات عدة: في رأي أحمد بن حنبل، إنّ جزيرة العرب، يعني، أولا – المدينة وما والاها؛ لأن النبي أجلـى يهـود، فليس لهم أنْ يقيموا بها. ثانيا – ما لم يكن في يد فارس والروم. ثالثا – ما كـان خلـف العرب. وقـال الأصمعي: كل ما كـان دون أطراف الشام[1]. وَقَـالَ يَعْقُوبُ بْـنُ مُحَمَّدٍ، سَأَلْتُ الْمُغِيرَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ جَزِيـرَةِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: مَكَّةُ، وَالْمَدِينَةُ، وَالْيَمَامَةُ، وَالْيَمَنُ، وَقَالَ يَعْقُوبُ: وَالْعَرْجُ أَوَّلُ تِهَامَةَ»[2].

مـن منظـور بعـض المستشرقيـن[3]: انَّ الإضطهـادات والمضايقات التي شـهدتها الجماعة المسيحيَّة تختلف عن تلك المضايقات التي أتخذت مع اليهود، وهي لم تكن معروفـة فـي بداية الإسـلام، وأنّه إذا ما أقـرَّ محمد اللعنة ضـدَّ الكفار فـي نهاية حياته، وقـد مارسهـا الخليفة عمر، الذي أكـره المَسِيحِيِّينَ بالخروج من الجزيـرة العربية، فإنَّ اختفـاء المسيحيَّة من الجزيرة العربيَّة لـم يكنْ له تلك الأوجُه المأساويَّة والقاسيَة، التي مُورِسَـتْ على اليهوديَّة، فعلـى الرغم من العثرة المُحْبِطَة المتمثّلـة بالثالوث وبالتعليل اللاهوتـي لشخصيَّة المسيح، فقد كـان الإسلام دائما يشعر – بغموض وغير وضوح – بأن المسيحيَّة كانت العقيدة الشقيقة والأخوية.

أَمَّـا الْحُقُوق الاقتصاديّة والْمَالِيَّة فَقَدْ ضَمَنَها الإِسْـلَام لغير الْمُسْلِمِينَ، وكفلت لهم الشريعة التمتُّع بالحقوق المالية، وجميع التصرفات القانونية لكسب الأموال، المنقولة وغير المنقولة، وسواء باشر هذه التصرفات مع المسلمين أو مع غيرهم. ونص الفقهاء على أنَّ «معاملة أهل الذمّة جائزة، وإنْ كانوا يستحلون بيع الخمر والخنازير، ويعملون بالربـا»[4]، وأن حـق المَلَكِيَّة حق مصـون، لا يجوز لأحد التعرض لـه، وحرّم الاعتداء عَلَى اموالهم، بالسّرقة والغصـب والغش والاحتيال، لأنَّ «حُكْمُ أَمْوَالِهِمْ، حُكْمُ أَمْوَالِ

(1) – الخَلاَّل: أحكام أهل الملل والردة، ص56.
(2) – صهيب عبد الجبار: المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة 2/ 168.
(3) – كبريلي، فرانشيسكو Francesco Gabrieli: محمد والفتوحات الإسلامية، م. س. ص113.
(4) – ابن رشد (ت520هـ): المقدمات الممهدات، (بيروت، 1988) 2/ 156.

الْمُسْلِمِيـنَ فِـي حُرْمَتِهَا. قَالَ عَلِيٌّ – رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ: إِنَّمَا بَذَلُوا الْجِزْيَـةَ لِتَكُونَ دِمَاؤُهُمْ كَدِمَائِنَـا، وَأَمْوَالُهُـمْ كَأَمْوَالِنَـا.»[1]، ولذا لهم مطلق التصرف فـي أموالهم، كما هم عليه المسلمون[2].

لَمْ يأخذْ الإِسْلَام مِنْهُمْ غيرَ الْجِزْيَة، وَقَدْ «جعلها الله تعالى حقناً لدمائهم، ومنعًا من استرقاقهم، ووقايةً لِمَا عَدَاها من أموالهم»[3]. وراعَى الإِسْلاَم فِي أخذ الْجِزْيَة التَّفاوتَ الاقتصاديَّ بَيْنَهُمْ، فقرَّر إعفاءَ العاجزين عَنْ دفعِها، وإعفاءَ الصّبيانِ، والنّساء، والعبيد، والشّيـوخ المسنِّين، وأصحابِ العاهات الجسديَّة والعقليَّـة، واعفاءَ مُطْلَقِ الفقراء، فلا تُؤْخذ مِنْهُمْ[4].

ولم يكن الغرض من فرض ضريبة الجزية على المَسِيحِيِّينَ – بحسب أرنولد Arnold – كمـا يظنُّ بعـض الباحثين لونًا من ألوان العقاب، لإمتناعهم عن قبول الإسلام، وإنَّما كانـوا يؤدونها مع سائـر أهل الذمة، وهم غير المسلمين من رعايـا الدولة، الذين كانت تَحُـولُ ديانتُهـم بينَهم وبين الخدمـةِ في الجيش، في مقابل الحمايـةِ التي كفلتْها سيوفُ المسلمين[5]. بدلالةِ ما كتبه أهل الحيرة: «إنا قد أدَّيْنَا الجزية التي عاهدنا عليها خالد... على أنْ يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم»[6].

أمـر الإِسْلَام بحسـن التّعامُلِ عِنْدَ أخذ الْجِزْيَة، والاكتفـاء بأخذ اليسير من أموالهم، وتـركِ مَـا يحتاجون إِلَيْهِ، ومن ذَلِكَ إنَّ الإمام عليًّا أمَـرَ واليَهُ عَلَى بانيقيا وسواد الكوفة: «إيَّـاكَ أنْ تضـربَ مسلمًا، أَوْ يهوديًا، أَوْ نَصْرَانِيًّا فِي دِرْهَـم خَـراج، أَوْ تبيعَ دابَّةَ عملٍ فِي دِرْهَـم، فإنَّـا أُمِرْنا أنْ نأخُـذَ مِنْهُ العَفْوَ»[7]. وأنَّ عَلَى الإمام ان يأخـذَ الحقَّ فِي أموال غير

(1) – ابن قدامة: المغني 9/ 284.
(2) – زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين، ص132.
(3) – المفيد: المقنعة، ص 269.
(4) – أَبُو الصّلاح الحلبي، (ت447هـ): الكافي فِي الفقه، ص 249.
(5) – الدعوة الى الإسلام، ص 79.
(6) – الطبري: تاريخ الرسل والملوك 3/ 371.
(7) – المفيد: المقنعة، ص257؛ الكليني: الكافي 3/ 540؛ وقارن: أَبُو يوسف: الخراج، ص15؛ نمر مُحَمَّد خليل النّمر: أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلاميّ (المكتبة الإسلاميّة، عمان) ص134.

الْمُسْلِمِينَ، إِذَا مَا تعرَّضَتْ لأذى. كَمَا تدل رِوَايَة زيد[1] بسنده عَنْ الإمام عليّ: إنَّ مسلمًا قتـلَ خنزيراً لنَصْرَانِيّ، فضَمَّنَه عليٌّ قيمتَـه، وَقَالَ: «إنَّمَا أعطيناهم الذِّمَّة، عَلَى أنْ يُتْرَكُوا يستحلُّون فِي دينهم، مَا كَانُوا يستحِلُّون من قبْلُ».

وَفِـي ضريبـة التّجارة المنقولة مـن دار الحَرب إلَـى دار السّلام، وبالعكـس، يُؤخَذُ العُشْـرُ مـن الحربيّ، ونِصْفُ العشرِ من الذِّمّيّ. ويُعْفَى الذّمّـيُّ من ضريبة العشر إِذَا كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ بِقَدْرِ مَا مَعَهُ، أَوْ يَنْقُصُ ثمن البضاعة عَنْ النّصَابِ[2].

أَمَّا حق العمل فغَيْرُ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ حقُّ العملِ فِي بلادِ الْمُسْلِمِينَ، ولا يُكْرَهون عَلَى اختيـارِ عملٍ مُعَيَّنٍ، فهم أحرارٌ فِي ذَلِكَ، ولا قيـودَ عَلَيْهِمْ فِي العملِ، وإنْ وُجِدَتْ فَهِيَ عَلَـى حدٍّ سَوَاءٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَهُم، وَمِنْهَا الأعمـالُ الَّتِي تضرُّ بالمصلحةِ العَامَّة. أمَّا فِـي الأُمـور المباحة فهُمْ أحـرارٌ، وَقَدْ جُعِلَ لَهُـمْ الحقُّ فِي التّصرُّفِ فِـي بعضِ الأمورِ، مَـا دامَـتْ مُحَلَّلَةً فِـي دينِهم، فيجوزُ للمسلـمِ قَبْضُ دَيْنِهِ مِـن الذِّمّيّ مِن ثَمَـنِ مَا باعَ مِن المُحرّماتِ فِي شريعةِ الإِسْلَامِ[3].

إنّ تَولِيَ الوظائفِ العَامَّةِ فِي الشّريعةِ الإِسْلَاميّة، بحَسَبِ زيدان[4]: «لَيْسَ حقًّا للفردِ عَلَـى الدّولـةِ، وإنَّمَا هُوَ تكليـفٌ تُكَلِّفَهُ بِهِ الدّولةُ، إِذَا كَانَ أَهْلًا لهـا، وواجبٌ يقومُ بِهِ إِذَا عُهِدَ إِلَيْهِ»، وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَى الْمُسْلِم وغيره. وغير المسلمين الذين لا تُعرَف لهم عداوةٌ للدولـة، يجوز اتخاذهم بطانـة، يُسْتَود عونُهم الأسرار، ويستعينون برأيهم في شـؤون الدولة المهمّة[5]. وإذا كانوا في موضع الكفاءة والثقة والأمانة، يمكن أنْ تُسنَد لهم مهام خطيـرة، ومن الشواهد التاريخيّة، دَعَـا رَسُولُ اللهِ، وهو في طريقه الى مكّة سنة (6هـ/

(1) – زيد بن علي: مسند الامام زيد (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت) 267.
(2) – ابن القيم: أحكام أهل الذمة 1/ 357. نصاب التجارة (رأس المال) عشرين دينارا أَوْ مائتي درهم. البحراني، يوسف: الحدائق النّاضرة، (دار الاضواء – بيروت، 1985) 12/ 146.
(3) – محسن الحكيم: منهاج الصّالحين 2/ 189؛ الخوئي: منهاج الصّالحين 2/ 174.
(4) – عبد الكريم: أحكام الذمين والمستأمنين في دار الاسلام، ص77.
(5) – محمد رشيد رضا: تفسير المنار (القاهرة، 1990)، 4/ 68.

628م)، بُسْرَ بْنَ سُفْيَانَ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ، فَأَرْسَلَهُ عَيْنًا لَهُ[1]، ليأتيه بخبر قريش، كان حينئذٍ كافـرا؛ وإنمـا اختاره لذلك مع كفـره، ليكون أمكن لـه في الدخول فيهـم، والاختلاط بهم، والاطلاع على أسرارهم[2]. وحين جاء سبي قيسارية الى عمر بن الخطَّاب، جعل بعضهـم فـي الكتَّاب وأعمـال المسلمين[3]. ولمـا احتفر سليمان بن عبـد الملك لأهل الرملـة قناتهـم، الَّتِي تدعى بردة، واحتفر آبارا، ولَّى النفقـة، عَلَى بنائها بالرملة ومسجد الجماعة، كاتبًا له نصرانيًّا من أهل لِد يقال له البطريق بْن النكا[4].

وَفِـي توليةِ أهـلِ الذِّمَّةِ ذَهَبَ الفُقَهـاءُ أمثالُ المـاورديِّ (ت450هـ)[5] إِلَى: شَـرْعَنَةِ واقِعٍ تَمَّ تنفيذُهُ، فذهبوا إِلَى جوازِ توليتِهم فِي السّلطَةِ، مِثْلِ الوزاراتِ، ولَكِنْ شريطةَ أَنْ تَنْحَصِـرَ واجباتُهـم عَلَى مرجعِ التّنفيذِ[6]، وَلَيْسَ الحُكْمَ والقضـاءَ، فالذّي يتولّى التّنفيذَ يجوزُ أَنْ يكونَ ذمِّيًّا، دُونَ أَنْ يَحْسِمَ فِيمَا يتَعَلّقُ بالواجباتِ الشّرعيَّةِ، مثلِ جمعِ الزكاة.

أَمَّـا مَا يتصل بالقضاء فلا يصـح تقليد غير الْمُسْلِم القضاء عَلَـى الْمُسْلِمِينَ. وعلَّلوا ذَلِـكَ بـأنَّ القضاء من باب الولاية، بَلْ هُوَ أعظم الولايات، وغيـرُ الْمُسْلِم لَيْسَ لَهُ أهليَّةٌ لأدْنَـى الولايات وَهِـيَ الشّهادة عَلَـى الْمُسْلِمِينَ، فبالأوْلى لا يكون لَـهُ أهلية لأعلاها. وبهـذا صـرح الفقهـاء مـن مُخْتَلَف المذاهـب كالحنفيَّـة والشّافعيَّـة والشّيعـة الإماميَّة والزيديَّة والظّاهريَّة[7].

اختلـف الفقهاء فِي جـواز تَوْلِيَةِ غيرِ الْمُسْلِـم القضاءَ عَلَى غيـرِ الْمُسْلِمِينَ. ويمكن إجمـال أقوالِهـم عَلَـى النّحو الآتي: صرحـت الشّافعيَّة بعـدم جواز تقليد غيـر الْمُسْلِم

(1) – الواقدي: مغازي 2/ 573؛ البيهقي: دلائل النبوة 4/ 99؛ المقريزي: إمتاع الأسماع 9/ 4.
(2) – المقريزي: م. ن. 9/ 15.
(3) – البلاذري: فتوح البلدان، ص 143.
(4) – البلاذري: م. ن، ص 145.
(5) – الماوردي، (ت450هـ): الأحكام السّلطانية، ص58.
(6) – وَزَارَةُ التَّنْفِيذِ حُكْمُهَا أَضْعَفُ وَشُرُوطُهَا أَقَلُّ؛ ووزير التنفيذ مقصور على تنفيذ ما صدَرت به أوامر الخليفة، ووزير التفويض مطلق التصرّف. الماوردي: م. ن. ص 56.
(7) – تامر باجن أوغلوا: حقوق أهل الذمة فِي الفقه الإسلاميّ، ص29.

القضـاءَ عَلَـى غيـر الْمُسْلِمِينَ[1]، وَهُـوَ مذهبُ المالكيَّـة والحنابلَةِ والشّيعـةِ الإماميَّة -أيضًـا؛ لأَنَّهُـمْ قالوا بعدم جواز شـهادة غير الْمُسْلِـم عَلَى الْمُسْلِم. قَـالَ الأحنافُ يجوز تقليدُ الكافرِ القضاءَ، وإنْ لَمْ يَصُحْ قضاؤه عَلَى الْمُسْلِم حالَ كفره. وَقَالُوا -أيْضًا: يجوز أنْ يُولَّـى الذِّمّـيُّ القضاء عَلَى أهل الذِّمَّة، وكونِه قاضيًا خاصًّـا بِهِمْ، لا يُقْدَحُ فِي ولايتِه، ولا يُضَرّ، كَمَا لا يَضُرّ تخصِيصُ القاضِي الْمُسْلِمِ بجماعةٍ مُعَيَّنَةٍ من الْمُسْلِمِينَ[2].

بحكـم تَعَايُش الْمَسِيحِيّن وغيرهم من أهـل الذِّمَّة فِي الْمُجْتَمَع الإِسْلَاميّ، كَانَ لَهُمْ مـن الخبـراتِ مَا يوجب تميُّزهـم وتسنُّمَهم وظائفَ، مِمَّا شَـهِدَ بكثرتِهـا متعجِّبًا بعضُ المستشرقيـن، نحو آدم متز: «من الأمُور الَّتِي نعجبُ لها كِثْرةُ عددِ العمال والمتصرفين غير الْمُسْلِمِينَ فِي الدَّولَة العَرَبِيَّة»[3].

ثَمَّةَ أحكام كثيرةٌ تخصّ أهلَ الذِّمَّة، وحُقُوقَهم وواجباتِهم فِي التّشريعات الإِسْلَاميّة، وَفِي مؤلفاتِ الفقهاء، نحو:

- حقهم فِي التكافل الإِجْتِمَاعِيّ ورعاية الدّولة: تبنّى الإِسْلَامُ التكافلَ الإِجْتِمَاعِيّ، واشـباع حاجات الفقراء والمستضعفين، سواء أكانوا مُسْلِمِينَ أَمْ غير مُسْلِمِينَ، ماداموا يعيشـون فِـي ظِلِّ الدَّولَة العَرَبِيَّـة. وإذا مَا افتقر، أَوْ شـاخ الذِّمّيُّ، يُصْرَفُ لَـهُ مؤونتُه من بيـت المال، ففي عقد كتبه خَالِد بن الوليد لأهـلِ الحِيرَة بالعِرَاق، وَكَانُوا من النَّصَارَى: «وَجَعَلْـتُ لَهُمْ، أَيُّمَا شَـيْخٍ ضَعُفَ عَـنْ الْعَمَـلِ، أَوْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ مِنَ الآفَـاتِ، أَوْ كَانَ غَنِيا فَافْتَقَرَ، وَصَارَ أَهْلُ دِينِهِ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ؛ طَرَحْتُ جِزْيَتَهُ، وَعِيلَ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَعِيَالُهُ مَا أَقَامَ بِدَارِ الْهِجْرَةِ وَدَارِ الإِسْلَامِ»[4].

وروي أنّ الإمـام عليّـاً مرَّ بشيخ مكفوف كبيـر، يسأل النّاس، فقال: مَـا هَذَا؟ قالوا: يـا أميـر المؤمنين، نَصْرَانِيّ، فقال: «استعملتمـوه (أي أخذتـم مِنْهُ الْجِزْيَـة) حَتَّى إِذَا كَبِرَ

---

(1) - ابن حزم: المحلى 9/ 363؛ الشّربيني، (ت977هـ): مغني المحتاج إلىَ معرفة معاني ألفاظ المنهاج 4/ 375.

(2) - شرح العناية 5/ 499

(3) - الحضارة الإسلاميّة فِي القرْن الرّابع الهِجْرِيّ 1/ 105.

(4) - أبُو يوسف: الخراج، ص 157، 144.

وعَجَزَ، منعْتمُوه؛ أنْفِقُوا عَلَيْهِ من بيتِ المال»[1].

ونجد المعنى ذاته فِي كِتَابَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ أَرْطَاةَ[2]: وَانْظُرْ مِنْ قِبَلَكَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، قَدْ كَبِرَتْ سِنُّهُ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ، فَأَجْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا يُصْلِحُهُ...، وَذَلِكَ أَنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ مَرَّ بِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَسْأَلُ عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ، فَقَالَ: مَا أَنْصَفْنَاكَ، أَنْ كُنَّا أَخَذْنَا مِنْكَ الْجِزْيَةَ فِي شَبِيبَتِكَ، ثُمَّ ضَيَّعْنَاكَ فِي كِبَرِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَجْرَى عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يُصْلِحُهُ[3].

ويرى الإِسْلَام أنّ لأعراض أهل الكتاب وأموالهم حرمة، مثل مَا يراه لأعراض الْمُسْلِمِينَ وأموالهم، فَإِنَّ الإمامَ عليًا - بعدَما سمع إغـارةَ خيلِ معاوية عَلَى الأنبار، وتعرّضهم لنساء الْمُسْلِمِينَ، ولنساءِ أهل الذِّمَّة - قَالَ: «ولقد بلغني أنّ الرّجل مِنْهُمْ، كَانَ يدخلُ عَلَى المرأة الْمُسْلِمة، والأُخرَى المعاهدة، فينتزع حجلَها وقُلبَها وقلائدَها ورعاثَها[4]، مَا تمنعُ مِنْهُ إِلّا بالاسترجاع[5] والاسترحام...»[6]

وَفِي جواز الصّدقة عَلَى فقرائهم، تدل عليه رواية سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ «تَصَدَّقَ صَدَقَةً عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَهِيَ تُجْرَى عَلَيْهِمْ»[7]. ونستفيد هذا المعنيمن رِوَايَة عمرو بن أبي نصر قَالَ: «قلت لأبي عبد الله الصّادق: إنَّ أهلَ السّواد يقتحِمون عَلَيْنَا، وفيهم اليهودُ والنَّصارَى والمجوس، فنتصدّق عَلَيْهِمْ، فقال: نعم»[8]. توسع الإسلام في جواز الصدقة والصِلة الى أبعد من أهل الذمة، وهم رعايا الدولة،

(1) - الطوسي: تهذيب الاحكام 6 / 293؛ الحر العاملي: وسائل الشّيعة 15/ 66.
(2) - الفزاري، والي الْبَصْرة سنة 99هـ/ 718م. زامباور: معجم الاسرات الحاكمة 63.
(3) - أَبُو عبيد: الأموال، ص 57
(4) - الحجل - بالكسر: خلخالها. والقلب - بالضّم: سوارها. والرّعاث، جمع رعثة - بالفتح ويحرك: كل معلاق كالقرط والشّنف ونحوه فِي آذان أَوْ قلادة. الخليل: العين (قلب)، (رعث).
(5) - الاسترجاع: ترديد الصّوت فِي البكاء، استَرْجَع الرّجُل عِنْدَ المصيبة: قَالَ: إِنّا لله وإنا إِلَيْهِ راجعون. الخليل:م. ن. 1/ 126 (رجع).
(6) - الشّريف الرّضي (ت405هـ) نهج البلاغة - خطب الإمام علّي، شرح: مُحَمَّد عبده، (دار الذخائر، قم، ايران 1412هـ) 1/ 69؛ المنتظري: دراسات فِي ولاية الفقيه والدولة الإسلاميّة 2/ 723.
(7) - ابو عبيد: الأموال، ص 728.
(8) - الكليني: الكافي 4 / 14.

الـى فقـراء المشركين في دار الحرب، فقـد بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ خَمْسَ مِائَـةِ دِينَارٍ إِلَى مَكَّةَ حِيـنَ قَحَطُوا، وَأَمَرَ بِدَفْـعِ ذَلِكَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَصَفْوَانَ بْـنِ أُمَيَّةَ، لِيُفَرِّقَا عَلَى فُقَرَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ[1].

من أحكام أهل الذِّمَّة

- أكـل طعامهم: يحلُّ للمسلم أكلُ طعامٍ وذبائح أهل الكتاب، مِمَّا هُوَ جائز للمُسْلِمِينَ مثلُـه، كالبقـر والدّجـاج ونحـوه، ويُحَـرَّمُ كلُّ مَا هُـوَ حرام فِـي الإِسْـلَام، كالخنزير والخمـر، والدّليل قوله تعالى {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَـامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِـلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِـلُّ لَّهُمْ} (المائدة5). ويُشترط أنْ تُذْبَحَ وتُذَكَّى ذكاةً صحيحة، ولا حاجـةَ للسـؤال عَـنْ ذَلِـكَ، إِذَا كَـانَ غالـبُ وظاهرُ حالِهـم أَنَّهُمْ يذبحـون ذبحًا صحيحًـا، ويُشتـرط - أَيْضًا - أَلَّا يكـون ذُبِحَ لمناسبة دِينِيَّة أَوْ لعيـد، أَوْ فِي كَنَائِسهم وبِيَعهم عَلَى أنصابهم[2].
- طهـارة الكِتَابِـيّ: رَوَى الدَّارَقُطْنِـيُّ: عَـنْ عُمَـرَ أَنَّـهُ تَوَضَّـأَ مِنْ بَيْـتِ نَصْرَانِـيٍّ فِي حُقِّ نَصْرَانِيَّةٍ[3]. وَفِي صحيحة عبد اللَّه بن سنان، قَالَ: سأل أبِي أبا عبد اللَّه الصّادق، وأنا حاضـر، إِنّـي أُعِيرُ الذِّمِّيّ ثوبًا، وأنا أعلمُ أَنَّهُ يشربُ الخمـرَ، ويأكُلُ لحمَ الخنزيرِ، ثُمَّ يـرُدُّه علَـيَّ، فأغسِلُه قبْـلَ أنْ أُصَلِّي فِيهِ؟. فقال أَبُو عبد اللَّـه: «صلِّ فِيهِ ولا تغسلْه من أجلِ ذَلِكَ، فإنّك أعِرْتَهُ إِيّاه وَهُوَ طاهرٌ، وَلَمْ تَسْتَيْقِنْ أَنَّهُ نجّسَهُ، فلا بأس»[4].
- الصّـلاة فِـي الكَنِيسَـة: سئل الإمام الصّـادق عَنْ الصّـلاة فِي البيـع والكَنَائِس، فقال: صـلِّ فِيهَـا؛ قَدْ رأيتُها مَا أنظفَهـا. قيل: أَيُصَلِّي فِيهَـا، وإن كَانُوا يُصَلُّـون فِيهَا؟ فقال: نعم، أمَا تقرأ القُرْآن: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَـاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلا} (الاسـراء٨٤)، صَلِّ إِلَى القِبْلَةِ ودَعْهُمْ[5]. وَقَالَ - أَيْضًا: «لا بأسَ بالصّلاةِ، فِي البيعةِ

---

(1) - السرخسي: شرح السير الكبير، ص 96.
(2) - وسيم فتح الله: الوجيز في أحكام أهل الذمة، ص11.
(3) - القرطبي: تفسير 6/ 78، 13/ 44.
(4) - الطوسي: التهذيب 2/ 361، الاستبصار 1 / 392.
(5) - الحر العاملي: هداية الأمة إلىَ أحكام الأئمة 2/ 166؛ وقارن الكليني: الكافي3/ 388.

والكَنِيسَةِ، الفريضةِ والتّطوُّع»[1].

فِي رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ رَافِعٍ، قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَؤُمُّ النَّاسَ فِي كَنِيسَةٍ بِالشَّامِ[2]. ومِمَّنْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى فِي كَنِيسَةٍ أَبُو مُوسَى، وَرَخَّصَتْ طَائِفَةٌ أَنْ يُصَلَّى فِي الْكَنَائِس والْبِيَعِ، مِنْهُمْ: الْحَسَنُ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالنَّخَعِيُّ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، ودليلُ جَوازِها دُخُولُهَا فِي جُمْلَةِ قَوْلِ الرّسول: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[3]. وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ رَخَّصَ أَنْ يُصَلَّى فِي الْبِيَعِ إِذَا اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ[4]. فِي حِين اتفقَ الْمَالِكِيَّةُ الْحَنَفِيَّةَ وَالشَّافِعِيَّةَ عَلَى كراهة الصَّلَاةِ فِي الْكَنِيسَةِ إلاَّ إِذَا دَخَلَهَا مُضْطَرًّا غيرَ مُختار[5].

- الزواج مِنْهُمْ: الْمُسْلِم يجوز لَهُ الزواجُ من كِتَابِيَة يَهُودِيَّة، أَوْ نَصْرَانِيَة، بشرطِ العِفَّةِ والإحْصَانِ، عَلَى الصّحيح، بدليل قوله: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ} (المائدة5) ولا يحلُّ للمُسلِمَةِ أنْ تَنْكِحَ غَيْرَ الْمُسْلِم.
- البيع والشّراء: الأصلُ فِي المعاملاتِ الحِلُّ، فلا بأسَ فِي البيع والشّراءِ من الكِتَابِيّ، مَا لَمْ يَكُنْ شيئًا مُحَرَّمًا، كلحم خنزير، أَوْ خَمْرٍ، أَوْ يُفضي إِلَى مُحَرَّمٍ، كَبَيْعِهِمْ السّلاحَ فِي وَقْتِ الفِتْنَةِ، بحيث قَدْ يستعملونه ضدَّ الْمُسْلِمِينَ، والدّليلُ عَلَى ذَلِكَ عموم قوله تعالى {وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} (البقرة275).
- عيادة مريضهم: تجوز زيارةُ مريضِهم، إِذَا كَانَتْ تألفاً لقلوبهم، وإظهاراً لأخلاق الإِسْلَام وسماحته، دُونَ مداهنةٍ فِي الدّين، أَوْ إقرارٍ لَهُمْ عَلَى باطل، أَوْ تزلُّفٍ لِذي جاهٍ، أَوْ منصبٍ، وَفِي رِوَايَة أنس، قَالَ: «كَانَ غلامٌ يهوديّ يخدم النّبيّ – صلى الله

(1) – الحر العاملي: م. ن. 2/ 166؛ البحراني: الحدائق النّاضرة 7/ 233.
(2) – ابن أبي شيبة (ت235هـ): المصنف 1/ 423.
(3) – البخاري: الصّحيح 1/ 74؛ مسلم: الصّحيح 1/ 370.
(4) – مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم النّيسابوري (ت 319هـ): الأوسط فِي السّنن والإجماع والاختلاف 2/ 194.
(5) – الموسوعة الفقهية الكويتية 27/ 114.

عَلَيْهِ وسلم - فمَرِضَ، فأتاهُ النّبيّ يعودُه، فقعدَ عِنْدَ رأسه...»[1]

هَكَـذَا نَـرَى أنَّ حُقُوقَ أهلِ الذِّمَّةِ شـغلتْ حيّـزًا واضحًا فِي الشّريعـة الإِسْلَاميّة وما اشـترعَهُ الفقهاء، عَلَى نحوٍ يكشِفُ عَنْ كبيرِ اندماجِهم فِي المُجْتَمَع الإِسْلَاميّ، وعميقِ تفاعلِهـم فِيـهِ، وحسْبُنا أنْ نستخلصَ هَـذِهِ العلائقَ من الاخبـار النَّصْرَانِيَّة، ونستقي من «شـهادة (عيشويابـه) الَّذِي تولى كرسـي البِطْرِيَركية سنـة (26 - 36هـ/ 647 - 657م) إِذْ كتـب يَقُـول: «إنَّ الْعَرَب الَّذِيـنَ مَكَّنَهُم الـرَّبُّ مِنَ السّيطـرةِ عَلَى العالـم يعاملوننا كَمَا تعرفون، أنَّهُمْ ليسوا بأعداء للنَصْرَانِيّة، بَلْ يمتدحون ملّتنا، ويوقرون قِسِّيسِينا وقدّيسينا، ويمـدون يـد المعونة إِلَى كَنَائِسنـا وأديرتنا». والظّاهر إنَّ الاتفاقَ الَّـذِي تمَّ بَيْنَ عيشويابه وَبَيْـنَ الْعَـرَب كَانَ من صالـح النَّصَارَى، فَقَدْ نصّ عَلَى وجـوب حمايتهم من أعدائهم، وألا يُحْمَلُوا قسرًا عَلَى الحرب من أجل الْعَرَب، وألا يُؤْذُوا من أجلِ الاحتفاظِ بعاداتِهم ومُمَارَسَةِ شـعائرِهم، وألَّا تزيدُ الْجِزْيَةُ المجباةُ مِن الفقيرِ عَلَى أربعةِ دراهمَ، وأنْ يُؤْخَذَ مِن التّاجِرِ والغنيِّ اثْنَا عَشَرَ دِرْهَمًا، وإذا كَانَتْ أمَةٌ نَصْرَانِيَّةٌ فِي خدمةِ مُسْلِمٍ، فَإِنَّهُ لا يحقُّ لسيِّدِها أنْ يُجْبِرَها عَلَى تركِ دينِها، أَوْ إهمالِ صلاتِها، والتّخلّي عَنْ صيامِها»[2].

يتفـق من كتبوا عـن الإسلام مـن المفكرين الغربييـن المحايدين علـى أنَّ التسامح مكـوِّنٌ أسـاسٌ من طبيعـة الإسـلام، فكـرةٌ استُلْهِمَتْ من عشـراتِ الآياتِ مـن القرآن والمئات من الأحاديث، التي تأمر بالعفو والمغفرة والحلم والصبر على الأذى ومقابلة الإسـاءة بالإحسان، وكانَ مـن الطبيعيِّ أنْ يظهرَ أثرُ هذا التسامـحِ في التعاملِ الإنسانيِّ مـع الشعوبِ المغلوبةِ، والقـدرةِ على التعايشِ الإيجابيِّ مع الآخـرِ، إذْ بقيتْ الأقلياتُ المغايـرةُ للمسلميـنَ فـي الدينِ تتمتَّـعُ بما يشبهُ الحكـمَ الذاتيَّ، فكانتْ هـذه الأقليات تستقلُّ بوضعِ قوانينِها وبقضائِها، واستثنيت من القانون الجنائي العام في الأمور التي لا تعدُّ محرَّمةً في دينِ الأقليَّةِ.

ولعـلَّ أُسلـوبَ التسامحِ كانَ لـهُ دورٌ في اجتـذابِ الآخرِ الدينيِّ، وجعلِـه يقتنعُ بأنَّ

---

(1) - البخاري: الجامع المسند الصّحيح 2/ 94؛ ابن حزم الظاهري: المحلى بالآثار 3/ 403
(2) - آرثر ستانلي تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص 158 - 159

الإسلامَ الذي وضعهُ على خارطةِ المساواة، يمكنُ انْ يعتنقَهُ، فهو أحدُ العواملِ المؤثرةِ التـي إتَّبعهـا المنهجُ الاسلامي. يقـول ول ديورانت[1]: «على الرغمِ مـن خطَّةِ التسامحِ الدينـيِّ التـي كـانَ ينتهجُها المسلمـونَ الأوَّلُونَ، أو بسبـبِ هذه الخطَّـةِ إعتنقَ الإسلامَ معظمُ الـمَسِيحِيِّينَ، وجميعُ الزرادشتيينَ والوثنيينَ إلا قليلاً منهم، وكثيرٌ من اليهود».

(1) - قصة الحضارة 5 / 133.

الفصل الرابع

التّعَايُشُ الإسْلَاميّ الْمَسِيحِيّ فِي المُجْتَمَعِ الواحد وأثرُه الحضاريّ

إنّ التّغلغل فِي فهم العواطف والمشاعر الإنْسَانِيّة يفسّر كثيرًا من المواقف الغامِضَة، لقد رأيْنَا الْمُسْلِمِينَ فِي مَكّة، يتَحَمّسُونَ للنَصْرَانِيّة فِي صراعها مَعَ المَجُوسِيّة، ويحزنون لانكسارِ الرّوم أمامَ الفرس، مَعَ أنّ الإِسْلَام لَمْ يكنْ قَدْ اتصل بَعْدُ بالنّصَارَى اتصالًا يُسَوّغُ هَذَا الحَمَاسَ، لَكِنّهُ الشّعُورُ الطّبيعيُّ الوحيد، الّذِي يُنْتَظَر من الرّجل المُخْلِص لدينِه؛ فالمُسْلمون أصحابُ كتابٍ يدعو إلَى التّوحيد، والنّصَارَى أهل كتاب[1]؛ وهل هَذِهِ بذرات تنظيرية وتطبيقية؟ لتأسيسٍ للإندماجِ من دونِ احتواءٍ، أَوْ إقصاء.

مَعَ أنّ القُرْآن وَضَعَ لَبِنَاتِ العَلاقَةِ الإيجَابِيّة مَعَ غيرِ الْمُسْلِمِينَ، وخصّ الْمَسِيحِيّينَ بالمَوَدّة، وَأَنّهُمْ أجدر بالتّقارب. وزادتْ اقوالُ ومُمَارَسَاتُ الرّسولِ مُحَمّدٍ - فِي نَجْرَان وغيرِها - مِنْ وشائجِ العلاقةِ مَعَ الْمَسِيحِيّينَ، وَكَذَلِكَ مسالِكُ الخلفاءِ الرّاشِدِينَ السّمحةُ؛ فَقَدْ رفعَ عمرُ بن الخطّاب الْجِزْيَةَ عَنْ قبيلةِ تَغْلُبَ الْعَرَبِيّةِ، وتفاعلَ الإمامُ عليٌّ مَعَ الْمَسِيحِيّينَ فِي نَجْرَانيّة الكوفة، ورعَى فقراءَهم، وذكر الْمَسِيحَ تأسّيًا بِهِ، فِي إحدَى خِطَبِهِ فِي مسجدِ الكوفةِ[2]: «وإنْ شِئْتُ، قلتُ فِي عِيسَى بنِ مَرْيَم - عَلَيْهِ السّلام: فَلَقَدْ كَانَ يتوسّدُ الحجرَ، ويلبَسُ الخَشِنَ، ويأكُلُ الجَشِبَ. وَكَانَ إدامَه الجوعُ، وسراجَه

---

(1) - مُحَمّد الغزالي السّقا (ت 1416هـ): فقه السّيرة، ص 248.

(2) - الشّريف الرّضي: نهج البلاغة، خطب الإمام علّي، 2/ 58.

بالليلِ القمرُ، وظلالَه فِي الشّتـاء مشارقُ الأرض ومغاربُها، وفاكهتَـه وريحانَه مَا تُنْبِتُ الأرضُ للبهائِـم. وَلَـمْ تكُـنْ لَهُ زوجـةٌ تَفْتِنُهُ، ولا ولَـدٌ يُحْزِنُه، ولا مـالٌ يَلْفِتُه، ولا طمعٌ يُذِلُّهُ. دابَّتُه رجْلاه، وخادمُه يدَاه». ومما يبدو أنَّ هَذِهِ المعطياتِ جميعًا، حفَّزَتْ النّسيجَ الإِجْتِمَاعِـيَّ، سُـدًى ولُحْمَـةً، عَلَـى التّآزرِ والتّمـازجِ فِي ظِـلِّ الدَّولَة العَرَبيَّـة المتّشحةِ بالإسلام.

مـن معالـم القَـرْن الأوّل الهِجْـرِيّ/ السّابـع المِيـلادِيّ، أنّـهُ منبتُ بـذرة العَلاقَاتِ الإِسْلَاميّـةَ الْمَسِيحِيَّةَ، ونمَّاها وجسّدَها فِي مسارِهـا التّاريخيِّ والْحُقُوقيِّ، وظَلَّ عنوانًا شاخِصًا فِي ذاكرتِها، «ولقدْ ثبَتَ أنَّ الزمنَ الإِسْلَاميَّ، الَّذِي استُهلّ فِي القَرْن السّابع، هُوَ الَّذِي وسَمَ وَعْيَ الْمَسِيحِيِّينَ القاطنينَ فِي الشّرْق، وأثّر فِي بناءِ هُوِيّتِهِمْ الثّقافِيّةِ، وصياغةِ مقولاتِهـم وأحكامِهم، وانتظام مسلكهم. ومنذ القَرْن السّابع أحسَّ هَؤلَاءِ الْمَسِيحِيّون، ومـا انْفكُّوا يُحِسّون فِي أعماقِ تبصرهِم اللّاهُوتِيّ، أنّهُمْ مُنْتَمُونَ إِلَى الشّرقِ، الَّذِي غَدَا شرقَ الدّينِ الإِسْلَاميِّ، وشرقَ الثّقافةِ الْعَرَبِيّةِ»[1].

نَشَـطَ قِسْـمٌ مِن علماءِ أهْلِ الكِتَـابِ، من بَعْدِ انْدِمَاجِهم فِـي المُجْتَمَع الإِسْلَاميّ فِي بَـثِّ مَـا لَدَيْهِمْ من مُرْتَكزَاتِ ثَقافِيّة، من خِلَالِ رِوَايَة أخبـارِ الحَضَارَاتِ الدّينِيَّةِ السّالِفَةِ، وَبِخَاصَّـةِ اليَهُودِيَّةَ والْمَسِيحِيَّةَ مِنْهَا، «فتَمَكَّنَ كَعْبُ بـن ماتع اليهوديَّ المُلَقَّبُ بـ«كعبِ الأحْبَـارِ»، وتميـمُ الدّاريُّ الرّاهبُ النَصْرَانِـيُّ، فِي رِوَايَةِ أحاديثَ كثيـرةٍ باسمِ الإِسْلَامِ، فروى عَنْهُمَا بعضُ مشاهيرِ الصّحابَةِ، نحو: أنس بن مالك، أبو هريرة، عبد الله بن عمر، عبد الله بن الزبير، معاوية، عبد الله بن عباس، ونظرائهم من الصّحابة والتّابعين»[2].

1. **الجدال والحوار الدّينيّ:**

إنَّ الإستقرارَ الإِجْتِمَاعِيَّ والإقتصاديَّ، الحاصلَ فِي البُلْدَانِ المفتوحة، وَلَّدَ - لَدَى الجماعـاتِ الدّينِيَّـةِ - استقـرارًا نفسِيًّا، تَوَجَّهُوا خِلَالَه إِلَـى إعادَةِ البُنَـى الفِكرِيَّةِ الدّينِيَّةِ

---

(1) - مشير باسيل عون: الفكر العَرَبِي الديني المسيحيّ (دار الطليعة، بيروت، 2007) ص49.

(2) - الطوسي: الخلاف 1/ 30؛ ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل 7 / 161؛ ابن حجر: تهذيب التهذيب 1 / 511، 8 / 438.

وتنظيمِهـا، لِتَتَوافَقَ مَعَ المرحلةِ وَقْتَذَاك، فنلحُظُ اللقـاءاتِ بَيْنَ أئمةِ الدِّيَانَاتِ وعلمائِها مـن الشّيوعِ بمكانٍ، وأنَّ نقلَ جلساتِهم طفـقَ يتداولَها أهلُ الأخبارِ، وإنْ كَانَتْ بالرِوَايَةِ الإِسْلَاميّـةِ، إِلَا أنّها تدُلُّ - بوضوحٍ - عَلَـى تسامِي الْحُرِّيَاتِ الدّينيّةِ، والارتقاءِ بالجدلِ الدّينيّ إِلَى أعْلَى مستوياتِه، قدْ أخذَ مأخذَه.

وَكَانَ الرّسول مُحَمَّد يَقْصِدُ أصحابَ الدِّيَانَاتِ، ليُجادِلَهُم، ففي رِوَايَة أَبِي هُرَيْرَةَ[1]: أَتَـى رَسُـولُ اللَّهِ «بَيْتَ الْمِدْرَاسِ»، فَقَـالَ: «أَخرِجُوا إِلَيَّ أَعْلَمَكُـمْ»، فَقَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صُورِيَا[2]، فَخَلاَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، فَنَاشَدَهُ بِدِينِهِ، وَبِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِن آياتٍ وبيناتٍ.

كثيـرًا مَا كَانَ كبارُ الأَسَاقِفَـةِ يجالسّونَ الخليفةَ، وأنَّ الخليفة الرّاشِـديَّ نسخَ التّحيّةَ بالسّجـودِ، الَّتِي غَلَبَتْ عِنْدَ ملـوكِ الفُرْسِ والرُّومِ. فِـي رِوَايَة سماك بن هانـيء[3] قَالَ: «دخـلَ الجاثليـقُ عَلَى عليّ بن أبي طالب، أميـرِ المؤمنينَ، فأرادَ أنْ يسْجُـدَ لَهُ، فقال لَهُ عليّ: إسجُدْ للـهِ، ولا تَسْجُدْ لِي». وَهَذَا يُشَجِّعُ - بالضَّـرورةِ - عَلَى التّلاقِي والتّلاقُحِ بَيْـنَ أصحـابِ الدِّيَانَـاتِ، ورؤوسِ الأَسَاقِفَـةِ، مَـعَ الزعَامَـةِ الدّينيَّـةِ والسياسيَّـة لدولةِ الإِسْـلَام، وَبِحَسَبِ الغزالي[4]: أنَّ أُسْقُفَ نَجْرَان كَانَ يدخل عَلَى الإمام عليّ، ويأخذان فِي تداول العِظَةِ.

وتتجسـد ملامح التَّسَامُح الدّينـيّ، فِي فتح باب الجِدَال حـول المُشْتَرَكات الدّينيَّة، مثـل مسألةِ «الفرقة النّاجيـة» فِي الأدْيَان، من رِوَايَة أَبِي الصّهْبَـاءِ الْبَكْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَقَدْ دَعَا «رَأْسَ الْجَالُوتِ»[5] وَأُسْقُفَّ النَّصَارَى، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكُمْ

---

(1) - ابن سعد: الطبقات الكبرى 1/ 164؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 3/ 418.

(2) - عَبْدُ اللهِ بْنُ صُورِيًّا الأَعْوَرُ، أَوْ ابن صور الإسرائيلي، مِنْ بَنِي ثَعْلَبَةَ ابْنُ الفِطْيَوْنِ، من أحبار اليهود بالمدينة، وَلَمْ يَكُنْ بِالْحِجَازِ فِي زَمَانِهِ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِالتَّوْرَاةِ مِنْهُ». ابن هشام: السّيرة 1/ 514؛ ابن حجر: الإصابة 4/ 115.

(3) - القلقشندي: صبح الأعشى فِي صناعة الإنشاء 6/ 327.

(4) - أبُو حامد، (ت505هـ): مقامات العلماء بَيْنَ يدي الخلفاء والامراء، ص65.

(5) - بَعْدَ أنْ تفرقت اليهود فِي البلاد ولم تعد لَهُمْ بعد ذَلِكَ رياسة يعتد بَها، وصار مِنْهُمْ بالعِرَاق وتلك النّواحي جماعة، وكانوا يرجعون إِلَى كبير مِنْهُمْ، فصار اسم ذَلِكَ الكَبير الَّذِي يرجعون إِلَيْهِ رأس الجالوت. أبُو الفداء: المختصر فِي أخبار البشر 1/ 88.

عَـنْ أَمْرٍ وَأَنَا أَعْلَمُ بِـهِ مِنْكُمَا، فَلَا تَكْتُمَانِي، يَا رَأْسَ الْجَالُـوتِ، أَنْشُدُكَ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ التَـوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، وَأَطْعَمَكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَضَرَبَ لَكُمْ فِي الْبَحْرِ طَرِيقًا، وَأَخْرَجَ لَكُـمْ مِـنَ الْحَجَرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا، لِكُلِّ سَبْطٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَيْنٌ؛ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي عَلَى كَمِ افْتَرَقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى؟ فَقَالَ لَهُ: وَلَا فِرْقَةً وَاحِدَةً، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ، لَقَـدِ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِيـنَ فِرْقَةً. ثُمَّ دَعَا الْأُسْقُـفَّ فَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللَّـهَ الَّذِي أَنْزَلَ الْإِنْجِيـلَ عَلَى عِيسَى، وَجَعَلَ عَلَـى رَحْلِهِ الْبَرَكَةَ، وَأَرَاكُـمُ الْعِبْرَةَ، فَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ، وَأَحْيَا الْمَوْتَى، وَصَنَعَ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ طُيُورًا، وَأَنْبَأَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ، وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، فَقَالَ: دُونَ هَذَا أَصْدُقُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: عَلَى كَمِ افْتَرَقَتِ النَّصَارَى بَعْـدَ عِيسَـى مِـنْ فِرْقَةٍ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّـهِ، وَلَا فِرْقَةً، فَقَـالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ، لَقَدِ افْتَرَقَـتْ عَلَـى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ فَأَمَّا أَنْتَ يَا يَهُودِيُّ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُول: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّـةٌ يَهْـدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} (الأعراف 159) فَهِيَ الَّتِي تَنْجُـو. وَأَمَّا أَنْتَ يَا نَصْرَانِيُّ فَـإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {مِنْهُمْ أُمَّـةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} (المائدة 66) فَهِيَ الَّتِي تَنْجُـو، وَأَمَّا نَحْنُ فَيَقُولُ: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} (الأعراف181) وَهِيَ الَّتِي تَنْجُو مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ[1].

وَفِـي صـدر الإسْـلَام، ولا سِيَّمَـا فِـي حقبة مَـا بعد الْفُتُـوح، حَيْـثُ تجسَّـدَ التَّلاقي والتَّقارب بَيْنَ أبناء الإثنياتِ واللغاتِ والدِّيَانَاتِ عَلَى اختلافِها، ليُعَمِّقَ أنماطَ العَلاقَاتِ الإنْسَانِيَّـة، ويصهرَهـا فِي بودقةِ الدَّولـة الجديدة، ليتعززَ التَّعَايُشُ والارتقـاءُ فِي تَحْقِيقِ الأهدافِ المُشْتَرَكة.

لَعَلَّ أوَّلَ مَا طَفَقَ هُنَالِكَ مِن إحتكاكٍ دِينِيٍّ ملحوظٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ، حِينَ أخذوا يتجادَلون ويتحاجُّون فِي العقائدِ، فِي تأصِيل الحوارِ الإسْلَاميِّ الْمَسِيحِيّ، عَلَى قاعـدةِ {ادْعُ إِلَـى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُـمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ} (النَّحـل125). ولَيْـسَ أَدَلَّ عَلَـى ذَلِكَ مِن مَا تمخَّـضَ عَنْ «يحيى الدِّمشقـي» وَهُوَ ابن

(1) - المَرْوَزِي، (ت 294هـ) السّنَّة، (مؤسسة الكتب الثقافيّة، بيروت، 1408هـ) ص 23.

سرجـون، وَقَدْ عُرِفَ بـ «القديس يوحنا الدّمشقي» (ت: قبل125هـ/ 743م) من تأليفِ رسالـةٍ عَلَى منهـج السّؤال والجوابِ، بصيغةٍ: «إِذَا قَالَ لك الْعَرَبِيّ كذا، فأجبه بكذا»[1]، لَعَلّه كتاب» فضائل النَّصْرَانِيَّة»[2].

ويَظْهَـرُ من هَذَا المُؤَلّـفِ ومثيله – بحَسَبِ اوليري Oleary[3] – أنَّ ثَمَّةَ حُرِّيَّةً عظيمةً للنقـاش الدّينِـيّ فِي مطلع القَرْن الثّامن، وأنَّ الْمَسِيحِيِّينَ قَـدْ سُمِحَ لَهُمْ أنْ يَنْقِدُوا الدّينَ الرّسمي بكلِّ حُرِّيَّة. ونتيجةً للمُشْتَرَكاتِ بَيْنَ الدّينيْن، وللإخْتِلاطِ الإجْتِمَاعِيّ الإِسْلَامِيّ الْمَسِيحِـيّ، جعلَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صِلَـةٍ بمعلوماتِ اللاهوتِ الْمَسِيحِيّ، والتّعرف عَلَى مبادئ الفَلْسَفَة الإغريقية.

لا شـكَّ، إنَّ لإتاحـةِ فُسْحَةٍ مـن الْحُرِّيَّة الفِكرِيَّة، يكـونُ مُسَوِّغًا لغيـر الْمُسْلِمِينَ بأنْ يعرضـوا آراءَهم دُونَ خوفٍ، أَوْ تردّدٍ، بَلْ وأنْ يضْطَلِعوا بدَوْرِهم فِي بناءِ الدَّولَة العَرَبِيَّة وحضارتها. فقال الأعشى:

إستأثر اللهُ بالوفاءِ وبالعدل   وولّى الملامةَ الرّجلا

قيـل كَـانَ قدَرِيًّـا، وسأل أَبُو الفـرج: فمن أينَ أخـذَ الأعشى مذهبَه؟، قيـل: من قِبَلِ العبَّاديّين، نَصَارَى الحِيرَة، كَانَ يأتيهم يشتري مِنْهُمْ الخمر، فلَقَّنُوهُ ذَلِكَ[4].

فِـي العصـر الأُمَوِيّ ظهرت حركـات دِينِيَّة فَلْسَفِيَّـة عديدة غَلَبَ عَلَيْهَـا اسْمُ الفِرَقِ، وَبِحَسَـبِ حتي[5]: أنَّ احتكـاك الْمُسْلِمِينَ بالنَّصَـارَى فِي سُورِيَةَ، أثـارَ ضرْبًا من التّأمل الدّينِـيّ والنّقـاش الفِكْـرِيّ، انتهـى بظهـور عـدد من الفـرق، أشـهرها: فرقـة الجبريَّة، والقدريَّة، والمعتزلة.

---

(1) – أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 134.

(2) – أَبُو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلاميّة، 2/ 102؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العَرَبِيّ، 1/ 256. سعيد أيوب: معالم الفتن (مجمع احياء الثّقافة الإسلاميّة، قم، 1416هـ) 1/ 246.

(3) – مسالك الثّقافة الإغريقية إِلَى العرب، ص 212.

(4) – الأغاني 9/ 133؛ وانظر: ديوان الأعشى 155، المرتضى: الأمالي 1/ 21؛ شرح ديوان الأعشى 233، «القصيدة رقم 35»، وورد «وبالحمد» بدلا من «وبالعدل».

(5) – تاريخ سورية، ص114.

فِي ظِلِّ مجتمع تسودُه حياةٌ مُشْتَرَكة بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ، يتأصَّلُ التّأثرُ بالآخر فِـي ما يشتملـه من وعْيٍ حضـاريٍّ، فأضحى المتصوفـةُ الْمُسْلِمـون الأوائل يستمدون التّنظيـرات الْعِرَفانيَّـة المتَجَلِّية فِي الفكـر الصّوفيّ من التأثُّر بالرّهبانيَّـة الْمَسِيحِيَّة، نحو الاندمـاج بالـذّات الإلهِيَّة، ويقتـدون بالتّطبيقات فِي بنـاء الرُّبُطِ والمقامـاتِ والطّرائق الصّوفيَّـة عَلَـى أساس من الصّوامـع. وَكَانَ المتصوفـة الْمُسْلِمون فِي القَرْنيـنِ الأوَّلَيْن للإسْـلَام يختلفون إلَى النّسَّاك الْمَسِيحِيِّينَ، يسألونَهم فِي العقائد والحياة الرُّوحِيَّة، وأنَّ عـددًا من المقالاتِ الأوْلى الَّتِي وُضِعَتْ فِي الزُّهْـدِ الإسْلَاميّ، يبدو نقلًا لمَوْضُوعات مَسِيحِيَّة بشيءٍ من التّوسُّع والتّصرُّف[1].

تحدِّثُنَـا روايـاتٌ عـدّةٌ عن مساحةٍ مـن التشابـهِ بين عيسـى المسيحِ والإمـامِ عليٍّ، أنتجتهـا البيئةُ الروحيَّةُ المتعمِقةُ في التمازج الثقافـيِّ الموروث، وسيرةِ التألّق والإبهارِ لدَى طرَفَي الشّبَهِ، فهناك أخبار تحمَّلت شَبَه عليٍّ بالمسيح في: علمه، وحِلْمِه، وعدله، وجملة سيرته في الناس. منها، إنَّ الإمام عليٍّ، قال: قال لي رسول الله: «إنَّ فيكَ لشَبَهًا من عيسى بن مريم، أحَبَّتْهُ النصارَى حتى أنْزَلَتْهُ بالمَنْزِلَةِ التي ليستْ له، وأبغضتْه اليهودُ حتـى بهتَتْ أمّه»[2]. ممّا جعل قسما من النـاس يفرطون في حبِّه، ويرتقون به الى التأليهِ ومرحلـةِ الإستحقـاق العباديِّ، ولعـلَّ أوْجُهَ الشّبَـهِ تَتَسَامَى، بلحاظِ التأثُّـرِ بالمسيحيَّةِ، فقـد ذهبـوا بعيدا الى الشبهِ في ساعة الولادة، فأمُّ علـيٍّ انتبذتْ داخلَ الكَعْبَةِ، مثلُ مريمَ انتبذتْ مكانًا شـرقيًا، وتكفَّلَ عليًّا النبيُّ محمَّد، مثلما تكفَّلَ مريمَ والمسيحَ زكريًّا. غيرَ أنَّ الإمـامَ عليًّا ناهضَهم ونبذهم قائلا: «أَلَا وَإِنَّـهُ يَهْلِكُ فِيَّ اثْنَانِ: مُحِبٌّ مُطْرٍيّ يُقَرِّظُنِي بِمَا لَيْسَ فِيَّ،... إِلَّا إِنِّي لَسْتُ بِنَبِيٍّ وَلَا يُوحَى إِلَيَّ، وَلَكِنِّي أَعْمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مَا اسْتَطَعْتُ، فَمَا أَمَرْتُكُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَحَقٌّ عَلَيْكُمْ طَاعَتِي، فِيمَا أَحْبَبْتُمْ وَكَرِهْتُمْ»[3].

---

(1) – قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة، ص97.

(2) – ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 4/ 105؛ وقارن: احمد بن حنبل: مسند أحمد2/ 469.

(3) – أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة 2/ 713؛ البيهقي: الخصائص الكبرى 2/ 25.

فـي منظور جولدتسيهـر Goldziher[1]، ارتبطتْ فكرةُ الرجعـةِ لـ«ابن الحنفيَّة» عند الكيسانيَّة برجعـة «إيليا» وما لبثت فكرة الخلاص المهدويَّة تقترن بالمسيح المخلِّص، ولاسيَّمـا عند الشيعة، إذ وُصِلَ ظهورُه بنـزول المسيح، وذلك لكون المهدي ابن امرأة مـن نسل الحواريين، وبنهاية العالم[2]. ويحدثنا «لويس ماسنيون Louis Massignon» عـن «الأمتياز الروحـي» لـ«أبي الخطاب» (ت138هــ/ 755م)[3] الباطنـي، في علاقته بالإمـام الصـادق، يُفَسِّرُ قـول الغـلاة «بالتأليـه والمشاركة» بمـا يتناغم وفكـرة السيد المسيح من جانب، وللأبوة الروحية لأبي الخطاب، فيما بين الصادق وولده إسماعيل من جانب آخر[4].

لَعَـلَّ بعـضَ الأفكارِ، الَّتِي سرَتْ إِلَى الفكـرِ الإِسْلَامِيِّ، حَظَتْ بتأثُـرٍ فِي الْمَسِيحِيَّة، نحـو: مسألـة القدر، ومسألة خلق القُـرْآن. فأمَّا القولُ فِـي القرآنِ، فَقَـدْ تَزَيَّنَ فِي عقولِ أقوامٍ أَنَّهُ لَيْسَ بمخلوق، فضَاهوا قولَ النَّصَارَى فِي عيسى: أَنَّهُ لَيْسَ بمخلوق[5].

ويتضـح تأثرُ الجَهَمِيَّةِ بالنصارى فـي أمر عيسى، في قول أحمد بن حنبل[6]: «وَذَٰلِكَ أنَّ الجهميَّـةَ قالـوا: عيسـى روحُ اللهِ وكلمتُـهُ، لأنَّ الكلمةَ مخلوقةٌ، وقالـتْ النصارَى: عيسـى روحُ اللهِ مِن ذاتِ اللـهِ، وكلمتُه من ذاتِ اللهِ. كما يُقال: إنَّ هذه الخرقةَ مِن هَذا الثوبِ، وقلنَا نَحْنُ: إنَّ عيسى بالكلمةِ كانَ، وليسَ عيسى هوَ الكلمةُ».

وَاخْتلف أصحاب الكيسانية فِي الإمام بعدَ أبي هَاشم عبد الله ابْن مُحَمَّد بن الْحَنَفِيَّة،

---

(1) - العقيدة والشريعة في الإسلام، ص192؛ كامل الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، 1/ 22.

(2) - الطوسي: الغيبة، ص134.

(3) - أبو الخطاب بن أبي زينب، صاحب الخطابية، فرقة تزعم أن الأئمة أنبياء محدثون ورسل الله وحججه على خلقه لا يزال منهم رسولان واحد ناطق والآخر صامت فالناطق محمد، والصامت علي بن أبي طالب، فهم في الأرض اليوم طاعتهم مفترضة على جميع الخلق، يعلمون ما كان وما هو كائن. الأشعري، أبو الحسن، علي بن إسماعيل (ت324هـ): مقالات الإسلاميين، (المكتبة العصرية، بيروت، 2005م) 1/ 28.

(4) - الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، 1/ 25، نقلا عن ماسنيون: شخصيات قلقة، ص8.

(5) - ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم 11/ 19.

(6) - الرد على الجهمية والزنادقة، ص 126.

فَمنهــمْ مــن نقلهَا الى أبي مُحَمَّد بن على بن عبد الله بــن عَبَّاس بن عبد الْمطلب بِوَصِيَّة ابــى هَاشــم اليه وَهَــذَا قَول «الراوندية»، وَمِنْهُــم «البيانية» من زعــم أن الامامة بعد أبي هَاشــم صَارَت الى بَيَان بن سمْعَان، وَزَعَمُوا أن روح الله تَعَالَى كَانَت فِي ابى هَاشــم ثمَّ انْتَقَلت مِنْهُ الى بَيَان، وَمِنْهُم «الحربية» من زعم ان تِلْكَ الرّوح انْتَقَلت من ابي هَاشم الى عبد الله بن عَمْرو بن حَرْب، وَادعت هَذِه الْفرْقَة إلهية عبد الله بن عَمْرو بن حَرْب[1].

يبــدو منشأ الجدل بَيْــنَ الفرق الإِسْلَامية فِي هَذِهِ المسائل، يحدوه جدل سابق نشَبَ مَــعَ الْمَسِيحِيِّــنَ، فَكَــانَ القديس يوحنا الدّمشقــي يسير فِي مناقشته عَلَــى نمط، يشبه مَا يتقيَّــدُ بِــهِ أنصــارُ القدريَّة فِي الإِسْلَام[2]، وَفِــي رِوَايَة ابن عباس: «لا تمــوت حَتَّى تسمعَ بقَوْم يكذبون بالقَدَرِ، يحملون الذّنوب عَلَى العباد، اشْتَقُّوا قولَهم من قول النَّصَارَى[3].

في الشامِ إختلطَ العربُ بغيرهم أكثرَ من العِرَاق، وحيثُ بلاطُ الدولةِ، نسمع بموجةِ الترفِ فــي العاصمةِ، ولكننا نسمعُ فيهــا بمناقشاتٍ دينيَّةٍ بين المسلميــن والمَسِيحِيِّينَ، نتيجــةً لإتّصــالِ الآراءِ، وبذلــك تسرَّبــتْ الآراءُ والمعــارفُ اليونانيَّــةُ والمسيحيَّــةُ إلَــى المسلمينَ بصورةٍ أوَّليَّةٍ في العصر الأُمويّ[4].

عَلَــى أنْقاض الحِيــرَة، حَيْثُ كَانَ مجتمع النَّصْرَانِيَّة، وأدْيِــرَة الرّهبان السّريان تنتشر، وتبــث الفكر الْمَسِيحِيّ، قامت الكوفــة وَفِيهَا عِدَّةُ فرق نشأتْ وانتشرتْ، إحداها الفرقةُ الخطابيَّــة، المنسوبــة إلَى أبــي الخطاب (ت138هــ/ 755م)[5]، وَهِيَ مــن فرق الشّيعة الغاليــة، وَقَــدْ كَانَتْ تقول بإلوهة أهل البيــت، ونسبتْ إلَيْهِمْ أنَّهُمْ يعلمــونَ الغيبَ عِلْمًا لَدُنِيًّــا، وَأَنَّهُــمْ يعلمون بكل مَا فِي الكون. وبرأي بعض الباحثيــن[6]: أن أفكارها مستقاة

---

(1) - عبد القادر البغدادي (ت429هـ): الفرق بين الفرق، ص 28.

(2) - قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة، ص97.

(3) - المتقي الهندي، (ت975هـ): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، 1/ 139، ح665.

(4) - عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص9.

(5) - مُحَمَّد بن مقلاص بن الخطّاب الأسدي الكوفي البراد الأجدع. محسن الأمين: أعيان الشّيعة 2/ 348.

(6) - عبد الهادي الفضلي: أصول الحديث، ص144.

من الفكر الْمَسِيحِيّ، ولا تعدو أن تكون صدى من أصدائه.

فِـي القرن الثاني الهِجْرِيّ/ الثامـن المِيلادِيّ، بلغ الحوارُ بَيْنَ أهـل الأَدْيَانِ والمِلَلِ - عَلَى مُخْتَلَفِهم - شـأوًا ورُقِيًّا، وَكَانَتْ تَسَعَهُم المجالسُ فِي رَحَابَةِ أَدبيَّاتها، عَلَى نَحْوٍ يُثِيـرُ العَجَب، مِمَّا تألقت بذكرهم الأخبار فِي الآفَاقِ، فَهُم أشْبَهُ بِحَلَقَاتِ حوار الأَدْيَان اليـوم. ففـي رِوَايَـة «خَلَفُ بْنُ الْمُثَنَّى، قَـالَ: كَانَ يَجْتَمِـعُ بِالْبَصْرَةِ عَشَـرَةٌ فِي مَجْلِسٍ لا يُعْـرَفُ مِثْلُهُـمْ فِي تَضَـادِّ أَدْيَانِهِـمْ وَنِحَلِهِمْ: الْخَلِيلُ بْـنُ أَحْمَدَ سُنِّيٌّ، وَالسَّيِّـدُ بْنُ مُحَمَّد الْحِمْيَرِيُّ رَافِضِيٌّ، وَصَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ ثَنَوِيٌّ، وَسُفْيَانُ بْنُ مُجَاشِعٍ صُفْرِيٌّ، وَبَشَّارُ بْـنُ بُرْدٍ خَلِيـعٌ مَاجِنٌ، وَحَمَّادٌ عَجْرَدٍ زِنْدِيـقٌ، وَابْنُ رأسِ الجَالُوتِ يَهُـودِيٌّ، وابنُ نظيرا مُتَكَلِّمُ النَّصَارَى، وعمرو ابن أُخْتِ الْمُؤَيِّدِ الْمَجُوسِيُّ، وَرَوْحُ بْنُ سِنَانٍ الْحَرَّانيُّ صَابِئِيٌّ، فَيَتَنَاشَـدَ الْجَمَاعَةُ أَشْـعَارًا، فَكَانَ بَشَّارٌ يَقُول: أَبْيَاتُكَ هَذِهِ يَا فُـلانُ أَحْسَنُ مِنْ سُورَةِ كذا وكذا...»[1].

مِنْ هُنَا نَرَى أَنَّ الثَّقَافَات اليُونانِيَة والفارسيَّة والهِنْدِيَّةِ كَانَتْ مَبْثُوثَةً بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي البُلْـدَانِ المُخْتَلفـة، ولاسِيَّمَا فِي البصرة، حَيْثُ تَنَوُّع مجتمعُ التِّجـارة حضاريًّا، وَكَانَتْ هَذِهِ الثَّقَافَات قريبةَ المنالِ من الْمُسْلِمِينَ، فأفادوا مِنْهَا وتعلَّمُوها من مصادرها، ونشأتْ عَلَـى أثرِها فـرقٌ فَلْسَفِيَّة وكلاميَّة. وليس من المستغـرب أنْ يذكر بعض مُؤَرِّخي الفكر الكَلَامِـيّ: أن المتكلميـن الأوائـل من أصحـاب واصل بن عطـاء (ت133هـ/ 750م) طالعوا كتبَ الفلاسِفَة[2].

مِمَّـا يثبـت صِلَـةَ علمـاءِ الْمُسْلِمِيـنَ بفَلْسَفَـة اليونـان فِـي ال(ق1هــ/ 7م) إحتكام الْمُسْلِمِيـنَ العلمـي، واتصالهـم بآباء الكَنِيسَـة فِي الشّام ومـا بَيْنَ النّهريـن فِي أديرتهم وكَنَائِسهم، ونقاشـهم لعقائـد الْمَسِيحِيِّينَ. وَفِي ضوء الْحُرِّيَّـة الدِّينِيَّة والفِكرِيَّة أضحتْ هَـذِهِ المراكزُ كمجامعَ عِلْمِيَّةٍ تُـدَرَّسُ فِيهَا فَلْسَفَةُ اليونان، وَفِـي مقدمتِها منطِقٌ أرسطو. ومـا يُؤَكِّـدُ هَذَا الاتِّصـال، تَمَخُّض جدالاتِ عقائديَّـةٍ، ذكرتْها المصـادرُ السّريانِيّة الَّتِي

---

(1) - الذهبي: تاريخ الإسلام 4/ 40؛ الصّفدي: الوافي بالوفيات 13/ 89.
(2) - الشّهرستاني (ت548هـ): الملل والنّحل 1/ 46.

أرخت لفكرِ يوحنا الدّمشقي، ووجود آثار الفَلْسَفَة الرّواقيَّة فِي نقدِ المتكلمين الأُوَل لمنطقِ أرسطو، وأنَّ التّراجم الإِسْلَاميّة الأولى لـ«لأورجانون»[1] الَّتِي وصلتنا كَانَتْ عَلَى غرار الكتب المنطقيَّة الْمَسِيحِيَّة[2].

ومن مخاضِ التّأثُّر بالفكرِ اليُونانِيّ لَدَى العالمين الفِكْرِيّين الْمَسِيحِيّ والإِسْلَامِيّ فِي القرون الوسطى، جعلَهما عَلَى مَحَكّ التّشابهِ، إِذْ قامتْ المحاولاتُ الضّخمَةُ فِي كِلَا المعسكرين؛ لإخضاع الإيمانِ للعقلِ بنفسِ وسائلِ المنطقِ والتّفكيرِ القديمِ الافلاطونيّ والأرسطيّ فِي مواجهةِ الغنوصيَّة[3].

إنّ تفهُّمَ الْمُسْلِمِينَ الحياةَ الفِكرِيَّة لَدُنِ الحَضَارَات، جعلَهم أكثرَ تنظيما، وأفضلَ إِدَارَةً للعلاقاتِ الدّينِيَّة والأخلاقيَّة مَعَ الدّيَانَاتِ والشّعوبِ الأُخْرَى، وارتقوا فِي هَذَا المنحَى، حَتَّى أَنَّهُمْ أضْحَوا - بحَسَبِ لوبون - أوّلَ من علّم العالَمَ كَيْفَ تتفق حُرِّيَّةُ الفكرِ مَعَ استقامةِ الدّينِ، فهُمْ الَّذِينَ علّموا الشّعوبَ النَّصْرَانِيَّة، وإن شئت فقل: حاولوا أنْ يُعَلِّمُوها التّسَامُحَ، الَّذِي هُوَ أثمنُ صفاتِ الإنسانِ، ولقدْ كَانَتْ أخلاقُ الْمُسْلِمِينَ - فِي أدوارِ الإِسْلَامِ الأولَى - أرْقَى كثيراً من أخلاقِ أُمَمِ الأرضِ قاطِبَة[4].

أسهمتْ العلومُ الدينيَّةُ الإسلاميَّة في رَفْدِ التواصلِ الثقافيِّ بينَ الإسلامِ والمسيحيَّة، فقد ربَطَ المفسرون - مثلًا - بعضَ الحوادثِ للمسيحيَّةِ بالتراثِ الإسلاميِّ، ولاسيَّما ما ورد منها في القرآنِ الكريم، فرَأوا - على سبيل المثال -: أنَّ منْ اسماءِ «النَجَفِ» الرَبْوَةَ، وقد ترْجِعُ الى أوّلِ قرنٍ ميلاديٍّ، حيثُ آوى إليْها المسيحُ وأمُه، كما وردت في تفاسير الإماميَّة، وأخبار أهل البيت، حولَ آية {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} (المؤمنون50)، في تفسير الإمام علي: الربوة: الكوفة، والقرار:

---

(1) - أوْ الأورغانون Organon: اسم أطلق عَلَى منطق أرسطو ومنهجه الصّوري. وسميت مجموعة بحوثه المنطقية اورغانون، فَكَانَ فِي نظر أرسطو القياس هُوَ صورة الاستدلال. ويكيبيديا الموسوعة الحرة (الأورغانون).

(2) - علي سامي النّشار: مناهج البحث عِنْدَ مفكري الإسلام، ص 21.

(3) - كارل هيرنش بكر: تراث الأوائل فِي الشرّق والغرب، ص21.

(4) - غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 26، 276، 430، 566.

المسجد، والمعين: الفرات[1]. وفي تفسير الامام الصادق: الربوة: نجف الكوفة. والمعين: الفرات[2]. وهذا ما يجسد العلاقة ما بين الرموز المسيحية في مجتمع المدن الإسلامية، في حفاظها بالتراث المسيحيِّ، ومزجِهِ بوعْيِ التراثِ الإسلاميِّ، في مُحَصِّلَةِ احتضانِ المدينة الإسلاميَّةِ لمعالمَ التاريخِ المسيحيِّ، لتُعَمِّقَ قِيَمَ المُشاركةِ والكلمةِ السواءِ بين مجتمعيّ الدينينِ، وتُوَثِّقَ إمتدادَ الوعْيِ التاريخيِّ بينهما.

زاد تواشج التواصل الاجتماعي بين تنوُّع المجتمعات الدينيَّة في البيئةِ الإسلاميَّة، وَضْعُ قوانينَ ناظِمَةٍ للعلاقاتِ منْ لَدُنِ المُشْتَرَعَةِ في عِلْمِ الفِقْهِ. فَقَدْ نُظِّمَ وضعُ أهل الذِّمَّة فِي دار الإِسْلَام بمجموعةٍ من الأحكامِ والاجتهادات، الَّتِي توصَّلَ إِلَيْهَا الفقهاء الْمُسْلِمون، بِخَاصَّةٍ فِي الفترة مَا بَيْنَ القَرْنين الثّامن والحادي عشر للميلاد[3].

كَانَتْ الفِرَقُ الإِسْلَامِيّة المُخْتَلفةُ تَشْعُرُ، بعضُها نحوَ بعضٍ، بعداءٍ يفوق عداءَها لمن يعيش فِي البلاد الإِسْلَاميّة من الكفرة، شأنُها فِي هَذَا شأنُ الفِرَق المختلِفَة فِي سائر الأَدْيَان. ولقد كَانَ أهل الذِّمَّة الْمَسِيحِيّون، والزرادشتيّون[4]، واليهود، والصّابئون، يستَمْتِعُون فِي عهد الخِلَافَة الأُمَوِيّة بدرجة من التَّسَامُح، لا نجد لها نظيراً فِي البلاد الْمَسِيحِيَّة فِي هَذِهِ الأيام. فَلَقَدْ كَانُوا أحراراً فِي مُمَارَسَة شعائر دينهم، واحتفظوا بكَنَائِسهم ومعابدهم، وَلَمْ يُفْرَض عَلَيْهِمْ أكثَرَ مِنْ ارْتِدَاءِ زَيٍّ ذِي لَوْنٍ خَاصٍّ، وأداءِ فُرْضَةٍ عَنْ كُلِّ شَخْصٍ، تَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ دَخْلِهِ، وتَتَرَاوَحُ بَيْنَ دينارٍ وأربعة دنانير (من 4,75 إلَى 19 دولاراً أمريكياً). وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الضَّريبة تُفْرَضُ إلا عَلَى غير الْمُسْلِمِينَ القادرين عَلَى حمل السّلاح، ويُعْفَى مِنْهَا الرّهبانُ والنّساءُ والذّكورُ الَّذِينَ هُمْ دُونَ سِنِّ البلوغ، والأرِقَّاءُ، والشّيوخُ، والعَجَزَةُ، والعمَى الشّديدُ، والفقرُ. وَكَانَ أهل الذِّمَّة يعفون فِي نظير هَذِهِ الضَّريبة من الخدمة العَسْكَرِيَّة، أَوْ إِنْ شئتَ فقُلْ: لا يقْبَلُون فِيهَا، ولا

(1) () الصدوق: معاني الأخبارص373؛ الطوسي: تهذيب الأحكام، 6/ 38

(2) () الحر العاملي: هداية الأمة إلى أحكام الأئمة، 5/ 475.

(3) - أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص153.

(4) - لديهم «الزند أفستا» الكتاب المقدس. شاي، بلوش: دليل حضارات الشرق الادنى، ص36.

تُفْرَضُ عَلَيْهِمْ الزكاةَ، البالغَ قدرُها اثنين ونصف فِي المائة من الدّخل السّنوي، وَكَانَ لَهُمْ عَلَى الحكومة أنْ تحميهم[1].

وَكَانَ اليهود فِي بلاد الشّرق الأدنى قَدْ رحبوا بالْعَرَب، الَّذِينَ حرروهم من ظلم حكامهم السّابقين، إِلَا أَنَّهُمْ فِي عهدهم قَدْ فُرضَتْ عَلَيْهِمْ عِدَّةُ قيود، ولاقوا شيئاً من الاضطهاد من حِينٍ إِلَى حِينٍ، غَيْرَ أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا كَانُوا يُعاملون عَلَى قَدَمِ المساواة مَعَ الْمَسِيحِيِّينَ، وأصبحوا مَرَّةً أُخرَى يتَمَتَّعون بكامل الْحُرِّيَّة فِي حياتهم، وَفِي مُمَارَسَة شعائر دينهم فِي بيت المقدس، وأثروا كثيراً فِي ظِلِّ الإِسْلَام وَفِي آسية، ومَصْر، وأسبانيا، كَمَا لَمْ يثروا مِنْ قَبْل تَحْتَ حكم الْمَسِيحِيِّينَ.

وَكَانَ الْمَسِيحِيّون فِي بلاد آسية الغربية، خارج حدود الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشّام مَسِيحِيَّة حَتَّى القَرْن الثّالث الإِسْلَامِيّ. ويحدثنا المُؤَرّخون: أَنَّهُ كَانَ فِي بلاد الإِسْلَام فِي عصر المأمون أحد عشر ألف كَنِيسَة، كَمَا كَانَ فِيهَا عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النّار[2].

وَكَانَ الْمَسِيحِيّون أحراراً فِي الاحتفال بأعيادهم علنًا، والحجاج الْمَسِيحِيّون يأتون أفواجًا آمنين لزيارة الأضرحة الْمَسِيحِيَّة فِي فلسطين، وَقَدْ وجد الصَّلِيبيون جماعاتٍ مَسِيحِيَّةً كبيرة فِي الشّرق الأدنى فِي القَرْن الثّاني عشر المِيلادِيّ، ولا تزال فِيهِ جماعات مِنْهُمْ إِلَى يومنا هَذَا. وأصبح الْمَسِيحِيّون الخارجون عَلَى كَنِيسَة الدّولة البِيزَنْطِيَّة والذّين كَانُوا يَلْقَوْنَ صورًا من الاضطهاد عَلَى يد بطارقة القُسْطَنْطِينِيَّة، وأورشليم، والإسكندريَّة، وأنْطَاكِيَة، أصبح هَؤُلَاءِ الآن أحرارًا آمنين تَحْتَ حكم الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ لَمْ يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنًى يفهمونه، ولقد ذهب الْمُسْلِمون فِي حماية الْمَسِيحِيِّينَ إِلَى أبعدِ من هَذَا، إِذْ عَيَّنَ والِيُ أَنْطَاكِيَةَ فِي القَرْن التّاسع المِيلادِيّ حرسًا خاصًّا ليمنع الطّوائف الْمَسِيحِيَّةَ المُخْتَلفة من أنْ يَقْتُلَ بعضُها بعضًا فِي الكَنَائِس[3].

---

(1) - ديورانت: قصة الحضارة 4/ 4561.

(2) - ديورانت: م. ن. 13/ 132.

(3) - ديورانت: م. ن. 13/ 132.

وانتشرت أَدْيِرَة الرّهبان وأعمالهم فِي الزراعة، وَفِي إصلاح الأراضي البَور، وَكَانُوا يتذوقون النّبيّذ المعصور من عنب الأَدْيِرَة، ويستَمْتِعُون فِي أسفارهم بضيافتِها، وبلغتْ العلاقةُ بَيْنَ الدِّينيْنِ - فِي وقتٍ من الأوقات - درجةً من المَوَدَّةِ، تُبيحُ للمَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ يضعـون الصّلبـان عَلَـى صدورهم أنْ يؤمُّـوا المساجـد، ويتحدَّثوا فِيهَا مَـعَ أصدقائهم الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَتْ طوائفُ الموظفين الرّسميِّين فِي البلاد الإِسْلَامية تَضُمُّ مئاتٍ من الْمَسِيحِيِّينَ، وَقَـدْ بلـغ عددُ الَّذِينَ رُقُّوا مِنْهُمْ إِلَى المناصبِ العُلْيَا فِـي الدّولة من الكَثْرَةِ درجةً أثارتْ شـكوى الْمُسْلِمينَ فِي بعض العهود. فَقَدْ كَانَ سرجيوس والدّ القديس يوحنا الدّمشقي خـازنَ بيْـتِ المـالِ فِي عهد عبـد الملك بن مـروان، وَكَانَ يوحنـا نفسُهُ، وَهُـوَ آخرُ آباء الكَنِيسَــة اليُونانِيّة، رئيسَ المجلس الَّذِي كَانَ يتولّى حكم دِمَشْقَ. وَكَانَ الْمَسِيحِيّون فِي بلاد الشّرق يرَوْنَ أنَّ حكمَ الْمُسْلِمِينَ أخفُّ وطأةً من حكمِ بِيزَنْطيَّة وكَنِيسَتِها[1].

توسَّعتْ الْحُرِّيَّةُ الدّينيَّةُ فِي الْمُجْتَمَعِ الإِسْلَاميِّ فِي المائةِ الأولى، وشَمَلتْ أهَمَّ لُبْنَةٍ، أصَّلَتْ البِناءَ الاِجْتِمَاعِيَّ، ألَا وَهِيَ الأُسْرَةُ، من خِلَالِ الزواجِ مِن النَصْرَانِيّاتِ، أوْ يَدْخُلُ الرّجالُ فِي الإِسْلَامِ وتَبْقَى نساؤهُم عَلَى الْمَسِيحِيَّةِ، وَفِي كِلْتَا الحالتينِ يُمارِسْنَ دوْرَهُنَّ الإِنْسَانِـيَّ فِـي تربيةِ أبنائِهن عَلَـى القِيَمِ الدّينيَّةِ النّاصعـةِ، وأنشـأْنَ أولادًا بلَغُوا مَدَاراتِ النّجـاحِ فِي الْمُجْتَمَـعِ الإِسْلَاميِّ، وحفلتْ مصادرُ التّاريخِ والتّـراثِ بذكرِهُنَّ. فَقَدْ جَاءَ قَيْسُ بْنُ شَـمَّاسٍ إِلَى النّبِيِّ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّهُ تُوُفِّيَتْ وَهِيَ نَصْرَانِيَّةٌ[2]، وجاء أَبُو وَائِلٍ شـقيقُ بن سلَمة إِلَى الخليفة عمر، قَالَ: ماتت أُمّي نَصْرَانِيَّةً[3]. ومَاتَتْ أُمُّ الحارث[4] بنِ عبدِ الله

(1) - ديورانت: م. ن. 13/ 132.

(2) - الخَلاَّل: أحكام أهل الملل والرّدة، ص 219؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 10/ 165.

(3) - الفسوي: المعرفة والتاريخ 3/ 194؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق23/ 164.

(4) - المعروف بـ«القباع» والي البصرة لعبد الله بن الزبير، توفي قبل 70هـ. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق 6/ 157؛ ابن حجر: تقريب التهذيب 1/ 141.

بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَهِيَ نَصْرَانِيَّةٌ، فشَهِدَهَا ناسٌ من أصحابِ مُحَمَّد[1]. وأمُّ أَبَانٍ[2]، نايلةُ بنت الفرافصةِ الكَلْبيَّةِ، امْرَأَةُ الخليفةِ عثمان[3]، ونكحَ الصحابي حذيفة بن اليمان (ت36هـ/ 657م) نصرانيَّـة[4]، وكَانَـتْ أمُّ خَالِـدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْن أسَـدٍ القسريِّ، نَصْرَانِيَّـة، وَقَدْ بنَى خَالِـد لأمِّـه بَيْعَةً عَلَى سِكَّةِ البريدِ بالكوفةِ[5]، إبَّـانَ ولايته عَلَى العِرَاق (106 - 120هـ/ 724 - 738م)[6].

تتحصَّـلُ زبـدة التعايش الفكـري في البلاد الإسلاميـة - في مفهـوم روزنثال - بانَّ المدينـة الإسلاميَّـةَ نمَـتْ بالتوسُّـع لا بالتعمُّـق، داعيـةً الـى العقيـدة، ناظـرةً الى تلك المنجـزات الفكريَّة القائمة آنذاك، مناقشةً إياها، ومقتبسـةً ومتبنِّية لِمَا يُسْهِم في تأصِيل حضـارةٍ راقية، ونظـرًا لأنَّها حركةٌ روحيَّةٌ جديدةٌ، فقدْ أُضْطِـرَّتْ الى عرضِ مُعتقداتِها، وفوقَ كُلِّ ذلك. فبتقَدُّمِ الإسلامِ تهاوتْ الحواجزُ القديمة من اللغة والعادات، وتوَفَّرَتْ فرصةٌ نادرةٌ لجميعِ الشعوبِ والمدنيَّاتِ، لتبدأ حياةً فكريَّةً جديدة على أساسِ المساواة المُطْلَقَـةِ، وبروح المنافسةِ الحُـرَّةِ[7]. كان القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي مبدأً الفتـرة التكوينيَّـة، فـي عمليـات التأصيـل الحضـاري، ومفتـاحَ المخيـالِ العربيِّ على المنجزاتِ الحضاريَّةِ الموجودةِ، وتنميتِها بما يتناسبُ مع الصبغةِ الإسلاميَّة.

2. حياة الْمَسِيحِيِّينَ الاقتصاديّة والإِجْتِمَاعِيَّة والدِّينِيَّةِ فِي صدر الإِسْلَام

كانـت تُهَامَـة لا تدين للملوك، لكنَّها لا تمتنع من تعظيم ما عظَّم الناس، فإنها تعرف نصرانيَّـة النعمـان وملوك غسان المشهـورة في العرب، بحسب الجاحـظ[8]: حين جاء الإسـلام وملـوك العرب رجلان غساني ولخمـي، وهما نصرانيان، وقـد كانت العرب

(1) - المعرفة والتاريخ 3/ 123؛ تاريخ دمشق 11/ 441.
(2) - من الكتاب الأوائل للمغازي والسّير (ت105هـ). ابن منظور: م. س. 3/ 341.
(3) - النّووي: تهذيب الأسماء واللغات 2/ 357.
(4) - الطبري: تفسير 4/ 365.
(5) - البلاذري: فتوح البلدان، ص: 280.
(6) - خليفة بن خياط: التاريخ، ص336.
(7) - فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ص46.
(8) - الرسائل 3/ 312، المختار في الرد على النصارى، ص 60.

تدين لهما، وتؤدي الإتاوة لهما، فكان تعظيم قلوبهم لهما راجعا إلى تعظيم دينهما. وقد كانـت تتجر إلى الشام، وينفذ رجالها إلى ملوك الروم، ولها رحلة في الشتاء والصيف، فـي تجارة، مرة إلى اليمن، ومرة قِبَلَ الشام، ومصيفها بالطائف، فكانوا أصحاب نعمة، وذلـك مشهور مذكور فـي القرآن وعند أهـل المعرفة. وقد كانت تهاجـر إلى الحبشة، وتأتي باب النجاشـي وافدة، فيحبوهـم بالجزيل، ويعرف لهم الأقدار. ولم تكن تعرف كسرى، ولا تأنس بهم.

كَانَ النَّصَارَى يتعاطون البيع والشّراء فِي سوق الحِيرَة[1] وَفِي أسواق جهات الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّـة للمقايضـات وضروب المبايعـات، ويتاجرون بالبز والعطـر والالطّاف، وأهل الحِيرَة اشتهروا بالتّجارة، وَكَانَتْ عيرهم التّجارية (اللطائم) ترسل إلَى مَكّة واليمن[2].

يـرى المستشرق أوليـري oleary[3] أنَّ مَكّة أصبحتْ مركزًا للصيرفة يمكنُ أنْ يدفع فِيهَـا التّجارُ أثمانَ السّلع الَّتِي تُرْسَلُ إلَـى بلاد بعيدة، كَمَا كَانَتْ عَمَلِيَّةُ الشّحن والتّفريغ لهـذه التّجـارة الدَّوْلِيَّـة تَتَمُّ هُنَـاكَ، وَكَذَلِكَ كَانَ يتَـمُّ التّأمينُ عَلَى المتاجِـر، وَهِيَ تجْتَازُ الطُّـرُقَ المَخُوفَـةَ بالمَخَاطِرِ، وَقَدْ كَانَ يُسَاعِدُ قُرَيْشـا - عَلَى تأمين تجارتها - مَا كَانَتْ تَتَمَتَّع بِهِ من حُرْمَةٍ عِنْدَ الْعَرَب، وما كَانَ لها من ارْتِبَاطات مَعَ القَبَائِلِ الضَّاربة عَلَى طول طرق التّجارة.

يكثر تواجد النَّصَارَى فِي مَكّة، بسبب العمالة فِي التّجارة، وما توفره خدمة الحجيج من أعمال، وكانو قَدْ شكّلُوا مُكَوِّنًا اِجْتِمَاعِيًّا، اسمه «الأحابيش»، وثَمَّةَ وادِ بَيْنَ عَرَفَات ومِنًى، يحمل اسمَ» مَوْقِفُ النَّصَارَى»[4] دليل عَلَى مساحة وجودهم.

لَعَـلَّ تواجدَهم فِي يَثْرِبَ يقلُّ عَنْ مَكّة، إذْ كَانَ قدومُهم إلَيْهَا بسببِ التّبشيرِ، وبسببِ العمـلِ كخَـدَمٍ، أَوْ مَوالِـيَ، أَوْ بسبـبِ عُصْبَـةِ النَّسَـبِ بَيْـنَ الأوْسِ والخـزرجِ وغَسَّـانٍ

(1) - أبو الفرج: الاغاني 17/ 69، 370، 371.
(2) - الاغاني 24/ 62؛ رفائيل بابو اسحق: تاريخ نصارى العِرَاق، ص29
(3) - O'leary، «Delacy D.D.»، Arabia Before Muhammad، London، 1927 P. 182
(4) - (بَطْنُ مُحَسِّرٍ)، بكسر السّين المُشَدَّدَة: وادِ (قُرْبَ المُزْدَلِفَةِ)، بَيْنَ عَرَفَات ومِنًى. وَفِي كُتُبِ المَنَاسِكِ: هُوَ وادِي النّار. قيلَ: لأنّه مَوْقِفُ النَّصَارَى. الزبيدي: تاج العروس (11/ 15).

النَّصْرَانِيَّةِ. وَكَانَ قسمٌ كبيرٌ مِنْهُمْ عَلَى اطلاع ببعضِ العلومِ والصّناعاتِ والمِهَنِ، وَكَانُوا يمارسونَ حياتَهم الدّينيَّةَ والاِجْتِمَاعِيَّةَ بكلِّ سهولةٍ ويُسْرٍ. وَكَانَ النبط والإنباط، وهم نَصَارَى الشَّام الَّذين عمروها، وَأهل سَواد الْعرَاق[1]، لَهُمْ أسواقٌ خَاصَّةٌ لمُمَارَسَةِ أعمالِ التّجارةِ، منها في يثرب لَهُمْ سوقٌ يُدْعَى «سوقُ النّبطِ»[2]، ورُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ إِلَى سُوقِ النّبَطِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقال: «لَيْسَ هَذَا لَكُمْ بِسُوقٍ»، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى هَذَا السّوق، فطاب بِهِ، فَقَال: «هَذَا سُوقُكُمْ، فَلا يُنْتَقَصُ، ولا يُضْرَبُ عَلَيْهِ خَرَاجٌ»[3].

ويرى بعض المستشرقين[4] «كَانَ للنَصْرَانِيَة تبعَةٌ متعَدّدون فِي جَزِيرَة الْعَرَب، فكانت مالكةً عَلَى شمالِها بدولتَي الحِيرَة وغَسَّان، وعلى وسطها فِي المدينة، وعلى جنوبها بأُسْقُفيات اليمن».

وَكَانَتْ لَهُمْ مجالسُ يُحَدِّثُونَ بِهَا الآخرين عَنْ أمور دينِهم. ففي زمن الرّسول كَانَ هُنَاكَ الرّاهبُ بَحِيرَا، وَكَانَ هُنَاكَ وَرَقَة بنِ نَوْفَل، وجَبْرُ النَصْرَانِيّ، أَوْ بلعَام، الَّذِي نسب إِلَيْهِ تعليم الرّسول القُرْآن الكريم[5].

ظَلَّتْ النَّصْرَانِيَّة تمتاز بتنظيمها الدّينِيّ والسِيَاسِيّ والإِدَارِي والاِجْتِمَاعِيّ، فَكَانَ لَدَيْهِمْ «العاقبُ»، وَهُوَ أمير القوم، وصاحب الرّأي والمشورة، ثُمَّ «السّيدُ» الَّذِي يقوم بأمر القوم، ثُمَّ «الأُسْقُفُ»، وَهُوَ الحَبْرُ والإمامُ الأعظم وصاحب مدراسِهم، وبتعبير آخر: هُوَ الرّئيس الدّينِيّ.

أتى القُرْآن الكريم عَلَى ذكر النَّصَارَى والْمَسِيح ومَرْيَم فِي حوالَى 117 موضعا من القُرْآن متحدثا عَنْ معجزات الْمَسِيح، وعن عقائدهم، كَمَا تناول بعض خصالهم[6]، إِلاَّ

(1) - عياض بن موسى اليحصبي (ت 544هـ): مشارق الأنوار على صحاح الآثار 2/ 3.

(2) - توفيق برو: تاريخ العرب القديم، ص 248.

(3) - المزي (ت 742هـ): تهذيب الكمال في أسماء الرّجال، 20/ 369.

(4) - هوتويغ درنبورغ لموسوي من أساتذة اللغات الشرقية في باريس المتوفى سنة 1910. شيخو: النّصرانيه وادابها، ص115.

(5) - ابن هشام: السّيرة 1/ 393.

(6) - انظر: المسيحيّة والعلاقات الدينية في القرآن الكريم 1 - 3 - من هَذِهِ الدراسة.

أنَّ وضع النَّصَارَى فِي مَكّة والمدينة، لَمْ يشكل خطرا عَلَى الدّعوة الإِسْلَامية، يستوجب قيام العداء والكراهية، لا، بَلْ إن القُرْآن أشار إِلَى قربهم من الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (المائدة 82، 83)، فَضْلًا عَنْ تعامل الرّسول مُحَمَّد مَعَهُمْ، ووصاياه فِيهِمْ خيرًا، وعهوده لَهُمْ.

كَمَا كَانَ للنّصَارَى أعيادُهم وعاداتُهم وتقاليدُهم ولباسُهم الخاصُّ، الَّذِي يُمَيِّزُهُم عَنْ غيرهم من أهل الكتاب. فَكَانَ من أعيادهم[1]: «الفصْح» الَّذِي يخرجون فِيهِ الأعلام والرّايات والصّلبان والأجراس. فكانوا يمارسون تِلْكَ الاحتفالات بكل حُرِّيَّة وأمان. كَمَا مارَسَ النَّصَارَى عاداتِهم الدّينيَّة[2]، نَحْوَ: الصّلاةِ، والصّومِ، والحجِّ، واستلامِ الحجرِ الأسودِ، والنّذورِ، والتّسبيحِ، والخَطابةِ، وإلقاءِ المواعِظِ، وإشعالِ المجامرِ فِي الصّوامعِ والجنازاتِ، واكرامِ القبورِ.

جدير بالعلم أنَّ الانتماءَ إِلَى واحديَّة الأرض وقواها الطّبيعيَّة، كَانَ وازعًا للتمازج الإجْتِمَاعِيّ، ولاسِيَّمَا الأرضُ المَصْرية ونهر النّيل، وصلتها بالشّعب، أدّت دورًا مُهِمًّا فِي توحيد المَصْريين، مُسْلِمِينَ كَانُوا، أَوْ مَسِيحِيِّينَ. لَعَلَّ جُمْلَةَ الْمُعْتَقَداتِ القبطِيَّةِ فِي صلواتِهم، وخصَّصُوا - لِكُلِّ فصلٍ مِن السَّنَةِ الزراعيَّةِ: الفيضانِ، الزرعِ، والحصادِ - صلاةً خَاصَّةً تُتْلَى فِي مواقيتِها، وَفِي عصرِ الإِسْلَام ظَلَّتْ كثيرٌ من المُعْتَقَداتِ، تُعَبِّرُ عَنْ أهَمِّيَّةِ نهرِ النّيلِ فِي حياة النّاس، يتشارَكُ فِيهَا الْمُسْلِمونَ والْمَسِيحيون[3].

مارس النَّصَارَى عديدًا من الأعمال[4]، الَّتِي كَانَ الْعَرَب فِي الجاهلِيّة، وَفِي صدْرِ

---

(1) - المُفَصَّل فِي تاريخ العرب 12/ 235 وبعدها.

(2) - النّصرانية وآدابها 393 - 401.

(3) - قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة، ص 39.

(4) - انظر: شيخو: النّصرانية وآدابها 370 - 385.

الإِسْلَام، يأنَفُون عَنْ مُمَارَسَتها، أوْ لَيْسَ لَهُمْ بِهَا درايَةٌ، مِنْهَا: صناعةُ النّسيجِ، والحياكةُ، والنّجارةُ، والحـدادةُ، والملاحةُ، وسكُّ النّقودِ. ولـم يقتصرْ النصارى على مهنة الكتابة فحسـب، بل مارسوا الطـب والتجـارة والصناعة، فيذكرهـم الجاحـظ[1] بأنّهم: كتاب السلاطين، وفراشيّ الملوك، وأطباء الأشراف، والعطارين، والصيارفة، ممّا عظَّمَهم في قلـوب العوام»، على نحو يوحي بتحسن أحوال النصارى المالية ألمح اليه الجاحظ[2]« لـم نخالـف العوام في كثرة أموال النصـارى، وأنَّ فيهم مُلْكًا قائمًـا، وأنَّ ثيابَهم أنظف، وأنَّ صناعتهم أحسنُ... فأما المُلك والصناعة والهيئة، فقد علمنا أنّهم اتخذوا البراذين الشهريَّـة[3]، والخيـل العتـاق، واتخذوا الجوقـات، وضربـوا بالصوالجـة، وتحَذَّفُوا[4] المدينـيّ، ولبسـوا المُلْحَـم[5] والمطبقـة، واتخذوا الشاكريَّـة... وترك كثيـر منهم عقد الزنانير، وعقدها آخرون دون ثيابهم، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية، وأنفوا مع أقدارهم من دفعها، وسبوا من سبهم، وضربوا من ضربهم[6]».

ثَمَّـةَ عـاداتٌ إجْتِمَاعِيَّـةٌ[7] ظَلَّـتْ سائـدةً لَدَى النَّصَـارَى، وتدل علـى اندماجهم في المجتمـع الإسلامـي، منها تسميـة أبنائهـم بالرموز الدينيـة الإسلامية، قـال الجاحظ: «تسمـوا بالحَسن والحُسين، والعبَّاس وفضْل وعليٍّ، واكتنوا بذلك أجمع، ولم يبق إلا

---

(1) - الرسائل، 3/ 316.

(2) - الرسائل3/ 317، المختار في الرد على النصارى، ص 64.

(3) - البرذون: الدابة. قال الكسائي: الانثى من البراذين برذونة. (الجوهري: الصحاح 5/ 2078). الشَّهرِيَّةُ: ضربٌ من البراذين، وهو بينَ المُقْرِف من الخَيْل والبِرْذَوْن. الخليل: العين 3/ 400.

(4) - حَذَّفَهُ تَحْذِيفاً: هَيَّأَهُ وصَنَعَهُ، وَقَالَ الأَزْهَرِيُّ: تَحْذِيفُ الشَّعَرِ: تَطْرِيرُه وتَسْوِيَتُه، وإذا أَخَذْتَ مِنِ نَوَاحِيهِ مَا تُسَوِّيَه بِهِ فقد حَذَّفْتَهُ، وَقَالَ النَّضْرُ: التَّحْذِيفُ فِي الطُّرَّةِ: أَن تُجْعَلَ سُكَيْنِيَّةً، كَمَا تَفْعَلُ النَّصارَى. وَفِي الأَساسِ: حَذَّفَ الصَّانِعُ الشَّيْءِ: سَوَّاهُ تَسْوِيَةً حَسَنَةً، كأَنَّهُ حَذَفَ كُلَّ مَا يَجِبُ حَذْفُه حَتَّى خَلا مِن كُلِّ عَيْبٍ وتَهَذَّبَ. الزبيدي: تاج العروس (23/ 125)

(5) - المُلْحَمُ: مِنْ الثِّيَابِ، مَا سَدَاهُ إبْرَيْسَمٌ وَلُحْمَتُهُ غَيْرُ إبْرَيْسَمِ. المطرزي: المغرب في ترتيب المعرب، ص 423.

(6) - الشاكري: الأجير، المستخدم، التابع. والجند الشاكرية من جند الخلافة. دوزي: تكملة المعاجم العربية 6/ 339.

(7) - انظر: شيخو: النّصرانية وآدابها 404 - 408.

أن يتسموا بمحمد، ويكتنوا بأبي القاسم. فرغب إليهم المسلمون»[1]. وَمِنْهَا «الحَلِفُ» بالمقدّسَاتِ النَّصْرَانِيَّةِ ومقدّساتِ الْعَـرَبِ، وَقَدْ كَثُرَ هَذَا الأسلوبُ فِي الشّعرِ النّصرانيِّ الجاهلِيّ، وَمِنْهَا قول الأعشى[2]: [الطّوِيل]

وَإِنّي وَرَبِّ السّاجِدينَ عَشِيَّةً ... وَما صَكَّ ناقوسَ النَّصَارَى أبيلُها[3]

أمَّـا «الختان» فَكَانَ اليهود والْعَرَب يختتنـون، وَقَدْ أبطله النَّصَارَى، وَكَانَتْ نساؤهم يتحجبْنَ، فالكَنِيسَة توصي النّساء بالحشمة، وتغطية رؤوسهن، ولاسِيَّمَا وقت الصّلاة. ومن عادات النَّصْرَانِيَّة: «الرّدافة» وَهِيَ كالوزارة، اتخذها الْعَرَب مِنْهُمْ، وَكَانَتْ موجودة عِنْدَ ملوك الحِيرَة وملوك غَسَّان النَّصَارَى.

وبـرع النَّصَارَى الْعَرَب فِي جملة من الفنون، مِنْهَا: فـن الموسيقى والغناء، وخَاصَّة فِي الاحتفالات الدّينِيَّة والمَدَنِيَّة، ومن الآلات الَّتِي شاعت فِي ذَلِكَ الوقت: «الأرغن»، «البريط»، «السّنطور»، «القانون»، و«القيثار»[4].

3. التّربية الدّينِيَّة والتنظيمات الْمَسِيحِيَّة

كانـت مصادر التربية الدينية – مطلع القَـرْن الأوَّل الهِجْرِيّ/ السابع الميلاديّ – أو كـادت تتناسـب مع انتشـار المسيحيّة في المشـرق وجزيرة العرب، وتسهم في شـيوع التعاليـم الدينية والثقافة التربوية، بين الشعـوب والقبائل، على عدة لغات، ولعل فضل هـذا الانتشار يعود الى دقّة التنظيمات المسيحيَّـة، ودورها في توصيل المفاهيم الدينيَّة والأخلاقيَّة، بموارد عدّة:

– الإِنْجِيـل: هُوَ الكتـاب السّماويّ، الَّـذِي أنزله الله –تعالى – عَلَـى سيِّدِنا عيسى، ليهـدي النّاس ويرشـدهم إلَى طريـق الحق. فمن النّاس من آمن بِـهِ، ومنهم من كفر بِهِ، وضـلَّ عَـنْ السّبيل. وَلَمْ تخُصّ رسالتّه شـعبًا بعَيْنِـه، بَلْ كَانَتْ رسالـةً عَالَمِيَّة، إِذْ بلغت

---

(1) – الرسائل 3/ 317، المختار في الرد على النصارى، ص 64.
(2) – ديوان الاعشى، القصيدة، 23؛ ابن دريد، (ت 321هـ): جمهرة اللُّغَة، 1/ 380.
(3) – صك: ضرب. الأبيل: الرّاهب الَّذِي يضرب النّاقوس. جمهرة اللُّغَة (أبل) 1/ 380.
(4) – النّصرانية وآدابها، ص 358 – 360.

جميع البشر، عَلَى خلاف رسالة اليَهُودِيَّة، الَّتِي حبست نفسها فِي بني إِسْرَائِيلَ؛ لذلك نلحظ أنَّ انتشار الْمَسِيحِيَّة فِي زمن الرّسول مُحَمَّد أكثرُ من انتشار اليَهُودِيَّة، فكانت الْمَسِيحِيَّة هِيَ الدِّيَانَة الرّسمية لمعظم الحَضَارَات فِي ذَلِكَ الوقت.

إن وجود النَّصْرَانِيَّة داخل الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة يعني وجود مجتمع مسيحيٍّ، لَهُ ديانتُه، وتربيته، وثقافته الخاصَّةُ بِهِ، وَلَهُ طقوسُه الدّينيَّة وشعائرُه، الَّتِي تتميز عَنْ غيره، وَقَدْ ذكرت لَنَا كُتُبُ السّيرة النّبَوِيّة وكتب التّاريخ عَنْ هَذَا المُجْتَمَع. فأشارت إِلَى وَرَقَة بن نَوْفَل، والرّاهب بَحِيرَا، وعدّاس. وَكَانَ هَؤلَاءِ الرّهبان موجودين زمن النّبيّ مُحَمَّد. وَكَانَ هُنَاكَ رقيق من النَّصَارَى، يقرأون ويفسرون للناس مَا جاء فِي الإِنْجِيل. يشير بعض الباحثين[1] إِلَى أنَّ ذكْرَ الإِنْجِيل - فِي العصر الجاهلِيّ - لَمْ يرِدْ إلا فِي الشّعر المنسوب إِلَى عَدِيّ بن زيد العبَّاديّ (ت587م)، وفيه يَقُول:

وأوتينا المُلْكَ والإِنْجِيلَ نقرؤه نشفي بحكمتِه أحلافَنا عِلَلَا

غير أنَّ هَذَا لا يشير إِلَى عدم معرفة الجاهلِيّين بِهِ، والدّليل عَلَى ذَلِكَ ذكرُ القُرْآن الكريم لَهُ، وأصل كلمة الإِنْجِيل من اليُونانِيّة، وَقَدْ وقف الْعَرَب عَلَيْهَا من السّرْيانِيّة أومن الحبشية.

وتشير بعض الرّوايات المستشرقة إِلَى إمكانية ترجمة الكتاب المقدس إِلَى الْعَرَبِيّة قبيل الإِسْلَام. وَقَدْ استندوا فِي ذَلِكَ إِلَى خبر ذكره «ابن العِبْري» مفاده: أن البِطْرِيَك «المنوفيزيتي» (يوحنا) كَانَ قَدْ ترجم الكتاب المقدس إِلَى أمير عربيّ اسمه «عمرو بن سعد» بَيْنَ (10 - 19هـ/ 631 - 640م)[2].

ويذكر بعض المُؤَرِّخين[3] أَنَّهُ فِي زمن رسول الله، كَانَ هُنَاكَ إِنْجِيلٌ شائع بَيْنَ النّاس يعرف بـ«إِنْجِيل السّبعين»[4]، عَلَى لسان الرّسول» تلامس». والنَّصَارَى وغيرهم

---

(1) - علي، جواد: المُفَصَّل فِي تاريخ العرب 12/ 256، وقارن: شيخو: النّصرانية، ص185.

(2) - علي: م. ن.12/ 257.

(3) - المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 2/ 19؛ الحمد، مُحَمَّد عبد الحميد: التوحيد والتثليث فِي حوار المسيحيّة والإسلام.(دار الأوائل. دمشق 2003) 63.

(4) - إنجيل السبعين هو أحد النصوص القديمة التي توضع في عداد الأناجيل المنحولة. ويشير عنوان

ينكرونه. ويبدو أنه أشتُبِهَ عليهم؛ فإنَّها ترجماتُ التوراة» الثمانين: ويقال: السبعين هي التـي ترجمها ثمانون حبرًا لبعـض ملوك الروم... وهي أصحُّ تراجـم التوراة»[1]. وَكَانَ وَرَقَـة بـنِ نَوْفَـل ضالِعًا فِي المعـارف الكِتَابِيَّة، وَهُـوَ - بحَسَبِ مُسْلِـم: «كَانَ يكتب من الإِنْجِيل بالعبرانيَّة مَا شاء أنْ يكتبَ»[2].

إنَّ وجـودَ الرّهبـان زمَنَ رسولِ اللـه كـ«وَرَقَة بنِ نَوْفَل»، صاحـب القصة المشهورة مَـعَ خديجة بنت خويلـد، وكذا وجود الرّاهب بحيرا وعدّاس وغيرهم، ورجوع الْعَرَب إلَى الرّهبان لسؤالهم عَنْ الكثير من الأخبار، دليلٌ عَلَى وجود الإِنْجِيل كمصدر تربويٍّ ودِينِـيّ لتعليم أبنائهم وتدريسهم، وخَاصَّة أنَّ الدِّيَانَة النَّصْرَانِيَّة هِيَ ديانةٌ تبشيريَّة، تؤمن بنشر تعاليمِ المسيح في المعمورة، لِذَا كَانَ تدريس الإِنْجِيل لأتباعها أمْرًا لازِمًا[3].

- المصاحـف: وردت «مصاحـف» فِـي شـعر الجاهلِيّيـن، وَهِـيَ تشير إلَـى أسفار النَّصَارَى، وَقَالَ البَطليوسي[4]: «لأجل هَذَا ينسبون الخَطَّ إلَى النَّصَارَى واليهود؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا أصحاب كتبٍ، وَلَمْ يَكُنْ للعرب كتابٌ، ألَا ترى إلَى قول امرئ القيس:

أتتْ حِجَجٌ بَعْدي عَلَيْهَا فأصْبَحَتْ ... كخطِّ زَبُور فِي مصاحف رُهْبَان

والكلمـة - عَلَـى رأي بعـض علمـاء السّاميـات والنَصْرَانِيّات - مـن أصلٍ حبشي، ومفردهـا مصحف. وصحف بمعنى كتـب. وَقَدْ وردت لفظة «صحيفة» فِي بيت ينسب إلَى لقيط الإياديّ[5]، وفيه يَقُول:

الكتاب إلى عدد الرسل الذين اختارهم يسوع وأطلقهم لنقل البشارة وفقًا لإنجيل لوقا. فُقدت جميع نسخ هذا الإنجيل حاليًا. http: / /ar.wikipedia.org

(1) - الخوارزمي، (ت 387هـ): مفاتيح العلوم، ص 54.

(2) - مسلم النيسابوري: الصّحيح 1/ 97.

(3) - لبابنه، احمد حسن؛ عبابنه، عصام حمد: «مصادر ومؤسسات التربية لَدَى أهل الكتاب زمن العصر النّبوي»، كلية إربد الجامعية، أَبُو ظبي. ص34.

(4) - البطليوسي: الحلل فِي شرح أبيات الجمل، ص 65.

(5) - لقيط بن يعمربن خارجة، شاعر جاهلي من أهل الحيرة، كان يعرف الفارسية، اتصل بكسرى سابور ذي الاكتاف، فكان من كتابه والمطلعين على اسرار دولته ومن مقدمي تراجمته، ثم سخط عليه وقطع لسانه، ثم قتله. له ديوان. ابن قتيبة: الشعر والشعراء 199. الآمدي: المؤتلف والمختلف 266.

كتاب فِي الصّحيفة من لقيط   إِلَى من بالجَزِيْرَة من إياد[1].

وردت - أَيْضًا - لفظة «المصاحف» فِي رِوَايَة ابن إسحاق، عِنْدَ ذكر حالة النّجاشيّ حينما سمع القُرْآن فقال «فَبَكَى وَاَللَّهِ النّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ[2].

كَمَا تعنِي المصاحفُ كتبَ اليهود، وَمِنْهَا قول ابن هشام[3] «وَكَانَتْ بِالْيَمَنِ - فِيمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْيَمَنِ - نَارٌ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ،... فَخَرَجَ قَوْمُهُ بِأَوْثَانِهِمْ وَمَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ فِي دِينِهِمْ، وَخَرَجَ الْحَبْرَانِ بِمَصَاحِفِهِمَا فِي أَعْنَاقِهِمَا مُتَقَلِّدَيْهَا».

- **المَجَلَّةُ**: من الألفاظ المعروفة بَيْنَ الجاهلِيين، وَقَدْ اشتهرت فِي الْعَرَبِيّة بـ «مجلة لقمان». قال أبو عبيد: كُلُّ كتاب عند العرب فهو مَجَلَّةٌ، وَفِي اللُغَة: المَجَلَّة: الصّحيفة يُكتب فِيهَا[4]، والمجلّة: صحيفة فِيهَا شيء من الحكم[5]، وأطلقت عِنْدَ العبرانيين عَلَى أسفار الكتب المقدسة، وَفِي شعر للنابغة يَقُول فِيهِ: [الطّويل]

مجَلّتهم ذاتُ الإلهِ، ودينُهُم   قويمٌ، فما يرجونَ خير العواقب

أي: كتابهم كتاب اللّاه[6]، وَأَرَادَ بِهِ الإِنْجِيل؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا نَصَارَى، وَقَدْ مدح بِهِ الغساسنة[7].

التّنظيمات الْكَنَسِيّة:

يتطلب الحديث عَنْ رجال الدّين الْمَسِيحِيِّينَ بيان وتوضيح عِدَّةٍ من معاني ودلالات الألقاب الَّتِي كَانُوا يتحلَّوْن بِهَا، ومن هَذِهِ المصطلحات الَّتِي كَانَتْ مستخدمة مطلع القَرْن الأوّل الهِجْرِيّ فِي بلاد الْعَرَب:

---

(1) - أبو الفرج: الاغاني 20/ 34؛ شيخو: النّصرانية، ص181.
(2) - ابن اسحاق: السّيرة، ص75؛ ابن هشام: السّيرة النّبوية 1/ 378؛ السّهيلي: الرّوض الآنف3/ 152
(3) - السّيرة 1/ 27.
(4) - الخليل بن احمد: العين 6/ 141.
(5) - الزجاجي، (ت 337هـ): أخبار أبي القاسم الزجاجي، (دار الرّشيد بغداد 1980) ص 142.
(6) - نشوان بن سعيد الحميرى (ت573هـ): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم 2/ 937.
(7) - ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم 7/ 206؛ البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب 3/ 331.

– القِسّ: فِي اللُغَة، القَسُّ: تَتَبُّعُ الشّيءِ وَطَلَبُه، يُقَال: قَسَسْتُ أَقُسُّ قَسّاً[1]. القِسُّ والقِسِّيْسُ، والجَمْعُ قَسَاوِسَةٌ[2]: رئيسٌ من رؤساء النَّصَارَى فِي الدّين والعلم[3]، وَهِيَ من أصلٍ آراميٍّ، هُوَ «Gachecho» ومعناه: كاهنٌ وشيخٌ[4]، وَقَدْ وردتْ لفظةُ «قسيسين» فِي القُرْآن: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ}(المائدة 82)، وحديثِ الرّسولِ مُحَمَّدٍ فِي وَرَقَة بنِ نَوْفَل: «رأيتُ القِسَّ، وعليه ثيابُ حريرٍ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِي وصدَّقَنِي»[5].
كَمَا وردت فِي شعر جرير[6]:

صَبَّحْنَ تَوْماءَ، والنّاقُوسُ يَقْرَعُهُ قَسُّ النَّصَارَى، حَراجِيجًا بِنَا تَجِفُ

– البِطْرِك، أَوْ البَطْرِيق: بلغَة أهل الشّام وَالرّوم، هُوَ الْقَائِد، وجمعُه بَطارقة[7]. وَهُوَ الْوَضِيءُ المُعْجِب[8]. وَهُوَ مقدم النَّصَارَى. والبِطْرِكُ: كلمةٌ يُونانِيَةٌ، ومعناها: أَبُو الآباء؛[9]. وَقَدْ وردتْ فِي شعر أمية بن أبي الصّلت[10]:

أَنْ قَدْ تَغَيّرَ بَطْنُ مَكْ كَةَ فَهِيَ مُوحِشَةُ الْأَبَاطِحْ

مِنْ كُلِّ بِطْرِيقٍ لِبِطْ رِيقٍ نَقِيِّ اللَّوْنِ وَاضِحْ

– الجاثليق: وَهُوَ رئيس أَسَاقِفَة للكَنِيسَة مَا وراء حدود الامْبِرَاطورِيَّة الرّومانية، نحو كَنِيسَة مَا بَيْنَ النّهرين، وأصبح اللقب خاصًّا بأُسْقُف سلوقية[11]، وأكثر مَا استعمله النَّسَاطِرَة فِي كَنِيسَة المشرق، وَقَدْ أطلقتْ اللفظةُ عَلَى رئيس نَصَارَى بغداد فِي العهد

(1) – الازهري: تهذيب اللُغَة 8/ 212.
(2) – ابن عباد: المحيط فِي اللُغَة (قسس).
(3) – الجوهري: الصّحاح 3/ 963.
(4) – النّصرانية وآدابها، ص192؛ المُفَصَّل فِي تاريخ العرب 12/ 216.
(5) – السّهيلي: الرّوض الأنف،2/ 161.
(6) – ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم 9/ 543؛ الزبيدي: تاج العروس 31/ 341.
(7) – الأزهري: تهذيب اللُغَة 9/ 303.
(8) – ابن سيدة: المخصص 1/ 323.
(9) – شيخو: النّصرانية وآدابها، ص191.
(10) – الاعلم الشّنتمري: أشعار الشّعراء السّتة الجاهليين، ص243؛ ابن هشام: السّيرة 2/ 29.
(11) – جورج شحاتة قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة ص15.

العباسي[1]، وَهِيَ من أصل يُونانِيّ هُوَ «كاثوليكوس» Katholikos ومعناه: عام[2].

- الأُسْـقُفُ: رأس مـن رؤوس النَّصَـارَى[3]، وَهِيَ من الألفاظ الَّتِـي تدلُّ عَلَى منزلة دِينِيَّة عِنْدَ النَّصَارَى. وَهُوَ - بحَسَبِ ابن هشام - حَبْرُهُمْ وَإِمَامُهُمْ، وَصَاحِبُ مِدْرَاسِهِمْ. وَكَـانَ قَدْ ذكـر فِي وفد نَصَارَى نَجْرَان إلَـى الرّسول مُحَمَّد، وَهُوَ أَبُو حَارِثَـةَ بْنُ عَلْقَمَةَ، أَحَـدُ بَنِـي بَكْـرِ بْنِ وَائِلٍ. كَمَـا وردت لفظة» الأُسْقُف» فِي شـروط الصّلْـح الَّتِي عقدها الرّسول مَعَ أهل نَجْرَان وَمِنْهَا: «لا يُغَيَّرُوا أُسْقُفًا عَنْ أُسْقُفِيَّتِهِ».

- الشّماس (الواقف) وتُعَدُّ من الألفاظ المعربة عَنْ السّرْيانِيّة، وَهِيَ «Chamocho» فِي الأصل[4]. وَهُوَ الَّذِي يكون مسؤولا عَنْ الكَنِيسَة، ويكون مساعدا للقِسِّيسِ فِي أداء واجباته الدّينِيَّة، ويعمل كل ذَلِكَ للتعبد، وورد فِي كتاب الرّسول مُحَمَّد إلَى أهل نَجْرَان لفظ يدل عَلَى مهنة الشّماس وَهِيَ «لا يُغَيَّرُوا أُسْقُفًا عَنْ أُسْقُفِيَّتِهِ، وَلا رَاهِبًا عَنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلا وَاقِفًا عَنْ وَقْفَانِيَّتِهِ»[5] والْوَاقِفُ: خادِم البِيعة؛ لِأَنَّهُ وَقَفَ نفسَه عَلَى خِدْمَتِها[6].

- الرّاهب: وَهُوَ المُتَبَتِّلُ المنقطع إلَى العبادة[7]. وعمله هُوَ الرّهبانية. وَقَدْ ذكر بعض علمـاء اللُّغَة[8]: أنَّ الرّهبانية غُلُو فِي تحمل التَعبُّد من فـرط الرّهبة. وَمَعْنَى الرَّهْبَانِيَّةِ هُوَ التَفَرُّغُ لِلْعِبَادَةِ وَتَرْكُ الإشْتِغَالِ بِعَمَلِ الدّنْيَا[9]، والمبالغة فِي العبادة والرّياضة والانقطاع عَنْ النّاس[10]. وَقَدْ ذكرت «الرّهبانية» فِي القُرْآن: {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَم وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَـا فِـي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُـوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَـةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَـا عَلَيْهِمْ إِلَّا

---

(1) - القلقشندي: صبح الأعشى 5/ 472؛ الزبيدي: تاج العروس 6/ 305.
(2) - علي، جواد: المُفَصَّل في تاريخ العرب 12/ 218.
(3) - الخليل بن أحمد: العين (س ق ف).
(4) - علي: م. س.12/ 216.
(5) - ابن سعد: الطبقات الكبرى 1/ 220.
(6) - ابن الأثير، مجد الدين (ت 606هـ): النّهاية فِي غريب الحديث والأثر، 5/ 216.
(7) - ابن دريد: جمهرة اللُّغَة 5/ 244.
(8) - ابن منظور: لسان العرب (ر هـ ب).
(9) - السّرخسي (ت483هـ): شرح السّير الكبير، ص 23.
(10) - محمود عبد الرّحمن عبد المنعم: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية 2/ 113.

ابْتِغَاء رِضْـوَانِ اللَّهِ}(الحديد27). كَمَا ورد لفظ «الرّهبان» فِي القُرْآن فِي غير موضع[1]، وَمِنْهَا:(يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَـارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ} (التّوبة،34). كَمَا وردت فِي الحديث النّبوِيّ: «لا رهبانية فِي الإِسْلَام»[2]، وذكرت فِي الشّعر - أيْضا -. وَمِنْهَا قول أبي الأسود الدّؤلي[3]:

كَأَنَّهُ راهبٌ فِي رأس صومعةٍ   يتلو الزّبور ونجم الصّبح قَدْ طلعا

كـان االراهبُ يحظى بقِيَمِ التقديس، أي بمعنى: التطهيـر، أو بمعنى: البركة، فسُمّيَ المقدّس. فإذا ما جاء من بيت المَقْدِس، تمسّح وِلْدانُ النَّصَارَى بثَوْبِ الرَاهِبِ المُقَدّسِ، فقَطَّعُوا ثِيابَهُ تَبَرُّكاً بهَا. قالَ امْرُؤُ القَيْسِ[4]:

فأَدْرَكْنَه يَأْخُذْنَ بالسَّاقِ والنَّسَا   كَمَا شَبْرَقَ الوِلْدانُ ثَوْبَ المُقَدّسِ

- الْعَاقِبُ: وَهُوَ - بحَسَبِ ابن هشام[5]: أَمِيرُ الْقَوْمِ وَذُو رَأْيِهِمْ، وَصَاحِبُ مَشُورَتِهِمْ، وَالـذّي لَا يُصْـدِرُونَ إِلَّا عَـنْ رَأْيِهِ، وَكَـانَ العاقب مَعَ وفـد نَجْرَان، الَّذِي جـاء الرّسول مُحَمَّد؛ لعقد معاهدة الصّلح، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ.

- السَّيِّد: لَهُمْ ثِمَالُهُمْ (أصلهم الَّذِي يقصدون إِلَيْهِ)، وَصَاحِبُ رَحْلِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ، وَكَـانَ فِـي وفد نَجْرَان، واسْمُـهُ الْأَيْهَمُ[6]. أَمَّـا العاقب والسّيد، فإليهمـا إِدَارَة الجماعة، والإشـراف عَلَى شـؤونهم السِّيَاسِيَّة والْمَالِيَّـة، وتدبير مَا يحتاج المُجْتَمَـع إِلَيْهِ من بقية الشّؤون[7].

المجامـع الدّينِيَّة[8] وَهِيَ أشـبه مَا تكـون بالمؤتمرات وَفِيهَا تناقش أمـور النَّصْرَانِيَّة،

(1) - المائدة 82، التوبة 31، 34، الحديد 27.
(2) - إبن أبي شيبه: المصنف 10/ 141؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار 2/ 380.
(3) - النّويري: نهاية الأرب فِي فنون الأدب 3/ 135.
(4) - ابن دريد: جمهرة اللغة 2/ 646؛ الزبيدي: تاج العروس 16/ 358.
(5) - السّيرة النّبوية 1/ 573.
(6) - م.ن. 1/ 573.
(7) - علي، جواد: م. س. 12/ 193.
(8) - انظر: فصل العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة فِي عصر الدول الأُمَوِيّة من هَذِهِ الدراسة.

حَيْثُ يجتمع فِيهَا معظم أصحاب المذاهب الْمَسِيحِيَّة، ويُعَدُّ من أهمِّ المجامع المسكونيَّة السّبعة، المجمع الرّابع، مجمع خلقيدونية الَّذِي انعقد فِي 451م، وَكَانَ فيصلا فِي تاريخ الدِّيَانَة الْمَسِيحِيَّة، إِذْ نجم عَنْ هَذَا المجمع انشقاقٌ أدّى إِلَى ابتعاد الكَنَائِس الشَّرْقِيَّة: (القبطِيَّة والأرمنيّة والسّرْيانِيّة) عَنْ الشّركة مَعَ الكَنِيسَتين الرّومانيّة والبِيزَنْطيّة[1]. والمجامع الَّتِي انعقدت فِي القَرْن الأوَّل الهِجْرِيّ هِيَ:

- مجمع جيورجيس، أَوْ مجمع دارين[2]، سنة(56هـ/ 676م) عقده الجاثليق مار جيورجيس الأول (41 - 60هـ = 661 - 680م) لأَسَاقِفَة النَّسْطُورِيَّة فِي جَزِيْرَة دارين (البحرين).
- المجمع المسكوني السّادس فِي القُسْطَنْطِينِيَّة سنة60هـ/ 680م، حضره الإمبراطور قسطنطين الرّابع (48 - 65هـ/ 668- 685م)، وأبعد فِيهِ القائلين بالمشيئة الواحدة فِي الْمَسِيح[3].
- مجمع القُسْطَنْطِينِيَّة الرّابع (73هـ - 692 م)[4]: نتيجة لحروب القَرْن السّابع وفتَنِه، واهمال القوانين الْكَنَسِيّة، دعا لعقده الإمبراطور البِيزَنْطيّ يوستينيانوس الثّاني[5].

ومن أهم الفرق الْمَسِيحِيَّة الَّتِي كَانَتْ موجودة - زمن ظهور الإِسْلَام - هِيَ: النَّسَاطِرَةُ، واليَعَاقِبَةُ، والملكانيَّةُ، والأَقْبَاطُ، والآريوسيةُ[6]. فمن المرجح أن النّبيّ

---

(1) - الموسوعة الحرة، ويكيبيديا، (مجمع).

(2) - وَهُوَ رقم (11) من المجامع الَّتِي عقدت فِي كنيسة المشرق. أدور هرمز ججو النّوفلي: «تاريخ كنيسة المشرق - الجزء 13»، منتديات باقوفا، 01/ سبتمبر/ 2007 www.baqofa.com.

(3) - كرد علي: خطط الشّام 6/ 221.

(4) - أسد رستم: كنيسة مدينة الله 2/ 51.

(5) - جوستينيان الثّاني: الإمبراطور البيزنطي الأخير لسلالة هرقل، حكم من 685م إِلَى 695 للمرة الأولى، ثُمَّ تم خلعه واستعاد عرش الإمبراطورية البيزنطية فِي 705 إِلَى 711. موسوعة ويكيبيديا (جوستنيان).

(6) - نسبة إِلَى أريوس الاسكندراني (ت 336م) القائل: القديم هُوَ الله تعالى، والمسيح مخلوق (المشيئة الواحدة). (أَبُو الفداء: المختصر فِي أخبار البشر 66) روي أن الإمبراطور قنسطنسيوس ابن قسطنطين الكبير الَّذِي تشيع للأريوسية أرسل نحو السّنة 356 وفداً من الرّومان إِلَى الحميرية فِي اليمن، وَكَانَ يترأس الوفد تاوفيل الهندي من جزيرة سرنديب أي سيلان. فرحل هذا إِلَى بلادهم... وبشر هناك

مُحَمَّدًا، إِنَّمَا عُنـي الفرقة الأخيرة، فِي كتابه إِلَى قيصر ملك الرّوم: «أسلم تسلم، يؤتك اللـه أجرك مرتين، فإنْ توليت فإِنَّمَا عليك إثم الأريسيين»[1]، فإنها هِيَ القائمة بالتّوحيد النّسبي فِـي العالم الْمَسِيحِيّ، الَّذِي تتزعمـه الدّولة البِيزَنْطِيَّـة[2]. والنَّساطِرَة فِي العِرَاق ونَجْـرَان، وَكَانَتْ لَهُمْ مَـعَ الرّسول والخلفاء مراسلات ومعاهـدات، واليَعَاقِبَة فِي بلاد الشّـام وَكَذَلِـكَ الملكانيين، والقبـط فِي مِصْرَ، وَقَـدْ اوصى بِهِمْ خيـرا الرّسول مُحَمَّد، وَكَانُوا قَدْ مارسوا حُقُوقهم أسوة بغيرهم من فرقاء الْمَسِيحِيَّة.

مُؤَسَّسَات الْمَسِيحِيَّة فِي القَرْن الأوَّل الهِجْرِيّ.

كَـانَ لنَصَـارَى الْعَرَب تنظيمهم فِـي دور العبادة وَفِي التّعليم والإرشـاد، وَهُوَ تنظيم أخـذ مـن تنظيم الكَنِيسَة العام، ومن التّقاليد الَّتِي سار عَلَيْهَا أباء الكَنِيسَة، مِنْذُ أوائل أيام النَّصْرَانِيَّة حَتَّى صارت قوانين عَامَّة. فللكَنِيسَة دَرَجَاتٌ ورُتَبٌ، وللمُشْرِفِينَ عَلَيْهَا مَنَازِلُ وسَلَالِمُ. حَتَّى صـارَتْ الكَنِيسَةُ كَأَنَّهَا حُكُومَةٌ مِنَ الحُكُومَاتِ الزَمَنِيَّةِ، لَهَا رَئِيسٌ أعْلَى، وتَحْتَـهُ جَمَاعَـةٌ مِنَ المُوَظَّفِينَ، لَهَا مَلَابِسُ خَاصَّةٌ تَتَنَاسَبُ مَـعَ دَرَجَاتِهِم، وَلَهُمْ: مَعَابِدُ، وبِيُوتٌ، وأَوْقَافٌ، وسَيْطَرَةٌ عَلَى أتْبَاعِهِـم[3]. ومن هَذِهِ المُؤَسَّسَات:

– الكَنِيسَـة: بمعنـى محـلّ صـلاة اليهـود والنَّصَـارَى، ومنهم مـن يجعـل الكَنِيسَة للنَصَـارَى، والكَنِيسَ لليهـود، وَهِيَ مقابل المسجد والجامع عِنْـدَ الْمُسْلِمِينَ، والكلمة مـن الألفـاظ المعربة عَـنْ الآراميـة، وتعني، فِـي السّرْيانِيّـة: مجمـع[4]. وَلَمْ تَـرِدْ كَلِمَةُ الكَنِيسَةِ فِيْ القُرْآن الكريم، ولا فِي الحديث الشّريف، ولا فِي عهود الصّلح الَّتِي أبرمها الرّسـول مُحَمَّـد وصحابته مَعَ أهل نَجْرَان، ولا فِي الشّعـر الجاهلِيّ، إِلَّا أَنَّها وردت فِي شعر العصر الأُمَوِيّ، قَالَ جرير يهجو بني تغلب النَّصَارَى[5]:

بالدين المسيحيّ، واسترخص بتشييد الكَنَائِس فِي ظفار وعدن. النّصرانية وآدابها، ص56.

(1) – مسلم النّيسابوري (ت261هـ): الصّحيح 5/ 165.

(2) – عَلي مُحَمَّد مُحَمَّد الصّلاَّبي: السّيرة النّبوية ص 718.

(3) – علي: المُفَصَّل 12/ 214..

(4) – شيخو، لويس: النّصرانية وآدابها ص201.

(5) – المبرد: الكامل فِي اللُّغَة والأدب 3/ 70.

مَا فِي مقام ديارِ تغلبَ مسجدٌ   وبها كَنَائِس حنتم ودِنَان

غير أن هَذَا لا يدل عَلَى عدم وجود كَنَائِس فِي ذَلِكَ الوقت. فَقَدْ كَانَ لنَصَارَى اليمن كَنَائِس مثل كَنِيسَة نَجْرَان، كَمَا كَانَتْ لَهُمْ كَنِيسَة عظيمة فِي صنعاء، هِيَ «القلّيس»، الَّتِي اكتسبت شهرة عظيمة فِي كتب الأخبار والتّاريخ، وَهِيَ كَنِيسَة أبرهة[1]. كَمَا كَانَتْ لَهُمْ كَنِيسَة فِي «مأرب»، وَهِيَ قديمة، فَقَدْ وردت فِي مقالة ابرهة: «ثُمَّ توجهت إلَى مأرب، وبَعْدَ أنْ صليت فِي كَنِيسَتها، عمدت إلَى ترميم السّد»[2]. وكَنِيسَة «ظفار». غير أن لفظة الكَنِيسَة بصفة الجمع، وردت فِي عهود الأمَان، الَّتِي أعطيت من لَدُنِ القواد فِي الْفُتُوح، نحو: أَبُو عُبَيْدَة لأهل بَعْلَبَكَ[3] وحمص[4]، وخالدٌ لأهل دِمَشْقَ[5]، وعياض بْن غنم لأهل الرّقة[6]، وعمرو بْن العاص لأهل مِصْرَ[7]؛ جاء فِيهَا: «هَذَا الكتاب أمان... عَلَى أنْفسهم (دمائهم) وأموالهم وكَنَائِسهم».

– البِيَع: مفردها بِيْعَة، هِيَ: متعبد النَّصَارَى[8]. ذهب علماء اللُّغَة إلَى أن البيعة من الألفاظ المعربة، أخذت من السّرْيانِيّة، وأصل اللفظ فِي السّرْيانِيّة، هُوَ (بعتو) بمعنى بيعة وقبّة، لأنها كَانَتْ قبّة فِي كثير من الكَنَائِس القديمة[9]. وَهِيَ اللفظة الَّتِي وردت فِي عهود الصّلْح، الَّتِي أبرمها الرّسول مُحَمَّد مَعَ وفد نَجْرَان، وجاء فِيهِ: «ولنَجْرَان وحاشيتها جوار الله، وذمة مُحَمَّد النّبيّ رسول الله، عَلَى أموالهم وأنفسهم... وعشيرتهم وبيعهم»[10]. كَمَا وردت لفظة البيع فِي القُرْآن: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ

(1) – ياقوت: معجم البلدان 4/ 171.
(2) – فِي كتابة نقرت فِي الصّخر بأمر ابرهة سنة542م. النّصرانية وآدابها، ص63.
(3) – البلاذري: فتوح البلدان، ص 132.
(4) – الكلاعي: الاكتفاء بِمَا تضمنه من مغازي رسول الله 2/ 245؛ حميد الله: مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة، ص 468.
(5) – البلاذري: م. س، ص 124.
(6) – م. ن، ص 174.
(7) – الطبري: تاريخ الرّسل والملوك 4/ 109، 4/ 293.
(8) – الزبيدي: تاج العروس، مادة (بيع).
(9) – شيخو، لويس: النّصرانية وآدابها، ص203.
(10) – البيهقي: دلائل النّبوة 5/ 389؛ حميد الله: مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة، ص 176.

بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج40). وَقَدْ وردت لفظة «البيعة» فِي أبيات لوَرَقَة بنِ نَوْفَل[1]: [الطّويل]

أدينُ لربٍّ يستجيبُ ولا أُرَى   أَدِينُ لمن لا يسمع الدّهرَ داعيا

أقولُ إِذَا صلَّيْتُ فِي كلِّ بِيعَةٍ   تباركتَ قَدْ أكثرتَ باسمك داعيَا

- الصّوامع: الصَّوْمَعَةُ مِنَ الْبِنَاءِ، سُمِّيَتْ صَوْمَعَةً لِتَلْطِيفِ أعلاها وتدقيقه، وَالصَّوْمَعَةُ: مَنَارُ الرَّاهِبِ[2]؛ وتطلق - أيْضًا - عَلَى الدَّيرِ[3]، وبهذا المعنى وردت فِي القُرْآن: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج، 40). وَفِي وصيَّة الخليفة أبي بكر - إِبَّانَ تسيير الجيش إِلَى الشّام: «ستمرون عَلَى قوم فِي الصّوامع رهبانًا، يزعمون أَنَّهُمْ تَرَهَّبُوا فِي اللهِ؛ فدعُوهم، ولا تهدمُوا صوامعَهم»[4]. ويدلُّ ورودُ هَذِهِ اللفظةِ بصورةِ الجمعِ فِي القُرْآن، ونصوص التّراث الإِسْلَامِيّ، عَلَى وقوفِ الجاهلِيّينَ عَلَى الصّوامعِ ووجودِها بَيْنَهُمْ، وتعَدّدِها آنَذَاكَ، وَقَدْ كَانَ الرّهبانُ قَدْ ابتنوا الصّوامعَ، وأقاموا بِهَا للعبادةِ فِي مُخْتَلفِ أنحاءِ جَزِيْرَةِ الْعَرَبِ، وَمِنْهَا الحجازُ[5].

- بيت المِدْرَاس «Elmadras»[6]: من «مدراش» فِي العبرانية[7]، صاحبُ دراسةِ اليهودِ كُتُبَهُمْ، المَوْضِعُ الَّذِي يُدْرَسُ فِيهِ كِتَابُ اللهِ[8]، وَهُوَ مكان يجتمع فِيهِ النَّصَارَى للتباحث فِي شؤونهم وقضاياهم العَامَّة، فَقَدْ ورد لفظ المدراس فِي السّيرة، إِذْ دَخَلَ

(1) - الأغاني: 3/ 119؛ شعراء النّصرانية 4/ 12؛ النّصرانية وادابها، ص 201.
(2) - لسان العرب (صمع) 8/ 208؛ الزبيدي: م. س. (صمع)21/ 359.
(3) - دُوزِي، رينهارت بيتر آن (ت 1300هـ): تكملة المعاجم العَرَبِيّة، 6/ 467.
(4) - الواقدي: فتوح الشّام 1/ 8.
(5) - علي: المُفَصّل 12/ 229.
(6) - «المدراس» فِي «بطرا» «معبد خصص بعبادة الإله «ذو الشّرى» «Duschara» إله النّبط الكبير. علي: م. ن. 5/ 33.
(7) - علي: م. ن 15/ 283.
(8) - لسان العرب (درس) 6/ 80؛ تاج العروس 16/ 68.

رَسُـولُ اللَّـهِ بَيْتَ الْمِدْرَاسِ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ يَهُـودَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ[1]، وعند ذكر مقدم نَصَارَى نَجْرَان إِلَى الرّسول مُحَمَّد: «الأُسْقُف هُوَ إمامهم وصاحب مدراسِهم»[2].

- الدّيـر Dayr: جمعـه الأَدْيِرَة، أَوْ الدّيارات، وَهِيَ من الألفـاظ السّرْيانِيّة المعربة، والمعروفـة عِنْـدَ الْعَرَب، وتعـرف بمواضع العبـادة، أَوْ السّكن عِنْدَ النَّصَـارَى، وَكَانَـتْ كثيـرة الانتشار فِـي الجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة والعِـرَاق وبلاد الشّام.[3] حَيْـثُ كَانَتْ محلا ممتازا للشعـراء وأصحاب الذّوق والكيف. عند ياقوت أن الدّير: «بيت يتعبد فِيهِ الرّهبان، ولا يَكَادُ يكونُ فِي المَصْر الأعظم، إِنَّمَا يكون فِي الصّحارى ورؤوس الجبال، فإِنْ كَانَ فِي المَصْـر كَانَتْ كَنِيسَة، أَوْ بيعـة»[4]. ويشير المقريزي إِلَى ان «الدّير عِنْدَ النَّصَارَى يختص بالنّساك المقيمين بِهِ، والكَنِيسَة مجتمع عامتهم للصلاة»[5].

4. الأثر الحضاري للمَسِيحِيِّينَ فِي المُجْتَمَع الإِسْلَامِيّ

قطـع الموالـي وأهـل الذِّمَّة - بَعْـدَ حركةِ الْفُتُـوح - مرحلةً كبيـرة فِي تَعَلُّـمِ الْعَرَبِيّة وآدابهـا، إِذْ أخذوا ينقلون إِلَيْهَا خبراتهم المعرفيّـة ذات البعد الحضاري، محاولة منهم في الإندماج في المجتمع الإسلامي، فاستطاعوا بِذَلِكَ إضافة كنوز التراث من علومهم وأفكارهـم إِلَى ذخيـرة الْعَرَب الْمُسْلِمِينَ، فكانت تسميـات الأثر المعرفي محفورة في الذاكـرة الحضاريّـة، على مراتب مشهـورة، بحسب «فرماج»[6]: «أمّـا هؤلاء المجوس فكانـوا أناسًا بارعين في العلوم؛ لذلك دُعوا مجوسـا، لانّ علماء العجم، كانوا يدعون مجوسًـا، واليهود كتبةً، واليونانيّـن فلاسفة، والمصريّين أنبيـاء، واللاتينيّين حكماء». فتمخّضَـتْ، مـن مزيـج تِلْكـم الحَضَـارَات العريقـة، في بابـل وفارس فالهنـد، ومصر

---

(1) - ابن هشام: السّيرة النّبوية 1/ 552؛ السّهيلي: الرّوض الأنف 4/ 248.

(2) - ابن هشام: م. ن. 2/ 222.

(3) - علي، جواد: م. س 12/229.

(4) - معجم البلدان 2/ 259.

(5) - المواعظ والاعتبار 3/ 287.

(6) - بطرس فرماج اليسوعي: مروج الأخيار في تراجم الأبرار (مطبعة الأباء المرسلين، بيروت، 1880م) ص31.

واليونـان فروما، حضارةٌ خِصْبَة مطبوعة بالطّابع الْعَرَبِيّ والأسلوب الإِسْلَامِيّ، طفقَت تنمو، وتزدهر، مِنْذُ العصور الإِسْلَامِيّة الأولى (الرّاشِديّ - الأُمَوِيّ)، وأتتْ ثمارَها فِي العصر العباسيّ، حينما أصبحت بغداد حاضرة العالم الإِسْلَامِيّ[1].

كَـانَ انتقـال الخِلَافَة إِلَى سُورِيَةَ فِي العصر الأُمَوِيّ، مـن العوامل الَّتِي فتحت الباب أمـام السّريان؛ ليسهمـوا بجهودهم فِي بناء الدَّولَـة العَرَبِيَّة، كَمَا كَانَ لهـذا الانتقال أثرُه فِـي تَطَوّر الحضـارة[2]، فَلَقَدْ وجد الْعَرَب أنفسهم حكاماً لمنطقـة، كَانَتْ ولاية رومانية خاضعة لقانون روماني كامل التّطَوّر، وإِدَارَة منظمة جداً، وَقَدْ ابقو كل هَذَا كَمَا كَانَ[3].

أخـذ خلفاء الدّولة فِي دِمَشْقَ بالعادات اليُونانِيّـة، فحوَّلت جمهورية المدينة الدّينِيَّة الْعَرَبِيّـة إِلَـى امْبِرَاطورِيَّـة حَقِيقِيَّة سوريَّـة، فضربوا الدّنانيـر الذّهبيَّة عَلَى نَسَـقِ الدّراهم البِيْزَنْطيَّة، وجعلوا الخِلَافَة وراثِيَّة بَعْدَ أَنْ كَانَتْ انتخابية، واستخدموا عمالاً كثيرين من اليونان والسّريان[4].

يبـدو أنَّ الخلفـاءَ الأُمَوِيّيـنَ لَـمْ يفْرَغـوا للشُـؤُون العِلْمِيَّة، بقَـدَرِ مَا فَرَغـوا للأمُور السِّيَاسِيَّة، إِلَّا أَنَّنا نُصَادِف مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ لَمْ يَدَّخِرْ وَسْعًا فِي سبيلِ تَشْجِيعِ الحَرَكَةِ الأَدَبِيَّة، والتّقـدم العلمـيّ. وإذا لَمْ يقدرْ لنتائج جهودِهـم أنْ تَظْهَرَ بجَلاء، فَـإِنَّ هَذَا يرجِع لعدم استقرار الأمورِ طِوَالِ أيّامهم، وقرب العهد بالعصر الجاهلِيّ، وعلى ذَلِكَ يمكننا القول بـأنَّ الازْدِهَار، الَّذِي أصابته الحياة العِلْمِيَّة فِي العصر العباسي، قَدْ وضعت أولياته عَلَى أيـام الأُمَوِيّيـن، ذَلِكَ لأن الظّواهر الحَضَارِيَّة دائماً فِي حاجة إِلَى فسحة من الوقت لكي تخرج ثمارها[5].

ينبغـي العلـم أنَّ التّفتح المعرفـيّ السّرْيانِيّ الْمَسِيحِـيّ النّزعة، كَانَ قويًـا ومؤثّرًا فِي

---

(1) - اليوزبكي، توفيق سلطان: «التعريب فِي العصرين الأُمَوِيّ والعباسي»، مجلة آداب الرّافدين، العِرَاق العدد 7، ص45.

(2) - الشّحات السّيد زغلول: السّريان والحضارة الإسلاميّة، ص 129.

(3) - أوليري: مسالك الثّقافة الإغريقية إِلَىٰ العرب، ص 206.

(4) - ماكس فانتاجو: المعجزة العَرَبِيّة، ص 121.

(5) - الشّحات: م. س. 127 - 128.

جوانبَ إنْسَانِيَّةٍ عِدَّة. وَقَدْ أغنى موادَّ شديدة التَّنوُّع، كالطّب والهندسة والفلك، إبَّانَ اندماجه فِي المُجْتَمَع الإِسْلَامِيّ، مِمَّا شجع الْمُسْلِمِينَ عَلَى أنْ يُولوا عناية مركّزة للمعرفة فِي مجال الكواكب والنّجوم والعمران ورسم الخرائط، مثلما وفّر لَهُمْ سمات الابداع المعرفي فِي خلق عِلمَين جديدين، هُمَا: علم الجبر، وحساب المثلثات[1].

يمثل العصر الأُمَويّ فِي حَقِيْقَة الأمر أوَّلَ دَوْرٍ من أدوار حركة التّرجمة، وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ التّرجمةَ فِي هَذَا العصرِ كَانَتْ بدائيَّةً وضعيفةَ المستوى، إِذَا مَا قورنت بالتّرجماتِ الأُخْرَى فِي المراحل التّاليَة، إِلَّا أَنَّ هَذَا العصر كَانَ -بحقٍّ- حجرَ الأساسِ لبناءِ هَذِهِ الحركةِ عمومًا، كَمَا أَنَّهُ كَانَ المنطلقَ الأوّلَ لَهَا فِي أنحاء العالم الإِسْلَاميّ مشرقِه ومغربِه. وَكَانَتْ التّرجمةُ فِي تِلْكَ الفترةِ مقصورةً عَلَى بعضِ العلومِ الطّبيعيَّةِ كالكيمياءِ والطّبّ، دُونَ أنْ يتعَدّى ذَلِكَ إِلَى العلومِ العقليَّة، كالمنطقِ والفلسفةِ وما وراء الطّبيعة. لَعَلَّ السّببَ فِي ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى أنَّ إهتمامَ النّاسِ كَانَ موجهاً بكُلِّيَتِهِ إِلَى العلومِ الدّينيَّةِ الإِسْلَامِيّةِ، وَكَانُوا ينظرونَ إِلَى العلوم، الَّتِي تُدَرَّسُ فِي المراكزِ الثّقافيّة القديمة، عَلَى أَنَّها علومُ غيرِ الْمُسْلِمِينَ، مِمَّا أدّى إِلَى انصرافِهم عَنْهَا[2].

كَانَ خَالِد بن يزيد (ت85هـ/ 704م) لَهُ معرفة بفنون العلم، وأخذ الصّنعة عَنْ بعض علماء السّريان من مثل «مريانس الرّاهب»[3]، فأقدم عَلَى الاشتغال بالكيمياء بِمَا أشارَ إِلَيْهِ مِن رُمُوزٍ، وتَوَفَّرَتْ لَهُ العِنَايَةُ بإخراجِ كُتُبِ القدماءِ فِي الصّنعةِ[4]، وَهُوَ أوَّلُ مَن ترجمَ لَهُ كُتُبَ الطّبِّ والنّجومِ والكيمياءِ[5].

جديرٌ بالمعرفة، إنَّ العلومَ الطّبيَّةَ الَّتِي إحْتَكَّتْ بِهَا العقليَّةُ الْعَرَبِيَّةُ، قَدْ خرجتْ مِن أيْدِي أصحابِها، ونَعْنِي بِهِمْ اليونان، وتَلَقَّفَهَا الدّارسونَ والشّارحونَ الَّذِينَ يعرفونَ اليُونانيّةَ والسّرْيانِيّةَ، وشاركَ الأطباءُ السّريانُ في هَذِهِ الدّراسةِ بنصيبٍ وافرٍ، وَكَانَ

(1) - ديورانت: قصة الحضارة 13/ 181.
(2) - طه عبد المقصود: الحضارة الإسلاميّة، ص 163.
(3) - ابن خلكان (ت681هـ): وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، 2/ 224.
(4) - جرجي زيدان: تاريخ آداب اللُّغَة العَرَبِيّة، 2/ 332.
(5) - ابن النّديم: الفهرست، ص254؛ أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 133

لَهُمْ دورُهم في النّقـلِ والتّرجمةِ[1].

من أشْهَرِ النّقلةِ فِي العصر الأُمَوِيّ «ماسرْجوية» الطّبيب ويسمي أيضـاً «ماسرجيس» وَهُـوَ سُرْيانِـيّ اللُّغَة يهودي المذهب، وَكَانَ عالما فِي الطّبّ، وَقَدْ نقل من السّرْيانِيّة إلَى الْعَرَبِيّـة كتـاب «كُنـاش فِي الطّب «مـن تأليف أهرون بـن أعين القس، وَقَـدْ ترجمه فِي خِلاَفَـة مروان بن الحكـم (ت65ه – 685م)، ووجَدَ عمرُ بن عبـد العزيز هَذَا المصنَّفَ بَعْدَ ترجمتِه فِي خزائن الكتب، فأمر بإخراجـه... إلَى النّاس وبثّه فِي أيديهم[2].

وَقَـدْ اشـتهر فِي العصر الأُمَوِيّ – أَيْضًا – «ابن أُثال «قَـالَ عَنْهُ ابن أبي أصيبعة: «كَانَ مـن الأطباء المتميزين فِـي دِمَشْقَ، نَصْرَانِيّ المذهب، وَلَمَّـا ملك معاوية بن أبي سفيان دِمَشْـقَ اصطفاه لنفســه، وأحسن إلَيْهِ، وَكَانَ كثير الافتقاد لَـهُ، والاعتقاد فِيهِ، والمحادثة مَعَهُ ليلاً ونهاراً[3].

التّربية والتّعليم

ذكر القُرْآن الكريم والسّنَّة النّبَوِيّة عديدا من الألفاظ، الَّتِي تختص بمصادر ومُؤَسَّسَاتِ التّرْبِيَـةِ لَدُنْ أهْلِ الكِتَاب (الإِنْجِيل، التّـوراة، قِسِّيسِين، الرّهبان، الأحبار.....) مِمَّا يدل عَلَى اطلاع الْعَرَب الجاهلِيّين، ثُمَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا، وعلى تواجدها فِي العصر النّبَوِيّ.

كَـانَ لأهلِ الكتاب السّبق عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِـي توفير المصادر والمُؤَسَّسَات التّربويَّة لَـدُنْ أتباعها، لَعَلَّ مَـرَدَّ هَذَا السّبقَ يعودُ إلَى القِدَمِ فِي النّشـأةِ والتّكوينِ والتّواجدِ لأهلِ الكتابِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

تَنَوَّعَـتْ المصادرُ لَـدَى أهلِ الكتَابِ زَمَـنَ العَهْدِ النّبَوِيّ، مَا بَيْـنَ الكُتُبِ والصُّحُفِ والمجـلات، وحَسْبُهم أَنَّهُـمْ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ «أهْلُ كِتَابِ». وتعَـدّدت مُؤَسَّسَات التّربية مَا بَيْنَ الكَنَائِس والصّوامع والبيع وغيرها.

لَـمْ يتعَـرَّض الْمُسْلِمـون لمصـادر ومُؤَسَّسَات التّرْبِيَـةِ لَدَى أهل الكتـاب بسوء، بَلْ

(1) – سمير عبده: السّريان قديمًا وحديثاً، ص 67.
(2) – القفطي، (ت 646 هـ – 1248م) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 213.
(3) – عيون الأنباء فِي طبقات الأطباء 1/ 170.

قامـوا بِوَضعِ تشريعات لحماية تِلْـكَ المُؤَسَّسَات والمصادر من العبث. كعهود الصّلْح والمواثيق الَّتِي كتبَها الرّسولُ مُحَمَّدٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ[1].

يجـوز للذميـين أنْ يُعَلِّموا أولادهم وأتبـاع دينهم عقائدهـم الدّينِيَّـة، غير أنَّ الفقهاء اختلفـوا فِيمَا يجوز لَهُمْ تعليم الدِّيَانَة الإِسْلَامِيّـة، لقد أباح أَبُو حنيفة، بينما يحرم مالك عَلَـى الْمُسْلِمِيـنَ حَتَّى تعليـم اللُّغَـة الْعَرَبِيّة لأهل الذِّمَّـة[2]. والفكرة الأولـى أكثر وعيًا فِـي تحفيـز النّسيـج الإِجْتِمَاعِيّ عَلَى إنْشـاء محركات فاعلـة فِي التّعَايُـش السّلمي بَيْنَ المكونات الدّينِيَّة.

ثَمَّـةَ مَا يـدل عَلَى أنَّ الرّسول كَـانَ يشجع عَلَى تعلم اللغات الحيَّـة فِي عصره، نحو رِوَايَة زيد بن ثَابت قَالَ: «أمرنِي رَسُولِ اللَّهِ أَنْ أتَعَلَّمَ السّرْيَانِيّة»[3]، وَفِي رِوَايَة: أَنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ كِتَابَ يَهُودَ، وَقَالَ: «إِنِّي مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ». قَالَ: فَمَا مَرَّ بِيَ نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُ، فَكَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ[4].

كَانَ تعليم الصّبية القراءة والكتابة فِي الحِيرَة يتمُّ فِي كَنَائِسها[5]، وَفِي اطرافها وجدوا - إِبَّانَ مسير خَالِد بن الوليد - صبيانا، يتعلمون الكتابة فِي كَنِيسَة قرية «النّقيرة» من قرى عين التّمر[6].

وأبان الْفُتُوح توسعت دائرة الصّلات، وَلَمْ يَفْتَأْ الْمُسْلِمون من الاستعانة بالْمَسِيحِيِّينَ فِـي تعليم ابنائهم، فَقَـدْ أقدم سعد بن أبي وقاص (ت55هـ/ 675م) رجلًا نَصْرَانِيًا من أهـل الحِيـرَة مَعَهُ إِلَى المدينـة، فَكَانَ يعلِّم ولـدَه والنّاسَ الكتابَ والحسـابَ، يقال لَهُ: جفينة[7].

(1) - احمد حسن لبابنه، عصام حمد عبابنه: «مصادر ومؤسسات التربية لَدَى أهل الكتاب زمن العصر النّبوي»، كلية إربد الجامعية، أَبُو ظبي.
(2) - تامر باجن أوغلو: حقوق أهل الذمة فِي الفقه الإسلاميّ، ص24.
(3) - أخرجه التِّرْمِذِيّ فِي الجَامِع،، بَاب فِي تَعلم السّريانية، حَدِيث 2858، 7/ 498.
(4) - الملا الهروي، (ت 1014هـ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، 7/ 2951.
(5) - نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص201.
(6) - ياقوت: معجم البلدان 5/ 301.
(7) - البلاذري: أنساب الأشراف 2/ 294.

نبـغ كثيـرٌ من النَّصَارَى فِـي العصر الأُمَـوِيّ والعباسي، وظَلّت المـدارس السّرْيانِيّة مفتوحـة فِـي عهد الدّولـة الأمَوِيّـة كَمَا كَانَتْ، واشـتهر من هَـؤلَاءِ فِي العصـر الأُمَوِيّ يعقـوب الرّهـاوي (19 – 89هـ/ 640 – 708م)، الَّذِي ترجـم كثيرا من كتب الإلهيات اليُونانِيـة[1]، وَقَدْ أُثر عَنْ يعقوب الرّهـاوي أَنَّهُ أفتى رجالَ الدّين من النَّصَارَى، بِأَنَّهُ يحلّ لَهُمْ أن يُعلِّموا أولادَ الْمُسْلِمِينَ التّعليمَ الرّاقي، وَهَذِهِ الفُتيا تدل عل إقبال الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ العصر عَلَى دراسة الفَلْسَفَة عَلَيْهِمْ[2].

- المدارس الْمَسِيحِيَّة

انتقل التراث اليوناني الروماني الى الشرق، عن طريق الإسكندرية والعِرَاق وفارس، وكان فـي الإسكندرية جامعة مشهورة، كانت فخر العالم القديم، وفي الشرق الأوسط أصبحـت الرُّهَـا Edessa مركزا ثقافيا متميزًا بكثرة ما ترجمـه المسيحيّون النساطرةُ من الكتبِ الفلسفيّة والطبيّة من اليونانيَّة الى السريانيَّة[3].

أمعـنَ السريـان في نشـر الثقافة، حتـى صارت ديدنهـم، فقد تأسس في كـل مدينة؛ أو قريـة استوطنوهـا، مدرسة أو أكثـر، حتى بلغ عدد مدارسهم في بـلاد ما بين النهرين وحدهـا زهاء خمسيـن مدرسة من أرقى المـدارس وأوسعها. قال أحمـد أمين[4]: كان للسريان في ما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تُعلّم فيها العلوم السريانية واليونانية... وكانـت هذه المـدارس يتبعها مكتبات... وكـان في الأديار السريانية شـيء كثير لا من الكتـب المترجمـة في الآداب النصرانية وحدها، بل مـن الكتب المترجمة من مؤلفات أرسطو، وجالينوس، وأبقراط؛ لأن هؤلاء كانوا محور الدائرة العلمية في ذلك العصر، وكان السريان نقلة الثقافة اليونانية إلى الإمبراطورية الفارسية، ثم إلى الخلافة العباسية.

يعتقـد جـورج ســارتـون George Sarton إنَّـهُ رغـم أنَّ الإمْبِرَاطورِيَّـة الرّومانيـة

(1) - الجمل،: أثر جهود السريان عَلَى الحضارة العَرَبِيّة الإسلامية، ص45
(2) - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص132.
(3) - ج. شحاته قنواتي: تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط، ص130.
(4) - ضحى الإسلام، 2/ 59.

قَـدْ اتخـذتْ الْمَسِيحِيَّةَ دينًا بَعْدَ سنـة 313م بقليل، فَقَـدْ ظَلَّتْ المـدارسُ الوَثَنِيَّةُ قائمةً، وَبِخَاصَّةٍ الأكاديمِيَّةِ فِي أثِينَا، والمتحفِ فِي الإسكندريَّةِ. وَقَدْ كَانَتْ للمَسِيحِيَّةِ مدارسُ خَاصَّـةٌ بِهَا، لَكِنْ لا يَمْكُـنُ مقارَنَتُهَا بِنُفُوذِ المدارسِ الوَثَنِيَةِ. ويتحدَّثُ عَنْ مدرسةِ الرّها الطّبيَّـةِ الَّتِـي كَانَتْ قاطِـرَةً، أوْ طريقًا، لانتقالِ العلمِ من الإسكندريَّةِ إلَـى بَغْدَادَ، فيَقُول: «وُلِـدَ العِلْـمُ اليُونانِيُّ فِي آسْيَا الصّغرى، ثُمَّ انْتَعَشَ فِي بـلادِ اليونانِ الحقَّةِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي أثِينـا، ثُمَّ فِي الإسكندريَّة، ثُمَّ عادَ إلَى آسْيـا، فازْدَهَرَ فِي برجامون[1] والقسطينية والرّها وبغداد[2]. ومن أهمِّ المدارس:

- مدرسة الرّها:

ازدهرت هذه المدرسـة التي أنشأها ملوك الرُّهَا «الأباجرة» ازدهارًا رائعا منذ القرن الثانـي حتـى القرن الخامس للميـلاد، ونبغ فيها عـدد وافر من الأئمـة المشاهير، نذكر منهم: «برديصـان» (١٥٤-٢٠٢م)، والفيلسوف «وافا»، والعلامة «أسوانا». وفي القرن الرابـع تولى رئاسة تلـك المدرسة «مار أفرام الكبير» (ت٣٧٣م) نبي السريان، ثم ربولا أسقف الرُّهَا (ت٤٣٥م)، ثم خلفه يهيبا (ت٤٥٧م).

بعـدَ أنْ لعَـنَ مجمـع «أفَسـس» نسطوريـوس فـي عـام 431م، طُـرد النساطـرة من أكاديميتهـم «أديسـا» (الرُّهـا)[3]، ورحل كثيرٌ منهم شـرقًا الى بلاد الرافديـن[4]. وكَانَت مدرسة الرُّهَا قد اشتهرت بالعلوم اللاّهُوتِيّة الدِّينِيَّة، إِذْ تضطلع بالدراسات في مجالات مَذْهَبِيـة، وعُنِيَـت بالفَلْسَفَـة، والموسيقـى، كَمَا حظيـت الرّياضيات والعلـوم الطِّبيعيَّة

---

(1) - بيرغامون Pergamon، مدينة تاريخيّة قديمة فِي تركيا المعاصرة فِي إقليم أيوليس، وَهِيَ تبعد 26 كيلومتر عَنْ بحر إيجة. ويكيبيديا الموسوعة الحرة (بيرغامون).

(2) - مراد لمختر: «قراءة فِي كتاب العلم القديم والمَدَنِيَّة الحديثة - جورج ســارتون»، العلم القديم والمَدَنِيَّة الحديثة ANCIENT SCIENCE AND MODERN CIVLIZATION ترجمة: عبد الحميد صبرة، مركز ابن البنّا المراكشي للبحوث والدراسات، المغرب. http: / /www.albanna. ma /Article.

(3) - الرّها: مدينة بالجزيرة بَيْنَ الموصل والشّام. ياقوت: معجم البلدان 3/ 106.

(4) - سركيس أبو زيد: المسيحية في إيران، ص34.

ببعض الاهتمام – أيْضًا[1].

– مدرسة نصيبين:

أصبحت نصيبين[2]، التي حصّنها الرّومان تحصيناً قوياً، مركز كرسيِّ الأُسْقُفية، لوجود نَصَارَى فِيهَا، وأسّس مطران نصيبين مدرسة تحاكي مدرسة الإسكندريَّة فِي الفَلْسَفَة، واشتهرت مدرسة نصيبين الكبرى في القرن الرابع وعاشت حتى القرن السابع، وَكَانَتْ الغاية مِنْهَا نشر اللاهوت الإغريقي بَيْنَ الْمَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ يتكلمون السّرْيانِيَة[3]، ومزج النَّصْرَانِيَّة بالافلاطونية. وأغلقت مدرسة نصيبين، فانتقلت إِلَى الرّها، وَهَكَذَا انتقلت فكرة مزج النَّصْرَانِيَّة بالفَلْسَفَة فِي أنحاء الشّرق[4]. وساعد ذَلِكَ عَلَى نشر كتب الفَلْسَفَة اليُونانِيّة، الَّتِي ترجمها النَّصَارَى النَّسَاطِرَة[5].

فيها نبغ مار يعقوب الكبير (ت٣٣٨م) وخلفاؤه في كرسي نصيبين، وفي هذه المدرسة علَّم نرساي الشهير (ت٥٠٧م)، وباباي الكبير (ت٦٢٧م)، وغيرهما من مشاهير الأساتذة[6]. وعُرِف يوسف الأهوازي (ت44ق.ه/ 580م)، أستاذ مدرسة نصيبين، كأول نحوي سُرْيانِيّ[7]، كتب رسالة فِي النّحو، وترجم كتابًا فِي نحو اللُّغَة اليُونانِيّة إِلَى السّرْيانِيَة اسمه: «الصّناعة النّحوية»، أَوْ «فن النّحو» لليُونانِيّ ديونيسيوس ثراكس (170– 90 ق. م)[8]. كَذَلِكَ إخترعَ بعضَ علاماتٍ للشكلِ، وكتبَ رسالةً عَنْ

---

(1) – اليوزبكي، توفيق سلطان «: التعريب فِي العصرين الأُمَوِيّ والعباسي»، مجلة آداب الرّافدين، العدد السّابع، 15 تشرين الأول 1976، ص45؛ حكمت نجيب عبد الرّحمن: دراسات فِي تاريخ العلوم عِنْدَ العرب، ص21.

(2) – مدينة تقع بَيْنَ أعالي بلاد ما بَيْنَ النّهرين ضِمْنَ الجزيرة الفراتية، عَلَى طريق القوافل من الموصل إِلَى الشّام. ياقوت: معجم البلدان 5/ 288.

(3) – دي لاس اوليري: انتقال علوم الاغريق إِلَى العرب، ص 66.

(4) – احمد أمين: ضحى الإسلام، 1/ 60

(5) – اليوزبكي: «التعريب فِي العصرين الأُمَوِيّ والعباسي»، ص46

(6) – طرازي: عصر السريان الذهبي، ص16.

(7) – أحمد مختار عبد الحميد: البحث اللغوي عِنْدَ العرب (عالم الكتب، بيروت، 2003) ص 66.

(8) – Robins، R.H، General Linguistics: an introductory survey، Second edition، London: – Longman، 1971، P. 383.

الكَلِمَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ بصورةٍ واحدةٍ، ولَكِنْ يتعَدّدُ معناهَا.

يظهـر أن أهـم نشاط قام بِـهِ النَّسَاطِرَة فِي هاتيـن المدرستين، ترجمة كتـب الفَلْسَفَة والمنطـق اليُونانِيّـة إلَـى لغتهم السّرْيانِيّـة[1]. جدير بالعلـم أنَّ النّشاط الثّقافِـيّ فِي الرّها ونصيبيـن قَدْ استمَرَّ إبّانَ الفتح الإِسْلَامِيّ، وبعده حَتَّى العصر الأُمَوِيّ، حَيْثُ ساهمَ فِي نقلِ الأفكار الفَلْسَفِيَّة والمنطقيَّة إلَى الفكر الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ، بحكم الامتزاج الحضاريّ الَّذِي أدَّى إلَى إشارةِ الجدل الفِكْرِيّ بَيْنَ الْعَرَب الْمُسْلِمِينَ وأهل البلاد المفتوحة[2].

- مدرسة حَرَّان:

حَـرَّان مدينة عاصرت اليونـان والرّومان والنَّصْرَانِيَّة والإِسْـلَام، سكانها من الْعَرَب والسّريان والأرمن والمقدونيين[3]. وأنشئت فِي حَرَّان مدرسة وَثَنِيّة لا يُعْرَفُ شـيءٌ عَنْ تأسيسهـا، كَانَتْ مركزاً للثقافة اليُونانِيّة، الَّتِي تمثلت بالدّيـن اليُونانِيّ الوَثَنِيّ، والفَلْسَفَة الافلاطونية المحدثة[4]. فَضْلاً عَنْ شهرتها فِي العلوم الرّياضية والفلكية[5]. ولعلَّ عبادة كثيـر مـن الحَرَّانيين للكواكب، واعتمـدت معبدًا لكلِّ سبعة كواكـب[6]، زاد من عنايتها بعلم الفلك ودراسة مواقع النجوم.

استمَرَّ الحَرَّانِيُّون فِي مُمَارَسَة نشاطهم الفِكْرِيّ والعلميّ حَتَّى ظهور الإِسْلَام، وبَعْدَ حركـة الْفُتُـوح، أصبحت حَرَّان منبعاً مـن منابع الثّقافـة اليُونانِيّة فِي العهـد الإِسْلَامِيّ، واتصلـت مدرستهم بالخلفاء العباسيين، وَكَانَ لها شـأن كبير فِي نشـر الثّقافة اليُونانِيّة، وَفِي ترجمة كثير من الكتب عَنْ اليُونانِيّة[7].

أشـار أبن النّديـم[8] إلَى أسمـاء الصّابئة الحَرَّانييـن ممن تعاقب عَلَى كرسي رئاسة

(1) - اوليري: انتقال علوم الاغريق إلىَ العرب، ص68

(2) - فاضل خليل إبْرَاهِيم: خَالِد بن يزيد سيرته واهتماماته العِلْمِيَّة، ص ١٨٧.

(3) - اليوزبكي: م. س.، ص45.

(4) - اوليري: الفكر العَرَبِيّ ومركزه فِي التاريخ، ص ٢٥٩.

(5) - احمد أمين: ضحى الإسلام، 1/ 259.

(6) - حسين توفيقي: دروس فِي تاريخ الأديان، ص110.

(7) - اليوزبكي: م. س.»، ص45

(8) - ابن النّديم: الفهرست، ص 296.

الصّابئـة فِـي الإِسْلَام، مِنْذُ عهد عبد الملك بن مروان، كَمَا ظهر أثرهم فِي الفكر الْعَرَبِيّ الإِسْلَامِيّ، واشـتهرت حَـرَّان بالفلك والرّياضيـات والفَلْسَفَة، وَكَـانَ اهتمام أهلها من الصّابئيـن والوَثَنِيّين بالفلك والرّياضيات، يعود إِلَى عبـادة النّجوم والكواكب السّيارة، والاهتمام بمواقعها وحركاتها، وضبط أزمانها، وَقَدْ برز نخبةٌ من أساتذتها وخريجيها، وأدّوا دوراً كبيـراً فِي تعريب علوم اليونان فِي الفلـك والرّياضيات والطّب، فِي القَرْنين (2، 3هـ/ 8، 9م)[1].

- مدرسة الإسكندريّة:

الإسكندريّـة مهْـدُ الأفلوطينيّة[2] واللاهـوت، وأكاديميَّة الإسكندريَّـة الَّتِي أنشأها البطالسَـة، ورثت بإزائها الْمَسِيحِيَّـة كثيرًا من الفلسفتيـن: «الفيثاغوريّة[3] والأفلاطونيّة المحدثة»، وَقَدْ مال إِلَيْهَا مِنْذُ بدء عهدها جمهور من كبار المفكرين البارزين فِي العالم الرّومانـي الهِلِينِـيّ؛ ففـي مدينة الإسكنرية كَانَتْ تلتقي التيـارات الفِكرِيَّة مـن: يَهُودِيَّة ومَسِيحِيَّـة ووَثَنِيّـة، فتصطرع حينًـا، وتتفق حينًا آخر. تألفت مدرسـة فِكرِيَّة تعنى بتعليم العقائد الدّينِيَّة، وإليها يُعزى الفضل فِي تقدم الْمَسِيحِيَّة الفِكْرِيّ[4].

ظَلَّـتْ مدرسَـةُ الإسكندريَّة تُعَلِّـمُ النّاسَ مَـدَى أرْبَعْمَائَةِ عام[5]، وحافَظَـتْ - جُمْلَةً - عَلَـى الفَلْسَفَة اليُونانِيَـة، واسْتَحْدَثَتْ لِنَفْسِهَا فَلْسَفَةً جَدِيدَةً، هِـيَ مَزِيجٌ مِنَ الْمَسِيحِيَّة والفَلْسَفَة القديمة، وَكَانَتْ الدّراسة فِيهَا باليُونانِيّة، ثُمَّ شاركتها السّرْيانِيّة فِي أواخر العهد

(1) - مِنْهُمْ أَبُو عبد الله البتاني وَهُوَ أحد المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين فِي علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحساب النّجوم، وثابت بن قرة (ت٢٨١ ه / ٨٩٣ م) أهم من عرف فِي مدرسة حران إِذْ كَانَ يجيد اليونانية والسّريانية والعبرية، وحنين بن أسحق وقسطا بن لوقا وأولاد شاكر وغيرهم. اليوزبكي: م. س. ص45.

(2) - نسبة إِلَى افلوطين Plotinus (ت270م)، فيلسوف اسكندراني، صاحب مذهب « الافلاطونيه الجديده. ويكيبيديا الموسوعة الحرة (افلوطين).

(3) - فيثاغورس Pythagoras (580 - 500 ق. م) عالم رياضيات يوناني، أنشأ مدرسة فِي إيطاليا لمناقشة موضوعات فَلْسَفِيَّة. ويكيبيديا الموسوعة الحرة (فيثاغورس).

(4) - الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، م. س. ص 223.

(5) - ديورانت: قصة الحضارة، م. س. 11 / 113.

الرّومـان. وَفِي القـرن الأوّل الهِجْرِيّ/ السّابـع المِيلادِيّ كَانَ اصطفـن الاسكندراني، فيلسوف بلاط الإمبراطور هرقل، أشهر المعلمين فِي الإسكندريَّة[1].

قَـالَ ابـن القفطـي (ت646هــ/ 1248م)[2]: «والإسكندرانيـون هُـمْ الَّذِيـنَ رتبـوا بالإسكندريَّـة دار العلم ومجالسّ الدّرس الطّبـي، وَكَانُوا يقرأون كتب جالينوس (130 - 200م)، ويرتبونها عَلَى هَذَا الشّكل الَّذِي يقرأ اليوم عَلَيْهِ، وعملوا لَهَا تفاسير وجوامع تختصر معانيها، ويسهل عَلَى القارئ حفظها وحملها فِي الأسفار، فأوَّلهم عَلَى مَا رتبه إسحـاق بن حنين (215 - 298هـ/ 830 - 910م): اصطفن الإسكندراني، جاسيوس، انقيـلاؤس، مارينوس. فهَؤُلَاءِ الأربعة عمدة الأطباء الإسكندرانيين، وَهُمْ الَّذِينَ عملوا الجوامع والتّفاسير».

وَمِمَّا لَا شَـكَّ فِيهِ أنَّ هَذِهِ المدرسةَ كَانَتْ لا تزالُ قائمةً حِينَ فتح الْعَرَب مِصْرَ. وَقَدْ اتَّصَلَ الْعَرَبُ مباشـرةً بهذهِ المدرسةِ، مِنْذُ خَالِد بن يزيد بن معاوية (ت85هـ/ 704م)، الَّذِي أمرَ بإحضارِ جماعةٍ مِن علمائِها، لترجمةِ مَا عِنْدَهم مِن كُتُبٍ فِي الكيمياء[3]. ومِن الأطبَّـاءِ الَّذِينَ اتصلوا بخلفاءِ بنِي أُمَيَّةَ، وخَدَمُوهُمْ، عبد الملك بن أبجر الكناني، وَكَانَ من الأطباءِ المشهورينَ فِي مدينةِ الإسكندريَّة[4].

- مدرسة أنْطَاكِيَةَ:

قـام يوسطاثيوس أُسْقُف أنْطَاكِيَةَ بتأسيس مدرستها - حوالَى القَرْن الرّابع المِيلادِيّ - عَلَـى نمط مدرسة الإسكندريَّة[5]، أمَّا تاريخُها فَلَمْ يَسِرْ عَلَى وتيرةٍ واحدةٍ، ففي أوائل عهدهـا نُفِـيَ مُؤَسِّسُها سنة ٣٣١م، إلَّا أنَّهـا استمرت إلَى سنـة ٣٧٩م، حَيْثُ تشتت بَعْدَ

(1) - ماكس مايرهوف Max Meyerhof: «من الإسكندرية إلَى بغداد» - بحث فِي تاريخ التعليم الفَلْسَفِيّ والطبي عِنْدَ العرب، ترجمة: عبد الرّحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ص43.

(2) - أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 60.

(3) - القفطي: م. ن. ص60؛ شوقي ضيف: الفن ومذاهبه فِي الشّعر العَرَبِي، ص 460.

(4) - عبد الشافى مُحَمَّد عبد اللطيف: السّيرة النّبوية والتاريخ الإسلاميّ، ص 337.

(5) - أوليري: انتقال علوم الاغريق إلىَ العرب، ص62.

ذَلِـكَ، إلَـى أن قام الْأُسْقُف ثيودور بإحْيَـاءِ الدِّرَاسَةِ فِيهَا مَعَ بَعْضِ الطَّلَبَـةُ، الَّذِينَ الْتَفُوا حَوْلَهُ إلَى سَنَةِ ٣٩٢م.

وَكَانَتْ أنْطَاكِيَةَ ومدرستها مركزاً للثقافة العِلْمِيَّة اليُونانِيّة، إشْتَهَرَتْ بِدراسَةِ اللاهُوتِ والفَلْسَفَـةِ، فَضْـلَا عَنْ الطِّبِّ الَّـذِي كَانَ بِيَدِ رجـال الدّين[1]. يبدو أن هَـذِهِ المدرسة قَدْ تأثـرت بالخـراب، الَّذِي ألَـمَّ بأنْطَاكِيَةِ قُبيل الفتـحِ الإِسْلَامِيّ، بفعـل هجمات الفرس، والكوارث الطّبِيعيَّة، وَقَدْ أحياها الأُمَوِيّون بنقلهم مدرسة الإسكندريَّة[2].

ثمـة مدارس للسريان فـي أنطاكية ازدهرت، غيـر مدرستها الكبـرى، نحو: مدرسة ديـر «مـار بسوس» الذي سكن فيه أيام عزه ستـة آلاف وثلاثمائة راهب، ثم مدرسة دير «تلعدا» الذي أنشئ في القرن الرابع، ومدرسة دير «الجب» الخارجي وغيرها. واشتهر فـي تلك المدارس إسحـاق الأنطاكي الكبيـر (ت٤٦٠م)، والبطريركـان بولس الثالث (ت٥٧٥م)، وبطرس الثالث (ت٥٩١م)[3].

ساهمـت الأَدْيِـرَة والمكاتب الصّغيـرة – فَضْلًا عَنْ المدرسة– فِـي أنْطَاكِيَةَ بدراسة اللاهـوت، وأحيـاء اللُّغَة اليُونانِيّـة وتراثها. ومن ابرز مـن درَّس – فِي هَـذِهِ الأَدْيِرَة فِي العصـر الأُمَـوِيّ – يعقـوب الرّهـاوي، الَّذِي كَـانَ استاذاً لمـدة أحد عشر عامـاً فِي دير يوصبيونـا فِي أنْطَاكِيَـةَ[4]. ويبدو أنَّ دورَ هَذِهِ الأَدْيِرَة فِي الحقبة الأُمَوِيّة، يكمن فِي نقلها للأفكار والفلسفات اليُونانِيّة إلَى الْعَرَب.

- مدرسة قِنَّسْرين[5]:

قامت مدرسة قِنَّسْرين المُتَمَثِّله فِي ديرها[6] فِي القَرْن السّادس، وذاعت شـهرتُها فِي

(1) – فاضل خليل إبْرَاهِيم: خَالِد بن يزيد سيرته واهتماماته العِلْمِيَّة، ص31.
(2) – م.ن. ص31.
(3) – طرازي: عصر السريان الذهبي، ص16.
(4) – اوليري: الفكر العَرَبِيّ، ص 46
(5) – قِنَّسْرين: بكسر أوله، وفتح ثانيه وتشديده، ذكرها بطليموس، وقصبتها حلب فِي شمالها. المقدسي: أحسن التقاسيم فِي معرفة الأقاليم، ص154؛ ياقوت: معجم البلدان 4/ 403. قِنَّسْرين لفظ سرياني مركب من كلمتين ومعناه «وكر النّسور»
(6) – يقع الدير عَلَى الضّفة الشّرقية لنهر الفرات، وَقَدْ تأسس الدير حوالى 530م. افرام برصوم: اللؤلؤ

القَرْن السّابع، وبقيت مزدهرة حَتَّى القَرْن التّاسع المِيلادِيّ، وَكَانَ التّعليم فِيهَا باللغتين اليُونانِيّـة والسّرْيانِيّة، وَكَانَتْ تُدْرّسُ فِيهَا آدابُ اللُّغَة اليُونانِيّة بشكل خاص، وتعلّم فِيهَا العلوم اللُّغَوِيَّة والأَدَبِيَّة والكِتَابِيّة والمنطقيَّة والفَلْسَفِيَّة والطّبِيعيَّة واللاّهُوتِيّة والفقهيَّة[1].

وَكَانَ لمدرسة دير قِنّسْرين أثر كبير فِي نقل بعض العلوم اليُونانِيّة فِي مجالاتها المتَنَوِّعة، وترجمتهـا إِلَى اللُّغَة السّرْيانِيّة، ثُمَّ تُرْجِمَ مَا نُقِلَ فِيمَا بَعْدُ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيّةِ، ولاسِيَّمَا فِي العصرِ العباسيّ[2]. ومِنْ أَبْرَزِ عُلَمَاءِ هَذِهِ المدرسةِ:

- توما الحرقلي «Thomas of Harkel» مطران منبج، وهو من قام بترجمة العهد الجديد عـن اليونانية الى السريانية سنـة 616م، وعُرفت بـ«الترجمـة الحرقلية Harklean»، وهى ترجمة حرفية[3].
- «ساويـرا سابوخـت »(ت47هــ/ 667م) وَكَـانَ قَدْ جمـع بَيْنَ الاهتمـام بالدّراسات الدّينِيَّـة والتّبحـر فِي دراسة الفَلْسَفَـة والرّياضيات وعلم الفلـك، وله مصنفات فيها، وعلى يده وصلت الأرقام الهنديّة الى العرب[4]. وَكَمَا تتلمذ «لساويرا »عدد كبير من التّلاميذ فِي مدرسة دير قِنّسْرين.
- يعقـوب الرّهـاوي (ت89هــ/ 708م) تلميـذ ساويـرا، الَّـذِي يعـد ظاهـرة فـذة بَيْنَ المفكريـن السّريان، حَيْثُ تميز بسعة معارفه العِلْمِيَّة وتَنَوُّعها[5]، واشـتملت مؤلفاته عَلَـى دراسـات دِينِيَّة وفَلْسَفِيَّة ولُغَوِيَّـة وتاريخيّة وأَدَبِيّة[6]، وَهُـوَ صاحب أَوّلِ مُؤلَّف

المنثور فِي تاريخ العلوم والآداب، (بغداد 1976م)، ص 20.

(1) - اوليري، دي لاس: الفكر العَرَبِيّ ومركزه فِي التاريخ،، ص45؛ غريغوريوس يوحنا إِبْرَاهِيم: المراكز الثّقافِيّة السّريانية، ص11 - 12.

(2) - عبد الرّحمن بدر الدين: «قِنّسْرين أَوْ عش النّسور»، مجلة التراث العَرَبِيّ، العدد ٩٨ حزيران ٢٠٠٥ م، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(3) - سركيس أبو زيد: المسيحية في إيران، ص108؛ تادرس يعقوب ملطي: «كتاب القديس أفراهاط الحكيم الفارسي: حياته، كتاباته، أفكاره»، 15، موقع: كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي القس، الإسكندرية.

(4) - أبو زيد: م. ن، ص108.

(5) - مراد كامل، مُحَمّد حمدي البكري، زكية مُحَمّد رشدي: تاريخ الأدب السّرياني، ص 261 - 275.

(6) - ألبير أبونا: أدب اللُّغَة الآرامية، ص 368.

للنحـو عِنْدَ السّريـان، والذّي من خِلَالِه وضعت القواعد والضّوابـط للغة السّرْيانِيّة، وإليـه تُنْسَـبُ الحركات الخَمْسُ، المُعَبّر عَنْهَا بصُوَرِ أَحْـرُفَ يُونانِيّةٍ صغيرة وهى: (ً ٌ)[1]. وَهُـوَ يعاصر «أبو الأسود الدّؤلي» (- 69هـ/ 689م) أَوّلَ من وضع النّحو للغة الْعَرَبِيّة[2]، وشـكل الحروف برموز الحركـات القصيرة، إِذْ جعـل الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة تَحْتَ الحرف، والضّمة نقطة عَلَى يسار الحرف[3].

- أتناسيـوس البَلَـدِي (ت67هـ / 687م) رُقّيَ إلَـى البِطْرِيَكية عـام 684م، كَرّسَ نفسَه لترجمـةِ الأعمـالِ اليُونانِيّـة الفَلْسَفِيّـة واللّاهُوتِيّـة، مثل: ايساغوجـي لفورفوريوس الصُّـورِيّ، وترجمـات أغريغوريـوس النّزيانـزي، وَلَـهُ رسالـة عَامّـة عَـنْ عَلاقَـات الْمَسِيحِيّنَ بالمُسْلِمِينَ[4].

- مـار جرجـس (جورجيـوس) (ت 106هــ/ 724م)، أسقـف حـوران، وَهُـوَ عربيّ الأصل، لُقّبَ بـ«أُسْقُف القَبَائِل الْعَرَبِيّة»، أو «أسقف العرب»[5]. عُيّنَ مطْرَانا لجماعة الْعَرَب أصحاب الطّبيعَة الواحدة عام 687م فِي أَبْرَشِـيّة تضم العاقوليّين، والطّائيّين، والتّنوخيّـن، والتّغلبيّـن، وعَـرَبَ الجَزِيْـرَة، وَذَلِـكَ فِي مَـا بَيْنَ النّهريـن فِي أسقيفة العاقـولا (الكوفة). وَكَانَ تَلْمَـذَ عَلَى يعقوب الرّهاوي فِي دير قِنّسْرين، ونال شـهرة كبيرة كعالم لُغَوِيّ ومُفَسّر، وترجم أورجانون أرسطو[6].

- مدرسة جنديسابور:

جنديسابـور: مدينـة تقع فِي خوزستان، أسسها شـابور الأول (241 - 272م)، وإليه تنسـب، وكان قد توغـل في أراضي الامبراطوريـة الرومانية، وحقـق انتصارات باهرة،

---

(1) - غريغوريوس يوحنا إبْرَاهِيم: المراكز الثّقافِيّة السّريانية، ص 15.
(2) - ابن النّديم: الفهرست، ص 62.
(3) - رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات في اللُّغَة، (مكتبة الخانجي، القاهرة، 1995) ص 176.
(4) - مراد كامل، مُحَمّد البكري، زكية رشدي: م. س. ص276.
(5) - سركيس أبو زيد: المسيحية في إيران، ص108.
(6) - اوليري: علوم اليونان ١٩١ - ١٩٢؛ مراد كامل: م. ن، ص276؛ بدر الدين: قِنّسْرين أَوْ عش النّسور ص ٢٤٦.

ولاسيما في معركة «أديسا» عام 259م، التي أسر فيها الإمبراطور الروماني فاليريون (253 - 260م)، وأسكن الأسرى الرّوم «جنديسابور»، وَبِخَاصَّةٍ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى جانب كبير من الثّقافة والخبرة الفنية، وَكَانَ يؤمّل استخدامهم مهندسين ومعماريّين وأطباء، وسمح لَهُمْ باستعمال لغتهم وإتباع ديانتهم. كَمَا سمح لَهُمْ ببناء الكَنَائِس، فتَمَتّعوا بالْحُرّيَّة أكثر مِمَّا كَانَ يسمح لَهُمْ تَحْتَ حكم الإمْبَراطورِيَّة الرّومانية[1]. وأسس فِيهَا كِسْرَى انوشروان مدرسة للطب، كَمَا أنشأ فِيهَا بيمارستان، وأول من علم بِهَا الطّب من اليونان والهنود، فالتّقت فِي هَذِهِ المدرسة الثّقافة اليُونانِيّة والهنديَّة والفارسيَّة، كَمَا ازدهرت بتأثير الدِّيَانَة الْمَسِيحِيَّة[2]. ومن مآثر كسرى، أنّه عمل على إرسال أطبائه الى الهند، بحثا عن المصنفات الطبيّة الهندية، والتي ترجمت من السنسكريتية الى الفارسية، وقد ترجم كثيرا من الأعمال العلمية الأخرى من الإغريقية الى الفارسية والسريانية[3].

واصلتْ هَذِهِ المدرسةُ نشاطَها العلميَّ بَعْدَ الفتحِ الإِسْلَاميِّ، وزادَ إتصالُها بالمُسْلِمِينَ فِي العصرِ العباسيِّ، واشتهرَ مِن أساتذتِها وطلابِها: جرجيسُ بن بختيشوع (ت154هـ/ 771م) الطّبيبُ، يحيَى بن البِطْرِيق الَّذِي إخْتَصَّهُ المنصورُ للقيامِ بالتّرجمةِ[4].

كان العلماء النساطرة بعد الفتح بقليل، ولاسيما الأطباء منهم، يستعملون اللغة العربية، بحكم قربهم من الحيرة، وانتشار العرب في مدنهم، فضلا عن الفارسية والسريانية. ومن هنا كانت إسهامًا في تنامي مواهب النساطرة اللغوية والمعرفية، في منطقة متعددة الثقافات والسير مع التيارات العلمية الجديدة، مع الاحتفاظ بالتراث القديم. كل هذا جعل النساطرة خيرة الوسطاء لنشر الثقافة اليونانية الرومانية بين العرب[5].

---

(1) - ديموميين، موريس غود فروا: النّظم الإسلاميّة، ترجمة: صالح الشّماع(مطبعة الزهراء - بغداد 1952م).

(2) - ديورانت: قصة الحضارة 13/ 215.

(3) - سركيس أبو زيد: المسيحية في إيران، ص105.

(4) - اليوزبكي: «التعريب فِي العصرين الأُمَويّ والعباسي»، ص47.

(5) - ج. شحاته قنواتي: تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط، ص132.

للنَّسَاطِرَة حظٌ وافرٌ فِي الكتابةِ والتّرجمةِ والأدبِ، وازدهـرتْ حياتُهم الفِكرِيَّةُ بَيْنَ القَرْنينِ (1 - 3هـ/ 7 - 10م)، وَكَانَتْ مؤلفاتُهم تَتَضَمَّنُ نَشْرَ سيرةِ القديسينَ وكَنَائِسِهم، والتّاريخَ الْكَنَسِيَّ، ورسائلَ التّصوفِ. أمّا حركةُ الترجمةِ مِن اليُونانِيّةِ إلَى السّرْيانِيّةِ فكانتْ ذاتَ منحًى علميٍّ، يتوافقُ مَعَ الحاجاتِ الثّقافِيّةِ المُتّسِعَةِ للعَالَمِ الإِسْلَامِيّ[1]، ومِن أشهرِ أعلامِهم:

- بابى الأرشمندريت (باباي الكبير): تمكن مِن الإِدَارَة الْكَنَسِيّة النَّسْطُورِيَة (607 - 627م)[2]، كَانَ بابى مكثرا فِي التّأليف، نسب إِلَيْهِ أكثر من اربعة وثمانين عملا، تشمل: شرح الكتب المقدسة، والاعياد، ورسالة عَنْ اتحاد الطّبيعتين، وقوانين الرّهبان والقسس[3].

ومِن النَّسَاطِرَة ثَمَّةَ علماء أعلام كثيرون تخرجوا من مدرسة نصيبين، أسهموا بدور فاعل فِي الحركة الفِكرِيَّة والعِلْمِيَّة وحركة التّأليف[4]، إِبَّانَ القَرْن الأَوّل الهِجْرِيّ/ السّابع المِيلادِيّ، ولاسِيَّمَا من تلاميذ ابراهام الكشكري الكبير (ت588م)[5]، ومن أشهرهم: برعيتا (ت621م)، كيوركيس، باباي برنصيبنايي (الصّغير)، ساهروي، إيليا الحيري، يوحنان داذرمه، حنانيشوع من وجوه الحِيرَة، يحنان نحلايا، سبريشوع، وغيرهم[6].

ومِن اليَعَاقِبَة الَّذِينَ أسهموا فِي تَطَوّر الحركة العِلْمِيَّة إِبَّانَ القرن الأَوّل الهِجْرِيّ/ السّابع المِيلادِيّ: سويرس سيبوخت «Sawiros Sebokht» (ت47هـ/ 667م)، وتلميذاه: اثناسيوس البلدي الَّذِي اشتهر بالمنطق الارسطالي، ويعقوب الرّهاوي (ت89هـ/ 708م)، وجورجيوس (ت106هـ/ 724م) أُسْقُف الْعَرَب الْمَسِيحِيِّينَ

(1) - مراد كامل: تاريخ الأدب السّرياني، ص276.
(2) - ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السّريانية الشّرقية، 183، 190.
(3) - آدي شير: تاريخ كلد وآثور 2/ 286، 320؛ مراد كامل: م. س. ص282 - 284.
(4) - انظر: شير: م. ن. 2/ 316 - 327.
(5) - آدي شير: م. ن. 2/ 284.
(6) - للتزود انظر: آدي شير: م. ن. 2/ 286 - 291.

فِـي حـوران (سوريـا)، وتلميذ هذيـن الأخيرين، وَقَدْ اشـتهر كشارحٍ ومترجـمٍ لمنطقِ أرسطو[1].

أَمَّـا الملكيُّـون، الَّذِينَ هُـمْ أصحاب ثقافـة رومانيَّة يُونانِيّـة، فَلَمْ يعيشـوا العزلة، بَلْ اندمجـوا شـيئا فشيئـا فِـي العالـم الْعَرَبِـيّ، وعرَّبـوا الليترجيا تعريبـا كامـلا، مُبينين أن الْمَسِيحِيَّة يمكن ان تعيش جنبًا إِلَى جنب مَعَ الإِسْلَام، فِي جو ثَقافِيّ عربيّ[2].

ومـن المدارس الشّهيرة فِي القَرْنين السّادس والسّابع - بَعْدَ: أورهاي، وقطسفون[3] (المدائـن) - مدرسـة أرزون، وبيـت عيناثـا، وبلد، وأربيـل، وكرخ سلـوخ، والحِيرَة، وكشكـر[4]، وميشـان، وغيرها[5]. كرَّس الجاثليـق «باباي» حياته لبنـاء المدارس وأخذ ينظِّمهـا، ويتعهّدها بالأمـوال والإِدَارَة والمدرسين، فبنى أكثر مـن ستين مدرسة، وأقام فِي جوار بغداد - قَبْلَ أنْ تكونَ عاصمة المملكة الْعَرَبِيّة - مدرسة كليليشوع، أَوْ مدرسة الجاثليق[6].

إِلَـى جانب المـدارس المشهورة - بحَسَـبِ مايرهـوف Meyerhof[7]: كَانَتْ هُنَاكَ مدارس فِي الأَدْيِـرَة، ذات طبيعة لَاهُوتِيَّة دِينِيَّة، وتسمح بدراسة العلوم الدّنيوية، وَهِيَ:

---

(1) - «ماكس مايرهوف Max Meyerhof: من الإسكندرية إِلَى بغداد» م. س. ص55؛ قنواتي: المسيحية والحضارة العَرَبِيّة، ص94.

(2) - كيرلس سليم بسترس: «المطران سليم غزال وتقليد كنيسة الرّوم الملكيين الكاثوليك فِي الحوار المسيحيّ الإسلاميّ»، سلسلة دراسات ووثائق اسلامية مسيحية، رقم 14، كلية العلوم الدينية، جامعة القديس يوسف، بيروت، ص41.

(3) - فيها نشأ ططيانس السرياني الأشوري (ق2م)، مؤلف كتاب «الدياطسرون». طرازي، فيليب: عصر السريان الذهبي، ص16؛ أبو زيد: المسيحية في ايران، ص 107.

(4) - كشكر او كسكر: (بالسريانية: حعحة) بلدة تاريخية على نهر دجلة بسواد العراق (قرب بلدة الحي المجاورة للكوت). بناها شابور الأول الساساني، كمركز لتوطين الأسرى الروم، خلال حملاته في سوريا الرومانية، في (ق3م). ورد ذكرها في كتاب أعمال الرسول أدي، كإحدى أولى البلدات التي اعتنقت المسيحية. كما عرفت كمركز لأبرشية عامرة لكنيسة المشرق، ضمن بطريركية سلوقية - قطيسفون. موسوعة ويكيبيديا (كسكر)

(5) - انظر: آدي شير: م. س. 2/ 296 - 297.

(6) - ماري: اخبار فطاركة كرسي المشرق، ص129؛ روفائيل بابو: تاريخ نصارى بغداد، ص65.

(7) - ماكس: «من الإسكندرية إِلَى بغداد»، ص54.

النّحو، والبيان، والفَلْسَفَة، والمنطق، والطّب، والرّياضيات، والفلك، والموسيقى. ومن أشهرها: مدرسة دير القديس أفثنيوس فِي قِنِّسْرين بسوريا، الَّتِي كَانَ أوج ازدهارها فِي العصر الإِسْلَامِيّ؛ ومدرسة «رأس العين» (رشعينا) بدير «قرقفا»، قرب قرية المجدل على نهر الخابور، عرف منها «سرجيس الراسعيني» (ت536م) إمام عصره في الطب والمنطق والفلسفة، وأول النقلة من اليونانيّة الى السريانيّة[1]؛ ومدرسة دير «قرتمين»، تاسست سنة 397م في «طور عبدين» اشتهر رهبانها بصنع الرقوق، وتجويد الخطوط، وتجديد الكتابة «السطرنجيليّة»[2]، وظل هذا الدير زاهرا حتى القرن 6هـ/ 12م[3]؛ مدرسة دير مار متي: الواقع بالقرب من الموصل، انشئ هذا الدير في اواخر القرن الرابع، وظل مزدهرا حتى القرن 7هـ/ 13م[4].

لَعَلَّ أهمَّ أثرٍ للمدارسَ الْمَسِيحِيَّةِ فِي الإِسْلَامِ أَنَّها أسْهمتْ فِي رَفْدِ التّفاعُلِ الثّقافِيِّ، وتَنْمِيَةِ الإندماجِ الِاجْتِمَاعِيِّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ فِي بيئةِ القرن الأوّل الهِجْرِيّ/ السّابع المِيلادِيّ، إِذْ تدلُّنا فَتْوَى يعقوبِ الرّهاويّ بِأَنَّهُ أجازَ للنَصَارَى تعليمَ الْمُسْلِمِينَ[5]، عَلَى ارتقاءِ الاندماجِ الِاجْتِمَاعِيِّ فِي مجالِ التّربيةِ والتّعليم، فَهِيَ أشْبَهُ بتجرِبةِ الوفاقِ التّربويّ فِي لبنانَ اليوم، فِي إِدَارَة مدارسَ تستقطبُ أبناءَ مُخْتَلف الدِّيَانَات[6].

---

(1) - سركيس أبو زيد: المسيحية في ايران، ص108.

(2) - الخط المفتوح أو الثقيل، ويقال له الأسطرنجيلي (بالسريانية: ܐܣܛܪܢܓܠܝܐ) هو أحد خطوط السريانية الثلاثة، ويعتبر أقدمها. استخدم هذا الخط حصريا بكتابة الأناجيل السريانية ولعل أبرز مخطوطة كتبت به هو إنجيل البشيطتا في القرن الثاني الميلادي. يختلف الباحثون في أصل تسميته، فبعضهم يعزيه إلى اللفظة السريانية ܣܪܛܐ ܐܘܢܓܠܝܐ سَرطا إيوَنجليا، أي «خط الإنجيل» بينما يعتقد آخرون بعودته إلى اليونانية στρογγύλη سترونجيلي بمعنى «المدور» نسبة إلى شكله. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة (اسطرنجيلي).

(3) - فيليب دي طرازي: عصر السريان الذهبي (هنداوي، القاهرة،2012) ص14؛ أبو زيد: م. ن. ص109.

(4) - نزار الديراني: «المدارس والمكتبات السريانية من القرن الثالث الى القرن الثالث عشر»، موقع بوابة نر كال http: / /nirgalgate.com /nirgal /feeds.php?lang.

(5) - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 133.

(6) - انظر: انطوان مسرة: «النّظرية العامة فِي النّظام الدستوري اللبناني» - أبحاث مقارنة فِي انظمة المشاركة، ص255 - 292.

- المكتبات

لا يمكـن تصور وجود هكذا مدارس راكزة في الذاكـرة الحضاريّة، دون ان تلتمس لهـا العنايـة الفائقة في الكتاب والمكتبات، وكَـانَ للمَسِيحِيِّينَ - فِي نشر الكتاب - اليد المبسوطـة، ولاسِيَّمَـا حِيـنَ اتخـذوا مواطن آمنة مـن بَعْـدَ التّهجير الطّائفـي والإقصاء الَّـذِي واجهته النَّسْطُورِيَّةَ واليَعْقُوبِيَّةَ والقبطِيَّة، وتخصيـص كيانات ثَقافِيَّة دِينِيَّة عمادها المكتبـات المنتشرة فِي مدارس جنديسابـور والرّها وقِنَّسْريـن والإسكندريَّة، فَقَدْ كَانَ لهـا الأثر البالغ فِي إرساء الثّقافة الإنْسَانِيَّة فِي القرون الإِسْلَامِيّة الأولى، فقامت بإزائها المكتبات الكبيرة فِي الشّام وبغداد وبُلْدَانِ الشّرق الإِسْلَاميّ.

لعـل مـن أهم المكتبـات ما أودعـه السريان في عصرهـم الذهبيّ، فكانـت عديدة، تزخـر بالمخطوطـات التي نمقتها قديمًـا أيدي العلماء والمؤلفيـن والنساخ في اللسان السرياني؛ نحو: مكتبة الرُّهَا المَلَكِيَّة، مكتبة المفارنة في تكريت، مكتبة آمد (ديار بكر)، مكتبة مذيات في(طور عبدين)، مكتبة دير مار متى الشيخ، مكتبة دير قرتمين، مكتبة دير والدة الله في وادي النطرون بمصر، تأسست قبل 603م[1].

لعبـت عوامـل التعرية، وعبـث المتسلطين الجاهليـن بقيمة الحضـارات، دورًا في اندثار مكتبات كبرى. ثمّة أخبار تنبئ بأنْ أُحْرِقَتْ مدادٌ أو أُغرقت - إبَّانَ الْفُتُوح - مثلما أُهرقـت دمـاء. أمَّا مَا قيلَ عَنْ حادثتي حرق كتب فِي فَارِسَ والإسكندريَّة، فإذا ما صحَّ، وإنْ كَـانَ فعـلا عَنْ نِيَّة صادقةٍ، تجـاه المباني الفِكرِيَّـة الإِسْلَاميّة والحفـاظ عَلَيْهَا، فإنَّهُ يبقـى محاولة إنهـاك التّمازج الفِكْرِيّ والثّقافِيّ مَعَ تـراث الحَضَارَات السّابقة، وإرهاق لمسيـرة الدَّولَـة العَرَبِيَّة، سجلت على إثره قطيعة حضاريـة. وَقَدْ انتبهت إلَى حالها هَذه من القطيعة مَعَ السّلسلة الحَضَارِيَّة فِي نهاية القَرْن الثّاني، أي فِي عصر المأمون وعصر التّرجمة، ونقل المعرفة، الَّذِي كَانَ رواده الْمَسِيحِيّون السّريان.

لَعَـلَّ أقدمَ مَنْ أوردَ خَبَرَ حرقِ مكتبةِ الإسكندريَّةِ هُوَ عبدُ اللطيف البَغْدادي (557 -

(1) - لزيادة المعرفة عن المكتبات، انظر: طرازي: عصر السريان الذهبي 108 - 113.

629هـ/ 1162 - 1231م)، قَالَ[1]: «وَفِيهَا خزانـةُ الكتبِ الَّتِي حرقَها عمرو بن العاص بأمـرِ مِـن عمـرَ بن الخطّـاب. ونقـلَ أَبُو الفـرج الملطـي (ت686هـ/ 1287م) روايته عَـنْ جمـال الدّين القفطـي (ت646هـ/ 1248م) فِـي ترجمة يحيى النّحـوي المَصْري الإسكندرانـي الحكيم، الَّذِي عـاش إِلَى فتح الْمُسْلِمِينَ مِصْـرَ والإسكندريَّة، واستطاع بقُـوَّة منطقه وحُجَجِهِ أنْ ينال إكرام عمـرو بن العاص، ويحظى بملازمته؛ وتداولا يوما الكَلَام عَنْ كتب الخزانة الإسكندريَّة، وشرح لَهُ يحيى كَيْفَ جمعت وتَنَوَّعَتْ فِي علوم الحَضَـارَات، مِمَّا استكبر عمرو مَا ذكـره وعجب مِنْهُ، ثُمَّ سأله يحيى أنْ يفرج عَنْ كتب الحكمـة فِـي الخزانـة الملوكية، غيـر ان عمرو اعتذره حَتَّـى استئـذان الخليفة عمر بن الخطَّاب فِيهَا، فوردَ عَلَيْهِ كتابُ عمرَ يَقُول فِيهِ: «وَأَمَّا الكتب الَّتِي ذكرتها فإنْ كَانَ فِيهَا مَا يوافقُ كتابَ اللهِ، ففي كتابِ اللهِ عَنْهُ غنًى، وإن كَانَ فِيهَا مَا يخالف كتاب الله فلا حاجة إِلَيْهَـا؛ فاقدم بإعدامها» فشرع عمرو بن العاص فِـي تفرقتها عَلَى حمامات الإسكندريَّة وأحرقهـا فِـي مواقدهـا فِي مدة ستة أشـهر[2]. ويبدو أَنَّهُ فِـي ظِلِّ هَذِهِ المـدة استطاع أن يوفـق بَيْنَ الالتّزام بأمر الخليفة، وعلاقته الطّيبة بالزعامات الْمَسِيحِيَّة، فِي انتقاء مَا يلزم الفائـدة والأَهَمِّيَّة من الكتب العِلْمِيَّة واللاَهُوتِيَّة؛ ولذا لَمْ يضِعْ تراثُ الإسكندريَّة مثلما ضاع التّراث فِي فَارِسَ.

وأشـارَ ابـنُ خلدون إشـارة واعيَـةً، إِلَى تعامـلَ مسلمِي الْفُتُـوحِ مَعَ تـراثِ الفرسِ، وتسـاءلَ عَـنْ علومِ الحَضَارَات السّالفـةِ، بقوله[3]: «ولعَمْرِي، لَمْ أقـفْ عَلَى الكَلاَمِ فِي منحـاهُ لأَحَـدٍ مِن الخليقـةِ، مَـا أدرِي، ألِغَفْلَتِهِمْ عَنْ ذَلِـكَ، وليسَ الظّنُّ بِهِـمْ، أَوْ لعلَّهُم كتبوا فِي هَذَا الغرض، واستوفوه، وَلَمْ يَصِلْ إلينا من العلوم أكثر مِمَّا وصل؛ فأين علوم

---

(1) - ابن نقطة: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر،) مطبعة وادي النّيل، القاهرة، 1286 هـ) ص28.

(2) - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص175 - 176؛ خليل جمعة الطوال: «مكتبة الإسكندرية - تأسيسها وروَايَة إحراقها»، مجلة الرّسالة (اصدار أحمد حسن الزيات، القاهرة، 1933 - 1954م) ص20 - 23.

(3) - تاريخ العبر 1/ 50.

الفرس الَّتِي أمر عمر بمحوها عِنْدَ الفتح، وأين علوم الكلدانيّين والسّرْيانِيّين وأهل بابل، وما ظهر عَلَيْهِمْ من آثارها ونتائجها، وأينَ علوم القبط ومِنْ قَبْلِهِم؟، وإنَّمَا وصل إلينا علوم أمّة واحدة، وَهُمْ يونان، خَاصَّة لكَلَفِ المأمون بإخراجها من لغتهم».

وذكر علوم الفرس بأنْ» كَانَ شأن هَذِهِ العلوم العقليّة عِنْدَهم عظيما ونطاقها متّسعا، لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دولتُهم من الضَّخامةِ واتّصالِ المُلْكِ... إِلَّا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا افْتَتَحُوا بِـلَادَ فَارِسَ، وأصابُوا من كتبِهم وصحائفَ علومِهم مِمَّا لا يأخذُه الحصرُ. وَلَمَّا فُتِحَتْ أرض فَارِسَ، ووجدوا فِيهَا كتبًا كثيرةً، كَتَبَ سعد بن أبي وقّاص إلَى عمر بن الخطّاب، ليستأذِنه فِي شأنها، وتنقيلها للمُسْلِمِينَ، فكتب إلَيْهِ عمر: أنْ اطرحوها فِي الماء؛ فإنْ يكنْ مَا فِيهَا هدى، فَقَدْ هدانا الله بأهْدَى مِنْهُ، وإنْ يكنْ ضلالًا فَقَدْ كفانا اللهُ. فطرحُوها فِي الماءِ أَوْ فِي النّار، وذهبتْ علومُ الفرسِ فِيهَا عَنْ أنْ تصلَ إلينا»[1].

مَا تجدر الإشارة إلَيْهِ فِي هَذِهِ النّقطة، المنهج المُتَمَثِّل فِي أَنَّ كلَّ مَا شابَه، وما لَمْ يشابِه الموجودَ فِي القُرْآنِ من تراثِ الحَضَارَاتِ، لا يُغْنِي ولَا يَسِدُّ رَمَقًا، هُوَ مشروعُ إحتواءِ الآخرِ وتهميشِ تراثِه، بَلْ ضياعِه فِي دياجيرِ القرونِ، مثلِ التّراثِ الأدبيِّ والعلميِّ واللُّغَويِّ والإِدَارِيِّ للفُرْسِ فِي العَصْرِ الفَهْلَوِيِّ.

كَمَا ويَنُمُّ عَنْ فكرةِ الاحتكارِ المعرفيِّ للدينِ، الأمرُ الَّذِي من شأنه أنْ يُفَوِّتَ عَلَى الحَقِيْقَةِ فُرَصَ التّلاقُحِ الفِكْرِيّ، الَّذِي يفتحُ فرصَ الإطلالةِ عَلَى أكثرِ مِن وجهةِ نظرٍ فِي فهم الحَقِيْقَة، مَا قَدْ يشكل جزءًا فِي معرفتها، ويفتح آفاقَ الإبداع، الَّذِي يُسهم فِي انبعاثِ الغِنَى من التَّنَوُّعِ الثّقافِيّ والدّينِيّ. يُمكنُ- فِي النّهاية- أنْ تتكاملَ الأجزاءُ فِي تشكيلِها لصورةٍ واضحةِ المعالمِ، بدلًا من استغراقِ كُلِّ فريقٍ فِي جزءٍ، يحسبُ أنّهُ تمامُ الصّورةِ.

دَور العلماء السّريان:

فتح السريان – منذ المائة الرابعة للتاريخ المسيحي – عصرًا سعيدا ذهبيًّا، بما

(1) – ابن خلدون: م. ن. 1/ 631؛ وقارن: حاجي خليفة: كشف الظنون عَنْ أسامي الكتب والفنون1/ 33؛ القنوجي، مُحَمَّد صديق: أبجد العلوم 145.

أنشئوه من المدارس الشهيرة، والمعاهد الفخمة، والمكتبات الزاهرة، وبمن أنجبوه من الكتّاب الأعلام، وما أبرزوه من التآليف الخالدة، وخلّفوه من الآثار الثمينة شرقًا وغربًا، وظلّ يسطع نور عصرهم الذهبي حتى القرن السابع، بل امتد إلى القرنين الثامن والتاسع للميلاد[1].

كَانَتْ اللُغَة السّرْيانِيّة منتشرة فِيمَا بَيْنَ النّهرين، وَقَدْ اتخذتها الْمَسِيحِيَّة لغة أَدَبِيَّة لها، وَهِيَ اللُغَة الَّتِي كَانَ يدرس بِهَا الطّب والعلوم الطّبِيعيَّة، بجانب اليُونانِيّة، فِي مدارس الرّها، فِيمَا بَيْنَ النّهرين، ومدرسة جُنْدَيْسابور[2].

من العلوم، الَّتِي بَرَعَ بِهَا النَّصَارَى، علم الهندسة، ولاسِيَّمَا هندسة البناء[3]، والطّب وعلم النّبات، وعلم النّجوم، والفقه، ومن أشهر علومهم عَلَى الإطلاق علم التّصوير والنّحت[4] الَّذِي تَزَيَّنَتْ بِهِ الكَنَائِس، وبسبب هَذَا العلم اكتسبت شهرة واسعة بمجال تصاميمِها وزخرفتها.

قام السريان بنشر الفلسفة اليونانيَّة، وخاصة مذهب الافلاطونيَّة الحديثة، في العِرَاق وما حوله، وأخذوا ينقلون الكتب اليونانيَّة الى لغتهم السريانيَّة، التي انتشرت فيما بين النهرين والبلاد المجاورة لها، وفوق هذا كانت هي لغة الأدب والعلم لجميع كتّاب النصرانيَّة في أنطاكية وما حولها، وللنصارى الخاضعين لدولة فارس[5].

كَانَ السّريان حلقة الاتصال بَيْنَ العلم الاغريقي والإِسْلَام، لذلك لَيْسَ غريبًا أنْ يكون لَهُمْ دورٌ كبير فِي تغذية الحضارة الإِسْلَامِيّة بكلِّ مَا كَانَ من شأنه أنْ يكفلَ لها النّمو والازدهار[6]. وَفِي العصر الأُمَوِيّ كَانَ انتقال الخِلَافَة إِلَى سوريا، من العوامل الَّتِي فتَحَتْ الباب أمام السّريان، ليسهموا بجهودهم فِي بناء الدَّولَة العَرَبِيَّة، كَمَا كَانَ

---

(1) - طرازي: عصر السريان الذهبي، ص14.
(2) - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العَرَبِيّ العصر الجاهلي ص 25.
(3) - شيخو: النّصرانية وآدابها 343 وبعدها.
(4) - م. ن. 353 وبعدها.
(5) - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص131.
(6) - الشّحات السّيد زغلول: السّريان والحضارة الإسلاميّة، ص2.

لهذا الانتقال أثره فِي تَطَوّر الحضارة[1].

فِـي مجال النّقل للعلوم بدأت المحـاولات الأولى خِلَالَ العصر الأُمَـوِيّ، وَكَانَتْ عَلَـى الأغلب جهودًا فرديَّةً وعلى نطاق ضيّق، واقتصرت عَلَـى العلوم العَمَلِيَّة كالطّبّ والفَلَـك والمنطق والفَلْسَفَـة والهندسة. كَمَا عرّبـت بعض الألفـاظ اليُونانِيّة، وأطلقوا عَلَيْهَـا كلماتها الأصليَّة مثل «البرجد» وَهُوَ: كساء غليظ مخطط، وأسماء أشـياء أُخْرَى عرفهـا الْعَـرَب بَعْـدَ اتصالهم بالـرّوم كـ «الزبرجـد، والزمـرد، والياقـوت»، ومقاييس وأوزان رومانية كـ «القيراط والأوقية»، وأسماء طبية؛ أَوْ نباتية كـ «القولنج والبرقوق»، أَوْ كلمـات نَصْرَانِيّـة كـ «الجاثليـق والبِطْرِيق» وغيرها[2]. وَقَدْ توسعـت حركة التّعريب خِـلَالَ القَرْن الأوّل الهِجْرِيّ بتأثير الْمَسِيحِيِّـنَ ورغبة بعض الأُمَوِيّـن فَكَانَ خَالِد بن يزيـد الأول (ت٨٥هــ/ ٧٠٥م) عالماً وأديبـاً ومن أول المحبين لعلـوم اليونان، إِذْ أمر بترجمة الكتب فِي علم الهيئة والطّب والكيمياء[3].

وشـجع الخليفـة عمـر بـن عبـد العزيـز (٩٩ - ١٠١هــ/ ٧١٧ - ٧١٩م) تعريـب كتـب الطّـب، فأمر بنشـر كتاب الطّب الشّرعـي، الَّذِي نقله إِلَـى الْعَرَبِيّـة طبيب البصرة «مارسرجويـه» فِـي عهـد الخليفـة مروان بـن الحكـم، وَقَدْ وجـده فِي خزائـن الكتب بالشّام[4].

يعـد احتكاك الْمُسْلِمِيـنَ بغيرهم من الأمم من أهم البواعث عَلَـى نقل كتب العلوم والفَلْسَفَـة إِلَـى اللُّغَة الْعَرَبِيّة، فَضْلًا عَنْ حاجة الْمُسْلِمِينَ إِلَـى علوم لَيْسَتْ عِنْدَهم، مِمَّا كَانُـوا يحتاجـون إِلَيْهِ فِي الطّب وَفِـي معرفة الحساب والتّوقيت، وَكَـانَ القُرْآن الكريم، وحثـه عَلَـى التّفكير وطلب العلم، باعثاً آخر، وَكَذَلِكَ رعاية الخلفاء للنقل والنّقلة، فَقَدْ كَانَ الخلفاء يدفعون للناقل ثقل الكتاب المنقول ذهباً[5].

(1) - الشّحات: م.ن، ص 129. الجمل: أثر جهود السرّيان عَلَىَ الحضارة العَرَبِيّة الإسلاميّة ص14.
(2) - احمد أمين: ضحى الإسلام، 1/ 60
(3) - ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلاميّة، ص٦٩.
(4) - ابن أبي اصيبعة: عيون الانباء فِي طبقات الاطباء1/ 163.
(5) - عمر فروخ: تاريخ العلوم عِنْدَ العرب، ص ١٢.

جدير بالعلم إنَّ روح الحضارة الإِسْلَاميّة لَمْ تأخُذْ من الحَضَارَات القديمة، ولا سِيَّمَا اليُونانِيّة، إلا مَا هُوَ مقوِّم وجوهري للحضارة، أي مَا هُوَ قدر مُشْتَرَكٌ بَيْنَ النّاس جميعًا، عَلَى اختلاف أجناسهم وحَضَارَاتهم، والتي لا تتأثر بطبيعة واضعيها، ألا وَهِيَ العلوم العَمَلِيّة. بينما هِيَ لَمْ تأخُذْ عَنْهَا العلوم الرُّوحِيَّة أَوْ الفنون إلا عَلَى نحو يسير[1].

ولذا فِي الشّرق – بحَسَبِ هيرنش بكر Carl Heinrich Becker – فَقَدْ تَغَيَّرَتْ اللُّغَةُ وتغيَّرَ الدّينُ؛ فَكَانَ لا بُدَّ لتراث الأوائل الضَّخم من أنْ يبدأ أَوَّلًا، فيصبح عربيًا إِسْلَاميًا... ولا بد للطبقة الحاملة لمشعل الحضارة الهِيلِينِيَّة فِي الشّرق أنْ تصبح إِسْلَاميّة، فَكَانَ تراث الأوائل قَدْ اصطدم إِذًا فِي الشّرق بأفكار جديدة، بينما هُوَ فِي الغرب قَدْ اصطدم بأناس جديدين فحسب[2].

إنَّ نقل كتب العلم والفَلْسَفَة إلَى اللُّغَة الْعَرَبِيّة لَمْ يجرِ اتفاقاً، بَلْ قصد إِلَيْهِ الْمُسْلِمون قصداً، أهتم بِهِ الأمراء وشجعته الدّولة، وَمِمَّا يدلُّ عَلَى تَفَهُّم الْمُسْلِمِينَ للحركةِ العظيمةِ، الَّتِي كَانُوا يقومون بِهَا، أَنَّهُمْ بدأوا أَوَّلًا بكتُبِ العلومِ الصِّرْفَةِ أَوْ العَمَلِيَّة، أي بنقلِ كتبِ الرّياضياتِ والفلكِ والطّبِّ، ومِنْ ثَمَّ اتجهوا نحوَ كتبِ العلومِ النّظريةِ، مثلَ المنطقِ والفَلْسَفَةِ، ليُتِمُّوا أداءَ رسالتّهم الثّقافِيَةِ[3].

كَانَ السّريان – قَبْلَ الإِسْلَام وبعده – قَدْ تعهدوا المعرفة فِي المراكز الثّقافِيّة، وَفِي عديد من الأَدْيِرَة والمكاتب الصّغيرة المنتشرة فِي بلاد الشّام، ويتمثل دورهم بمساهمتهم فِي نقل الثّقافة اليُونانِيّة الَّتِي فَقَدْ أصلها، وَلَمَّا جاء الْمُسْلِمون اعتمدوا عَلَى ترجماتهم السّرْيانِيّة، وَقَدْ ساهم بعض السّريان بنقلها إِلَى الْعَرَبِيّة، بدأً من العصر الأُمَوِيّ، كَمَا ترجم السّريان بعض الكتب الفارسيَّة[4].

---

(1) – عبد الرّحمن بدوي: التراث اليوناني في الحضارة الإسلاميّة، المقدمة، ص: و.

(2) – كارل هيرنش بكر: «تراث الأوائل فِي الشّرق والغرب»، التراث اليوناني فِي الحضارة الإسلامية، ص6

(3) – عمر فروخ: م. س، ص 144

(4) – فاضل خليل إِبْرَاهِيم: خَالِد بن يزيد سيرته واهتماماته العِلْمِيّة «ص46؛ خَالِد يوسف صالح: «حركة الترجمة فِي بلاد الشّام فِي العصر الأُمَوِيّ»، (مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد ١١،

على صعيد التنامِي المعرفيِّ، تاثَّر روادُ المعارفِ التاريخيَّة بما أنْتَجَتْهُ اللغةُ السريانيَّةُ مـنْ مُشَاغَلَـةِ العلومِ بأسْرِهَا، فضلًا عن أنَّ السريانيَّة تُوِّجَتْ في كتابةِ العهدِ القديمِ، ففي مجـالِ التدوينِ التاريخـيِّ اسْتَمَدَّ كُتَّابُ السيرةِ الأوائلُ، علـى صعيدِ المنظورِ التاريخيِّ العالمـيِّ، مـن القـرآنِ، ومعـارفِ العـربِ الجاهليَّـةِ، وما عرفوه مـن خـلالِ مُعَايَشَتِهم للشعـوبِ الكِتَابِيَّـةِ وغيرِ الكِتَابِيَّةِ. ويبـدو أنَّ لإصولِ ابن إسحـاق (ت151هـ/ 768م) الكِتَابِيَّـةِ أثَـرًا في كتاباتِه، كما يبدو ذلـك في قصصِه ورواياتِه عن عصـورٍ ما قبل النبيِّ، ويبدو أنَّه كانَ يعرفُ السريانيَّةَ، فربما ظلَّتْ تلكَ اللغةُ مُتَوارِثَةً في أُسْرَتِه[1].

اندفع الْمُسْلِمون، وبحكم تنامي الجدل الفِكْرِيّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أهل الثَّقَافَات والعقائد الأُخْـرَى، إلَى دراسة الأصول الفَلْسَفِيَّة والأدوات المنطقية الَّتِي أستخدمها خصومهم، مـن أجـل تكوين ردود منطقية مقنعة، كَمَـا كَانَ للجدل الدّينِيّ بَيْـنَ الْمُسْلِمِينَ أنفسهم، دور فِي الإطلاع عَلَى كتب الفَلْسَفَة والمنطق، فَكَانَ ذَلِكَ دافعاً للاهتمام بالعلوم[2].

إنَّهـا لحَقِيْقَـة معروفة بـان الثّقافـة الإِسْلَامِيّة، فِي القـرون الوسطـى، انتعشت كثيراً بواسطـة العلـوم اليُونانِيّة، مِمَّـا أدى فِيمَا بَعْدُ إلَى قيام مَا أُطْلِـقَ عَلَيْهِ بـ« نهضةِ الحضارةِ الإِسْلَامِيّة»، وَقَدْ بَرَغَ فِيهَا متخصّصونَ مسلمونَ فِي العلومِ الصّرفةِ والتّجريبيَّةِ والفَلْسَفَةِ، مِمَّـا أفادوا فِي الرُّقِيِّ الحضارِيِّ، ولَيْسَ مِن شَـكٍّ أَنَّهُمْ إستوعَبوا كُـلَّ مَا يتَعَلَّقُ بالتّراثِ الكلاسيكـيِّ الخـاصِّ بالشّرقِ، والميراثِ اليُونانِـيِّ، سواءٌ كَانَ الفَلْسَفِـيَّ عِنْدَ افلاطون وأرسطو، أَوْ الطِّبِّيَّ عِنْدَ هيبوقريطس وجالينوس، أَوْ غيرَه من العلوم[3].

- التّرجمة

كَـانَ انتقـال الخِلَافَة من الحجـاز إلَى سوريا مـن العوامل، الَّتِي فتَحَـتْ الباب أمام السّريان، ليسهموا بجهودهم فِي بناء الدَّولَة العَرَبِيّة، كَمَا كَانَ لهذا الانتقال أثره فِي تَطَوّر

بحث 234 - 249) ص241.

(1) - عبد العزيز الدوري: مقدمة سيرة ابن إسحاق، ص9.

(2) - مارتن بلسنر: العلوم الطَّبِيعيَّة والطب،(سلسلة عالم المعرفة الكويت، ١٩٧٨(3/ 85.

(3) - مايكل دولز: «انتقال الطب اليوناني من السّريان إلىَ العرب»، موقع دراسات سريانية 14، Aug 2012.

الحضـارة[1] فَلَقَـدْ وجد الْعَـرَب أنفسهم حكاماً لمنطقـة، كَانَتْ ولايـةً رومانيةً خاضعة لقانون روماني كامل التّطَوّر وإِدَارَة منظمة جداً، وَقَدْ أبْقَوا كل هَذَا كَمَا كَانَ[2].

وأخـذ معاويـة وخلفاؤه من بعـده فِـي دِمَشْـق بالعـادات اليُونانِيَة، فحـوّل الخلفاء الْأُمَوِيّـون جمهوريـة المدينة الدّينِيَّـة الْعَرَبِيّـة إلَـى امْبِرَاطورِيَّة حَقِيْقَـة سوريَّة، فضربوا الدّنانيـر الذّهبيـة عَلَـى نسق الدّراهـم البِيْزَنْطِيَّة، وجعلـوا الخِلَافَة وراثيَّة بَعْـدَ أَنْ كَانَتْ انتخابية، واستخدموا عمالًا كثيرين من اليونان والسّريان[3].

وحَقِيْقَة الأمر أن الخلفاء الأُمَوِيّين لَمْ يفرغوا للشؤون العِلْمِيَّة بقدر مَا فرغوا للأمور السِّيَاسِيَّة، إِلَّا أَنّنا نصادف مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ لَمْ يَدَّخِرْ وِسْعًا فِي سبيل تشجيع الحركة الأَدَبِيَّة، والتّقـدم العلمـي، وإذا لَمْ يُقَدَّرْ لنتائـج جهودهم أن تظهر بجلاء، فَـإِنَّ هَذَا يرجع لعدم استقـرار الأمور طوال أيامهم وقرب العهد بالعصر الجاهِلِيّ، وعلى ذَلِكَ يمكننا القول بـأَنَّ الازدهار الَّذِي اصابته الحياة العِلْمِيَّة فِـي العصر العباسي، قَدْ وضعت أولياته عَلَى أيـام الأُمَوِيّيـن، ذَلِكَ لأن الظّواهر الحَضَارِيَّة دائماً فِي حاجة إِلَى فسحة من الوقت لكي تخرج ثمارها[4].

بـدأت حركـة التّعريب فِـي العصر الأُمَـوِيّ، ونشطت فِي عهد الخليفـة عبد الملك بـن مـروان وأبنـه الوليد، حِيـنَ جعلا اللُّغَـة الْعَرَبِيّـة اللُّغَـة الرّسمية فِي دواويـن الدّولة ومراسلاتها، فما لبثت أنْ تقهقرت أمامها لغات الشّعوب المفتوحة من فارسية وورومية وقبطِيَّـة وبربرية ويُونانِيّـة وسُرْيانِيّة وعبرية، وأصبحت وحدها شـائعة فِي دار الإِسْلَام؛ لأنها لغة الفاتح ولغة الدّين[5].

ويمثـل العصـر الأُمَوِيّ فِي حَقِيْقَة الأمـر أول دور من أدوار حركـة التّرجمة، وعَلَى الرَّغْـمِ مِـنْ أَنَّ التّرجمـة فِي هَذَا العصر كَانَـتْ بدائية وضعيفة المستـوى، إِذَا مَا قورنت

(1) ـ - أنشحات السّيد زغلول. السّريان والحضارة الإسلامية، ص 129.

(2) ـ أوليري: مسالك الثّقافة الإغريقية إلى العرب، ص 206.

(3) - ماكس فانتاجو: المعجزة العَرَبِيّة، ص 121.

(4) ـ الشحات السّيد زغلول. السّريان والحضارة الإسلامية. 127 - 128.

(5) - اليوزبكي: «التعريب فِي العصرين الأُمَوِيّ والعباسي»، ص47.

بالتّرجمـات الأُخْـرَى فِي المراحـل التّالية، إِلّا أَنَّ هَذَا العصر كَـانَ بحق حجر الأساس لبنـاء هَذِهِ الحركـة عموماً، كَمَا أَنَّهُ كَـانَ المنطلق الأول لها فِي أنحـاء العالم الإِسْلَامِيّ مشرقـه ومغربـه، وَكَانَتْ التّرجمة فِي تِلْـكَ الفترة مقصورة عَلَى بعـض العلوم الطّبيعيَّة كالكيميـاء والطّب، دُونَ أَنْ يتعدَّى ذَلِكَ إِلَى العلوم العقليَّة، كالمنطقِ وعلم النّفس وما وراء الطّبيعـة. لَعَـلَّ السّببَ فِي ذَلِكَ يرجِعُ إِلَى أَنَّ إهتمامَ النّـاسِ كَانَ مُوَجَّهًا بكُلِّيَتِهِ إِلَى العلـومِ الدّينيَّـةِ الإِسْلَامِيّةِ، وَكَانُوا ينظـرونَ إِلَى العلومِ الَّتِي تُدْرَسُ فِـي المراكزِ الثّقافِيَةِ القديمةِ عَلَى أَنَّها علومُ غيرِ الْمُسْلِمِينَ، مِمَّا أدَّى إِلَى انصرافِهم عَنْهَا[1].

وَكَانَ خَالِد بن يزيد (ت85هـ/ 704م) الشَّخْصِيَّة الأولى الَّتِي عملتْ بمشُورَةِ عُلَمَاءِ السّرْيَانِ، فأَقْدَمَ عَلَى الإِشْـتِغَالِ بالكِيمْيَاءِ، والعِنَايَةِ بإِخْرَاجِ كُتُبِ القُدَمَاءِ فِيهَا، ونستطيع أَنْ نذكـرَ - إِلَى جانبِ مَحَبَّتِـهِ للعُلومِ - أَمْرَ إِبْعَادِهِ عَنْ الخِلَافَةِ، فَلَقَدْ كَانَ راغباً فِيهَا بَعْدَ وفاة أخيه معاوية الثّاني، وَلَكِنَّ مروان بن الحكم غلبه عَلَى ذَلِكَ، فراح يحاول اكتساب العـلا[2]، فاتجه صوب العلـم وأهتم بالكيمياء لرغبته الشّديدة فِـي تحويل المعادن إِلَى ذهـب. وَهَكَـذَا أَمَـرَ بعضُ علماءِ اليونـانِ الَّذِينَ كَانُـوا فِي الإسكندريَّـة أَنْ ينقلوا لَهُ من اليُونانِيّـة إِلَى الْعَرَبِيَةِ كُتُـبَ الكيمياءِ. كَمَا وأَمَرَهُمْ بترجمـةِ «الأرغانون» وَهِيَ مجموعة كُتب أرسطو فِي المنطق[3]، وَهَذَا أَوَّلُ نقل كَانَ فِي الإِسْلَامِ من لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ[4].

ويمكـن القـول: إن العلوم الطّبيـة الَّتِي احتكت بِهَـا العقلية الْعَرَبِيّـة قَدْ خرجت من أيـدي أصحابها، ونعنـي بِهِمْ اليونـان، وتلقفها الدّارسـون والشّارحـون الَّذِينَ يعرفون اليُونانِيّـة والسّرْيانِيّة، وشـارك الأطبـاء السّريان فِي هَذِهِ الدّراسـة بنصيـب وافـر، وَكَانَ لَهُمْ دورهم فِي النّقـل والتّرجمة[5].

---

(1) - طه عبد المقصود أبو عبية: الحضارة الإسلاميّة: نشاتها فِي المشرق - انتقالها إِلَى الاندلس - دعم الاندلسيين لها - تاثيرها عَلَى اوربا (دار الكتب العِلْمِيَّة، 2004)، ص 163.

(2) - جرجى زيدان: تاريخ آداب اللُغَة العَرَبِيّة، 2 / 332.

(3) - علي سامي النّشار: «مناهج البحث عِنْدَ مفكري الإسلام»، ص 23..

(4) - أبن النّديم: «الفهرست، ص 300..

(5) - سمير عبده: السّريان قديماً وحديثاً، ص 67.

عاصـر الفترة الأُمَوِيّة عديد من العلماء ورجال الدّين النَّصَارَى من نَسَاطِرَة ويَعَاقِبَة، كَانُوا فِي نشاط حثيث لنقل تراث اليونان إِلَى لغتهم السّرْيانِيّة، لاسِيَّمَا فِي مجال الفَلْسَفَة والمنطـق. مِنْهُمْ ساويرس سنجت) ت٤٨هــ/ ٦٦٧م (، اثناسيوس البلدي (ت٦٧هـ/ ٦٨٦م) حنـا نيشوع (ت٨٢هــ/ ٧٠١م(، يعقوب الرّهـاوي (ت٩٠ه/ ٧٠٨م)، مار أبها الثّالـث، يوحنا الدّمشقي (ت ١٢٦ه/ ٧٤٣م) وَهُـوَ القديس يوحنا بن سرجون، سوري الأصـل، آرامي اللُّغَة، عرف بدقاق الذّهب لفصاحته، وَكَـانَ والدّه أحد موظفي الدّولة الأُمَوِيّة، درس مبادى اللاهوت عَلَى يد راهب صقلي أسمه قوزما (كوسماس)، وأتصل يوحنـا نفسه بالأُمَوِيّين، حَيْثُ كَـانَ يشغل منصب كبير مستشاري هشام بن عبد الملك، ثُمَّ أعتزل واعتكف فِي دير القديس سابا[1]

ومن أشهر النّقلة فِي العصر الأُمَوِيّ «ماسرْجوية »ويسمي أيضــاً «ماسرجيس» وَهُوَ سُرْيانِـيّ اللُّغَـة يهودي المذهـب، وَقَدْ نقل مـن السّرْيانِيّة إِلَى الْعَرَبِيّـة «كُناش فِي الطّب »من تأليف أهرون بن أعين القس، وَقَدْ ترجمه فِي خِلَافَة مروان بن الحكم (ت65هـ/ 685م) ووجـد عمر بن عبد العزيـز هَذَا المصنف بَعْدَ ترجمته فِـي خزائن الكتب، فأمر بإخراجــه ووضعه فِي مصلاه، واستخار الله فِي إخراجه إِلَـى الْمُسْلِمِينَ لينفع بِهِ، فَلَمَّا تَمَّ لَهُ فِي ذَلِكَ أربعون يوماً أخرجه إِلَى النّاس وبثه فِي أيديهم[2].

وَقَـدْ اشـتهر فِي العصر الأُمَـوِيّ - أَيْضًا - «ابن أُثال «قَالَ عَنْـهُ ابن أبي أصيبعة «كَانَ مـن الأطباء المتميزين فِـي دِمَشْق، نَصْرَانِيّ المذهـب، وَلَمَّـا ملك معاوية بن أبي سفيان دِمَشْـق اصطفاه لنفســه، وأحسن إِلَيْهِ، وَكَانَ كثير الافتقاد لَـهُ، والاعتقاد فِيهِ، والمحادثة مَعَهُ ليلاً ونهاراً[3].

- الطّب:

(1) - اوليري: علوم اليونان ١٩١ - ١٩٢؛ بدر الدين: قِنَّسْرين أَوْ عش النّـسور ص ٢٤٦؛ إِبْرَاهِيم: م. س. ص ٣٦.

(2) - القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 213.

(3) - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء فِي طبقات الأطباء 1/ 170.

اخـذ الطّب يتأثـر بالاتجاه اليُونانِيّ مِنـْذُ مطلع العصر الأُمَـوِيّ، وتَجَلَّت وجهة نظر الْمُسْلِمِيـنَ إِلَى العلـوم الطّبية فِي حديث النّبـيّ[1]: «العِلْمُ عِلْمانِ: عِلْـمُ الْأَدْيانِ، وَعِلْمُ الْأَبْدانِ»[2]، وَكَانَ لمعاوية (ت60هـ/ 680م) طبيبان مسيحيّان من أهل دِمَشْق، احدهما بن آثال، والآخر الحكم بن أبي الحكم الدّمشقي، وَقَدْ اتخذ معاوية ابن أُثال طبيباً خاصاً لَهُ، واستعان بِهِ فِي التّخلص من خصومه السِيَاسِيّين، وَكَانَ رومي الأصل[3]، وَقَدْ ترجم لمعاوية عددًا من كتب الطّب إِلَى اللُغَة الْعَرَبِيّة.

ومـن الأطباء اليهـود «ماسرجويه» عاش فِي البصرة، ثُمَّ أتصـل بالْأمَوِيّين فِي الشّام وَكَـانَ يجيـد السّرْيانِيّة، فقام بترجمة «كناش اهرن» فِي الطّب إِلَـى الْعَرَبِيّة بَعْدَ أَنْ ترجم مِنْ قَبْل من اليُونانِيّة إِلَى السّرْيانِيّة[4].

يعـد تياذوق (ت90هـ/ 709م(من أقدم أطباء إقليم الشّام[5]، وَهُوَ طبيب مشهور فِي الدّولـة الْأُمَوِيّـة، واختص بخدمة االحجـاج بن يوسف، وَلَهُ تلاميذ أجلّـة تقدموا بَعْدَهُ، ومنهـم مـن أدرك الدّولـة العباسيـة، كـ«فرات بـن شـحناثا»[6]، وَلَهُ مـن الكتب: كناش كبيـر، الفه لإبنه، وكتاب إبدال الأدوية دقها وايقاعها وإذابتها، وشـيء من تفسير أسماء الأدوية[7]. وَمن كَلاَم تياذوق للحجاج: َلاَ تَأْكُل من اللَّحْم إِلاَّ فتيا، وَلاَ تشرب الدّوَاء إِلاَّ من عِلّة، وَلَا تَأْكُل الْفَاكِهَة إِلَّا فِي أَوَان نضجها، وَأجد مضغ الطّعَام، وَإِذا أكلت نَهَارا فَلَا بَأْس أَنْ تنامَ، وَإِذا أكلت لَيْلًا فَلَا تنمْ حَتَّى تمشي، وَلَو خمسين خطْوَة[8].

---

(1) - فيليب حتي: تاريخ سورية 2/ 213، وما ذكرته المصادر الحديثية عَنْ الشّافعي.

(2) - أبُو نعيم: حلية الأولياء 9/ 142؛ البيهقي: شعب الإيمان 3/ 188؛ أبُو طاهر السّلَفي: الطيوريات 3/ 1164.

(3) - الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص27.

(4) - إبْرَاهِيم: م. س. ص 50 - 52.

(5) - نبيل فتحي حسين: تنوع مكونات الْمُجْتَمَع الإسلاميّ وأثره فِي تدوين المعارف العَرَبِيّة الإسلاميّة فِي القرون الهِجْرِيّة الأربعة الأولى) دراسة فِي كتاب الفهرست لابن النّديم (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل 2007، ص216 - 217

(6) - القفطي: أخبار العلماء بأخيار الحكماء، ص 85

(7) - البغدادي: هدية العارفين 1/ 246؛ قنواتي: المسيحيّة والحضارة العَرَبِيّة، ص149.

(8) - ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء فِي طبقات الأطباء، ص 179.

كَـانَ عبـد الملك بـن أبجر الكناني طبيبًـا عالمًا ماهـراً، فِي أول أمره كَـانَ مقيمًا فِي الإسكندريَّة؛ لِأَنَّهُ المتولي فِي التّدريس بمدرستها، الَّتِي استمرت بَعْدَ الفتح الإِسْلَامِيّ، تؤدي دورها فِي العلوم بعَامَّة وَفِي الطّب بِخَاصَّةٍ. كَانَ ابن أبجر نَصْرَانِيًا، ثُمَّ أسلم عَلَى يـد عمر بن عبد العزيز، قَبْـلَ أن تصل إِلَيْهِ الخِلَافَة، وصحبه، فَلَمَّـا أفضت الخِلَافَة إِلَى عمر سنة 99هـ، نقل التّدريس إِلَى أَنْطَاكِيَةَ وحَرَّان وتفرق فِي البلاد، وَكَانَ عمر بن عبد العزيـز يستطب ابـن أبجر، ويعتمد عَلَيْهِ فِـي صناعة الطّب. ومن أقوالـه: «دع الدّوَاء مَا احْتمل بدنك الدّاء»[1].

- العمارة:

كَانَـتْ للنَصَـارَى فِـي الشّـام والعِرَاق اليـد الطّولى فِـي عماريَّة الكَنَائِـس والقصور الفخمة وهندستها فِي المدن وحيث تواجدهم، إِذْ هُمْ امتداد لحضارتي بِيزَنْطَةَ وفَارِسَ الْعَرَيقتيـن فِي العمـارة وهندستهـا. وحَسْبُنَا مَثَلًا كَنِيسَـةُ الرَّها، الَّتِي تُعَـدُّ من العجائب السّبـع حَتَّـى نهايـة القَـرْن الأوّل الهِجْرِيّ/ السّابـع المِيـلادِيّ، وضُرِبَ بِهَـا المَثَلُ فِي جماليَّـةِ هندستِها، وقصَدَها الوافِـدُ والحاجُّ مِن أدْنَى الأرجاءِ وأقصَاهـا. ومثلُها كَنِيسَةُ أنْطَاكِيَـةَ المشهورةُ بروائعِ هندستِها، وليْسَ أدَلَّ مِن جماليتِها وعظمةِ هندسَتِها، أنْ تمتدَّ لَهـا عيـنُ الخليفةِ الوليد بن عبد الملـك، وَهُوَ يجلسُ عَلَى أوسـعِ خَارِطَة مِن البسيطةِ، تخضـعُ لحكمِه، فتطولُ يدُه عمـارةَ الكَنِيسَةِ، ليستكْمِلَ بناءَ مسجـدِه، الَّذِي قامَ عمرانُه هُـوَ - أيْضًـا - عَلَى كَنِيسَةِ دِمَشْقَ. ولا تقلُّ ضخامةُ كَنِيسَـةِ المهدِ» فِي «بيتِ لحم» الَّتِي تعودُ إِلَى عهدِ جيستنيان 527 - 565م[2].

والكَـلَامُ المأثورُ قديماً لَدُنِ البُلْدَانِيين والمُؤَرِّخيـن، أنَّ مِن عجائبِ الجَزِيْرَةِ كَنِيسَةَ الرّهـا، وما تميَّـزَتْ كَنَائِسُ أُخرَى بقِيَم عماريَّـةٍ، حفظَتْهَا ذاكرةُ التّاريـخِ، فكانتْ الرّومُ تقـولُ: «مَا مِن بناءٍ بالحجـارةِ أبهَى مِن كَنِيسَةِ الرّها، ولا بناءَ بالخشـبِ أبهَى مِن كَنِيسَةِ

---

(1) - ابن أبي أصيبعة: م. ن، ص171؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار فِي ممالك الأمصار 9/ 318.

(2) - مُحَمَّد بيومي مهران: دراسات فِي تاريخ العرب القديم، ص 340.

مَنْبِـجَ، لأنَّها بِطاقاتٍ مِن خشبِ العنّابِ، ولا بناءَ بالرّخـامِ أبهَى من قسْيَانِ أنْطَاكِيَة، ولا بناءَ بطاقاتِ الحجارةِ أبهَى مِن كَنِيسَةِ حِمْصَ»[1].

وما اشـتهر فِي بلاد الْعَرَب مـن الكَنَائِس ذات الأبعاد العماريـة الرّائقة فِي هندستها وتعجـب النّاظريـن فِي العِرَاق واليمن ونَجْـرَان، وحيثما ألقت النَّصْرَانِيَّـة عصاها؛ فَقَدْ ذكـر أهل الأخبار أنَّ الحبش استعانوا بفَعَلَةٍ من الـرّوم فِي بناء «القليس»، كَمَا أنَّ الرّوم كَانُوا قَدْ شَيَّدُوا كَنَائِسَ فِي عَدَن، وَفِي مواضعَ أُخْرَى من جَزِيْرَةِ الْعَرَب، وَقَدْ بُنِيَتْ هَذِهِ الكَنَائِسُ وفقًا لأسلوبِ الفَنِّ البِيْزَنْطِيِّ النَصْرَانِيّ ولَا شَكَّ[2].

كَـانَ معاويةُ قَدْ استعـانَ بمهندسينَ وفنِّيِّينَ من غيرِ الْمُسْلِمِينَ فِي بناءِ قصرِ الخضراءِ بدمشـقَ، الَّـذِي اتَّخَذَهُ معاويةُ مقرًّا لإقامتِه فِـي فترةِ إمارتِه عَلَى بلاد الشّـام، ثُمَّ فِي مُدَّةِ خلافتِـه بَعْدَ ذَلِكَ. يـروي البلاذري: أَنَّهُمْ بَنَـوْهُ لمعاويةَ من الحجارةِ، بَعْـدَ أَنْ كَانَ قبْلُ مبنيًا باللَّبْنِ والطِّين[3].

وحَسْـبُ المبانِيَ الدّينِيَّة فِـي اليمن رُقِيًّا فِي هندسةِ العمارَة، مَـا وصفَهُ إيَّاها الرّحالةُ وأهـلُ السّياحةِ عبْـرَ التّاريخ[4]، فَقَدْ أكثرَ المُؤَرِّخون الْمُسْلِمـون فِي الوصف عَنْ كَنِيسَة القليس، حَتَّى بَلَغَ حَدَّ المُبَالَغَةِ أَوْ كَادَ، عَلَى أَنَّهُمْ رَووا أنَّ إبرهةَ لَمَّا أَتَمَّ بناءَها كتَبَ إِلَى النّجاشيِّ، يَقُول: «إنِّي قَدْ بنيتُ لكَ بصنعاء بيتًا، لَمْ تَبْنِ الْعَرَبُ ولا العجَمُ مِثْلَهُ»[5]. وَقَدْ تأثـرتْ الكَنَائِسُ جميعُهـا بالفَنِّ البِيزَنْطِيِّ، وإنْ جمعتْ كَنِيسَـةُ القُلَيْسِ بَيْنَ الفن الْعَرَبِيّ القديم والفن البِيْزَنْطي النَصْرَانِيّ فِي بناء الكَنَائِس[6].

---

(1) - ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 161؛ ابن الفقيه: البلدان، ص 180؛ ابن حوقل: صورة الأرض 1/ 181.

(2) - علي، جواد: المُفَصَّل 15/ 42.

(3) - أنساب الأشراف 4/ 147.

(4) - انظر: شيخو: النّصرانية وآدابها 343 وبعدها.

(5) - ابن هشام: السّيرة 1/ 43؛ الأزرقي: تاريخ مكة 1/ 138؛ الطبري: تاريخ 2/ 130، تفسير 30/ 300؛ ياقوت: بلدان 4/ 395، ابن كثير: تفسير 8/ 504؛ القرطبي: تفسير 20/ 188.

(6) - هـ. ج. ويلز: موجز تاريخ العالم،(مطبعة السّعادة، القاهرة 1967) ص193؛ مُحَمَّد بيومي مهران: دراسات فِي تاريخ العرب القديم 341.

يجدر النظر إِلَى عهدِ عياض بن غنم لأهلِ الرّها[1]، في كتابه: «إني أمّنتهم على دمائهم وأموالِهم، وذراريهم ونسائِهم، ومدينتِهم، وطواحينِهم، إِذَا أدّوا الحقّ الذي عليهم. ولَنا عليهِم أنْ يُصْلِحوا جسورَنا»، أنْ يُطلعَنا عَلَى أَنَّ الرّها مدينةٌ ذاتِ طابعٍ حضاريٍ، فيها طواحينُ وجسورٌ، بلْ وَفِيهَا مهندسون، إشترطَ عليهم إصلاحَ الجسورِ القديمةِ، أَوْ المتضرّرَةِ في زمنِ الحرب.

كَانَ للنَصْرَانِيّة أثرٌ آخرُ فِي نَصَارَى الْعَرَب، هُوَ أثرُها فِيهِمْ من ناحيةِ الفن، إِذْ أدخلت النَّصْرَانِيَّة بَيْنَ الْعَرَب فنا جديدا فِي البناء، هُوَ بناء الكَنَائِس والأَدْيِرَة والمذابح والمحاريب والزخرفة، كَمَا أدخلت النّحت والتّصوير المتأثرين بالنّزعة النَّصْرَانِيَّة، ولدخول أكثر هَذِهِ الأشياء لأول مَرَّةً بَيْنَ الجاهلِيّين، استعملت مسمياتها الأصلية اليُونانِيّة أَوْ الآرامية فِي اللُّغَة الْعَرَبِيّة، بَعْدَ أَنْ صقلت وهذبت، حَتَّى اكتسبت ثوبا يلائم الذّوق الْعَرَبِيّ فِي النّطق. وتكشف الحفريات عَنْ مدى تأثر النَّصَارَى الْعَرَب الجاهلِيّين بالفن النَصْرَانِيّ المقتبس عَنْ الرّوم والأحباش[2].

- التّأليف الْمَسِيحِيّ فِي القَرْن الأوّل الهِجْرِيّ/ السّابع المِيلادِيّ:

أخذت السّرْيانِيّة تنمو مَعَ انتشار الْمَسِيحِيَّة شيئًا فشيئًا، ووصل التّأليف بالسّرْيانِيّة والتّرجمة إِلَيْهَا مَعَ بداية القَرْن الثّالث المِيلادِيّ إِلَى مستوى رفيع، وَقَدْ ازدهرت حركة التّأليف بالسّرْيانِيّة حَتَّى القَرْن السّابع، وَلَكِنَّ لغة التّأليف انقسمت فِي القَرْن الخامس المِيلادِيّ - أي فِي منتصف فترة الازدهار - إِلَى سُرْيانِيّة شرقية وسُرْيانِيّة غربية[3].

إثر استقرار فرق من الْمَسِيحِيَّة فِي الشّرق قَبْلَ الإِسْلَام، ازدهرت التّأليف الْمَسِيحِيَّة وآدابها المُخْتَلفة فِي بلاد مَا بَيْنَ النّهرين عبر اللُّغَة السّرْيانِيّة بالذّات، فتأسست المدارس، وانتشر التّعليم فِي مستوياته المتعَدّدة فِي كنف الكَنَائِس والأَدْيِرَة الَّتِي غصت بِهَا هَذِهِ

(1) - محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص 495.
(2) - علي: الْمُفَصَّل في تاريخ العرب 12/ 266.
(3) - محمود فهمى حجازى: علم اللُّغَة العَرَبِيّة، ص 176.

المنطقة[1]. فضلا عن ان الآداب السريانية كانت حياتها بعد الفتوح الأسلامية ضعيفة، لغزو اللغة العربية لها وغلبتها، ولم يبق منها الا تآليف المدرسة النصرانية المصبوغة بالصبغة الدينية، لأن أكثر الكتاب كانوا قِسِّيسين ورهبانا[2].

فِي القَرْن الأوّل الهِجْرِيّ/ السّابع المِيلادِيّ، كَانَتْ الكتابة والتّأليف أمرا شائعا لَدَى النَّصَارَى، وَبِخَاصَّةٍ الَّذِينَ يحيون الحياة الرّهبانية، فانهم تركوا كتابات عَنْ مُعْتَقَدات اللّاهُوتِيَّة، والأناشيد والمزامير الدّينِيَّة، والخطب والتّواريخ وغيرها. ومن أمثلة التّأليف ومجالاته:

- ايشوعياب كدالايا البِطْرِيق، ألف كتاب الرّؤوس فِي توبيخ المخالفين عَلَى المذهب، وكتاب فِي الالفاظ المترادفة، وكتابا يحوي 22 مسألة فِي أسرار البيعة، وشرحا للمزامير[3]، وَلَهُ رسائل وتواريخ وخطب، لَمْ يَبْقَ من مؤلفاته الا نَشِيدٌ أدخله النَّسَاطِرَة فِي مزاميرهم[4]، ورسالة اعتقادية[5].

- ايشوعياب الحدياني البِطْرِيك (30 – 40هـ/ 650 – 660م) ألف كتبا كثيرة مِنْهَا: النّصائح للمبتدئين، كتاب الرّؤوس، كتاب التّرجمة، مداريش، كتاب التّعازي، قصائد، مجادلات[6]، والفرض السّنوي[7].

- البِطْرِيك جورجيس (41 – 60هـ/ 661 – 680م)، لَهُ قوانين مجمعية سنَّها سنة

(1) – نينا بيغلوفسكايا: «انتشار المسيحيّة والاضطهاد»، موقع دراسات سريانية، 2012 ،Aug 13.
(2) – أحمد أمين: فجر الاسلام، ص131.
(3) – ادي شير: كلدو وآثور/2 285
(4) – وَهُوَ مثبت فِي مخطوط المعهد البريطاني 14675. عبد يشوع: فهرسة المكتبة الشرّقية، 3/ 105؛ السّمعاني، بولس: تاريخ الآداب السّريانية 3/ 34
(5) – مثبتة فِي المخطوط الفاتيكاني البورجي ص592. عبد يشوع: م. ن. 3/ 105؛ السّمعاني، بولس: م. ن. 3/ 34.
(6) – مِنْهَا طبعت: الرّسائل طبعها دوفال 1904، جهاد ايشوعسبران طبعه الأب شابو 1896. ادي شير: م. س. 2/ 286.
(7) – محفوظ عِنْدَ السّريان النّسَاطِرَة، وفي المكتبة الفاتيكانية نسخة مِنْهُ، طبع للمرة الاولى سنة 1538، وطبعه الأب بدجان اللعازاري فِي باريس سنة 1886. السّمعاني: م. س.3/ 36.

676م[1]، ورسالة اعتقادية، وكرازة الطّلبة، ونشيد تكريس الكَنِيسَة[2].

- الأُسْقُف جرجس (ت107هـ - 725م) صاحب أبْرَشِيَّة عاقولاء، كَانَ من المتبحرين فِي الفَلْسَفَة، لَهُ شروح عَلَى الأسفار المقدسة، وأسرار الكَنِيسَة، وترجم كتاب الاورغانون لأرسطو[3].

- بابي النّصيبيني، كَانَ بأيام البِطْرِيك صليب زخا، (95 - 110هـ/ 714 - 728م)، لَهُ مُؤَلَّفَاتٌ كثيرة، وخِطَبٌ مُتَنَوِّعَةٌ مُرَتَّبَةٌ عَلَى الحُرُوفِ الهِجَائِيَّةِ، وإرْشَادَاتٌ، ومَرَاثٍ، وتَبْرِيْكَاتٌ مُرَتَّبَةٌ عَلَى الحروف الهجائيَّة، وأناشيدُ، وأغانٍ كَذَلِكَ، وقصيدةٌ فِي مدح نسطور، وتواريخُ[4].

- ماروثا (ت28هـ/ 649م): مطران تكريت، من اليَعَاقِبَة، أصبح رئيسا للكَنِيسَة المشرقية فِي الحِيرَة (8هـ/ 629م)، لَهُ رسائل دافع فِيهَا عَنْ المنوفيزية، وترجم الإنْجِيل إلَى اللُغَة الْعَرَبِيّة بتكليف من الأمير الْعَرَبِيّ عمر بن سعد[5].

- يعقوب الرّهاوي (19 - 89هـ/ 640- 708م) الَّذِي اشتهر من الرّها، وأصبح أُسْقُفاً عَلَيْهَا للمذهب الأرْثَذوكْسِيّ اليَعْقُوبِيّ (64 - 69هـ/ 684- 688م)، وَقَدْ انصرف إلَى التّأليف، وأشهر كتبه هُوَ كتاب الأيام السّتة فِي وصف العالم وظواهره الطّبِيعيَّة فِي إطار قصة الخليقة، وأعاد النّظر فِي ترجمة الكتاب المقدّس المعروفة بـ (البسيطة)، وَفِي تتمّة تواريخ (أوسابيوس القيصري) (265- 339م)[6]. وإليه تنسب

---

(1) - مثبتة فِي مجموعة المجامع النّسْطُورِيّة ومحفوظة فِي مخطوطتين سريانيتين: أحدهما المخطوط الفاتيكاني البورجي 82، والآخر مخطوط المكتبة الوطنية فِي باريس رقم 332. السّمعاني: تاريخ الآداب السّريانية3/ 38.

(2) - وَهُوَ النّشيد المثبت فِي صباح الخميس من الفرض الماروني، ترجمه مكلان إلَى الانكليزية، وطبعه فِي لندن سنة 1894م. السّمعاني: م. ن. 3/ 39.

(3) - النّصرانية وآدابها، ص101. تاريخ نصارى العِرَاق، ص58.

(4) - ذكرها توما المراغي (ق9م) فِي تاريخه الرّهباني. السّمعاني: م. س. 3/ 40.

(5) - سوريال: تاريخ الكنيسة الشرّقية، ص 237.

(6) - سوريال: م. ن. 238؛ حسين قاسم العزيز: «دور المراكز الثّقافيّة السّريانية فِي تفاعل العرب والمسلمين الحضاري»، موقع دراسات سريانية، 2012 Aug 13،

الحركات الخمس فِي اللُغَة السّرْيانيّة[1].

- جـورج الْأُسْقُف فِي الكوفة والجَزِيْرَة الْعَرَبِيّة (66 – 106هـ/ 686 – 724م)، لَهُ عِدَّةُ اطروحات لَاهُوتِيَّة دافع فِيهَا عَنْ المنوفيزية، ورسائل فِي التّاريخ والفلك[2].

- يوحنـا الدّمشقـي، القديـس (40 – 143هــ/ 660 – 760م) لَهُ مؤلفات كثيـرة، مِنْهَا: كتـاب فِي الفَلْسَفَة والمنطق، كتاب فِي الأَمَانة المقدسـة، رد القديس عَلَى النَّسَاطِرَة واليَعَاقِبَـة، تفنيـد لآراء الْمُسْلِمِيـنَ، مقـالات، مِنْهَـا: فِـي تكريم الصّـور، والثّالوث المقدس، والبتولية[3].

- يوحنـا مـارون: يُعـزى لـه ما لا يقل عـن عشرة كتـب ورسائل، ومنها كتاب: «شـرح الإيمـان»[4]، و«تـفسير خدمة القـداس» و«فصلٌ في الكهنوت». امـا السمعاني فيقر بـأن يوحنا مارون أَلَّف مصنفين فقط هما: «شـرح الإيمان» و«ليتورجية» (اي خدمة القداس)[5].

- يوحنا النيقوسي (ق1هـ/ 7م): صاحب كتابه «تاريخ مصر» واكب فيه أحداث الفتوح وعايشهـا، وحـاول أنْ يقـدِّم رؤيةً معاصـرة للمَسِيحِيِّـنَ تجاه العلاقـات المسيحيَّة المسيحيَّة، والعلاقات المسيحيَّة الإسلاميَّة تكاد تكون تفصيليَّة.

- سبيـوس Sebios» المـؤرِّخ الأرمنـيّ الـذي عاصـر الفتوحـات الإسلاميّـة، وألَّـف «تاريـخ هرقل»، وكتب فيه عـن الفتوح بتفصيلٍ كشاهد عيان، إذْ رسم لوحة واضحة المعالـم لأحداث عصره بوجهٍ عام، وتاريخ بـلاده السياسيِّ بوجهٍ خاص، ودقَّق في نقـل المعاهـدات، وأنفرد بقسم منهـا، كمعاهدة العرب مع الأرمن إبَّـان الفتح، كما

---

(1) – مار إغناطيوس زكا الأول عيواص: «مار يعقوب الرّهاوي (633 – 708م) اللاهوتي، المؤرخ، المترجم، اللغوي السّرياني، مستنبط الحركات السّريانية»، مجلة مجمع اللُغَة السّريانية _ المجلد الثاني _ 1976.

(2) – سوريال: م. س. 239.

(3) – لويس شيخو: المخطوطات العَرَبِيّة لكتبة النّصرانية (دار المشرق، بيروت2000)، ص217

(4) – ضمن مخطوطة الفاتيكان 146 السريانية، والتي تمّ نسخها عام 1392. متي: الموارنة في التاريخ، ص 141.

(5) – الدبس: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة، ص65؛ متي موسى: الموارنة في التاريخ، ص 141.

وتحدَّث باسهاب عن الشقاق بين مذهبيّ الدولة والأرمن المنوفزيتي[1].

- اللُغَة والنّحو:

اللغـة السّرْيانِيّـة لهجة آراميـة ارتبطت بالْمَسِيحِيَّـة، إِذْ كَانَتْ فِي بـادئ أمرها تسمى الآراميـة، ويُعرف المتكلمون بِهَـا بالآراميين[2]. انتشرت السّرْيانِيّـة لتصبح لغة جماعة كبيـرة فِـي شـمال العِـرَاق والشّـام والجَزِيْرَة، فَهِـيَ لغـة إِبْرَاهِيم أبـي الأنْبِيـاء إسحاق واسماعيـل[3]، وأضحت مَـعَ انتشار الْمَسِيحِيَّة لغةً من أهم لغـات الشّرق الْمَسِيحِيّ فِي القرون المِيلادِيّة الاولى[4].

أن اللغات السّرْيانِيّة والْعَرَبِيّة والعبرانية أخوات فِي السّامية، مُشْتَرَكات فِي الضَّمائر وأغلـب القواعـد الَّتِي يعتمد عَلَيْهَا فِي تركيب الجمـل، وأنَّ آلافا من الكَلِمَات مُشْتَرَكة بَيْـنَ اللغـات الثّـلاث[5]. والسّرْيانِيّـة ضاربة فِـي القدم، إِذْ قَـالَ ابنُ دريـد (ت321هـ/ 933م): سُمي يعرب بن قحطان؛ لِأَنَّهُ أولُ مَنْ انعدلَ لِسانُه من السّرْيانِيّة إِلَى الْعَرَبِيّة[6].

وَفِـي أول مـن وضـع الخط الْعَرَبِيّ، قيـل: أن ثلاثة نفر من طـيء الْمَسِيحِيَّة اجتمعوا ببقعة، وَهُمْ: مرامر بن مُرَّة، وأسلم ابن سدرة، وعامر بن جدرة؛ فوضعوا الخط، وقاسوا هجـاء الْعَرَبِيّـة عَلَى هجـاء السّرْيانِيّة، فتعلمه قوم من الأنبار[7]. وَهَذَا قَـدْ يَدِلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا أَوَّلًا يُعلِّمون الهجاءَ عَلَى ترتيب أَبْجَد.

---

(1) - انظر: فـايـز نـجـيـب اسـكـنـدر: الـمـسـلـمـون والـبـيـزنـطـيـون والأرمـن فـي ضـوء كـتـابـات الـمـؤرخ الأرمـنـي سـبـيـوس، ص10 - 75.

(2) . الآرميون: هُمْ بنو آرام بن سام بن نوح عَلَيْهِ السّلام. وكانوا يعيشون فِي البلاد الَّتِي تسمي فِي التوراة: «آرام»، وَهِيَ المعروفة ببلاد الشّام والعِرَاق. زاكية رشدي: السّريانيّة نحوها وصرفها، ص 9.

(3) . القلقشندي: صبح الأعشى 1/ 360.

(4) . محمود فهمي حجازي: علم اللُغَة العَرَبِيّة، ص 176.

(5) . «حديث مَعَ زائر كريم» مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السّنة السّادسة - العدد الرّابع - ربيع الثّاني 1394هـ - ابريل 1974م،، ص 23.

(6) . جمهرة اللُغَة 1/ 319؛ السّيوطي: المزهر فِي علوم اللُغَة وأنواعها، 1/ 29.

(7) . ابن عبد ربه: العقد الفريد 4/ 240؛ الزّبيدي، (ت 1205هـ): حكمة الإشراق إلىَ كتاب الآفاق ص 28

وَبِحَسَبِ ابنُ فارِسٍ – أَنَّهُ قرأ فِي بعض الكتب أنَّ الحروف الأبجديّة فرع عَنْ السّرْيانِيّة؛ لأنّها عَلَى ترتيبها[1]. وأورد أبُو الفرج أَنّ «المرقش الأكبر» دفعه ابوه إِلَى نَصْرَانِيّ فِي الحِيرَة وتعلم عَلَيْهِ الخط[2]، وَأَنّهُ استعان بالحروف والكَلِمَات السّرْيانِيّة ووظفها فِي الْعَرَبِيّة، ويجدر العلم أنّ العُبّاد فِي الحِيرَة كَانُوا أول الْعَرَب الَّذِينَ استعملوا الخط الْعَرَبِيّ[3].

مِنْ هُنَا يعدُّ أقدم مثل لتأثير السّرْيانِيّة عَلَى الْعَرَبِيّة هُوَ الأبجديَّة النّبطيَّة الَّتِي استعارها الْعَرَب لكتابتهم، فالخط النّبطيُّ مشتقٌّ من الآراميِّ، والإملاء الْعَرَبِيّ القديم قريب من الإملاء الآراميِّ، ويظهر ذَلِكَ فِي الخط الكوفي[4].

يستفاد من المسار التّاريخيّ لتَطَوّر اللغات السّامية، أنَّ السّرْيانِيّة نمّت عَلَى حساب العبريَّة، مِنْذُ تشتت اليهود فِي خروجهم من فلسطين، فَإِنَّ بني إِسْرَائِيلَ فِي زمان عيسى كَانُوا يتكلمون باللغة السّرْيانِيّة فِي أمور دينهم ودنياهم، وَلَمْ يبقَ عِنْدَهم من العبرانية إلا أدعية الصّلوات[5]. أما التلمود فقسمان: تلمود بابلي، وتلمود أورشليمي، وهما مختلفان في اللغة والمحتوى؛ فلغةُ التلمود البابلي هي الآرامية الشرقية (آرامية العِرَاق)، وأمَّا لغة التلمود الأورشليمي، فإنها شبيهة بالآرامية الغربية (آرمية سوريا)، وفيها مصطلحات وألفاظ سريانية ولاتينية[6].

اختلف الباحثون في لغة المسيح[7]، فيرى« A Meyer.» أن لغة عيسى كانت

---

(1) . ابن فارس (ت395هـ): الصّاحبي فِي فقه اللُّغَة الْعَرَبِيّة ومسائلها وسنن العرب فِي كلامها، ص 20.

(2) .الأغاني 6/ 139.

(3) . قنواتي: المسيحيّة والحضارة الْعَرَبِيّة،(الْمُؤَسّسَة الْعَرَبِيّة للدراسات والنّشر، بيروت، لا. ت) ص 55.

(4) . مختار: البحث اللغوي عِنْدَ العرب، ص 354.

(5) . الهلالي، (ت1407هـ): «حديث مَعَ زائر كريم»، م. س. ص 21.

(6) – عمر عبد العزيز قريشي: «التلمود ومنزلته عند اليهود»، موقع شبكة الألوكة30/ 7/ 2013.

(7) -: قال ابن تيمية: «ومن قال إن لسان المسيح كان سريانياً (أي آرامياً) أو رومياً، فقد غلط «(الجواب الصحيح 1/ 90). وذهب بعضهم إلى أن «هذه المعطيات جميعها تبين أن أغلب حديث عيسى كان باللغة الآرامية، وهي اللغة الشعبية التي كانت شائعة. انظر: عبد العزيز شهبر: «لغة المسيح عيسى بن مريم «(ص 112، 113)، بحث في كتاب لغات الرسل وأصول الرسالات.

الآراميــة[1]. ومنهم من قال: الإِنْجِيل نزل بالسريانية[2]. وقد يستدل عَلَى ذَلِكَ من النّص القرآني: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} (إِبْرَاهِيم 4). ونستفيد أهميَّة السريانيــة فـي عصر الرسالة من سنة الرّسول، أَنَّهُ أمـرَ زيد بن ثابت (ت45هـ/ 665هـ) بتعلم السّرْيانِيّة؛ ليقرأ لَهُ كتب اليهود ويكتب الأجوبة[3].

يدل هَذَا عَلَى أَنَّ عُرْفَ السّرْيانِيّة تعينت لشرفِها، بإنزال بعض كتب الله تعالى بِهَا[4]، وأَنَّها لغة تفاهم شائعة فِي الآفاق عرفها الْعَرَب قَبْلَ الإِسْلَام، ولاسِيَّمَا فِي الفضاء الدّينِيّ، فَقَدْ كَانَ الأحناف فِي مَكّة يقرأون ويكتبون بالسّرْيانِيّة والْعَرَبِيّة[5]، وبعد الإِسْلاَم، فَضْلاً عَـنْ مدعــاة الرّسول بعــض النّاس لتعلمها، كَـانَ ممن يحسنها عبد اللـه[6] بن عمرو بن العاص (ت65هـ/ 685م)، ويقال: أَنَّهُ حصل عَلَى نسخة من الكتاب المقدّس أَوْ بعض نسخة[7]، وكَانَ يَقْرَأُ بِالسّرْيانِيّة[8].

مـن اليهود الَّذِينَ دخلوا فِي الإِسْـلَام، وكَانُوا يجيدون السّريانيَّــة، كعب الاحبار[9]. ومـن التّابعيـن كَانُوا يعرفـون السّرْيانِيّة: سعيد بن جبير (ت95هـــ/ 714م)[10]، الحسن البصـري (ت110هـ/ 728م)[11]. ومـن العلماء وقدماء المؤلفين عرفـوا السّرْيانِيّة: ابن

---

(1) – عبد العزيز شهبر: لغة المسيح عيسى بن مريم. نقلا عن Dalman، G. JESU Mutter sprache، leipzig 1896

(2) . الهلالي، «حديث مَعَ زائر كريم»، م. س. ص 21.

(3) – التّرْمِذِيّ: الجَامِع، بَاب فِي تعلم السّريانية، 7/ 498؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 6/ 280؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى 2/ 115.

(4) . الشّرواني: الحواشي عَلَىَ تحفة المحتاج بشرح المنهاج (دار إحياء التراث العَرَبِيّ، بيروت) 2/ 16.

(5) – علي: المُفَصّل 16/ 346.

(6) – ترجمته: أَبُو نعيم: حلية الأولياء 1/ 283؛ ابن حجر: تهذيب التهذيب 5/ 337».

(7) . أَبُو عبيد: غريب الحديث 4 / 282؛ الوفائي، نصر الأشعري: المطالع النّصرية للمطابع المصرية فِي الأصول الخطية، ص 427.

(8) . ابن سعد: م. س. 4/ 201.

(9) . الطبري: جامع البيان 14/ 352.

(10) . الطبري: م. ن. 16/ 6.

(11) . الطبري: م.ن. 13/ 72.

إسحاق (ت151هـ/ 768م)[1]، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ/ 839م) عرف السّرْيانِيّة، وذكر أنَّ أداة التّعريف فِيهَا وَهِيَ الفتحة الطّويلة فِي أواخر كلماتها[2].

يرجع أصل كثير من المعربات إلَى لغة بني إرم أَوْ إلَى لغة الفرس، لاحتكاك الْعَرَب الحضاري بِهِمْ مباشرة، وتليها المعربات المأخوذة من لغات أُخْرَى مثل اليُونانِيّة والعبرانيَّة واللاتينيَّة والحبشيَّة والقبطِيَّة، وكثير مِنْهَا إنَّمَا دخل إلَى الْعَرَبِيّة عَنْ طريق السّرْيانِيّة، فَقَدْ كَانَ السّريان قَدْ أدخلوها فِي لغتهم، ومن لغتهم هَذِهِ تعلمها الْعَرَب. وعرفت المعربات السّرْيانِيّة الأصل، مِمَّا أفصحت بِهِ حضارتهم، فِي الزراعة فِي الغالب، وَفِي التّوقيت، ثُمَّ فِي مَوْضُوعَات دِينِيَّة وصناعية وتجارية وَفِي أمور أُخْرَى[3].

أرجع أقدمُ المفسرين عِدَّةَ مفرداتٍ قرآنيَّةٍ إلَى السّرْيانِيّة، ذكر مجاهد بن جبر (ت104 هـ/ 722م): السّرِيُّ: النَّهَرُ الصّغِيرُ - بِالسّرْيانِيّةِ. الطّورُ: الْجَبَلُ - بِالسّرْيانِيّةِ»[4]. ومقاتل بن سليمان (ت150هـ/ 767م(: قَالَ: «طه» يعني: يا رجل، وَهُوَ بالسّرْيانِيّة. الكوكب الدّري وَهُوَ: الزهرة فِي الكواكب، ويقال المشتري، وَهُوَ: البرجرس - بالسّرْيانِيّة. وَأَمَّا اسْمُ أَحْمَد - فبالسّرْيانِيّة: فارقليطا. ونوح - بالسّرْيانِيّة: السّاكن الَّذِي سكنت إلَيْهِ الأرض[5]. والطّبري: اسم «طالوت» - بالسّرْيانِيّة: شاول. «شعيب» اسمه - بالسّرْيانِيّة: «بثرون»[6].

سَجَّل علماء اللُّغَة مفردات عديدة مِمَّا أخذت الْعَرَبِيّة من السّرْيانِيّة، مِنْهَا: التَّأْمُور، والدّزْبخة، والبَرْناساء[7]. ووجد بحذاء «مَصَّ» الْعَرَبِيّة «مَصَّ» السّرْيانِيّة، وبإزاء «مَسَّ»

(1) . الطبري: م.ن. 10/ 310.

(2) . رمضان عبد التواب: المدخل إلَى علم اللُّغَة ومناهج البحث اللغوي، ص 52.

(3) . علي: المُفَصَّل فِي تاريخ العرب 16/ 338.

(4) . تفسير مجاهد، ص455، 622.

(5) . تفسير مقاتل 3/ 20، 199، 4/ 316، 449، 12/ 455.

(6) . الطبري: م.س. 5/ 307.

(7) . قَالَ ابن دُريد: التّأْمُور وَهُوَ موضع السرّ، والدَّزْبخة: الإصغاء إلَى الشيّء، أحسبها سريانية. وزاد الأندلسي: البَرْنساء والبَرْناساء بمعنى الخَلْق وقال: تفسيره بالسّريانية: ابن الإنسان. السيوطي: المزهر فِي علوم اللُّغَة وأنواعها 1/ 225.

الْعَرَبِيَّة، «مَسَّ» السّرْيانِيَة[1]، التّامور: رُبمَا جَعَلُوهُ صبغا احمر، وَرُبمَا سمي دم الْقلب تامور[2]. شُرَحْبِيل، وشُراحِيل. عادِياء - يُمَدّ ويُقصر. حَيَا - مَقْصُور. سَمَوْءَل وَهُوَ أَشْموِيل[3]. وإن الشّهر موجود فِي السّرْيانِيّة بلفظ «سهرا»، ومعناه الهلال والقمر[4]، وَكَذَلِكَ أسماء الشّهور من السّرْيانِيّة[5]. وعرفت اللُّغَة السّرْيانِيّة الاسم: tayyaya «طيايا» بمعنى: «الرّجل الطّائي» ثُمَّ بمعنى: «الْعَرَبِيّ» مطلقا. كَمَا تسمى الْعَرَبِيّة عِنْدَ السّريان: lessana tayyaya «لشانا طيايا» بمعنى: «اللسان الْعَرَبِيّ»[6].

جدير بالعلم إنَّ المتمعنَ فِي البحث اللُّغَويّ يجد مئات من الكَلِمَات المتشابهة فِي المبنى والمعنى فِي اللغات السّامية الشّقيقة، وعلى سبيل المثال: «ق ر أ» جذر (مورفيم) لفظة «قُرْآن» موجود فِي: العبرية، السّرْيانِيّة، الْعَرَبِيّة[7]. وَهِيَ الَّتِي نزلت بِهَا الكتب السّمَاوِيّة للأَدْيَان الثّلاثة: الْيَهُودِيّة الْمَسِيحِيّة الإِسْلَام، ووحدة الأُصول اللُّغَوِيّة تدل عَلَى التّعَايُش اللُّغَويّ والإندماج بَيْنَ أفراد العائلة الإِبْرَاهِيمِيّة فِي ظِلّ التّقارب المكاني، فَضْلًا عَنْ أصل واحديّة الخالق، الَّتِي تسهم فِي تأصيل «كلمة سواء بَيْنَهُمْ»، عَلَى نحو يؤسس تفاعل المشاعر والمعاني والمباني، وتقارب المفاهيم والنّتائج.

ومثلها فِي الْمُشْتَرَك السّامي لفظ «سرِيّا»، ورد فِي آية مختصة بالسّيد الْمَسِيح، نحو:

(1) . صبحي الصّالح (ت1407هـ) دراسات فِي فقه اللُّغَة، ص 159.
(2) . ابن دريد: جمهرة اللُّغَة، 3/ 1326.
(3) . ابن سيده: المخصص 4/ 224
(4) . «حديث مَعَ زائر كريم»، م.س. ص 28.
(5) . تبدأ بشهر تشرين الأول، وتنتهي بشهر أيلول:

1	تِشرينُ الأول	5	شباط	9	حزيران
2	تِشرينُ الثّاني	6	آذار	10	تموز
3	كانونُ الأول	7	نيسان	11	آب
4	كانونُ الثّاني	8	أيار	12	أيلول

المعجم الوسيط (1/ 1، 2، 21، 22، 34، 89، 170، 306، 412، 470، 2/ 863،
(6) . رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات فِي اللُّغَة، ص 231.
(7) . للتفصيل انظر: أحمد مُحَمَّد علي الجمل: «الْقرآن ولغة السّريان»، مجلة كلية اللغات والترجمة ـ جامعة الأزهر، عدد 42 لسنة 2007م، ص 75 - 82.

{فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} (مَرْيَم24)، ذكر مجاهد: السَّرِيُّ: النَّهَرُ الصَّغِيرُ بِالسّرْيانِيَةِ[1]، وَكَيْفَ يكون تَحْتَهَا نهرٌ، ثُمَّ يتكلم؟. بَيْدَ أَنَّها – بحَسَبِ «لوكسنبرغ Luxenberg» – فِي السّرْيانِيّة «شَرِيًا šaryā»، مشتقة من الفعل «شرُا šərā» بمعنى: «حلَّ»، وبذلك تكون كلمة «سريا» بمعنى «الحلال»[2]، أي لَيْسَ ابن حرام، ردا عَلَى خطاب مجتمعها. لَعَلَّ الأَقْوَى دلاليًا، أنها فِي السّرْيانِيّة بمعنى: «حرر» و«أطلق»، ويكون معنى «سريًّا»: «محرَّرا»[3]، والدّليل ورودها فِي المعنى نفسه فِي سورة آل عمران: {إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ: رَبِّ، إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً 35}.

أَمَّا فِي النّحو فَقَدْ تأثَّر علماءُ اللُّغَةِ السّرْيانِيَةِ بالنَّحْوِ اليُونَانِيّ، إِذْ قسَّم أفلاطون (429– 347 ق. م) الكَلَامَ إِلَى اسْمٍ وفِعْلٍ، وأضاف أرسطو (384– 322 ق. م) لَهُمَا قسماً ثالثاً يتميز عَنْ سابقيه، وَهُوَ الرّابط[4]، فالكَلَامَ – عِنْدَه – يقسم إِلَى: اسم، وفعل، ورابط. ثُمَّ كتب ديونيسيوس ثراكس (170– 90 ق. م) «فن النّحو»، الَّذِي ترجمه يوسف الأهوازي (ت44ق.ه/ 580م) من اللُّغَة اليُونانِيّة إِلَى السّرْيانِيّة، وأسس للنحو السّرْيانِيّ، واخترع بعض علامات للشكل، وكتب رسالة عَنْ الكَلِمَات الَّتِي تكتب بصورة واحدة، ولكِنْ يتعدّد معناها.

ومِنْ ثَمَّ أخذَ عَنْهُمْ الْعَرَبُ النّحوَ، فَإِنَّ نشأةَ الحركاتِ الأعرابيَّةِ فِي صدرِ الإِسْلَام، الَّتِي يُنْسَبُ وضعُها إِلَى أَبِي الأسودِ الدّؤليّ (ت69هـ/ 689م)، هِيَ – فِي الحَقِيْقَةِ – مأخوذةٌ عَنْ السّريان. فَقَدْ استعملَ أَبُو الأسود طريقةَ الشّكلِ بالنُّقَطِ، وَكَانَتْ إِحدَى

---

(1) . تفسير مجاهد، ص455، 622.

(2) . Die Syro Aramaische lesart des Koran. Ein Beitrag zur Entschlusslung der Korans-sprache، 144 – – 153. القراءة الأرامية السّريانية للقرآن الكريم. مساهمة فِي تحديد لغة القرآن)).
نقلا عَنْ الجمل: القرآن ولغة السّريان، ص88.

(3) . أحمد الجمل: القرآن ولغة السّريان، ص88.

(4) . أرسطو طاليس: كتاب الشّعر، (مكتبة النّهضة، القاهرة 1953م)، ص 55 – 108.

طرقِ الشّكلِ عِنْدَ السّريانِ، وَهِيَ الطّريقةُ الّتِي اتّبَعَها النَّساطِرَةُ[1].

فِي حِين يَرَى ابن العِبْري: أنَّ أوّلَ مَن وَضَعَ قَوَاعِدَ النَّحْوِ هُوَ القِدِّيسُ يعقوب الرّهاوي (ت89هـ/ 708م)، وبَعْدَهُ تَحَمَّسَ آخَرُون فِي تَأْلِيفِ الكُتِبِ[2]. ويتابِعَه جورجي زيدان بقولـه: «والْعَـرَب يغلب عَلَى ظَنّنا، أَنَّهُمْ نسجوا فِي تبويـب النّحو عَلَى منوال السّريان؛ لأن السّريان دونوا نحوهم، وألفوا فِيهِ الكتب فِي أواسط القَرْن الخامس المِيلادِيّ عَلَى يـد يعقوب الرّهاوي... ويؤيـد ذَلِكَ أن الْعَرَب بدأوا فِي وضع النّحو، وَهُمْ بالعِرَاق بَيْنَ السّريان والكلدان. وأقسام الكَلَام فِي الْعَرَبِيّة هِيَ نفس أقسامه فِي السّرْيانِيّة»[3].

لَـمْ يَكُـنْ الرّهاوي الا من علمـاء القَـرْن الأوّل الهِجْـرِيّ/ السّابع المِيـلادِيّ، وَهُوَ معاصـر لأبـي الأسـود، وتوفي بَعْـدَهُ بعقديـن. لَعَلَّ الإشـارة إلَـى أنَّ كُلًا مِنْهُمَـا ابتدع الحركـات الاعرابية، تكشف عَـنْ نشاط لُغَويّ ملموس للسُرْيانِيّـة والْعَرَبِيّة فِي آن معا، وتَطَـوّر يؤشـر إلَى التّنافس النّزيه للغتين رئيستين عَلَى خَارِطَـة العالم الْعَرَبِيّ والمشرق الإِسْلَامِيّ المتباعدة الآفاق، فِي ظِلّ حُرِّيَّة التّعْبِير الدّينِيّ والثّقافِيّ، لَاشَكَّ أَنَّهُ أَسَّسَ إلَى تمازُجٍ فِكْرِيّ وتَعَايُشٍ لُغَوِيّ وإجْتِمَاعِيّ.

ومـن فنون البلاغة: الكنايـة والتّعريض، إِذْ عرض «ابن الأثير» أحسـنَ مَا كتب فِيهَا زمـن المأمـون العباسـي، ثُـمَّ أردف[4]: «أن هذين القسمين مـن الكنايـة والتّعريض قَدْ وردا فِـي غير اللُغَـة الْعَرَبِيّة، ووجدتهما فِي اللُغَة السّرْيانِيّة، فَإِنَّ الإِنْجِيل الَّذِي فِي أيدي النَّصَارَى قَدْ أتى مِنْهُمَا بالكثير».

- الادب والشّعر:

(1) . زاكية رشدي: «تاريخ اللُغَة السّريانية»، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة. ص 268، 269؛ زاكية رشدي: «نشأة النّحو عِنْدَ السّريان وتاريخ نحاتهم»، مجلة كلية الآداب. جامعة القاهرة، سنة1958، ص 215، 217.

(2) . أحمد الجمل: «أقسام الكلام السّرياني»، ص3، موقع الجمل عَلَى شبكة الانترنيت http: / /alga-mal63.arabblogs.com/

(3) . جورجي زيدان: تاريخ آداب اللُغَة العَرَبِيّة 1/ 251.

(4) . ضياء الدين، (ت637هـ): المثل السّائر فِي أدب الكاتب والشّاعر، 3/ 75.

اشتهر الأدب اليُونانِيّ فِـي أرجاء البسيطة، ولاسِيَّمَا فِي بـلاد الشّام والعِرَاق، أسوة بعلومهـم فِـي الرّياضيـات والهندسة والطّـب والفلـك والفَلْسَفَة وغيرهـا من مفردات الحضـارة اليُونانِيّـة، فَكَـانَ الشّعر بأنواعه وأغراضـه يرتقي فِي معانيـه، ولاسِيَّمَا الشّعر الملحمي كـ «الالياذة» و«الأوذيسة»، وتلاه الأدب الرّومانـي، ويرى «أحمد أمين»[1]: أنَّ لأدب الحضارتين أثراً فِي الأدب الْعَرَبِيّ، وإن كَانَ ضعيفا فِي العصر الأُمَوِيّ، إِذْ لَمْ تَعْرِفْ خارِطَةُ الشّعر الْعَرَبِيّ شـاعِرًا، أصلُه يُونانِيّ، أَوْ رومانيٌّ تَعَلَّمَ الْعَرَبِيّة، وشَـعَرَ بِهَا بقَـدْرِ مَا عَرِفَتْهُ مِنْ شُـعَرَاءَ، مـن أصلٍ فارسيٍّ، يَنُمُّ عَنْ وجودٍ لـلأدب الفارسي أكثر من غيره.

ذكـر أهل اللُغَة: أنّ أهل الحِيـرَة كَانُوا أوّلَ مَن دوّنَ الشّعرَ، وكتبه، فِي أيّام آل المنذر اللّخميّيـن ملوكِهـا (268 – 633م)، وَكَانَتْ شـعراءُ الجاهلِيّةِ تَفِـدُ عَلَيْهِمْ، مثل: أعشى قيس (ت625م)، النّابغة الذّبياني (ت604م)، عبيد بن الأبرص (ت598م)، بشر بن أبي حـازم، عمرو بن كلثوم (ت584م)، الحارث بـن حلّزة (ت580م)، المتلمّس الضَّبعي، طرفة بن العبد (ت569م)، وغيرهـم. وَكَانَ آل المنذر يأمرون كتّابهم من أهل الحِيرَة أنْ يكتبوا أشعارهم، فأخذها النّاس عَنْهُمْ[2].

إِذَا مَـا بـرز غير واحد فِي الجاهلِيّـة والإِسْلَام عَلَى ساحة الأدب الْعَرَبِيّ من شـعراء النَّصَـارَى، فَإِنَّ أسلوبهم فِـي بحر الشّعر وقافية القصيدة لا يخرج عَـنْ التّقليد الشّعري الْعَرَبِـيّ، بَلْ هُمْ كَانُوا يتعصبون لَهُ، وَهَذَا دليل آخر عَلَى ميلهم إِلَى عصبة الدّم والقبيلة، أكثر من ميلهم إِلَى حاضنة الدّين، وَقَدْ بيَّنت دراسات نشاط الشّعراء الْمَسِيحِيِّينَ المتميز عَلَى خَارِطَة الأدب الْعَرَبِيّ، مثل شـعراء النَّصْرَانِيَّة فِي الجاهلِيّة والإِسْلَام للأب لويس شيخو. ونأخذ نماذج من الشّعراء النَّصَارَى، الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ دورٌ فِي الحياة الاِجْتِمَاعِيَّة، وَلَهُمْ علاقة مَعَ السّلطان.

---

(1) – فجر الإسلام، ص 135.

(2) – البكري: المسالك والممالك 1/ 428.

- أَبُو زبيد الطّائي(1) واسمه حرملة بن المنذر بن معدي كرب بن حرب بن حنظلة بن النّعمان بن حية بن شعبة، كَانَ أَبُو زبيد من زوار الملوك، والملوك العجم خَاصَّة، وَكَانَ عالمـا بسيرهم، وَكَـانَ الخليفة عثمان بن عفان يقربه عَلَى ذَلِـكَ، ويدني مجلسه، وَكَانَ نَصْرَانِيَـا فحضر ذات يـوم عثمان، وعنده المهاجرون والانصـار، فتذاكروا مآثر الْعَرَب وأشعارها، فالتّفت عثمان إِلَى أبي زبيد، فقال يا أخا بيع الْمَسِيح، اسمعنا بعض قولك، فَقَدْ أنبئت انك تجيد، فانشده قصيدته الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

من مبلغ قومنا النّائين إِذْ شحطوا   أن الفؤاد إِلَيْهِمْ شيّقٌ وَلِعُ

استعملـه الخليفة عمر بن الخطّاب عَلَى صدقات قومه، وَلَمْ يستعملْ نَصْرَانِيًا غيره، وبقي إِلَى أيام معاوية، وَكَانَ ينادم الوليد بن عقبة بن أبي معيط والي الكوفة، فَلَمَّا شـهد عَلَى الوليد بِأَنَّهُ شرب الخمر، وصرف عَنْ إمرة الكوفة، قَالَ أَبُو زبيد(2): [الخفيف]

فلعمر الإله لَوْ كَانَ للسّيفِ   نصالٌ، وللّسانِ مقالُ

مَا نفى بيتُك الصّفا ولا أتوه   ولا حالَ دونَك الإسعالُ

ومـن سمـات العدالة عِنْدَ ابي زبيـد، أَنَّهُ رَثَى الإِمَـامَ عَلِيًّا لَمَّا مات، عَلَـى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ - قبلا - جلد صديقه الودود الوليد بن عقبة، ذكر المبرد(3): [البسيط]

إن الكرام عَلَى مَا كَانَ من خلق   رهط امرئ خاره للدين مختارُ

طبٌّ بصير بأضغان الرّجال وَلَمْ   يعدلْ بخبر رسول الله أخبار(4)

وقطرة قطرت إِذْ حان موعدُها   وكل شي لَهُ وقتٌ ومقدار

حَتَّى تنصلها فِي مسجد طهر   عَلَى إمام هدى إن معشرٌ جاروا

---

(1) - ترجمته: ابن سلام: طبقات الشّعرء 2/ 593؛ أَبُو الفرج: الاغاني 12 / 127؛ ابن قتيبة: الشّعر والشّعراء ص 167؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق 12/ 321؛ ابن العديم: بغية الطلب 5/ 2188؛ ياقوت: معجم الادباء 4/ 107- 115؛ الصّفدي: الوافي بالوفيات 11/ 335؛ البغدادي: خزانة الأدب، 2/ 155

(2) - ابن حجر: الإصابة فِي تمييز الصّحابة 7/ 137.

(3) - المبرد، (ت 285هـ): الكامل فِي اللُغَة والأدب، 3/ 149؛ ابن حجر: م. س. 7/ 137.

(4) - خاره: اختاره. أضغان الرّجال: أسرارها ومخبآتها. والخبر: العالم. المبرد: م. ن. 3/ 149.

حمت ليدخل جناتٍ أَبُو حسن   وأوجبَت بَعْدَهُ للقاتل النّارُ

- الأخطـل غِيَاثُ بنُ غَوْثٍ[1] التّغْلِبِيُّ النّصْرَانِيُّ (ت110هـ/ 728م)، شَـاعِرُ البلاط الأُمَـوِيّ، ولد ونشأ فِي الجَزِيْـرَة الواقعة فِي الجزء الأعلى من وادي دجلة والفرات بَيْنَ العِـرَاق والشّـام، ذاع صيته فِي العصـر الأُمَوِيّ، وَكَـانَ يناصر قضيـة الأُمَوِيّين فِي وجه الحـزب الدّينِيّ[2]، ونال حظـوة لَدَى الخلفاء الأُمَوِيّين، حَتّـى أن عبد الملك بن مروان لَدَى سماعه قصيدة: [البسيط]

خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاحُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا   وأَزْعَجَتْهُم نَوىً فِي صَرْفِهَا غِيَرُ[3]

الَّتِي يمدحه الأخطل فِيهَا، كَانَ يتطاول لها، ثُمَّ قَالَ: ويحك يا أخطل، أتريد أن أكتب إِلَى الآفاق أنك أشـعر الْعَرَب؟، قَـالَ: أكتفي بقول أمير المؤمنين[4]. قَالَ ابْن رَشِـيق[5]: وَمـن الفحول الْمُتَأَخّرين الأخطل، وَبَلغت بِـهِ الْحَال فِي الشّعْر إِلَى أن... قَالَ مجاهرا، لَا يسْتَتر فِي الطّعْن عَلَى الدّين وَالِاسْتِخْفَاف بِالْمُسْلِمِينَ: [الوافر]

وَلست بصائم رَمَضَان طَوْعًا   وَلست بآكل لحم الْأَضَاحِي

وَلست بزاجر عنسا بكورا   إِلَى بطحاء مَكّة للنجاح

وَلست مناديا أَبَدًا بلَيْل   كَمثل العير حَيّ عَلَى الْفَلاح

وَلَكِنِّي سأشربها شمولا   وأسجد عِنْدَ منبلج الصّباح

دخـل فِـي دائـرة النّقائـض، الهجـاء بَيْـنَ الفرزدق(ت114هــ/ 732م) وجريـر

---

(1) - ابن الصّلت (سلمة) بن الطارقة ويقال ابن سيحان بن عمرو بن الفدوكس بن عمرو بن مالك بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ويكنى ابا مالك. ترجمته: ابن سلام: طبقات فحول الشّعراء 2/ 298؛ الاغاني8/ 290 – 302؛ ابن قتيبة: الشّعر والشّعراء ص 301؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق48/ 104؛ الذهبي: سير أعلام النّبلاء 4/ 589؛ شيخو: شعراء النّصرانية 2 / 170.

(2) - فيليب حتي: تاريخ سوريا 2/ 109

(3) - اتفق أهل الادب عَلَى ان البيت للأخطل، عدا الزبيدي: ذكر البيت من قَول الْأَعْشَى. تاج العروس 23/ 236

(4) - أَبُو الفرج: الأغاني 8/ 298؛ شيخو: مجاني الأدب فِي حدائق العرب 4/ 294؛ البطريرك مار إغناطيوس زكا الأول عيواص: «السّـريـان والإسلام تـاريخ مشتـرك» م. س.

(5) - ابن رشيق (ت463هـ): العمدة فِي محاسن الشّعر وآدابه 1/ 44؛ البغدادي: خزانة الأدب 1/ 461

(ت 111هـ/ 729م)، واستشهد بشعره أئمة اللُّغَة وأصحاب المعاجم، كالخليل[1]، وأبي عبيد[2]، والبغدادي[3] فِي آخرين.

- حسان بن سنان بن أوفى بن عوف، أَبُو العلاء التّنوخي الأنباري (60 - 180هـ)[4]: ولد سنة ستين من الهجرة عَلَى النَّصْرَانِيَّة، وَكَانَتْ دينه ودين آبائه ثُمَّ أسلم، وحسن إِسْلَامه، وَكَانَ يكتب بالْعَرَبِيّة والفارسيَّة والسّرْيانِيّة، ولحق الدّولتين، فَلَمَّا تقلد السّفاح (132 - 136هـ) رضي مذاهبه واستكتبه.

5. العيش المُشْتَرَك

أضحى العيش المُشْتَرَك بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ - فِي ظِلِّ الدَّوْلَة العَرَبِيَّة - ضرورة حَضَارِيَّة واِجْتِمَاعِيَّة، لتوافر روابط متعَدّدة بَيْنَ افراد المُجْتَمَع، إِذْ يحيَوْن عَلَى أرض واحدة، ويتكلمون لغة أصولها واحدة، وتجمعهم هموم وطموحات مُشْتَرَكة، وأهم من ذَلِكَ، تجمعهم وحدانية العُبُودِيَّة لله تعالى، والتي هِيَ دعوة جميع الرّسل والأنبياء[5].

وبفضل هَذَا الايمان وَهَذِهِ الرّوابط والمُمَارَسَات الايجابيَّة فِي ظِلّ الدَّولَة العَرَبِيَّة، تبلورت شَخْصِيَّة حَضَارِيَّة تؤمن «بدائرة القِيَمِ الأخلاقيَّة والرُّوحِيَّة المُشْتَرَكة الَّتِي تمثل منظومةً إِنْسَانِيَّةً واحدةً»[6]، إِذْ ترسم خَارِطَة العَلاقَات الاِجْتِمَاعِيَّة التَعَايُشيَّة بَيْنَ النّاس بشكل عام، وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ بشكلٍ خاصّ.

---

(1) - فِي 37 موضعا فِي كتاب العين، مثلا: 1/ 70، 2/ 131، 3/ 113، 4/ 78، 5/ 15، 6/ 82، 7/ 194، 8/ 53

(2) - فِي 22 موضعا فِي كتاب غريب الحديث 1/ 34، 78، 2/ 138، 237، 3/ 374، 453، 4/ 18، 367...

(3) - فِي 55 موضعا. خزانة الأدب، مثلا: 1/ 21، 461، 2/ 137، 3/ 50، 5/ 236...

(4) - التنوخي، (ت 384هـ) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة 6/ 100؛ ابن الجوزي: المنتظم 9/ 49؛ وقارن: تاريخ بغداد 8/ 258 - 260.

(5) - مُحَمَّد منير سعد الدين: «العيش المشترك الإسلاميّ المسيحيّ فِي ظل الدولة الإسلاميّة»، المكتبة البولسية، جونية، 2001، ص7.

(6) - فضل الله، السّيد: «استقبال وفد طلاب المعهد العَرَبِيّ»، ١٥/ ٤/ ٢٠٠٩، موقع بيانات عَلَى شبكة الأنترنيت. http: / /arabic.bayynat.org /NewsPage.aspx?id=7865

مِنْ هُنَـا تَحَفَّزَ النَّسِيج الإِجْتِمَاعِيّ عَلَى التَّفاعـل، ومشاركة أعضائه فِي الاحتفالات والمناسبـات الدِّينِيَّة، والإِجْتِمَاعِيَّـة، والاقتصاديّة، والفِكرِيَّة، والإِدَارِيَّـة. لَعَلَّ مردَّ هَذَا التَّحفيـز إِلَى تفعيـل منظومة الْحُقُوق، الَّتِي شـملتْ غيرَ الْمُسْلِمِينَ، حَيْـثُ تتجسَّد فِيهَا روحُ الإِنتمـاء للموطِن، وَقَدْ شـعروا أنفسهم جزءًا فاعِلا فِـي الْمُجْتَمَع، وَلَمْ يَسْتَشْعِرُوا حالـة اغتـرابٍ مَعَ السّلطة آنَـذَاكَ، والعلاقة بَيْنَهُمَا لَـمْ تَقُمْ عَلَى عقودِ الأَمَـانِ والحِمَايَةُ فحسـب، وإِنَّمَـا لَمْ يحظُرْ الإِسْلَام أيَّ عمل يدوي أَوْ فكري عَلَـى الْمَسِيحِيِّينَ[1]. فَضْلاً عَـنْ أَنَّ هَـذِهِ الدِّراسة استوعبتْ أفنانَ العلاقـةِ بَيْنَ الْمَسِيحِيِّيـنَ والْمُسْلِمِينَ، من تزاوج وتـزاور، وتعـارف، وتبادل معـارف ومصالح وحقـوق، جميعهـا تُعَدُّ ترجمـةً لتَعَايُش واضح المعالم، نَرْدُفُهُ فِيمَا يأتِي بنماذجَ أُخْرَى.

لَـمْ يَكُـنْ العيـشُ الْمُشْتَـرَك خاليًا مـن أُسُـس الاحتـواء، أَوْ الانْضواء تَحْـتَ ظِلال ديـن الدّولـة، إِلَّا أَنَّـهُ خـالٍ مـن القهْـرِ الدِّينِـيّ والإكـراه، وَهَـذَا يتماشَـى مَـعَ مقولـة «كايتانـي»Caetiani[2]: «لَمْ يَضْطَهِدْ الْعَرَبُ أحـداً فِي السّنوات الأولَى من أَجْلِ الدِّين، كَمَـا أَنَّهُـمْ لَمْ يعملوا عَلَى ضَـمِّ أحدٍ إِلَى دينِهم، ومِـنْ ثَمَّ تَمَتَّـعَ الْمَسِيحِيّون السّاميون، فِـي ظِـلّ الإِسْـلَام بَعْدَ الْفُتُوحـات الأولى، بحُرِّيَّـة لَمْ يتمَتَّعـوا بِهَا مِنْ قَبْـلُ طيلة أجيال عديدة...»[3].

وَفِيمَـا يتَعَلَّقُ بالسّـوادِ الأعظمِ مِن الْمَسِيحِيِّيـنَ الْعَرَبِ؛ فالظَّاهِرُ أَنَّهُـمْ قَدْ انتهَوْا إِلَى الامتِـزَاجِ بالمجتمـعِ الإِسْلَامِيِّ، الَّذِي كَانَ يُحِيطُ بِهِمْ عَـنْ طريقِ مَا يعرف بـ« الاندماجِ السّلمِـيّ»، الَّذِي تَمَّ بطريقةٍ لَمْ يَحِسّ بِهَا أحدٌ مِنْهُمْ، ولو أَنَّ الْمُسْلِمِينَ حاولوا إدخالهم فِـي الإِسْـلَام بالقُوَّة، عِنْدَما انضوَوْا بـادِئ الأمرِ تَحْتَ لواءِ الحكـمِ الإِسْلَامِيّ، لَمَا كَانَ

(1) - أسعد سحمراني: الإسلام بَيْنَ المذاهب والاديان، ص75.
(2) - «ليون» 1869 ــ 1926م)، الأمير والمستشرق الإيطالي، وَهُوَ صاحب الدراسات الشّهيرة والكبيرة فِي تاريخ الشرق والإسلام.. وصاحب التحقيقات لعدد من أمهات كتب التاريخ الإسلاميّ. عبد الرّحمن بدوي: موسوعة المستشرقين (كاتياني).
(3) - عمارة، مُحَمَّد: «الانتشار السّلمي للإسلام»، مجلة الْمُجْتَمَع العدد (1825) 1/ 11/ 2010م.

مـن الممكن أنْ يعيـشَ الْمَسِيحِيّون بَيْنَ ظهرانيهـم حَتَّى عصر الخلفاء العباسيين[1]. وإن مجـرد بقاء الكَنِيسَـة الْمَسِيحِيَّة القومية فِي إفريقية الشّمالية - مثل هَذَا الوقت الطّويل - ليدحضَ أيَّ زَعْمٍ بأنَّ تحولَهم إلَى الإِسْلَام قَدْ قام عَلَى القُوَّة والإكراه»[2].

وَبِحَسَـبِ خريسوستموس[3]: إن الدَّولَة العَرَبِيَّة كَانَتْ تحمـل طابعا إلهيا دِينِيًا، وأن الْعَرَب بمقتضـى كتابهم المقدس القُـرْآن حفظت حقوق أهل الذِّمَّـة، أوْ أهل الكتاب، وخَاصَّة الْمَسِيحِيِّينَ، وَكَانَ لَهُمْ أن يتَمَتَّعوا بحقوق الحياة، وتركت لَهُمْ حريتهم الدّينِيَّة، وحقـوق إِدَارَة جماعاتهـم، مَـعَ السّلطـة الرُّوحِيَّة فِي المحاكـم الخَاصَّـة، تَحْتَ ولاية رؤسائهم الرّوحيين، وَقَدْ اعتبر الإِسْلَام غير الْمُسْلِمِينَ طوائف دِينِيَّة، مثل المونوفيزت فِـي سُورِيَةَ وما بَيْنَ النّهريـن ومَصْر، والنَّسَاطِرَة فِي كردستان ومـا بَيْنَ النّهرين، وهاتان الطّائفاتان اندمجتا فِي جسم الدّولة الْعَرَبِيّة.

كثرتْ النصوص في كتابات الغربيين في لحاظ التعايش السلمي إبان أولى العصور الإسلاميَّـة، بأنّها حملت رايـة النَمْذَجَةِ والقدوة لما بعدهـا، ومنها: قول جب[4]: «لكي نفهم التطور التاريخي لاتجاه الإسلام، بالنسبة لغير المسلمين، ينبغي أن نلاحظ أنَّ هذا الاتجـاه كان قد استقر منذ القـرون الأولى، محكوماً بالظـروف السياسية والاجتماعية أكثـر من الدينية، إنَّه... كان التسامح هو الاتجاه السائد للإسلام بالنسبة لغير المسلمين لا سيمـا اليهـود والنصارى، هذا التسامـح الذي من المستحيل أن نتصور شـبيهاً به في الممالـك المسيحية، وفي ذلك العصر المبكر لا توجـد أي صورة من التعصب الديني تجاه غير المسلمين».

ويقول غوستاف لوبون[5]: «الحقُّ أنَّ الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب،

---

(1) - عمارة: م. ن.

(2) - أرنولد: الدعوة إلىَ الإسلام، ص63 - 70، 75 ـ 82، 102، 88، 461، 463، 72، 467، 103، 105، 68، 153.

(3) - بابادوبولس: تاريخ كنيسة انطاكية، ص536.

(4) - (الموسوعة المختصرة للإسلام) Gibb and Kromer، Short Encyclopedia of Islam، p206

(5) - حضارة العرب ص 605.

ولا ديناً مثل دينهم، وما جهله المؤرخون، من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب في سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم، التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد أنْ تولى سلطان العرب عن مسرح العالم».

وقال: «كانت أخلاق العرب في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة.. وكان عدلهم واعتدالهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة ووفاؤهم بعهودهم ونبل طباعهم مما يستوقف النظر، وناقض سلوك الأمم الأُخْرَى»[1].

- دواعي التّعَايُش المُشْتَرَك الإسْلَاميّ الْمَسِيحِيّ:

نتج عَنْ مخاض ال(ق1هـ/ 7م) بِمَا حمله من منافسة واحتكاك شديدين، بَيْنَ دول المنطقة وثَقَافَاتها الدّينِيَّة، من إسْلَاميّة ومَسِيحِيَّة ويَهُودِيَّة ومَجُوسِيَّة، ولغاتها الْعَرَبِيّة والسّرْيانِيّة والعبرية والفارسيَّة واليُونانِيّة، نتج عَنْ هَذَا التّمازج والاندماج جيلٌ، يحمل شعار النّموذج الأعلى للمعرفة، والمناقشة المتعَدّدة الثّقَافَات والدِّيَانَات واللغات. ومِنْ هُنَا تَتَجَلَّى أهَمّيَّة وخصوبة التّجربة المتشعبة، فِيمَا استخلصه من تجارب فِي الدّروس والعبر، النّاتجة عَنْ المُمَارَسَات التّاريخيّة، الَّتِي يجسد قراءتها وفهمها وضعُ نقاط الائتلاف والاختلاف بَيْنَ الثّقَافَات، ولاسِيَّمَا الدّينِيَّة مِنْهَا، من أجل تأسيس أركان التّعَايُش والتّفاهم، وإرساء مباني الحضارة فِي مفاصلها الفِكرِيَّة والتّشْرِيعِيّة والعمرانية والاقتصاديّة.

لَعَلَّ من أهم دواعي التّعَايُش المُشْتَرَك بَيْنَ الإسْلَام والْمَسِيحِيَّة:

- التّقارب الزماني والمكاني للبيئتين الْمَسِيحِيَّة والإسْلَاميّة، ينتج عَنْهُ تشابه الحاجات الدّينِيَّة وتواردها لَدَى شعوب المنطقة، ويقوي هَذَا الرّأي وحدة مصادر الدّيانتين السّماويتين الكِتَابِيّتين، ألا وَهُوَ الوحي، الَّذِي يضطلع بإرساء القيم العِبَادِيَّة والأخلاقية، وتوصيلها عَلَى لسان الأنْبِياء إلَى أممهم. وَهَذَا المعنى الَّذِي أشار إلَيْهِ

(1) - م.ن، ص 430.

القُـرْآن {قُـلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} (آل عمران64). لَعَلَّ هَذَا الرَّأي ما تضمنته مُقَارَبَة المستشرق الألماني «بوسيه Bush»[1].

- حُرِّيَـة المُعْتَقَـد، كَانَـتْ من مرتكزات التّعامـل الإِسْلَاميّ مَعَ الآخر الدّينِيّ، يتماشـى مَـعَ قاعـدة {لاَ إِكْـرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَّبَيَّنَ الرَّشْـدُ مِـنَ الْغَيِّ} (البقـرة256)؛ لأن النّاس مجبولون عَلَى حق الْحُرِّيَة، ولا يحق اكراههم عَلَى اعتقاد {وَلَوْ شَـاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} (يونس99).
- مُمَارَسَـة الشّعائـر، ومن طقوسهـم الاحتفال بالاعيـاد الْمَسِيحِيَّة وحملهـم الصّلبان والأناجيـل، فِي أجواء مـن الْحُرِّيَّة والتّسامح، بَـلْ ومشاركة الْمُسْلِمِيـنَ فِيهَا أحيانا، وَكَذَلِكَ مشاركة الْمَسِيحِيّن الْمُسْلِمِينَ فِي أعيادهم، ومواساتهم فِي أتراحهم.
- صـون اماكـن العبادة، منهج إِسْلَامـيّ لا يفرق بَيْـنَ الكَنِيسَة والمسجـد، مستنبط من الآية {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً} (الحج40)، وكثيرا مَا كَانَتْ تتجاور أمكنة العبادة: الجامع والكَنِيسَة أَوْ الدّير، كَمَا فِي جامع دِمَشْقَ وكَنِيسَة مار يوحنا[2]، والدّير «عُمْر مريونان» بالأنبـار والجامـع ملاصقه[3]، وديـر الأعلى بالموصـل إِلَى جانبه مشهـد الصّحابي عمـرو بن الحمق الخزاعـي، ومسجد يتصل بالقبر[4]. وكلا المؤمنين يؤدي شـعائره وطقوسه بحُرِّيَّة ودون اضهاد حقوق الآخر.
- وجود المُشْتَرَكات العقدية بَيْنَ الدّيانتين[5]، نحو: الإيمان بالله واحد خالق السّماوات، حي قيوم، محب للبشر، غفور رحيم، حميد مجيد، يحيي الأموات، الإيمان بالأنبياء

---

(1) - هيربرت بوسه Herbert Walker: أسس الحوار فِي القرآن الكريم، ص29.
(2) - حَتَّى عهد الوليد بن عبد الملك الَّذِي هدمها، فبنى بَها مسجدا وبعث إِلَىَ اليهود فهدموها. تاريخ دمشق 65/ 134.
(3) - الشّابشتي: م. س، ص63؛ العمري: م. س، ص91.
(4) الشّابشتِي: م. ن، 42.
(5) - انظر: غَسَّان سليم سالم: محاور الإلتقاء ومحاور الإفتراق بين المسيحية والإسلام، ص76 - 190.

المرسلين، ويوم القيامة[1] ويوم الحساب.

- نماذج من العيش الْمُشْتَرَك:

استطاع الْمَسِيحِيّون ان يتكيفوا بجدارة فِي مجتمع مَا بَعْدَ الْفُتُوح الإِسْلَامية، وما تبعه من زيادة التَّنَوُّع الإثني والإِجْتِمَاعِيّ، الدّاخل فِي الإِسْلَام، أَوْ القادم إِلَى الأَمْصَار الكبيرة، حَيْثُ العمل والمعرفة والحياة الكريمة تتواصل، فَكَانَ الْمَسِيحِيّون يشاركون النّاس فِي أفراحهم وأتراحهم، وَبِخَاصَّةٍ مَا يهمُّ الأمّة من مُشْتَرَكات ومصالح تاريخيّة وأخلاقيَّة.

كَانَ النّبيّ مُحَمَّد يعود مرضى غير الْمُسْلِمِينَ، ويزور جيرانه مِنْهُمْ، ويحسن إِلَى محتاجهم، وَكَانَتْ بيوت الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ وغيرهم من أهل الكتاب مجاورة، ويتصدر التّعامل بَيْنَهُمْ بقيم الجوار، الَّتِي تعبِّر عَنْ رُقي العَلاقَات الإِجْتِمَاعِيَّة، فطالما كَانَ النّبيّ مُحَمَّد يوصي بالجار حَتَّى ظُنَّ أَنَّهُ سيورثه[2].

يذكر ياقوت[3] عَنْ أهل نَجْرَان القريبة من الكوفة، إن نَصَارَى نَجْرَان لَمَّا أخرجوا، سكنوا هَذَا الموضع وسُمِّيَ باسم بلدهم، وَأَنَّهُمْ شاركوا النّاس فِي مصاب الإمام عليّ، والحزن عَلَيْهِ، وحمل نعشه، وَقَدْ قَالَ عبيد الله بن موسى بن جار بن الهذيل الحارثي يرثي علي بن أبي طالب، ويذكر أَنَّهُ حمل نعشه فِي هَذَا الموضع فقال:

بكيت عليا جهد عيني فَلَمْ أجد ... عَلَى الجهد بَعْدَ الجهد مَا أستزيدها

فما أمسكت مكنون دمعي وما شفت ... حزينا ولا تسلى فيرجى رقودها

وَقَدْ حمل النّعش ابن قيس ورهطه ... بنَجْرَان والأعيان تبكي شهودها

عَلَى خير من يبكى ويفجع فقده ... ويضربن بالأيدي عَلَيْهِ خدودها

ثمَّة تواصلٌ أدّى الى تمازج نفسيٍّ وتوافق روحيٍّ، يكاد يقرِّب بين المناحي العقديَّة،

---

(1) - لزيادة المعرفة عن الإعتقاد باليوم الآخر، انظر: يسر محمد سعيد مبيض: اليوم الآخر في الأديان السماوية والديانات القديمة (دار الثقافة، الدوحة، لا.ت).

(2) - البخاري: الأدب المفرد، ص58؛ أحمد: المسند، 36/ 634.

(3) - معجم البلدان 5/ 269؛ الأمين: أعيان الشّيعة 8/ 84.

كالإيمـان بالدعـاء، فإنَّ صحابيًّـا للرسول محمَّـد، وقائدًا لجيش المسلميـن، لا يمنعه إختـلافُ الديانتيـن، من أنْ يعتقـدَ أنَّ البطريكَ بنيامين مجابُ الدعوةِ الـى الله إذا دعا، لعلـوِّ إيمانِه وسموِّ قداستِـه، فيلتمسَ منه الدعاء له ولجيشه بالنصـر المؤزر؛ إنَّها لقيمةٌ تمازجيَّة متسامية، نلحظها في خبر البِطْرِيَك، الذي كان هاربًا من الحكم البيزنطي، فأمرَ عمرو بن العاص بعودته، وكتب لَهُ كتابَ أمانٍ، فحضر البِطْرِيَق، وأكرمه عمرو، وأقسم لَـهُ بالأمَـان عَلَى نفسه وعلى رعيته. وقيل: أنَّهُ طلب مِنْهُ أنْ يُصَلِّيَ لأجلِه، حَتَّى إِذَا رجع مُنْتَصِـرا من حروبـه الأُخْرَى، يجيبه إِلَى كُلِّ مَا يطلبه، فدعا لَـهُ البِطْرِيَك، وتمَّ لعمرو مَا أراد، فعـزل بِطْرِيَـك هرقل، وأرجع بنيامين إِلَى مركزه مكرمـا[1]. وينقل عَنْ بنيامين لَمَّا عـاد إِلَى الإسكندريَّة قَالَ لأتباعه: «عدت إِلَى بلـدي الإسكندريَّة، فوجدت بِهَا أمنًا من الخوف، واطمئنانًا بَعْدَ البلاء، وَقَدْ صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم»[2].

أخـذ المسيحيون يتفاعلـون في المجتمع الإسلامـي الى حد الاندمـاج، ليحافظوا علـى فاعليتهم فـي بيئتهم ووجودهم، ففي الشام كانت تغلب وغسان وكلب أقرب الى ربقـة الدولة الأموية، تساندها في المشـورة والجيش، ففي المواقف السياسية أسهمت فـي الدفـاع عن كيان الدولة ضد الثورات التي قامت عليهـا، وفي المواقف الإجتماعية كـان لهـا دور في الدفاع عن حيـاض الخلافة. في معمعة الخلافـات التي تأججت بين القبائـل في العصر الأمـوي، نجد أنّ الأخطل التغلبي، الشاعر النصراني، دخل في ربقة الأسرة الحاكمة، وناصرها على بني النجار، فهجا الأنصار، فقال:

خلَّوا المكارم لستم من أهلها   وخذوا مساحيكم بني النجّار

ذهبت قريش بالسَّماحة والعُلا   واللؤم تحتَ عمائِم الأنصار

بلـغ الشعـر النعمـان بـن بشير الانصـاري، فدخـل على معاويـة، فحسر عـن رأسه

---

(1) - القمص، الشّماس منسي: تاريخ الكنيسة القبطية، ص379؛ حسام عيتاني: الفتوحات العربية في رواية المغلوبين، ص117؛ قارن: سايروس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص 569 - 586.

(2) - المقريزي: الخطط 4 / 407، 408؛ مُحَمَّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين الفتوحات والإنجازات السّياسيّة ص316.

عمامته، وقال: يا أمير المؤمنين، أترى لؤما. قال: بل أرى كرما وخيرا، وما ذاك. قال: زعم الأخطل [الغلام النصراني]: أن اللؤم تحت عمائمنا، قال: وفعل، قال: نعم[1].

أما في العراق والامصار التي نشطت فيها المعارضة لسياسة الأمويين، وكانت ظاهرة في انتمائها المخالف، نجد أنّ المسيحيين يتفاعلون معها، ويتصدر بعض منهم للدفاع عن مواقف، غيرهم أولى بها، وأدنى منها، لكنّهم تخلّوا عن ربقتها، كثورة الإمام الحسين (61هـ/ 681م)، وقدومه الى الكوفة بأثر رسائل كثيرة من أهلها لمناصرته، نجد أنَّ مسيحيًّا وأمّه يتبعان أثره ويناصرانه، لينالا شرف الشهادة بين يديه في موقعة كربلاء. تذكر المصادر[2]: أن من أوائل من برز وهب بن وهب، وكان نصرانيا أسلم على يدي الحسين، هو وأمه فاتبعوه إلى كربلاء؛ فركب فرسا، وتناول بيده عود الفسطاط، فقاتل وقتل من القوم سبعة أو ثمانية ثم استؤسر، فاتي به عمر بن سعد فأمر بضرب عنقه؛ فضربت عنقه ورمي [به] إلى عسكر الحسين، وأخذت أمه سيفه وبرزت، فقال لها الحسين: يا أم وهب، اجلسي فقد وضع الله الجهاد عن النساء إنك وابنك مع جدي محمد في الجنة.

بمعزل عَنْ الموقف الرّسمي تجاه غير الْمُسْلِمِينَ، وبخاصة المَسِيحِيِّينَ منهم، كَانَتْ العَلاقَات بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ في عامة الناس تتّسم بالاحترام والمَوَدَّة والتسامح، نتيجة لعمق العلاقة التاريخية التي ربطت العرب بالنصارى. ذكر الجاحظ[3]: أنَّهم عَظُمُوا في قلوب العوام بسبب انخراطهم في الوظائف المهمَّة، وقال: «تسمُّوا بالحسن والحسين، والعباس وفضل وعليٍّ، واكتنوا بذلك أجمع، ولم يبقَ إلَّا أنْ

---

(1) - ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء ص 149؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص 474؛ أبو الفرج: الأغاني15/ 75، 16/ 293؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق 34/ 299، 48/ 114.

(2) - الصدوق (ت381هـ): الامالي، ص225؛ الفتال النيسابوري (ت508هـ): روضة الواعظين، ص187. عبد الله البحراني: العوالم، الإمام الحسين، ص 170؛ محمد مهدي شمس الدين: أنصار الحسين، ص111.

(3) - الرسائل 3/ 3012 - 316، المختار في الرد على النصارى 60 - 64

يتسمُّـوا بمحمَّـد، ويكتنوا بأبي القاسـم. فرغب إليهم المسلمـون». وهذا يوحي بسمو الاندماج الاجتماعي والتعايش السلمي.

وإذا استثنينـا موقف جرير الَّذِي كَانَ يعيّر الأخطل لكونه ذمّياً. فَلَمْ يكن من إشـكال فِـي التّعامـل بَيْنَ الفئات كافـة، وتشير المصـادر الإِسْلَامِيّة إِلَـى تزويـج الْمُسْلِمِينَ من مسيحيّـات عربيّات عَلَى حكم أهلهنّ، ومنهـم الشّاعر الفرزدق الَّذِي تزوّج حدراء بنت زيق بن بسطام الشّيباني عَلَى حكم أبيها، الَّذِي اشـترط فِي مهرها مائة ناقة، فدخل عَلَى الحَجّـاج فعذله، فقـال: أتزوجتها عَلَى حكمها وحكـم أبيها مائة بعير، وَهِـيَ نَصْرَانِيّة، وجئتنـا متعرضًـا أنْ نسوقها عنك؟. وانبـرى جرير إِلَى لوم زيق بن بسطـام عَلَى تزويج ابنته من لا يليق بِهَا لعلو نسبه[1]:

يا زِيقُ، قَدْ كنتَ من شَيْبَان فِي حَسَبٍ يا زِيقُ وَيْحَكَ مَنْ أَنْكحتَ يا زِيقُ

وَكَانَ الفرزدق يفضل حدراء عَلَى ابنة عمه الجميلة النّوار، فقال[2]:

لعمرِي لأَعرابيَّةٌ فِي مَظلّةٍ تظلُّ برَوقي بيتها الرّيحُ تخْفُق

أحبُّ إلينا من ضِنَاك ضِفَنَّة إِذَا وُضعت عَنْهَا المراويحُ تَعْرَقُ

كرِيمِ غزالٍ أَوْ كُدرَّةِ غائصٍ يَكَادُ إِذَا مرت لها الأرض تُشرقُ

يـرى بعض الباحثين[3]: أنْ بلغت العلاقة بَيْـنَ الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ الْعَرَب درجة مـن المَوَدَّة فِـي ظـلّ الأَمَويّين، تتيـح للمسيحـيِّ الْعَرَبِيّ أنْ يكـون حَكَمًـا للمُسْلِمِينَ. فلطالمـا قـام الأخطل الشّاعر النَصْرَانِـيّ مقام الحكم لقبيلة بكر بـن وائل فِي المسجد، وَكَـانَ الأخطل يدخـل المسجد فِي دِمَشْقَ، فيقـف لَهُ الْمُسْلِمون إجـلالاً، وَكَانَ يدخل حمام الكوفة مَعَ الْمُسْلِمِينَ بكلّ حُرِّيَّة.

أثَّـرت الأَدْيِرَة تأثيرا مهمًّا فِي تعريف التّجار الْعَرَب والأعراب بالنَّصْرَانِيَّة. فَقَدْ وجد التّجار – فِي أكثر هَذِهِ الأَدْيِرَة – ملاجئ يرتاحون فِيهَا، ومحلات يتجهزون مِنْهَا بالماء،

---

(1) – ابن سلام: طبقات فحول الشّعراء 2/ 392؛ أبو الفرج: الاغاني8/ 9،90/ 375، 10/ 301.

(2) – أبو الفرج: م.ن.21/ 301.

(3) – سلوى بالحاج: المسيحية العَرَبِيّة وتطوره، ص203.

كَمَا وجدوا فِيهَا أماكن للهو والشّرب، يأنسون بأزهارها وبخضرة مزارعها، الَّتِي أنشأها الرّهبان، ويطربون بشرب مَا فِيهَا من خمور ونبيذ معتق، امتاز بصنعة الرّهبان. وَقَدْ بقيت شهرة تِلْكَ الأَدْيِرَة بالخمور والنّبيذ قائمة حَتَّى فِي أيام الإِسْلَام. وَكَانَ ضيوف الدّيارات من مُخْتَلف طبقات النّاس، ولاسِيَّمَا الاغنياء وذوي الجاه، وَأَمَّا عديد من وجوه الدّولة والأمراء، وذوي قرابة الخلفاء، فلا يبالون بارتياد الأبنية الرّهبانية، وإطلاق العنان فِيهَا لشهواتهم فِي المعاشرة والمنادمة والظّرف[1]؛ ومَلاكُ التّمازُجِ الإِجْتِمَاعِيّ، والتّعارفِ الدّينِيّ، والتّقاربِ الرّوحيّ، يحصَلُ -فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ- وعن نشاطاتِ الرُّهْبَانِ المَمْزُوجَةِ بالرّوْحَانِيَّةِ، ومِنْ قِيَامِهِمْ بطقوسِهِم الدّينِيَّةِ، عَرَفَ هَؤُلَاءِ الضّيوفُ شيئًا عَنْ ديانتِهم، وعَمَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ من شعائرَ. وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى هَؤُلَاءِ الرّهبانِ النّاسكينَ فِي الشّعرِ الجَاهلِيّ، وذكرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يأخذونَ المصابيحَ بأيدِيهم لهدايةِ القوافلِ فِي ظُلُماتِ اللّيلِ[2].

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الأَدْيِرَةُ، وَهِيَ بيوتُ خِلْوَةٍ، وعبادةٍ، وانقطاعٍ إِلَى عبادة الله والتّفكير فِيهِ، ومواطنِ تبشيرٍ، ونشرِ دعوةٍ. وَقَدْ إنتشرتْ حَتَّى فِي المواضعِ القصِيَّةِ من البَوادِي. وكانت الاديرة المنتشرة - آنذاك - محجّة لعدد وافر من المسلمين، فكان لحياة الرهبان والنساك تأثير في ولادة التصوف الإسلاميّ ونشأته، ويتضح - من هذا كلّه - أنّ العلاقات كانت وثيقة بين المسلمين والنصارى، فلم يكن المسيحيون منعزلين عن مواطنيهم في أحياء خاصة، بل اشتركوا مع المسلمين في الحياة العامة، فقامت الحضارة العربية الاسلامية على أكتافهم، كما قامت على أكتاف المسلمين[3].

إنَّ انتشارَ الأَدْيِرَةِ عَلَى أطرافِ المدُنِ وعلَى طرُقِ التّجارةِ، وَكَانَ يؤمُّها النّاسُ كلٌّ لحاجته، ويقضون فِيهَا اوقاتَ استراحةٍ واستجمام، وَبِخَاصَّةٍ الشّعراءُ، لَمْ تسكتْ قرائحُهم تجاهَ نِعَمِ الجَمالِ والشّرابِ، فكانُوا يتلمّسُون روائعَ الكَلِمِ، ويتبارَوْنَ بمحاسِنَ

---

(1) - حبيب زيات: الديارات النّصرانية فِي الإسلام (ط4، دار المشرق، بيروت 2010)، ص67.
(2) - علي: المُفَصّل 12/ 165.
(3) - سركيس أبو زيد: المسيحية في ايران، ص120.

الشّعرِ، وظَلَّتْ أشعارُهم تصْدَحُ فِي سماءِ الأدَبِ، عَلَى نحوٍ يُجِيزُ القَوْلَ بِأنَّهُ تعبيرٌ حيٌّ عَنْ العيشِ المُشْتَرَكِ فِي ظِلّ الْحُرِّيّاتِ.

كان للشعر دور في التمازج الروحي والعاطفي في مجتمع متنوع المشارب والمعتقدات، فثمَّةَ روايات[1] في شعرٍ قاله يزيد بن معاوية في نصرانية ترهبت في دير خرب عند الماطرون، وهو موضع بالشأم.

حَامَ، حَتّى إنّنِي لأرَى	أنّهُ بِالْغَورِ قَدْ وَقَعَا
وَلَهَا بالمَاطِرُونِ إذَا	أكَلَ النّمْلُ الّذِي جَمَعَا
خُرْفَةٌ، حَتّى إذَا ارْتَبَعَتْ	سَكَنَتْ منْ جِلّقٍ بِيَعَا
فِي قِبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ	حَوْلَهَا الزّيْتُونُ قَدْ يَنَعَا

ومن أهَمِّيَّةِ الدّياراتِ وأثرها فِي نفوسِ أبْنَاءِ المدنِ والقرَى القريبةِ مِنْهَا، أنه ألّفَ غيرُ واحدٍ مِن الكتابِ الكبارِ فيها، فقال ابن خلكان: «إنَّ هَذِهِ الدّياراتِ قَدْ جَمَعَ فِيهَا تواليفُ كثيرةٌ»[2]. مثل: «الدّيارات» لـ«أبي الفرج الاصفهاني»[3] (ت356هـ/ 967م)، كتاب «الدّيَرة» لـ«السري الرّفاء» الموصلي الشّاعر (ت362هـ/ 972م)[4]، والدّيارات للشابشتي[5] (ت388هـ/ 988م)، والدّيارات للخالدّيين[6]، والخزل والدّأل بَيْنَ الدّور والدّارات والدّيرة لياقوت الحموي؛ ولنستعرضَ أمثلةً مُتَنَوّعَةً عَنْ الدّياراتِ والتّعايُشِ الآمنِ فِي ظِلّ الدّولَة العَرَبِيّة، مِنْهَا:

---

(1) - انظر: الجاحظ: الحيوان 4/ 264؛ المبرد: الكامل 1/ 301؛ البلاذري: أنساب الأشراف 4/ 2؛ ياقوت: معجم البلدان (الماطرون)؛ البغدادي: خزانة الأدب7/ 312.

(2) - وفيات الاعيان 3/ 319.

(3) - حققه جليل العطية، نشر رياض الرّيس للكتب، لندن - قبرص 1991.

(4) - حبيب زيات: ديارات النّصرانية في الاسلام، ص6.

(5) - حققه كوركيس عواد، وَهُوَ من منشورات مكتبة المثنى، مطبعة المعارف، بغداد 1966.

(6) - الخالديان الشّاعران: أبُو بكر مُحَمَّد بن هاشم، (ت 380هـ/ 990م)، وأبُو عثمان سعيد بن هاشم (ت 371 هـ/ 981 م)، من بني عبد القيس، والخالدي نسبة إِلَى الخالدية قرب الموصل. ابن النّديم: الفهرست، ص250؛ السّمعاني: الانساب5/ 25؛ الذهبي: سير أعلام النّبلاء12/ 373.

- ديـر سرجيـس[1]. وَهُوَ بـ«طيزَناباذ»[2]. بَيْنَ الكوفـةِ والقادسيَّةِ عَلَى حافَّةِ الطَّريقِ، وَكَانَتْ أرضُـه محفوفَةً بالنَّخْلِ، والكُرومِ، والشَّجِرِ، والحاناتِ، والمعاصرِ. وَكَانَ بِهَذَا أحَـدَ البقاعِ المعمـورةِ، ونُزَهِ الدّنيا الَّتِي تَبْتَهِـجُ بِهَا القلوبُ المسـرورةُ. قَالَ الشّابشتيّ: ويُسَمِّيهُ النّاسُ معصرةَ أبِي نُواس. وَلَهُ فِيهِ:

قالوا: تنسَّكَ بَعْدَ الحَجِّ! قلتُ لَهُمْ ... أرجو الإله وأخشى طِيزَناباذَا

أخشى قُوَضَيِّب كَرْمٍ أن ينازِعَني ... فضل الخِطَامِ إذَا أسرعتُ إغذاذا

- ديـارات الأساقف[3]: هَذِهِ الدّياراتُ بـ«النّجفِ»، ظاهِـرَ الكوفةِ، فِي أوّلِ الحِيرَةِ، وَهِـيَ قبابٌ وقصورٌ، بحضرتِها نهرٌ يُعْرَفُ بالغَديرِ، عَنْ يمينِه قَصْرُ أبِي الخَصِيبِ، وعَنْ شِمالِه السّديرُ، والدّياراتُ بَيْنَ ذَلِكَ. وأنشدَ فِي هَذِهِ الدّياراتِ عليُّ بن مُحَمَّد بن جعفر العلويّ قوله:

كم وَقْفَةٍ لك بالخَوَرْ ... نقِ لا تُوازَي بالمَواقفْ

بَيْنَ الغَدِير إلَى السّدِ ... ير إلَى دِيارات الأَساقِفْ

فَمَدارج الرّهبان فِي ... أطمـــار خائِفَةٍ وخائِفْ

دِمَنٌ كَانَ رِياضَها ... يُكْسَيْنَ أعلامَ المَطَارِفْ

- ديـر زُرَارة[4]: وَهُـوَ بَيْنَ الكوفـةِ وحمَّامِ أعْيَـنَ، عَلَى يمينِ الحاجِّ مِن بغـدادَ. نَزِهٌ، كثيـرُ الحانـاتِ والشّرابِ. لا يخلو ممنْ يَطْلِبُ اللّهْوَ واللّعِـبِ، ويُؤْثِرُ البطالةَ والقصفَ

---

(1) - أبو الفرج: الديارات 146، الشّابشتي: الديارات 57، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص90 - 91.

(2) - طيزناباذ، كَانَتْ تدعى ضيزناباذ، نسبت إلَى ضيزن بن معاوية بن عمرو بن العبيد السّليحي: موضع بَيْنَ الكوفة والقادسية عَلَى حافة الطريق عَلَى جادة الحاج، وَبَيْنَهَا وبين القادسية ميل. ياقوت: م. س.8/ 80.

(3) - الشّابشتي: الديارات 57، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص90 - 91.

(4) - الشّابشتي: م. ن، 59؛ العمري: م. ن، 91.

(اللعب واللهو). قَالَ الشّابشتيّ: خرج يحيى بن زياد[1] ومطيع بن إياس[2] حاجّين، فَلَمَّا قربا من زُرارة، قَالَ أحدُهما لصاحبِه: هلْ لك أنْ نُقَدِّمَ أثقالَنَا، ونَمْضِي إِلَى زُرارةَ، ونشربُ فِي ديرِها ليلَتَنَا، ونتزوّدُ مِن خمرِهَا، ونَستَوْفِي مِن مَرَدِّهَا مَا يَكْفِينَا إِلَى العَوْدَةِ، ثُمَّ نَلْحَقُ بأثقالِنَا؟ ففعَلَا. وسَارَ النّاسُ، وأقَامَا. وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دأْبَهُمَا، إِلَى أنْ عَادَ الحاجُّ. فحَلَقَا رؤوسَهُما، وركَبَا بَعِيرَيْنِ، ودَخَلَا مَعَ الحاجِّ عَلَى أَنَّهُما قَدْ حجّا. وَقَالَ مُطيع:

ألم تَرَني ويَحيْى إِذْ حججنا	وَكَانَ الحجُّ من خَيرِ التّجاره؟
خرجْنا طالبَيْ خَيرٍ ودينٍ	فمال بنا الطّريقُ إِلَى زُراره!
فآب النّاس قَدْ غنِموا وحجُّوا	وأُبْنَا مُوقَرَيْنِ من الخَساره

- عُمْر مريونان[3]: وَهُوَ بالأنبار، عَلَى الفرات، وَهُوَ عُمْرٌ كبير، كثير القلّايات والرّهبان، عَلَيْهِ سور محكم البنيان، كالحصن العظيم، والجامع ملاصقه، وَلَهُ ظاهر حسن، ولاسِيَّمَا فِي أيام الرّبيع. لأن صحارِيَهُ وسائر أرضه تكون كالحُلل؛ لكثرة نُوّاره، وطرائف أزهاره. ونزله كل من اجتاز بِهِ من الخلفاء. وفيه يَقُولُ كُشاجِمُ:

أغدُ يا صاحِبي إِلَى الأنبارِ	نَشْربُ الرّاحَ فِي شَبَاب النّهار!
واعمرُ العُمْر باللَّذاذةِ والقَصْـ	فِ وحَثِّ الكؤوسِ والأوتارِ!

- دير الأبلق[4]، وَهُوَ بالأهواز. وحكى الدّاينيّ: أَنَّهُ اصطبح فِي دير الأبلق فِي جماعة من أصحابه، فَلَمَّا سكر قَالَ:

يَوْمي بدَيْرِ الأبلقِ الفَرْد	مَا أَنْتَ إلا جنّـة الخُلْدِ
بِهِ وأمثالٍ لَهُ لَمْ يَزَلْ	يجوّز العِيسَ أَبُو الهِنِدي

(1) - بن عبيد الله الحارثي القحطاني، كان شاعرًا أديبًا ماجنًا نسب إلى الزندقة. الخطيب: تاريخ بغداد 16/ 162.

(2) - أَبُو سلمى الكناني الكوفي قدم بغداد، وكان شاعرا ماجنا، ورمي بالزندقة. الخطيب: م. ن. 15/ 301.

(3) - الشّابشتي: م. ن، 63؛ العمري: م. ن، 91.

(4) - أَبُو الفرج: الديارات 41، ابن فضل الله العمري: م. ن، ص91.

- عُمْـر إتراعيل[1]. والشّاهـد فِيهِ مار مِيخَائِيل. قَالَ ابن المستوفـي[2]: بَيْنَهُ وَبَيْنَ كفر عـزّى[3] أقـل من ميل. وَهُوَ عمار كبير وفيه رهبان كثيـرة، وَلَهُ نهر يجري عَلَى بابه وكرم وشـجر فِي شـرقيه، ورحى عامرة تطحن فـوق الكرم. وبإزائه تلّ ديـر زارج، إِذَا صعده الزائـر أيـام الرّبيع أشـرف عَلَى سائـر بلدة حِزَّةَ. وفيـه من ألوان الزهر وأنـواع الأقاحي والشّقائـق وصنـوف النّور والزهـر... يسرّ النّاظريـن، ويقصر وصـف الواصفين. وَفِي قلالي رهبانه جنينات حسان، فِيهَا آس مِصْرَ وشجر مَرْيَم وغير ذَلِكَ.

وعـن مُحَمَّد بن حمد الأصم، قَالَ: كنت بكفر عزّى، فنزحتُ مَعَ جماعة فِيهِمْ خير، نتلمس موضعا نزها نجلس فِيهِ ونقصفُ، فأجمع رأيُنا عَلَى قصد دير إتراعيل، وَهُوَ من كفر عزي عَلَى مِيلٍ، فِي أيام الرّبيع، فرأيناه فِي نهاية الحسن بِمَا حولَهُ وفيه، وَهُوَ مشرفٌ عَلَى بلدِ حزَّةَ كُلِّهِ، فنزلناه وقصفنا فِيهِ أيامًا متتابعةً، وقلتُ فِيهِ هَذِهِ الأبيات:

عَمَرنا عُمْر إتراعي ... لَ بالقَصْف وباللّعبِ!
بِفتْيانٍ ذوِي شَرَف ... وقَدْرٍ وذَوِي لُبِّ
بَغَوْا فِي كُفر عزى نُزْ ... هة تبعث للشُّرْبِ!

- ديـر القصيـر[4]: يقع فِـي أعلى الجبل عَلَى سطـح فِي قلته، فِي إشـرافه عَلَى مِصْرَ وأعمالهـا، وَهُـوَ دير حسن البناء محكم الصّنعة نزه البقعـة، وفيه رهبان مقيمون بِهِ، وَلَهُ بئـر منقـورة فِي الحجر يُستقى لَـهُ مِنْهَا الماء، وَفِـي هيكله صورة مَرْيَـم - عَلَيْهَا السّلام - فِـي لوح، والنّـاس يقصدون الموضع للنظر إِلَى هَذِهِ الصّـورة، وَفِي أعلاه غرفة بناها أَبُـو الجيـش خمارويه بن أحمد بـن طولون، لها أربـع طاقات إِلَى أربع جهـات، وَكَانَ

(1) - العمري: م. ن، ص91.
(2) - أبو البركات ابن المستوفي (ت637هـ/ 1239م)، صنّف تاريخ اربل، وشرح ديوان المتنبي وأبي تمام والبحتري. ابن خلكان: وفيات الاعيان 3/ 296؛ السيوطي: بغية الوعاة 2/ 272.
(3) - مدينة كفر عزى يسكنها نصارى ومسلمون، ويعرف النصارى الذين بها بالشهارجة، وبين كفر عزى وسوق الأحد رستاق الزاب الكبير ورستاق حزة أيضا، وهما إقليمان بشرقي دجلة من أرض الموصل. الإدريسي: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، 2/ 660.
(4) الشّابشتي: م. س، 69، ابن فضل الله العمري: م. س، ص90 - 91؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار3/ 288.

كثيـر الغشيـان لهذا الدّير معجباً بالصّورة الَّتِي فِيهِ، يشـرب عَلَى النّظر إِلَيْهَا، وإلى جانبه صومعة لا تخلو من حبيس يكون فِيهَا، وَهُوَ مطلّ عَلَى القرية المعروفة بشهران، وعلى الصّحراء والبحر، وَهِيَ قرية كبيرة عامرة عَلَى شـاطئ البحر، ويذكرون أن موسى النّبيّ ولد فِيهَا، وَمِنْهَا ألقته أمّه إِلَى البحر فِي التّابوت، وبه - أَيْضًا - دير يُعرف بدير شـهران، وديـر القصير هَـذَا أحد الدّيارات المقصودة، والمنتزهـات المطروقة، لحسن موضعه، وَقَـدْ قَالَ فِيهِ شـعراء مِصْرَ، ووصفوه فذكروا طيبه ونزهتـه، ولأبي هريرة بن أبي عاصم فِيهِ: [المنسرح]:

كم لي بدير القصيرِ من قصفِ مَعَ كل ذي صبوةٍ وذي ظرفِ

لهـوتِ فِيهِ بشـادِنٍ غُنـجٍ تقصُرُ عَنْـهُ بدائـعُ الوصفِ

- ديـر العـذارى[1]: هُوَ بَيْنَ أرض الموصل وَبَيْـنَ أرض باجرمى[2] من أعمال الرّقة، وَهُوَ دير عظيم قديم، وبه نساء عذارى قَدْ ترهَّبن وأقمن بِهِ للعبادة فسمي بِهِ لذلك، وَكَانَ قَـدْ بلغ بعـض الملوك أن فِيهِ نساء ذوات جمـال، فأمر بحملهن إِلَيْـهِ ليختار منهن عَلَى عينـه مـن يريد، وبلغهن ذَلِكَ فقمن ليلتهن يصلين ويستكفين شـره، فطرق ذَلِكَ الملك طارق فأتلفه من ليلته فأصبحن صياماً، فلذلك يصوم النَّصَارَى الصّوم المعروف بصوم العـذارى إِلَى الآن. ودير العـذارى بـ«سر من رأى» إِلَى الآن موجود، يسكنه الرّواهب. وَقَدْ ذكرت هَذَا الدّير الشّعراء فأكثرت. فمنهم أَبُو الحسن جحظة البرمكي، قَالَ:

ألا هل إِلَى دير العذارى ونظرة إِلَى الخير مِنْ قَبْل الممات سبيلُ؟

وهل لي بسوق القادسية سكرة تعـلل نفسي والنّسيم عليلُ ؟

وهل لي بحانات المطيرة وقفة أراعي خروج الزق وَهُوَ حميلُ

نخلص الى أن فِي القَرْنين المتاخرين قَبْلَ الإِسْلَام ثَمَّةَ تغيرات عَلَى الواقع الحضاريّ والتّمـدد البَشَـرِيّ لأصحـاب الأَدْيَـان، وإن تعـدّدت الاسبـاب، وتداخلـت سِيَاسِيًا أَوْ

---

(1) الأصبهاني: الديارات ص 19

(2) - منطقة حول كركوك، تسميتها تعود إِلَى السّريانية بيت گرمي (ܒܝܬ ܓܪܡܝ)، وَهِيَ كلمة تعني «مكان العظام». ويكيبيديا، الموسوعة الحرة (باجرمي).

اقتصاديا أَوْ دِينِيّا، فَإِنَّهُ أوجد تداخلات كسرت الحدود الجُغْرَافِيَّة، بَلْ والمصالح الخَاصَّة لَدَى كل جماعة، وبمجيء الإِسْلَام، وانتشاره عَلَى الخَارِطَة السِّيَاسِيَّة سريعا، وَهُوَ يحمل رسالة القبول بالآخر الدّينِيّ، بات الوصول إِلَى منطقة التكيُّف بالعيش المُشْتَرَك ضرورة حياتية لازمة، لا يُمْكِنُ تَجَاهِلُهَا، وَبِخَاصَّةٍ بَيْنَ الدّيانتين الْمَسِيحِيَّة والإِسْلَاميّة، الأكثر تواجدا عَلَى الخَارِطَة الدّينِيَّة للبلاد الْعَرَبِيّة.

إنَّ واقع الآيات القرآنية لا يقف عِنْدَ كونه مصدرًا مهُمًّا فِي التّعرف عَلَى تاريخيّة الدّين الْمَسِيحِيّ فحسْب، بَلْ يتيحُ فهْمَ ومعرفة متطلباتِ أتباع الْمَسِيحِيَّة فِي التّفاعل الِاجْتِمَاعِيّ، وَهَذَا مَا يساعد عَلَيْهِ عديد من الرّوايات النّبَوِيّة، ومِنْ هُنَا يمكن التّوصل إِلَى أن سياقات النّص القرآني تفتح عَلَى الآخر مداخل، تجعل مِنْهُ شرطاً مَوْضُوعيًّا لاكتشاف حيثيات التّقارب النّفسي والتّمازج الِاجْتِمَاعِيّ بَيْنَ اتباع الدّيانتين.

ثُمَّ إنَّ من المفيد - عِنْدَ الحديث عن نظرة الإِسْلَام إِلَى الْمَسِيحِيَّة والتّعَايُش مَعَ أتباعها - أن نشير إِلَى جملة حقائق، مِنْهَا:

إن الإِسْلَام رسالة إِلَهِيَّة إِلَى النّاس جميعاً، وَهُوَ بِهَذَا المعنى يعترف بإِنْسَانِيَّة الإنسان، وحقّه فِي سلوك دربِ الهداية الإلهِيَّة، الرُّوحِيَّة مِنْهَا والزمنيَّة، بحيث يؤمّنُ الإِسْلَامُ البناءَ الرّوحيَّ الإيمانيَّ للناس، ويضمنُ لَهُمْ توفيرَ المناخاتِ المُجْتَمَعيَّة الصّالحةِ لهذا التّكامل الإيمانيّ، وتظهرُ أبعادُ هَذِهِ المناخاتِ فِي الشّريعة الإِسْلَاميّة.

مرونة القيم، الَّتِي تنطلق مِنْهَا، لتَحْقِيْقِ الأمن الِاجْتِمَاعِيّ والنّفسي، والألفة بَيْنَ النّاس، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تعَدّد انتماءاتهم. وبدون هَذِهِ الخلفية والغاية الإيمانية، لا معنى لأحكام الشّريعة، إِذْ حَتَّى العبادة، إِنَّمَا تكمن قداستها، فِي كونها الطّريق الَّذِي يوصل إِلَى روح الإيمان.

إنّ تاريخ القَرْن الأوّل الهِجْرِيّ/ السّابع المِيلادِيّ يُثْبِتُ أنّ تَعَايُش الأدْيَانِ والثّقَافَاتِ يُولِّدُ غِنىً ثَقافِيًّا وحياتيًّا كبيرًا. لَكِنَّهُ قَدْ يعني -عَلَى نحو نادر- وجودَ مشكلاتٍ، أغلبها بَيْنَ الحاكم الْمُسْلِم وأهلِ الكتاب، غَيْرَ أَنَّها تُعَدُّ صغيرة. وَفِي أصعب الظّروف والسّياقات يظلُّ البشرُ المحترمون والجديُّون قادرين عَلَى أنْ يُحْيُوا قناعاتِهم

بالْحُرِّيَّـة والتّعَايُش والمَوَدَّة والمُسالمة. ومِنْ هُنَا تأتـي فرادةُ التّجربة الإِسْلَاميّة الأولى ونموذجيتها.

إنَّ ثقافـة التَّسَامُـح النّاجمـة عَـنْ التّمـازُج والتّفاعـل بَيْـنَ الْمُسْلِمِيـنَ والْمَسِيحِيِّينَ عرفتهـا مدنٌ مثل: دِمَشْقَ وحلب والكوفة والمدائن فِي الـقرن الأوَّل الهِجْرِيّ/ السّابع المِيـلادِيّ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لا يعني غيابَ الإحسـاسِ بالتّفوُّق، وامتلاكِ الحَقِيْقَة لَدَى كلٍ من الْمَسِيحِيِّينَ والمُسْلِمِينَ.

لقـد تـمَّ التّعَايُـشُ بَيْـنَ الدّينيْن عَلَـى مستويين: المسـتوى الشّعبيّ العـامّ، ومستوى النّخَـب. وعلى المستوى الثّاني يُحْسَبُ ذَلِكَ للمسيحييـنَ الَّذِينَ كَانُوا متفوقين لحقبٍ طويلـة. وَقَدْ تميَّـزوا بالمَيْلِ للتّحَضُّرِ وعِشْـقِ العلوم، والغرام بالمعـارفِ الكلاسيكيَّة. وبالمقارنة مَعَ الْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ مَا كَانَ الْمَسِيحِيّون بأكثريَّة. ومع ذَلِكَ فَإِنَّ عديدين مِنْهُمْ أظهـروا قُدرةً عاليةً عَلَى تبوء مكانة رفيعة فِـي الطّب والتّمريض، وَفِي نقل العلوم ذات أصول يُونانِيّة أَوْ سُرْيانِيّة إِلَى الْعَرَبِيّة.

ان التّفاعل الثّقافِيّ والدّينِيّ والْحُقُوقيّ، فِي اشـراقة العَلاقَات الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيّة، ظَـلَّ يُعَبِّرُ عَنْ وجهٍ حضـاريٍّ، تتألّق وتتأصّل فِيـهِ الأُمثولاتُ والخبـراتُ الحاصلةُ عَنْ المُمَارَسَـات والمُقَارَبَات. لأنَّ التّأريخَ - بوجهه الواقعيّ والإيجابيّ - لا تصنعُه الغَلَبَةُ أَوْ الإستِئْثـار، بَـلْ المشاركةُ الواعيَة الَّتِي تُغَلِّب المصلحـةَ العَامَّة عَلَى المصالِحَ الفئويَّة والسِّيَاسِيَّة الخَاصَّة[1].

تاليًـا، أنَّ تجربـةَ المائةِ الأولَى في العلاقاتِ الإسلاميَّـة المسيحيَّة، لمْ تكنْ مخاضَ تجربـةٍ سابقةٍ، أو استنسـاخًـا، او محاكاةً لغيرِها، بلْ كان لها السّبْقُ والرِيَادَةُ في تَدْشِـينِ مَرْحَلَـةٍ جديـدةٍ، أو عمليَّـةٍ جديـدةٍ للتوليـدِ التاريخـيِّ للمجتمـعِ، وتشكيـلِ خارطَـةٍ ديموغرافيَّـةٍ جديدةٍ، على صعيدِ تداخلِ الفضـاءاتِ بينَ المختلفاتِ الدينيَّة والإثنيَّة في

(1) - سليم دكاش اليسوعي، الأب: «الخبرة، مصطلح فِيهِ فعل الرّجاء والمسؤولية، ممارسة الوحدة فِي التنوع،» دراسات ووثائق إسلامية مسيحية، رقم 15، منشورات كلية العلوم الدينية، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2014، ص20.

بو دقةِ الدَّولَة العَرَبيَّة، نتجَ عنها قِيَمٌ جديدةٌ تَمَوْضَعَتْ وارتكزتْ في تأسيسِ بُنْيَةِ التعايشِ والإندماجِ الإجتماعِي.

خاتمة

بَيْنَمَا أَنَا أَخُوضُ فِي الغِمَارِ الشَّاقَّةِ لبَحْثِ العَلاقَاتِ الإِسْلَامِيَّة الْمَسِيحِيَّة فِي طَوْرِهَا الأوَّل، و كانـتْ رحلةً جاهدةً للارتقـاءِ بدرجاتِ العقلِ ومعراجِ الأفكارِ، تَنَامَى تَفَاعُلِي مَعَ مُعْطَيَاتِ المَوْضُوعِ ومُقَارَبَاتِهِ، وَتَسَامَى أَثَرُهُ فِي نَفْسِي. تَغَيَّرَتْ أَفْكَارِيَ تجَاهَ الأَدْيَانِ، وأيْقَنْتُ أَنَّهَا منظومات أكسيولوجيّة (قيميّة) مُتَقَارِبَةٌ فِـي المَعَانِي والأَهْدَافِ الإِنْسَانِيَّةِ. إِنَّهَـا نَشَـأَتْ فِي أَزْمِنَةٍ وأمْكِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، إِلَّا أَنَّ الحَرَاكَ الإنْسَانِـيَّ، ونَشْأَةَ الدُّوَلِ، والتَّنَازُعَ بَيْنَهَـا، أمْكَـنَ مِنْ تَوَافُـرِ أَنْظِمَـةٍ تَشْرِيعِيَةٍ مُتَعَـدِّدَةٍ فِـي المُجْتَمَعِ الوَاحِدِ، شـجّعتْ على التّعَايُـشِ بين فئات المجتمع في القرن الأول الهجـري/ السابع الميلادي، على الرغم مـن أنّ الصـراع بدأ عنيفا بين العـرب المسلمين وبيزنطا راعيـة المسيحيَّة، وكان يغلب عليه اثباتُ الوجود السياسيّ، وتغييرُ خارطة النفوذ. تمخَّضَ عن هذه الجولة المُحْتَدِمَةِ تحـولاتٌ سيسيواوجيّة تاريخيَّة كبيرةٌ، غيّرت أطلـس الديموغرافيّة، منها: أنَّ مسيحيَّ الشـام ومصـر أضحوا تحت سيطرة العـرب، والتعاظم الإسلاميّ؛ غيـر أنَّ المَسِيحِيِّينَ كانـوا جادِّيـن على أنْ يحافظوا على الرموز والتقاليد التـي تشكل أنساق الثقافة، وعلى أبعـاد نظامهم الدينـيّ والاجتماعيّ والقضائيّ في بيئـة الدَّوْلَة العَرَبيَّـة الإسلاميّة، على نحو أفضل مما كانوا عليه في ظلّ حكم الدولتين الفارسيَّة والبيزنطيَّة.

إنَّ تجربـةَ العَلاقَاتِ الإِسْلَاميَّـةِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي المائةِ الأولَى تُعَدُّ دَلِيلًا عَلَى التواصل في سيسيولوجيا الحَضَارَاتِ، لذا لا مَنَاصَ من مزيد من التّأمل الأنثربولوجي فِي تجربة الإسـلام في المراحـل التأسيسيّة، الَّتِي كَانَـتْ حافلة بقيم التّعَايُـش، وراسخة فِي وعي

التّاريـخ. وبعدَ أنْ كانتْ هذهِ التجربةُ لها قصب السبق والريادة في العلاقاتِ الإسلاميَّة المسيحيَّة، مثارَ عنايةِ البحثِ، فقد تَمخَّضتْ عن نتائجُ عِدَّة، منها:

إنَّ لتواليَ الدِّيَانَاتِ الكِتَابِيَّةِ زمنيًّا، أهَمِّيَّةً كبيرةً فِي فَهْمِ الترميزات التأهيليّة للأنساق الثقافيـة والتاريخيـة بَيْنَ تِلْكَ الدِّيَانَـاتِ. وإنَّ العَلاقَاتِ الإِسْلَاميَـةَ الْمَسِيحِيَّةَ فِي المائةِ الأولـى قَدْ مُنِيَتْ بمقدماتٍ تاريخيّةٍ ودِينِيَّةٍ، وفَرَتْ المُنَاخَ النفسيَّ لتأسيسِ لَبِنَاتِها، نحو انتشـار الفرق المسيحيَّة في العِرَاق والشام ومصر والحجـاز، وضمور التناحر الطائفي فيمـا بينها. ولَمْ تَكُنْ نشأة الإِسْلَام فِي البلادِ الْعَرَبِيّة إعتباطًا، بَلْ جاءَ لسَدِّ الفراغِ الدّينيِّ لواحديّـة الألوهـة، الَّذِي سَبَّبَهُ توسـعُ الشّتاتِ فِي الأفكارِ والمذاهـبِ الدِّينِيَّةِ، إذ بلغت الطوائـف المسيحيَّة في القرن الخامس الميلادي عددًا يربو على خمسين طائفة، فضلا عن انتشارِ الوَثَنِيَةِ فِي البلادِ الْعَرَبِيَّةِ.

تُبَيِّـنُ الإطلالـةُ عَلَـى نافذةِ العَلاقَـاتِ الإِسْلَاميَّـةِ الْمَسِيحِيَّـةِ فِي طورِهـا الأوَّلِ، أنَّ المنطقـةَ الْعَرَبِيّـة إبْتُلِيَتْ بمُعْطَيَـاتِ تاريخيّةٍ، فَجَّـرَتْ روحَ التّحَـدِّي، وأصَّلَتْ عناصرَ البقـاءِ فِي فضاءاتِ دِينِيَّةٍ تتناغمُ مَعَ حاجاتِ المُجْتَمَعِ. فالمذاهبُ الْمَسِيحِيَّةُ فِي الشّرقِ أُبْعِـدَتْ عَـنْ رِبْقَةِ الدّينِ، الَّذِي اتَّخَذَتْهُ الدّولةُ، وعُدَّتْ هَرْطَقَـةً وبِدْعَةً، كَانَتْ تُعَانِي من نظامَي حكمِ الدّولتينِ الكبريينِ بِيزَنْطَةَ وفَارِسَ، ولمَّا وفّرَ لدَيْها قَبُولًا للفتوحِ الإِسْلَاميّة والدّولة الْعَرَبِيّة.

إنَّ الحَقِيْقَـةُ التـي ينبغـي الوقوفِ عَلَيْهَا، هِـيَ إنَّ الإِسْـلَام التّاريخيّ لَيْسَ هُـوَ نَفْسُهُ الإِسْـلَام النَّبَـوِيّ أَوْ القرآنِـيّ؛ فالإِسْـلَام التّاريخِي أتخذَ نَمطِيَّـةَ الرِّسَالَـةِ المُنْغَلِقَةِ عَلَى مصالحِ الذّاتِ، بَلْ - أحيانًا- مارس دَوْرًا مُغَايِرًا للإِسْلَام النَّبَوِيّ، وَهَذَا شـأنُ كثيرٍ مِمَّا دَرَجَ عليـه الإِسْـلَام التّاريخيّ مـن معالجاتٍ وحوادثَ أخـذتْ مَنْحًى مِـن القَبُولِ لَدُنِ الإخْبَارِيّين؛ لاستنادها إِلَى حجيّة الصّحابيّ، أَوْ إِلَى أولِي الأمرِ السِيَاسِيّ، وإنْ اختلفت عَـنْ مصداقيَّة الشّريعةِ فِي القُـرْآن والسّنَّةِ النَّبَوِيّة. من الممكـن أنّ المتغيراتِ التاريخيَّةَ سمحتْ للدولة العربيَّةِ الإسلاميَّة، بعد أنْ انقضتْ المرحلةُ النبويَّة القصيرة، أنْ تتغلغلَ الأمثلـةُ الإمبراطوريَّة، البيزنطيَّة والفارسيَّة، في حنايا النُّظُـمِ الإسلامِيَّة، فأضحتْ دولةً

يميلُ فيها الولاءُ الدينيُّ الى الإنصهارِ مع الإنتماءِ السياسيِّ، واتضحتْ هذه الصورةُ مع الدولةِ الأمويَّة في ظل متغيرات جيوسياسية وسيسيو-انثربولوجية في أطلس النفوذ.

لئـنْ كان التسامُحَ من أهمِّ صفاتِ الإسلام، وإنّ القـرآن اَضْطَلَعَ بِذِكْرِ الآخرِ الدينيِّ وحضارتِـه بما يَرْبُو علـى نصفِه، ونشَرَ مفهـومَ التسامحِ في بضعٍ وثلاثيـنَ سورةً، ومئةٍ ونيِّف آية. فإنَّ اشكاليَّةَ الإختلافِ في التفسيرِ أو التأويلِ، والقراءةَ المحرَّفةَ للنصوصِ، أضعَفتْ من قِيمتِه التوصيليَّة، وأسهمتْ في التَّخَلِّي عن النظرةِ المتسامحةِ التي تختزنها ذاكرةُ الثقافةِ الإسلاميَّة. وظَلّتْ فَلْسَفَة التّشريع الإِسْلَاميّ مرتكزةً عَلَى العنايةِ بالجانبِ الشّخصيِّ، والشَّخْصِيَّةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ الإِسْلَامِيّةِ، إِذْ لا يُطَبِّقُ الإِسْلَامُ عَلَى غيرِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ شـرَّع قوانيـنَ لضمانِ حقوقِ أصحـابِ الدِّيَانَاتِ الأُخْرَى فِـي الْمُجْتَمَعِ الإِسْلَاميِّ، تحـتَ باب "أحكام أهـل الذمة"، من أجلِ حمايةِ التَّنَوُّعِ الدّينِـيِّ والثّقافِيِّ فِي الْمُجْتَمَعِ الواحـدِ. ويكـادُ مثلُ هَذِهِ التّجربةِ يفتقـرُ لها الغربُ، الَّذِي بقيَ- حَتَّـى حِينٍ- محكومًا بأُحَادِيَّـةِ النّظـامِ التَّشْرِيعِيِّ والسِيَاسِـيِّ، وحسْبُنَا -مَثَلًا- التجـاربُ الأوربيَّة في محاكم التفتيـش، فـي فرنسا و ألمانيـا إبّان القرن (7هــ/ 31م)، وفي أسبانيا فـي القرن (9هـ/ 51م)، وإلـزام اليهود والمسلمين علـى التدين بالمسيحيَّة، أو طردهم، أو الموت. بينما فِـي تاريـخ الإِسْلَام أنَّ حقوقَ غيـرِ الْمُسْلِمِينَ ولاسِيَّمَـا الْمَسِيحِيِّـنَ، حفظَتْها الشّريعةُ الْمُتَمَثِّلَـةُ بالكتـابِ والسُّنَّـةِ النّبَوِيّـةِ الصّحيحةِ، كَانَـتْ مُدَوَّنَةً ومعلومةً فـي كتب الفقه، بعنـوان: «أحكـام أهـل الذمة». غَيْـرَ أنَّ بعضَ الخلفـاءِ والحُكَّام كَانُـوا يجتهدونَ عَلَى صاحـبِ الشّريعـةِ ويعملـونَ برأيِهم، مِمَّـا سَجَّلوا خرقًا فِـي صميمِ العلاقـةِ الإِسْلَاميّة الْمَسِيحِيَّة.

إنَّ المعاهـدات التـي أُبرِمَتْ بين الرسـول محمَّد وبين المَسِيحِيِّـنَ، كانت صكوكًا حقوقيَّـة ترعَـى تنظيـمَ العلاقاتِ فـي المجتمعِ في صـدْرِ الإسلامِ على أُسُـسٍ حقوقيَّة استنـدتْ عليها مصـادر الشريعة الإسلاميَّة فـي التعاملِ مع الآخرِ الدينـيِّ، بلْ أضحتْ أساسَ العلاقاتِ الإسلاميَّة المسيحيَّة، والعلاقاتِ الإسلاميَّة الإسلاميَّة.

إنَّ سياسـةَ الفتوحِ واتسـاعِ رُقْعَةِ الدّوْلَة العَرَبِيَّـة بوتيرة سريعةٍ، أَرْبَـكَ الحياةَ الدِّينِيَّة

لـدَى شُـعوبِ البلـدانِ المفتوحةِ، وأخضـعَ الحيـاةَ الاجتماعيَّـةَ الى عملياتِ التغييرِ الديموغرافيِّ، وكانَ مِن مُخْرَجَاتِها التَّطْهِيرُ الدينيُّ لجزيرةِ العربِ، وقدْ نُسِبَ جُزَافًا الى قـولِ الرسولِ محمَّدٍ. وهذا التطهيرُ ولّدَ مشاعرَ الضياعِ، وفقـدانَ الهُوِيَّةِ التاريخيَّةِ لَدَى مسيحيِّي الجزيرة، وتَشَتُّتُهُم في البلدانِ، واندماجَهم سيسيولوجيًا في بيئاتٍ جديدة، مما شـكَّلَ خطرًا على وجودِهم الدينيِّ. ونتـجَ عنْ حصرِ السلطةِ بالعربِ، وانتشارِ الإسلامِ بِقُـوَّةِ الترغيبِ والترهيبِ، أنْ أصابَ الأغلبيَّةَ المسيحيَّةَ الضمورُ، وتحولتْ الى أقلياتٍ دينيَّـةَ تعاني منْ ظاهرةِ الخوفِ، أو مجموعاتٍ تدجَّنتْ على غريزةِ الحمايةِ (الذمَّة) في ظـلِّ أنظمةٍ مُسْتَبِدَّةٍ أحيانًا. فكـان عليهم بإزاء الضَّغوطاتِ الدِّينيَّـة والسِّيَاسِيَّة والإِدَارِيَة والاِجْتِمَاعِيَّـة، أن يختاروا بين أن يعتنقوا الإسلامِ، أو يقبضوا على دينَهم، ويرحلوا الى أمْكِنَةٍ أخرَى، تكونَ مُسْتَقَرًّا ومَأْمَنًا لهم.

يجـدر بالعلـم، أنَّ فكـرةَ الخلافـة، التـي انبثقت عـن العقـل القبليّ، ظلَّـت تسري فـي عـروق الوعي التاريخـيّ للعامة من المسلميـن، إذْ كانوا يرَوْنَ فيهـا صمَّامَ الأمان، لوجودهـم علـى الصعيدين السياسـيّ والدينـيّ؛ لِمَا أُتِيحَ لها من شـهرة وهيمنـةٍ، إبَّان الفتـوح، حتـى بلغت الخافقيـن، واستحوذت على مساحـةٍ من القيميَّـة والمعياريَّة من الحُسْـنِ العقليِّ التاريخيِّ، لـدُنِ السلفِ الصالح، عبرَ الأزمنة، حتى كادت تراود مخيلة أـية فرقة تنبغ على السطح السياسيّ، وتسعى الى التوسّع وبسط السلطة.

مـن البدهـيّ إنَّ كل دين أو معتقد يرى معتنقوه أنّه يحـوز كماله الخاص، وقد تمثَّل كمـال الدين الإسلامي في نظر أتباعه بالجهـاد، بالمعنى الأكثر عمقًا للمصطلح، الذي يتضمـن قيادة النفس، والآخرين جميعِهم الى إكتمالٍ دينيٍّ وأخلاقيٍّ، ليس سوى إتمامٍ لجميع الرسالات السابقة، التي لا ينكرها الدين الإسلامي البتَّة، بلْ يرى أنّه يتخطَّاها، أو يأخـذ بالأحرى بيدِها، لإيصالها الى قمَّة نضجِها، أي إليه. إنَّ اعتناقَ الإسلام –بالنسبة للمسلـم– هو تقـارب، ينبغي أنْ يوصِـلَ جميع "أهل الكتاب" في نهايـة المطاف، الى الإتّحاد معه في الحقيقة التي سوف يتشاركونها جميعًا، بفضل ما تبذله الأمَّة الإسلاميَّة من جهدٍ لا ينقطع لهدايتهم إليها. بيدَ أنَّ الجهادَ لا يهدفُ الى فرضِ العقيدةِ على الناسِ.

إنَّ الجهادَ الحربيَّ، كنظامٍ إسلاميٍّ، وُلِدَ في حاضنةِ الدفاعِ عن بيضةِ الإسلامِ وحياضِه، شكّلَ ضرورةً ماسَّةً في حَلِّ عُقْدَةِ الصراعِ الحضاريِّ ذِي الصبغةِ الدِّينِيَّة، وما صاحبَها من حوادثَ، فَصَلَتْ بينَ دارِ الحربِ ودارِ السلامِ. وما بعدَ هذهِ الحِقْبَةِ كانَ الجهادُ الحربيُّ قد استنفد دوافعه، والفتوحُ قدْ فقدتْ جذوتَها، ولمْ تؤتِ أُكُلَهَا، سِوى اضطهادِ الشعوبِ المفتوحةِ باسمِ الجهادِ في الدينِ، تحت راية الخلافة الإسلاميَّة. ولم يتوقفْ هذا عندَ إيقادِ جَذْوَةِ الكراهيَّةِ مع الشعوبِ الأُخْرَى، ولا سيَّما مع الغربِ المسيحيِّ، وأثرِها في الحروبِ الصليبيَّة فيما بعدُ، وتاليًا كانتْ عاملًا على خلْقِ تربةٍ خِصْبَةٍ لإشاعَةِ رُوحِ الإكراهِ، التي تَرَعْرَعَتْ لدَى المسلمينَ، وولّدتْ حالة العنفَ بين صفوفهم.

إنَّ توافُرَ أسبابِ التَّعَايُشِ الْمَسِيحِيّ فِي الْمُجْتَمَع الإِسْلَامِيّ، وتوفُّرَ آليَّاتِه فِي ميادين الحياة، يَمْنَحُهُمْ وجودًا متميزًا فِي التّراثِ الفكريِّ والعلميِّ. ولَعَلَّ مثابرةَ الْمَسِيحِيِّنَ فِي سدِّ الفراغ الدّينِيّ والحضاريّ، بما لديهم من مكانزَ وخبراتٍ موروثة، واشتغالَهم فِي المَهَامِّ الحياتيَّةِ والأعمالِ والعلومِ والفنونِ المُخْتَلفةِ، عزَّزَ من وجودِهم عَلَى الخَارِطَة دِينِيًّا واجْتِمَاعِيًّا وحضاريًّا. من خلالِ استحضارِ الذاكرةِ المسيحيَّةِ والذاكرةِ الإسلاميَّةِ في تجربةِ المائةِ الأولَى للعلاقاتِ، وتوظيفِ القراءة المتسامحةِ للنصوصِ، يمكنُ تحفيزَ مسيرةِ التضامنِ الإنسانيِّ، وتنشيطِ التواصلِ بين المنظوماتِ الثقافيَّةِ الدينيَّةِ على سبيلِ الرقيِّ والحضارةِ والسلامِ العالميِّ.

بعد هذه الدراسة التحليليّة والقراءة الموضوعيّة، لا مندوحة من الكشف عن منهجيّة البحث في فهم المصطلحات ذات الأهميَّة مثل "الدولة" لم يستعمل معها الصبغة الدِّينِيَّة، أي "الدولة الإسلاميّة» او "الدولة العربية الإسلامية»، لأنَّ الدُوَلَ لَوْ قُرِنَتْ بالأديانِ لكانت ذات طبيعةٍ انحصاريَّة، وولَّدَتْ إشكالاتٍ تاريخيَّةٍ تصِلُ الى الكوارثِ، فالدولة المسيحيَّة انتجَت محاكم التفتيش، والدولة الاسلاميّة في العصر الأُمويِّ أنهكتْ الإنسانيَّة تحتَ راية الفتوح، وها هو الشرق ينأى كاهلُه اليومَ من فضائع الدولة المتلَبِّسَةِ باللبُوسِ الإسلاميَّة. وأنَّ ثَمَّةَ تعارضًا في مقصد كل من طرفي المعادلة، فالدين لا إكراه فيه، والدولة تملك سلطة الإكراه والقوة المنظَّمَة، ولذا قِيل:

الدولـة بطبيعتها لا دينَ لها. ولأنّي تفحصتُ المعاهدات والمصادرَ الإسلاميَّة الأولى، ولـمْ أقـفْ على ذكرِ "الدولة الاسلاميَّة" ولا «دولة الإسلام»، ولذا شـرعت في البحث بتسمية "الدولة العربيَّة".

إذا كـان ولا منـاص من إضـاءة مستقبلية، فإنَّ هـذه الدراسة محاولـة تتفتّح خلالها مقاربـات استشرافيـة، أمـام أيـة دراسات أكاديميّـة تسعى الـى تنمية نقد الفكـر الديني باتجـاه تحصينه من التطرف، وإعادة قراءة التاريخ الإسلاميّ، ومحاولة كتابته في ضوء المفاهيـم المتقاربة الناتجة عن المقارنات العلمية للكتابات الإسلاميّة المسيحيّة، التي استقـرأت الممارسـة التاريخيّة في صدر الإسـلام. ومن هنا، يحدوني الأمـلُ أنْ تلقَى الدراسـاتُ عـن مكانز التواصـل بين الحضـاراتِ الدِّينيَّة عبرَ التجـاربِ التاريخيَّة، ولا سيَّمـا سيسيولوجيا العلاقات المسيحيَّة الإسلاميَّة، تلقَـى حظَّها من الإهتمامِ، لِاتِّصَالِ واقـعِ البلادِ العربيَّـةِ في هذا العصرِ بها اتّصالًا وثيقًا، لكَيْ تشهـدَ السـاحةُ الثقافيَّةُ بحوثًا جادّةً، تُثْرِي علاقاتِ التعارفِ والتفاهمِ بين المكوناتِ للحياةِ الاجتماعيَّةِ، وتنشرُ ثقافةَ التعايـشِ والإندماجِ في المجتمـعِ الواحدِ، وتتناولُ التجاربَ المعاصِـرةَ وما تصاحبُها مـن قضايا جديدةٍ، نحو إدارة التعدُّدِيَّة الدِّينيَّة مـن منظور حقوقيٍّ. كما تعروني الحاجة الأكاديمية الى تجديد الدراسة حول الخلافة الإسلامية، وقراءتها من جوانبَ عدَّة توفر مزيـدًا مـن التعمُّق في الفكر التاريخـيِّ؛ لكونها العروةَ الوثقى التـي يتّكئ عليها الوعيُ التاريخـيُّ للعامَّة من المسلمين، وبـؤرةً للأفكار المتشدّدة التي تضطلـع بها فِرَقٌ تَتْرَى في تاريخ الإسلام حتّى يومنا هذا.

ثَبْتُ المصادرِ والمراجع

أولا - المصادر

المصادر بالعربية

- ابن الأثير، علي بن مُحَمَّد أبي الكرم الجزري، (ت 630هـ/ 1233م): **أُسْد الغابة فِي معرفة الصّحابة**، تح: علي مُحَمَّد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت 1994).
- ــــــــ: **الكامل فِي التّاريخ** (دار الكتاب الْعَرَبِيّ، بيروت 1997م).
- ابن الأثير، المبارك بن مُحَمَّد، مجد الدّين الجزري (ت 606هـ/ 1209): **النّهاية فِي غريب الحديث والأثر**، تح: طاهر أحمد الزاوى ومحمود مُحَمَّد الطّناحي، 5ج (المكتبة العِلْمِيَّة، بيروت، 1399هـ/ 1979م).
- ابن الأثير، نصر الله بن مُحَمَّد الجزري، ضياء الدّين، (ت637هـ): **المثل السّائر فِي أدب الكاتب والشّاعر**، تَحْقِيْق: أحمد الحوفي، 4ج (دار نهضة مِصْرَ للطباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة).
- أحمد بن حنبل الشّيباني (ت241ه/ 855م): **الرد على الجهمية والزنادقة**، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين (دار الثبات للنشر والتوزيع، الرياض، لا زمان).
- ــــــــ: **المسند**، تَحْقِيْق: شعيب الأرنؤوط وآخرون (مُؤَسَّسَة الرّسالة، بيروت، 1421 هـ - 2001 م).

- أحمد بن فارس القزويني (ت395هـ/ 1005م): معجم مقاييس اللغة، 6ج، تح: عبد السلام محمد هارون(دار الفكر، بيروت 1399هـ - 1979م).
- ابن إدريس الحلي، (ت598هـ/ 1202م): كتاب السّرائر الحاوي لتحرير الفتاوي (مُؤَسَّسَة النّشر الإِسْلَاميّ، قم).
- الإدريسي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الله (ت560هـ/ 1165م): نزهة المشتاق فِي اختراق الآفاق (عالم الكتب، بيروت 1409).
- الأزدي، الفضل بن شاذان (ت260هـ/ 874م): الإيضاح، (مُؤَسَّسَة انتشارات وچاپ دانشگاه، طهران، 1405هـ).
- الأزدي، مُحَمَّد بن عبد الله البصري: فتوح الشّام، تح: وليم ناسوليس الأيرلاندي (مطبعة بتسن مشن، كلكتا، 1854).
- الأزرقي، مُحَمَّد بن عبد الله بن أحمد (ت250هـ/ 864م): أخبار مَكّة وما جاء فِيهَا من الأثار، تح: شدي الصّالح ملحس (دار الأندلس للنشر، بيروت، د.ت).
- ابن إسحاق: مُحَمَّد بن إسحاق بن يسار (ت151هـ/ 768م): سيرة ابن إسحاق (كتاب السّير والمغازي)، تح: سهيل زكار، (دار الفكر، بيروت 1978).
- الأشعري، أبو الحسن، علي بن إسماعيل (ت324هـ): مقالات الإسلاميين، تح: نعيم زرزور، (المكتبة العصرية، بيروت، 2005م)
- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم الخزرجي (ت668هـ/ 1270م): عيون الأنباء فِي طبقات الأطباء، (المطبعة الوهبية، القاهرة، لا. ت).
- امرؤ القيس بن حِجْر الكندي (ت545م): ديوان امرِئ القيس، تَحْقِيْق: عبد الرّحمن المصطاوي (ط2، دار المعرفة، بيروت، 2004).
- الأنباري، أَبو بكر مُحَمَّد بن القاسم (ت328هـ/ 940م): الزاهر فِي معاني كلمات النّاس، تَحْقِيْق: حاتم صالح الضّامن. (مُؤَسَّسَة الرّسالة، بيروت، 1992).
- البَابرتي، محمد بن محمد بن محمود، الرومي (ت786هـ/ 1384م): العناية شرح

الهداية (دار الفكر، بيروت، لا. ت).

• الباقِلّانـي، مُحَمَّـد بـن الطّيـب بـن مُحَمَّـد (ت403هـ/ 1013م): **تمهيـد الأوائـل وتلخيـص الدّلائل**، تح: عمـاد الدّين أحمد حيدر (مُؤَسَّسَة الكتـب الثّقافِيّة، بيروت 1993م).

• البُخَـاري، مُحَمَّـد بن اسماعيـل (ت256هـ/ 870م): **الأدب المفـرد**، تح: سمير بن أمين الزهيري (مكتبة المعارف للنشر، الرّياض 1998).

• ــــــــ: **الجامع المسند الصّحيح**، تحقيق: مُحَمَّد زهير بن ناصر النّاصر، 9ج(دار طوق النّجاة، 1422هـ).

• البغـدادي، عبـد القادر بـن عمر (ت 1093هـ/ 1682م): **خزانـة الأدب ولب لباب لسان الْعَرَب**، تح: عبد السّلام مُحَمَّد هارون (مكتبة الخانجي، القاهرة 1997).

• البكري، أَبُو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت487هـ/ 1094م): **المسالك والممالك** (دار الغرب الإِسْلَاميّ، 1992م).

• ــــــــ: **معجم مَا استعجم**، تح: مصطفى السّقا (عالم الكتب - بيروت، 1983).

• البَـلَاذُري، أحمد بـن يحيى بن جابر بن داود (ت 279هـ/ 892م): **جمل من أنساب الأشراف**، تحقيق: سهيل زكار، ورياض الزركلي (دار الفكر، بيروت، 1996م).

• ــــــــ: **فتوح البُلْدَانِ** (دار ومكتبة الهلال - بيروت، 1988 م).

• البيضـاوي عبد الله بن عمر الشيرازي (ت 685هـ/ 1286م): **أنوار التنزيل وأسـرار التأويـل**، تح: محمد عبد الرحمـن المرعشلي، (دار إحياء التـراث العربي، بيروت، 1418م).

• البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، أَبُو بكر الخُسْرَوْجِردي، (ت458هـ/ 1066م): **دلائل النّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة**، 1 - 7مج (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 1405هـ).

• ــــــــ: **شعب الإيمان**، 14ج (مكتبة الرّشد للنشر والتّوزيع بالرّياض بالتّعاون مَعَ

الدّار السّلفية ببومباي بالهند، 1423هـ - 2003م).

- الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق (ت 427هـ): **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، 10ج، تح: أبو محمد بن عاشور (دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1422هـ/ 2002م).
- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ/ 869م): **البيان والتّبيين**، (دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ).
- ــــــــ: **الرّد عَلَى النَّصَارَى**، ضِمْنَ رسائل الجاحظ، تح: عبد السّلام هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989).
- الجهشياري، مُحَمَّد بن عبدوس الكوفي (ت331هـ/ 943م): **الوزراء والكتاب**، (دار الكتاب، القاهرة، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م).
- ابن الجوزي (597هـ/ 1201م): **تلقيح فهوم أهل الأثر**، (شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت 1997م).
- ــــــــ: **المنتظم فِي تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: مُحَمَّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ج 19، (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 1992م).
- الجوهري، أَبُو نصر إسماعيل بن حماد (ت393هـ/ 1003م) **الصّحاح تاج اللُغَة وصحاح الْعَرَبِيّة**، تح: أحمد عبد الغفور عطار (دار العلم للملايين، بيروت 1987 م).
- الجياني مُحَمَّد بن عبد الله الطّائي (ت672هـ/ 1274م): **إكمال الإعلام بتثليث الكَلَام**، تح: سعد بن حمدان الغامدي، (جامعة أمّ القرى، مَكّة، 1984).
- ابن أبي حاتم، الرازي (327هـ/ 939م): **تفسير القرآن العظيم** (مكتبة نزار الباز، الرياض، 1419هـ).
- ابن حبان، أَبُو حاتم، البُستي (ت354هـ/ 956م): **الصّحيح**، تح: شعيب الأرنؤوط (مُؤَسَّسَة الرّسالة، بيروت، 1988م).

- ابـن حبيـب، مُحَمَّد، أَبُو جعفـر البغدادي (ت245هـ/ 859م): المحبـر، تح: إيلزة ليختن شتيتر، (دار الآفاق الجديدة، بيروت، لا. ت).
- ـــــــــ: المُنَمَّـق فِـي أخبار قُرَيْش، تح: خورشـيد أحمد فـاروق، (عالم الكتب، بيروت، 1405 هـ/ 1985 م).
- ابـن حجـر، أحمد بـن علـي العسقلانـي (ت852هـ/ 1448م): الإصابة فـي تمييز الصحابـة، 8ج، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلـي محمد معوض، (دار الكتب العلمية، بيروت 1415هـ).
- ـــــــــ: تهذيب التّهذيب، 12ج (دائرة المعارف النّظامية، الهند، 1326هـ).
- ابـن ابي الحديـد (ت656هـ/ 1258م): شـرح نهج البلاغة، تـح: محمد أبو الفضل إبراهيم (دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1959).
- ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي القرطبي الظّاهري (ت456هـ/ 1064م): رسائل ابن حـزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عبـاس (المُؤَسَّسَة الْعَرَبِيّـة للدراسات والنّشر، بيروت، لا. ت).
- ـــــــــ: المحلى بالآثار (دار الفكر، بيروت، لا. ت).
- الحلبـي، علي بن إِبْرَاهِيم (ت 1044هـ/ 1731م) السّيرة الحلبية = إنسان العيون فِي سيرة الأمين المأمون (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت 1427هـ).
- ابـن حمـدون، محمـد بـن الحسـن، بهـاء الديـن البغـدادي (ت 562هـ): التذكرة الحمدونية، (دار صادر، بيروت، 1417هـ).
- الحِميرى، مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت 900هـ/ 1495م) الرّوض المعطار فِي خبر الأقطار، تح: إحسان عباس (مُؤَسَّسَة ناصر للثقافة، بيروت 1980).
- ابـن حوقـل، مُحَمَّـد البغـدادي الموصلـي (ت: بَعْـدَ 367هـ/ 978م): صـورة الأرض،(دار صادر، أفست ليدن، بيروت 1938م).
- الخطيب البغدادي (ت463هـ/ 1071م) تاريخ بغداد، [1] تح: مصطفى عبد القادر

عطا (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 1417 هـ). [2] تح: بشار عواد معروف، 16ج، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002).

- الخَلَّال، أَبُو بكر أحمد بن مُحَمَّد بن هارون (ت 311هـ/ 923م): **أحكام أهل الملل والرّدة من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل**، (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 1994).
- ابن خلدون، عبد الرّحمن بن مُحَمَّد الإشبيلي (ت 808هـ/ 1405م): **ديوان المبتدأ والخبر فِي تاريخ الْعَرَب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)**، تح: خليل شحادة (دار الفكر، بيروت 1988).
- ابن خلكان، أحمد بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم (ت 681هـ/ 1282م): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس (دار صادر، بيروت 1994م).
- خليفة بن خياط العصفري (ت240هـ/ 854م): **تاريخ خليفة**، تحقيق: أكرم ضياء العمري (دار القلم، مُؤَسَّسَة الرّسالة، دمشق، بيروت، 1397).
- الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت 170هـ/ 786م) **كتاب العين**، تح: مهدي المخزومي، إِبْرَاهِيم السّامرائي، 8جزء، (دار ومكتبة الهلال، بيروت، لا. ت.).
- الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت 387هـ): **مفاتيح العلوم**، تح: إبراهيم الأبياري (ط2، دار الكتاب العربي، القاهرة، لا. ت.)
- ابن دُرَيد، مُحَمَّد بن الحسن الأزدي (ت 321هـ/ 933م): **جمهرة اللُّغَة**، تح: رمزي منير بعلبكي (دار العلم للملايين، بيروت 1987).
- الدّيار بَكْري، حسين بن مُحَمَّد بن الحسن (ت 966هـ/ 1559م): **تاريخ الخميس فِي أحوال أنفس النّفيس**، (دار صادر، بيروت، لا. ت).
- الدّينوري، أحمد بن مروان المالكي (ت333هـ/ 945م): **المجالسة وجواهر العلم**، (جمعية التّربية الإِسْلَامِيّة، أم الحصم، البحرين؛ دار ابن حزم، بيروت، 1419هـ).

- الذّهبي، شمس الدّين، مُحَمَّد بن أحمد (ت 748هـ/ 1347م): تاريخ الإِسْلَام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، 1 - تح: بشار عوّاد معروف (دار الغرب الإِسْلَاميّ، بيروت، 2003 م). 2 - تح: عمر عبد السّلام التّدمري (ط2، دار الكتاب الْعَرَبِيّ، بيروت، 1413 هـ - 1993م).
- ـــــــــــ: سير أعلام النّبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، 25جزء، (ط3، مُؤَسَّسَة الرّسالة، 1405 هـ/ 1985م).
- الرازي، فخر الدين، محمد بن عمر بن الحسن، (ت606هـ/ 1209م): مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420).
- ابن رشد، ابو الوليد، محمد بن أحمد (ت520هـ/ 1126م): المقدمات الممهدات، تح: سعيد أحمد أعراب، 3ج، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988).
- ابن رشيق، الحسن القيرواني الأزدي (ت463هـ/ 1071م): العمدة في محاسن الشّعر وآدابه (دار الجيل 1981م).
- الزجاجي، عبد الرّحمن بن إسحاق البغدادي (ت337هـ/ 948م): أخبار أبي القاسم الزجاجي، تح: عبد الحسين المبارك (دار الرّشيد، بغداد، 1980).
- أَبُو زُرعة الدّمشقي، عبد الرّحمن بن عمرو (ت281هـ/ 894م) تاريخ أبي زرعة، (مجمع اللُغَة الْعَرَبِيَّة، دمشق، لا. ت).
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (ت538هـ/ 1144م): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،4 ج (دار الكتاب العربي، بيروت،1407هـ).
- زيد بن علي بن الحسين (ت122هـ/ 740م): مسند الامام زيد، جمعه: عبد العزيز بن إسحاق البغدادي (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، لا. ت).
- ساويرس ابن المقفع (302 - 377هـ/ 915 - 987م): تاريخ البَطَارِكَة - تاريخ مِصْرَ، تح: عبد العزيز جمال الدّين (مكتبة مدبولي، القاهرة 2006م).
- السّخاوي، شمس الدّين، أَبُو الخير، مُحَمَّد بن عبد الرّحمن (ت902هـ/ 1497م):

التّحفة اللطيفة فِي تاريخ المدينة الشّريفة (الكتب العلميه، بيروت 1993م).

- السّرخسي، مُحَمَّد بن أحمد بن أبي سهل (ت483هـ/ 1090م): شرح السِّيَر الكبير (الشّركة الشَّرْقِيَّة للإعلانات، القاهرة 1971م).
- ـــــــ: المبسوط، 30ج، (دار المعرفة، بيروت، 1414هـ/ 1993م).
- ابن سعد، مُحَمَّد بن سعد بن منيع (ت230هـ/ 845م): الطّبقات الكُبْرَى، تحقيق: مُحَمَّد عبد القادر عطا، 8 ج، (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 1990 م).
- سعيد بن بِطْرِيق، افتيشيوس (ت328هـ/ 940م): التّاريخ المجموع عَلَى التّحقيق والتّصديق (مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1905).
- ابن سلّام، مُحَمَّد الجمحي (ت232هـ/ 847م): طبقات فحول الشّعراء، تح: محمود مُحَمَّد شاكر (دار المدنيّ، جدة).
- السّهيلي، أبُو القاسم، عبد الرّحمن بن عبد الله بن أحمد (ت581هـ/ 1185م): الرّوض الآنف فِي شرح السّيرة النّبَوِيّة لابن هشام، تح: عمر عبد السّلام السّلامي، (دار إحياء التّراث الْعَرَبِيّ، بيروت، 1421هـ/ 2000م).
- ابن سيده: علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت458هـ/ 1066م): المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 1421هـ - 2000 م).
- السُّيوطي، جلال الدّين، عبد الرّحمن بن الكمال (ت911هـ/ 1505م): تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدّمرداش (مكتبة نزار مصطفى الباز، 1425هـ - 2004م).
- ـــــــ: الجامع الصّغير (دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1981م).
- ـــــــ: الدّر المنثور (دار الفكر، بيروت، 1993).
- ـــــــ: الشّماريخ فِي علم التّاريخ، تح: عبد الرّحمن حسن محمود (مكتبة الآداب، القاهرة).
- الشّابشتي، علي بن مُحَمَّد (ت388هـ/ 998م): الدّيارات، تح: كوركيس عواد،

(ط2، دار الرّائد الْعَرَبِيّ، بيروت 1986).

- الشّافعي، مُحَمَّد بن إدريس المطلبي القرشي المَكّيّ (ت204هـ/ 820م): مسند الشّافعي (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت).
- أَبُو شامَة، شهاب الدّين، عبد الرّحمن بن إسماعيل المقدسي (ت665هـ/ 1267م): عيون الرّوضتين فِي أخبار الدّولتين النّورية والصّلاحية، 5ج (مُؤَسَّسَة الرّسالة، بيروت، 1997).
- ابن شبَّة: النّميري البصري، أَبُو زيد (ت262هـ/ 876م) تاريخ المدينة، تحقيق: فهيم مُحَمَّد شلتوت (طبع حبيب محمود أحمد - جدة، 1399 هـ).
- ابن شدَّاد، عز الدّين مُحَمَّد بن علي الحلبي (ت684هـ/ 1250م): الأعلاق الخطيرة فِي ذكر أمراء الشّام والجَزِيْرَة، تحقيق: يحيى زَكَرِيَّا عَبَّارة، (منشورات وزارة الثّقافة بسوريا، 1991م).
- الشّريف الرّضي (ت405هـ/ 1014م): نهج البلاغة - خطب الإمام عليّ، شرح: مُحَمَّد عبده، (دار الذّخائر، قم، ايران 1412هـ).
- ابن شعبة الحَرَّاني (ق4ه/ 10م): تحف العقول عن آل الرسول، (مُؤَسَّسَة النّشر الإِسْلَاميّ، جماعة المدرسين، قم، لا. ت).
- الشّهرستاني: مُحَمَّد بن عبد الكريم بن أحمد (ت548هـ/ 1153م): الملل والنّحل، (مُؤَسَّسَة الحلبي وشركاه للنشر، القاهرة).
- الصّالحي، مُحَمَّد بن يوسف الشّامي (ت 942هـ/ 1535م): سبل الهدى والرّشاد فِي سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله فِي المبدأ والمعاد، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي مُحَمَّد معوض، (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت 1414 هـ/ 1993م).
- الصّدوق، مُحَمَّد بن علي، ابو جعفر، بن بَابَويه القمي (ت381هـ/ 991م): من لا يحضره الفقيه (منشورات جماعة المدرسين، قم، إيران، لا. ت).

- ـــــــــ: الأمالي (مؤسسة البعثة، قم، إيران، 1417هـ).
- الطّبـري مُحَمَّد بن جرير (ت310هـ/ 922م): تاريخ الرّسـل والملوك، (دار التّراث، بيروت، لا. ت).
- ـــــــــ: جامع البيان في تأويـل القُرْآن، تحقيـق: أحمد مُحَمَّد شـاكر، 24 جزء، (مُؤَسَّسَة الرّسالة، لا مكان، 2000 م).
- الطَّرطوشي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الوليد الفهري (ت520هـ/ 1126م) سراج الملوك (أوائل المطبوعات الْعَرَبِيّة، مِصْرَ، 1872م).
- ابـن الطّقْطَقى، مُحَمَّد بن علي بن طباطبا (ت709هـ/ 1309م): الفخري في الآداب السُّلْطَانِيَّة والدّول الإِسْـلَامِيّة، تح: عبد القـادر مُحَمَّد مايو (دار القلم الْعَرَبِيّ، بيروت 1997).
- الطّوسـي، مُحَمَّد بـن الحسن (ت460هــ/ 1068م): تهذيب الأحكـام، تح: حسن الخرسان (ط4، دار الكتب الإِسْلَامِيّة، طهران).
- ـــــــــ: الخلاف، (مُؤَسَّسَة النّشر الإِسْلَامِيّ، قم 1407).
- ابن عبد البِرّ، يوسف بن عبد الله، أَبُو عمر النّمري (ت463هـ/ 1071م): الاستذكار (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 2000).
- ـــــــــ: الاستيعاب في معرفـة الأصحاب، 4ج، تح: علي محمـد البجاوي (دار الجيل، بيروت، 1412هـ/ 1992م).
- ـــــــــ: الدّرر في اختصار المغازي والسّير، تح: شـوقي ضيـف (دار المعارف، القاهرة، 1403هـ).
- ابـن عبد الحَقّ البغدادي، عبد المؤمن، صفيّ الدّين القطيعي (ت739هـ/ 1338م): مراصد الاطلاع عَلَى اسماء الامكنة والبقاع (دار الجيل، بيروت، 1412هـ).
- ابن عبد الحكم، عبد الرّحمن بن عبد الله (ت257هـ/ 871م): فتوح مِصْرَ والمغرب (مكتبة الثّقافة الدِّينِيَّة 1415هـ).

• ابن عبد الحكم، عبد الله بن أعين المصري (ت 214هـ): سيرة عمر بن عبد العزيز، تح: أحمد عبيد، (عالم الكتب، بيروت، 1984).
• عبـد الرّزاق الصّنعانـي، بن همام (211هــ/ 827م): المصنـف (المجلس العلمي، الهند؛ المكتب الإِسْلَاميّ، بيروت، 1403).
• ابـن عبد ربـه، أحمد بن مُحَمَّد الأندلسـي (ت 328هـ/ 940م): العقـد الفريد، (دار الكتب العِلْمِيَّة – بيروت، 1404 هـ).
• عبد القادر البغدادي، أَبُو منصور (ت429هـ/ 1038م): الفَرْقُ بين الفِرَق، (ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1977) ص 28.
• ابـن العِبْـري، غريغوريـوس، أَبُـو الفرج بن هـارون الطّبيـب الملطـي (ت685هـ/ 1286م): تاريـخ مختصـر الدّول، تصحيـح: الأب انطوان صالحانـي اليسوعي(دار الرّائد اللبناني، بيروت،1983م).
• أَبُو عُبيد، القاسم بن سلاّم الهروي البغدادي (ت 224هـ/ 838م): الأموال، تحقيق: خليل مُحَمَّد هراس، (دار الفكر. – بيروت، لا. ت).
• ــــــــ: غريـب الحديـث، تح: مُحَمَّـد عبد المعيد خـان، 4جـزء، (مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدّكن، الهند، 1964م).
• العجلوني، إسماعيل بن مُحَمَّد (ت1162هـ/ 1749م): كشـف الخفاء (دار الكتب العِلْمِيَّة – بيروت، 1988م).
• ابـن عذاري المراكشي، أَبُو عبد الله مُحَمَّد بـن مُحَمَّد (ت 695هـ/ 1295م): البيان المغرب فِي أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان، إِ. ليفي بروفنسال (ط3، دار الثّقافة، بيروت 1983).
• ابـن عساكر، علي بـن الحسن بن هبة الله (ت571هـ/ 1176م): تاريخ دمشـق، تح: عمرو بن غرامة العمروي، (دار الفكر للطباعة والنّشر، بيروت، 1415هـ – 1995م).
• الغزالـي، أَبُو حامـد، مُحَمَّد بن مُحَمَّد (ت505هــ/ 1111م): مقامـات العلماء بَيْنَ

يـدي الخلفاء والامراء، تـح: مُحَمَّد حسن مُحَمَّد حسن، أحمـد فريد المزيدي (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت 2003).

- ابـن فـارسٍ، أحمد القزوينـي (ت395ه/ 1004مــ): الصّاحبي فِي فقه اللُّغَـة الْعَرَبِيّة ومسائلها وسنن الْعَرَب فِي كلامها (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت1997).
- أَبُـو الفـداء عماد الدّيـن إسماعيل بن علي، صاحـب حماة (ت 732هــ/ 1331م): المختصر فِي أخبار البشر (المطبعة الحسينية، القاهرة، لا. ت).
- أَبُـو الفـرج الاصفهاني، علي بـن الحسين (ت356هــ/ 967م): الاغاني (دار الفكر للطباعة والنّشر، بيروت).
- ابـن فرحون، برهان الدّيـن اليعمري (ت 799هـ/ 1397م) تبصرة الحكام فِي أصول الأقضية ومناهج الأحكام (مكتبة الكليات الأزهرية، 1986م).
- الفسوي، يعقوب بن سفيان(ت 277هـ/ 890م): المعرفة والتّاريخ، تح: أكرم ضياء العمري(مُؤَسَّسَة الرّسالة، بيروت1981).
- ابـن فضل الله العمـري، أحمد بن يحيى (ت 749هـ/ 1349م): مسالك الأبصار فِي ممالك الأَمْصَار (المجمع الثّقافِيّ، أَبُو ظبي 1423هـ).
- ابن الفقيه، أحمـد بن مُحَمَّد بن إسحاق الهمداني (ت365هـ/ 976م): البُلْدَانِ، تح: يوسف الهادي، (عالم الكتب، بيروت، 1416هـ - 1996م).
- ابـن قتيبـة، أَبُو مُحَمَّد عبد اللـه بن مسلم الدّينوري (ت276هــ/ 889م): المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة (الهيئة المَصْرية العَامَّة للكتاب، القاهرة 1992م).
- قدامة بن جعفر، أَبُـو الفرج البغدادي (ت337هـ/ 948م): الخراج وصناعة الكتابة، تح: مُحَمَّد حسين الزبيدي (دار الرّشيد، بغداد).
- القزوينـي، زَكَرِيَّـا بن مُحَمَّد بـن محمود (ت682هــ/ 1283م): آثار البـلاد وأخبار العباد (دار صادر، بيروت).
- القسطلانـي، أحمد بـن مُحَمَّـد المَصْري، (ت923هــ/ 1517م) المواهـب اللدنية

بالمنح المُحَمَّدية (المكتبة التّوفيقية، القاهرة).

- القفطي، أَبُو الحسن عَلَى بن يوسف (ت646هـ/ 1248م): **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، مكتبة المتنبي، القاهرة، لا. ت).
- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت821هـ/ 1418م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، 15 جزء (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت).
- ــــــــ: **مآثر الإنافة في معالم الخِلَافَة**، تح: عبد السّتار أحمد فراج (مطبعة حكومة الكويت، الكويت 1985).
- ابن قَيِّم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751هـ/ 1350م): **أحكام أهل الذمة**، 3 ج، تح: يوسف بن أحمد البكري، شاكر بن توفيق العاروري، (رمادى للنشر، الدمام، المملكة السعودية، 1418هـ/ 1997م)
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدّمشقي (ت774هـ/ 1372م): **السّيرة النّبَوِيّة**، تح: مصطفى عبد الواحد، (دار المعرفة للطباعة والنّشر، بيروت).
- الكلاعي، سليمان بن موسى الحميري، (ت 634هـ/ 1237م): **الاكتفاء بِمَا تضمَّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء**(دار الكتب العِلْمِيَّة - بيروت 1420هـ).
- ماري بن سليمان (ق6هـ/ 12م): **فطاركة كرسيّ المشرق - من كتاب المجدل** (طبعة رومية 1899م، مكتبة المثنى، بغداد).
- مالك بن أنس الأصبحي (ت179هـ/ 795م): **المُدَوَّنَة** (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت 1994م).
- الماوردي، علي بن مُحَمَّد البصري البغدادي(ت450هـ/ 1058م): **الأحكام السُّلْطَانِيَّة** (دار الحديث، القاهرة، لا. ت).
- المُبَرّد، مُحَمَّد بن يزيد المبرد، أَبُو العباس (ت286هـ/ 899م): **الكامل فِي اللُّغَة والأدب**، تح: مُحَمَّد أَبُو الفضل إِبْرَاهِيم، 4جزء (ط3، دار الفكر الْعَرَبِيّ، القاهرة، 1417 هـ - 1997 م).

• المُتقي الهندي، علي بن حسام الدّين ابن قاضي خان القادري (ت975هـ/ 1568م): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، (ط5، مُؤَسَّسَة الرّسالة، لا مكان، 1981).

• المَـرْوَزِي، مُحَمَّد بن نصر بن الحَجّـاج (ت294هـ/ 906م) السّنَّة، تح: سالم أحمد السّلفي (مُؤَسَّسَة الكتب الثّقافِيَة - بيروت، 1408هـ).

• المِـزي، يوسف بن عبـد الرّحمن (ت742هـ/ 1341م): تهذيب الكمال في أسـماء الرّجـال، تـح: بشار عواد معـروف، 35جـزء، مُؤَسَّسَـة الرّسالة، بيـروت 1400هـ/ 1980م).

• المسعـودي علي بن الحسيـن (346هـ/ 957م): التّنبيه والإشـراف (دار الصّاوي، القاهرة).

• ـــــــــ: مـروج الذّهب، تحقيق: شـارل بلا، (انتشـارات الشّريـف الرّضي، قم، 1422هـ).

• مسكويـه: أبُو علي أحمد بن مُحَمَّد بن يعقوب (ت421هـ/ 1030م): تجارب الأمم وتعاقُب الهِمَم، تحقيق: أبُو القاسم إمامي، (ط2، سروش، طهران، 2000م).

• مسلم بـن الحَجّاج، أبُو الحسن القشيري النّيسابـوري (ت261هـ/ 875م): المسند الصّحيـح، تحقيـق: مُحَمَّد فؤاد عبـد الباقي، (دار إحيـاء التّراث الْعَرَبِـيّ، بيروت)، وطبعة (دار الفكر، بيروت).

• المُطَـرِّزِيّ، برهان الديـن، أبُو الفتـح الخوارزمي (ت 610هـ): المُغـرّب في ترتيب المُعَرَّب (دار الكتاب العربي، بيروت، لا. ت).

• المُفيـد، مُحَمَّـد بن مُحَمَّد بـن النّعمـان العكبـري (ت413هـ/ 1022م): المُقْنِعَة، (مُؤَسَّسَة النّشر الإِسْلَاميّ، قم، لا. ت.).

• المُقدسي: المطهر بن طاهر (ت 355هـ/ 966م): البدء والتّاريخ، 6ج (مكتبة الثّقافة الدِّينِيَّة، بور سعيد).

• المَقريـزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت845هـ/ 1441م): امتاع الأسـماع بِمَا

للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: مُحَمَّد عبد الحميد النّميسي، 15ج (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت، 1999م).

- ـــــــــ: المواعـظ والاعتبـار بذكـر الخطـط والآثـار، 4ج (دار الكتـب العِلْمِيَّة، بيروت 1418هـ).
- المكـي، العباس بن علـي الحسين الموسـوي (1180هـ/ 1766م): نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، (المطبعة الحيدرية، النّجف 1967).
- المُلَّا الهُروي، علي بن مُحَمَّد، القاري (ت1014هـ/ 1605م) مرقاة المفاتيح شـرح مشكاة المصابيح، (دار الفكر، بيروت، 1422هـ - 2002م).
- ابـن مَنْظـور، مُحَمَّد بن مكرم بـن عَلَى(ت711هـ/ 1311م): مختصر تاريخ دمشـق (دار الفكر للطباعة والتّوزيع والنّشر، دمشق 1984).
- ابـن مَوْدود الموصلي، عبد الله بن محمود البلدحي الحنفي (ت 683هـ/ 1284م): الاختيار لتعليل المختار، 5 أجزاء (مطبعة الحلبي، القاهرة، 1937م).
- ابـن النّديـم، مُحَمَّـد بـن اسحـاق (ت385هـ/ 995هـ): الفهرسـت، تـح: إِبْرَاهِيم رمضان، (دار المعرفة، بيروت، 1997).
- نشوان بن سعيد الحميرى (ت573هـ): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، (دار الفكر، دمشق، 1999).
- أَبـو نُعَيـم، إسماعيل بن مُحَمَّد الأصبهاني، (ت535هـ/ 1141م) دلائل النّبوة، تح: مُحَمَّد مُحَمَّد الحداد، (دار طيبة، الرّياض، لا. ت).
- ابـن نُقطـة، عبـد اللطيف بـن يوسف البغـدادي، ويعـرف بابـن اللّبـاد (ت629هـ/ 1231م): الإفـادة والاعتبار في الأمور المشـاهدة والحـوادث المعاينة بأرض مِصْرَ(مطبعة وادي النّيل، القاهرة، 1286هـ).
- النُّويـري، أحمـد بن عبد الوهاب بـن مُحَمَّد (ت733هـ/ 1333م): نهاية الأرب في فنون الأدب(دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423هـ).

- ابـن هُشام، عبد الملك الحِمْيـري (ت213هـ/ 828م): السّيرة النَبَوِيّة، تح: مصطفى السّقـا وإِبْرَاهِيـم الأبيـاري وعبـد الحفيـظ الشّلبي (شـركة مصطفى البابـي الحلبي وأولاده، القاهرة 1375هـ - 1955م).
- أَبُـو هِلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت395هـ/ 1005م): التلخيص في معرفة أسـماء الأشـياء، تَحقيق: عزة حسن (ط2، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، 1996م).
- ـــــــــــ: معجـم الفـروق اللغويـة (مؤسسـة النشـر الإسلامـي التابعـة لجماعـة المدرسين، قم، إيران 1412هـ).
- الهَمْدانـي، ابـن الحائـك، أَبُـو مُحَمَّـد الحسـن بن أحمد بـن يعقـوب (ت334هـ/ 946م): صفـة جَزِيْـرَة الْعَـرَب، تـح: مُحَمَّد علي الأكـوع (مكتبة الإرشـاد، صنعاء، 1990)ص240.
- الواحـدي، علي بن أحمد النيسابوري، (ت 468هـ/ 1076): أسـباب نزول القرآن، تـح: عصام الحميدان، (ط2، دار الإصلاح، الدمـام، المملكة السعودية، 1412هـ/ 1992م).
- ـــــــــــ: التَّفْسِيرُ البَسِيْط، (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1430هـ).
- الواقِـدي، مُحَمَّـد بـن عمر بن واقـد (ت207هــ/ 822م): المغازي، تـح: مارسدن جونس، (دار الأعلمي، بيروت 1989).
- = = فتوح الشّام (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت 1997م).
- ابـن الـوَردي، عمر بن مظفر بـن عمر (ت749هــ/ 1348م)،: التّاريـخ (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت 1996م).
- وَكِيـع، مُحَمَّـد بْنُ خَلَفِ البَغْـدَادِيّ، (ت306هــ/ 918م): أخبار القضـاة، تحقيق: عبـد العزيز مصطفى المراغي (المكتبة التّجارية الكُبْـرَى، بشارع مُحَمَّد علي بمَصْر 1947م).

- ياقوت، شهاب الدّين بن عبد الله الرّومي الحموي (ت626هـ/ 1229م): معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلَى معرفة الأديب) تح: إحسان عباس، (دار الغرب الإِسْلَاميّ، بيروت، 1993).
- ــــــــــ: معجم البُلْدَانِ، (ط2، دار صادر، بيروت، 1995م).
- اليحصبي، عياض بن موسى بن عياض السبتي، (ت544هـ): مشارق الأنوار عَلَى صحاح الآثار، (المكتبة العتيقة ودار التراث، لا بلد، لا زمان).
- اليَعْقُوبِيّ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح (ت292هـ/ 905م): البلدان (دار الكتب العِلْمِيَّة، بيروت 1422هـ).
- ــــــــــ: تاريخ اليَعْقُوبِيّ (دار صادر، بيروت، لا. ت).
- أَبُو يوسف، يعقوب بن إِبْرَاهِيم الأنصاري (ت182هـ/ 798م): الخراج، تح: طه عبد الرّؤوف سعد، سعد حسن مُحَمَّد، (المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، لا. ت).
-

المصادر المترجمة:

- أرسطوطاليس (ت322ق.م): كتاب الشّعر، ترجمة: عبد الرّحمن بدوي، (مكتبة النّهضة المَصْرية، القاهرة 1953م).
- توما أُسْقُف المرج (المرجي): كتاب الرّؤساء، ترجمة: الآب أَلبير أبونا، (مطبعة ديانا، بغداد1990) و(المطبعة العصرية، الموصل، العِرَاق، 1966).
- ابن العِبْري، أَبُو الفرج الملطي (ت685هـ/ 1286م): التّاريخ الْكَنَسِيّ، 1 - 2، ترجمة: المطران صليبا شمعون (دار المشرق الثّقافِيّة، دهوك، العِرَاق، 2012).
- عدناح، ايشو، البصري (ق3ه/ 9م): الدّيورة فِي مملكتي الفرس والْعَرَب، ترجمة: القس بولس شيخو، (مطبعة النّجم، الموصل، العِرَاق 1939).
- فرماج، بطرس اليسوعي: مروج الأخيار في تراجم الأبرار (مطبعة الأباء المرسلين، بيروت، 1880م).

- مِيخَائِيل، مار السّرْيانِيّ الكبير (ت595هـ/ 1199م): التّاريخ، 3ج، ترجمة: مار غريغوريوس صليبا شمعون (التّراث السّرْيانِيّ، متروبوليت، حلب، سُورِيَةَ 1996م).
- يوحنا النيقوسي: تاريخ العالم القديم ودخول العرب مصر، ترجمة: بيشوى عبد المسيح (لا.ط، لا.م).

ثانيا - المراجع

المراجع بالْعَرَبِيّة:

- الألوسي محمود شكري البغدادي (1343هـ/ 1924م): بلوغ الأرب فِي معرفة أحوال الْعَرَب، تحقيق: مُحَمَّد بهجة الأثري، (دار الكتاب المَصْري، القاهرة، لا. ت).
- إِبْرَاهِيم: فاضل خليل: خَالِد بن يزيد سيرته واهتماماته العِلْمِيَّة «دراسة فِي العلوم عِنْدَ الْعَرَب» (دار الْحُرِّيَّة للطباعة، بغداد، ١٩٨٤م).
- إِبْرَاهِيم، غريغوريوس يوحنا: المراكز الثّقافِيّة السّريانية، (دار ماردين للنشر، حلب 1997م).
- أبونا، ألبير (الأب): تاريخ الكَنِيسَة الشّرْقِيَّة (ط2، بغداد، 1985).
- ــــــــ: ديارات العِرَاق،(د.ط، بغداد: 2006م).
- ــــــــ: أدب اللُغَة الآرامية، بيروت 1971، ط2 بيروت 1995.
- أرملة، اسحق الخوري السّرْيانِيّ، القس: أنباء الزمان فِي جثالقة المشرق ومفارنة السّريان، (بيروت، 1920).
- الأسد، ناصر الدّين، مصادر الشّعر الجاهلِيّ، (ط7، دار المعارف، القاهرة، 1988).
- اسكندر، فايز نجيب: المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني سبيوس، (دار الحكمة اليمانية، صنعاء، 1993).
- أمين، أحمد: فجر الإِسْلَام (ط10، دار الكتاب الْعَرَبِيّ، بيروت 1969م).

• ـــــــــ: ضحى الإِسْلَام،(ط3، دار الكتاب الْعَرَبِيّ، بيروت).
• الأنبا الأرثوذكسي: كتاب العذراء مَرْيَم، حياتها، رموزها وألقابها، فضائلها، تكريمها (القاهرة، رقم ايداع 2005/ 14357).
• أيوب، سعيد: معالم الفتن (مجمع احياء الثّقافة الإِسْلَاميّة، قم، 1416هـ).
• بابو اسحاق، روفائيل: تاريخ نَصَارَى العِرَاق (مطبعة المنصور، بغداد، 1948).
• ـــــــــ: أحوال نَصَارَى بغداد، (مطبعة شفيق بغداد 1960م).
• بدوي، عبد الرّحمن: موسوعة المستشرقين، (دار العلم للملايين، بيروت، 1993م).
• ـــــــــ: التّراث اليُونانيّ فِي الحضارة الإِسْـلَاميّة - دراسـات لكبار المستشرقين (مكتبة النّهضة المَصْرية، 1940).
• برو، توفيق: تاريخ الْعَرَب القديم (ط2، دار الفكر، بيروت، 1422هـ/ 2001م).
• بسيونـي، محمـود شـريف، الوثائـق الدَّوْلِيَّـة المعنيـة بحقـوق الإنسـان، ج2، (دار الشّروق، القاهرة، 2003).
• بلحـاج، سلوى العايب: المسيحية العربية وتطوراتهـا - من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، (ط2، دار الطليعة، بيروت، 1998).
• البناء، جورج: الموسـوعة الكلدانية، سـلسلة بَطَارِكَة الكلدان (دار فينوس للطباعة والنّشر، 2002).
• جعيـط، هشـام: تاريخيّة الدّعـوة المُحَمَّدية فِي مَكّـة (دار الطّليعـة للطباعة، بيروت 2007).
• ـــــــــ: الوحـي والقـرآن والنّبـوة (ط2، دار الطّليعـة للطباعـة والنّشـر، بيروت، 2000).
• الجمـري، منصـور: مداخلات فِـي الفكر والسّياسـة، (دار الوسط للنشـر والتّوزيع، البحرين، 2008م).
• الجمل، أحمد مُحَمَّد عَلَى: أثر جهود السّريان عَلَى الحضارة الْعَرَبِيّة الإِسْلَاميّة (كلية

اللغات والتّرجمة ـ جامعة الأزهر، القاهرة 2005م).

- الحداد، يوسف دُرَّة: القرآن دعوة نصرانية (ط2، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، 1986).
- الحربي، عاتق بن غيث: معجم المعالم الجُغْرَافِيَّة فِي السّيرة النّبَوِيّة (دار مَكّة للنشر والتّوزيع، السّعودية).
- حسين، طه: في الأدب الجاهلي، (ط3، مطبعة محمد عبد الرحمن، القاهرة،1933).
- الحمد، مُحَمَّد عبد الحميد: التّوحيد والتّثليث فِي حوار الْمَسِيحِيَّة والإِسْلَام، (دار الأوائل. دمشق2003.
- حميد الله، مُحَمَّد الحيدرآبادي الهندي (ت1424هـ): مجموعة الوثائق السِّيَاسِيَّة للعهد النّبَوِيّ والخلافة الرّاشدة (ط6، دار النّفائس، بيروت، 1407هـ).
- الخضري، حنا جرجس، القس: تاريخ الفكر الْمَسِيحِيّ، (دار الثّقافة، القاهرة، 1994).
- خلاف، عبد الوهاب (ت1375هـ): السّياسة الشّرعية فِي الشّئون الدّستورية والخارجية والْمَالِيَّة، (دار القلم، لا مكان، 1988).
- خليل، حلمي: المولّد فِي الْعَرَبِيّة (دار النّهضة الْعَرَبِيّة، بيروت 1405).
- خماش، نجدت: الشام في صدر الإسلام، (دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق، 1987).
- الدّبس، يوسف، (المطران): (ت 1907) تاريخ سوريا الدّينِيّ والدّنيوي، 5ج (دار نظير عبود، بيروت، لا. ت).
- ـــــــــ: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل (بيروت، المطبعة العمومية الكاثوليكية، 1905)
- الدّقس، كامل: الدّولة الإِسْلَامية، (دار الأرقام، عمان 1993م).
- الدّوري، عبد العزيز: مقدمة فِي تاريخ صدر الإِسْلَام (مطبعة المعارف، بغداد،

1960).

- رستم، أسد: كَنِيسَـة مدينة الله أنْطَاكِيَةِ العظمى، 3 جزء، (المكتبة البولسية، بيروت، 1988).
- رشدي، زاكية: السّرْيانِيّة نحوها وصرفها، (ط2، دار الثّقافة للطباعة والنّشر، القاهرة 1978م).
- رضا، أحمد: مولد اللُغَة (دار الرّائد الْعَرَبِيّ، بيروت 1983م).
- رضا، محمد رشيد (1354هـ/ 1935م): تفسير المنار، 12ج، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990).
- أبـو زهـرة، محمد بن أحمد بـن مصطفى (ت 1394هــ/ 1974م): زهرة التفاسـير، 10أجزاء، (دار الفكر العربي، بيروت، لا. ت).
- زيات، حبيب: الدّيارات النَّصْرَانِيَّة فِي الإِسْلَام (ط4، دارالمشرق، بيروت 2010).
- زيـدان، جورجي: تاريـخ العـرب قبل الإسـلام، مراجعـة: حسين مؤنس،(ط3، دار الهلال، القاهرة، لا. ت).
- زيـدان، عبد الكريـم: أحكام الذِّمِّيِّـن والمستأمنين فِي دار الإِسْـلَام (مكتبة القدس، مُؤَسَّسَة الرّ سالة، بيروت 1982).
- سابق، سيد: فقه السنة (ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1977).
- السّالم، السّيد عبد العزيز: تاريخ الدّولة الْعَرَبِيّة (دار النّهضة الْعَرَبِيّة، بيروت، د.ت).
- سحـاب، فكتور: الْعَرَب وتاريـخ المسألة الْمَسِيحِيّة، (دار الوحـدة للطباعة والنّشر، بيروت 1986).
- سحمراني، أسعد: الإِسْلَام بَيْنَ المذاهب والأَدْيَان، (دار النّفائس، بيروت، 1992).
- سعـد الدّيـن، مُحَمَّـد منيـر: العيش الْمُشْـتَرَك الإِسْـلَاميّ الْمَسِيحِـيّ فِي ظِـلّ الدّولة الإِسْلَاميّة، (المكتبة البولسية، جونية، 2001).
- السّعـدون، مانـع: الْمَسِيحِيَّـة – العقيـدة والمذاهـب والتّاريـخ (دار الينابيع، دمشق

.(2010

- سعيد، جودت: كن كابن آدم (دار الفكر، دمشق 1997).
- السّقاف، عَلوي بن عبد القادر، ومجموعة من الباحثين: الموسوعة التّاريخيّة (الدّرر السّنية، dorar.net).
- السلامي، شافية حداد: نظرة العرب الى الشعوب المغلوبة من الفتح الى القرن الثالث (دار الانتشار العربي، بيروت، 2009).
- السّمعاني، بولس، المونسنيور: تاريخ الآداب السّريانيّة، 4ج (مطبعة المرسلين اللبنانيين، بيروت 1936)
- سمير عبده: السّريان قديماً وحديثاً (دار الشّروق للنشر والتّوزيع، عمّان 1997).
- الشّاهد، السّيد مُحَمَّد: حوار الْمَسِيحِيَّة والإِسْلَام - فِي كتاب الْمَسِيحِيَّة وديانات العالم لـ: هانس كونج، وجوزيف فان إس (الْمُؤَسَّسَة الجامعية للدراسات والنّشر، بيروت، 1994)
- الشّحات السّيد زغلول: السّريان والحضارة الإِسْلَاميّة (الهيئة المَصْرية العَامَّة للكتاب، الإسكندريَّة، 1975).
- الشّلبي، أحمد: مقارنة الأَدْيَان (مكتبة النّهضة المَصْرية، القاهرة، 1988)
- الشيبي، كامل مصطفى: الصلة بين التصوف والتشيع، 2ج (ط3، دار الأندلس، بيروت، 1982).
- الشيخ، حسين: الرومان، (دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، 1989).
- شيخو، لويس، رزق الله بن يوسف بن عبد الْمَسِيح (ت 1346هـ/ 1928م): شعراء النَّصْرَانِيَّة قَبْلَ الإِسْلَام (ط4، دار المشرق، بيروت 1991).
- ـــــــ: شعراء النَّصْرَانِيَّة بَعْدَ الإِسْلَام (مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت 1890م).
- ـــــــ: مجاني الأدب فِي حدائق الْعَرَب (مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت،

1913م).

- ـــــــــ: المخطوطات الْعَرَبِيّة لكتبة النَّصْرَانِيَّة (ط2، دار المشرق، بيروت، 2000).
- ـــــــــ: النَّصْرَانِيَّة وآدابها بَيْنَ عرب الجاهلِيّة (دار المشرق، بيروت 1989).
- شير، ادي، رئيس أَسَاقِفَة سعرد الكلداني: كلد وآثور، 2ج، (نشر الشّماس يوسف دخلو، لا مكان الطّبع، لا. ت).
- شير، السّيد ادّي: معجم الألفاظ الفارسيَّة المعربة، (مكتبة لبنان، بيروت 1990).
- الصّلاَّبي، عَلي مُحَمَّد: الدّولة الأُمَوِيّة عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار،(دار المعرفة للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 2008).
- ـــــــــ: السّيرة النّبَوِيّة - عرض وقائع وتحليل أحداث، (ط7، دار المعرفة للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت 1429 هـ - 2008 م).
- ـــــــــ: معاوية بن أبي سفيان - شخصيته وعصره،(دار الأندلس الجديدة للنشر والتّوزيع، القاهرة 2008).
- صليبا بن يوحنان: أخبار بَطَارِكَة كرسي المشرق[المجدل]، (روما، 1896).
- الطّباطبائي، مُحَمَّد الحسين: الميزان فِي تفسير القُرْآن، (منشورات جماعة المدرسين، قم، ايران).
- طرازي، فيليب دي: عصر السريان الذهبي (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،2012).
- طقوش، مُحَمّد سهيل: تاريخ الخلفاء الرّاشِدِين الْفُتُوحات والإنجازات السِّيَاسِيَّة (دار النّفائس 2003م).
- طيارة، عفيف: روح الدّين الإِسْلَاميّ، (دار العلم للملايين، بيروت 1980).
- ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العَرَبِيّ العصر الجاهلي، (ط22، دار المعارف، القاهرة، لا.ت).

- ـــــــــ: الفن ومذاهبه فِي الشّعر الْعَرَبِيّ (ط12، دار المعارف، القاهرة، لا. ت).
- عبـد التّواب، رمضان (ت 1422هـ): بحوث ومقالات فِـي اللُّغَة، (مكتبة الخانجي، القاهرة، 1995).
- ـــــــــ: المدخـل إلَى علم اللُّغَة ومناهج البحث اللُّغَـويّ (ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م).
- عبـد الحميـد، عرفـان: النَّصْرَانِيَّة – نشـأتها التّاريخيّـة وأصول عقائدهـا (دار عمار، عمّان، 2000م).
- عبـد ربه، عبـد الحافظ: فلسفـة الجهاد في الإسـلام (دار الكتاب اللبنانـي، بيروت، 1972).
- عبـد العزيـز، مُحَمَّد حسـن: التّعريب فِـي القديـم والحديـث، (دار الفكـر الْعَرَبِيّ، القاهرة).
- عبـد اللطيف، عبد الشّافـى مُحَمَّد: السّيرة النّبَوِيّة والتّاريخ الإِسْـلَامِيّ، (دار السّلام، القاهرة 1428هـ).
- عبـد المنعم، محمـود عبد الرّحمـن: معجم المصطلحـات والألفـاظ الفقهية، (دار الفضيلة، القاهرة، لا. ت).
- أَبُو عبية، طه عبد المقصود عبد الحميد: الحضارة الإِسْـلَامِيّة: نشـاتها فِي المشرق – انتقالها إلَى الأندلس – دعم الأندلسيين لها – تاثيرها عَلَى اوربا (دار الكتب العِلْمِيَّة، لا مكان، 2004).
- ـــــــــ: موجز عَنْ الْفُتُوحات الإِسْلَامِيّة،(دار النّشر للجامعات، القاهرة).
- العدوي، إِبْرَاهِيم احمد: الأُمَوِيّون والبِيزَنْطيون،(ط2، الدّار القومية للطباعة والنّشر، القاهرة، 1963م).
- الْعَرَبِـيّ، مُحَمَّد ممدوح: دولة الرّسـول فِي المدينة (الهيئـة المَصْرية العَامَّة للكتاب، القاهرة،1988م).

- العسيـري، أحمد معمور: موجز التّاريخ الإِسْـلَاميّ من عهد آدم إِلَى عصرنا الحاضر (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرّياض).
- العش، يوسف، الدّكتور: الدّولة الأُمَوِيّة - والاحداث الَّتِي سـبقتها ومهدت لها،(دار الفكر للطباعة والتّوزيع، دمشق 1992).
- العقيقي، نجيب: الاستشراق والمستشرقون (ط5، دار المعارف، القاهرة، 2006م).
- العقيلي، عمر سليمان: خِلَافَة معاوية، (طبعة الرّياض، 1404هـ).
- علـي، جواد: المُفصَّل فِي تاريخ الْعَرَب قَبْلَ الإِسْـلَام، 20 جـزء، (ط4، دار السّاقي، بيروت 1422هـ/ 2001م).
- عمـارة، مُحَمَّد: قامـوس المصطلحـات الاقتصاديّة فِـي الإِسْـلَام، (دار الشّروق، بيروت، 1993م).
- العمـري، أكرم ضياء: المجتمع المدني في عهـد النبوة،(المجلس العلمي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة السعودية، 1983).
- عون، مشير باسيل: الفكر الْعَرَبِيّ الدّينِيّ الْمَسِيحِيّ (دار الطّليعة، بيروت، 2007).
- عيتاني، حسام: الفتوحات العربية في رواية المغلوبين، (دار الساقي، لندن - بيروت، 2011م).
- الغزالي، مُحَمَّد السّقا (ت 1416هـ): فقه السّيرة، (دار القلـم - دمشق1427 هـ).
- فتـح الله، أحمد، معجم ألفاظ الفقـه الجعفري، (مطابع المدوخل، الدّمام، 1415 - 1995 م).
- فياض، نبيل: النصارى، تاريخهم وعقائدهم (دمشق، 1997م).
- الفيومـي، مُحَمَّـد إِبْرَاهِيم: تاريـخ الفكر الدّينِيّ الجاهلِيّ (ط4، دار الفكـر الْعَرَبِيّ، بيروت 1994).
- ابن قاسم، عبد الرّحمن بن مُحَمَّد النّجدي (ت1392هـ)، الإحكام في شـرح أصول الأحكام (ط2، لا ناشر، 1406هـ).

• قاشَا، سهيل، الأب: احوال النَّصارَى فِي خِلَافَة بني أمية، (مركز التّراث الْعَرَبِيّ الْمَسِيحِيّ، بيروت 2005م).
• قُرم، جورج: تعَدّد الأَدْيَان وأنظمة الحكم (دار النّهار للنشر، بيروت، 1993).
• قلعجي، مُحَمَّد: معجم لغة الفقهاء (ط2، دار النّفائس للطباعة والنّشر، بيروت 1988/ 1408 م).
• القمص، الشّماس منسي: تاريخ الكَنِيسَة القبطِيّة (مطبعة اليقظة، القاهرة، 1924).
• قَنَواتِي، جورج شَحاتة: تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط، (دار أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، 1996م).
• ــــــــ: الْمَسِيحِيَّة والحضارة الْعَرَبِيّة (الْمُؤَسَّسَة الْعَرَبِيّة للدراسات والنّشر، بيروت، لا. ت).
• قيس الكَلْبي: حقيقة مُحَمَّد فِي التّوراة والإِنْجِيل (الْمُؤَسَّسَة الثّقافِيّة الإِسْلَامِيّة الأمريكية، كاليفورنيا، أميركا 2011).
• كرومي، سامي نوح: مقالات فِي التّاريخ السّرْيانِيّ، (منتدى اللغات السّامية، جامعة حلب، 2010).
• مؤنس، حسين: دراسات فِي السّيرة النّبَوِيّة، (الزهراء للإعلام الْعَرَبِيّ، القاهرة 1985م).
• مختار، أحمد، عبد الحميد: البحث اللُّغَوِيّ عِنْدَ الْعَرَب (ط8،عالم الكتب، بيروت، 2003).
• مصطفى، مسلم: معالم قرآنية فِي الصّراع مَعَ اليهود، دار القلم دمشق1420هـ - 1999).
• مراد، كامل، مُحَمَّد حمدي البكري، زكية مُحَمَّد رشدي: تاريخ الأدب السّرْيانِيّ (دار الثّقافة والنّشر، القاهرة، 1987).
• مسرَّة، أنطوان: النّظرية العَامَّة فِي النّظام الدّستوري اللبناني - أبحاث مقارنة فِي

انظمة المشاركة، (المكتبة الشَّرْقِيَّة، بيروت، 2005).

- مغنيّة، محمّد جواد: التّفسير الكاشف (دار العلم للملايين، بيروت، 1968).
- المُنتظـري: دراسـات فِي ولايـة الفقيه وفقـه الدّولة الإِسْـلَاميّة، (منشـورات المركز العالمي للدراسات الإِسْلَاميّة، قم، 1411).
- مهران، مُحَمَّد بيومى: دراسات فِي تاريخ الْعَرَب القديم (ط2، دار المعرفة الجامعية، لامكان).
- الموسـوعة الفقهيـة الكويتية، اصـدار: وزارة الأوقاف والشّـون الإِسْلَاميّة الكويتية (ط2، دار السّلاسل، الكويت، من 1404 - 1427هـ).
- النّاصري، أحمد بن خَالِد بن مُحَمَّد (ت1315هـ): الاسـتقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفـر النّاصـري/ مُحَمَّـد النّاصـري، (دار الكتاب، الـدّار البيضاء، د.ت).
- النبهاني، تقي الدين: نظام الحكم في الإسـلام، (منشورات حزب التحرير، القدس، 1959).
- نجـم، بيـار، ر.م.م.: مريـم العـذراء في فكـر القديس أفـرام السريانـي (ت373م)، (منشورات جامعة سيدة لويزة، بيروت: 2004).
- النّشـار، علـي سامـي: مناهج البحث عِنْـدَ مفكـري الإِسْـلَام،(دار النّهضـة الْعَرَبِيّة، القاهرة، 1984).
- نصري، بطرس بن جرجس الكلداني: ذخيرة الاذهان فِي تواريخ المشارقة والمغاربة السّريان (مطبعة دير الآباء الدّومنكيين، الموصل).
- نعمان، بولس، وآخـرون: المارونية في أمسها وغدها، (منشورات دير سيدة النصر، غوسطا، لبنان، 1997).
- وافي، علي عبدالواحد: الأسـفار المقدسة فِي الأَدْيَان السّابقة للإِسْلَام (مكتبة نهضة مِصْرَ، القاهرة 1964م).

- يعقوب، أحمد حسين: الخطط السِّيَاسِيَّة لتوحيد الامة الإِسْلَامِيّة، (ط2، دار الفجر - لندن، 1415هـ).
- يعقوب، اغناطيوس الثّالث: الشّهداء الحميريون الْعَرَب فِي الوثائق السّرْيانِيّة، (المجلة البِطْرِيكية، دمشق، 1966) ص23 وبعدها.

المراجع المترجمة:

- آركون، مُحَمَّد: العلمنة والدين - الإسلام المسيحية العرب، ترجمة: هاشم صالح (دار الساقي، بيروت، 1996م).
- ـــــــــ: نحو تاريخ مقارن للأَدْيَان التّوحيدية، ترجمة: هاشم صالح (دار السّاقي، بيروت، 2011).
- أ. س. ترتون، أهل الذِّمَّة فِي الإِسْلَام، ترجمة: حسن حبش، (مكتبة الأسرة،1994).
- أوليري. دي. لاس: مسالك الثّقافة الإغريقية إِلَى الْعَرَب، ترجمة: تمام حسان (مكتبة الانجلو المَصْرية، مطبعة الرّسالة، القاهرة).
- ـــــــــ: الفكر الْعَرَبِيّ ومركزه فِي التّاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار،) دار الكتاب. اللبناني، بيروت، 1972). الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمة: تمام حسان (مكتبة الأسرة، القاهرة 2007م.).
- بابادوبولس، خريسوستموس: تاريخ كَنِيسَة أَنْطَاكِيَةَ، ترجمة: استفانوس حداد (منشورات النّور، لا مكان، 1984).
- بارتولد، ف. ف (1869 - 1930م): تاريخ الحضارة الإِسْلَامِيّة، ترجمة: حمزة طاهر، (مُؤَسَّسَة المعارف للطباعة والنّشر، 1983).
- بوسِه، هيربرت *Herbert* Walker Bush: أسس الحوار فِي القُرْآن الكريم، ترجمة: أحمد محمود هويدي (المركز الأعلى للثقافة، القاهرة 2005).
- بينز، نورمان: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1950م).

- تاريخ مصر ليوحنا النيقوسـي، رؤية قبطية للفتح الإسلامي، ترجمة: عمر صابر عبد الجليل (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003).
- توفيقي، حسين: دروس في تاريخ الأديان، ترجمة: أنور الرصافي (منشورات جامعة المصطفى، قم، إيران 1430هـ).
- توماس، سير أرنولد: الدّعوة إلَى الإِسْلَام، ترجمة: حسن إِبْرَاهِيم حسن، عبد المجيد عابدين، اسماعيل النّجراوي(مكتبة النّهضة المَصْرية، القاهرة، 1971).
- الثعالبي، عبد العزيز: روح التحرر في القرآن، ترجمة: سيزار بن عطّار (دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1985).
- جرونبـوم، جوستاف فون (1909 - 1972م): حضارة الإِسْـلَام، ترجمة: عبد العزيز توفيـق جاويـد، عبـد الحميـد العبـاديّ (الهيئة المَصْريـة العَامّـة للكتـاب، القاهرة، 1997م).
- جعيـط، هشـام: الفتنة، جدلية الدين والسياسـة في الإسـلام المبكـر، ترجمة: خليل أحمد خليل (ط4، دار الطليعة، بيروت، 2000).
- جورافسكي، أليكسي: الإِسْـلَام والْمَسِيحِيَّة، ترجمة: خلف مُحَمَّد الجراد، (سلسلة عالم المعرفة 215، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1996).
- جولدتسيهر، اجناس: العقيدة والشريعة في الإسلام، تعريب: محمد يوسف موسى، علـي حسن عبد القـادر، عبد العزيز عبد الحق، (دار الكتـب الحديثة، مصر - مكتبة المثنى، بغداد).
- جيبـون، إدوارد، (1737 - 1794): اضمحلال الدّولة الرّومانية وسـقوطها، ترجمة: مُحَمَّد علي أَبُو ريدة (دار الكاتب الْعَرَبِيّ، القاهرة 1969).
- حتـي، فيليب: تاريخ سُـورِيَةَ ولبنـان وفلسطين، ترجمة: جورج حـداد، عبد الكريم رافق (ط2، دار الثّقافة، بيروت، 1957).
- دوزِي، رينهـارت بيتر آن (ت 1300هـ/ 1883م): تكملة المعاجم الْعَرَبِيّة، ترجمة:

مُحَمَّد سَليم النّعَيمي: جـ 1– 8، جمال الخياط: جـ 9، 10 (وزارة الثّقافة والإعلام، بغداد، 1979 – 2000م).

- دوسليه، آلان: مسيحيو الشرق والإسلام في العصر الوسيط، ترجمة رشا صباغ ورندة بعث (دار الساقي، بيروت، 2010).
- ديموميين، موريس غود فروا: النّظم الإِسْلَاميّة، ترجمة: صالح الشّماع (مطبعة الزهراء، بغداد 1952م).
- ديورانت، ول (1885 – 1981): قصة الحضارة، ترجمة: مُحَمَّد بدران (دار الجيل للطباعة، بيروت).
- رنسيمان، ستيفن: الحضارة، ترجمة: عبد العزيز توفيق، (مكتبة الهيئة المصرية، القاهرة، 1961م).
- روزنثال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي (ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1983).
- ريسلر، جاك: الحضارة الْعَرَبِيّة، تعريب: خليل أحمد خليل (منشورات عويدات، بيروت – باريس، 1993).
- عطية، عزيز سوريال: تاريخ الْمَسِيحِيَّة الشَّرْقِيَّة، ترجمة اسحاق عبيد، (المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 2005).
- أبو زيد، سركيس: المسيحية في إيران (مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، 2008).
- سورديل، د، ج: معجم الإسلام التاريخي، ترجمة: أ. الحكيم (الدار اللبنانية للنشر الجامعي، بيروت، 2009).
- شاي، جان دي، بلو، ريموند: دليل حضارات الشرق الأدنى القديم، ترجمة: سها الطريحي (دار الجواهري، بغداد 2013م).
- العودات، حسين: الْعَرَب النَّصَارَى (الأهالي للطباعة والنّشر، دمشق 1992).

- فانتاجـو، ماكـس Vintajoux Max: المعجزة الْعَرَبِيّة، ترجمـة: رمضان لاوند،(دار الكشاف، بيروت 1954م).
- فايرستـون، روبن: ذرية ابراهيم، مقدمة عن اليهودية للمسلمين، ترجمة: إبراهيم بن عبد الغني (نشر معهد هاريت وروبرت للتفاهم الدولي بين الأديان، اللجنة اليهودية الإمريكية، لا.ط، لا.ت).
- فلهاوزن، يوليوس: تاريخ الدّولة الْعَرَبِيّة من ظهور الإِسْلَام إِلَى نهاية الدّولة الأُمَوِيّة، ترجمـة: مُحَمَّد عبـد الهادي أَبُو ريـدة، (لجنة التّأليـف والتّرجمة والنّشـر، القاهرة، 1968).
- فيزهوفر، يُزِف: فارس القديمة (550 ق.م – 650م)، ترجمة: محمد جديد (قدموس للنشر والتوزيع، دمشق، 2009).
- فيليـب فارج، يوسـف كربـاج: الْمَسِيحِيّون واليهـود فِي التّاريـخ الإِسْـلَاميّ الْعَرَبِيّ والتّركي، ترجمة: بشير السّباعي، (سينا للنشر، القاهرة، 1994).
- كبريلي، فرانشيسكو Francesco Gabrieli: محمد والفتوحات الإسلامية، ترجمة: عبد الجبار ناجي، (منشورات الجمل، بيروت – بغداد 2011).
- كـرون، باتريشيا؛ كوك، مايكل: الهاجريّون، دراسة فـي المرحلة التكوينيّة للإسلام، ترجمة: نبيل فياض (المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت).
- كولـن، محمد فتح اللـه: روح الجهاد وحققيقته في الاســلام، ترجمة: احسان قاسم الصالحي (ط5، دار النيل للطباعة والنشر، 2008).
- كيغي، ولتر: بيزنطة والفتوحات الإسـلامية، ترجمة نيقولا زيادة (ط2، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2003).
- موسى، متي: الموارنة في التاريخ، (المؤسسة الأمريكية للدراسات السريانية).
- مونتجمـري، ويليـام، وات: مُحَمَّد فِـي مَكّة، ترجمه: عبد الرّحمـن عبد الله الشّيخ، تعليق: أحمد الشّلبي (الهيأة المَصْرية العَامَّة للكتاب، القاهرة، 1415هـ).

• نولدكـة، تيودور: تاريخ القرآن، ترجمة: جورج تامـر، (منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، بغداد، 2008).
• همـان، أدلبيرت - ج.: دليل إلَى قراءة آبـاء الكَنيسَة، ترجمه:الاب صبحي حمودي اليسوعي(دار المشرق، بيروت،2002).
• هورفتـش، يوسـف: المغـازي الأولـى ومؤلفوهـا، ترجمـة: حسيـن نصـار (مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1949).
• ويلـز. هـ. ج: موجز تاريخ العالم، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، (مكتبة النّهضة المَصْرية، مطبعة السّعادة، القاهرة، 1967).

المراجع بالانكليزية والفرنسية

• Cyril Glasse، **The Concise Encyclopedia of Islam**، (San Francisco: Harper and Row، 1989)، pp. 209 - 10 الموسوعة المختصرة للإسلام.
• E. Von. Grunebaum: «**the Nature of the Arab Unity before Islam** (X Arabica ،.(1963
• Ira M. Lapidus: **A History of Islamic Societies**، Cambridge University Press
• John Binns: **Ascetics and ambassadors of the Christ**، monasteries of .(Palestine (314 - 631
• (الزاهدون وسفراء الْمَسِيح وأَدْيِرَة فلسطين)
• Le christianisme dans Lempire perse sous Dynastie ،Labourt،(J) (sassanide: (224 - 236
• O›leary، «Delacy D.D.»، **Arabia Before Muhammad**، London، 1927
• Robins، R.H، **General Linguistics: An Introductory Survey**، Second .edition، London: Longman، 1971

- الرّسائل والأطاريح الجامعية:
- حسين، نبيل فتحي: تَنَوُّع مكونات المُجْتَمَع الإِسْلَامِيّ وأثره فِي تدوين المعارف الْعَرَبِيّة الإِسْلَامِيّة فِي القرون الهِجْرِيّة الأربعة الأولى) دراسة فِي كتاب الفهرست لابن النّديم (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التّربية، جامعة الموصل ٢٠٠٧.
- السّامرائي، عبد الجبار محسن عباس: الإصلاحات الْمَالِيَّة والتّنظيمات الإِدَارِيّة فِي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان: 65 - 86هـ/ 648 - 705م، جامعة بغداد، 1988، رسالة ماجستير، ص134.

البحوث والمقالات:

- أرملة، اسحق الخوري السّرْيانِيّ: «فِي البِطْرِيكية الأَنْطَاكِيَّة»، مجلة المشرق، العدد21، 1923، ص494 - 507.
- ــــــــــ: «جثالقة المشرق ومفارنة السّريان»، منتدى أَبْرَشية حلب للسريان، /http: / /syrcata.org
- ــــــــــ: «الملكيون - بِطْرِيكيتهم الانطاكيّة، ولغتهم الوطنية والطَقْسِيَّة»، مجلة المشرق، المجلد 34، 1936، ج1| 37 - 66.
- بدر الدّين، عبد الرّحمن: «قِنَّسْرين أَوْ عش النّسور»، مجلة التّراث الْعَرَبِيّ، العدد ٩٨، جمادى الأول ١٤٢٦ هـ/ حزيران ٢٠٠٥، السّنة الخامسة والعشرون (اتحاد الكتاب الْعَرَب، دمشق.
- بسترس، كيرلس سليم: «المطران سليم غزال وتقليد كَنِيسَة الرّوم الملكيين الكاثوليك فِي الحوار الْمَسِيحِيّ الإِسْلَامِيّ، سلسلة دراسات ووثائق إِسْلَامية مَسِيحِيَّة، رقم 14، كلية العلوم الدِّينِيَّة، جامعة القديس يوسف - بيروت، 2013، ص41 - 52.
- بلاسي، مُحَمَّد السّيد: «اللُغَة الْعَرَبِيّة بَيْنَ التّأثر والتّأثير»، مجلة اللسان الْعَرَبِيّ، العدد

34، 1410 - 1990.

- البوصي، مُحَمَّد سعيد رمضان: «فِي الفهم الإِجْتِمَاعِيّ والسِيَاسِيّ المُشْتَرَك»، مجلة التَّسَامُح، العدد ١٨، وزارة الأوقاف والشّؤون الدِّينِيَّة، سلطنة عمان.
- جرادي، شفيق:»الحوار الإِسْلَامِيّ الْمَسِيحِيّ: التّحديات والفرص»، موقع ابونا، يصدر عَنْ المركز الكاثوليكي للدراسات والاعلام. 12/ 06/ 2012
- الجمري، حسين مُحَمَّد حسين: «البحرين فِي القَرْن السّابع (4)... تمرد بيت قطرايا»، صحيفة الوسط البحرينية - العدد 3065 - الخميس 27 يناير 2011م.
- ـــــــــ: «البحرين فِي القَرْن السّابع (5): استقلال بيت قطرايا»، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 3072، الخميس 03 فبراير 2011م.
- الجمل أحمد مُحَمَّد علي: «أقسام الكَلَام السّرْيانِيّ»، موقع عَلَى الانترنيت algamal63.arabblogs.com
- ـــــــــ: «القُرْآن ولغة السّريان»، بحث منشور في مجلة كلية اللغات والترّجمة- جامعة الأزهر، العدد 42، 2007م،
- الجَميل، سيّار: «الأرمن العِرَاقيون. - الخصوصيّة والجاذبيّة والأسرار الحيويّة»،مقال: مجلة ألفا، الأحد 17 أكتوبر،2010
- ـــــــــ: «الْمَسِيحِيّون العِرَاقيون (ج3/ ق5)»، مجلة ألفا (elaph.)، عدد: ١١٤٢١، تاريخ 6/ 11/ 2010.
- ـــــــــ: «خضوع بلاد الرّافدين للدولة الْعَرَبِيّة الإِسْلَامية»، مجلة ألفا، تاريخ 21 نوفمبر 2010.
- حليق، عمر: «الاتجاهات الحديثة فِي الثّقافة الأوردية»، مقال، مجلة الرّسالة، 1004| 18.
- خريسات، مُحَمَّد عبد القادر: «دور الْعَرَب الْمُتَنَصِّرَة فِي الْفُتُوحات»، ضِمْنَ بحوث المؤتمر الدّولي الرّابع لتأريخ بلاد الشّام، 1985 م.

- الخزعلي، مُحَمَّد: «الْمَسِيحِيَّة الْعَرَبِيّة وتَطَوّراتها من نشأتها حَتَّى القَرْن الرّابع الهِجْرِيّ - دراسة وتحليل». مجلة التَّسَامُح، العدد2، وزارة الأوقاف والشّؤون الدِّينِيَّة - سلطنة عمان.
- خنجرو، سامي: «كَنِيسَة المشرق تَحْتَ الحكم الْعَرَبِيّ الإِسْلَاميّ»، موقع مانكيش mangish.com، 04/ 09/ 2010.
- الخوري، نقولا، الأب: «أصل الْمَسِيحِيِّينَ فِي سوريا وفلسطين مِنْذُ فجر التّاريخ حَتَّى الفتح الْعَرَبِيّ»، دراسات سُرْيانية، 14/ 2012.
- دكاش اليسوعي، سليم، الأب: «الخبرة، مصطلح فِيهِ فعل الرّجاء والمسؤولية، مُمَارَسَة الوحدة فِي التَّنَوُّع»، دراسات ووثائق إِسْلَاميّة مَسِيحِيَّة، رقم 15، منشورات كلية العلوم الدِّينِيَّة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2014. ص19 - 21.
- الدّويهي، أسطفان، البِطْرِيك: «سلسلة بَطَارِكَة الطّائفة المارونية، نشره رشيد الخوري الشّرتوني»، مجلة المشرق، السّنة الأولى، 1898، ص247 - 353.
- ديك، الأرشمندريت اغناطيوس: «القَبَائِل الْعَرَبِيّة الْمَسِيحِيَّة فِي بلاد الشّام فِي عهد صدر الإِسْلَام»، بحث فِي النّدوة الدَّوْلِيّة «بلاد الشّام فِي عصر الرّسول والخلفاء الرّاشِدِين» كلية الآداب، جامعة حلب، 2 - 4/ 5/ 2006.
- ــــــــ: «الْمَسِيحِيّون فِي عهد الخلفاء الرّاشِدِين والأُمَوِيّين الأوائل»، موقع كَنِيسَة القديسة تريزا - حلب.
- ــــــــ: «ثاوذورس أَبُو قرَّه، أُسْقُف حَرَّان الملكي»: جسر بَيْنَ الحَضَارَات والأَدْيَان فِي بلاد الشّام والرّافدين، فِي العصر العباسي، موقع كَنِيسَة القديسة تريزا - حلب.
- رافي، ن.س.ر.ك.: «الجِهَاد في الفكر الإسلامي وتطوير رد مسيحي»، موقع ديانات العالم، http: / /ar.4truth.net /fourtrutharpbworld.aspx?pageid=8589981041

- رباط، أدمون: «الْمَسِيحِيّون فِي الشّرق قَبْلَ الإِسْلَام»، بحث فِي كتاب الْمَسِيحِيّو ن الْعَرَب 15 - 29 (مُؤَسَّسَة الابحاث الْعَرَبِيّة، بيروت 1981).
- رشدي، زاكية: «نشأة النّحو عِنْدَ السّريان وتاريخ نحاتهم»، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة 1958، ص 215، 217.
- رضا، مُحَمَّد رشيد (ت1354هـ): «التّعصب»، مجلة المنار 1/ 483، 17/ 545
- الرّكابي، زين العابدين: «العلاقة بأهل الكتاب»، الشّرق الأوسط، السّبت 25 ذو الحجة 1428 هـ/ 5 يناير 2008، العدد 10630.
- الزيان، رمضان إسحاق: «روايات العهدة العمرية - دراسة توثيقية»، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، يونيو، 2006، ص169- 203.
- سالم، عبد الله، السّيد: «شعراء الْعَرَبِيّة النَّصَارَى»، الجزء الثّاني، الحوار المتمدن، العدد 4047، 30/ 3/ 2013.
- السيد، رضوان: «المسيحية في الفقه الإسلامي»، بحث، المسيحيون العرب، ص35 - 51، (مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981).
- الشريف، ماهر: «تطور مفهوم الجهاد في الفكر الإسلامي»، الحوار المتمدن، العدد 2322، 24/ 6/ 2008.
- شعيرة، عبد الهادي: «الممالك الحليفة أَوْ ممالك مَا وراء النّهر»، مجلة كلية الآداب، جامعة فاروق الأول، (مطبعة التّجارة بالإسكندريَّة، مجلد 4/ 1948) ص206.
- شنوده الثّالث، البابا: «القُرْآن والْمَسِيحِيَّة»، مجلة الهلال، عدد ديسمبر 1970
- صليبا، المار غريغوريوس شمعون: «عصارة فكر»، مبحث» علاقة البَطَارِكَة والمفارنة بالخلفاء العباسيين، ديوان أوقاف الْمَسِيحِيّنَ والدّيَانَات الأُخْرَى، الموصل، 2009).
- طرابيشي جورج: «عَنْ يواكيم مبارك، «الإنسان الإستثنائي»، جريدة الحياة، العدد15398، 29/ 05/ 2005.

- الطّوال، خليل جمعة: «مكتبة الإسكندريَّة – تأسيسها ورِوَايَة إحراقها»، مجلة الرّسالة (اصدار أحمد حسن الزيات، القاهرة، 1933 – 1954م)، العدد276، ص20 – 23.
- العزيـز، حسين قاسم: «دور المراكـز الثّقافِيّة السّرْيانِيّة فِي تفاعل الْعَرَب والْمُسْلِمِينَ الحضاري»، موقع دراسات سُرْيانِيّة، Aug 13، 2012.
- العفيـف الأخضر: «نسـخ الإسلام المكي وعواقبـه»، الحوار المتمـدن، موقع على النت، العدد 4144، 2013 / 7 / 5.
- علي، جاسم صكبـان: «التاريخ العربي والاسلامي من خـلال المصادر السريانية»، بحث في عالم الفكر، الكويت، اكتوبر – ديسمبر 1984.
- عمارة، مُحَمَّد، الدّكتور: «الانتشار السّلمي للإِسْلَام»، مجلة المُجْتَمَع، العدد 1825، 3 ذو القعدة 1429هـ الموافق 1/ 11/ 2010م.
- عنايـة، عـز الدّيـن: «الْمَسِيحِيَّـة الْعَرَبِيّـة – تشظّـي الهويّـة ومستخلصـات الوعـي التّاريخيّ»، مجلة التّسَامُح، العدد العاشر، سلطنة عمان.
- عيـواص، مار إغناطيوس زكا الأول، البِطْرِيَرْك: «السّـريـــان والإِسْلَام تــــاريخ مُشْتَرَك»، الموقع الرّسمي لِبِطْرِيَرْكية أَنْطَاكِيَة وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس.
- ـــــــــــ: «مار يعقـوب الرّهـاوي (633– 708م) اللّاهُوتِيّ، المُـؤَرِّخ، المترجم، اللُّغَـويّ السّرْيانِـيّ»، مستنبـط الحركـات السّرْيانِيّـة، مقالـة فِـي مجلة مجمـع اللُّغَة السّرْيانِية، المجلد الثّاني، 1976.
- فضـل الله، مُحَمَّـد حسين، السَّيِّد: «فِي أســس الحوار بَيْنَ الأَدْيَـان»، جريدة النّهار، لبنان، الأحد، 10 تموز «يوليو» 2005.
- كهـوس، أبـو اليسر رشـيد: «أبواب الجهـاد في الفكـر الإسلامي»، مجلـة الداعي، دارالعلوم، ديوبند، العدد 12، ذوالحجة 1431 هـ = نوفمبر – ديسمبر 2010م.
- لبابنـه، احمـد حسن؛ عبابنـه، عصام حمـد: «مصـادر ومُؤَسَّسَات التّربيـة لَدَى أهل الكتاب زمن العصر النّبَوِيّ»، كلية إربد الجامعية، أَبُو ظبي.

- محمود، صادق شاكر: «الشّعوبية وردود العلماء الْمُسْلِمِينَ فِي المشرق والمغرب». بحث، مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة، العدد التّاسع، السّنة الخامسة، 2009م، ص 127 - 147.
- مسرَّة، أنطوان: «الأَدْيَان وحقوق الانسان – عودة إلَى الاصول ونماذج تطبيقية ايجابية فِي الانسجام والتّكامل»، بحث فِي المصادر الدِّينيَّة لحقوق الانسان، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ص 491.
- ـــــــــ: «اعادة الاعتبار إلَى الحوار من خِلَالِ وجوهه الرّيادية، وجوه حوارية»، منشورات كلية العلوم الدِّينيَّة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2013، ص153 – 160.
- ـــــــــ: «العلاقات الإسلامية المسيحية في السياسات الدولية»، جريدة النّهار، الأحد 27/ كانون الثاني/ 2013.
- ملطي، تادرس يعقوب: «كتاب القديس أفراهاط الحكيم الفارسي: حياته، كتاباته، أفكاره»، 15، موقع: كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي القس، الإسكندرية، مصر .http: / /St – Takla.org
- الموسوي، ضياء: «شيعة العِرَاق»، صحيفة الوسط (البحرينية)، العدد 884، الأحد 06/ فبراير/ 2005م= 26 ذي الحجة 1425هـ.
- النّوفلي، أدور هرمز ججو: «تاريخ كَنِيسَة المشرق»، الجزء 13، منتديات باقوفا، 01/ سبتمبر/ 2007 www.baofa.com.
- الهلالي، مُحَمَّد تقي الدّين بن عبد القادر (ت1407هـ/ 1987م): «حديث مَعَ زائر كريم»، مجلة الجامعة الإِسْلَامِيّة بالمدينة المنورة، السّنة السّادسة، العدد الرّابع، ربيع الثّاني 1394هـ / ابريل 1974م.
- هوفهانيسيان، نيكولاي: «العلاقات التاريخية الأرمنية – العربية»: الهيأة الوطنية الأرمنية، الشرق الأوسط، موقع على النت. / http: / /www.ancme.net

studies /350

- اليوزبكـي، توفيق سلطان: «التّعريب فِي العصريـن الأُمَوِيّ والعباسي»، مجلة آداب الرّافدين، (العِرَاق)، العدد 7، ص41 – 66.

البحوث المترجمة:

- بدليـان، آرا، الأرمنـي: «المسيحيون: انحسـار الوجود وتحديـات الهجرة»، إعداد: سعد سلوم: الأقليات في العراق، (مسارات، بيروت، 2013) ص76 – 85.
- بيغلوفسكايـا، نينـا: «انتشار الْمَسِيحِيَّـة والاضطهاد»، ترجمة: أحمـد الجراد، مجلة دراسات سُرْيَانِيَة، 13 Aug، 2012، اصدار معهد الاستشراق التّابع لأكاديمية العلوم السّوفياتية.
- جوفـروا، إريك Eric Geoffroy: «التعدد فِي الاسـلام، أَوْ الوعي بالآخرية»، مجلة الأديان، ص31 – 43، مركز الدوحة الدولي لحوار الاديان، العدد صفر، 2009.
- دلافيـدا، ج. ليفـي Della Vida (1889 – 1967م):«الأُمَوِيّـون»، دائـرة المعـارف الإِسْلَاميّـة، ترجمـة: مُحَمَّد ثابـت، والشّنتـاوي، وإِبْرَاهِيم زكي (انتشـارات جهان، طهران 1352هـ/ 1933م) 2/ 665 – 698.
- دنتسنغـر – هونرمـان: «الكَنِيسَة الكاثوليكية فِي وثائقهـا»، الجزء الأول. من سلسلة الفكر الْمَسِيحِيّ بَيْنَ الأمس واليوم. منشورات المكتبة البولسية، جونيه، لبنان، طبعة أولى 2001.
- – دولـز، مايكـل: «انتقال الطّـب اليُونانِيّ من السّريـان إِلَى الْعَـرَب»، ترجمة: أدمير كوريه، مجلة دراسات سُرْيَانِيّة 14/ أغسطس/ 2012.
- دافيـد دي سانتيللانـا David de Santillana: القانـون والمجتمـع، بحث في تراث الإسـلام، تحرير: سير توماس أرنولد، ترجمـة: جرجيس فتح الله، 2/ 103 – 144، (دار الجمل، بيروت، 2012).
- عطية، عزيز:«السّريان فِي التّاريخ»، تَحْتَ سيطرة الخلفـــاء، ترجمة حنا عيسى توما،

• فييه، ج. م. الأب: «الفكر التاريخي عند السريان»، مجلة الفكر العربي، كانون الأول، 1989م، عدد 85، ص 39 – 47، معهد الإنماء العربي، بيروت.
• لامنس، هنري اليسوعي، الأب (ت1937م) Henri Lammens : «أقدم أثر لبني غسّان – أوْ أخربة المُشتّى»، مجلة المشرق. السّنة الأولى، الجزء ١١، حزيران 1898، ص ٥٣١ – ٤٨٦.
• ــــــــ: «الأحابيش والنّظام العسكري في مَكّة»، مجلة المشرق، العدد 34، سنة 1936، ص ١ – ٣١.
• لمختبر، مراد: «قراءة في كتاب العلم القديم والمَدَنِيَّة الحديثة – جورج سارتون» GEORGE SARTON، العلم القديم والمَدَنِيَّة الحديثة ANCIENT SCIENCE AND MODERN CIVLIZATION ترجمة: عبد الحميد صبرة، مركز ابن البنّا المراكشي للبحوث والدّراسات، المغرب. / http: / /www.albanna.ma Article.aspx?C=5618
• لوبليه، كلود Claude Lepelley: «اهتداء قسطنطين»، في: تاريخ الكنيسة المُفَصّل، ترجمة: أنطوان الغزال، صبحي اليسوعي (ط2، دار المشرق، بيروت2009) 1/ 147 – 156.
• ــــــــ: «الأزمة الآريوسية»، تاريخ الكنيسة المُفَصّل (دار المشرق، بيروت 2009) 1/ 171 – 176.
• ليسك، ريفكا شيفك: «اليهود لم يستسلموا ولم يعتنقوا الديانة المسيحية، مركز أورشليم، القدس للشؤون العامة، 21/ 11/ 2008، www.infoelarab.org
• ميرابللا ، فالنتينا: «احتلالات بريطانيا لجزيرة خرج» مكتبة قطر الوطنية، على النت
• http: / /www.qnl.qa /articles – from – our – experts?themes[0]=631
• نوس، جون. ب. John. B. Noss: «المسيحية»، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي،

5/ 209 - 376، موسوعة تاريـخ الأديان، تحرير: فراس السـواح، (دار علاء الدين للنشر، دمشق، 2009م).

البحوث والمقالات الأجنبية

- Gibb and Kromer، Short Encyclopedia of Islam، p206.
- Cyril Glasse، The Concise Encyclopedia of Islam، (San Francisco: Harper and Row، 1989)، pp. 209 - 10 الموسوعة المختصرة للإسلام.

المحاضرات:

- رباط، أدمون: محاضرة، مجلة الصّباح اللبنانية، عدد31، بتاريخ 31 آذار 1981م.

اللقاءات:

- بلحـاج، سلـوى: «حوارات مـن تونس»، حاورهـا: نبيل درغوث، موقـع اللادينيين العرب، 17/ مارس/ 2009.
- فضل الله، السّيد: «استقبال وفد طلاب المعهد العَرَبِيّ»، موقع بيانات ١٥/ ٤/ ٢٠٠٩، http://arabic.bayynat.org/NewsPage.aspx?id=7865

أبا زبيد الطّائي 128

آبا سيمون 235

أَبَا عُبَيْدِ بْنَ مَسْعُودِ الثَقَفِيَّ 125

أبا عبيدة بن الجراح 125

أَبَا لؤلؤة فيروز 190

أبا موسى الأشعري 128، 130

أبان بن عثمان 28

اباي 54

أبجر بن جابر العجلى 314

ابراميوس 301

ابراهام الكشكري 395

إِبْرَاهِيم الثّاني 230

إِبْرَاهِيم الخليل 41، 219

إبراهيميَّة 245

الإِبْرَاهِيمِيَّة 34، 72، 75، 76، 83، 87، 88، 177، 286، 419

أبرشيَّة التّغالبة 45، 225

أبرشيَّة الْعَرَب أَوْ القَبَائِل 45، 225

أبرشيَّة نَجْرَان الكوفة 45

أبرشيَّة نَجْرَان والكوفة 225

أبرهة 63، 71، 219، 301، 378، 410

الأبلَّة 125

ابن أبي أصيبعة 383، 407
ابْنَ أَبِي لَيْلَى 313
ابن أُثال 203، 383، 407، 408
ابـن إسحـاق 26، 28، 76، 78، 80، 85، 86، 90، 102، 110، 166، 319، 372، 404، 418
ابْن الأشعث 217
ابن الحنفيَّة 357
ابن الزبير 88، 195، 196، 201، 212، 219، 220
ابْن الشّرِيدِ 81
ابن العِبْري 24
ابن العبري 24، 117، 139، 175، 177، 182، 218، 370، 399، 421، 459، 465
ابن القفطي 390
ابن الكَلْبي 64
ابن المقفع 25، 118، 214
ابن النّضير 204
ابنُ خلدون 399
ابن خلكان 435
ابنُ دريد 415
ابْنُ رأسِ الجَالُوتِ 359
ابن سعد 26، 28، 81، 85، 105، 106، 108، 189، 374، 456
ابن سلام 26، 225، 321، 423، 424، 433، 456
ابْنُ صَلُوبَا 124

فهرس الأعلام

ابن عجلان 331
ابن عساكر 157
ابنُ فارِسٍ 416
ابن قيِّم الجوزية 157
ابن مردى الفهر 162
ابْنِ مُلْجِم 133
ابْنَ مِينَا 204
ابنُ نظيرا 359
ابن هشام 26، 28، 76، 77، 78، 80، 82، 83، 85، 86، 90، 94، 97، 98، 105، 109، 166، 336، 372، 373، 374، 375، 464
أبناء اسماعيل 144، 160
أَبُو الأسود الدّؤلي 393
أَبُو الفرج 95، 327، 355
أَبُو الفرج الملطي 399
أَبُـو بكـر 122، 123، 125، 134، 188، 435، 451
أَبُو حنيفة 314، 316، 384
أَبُو رَافِعٍ القُرَظِيُّ 94
أَبُو زبيد الطّائي 161، 327، 423
أَبُو سفيان بن حرب 191
أَبُو عُبَيْدٍ 214
أبو عبيد 215
أَبُو عُبَيْدة 126، 137
أَبُـو عبيـدة 140، 144، 157، 169، 207، 378
أبـو عبيدة بـن الجـراح 125، 127، 144، 238
أبو هريرة 352
أَبُو وَائِلٍ شقيقُ بن سلَمة 363
أبو يوسف 214
أَبُو يوسف 337، 339
أبى هَاشم عبد الله ابْن مُحَمَّد 357
أَبِي الأسودِ الدّؤليّ 420
أبي الخطاب 357

أبِي الصَّهْبَاءِ الْبَكْرِيِّ 353
ابي الفرج الاصبهاني 26
أبي الفرج الاصفهاني 435
أبـي بكـر 122، 134، 137، 167، 300، 329، 334، 336، 379
أبي زبيد 22، 131، 327، 423
أبي عبيدة 137، 140، 164، 205
أَبِي لؤلؤة 334
أبي لؤلؤة فيروز 128
أبي مَخْنَف 157
أبِي نُواس 436
أبِي هُرَيْرَةَ 353
أتناسيوس البَلَدِي 393
أثناسيـوس 45، 181، 183، 221، 232، 395، 407
اثناسيوس الثّاني 45، 230، 231
اثناسيوس الجمال 182، 183
أثيناسُ 222
إجنادين 27، 125، 158، 164
الأحابيش 76، 77، 365، 488
الأحباش 36، 63، 71
أحباشِ 40
أحمد أمين 422
أحمد حطيط 30
الأخطل 321، 322، 424، 433
إدمون رباط 47، 57، 119، 159
أُديسًا 222، 322
أذربيجان 127، 198
أَذْرُحَ 104، 112، 318
آرامِيِّين 202
الآراميين 70
الأردن 43، 118، 125، 126، 147، 210، 221، 302
أرزون 54، 396
أرزون (من نواحي تكريت) 183
أرسطـو 359، 360، 393، 396، 406، 420
أرطبان المرني 44
أرمانوسة ابنة الملك المُقَوْقَس 138
الأرمـن 23، 46، 153، 154، 155، 164، 165، 175، 185، 217، 414، 415، 466، 482
أرمينية 154
أرنست ترولتش 281، 282
ارنولد 144
أرنولد 97، 101
الإرِيسِيِّينَ 110
آريوس 35، 61، 257، 376
الآريوسيَّة 88، 91
أسامة بن زيد 123، 234، 302

أسبانيا 145، 152، 192، 239، 280، 296، 445
استفانس 216
إسحاق الجاثليق 54
إسحاق بن حنين 390
أسد بن عَبْد العُزَّى 40، 69، 78
إِسْرَائِيلَ 75، 279، 354
أُسْقُفية الهند 236
الإسكندريَّة 57، 58، 60، 127، 145، 180، 181، 226، 231، 232، 235، 279، 386، 387، 389، 390، 398، 406، 409، 431، 470، 485
الإسماعليِّين 208
إسماعيل 83
إسماعيلَ التَغْلِبي 217
الأسودُ بن كعب بن عوف العنسيّ 123
آسيا 24، 46، 49، 59، 175، 192، 386
آسية 145، 325، 362
الأشعث بْن قيس 123
آشوريّون 42
أصبهان 127، 222
اصطفن الاسكندراني 390
الأعشى 26، 64، 81، 186، 353، 355، 369، 374، 424، 461
أعشى بني تَغْلِب 212
أعشى قيس 64، 422
أغاثو 181
الإغريقِ 159
أفثيوس 397
إفرام 44، 54، 265، 391، 475
أفراييم 52
افريقيا 66، 181، 192، 193، 194، 198
إِفْرِيقِيَّةَ 130، 213
أفسس 58
أفغانستان 177، 199، 325
آقاق 48، 54
أقْباطٍ 40
الأكراد 70
الاكسندروس الثّاني 233
آل الزبير 218
آل جفنة 44
الاعاميدة 65
أليـر أبونـا 19، 38، 107، 116، 117، 139، 392، 395، 465
اَلسَّيِّد بْنُ مُحَمَّد الْحِمْيَرِيُّ 359
أُلَيْسَ 124
أليس 161
أليس الفرات 238
أم حَبيبة بنتُ أبى سفيان 93

أمُّ سَلَمَة 85
الإمـام علـيّ 22، 89، 126، 131، 132، 133، 167، 168، 169، 173، 178، 186، 314، 328، 330، 337، 342، 345، 351، 353، 356، 430، 457
امرأ القيس بن عمرو 52
امرِئ القيس 284
امرئ القيس 40، 69، 314، 371
امرئ القيس بن زيد مناة 40، 69
أمغيشيا 124، 170
آمنة بنت وهب 41
أموريِّين 42
أمية بن أبى الصّلت 78
أمية بن أبي الصّلت 36، 78، 81، 373
أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ 86
أمية بن عبد شمس 191
أنبا أغاتون 232
الأنبا بنيامين 60
الأَنْبَارِ 124، 171
الأنبـار 151، 161، 183، 229، 345، 415، 438
الأنباط 33، 70
أنْبَاطِ 40
الأنباغريغوريوس 233
أنس بن مالك 352
أنس بن هلال 162
أَنْطَابُلُسَ 213
أنْطَاكِيَةُ 126
أنْطَاكِيَةِ 145
أنطاكيـة 24، 42، 77، 117، 149، 181، 182، 210، 212، 401، 427، 469
أنْطَاكِيَـةَ 44، 50، 135، 137، 173، 182، 208، 216، 226، 231، 362، 390، 391، 409، 410، 476، 485
أنطوان نصري مسرَّة 30
أنقرة 197
انقيلاؤس 390
أنمار 148
أهرون بن أعين 383، 407
الأهوازُ 126
أوربا 66، 192، 406، 472
أورشـليم 35، 145، 182، 183، 226، 488
الأوس 96، 98، 100، 365
أوس بن ذبي القرظي 95
أوسابيوس القيصري 413
أوليري 148

اوليـري 49، 71، 148، 205، 225، 355، 365، 381، 387، 388، 390، 391، 392، 393، 405، 407، 476
إياد 148
إيَادٍ 162
إياد بن نزار 163
إياس بن قبيصة 152
إِيَاسُ بْنُ قُبَيْصَةَ الطَّائِيُّ 124
ايشو عزخا 49
ايشوع زخا 49
إيشوعيـاب 48، 54، 107، 116، 117، 139، 175، 176، 177، 178، 179، 227، 228، 412
أيشوعياب الأرزني 54
ايشوعياب الأول 48
ايشوعياب الجدالي 107، 116
ايشوعيهب الجذالي 107، 117، 138
إيفيسوس 46
أيْلة 105، 302
إيليا 53، 54، 221، 357
ايليا الأول 231
إيليا الحيري 395
إيليا الحِيري 53
إيلياءُ 126
إيلياء 137، 143
أيوب 41، 221، 467
ب
باباي 48، 395، 396
باباي برنصيبنايي 395
بابل 50، 176، 400
بابليّون 42
البابليين 33
بابوي 47
بابي النّصيبيني 413
باديةِ الإسقيط 59
بارتولد 142
بارثونموس 41
بَارُوسْمَا 124
باعربايا (أرض ربيعة) 183
بَانِقْيَا 124، 170
البحر الأحمر 43، 106
البحرين 49، 52، 101، 115، 144، 169، 179، 180، 227، 228، 376، 454، 467، 482
بَحِيرًا 80، 366، 370
بخارى 194، 199
براق 42
برعيتا 395
بَرْقَةُ 127

بَرْقَةَ 213
برمودة 232، 233
بروتريوس 59
بَرْيشوع 230
بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ 359
بشر بن أبي حازم 422
بشر بن عبد الملك 228، 229
البَصْرَةُ 125
البصرةِ 128، 130، 194، 214
بُصْرَى 42، 80، 302
بصرى 67
بَعَلْبَكُ 125
بعلبك 144، 212، 378
بغداد 19، 33، 38، 50، 124، 170، 171، 227، 373، 381، 386، 390، 392، 394، 396، 398، 435، 436، 455، 460، 466، 467، 468، 477، 478، 479، 481
بكر بن وائل 81، 102، 124، 170، 314، 315، 319، 374، 433
البكري 27، 47، 54، 64، 84، 180، 319، 321، 392، 393، 474
بلاد الشّاش 199
بلاد الصّغد 198
بلاد النهرين 45، 48
البلاذري 25، 27، 85، 103، 106، 110، 112، 113، 147، 150، 162، 171، 212، 314، 334، 410، 435
بلْبِيس 138
بلخ 199
بنزرت 193
بنو تَغْلِب 40، 69
بنو نصر 216
بنو وليعة 123
بني إِسْرَائِيلَ 36، 74، 79، 247، 251، 255، 261، 272، 274، 285، 354، 370، 416
بني إسماعيل 74، 159
بني الضَّبَيْب 124
بَني النَّبِيت 100
بَني النّجار 100
بني النّمرِ 162
بَني أُمَيَّة 130، 214
بني تَغْلِب 162، 163، 166، 171، 173، 212، 318
بَني جُشَم 100
بني حذافة 216
بني حَلِيل 124

بَني سَاعِدَة 100
بني سُلَيْح 202
بني شيبان 225
بَنِي عَمْرُو بنِ عَوْفٍ 100
بني عوف 100
بَني كَلْب 202
بني معد 54
بني ناجيةَ 114، 133
بنيامين 180، 181، 431
بهراء 69، 146
بهرام 54
بهرام الخامس 51
البوذيِة 177
البوذيَّة 88
بوران ابنة كُسْرَى 117
بوسيه \ 429
بولص الانطاكي 223
البيانية 358
بيت المقدس 96، 126، 137، 145، 182، 362، 375
بيت جبرين 137
بيت قطرايا 49، 169، 178، 179، 180، 227، 228، 482
بيت لاباث 47
بيث تركايي 177
بيث راماն 183
بيث قطرايي 179، 180
بيث ماداي 177
بيث مازونايي 179
بيث نوهدرا 183
بُيد الله بن جَحَش 72
بيروت 29، 211
بيروز شابور 161
بيزنطا 59، 63، 71، 113، 158، 279، 296، 304
بيزنطة 27، 33، 34، 35، 42، 46، 64، 84، 87، 148، 153، 158، 159، 161، 220، 235، 296، 299، 300، 301، 302، 304، 323، 409، 444
بيكند 198

ت

تاي تسونغ 177
تبوك 105، 111، 112، 115، 300، 302، 307
تركيا 66
تريتون 322
تَغْلِب 148
تَغْلِبَ 162
تكريت 24، 45، 126، 139، 162، 163،

171، 182، 183، 230، 231،
413
التلمحري 214
تميمُ الدّاريُّ 352
تنوخ 146، 163، 164، 169، 170، 318
تَنُوخ 69
تُهَامَة 69، 300، 302، 321، 364
تهامة 76
توما الرسول 50
تياذوق 408
تيتوس 63
تَيْمَاء 106، 146
تيموثاوس الورروس 59
تيمورلنك 237

ث

ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ 314
ثَرِبَ 38
الثعالبي 246، 298، 477
ثَقِيف 78، 300، 316
ثيودور 154، 231، 310، 391
ثيودور أَبُو قرة 223، 310
ثيودورس 44
ثيودوسيوس 232

ج

جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ 313
جابر بن عبد الله 94
الجابية 137، 140، 195
الجاحظ 39، 40، 69، 81، 82، 96، 189،
364، 368، 432، 435، 452
الجاحظُ 40
جاسيوس 390
جاك ريسلر 244، 282
جالينوس 390
جامع دِمَشْق 429
جان موريس فييه 309
جاورجيوس 182، 221، 226
جبال البرانس 198، 200
جَبْرٌ (ابن قِمْطَة 80
جَبْرُ النَصْرَانِيّ 366
جبل الْعَرَب 221
جبل اللكام 70، 212
جبلة بن الأيهم 146، 164
جبلة ملك غسَّان 149
جبيل 211
جحظة البرمكي 440
جذام 146، 164
جُذام 158
الجراجمة 70، 149، 212
الجرامقة 70
جَرْبَاءَ 104

جرجان 127، 200

جرجس 413

جرجس أُسْقُف الْعَرَب 45

جرجس جاثليق النَّسَاطِرَة 185

الجُرجومة 212

جرجيس الأول 168، 227

جرجيسُ بن بختيشوع 394

جرونباوم 147

جرونيباوم 142

جريـر 95، 225، 318، 321، 373، 377، 433، 458

جزر بحر إيجه 193

جَزِيْرَة ابن عمر 45، 183

جَزِيْرَة أرواد 193

جَزِيْرَة الْعَرَب 18، 34، 38، 41، 55، 61، 64، 67، 68، 71، 83، 90، 93، 109، 110، 148، 165، 166، 186، 336، 337، 338، 366، 379، 410

جزيرة العرب 55، 63، 108، 114، 122، 148، 149، 168، 244، 265، 299، 300، 302، 337

الجَزِيْرَةِ الْعَرَبِيّة 59

جَزِيْرَة دارين 168، 180، 227، 376

جَزِيْرَة كريت 193

جستنيان 59

جعفر بن ابي طالب 85، 93

جِلِّيقِيَّةَ 198

جمال الدّين القفطي 399

الجملَ 133

جنديسابور 178، 228، 393، 398، 401

الجَهَمِيَّةِ 357

جورج الأُسْقُف 414

جورجيس 228، 412

جوفروا 277، 281، 487

جولدتسيهر 291، 357، 477

جون كاثوليكوس 154

جون هيك 286

الجوهري 118، 310

جيبون 146

ح

الحارث بن جبلة 43، 44

الحارث بن حلّزة 422

الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة 315

الحارث بنِ عبدِ الله بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ 364

الحارث بن عمير الأزدىّ 302

الحارث بن كعب 64، 102، 319

الْحَارث بْن هِشَام بن الْمُغيرَة 127

الحَبَشَـة 16، 37، 63، 64، 65، 66، 76، 85

حبيب بْن مسلمة الفهري 212
الحجاج 197، 199، 200، 212، 214، 217، 218، 219، 229، 408، 433، 462
حجار بن ابجر 314
الحجاز 41، 60، 63، 66، 104، 105، 108، 114، 219، 300، 337، 379، 404
الحديبيَّة 77، 299
الحديبية 87، 97، 108، 316
حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ 128
حَرَّان 127، 388، 389
حرملة بن المنذر 423
حُرَيث بن جابر 315
حسَّان بن ثابت 53
حسان بن ثابت 83
حسان بن سنان 425
الحسن بن عَلِيّ 134، 193
حسين العودات 38
الحسين بن عَلِيّ 194
الحكم بن أبي الحكم الدّمشقي 408
الْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ الثَّقَفِيِّ 218
حلبُ 126
حلف الفضول 97
حلوان 177
الحليس بن يزيد 77
حليمة السّعدية 79
حَمَّادٌ عَجْرَدٍ 359
حِمْصُ 125
حمص 147، 151، 203، 212، 410
حِمْيَر 63، 77، 115، 163
الحميريّة 33
حنانيشوع 53، 218، 395
حنانيوشع 228، 229
حنظلة بن صفوان 234
الحنيفيَّة 73، 88، 318
الحِيرَةِ 38، 436
الحِيـرَة 40، 45، 49، 51، 52، 53، 54، 55، 56، 109، 151، 152، 161، 170، 188، 190، 222، 225، 314، 319، 334، 344، 355، 358، 365، 366، 369، 384، 395، 413، 416، 422
الحيـرة 62، 67، 114، 124، 170، 320، 341، 371، 394
حيري بن أكال 152

خ

خالدّ بن المعمر 315
خَالِـد بن الوليـد 113، 123، 124، 125، 146، 152، 163، 164، 169،

170، 319، 344، 384
خالد بن الوليد 164، 238، 320
خَالِد بْنِ عَبْد اللَّهِ بْن أَسَدِ القسريّ 364
خَالِـد بـن يزيـد 203، 223، 382، 388، 390، 391، 402، 406، 466
خان النّيلة 42
خراسان 184، 197، 237
الخريت بن راشد 133
خريسوستموس 182، 427، 476
خرِيسُوسْتُوموس 77
الخزرج 96، 314
خسرو ابرويز 54
خسرو الأول 51
خسرو انشروان 52
الخطابيّة 358
خلقدونية 57، 118
خلقيدونيّة 42
خلقيدونيـة 46، 47، 57، 58، 59، 140، 376
الخلقيدونيين 232
خليفة بن خياط 25، 170، 171، 202
الخليفـة عثمـان 131، 169، 181، 191، 327، 364، 423
الخليفـة عمـر 128، 129، 141، 143، 148، 152، 153، 155، 158، 167، 168، 182، 190، 213، 238، 330، 340، 363، 399، 402، 423
الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ 359
الخـوارج 132، 133، 191، 196، 197، 297
خوداهوى 222
خوقند 199
خيبر 85، 127، 329، 335، 336، 338
د
داديشوع 48، 179
دار النّدوة 76، 77
داود الأول 230
دَرْعَة 42
دلا فيدا 204
دمشـق 118، 125، 131، 137، 140، 163، 191، 204، 205، 206، 207، 208، 210، 216، 232، 238، 239، 322، 363، 378، 381، 383، 405، 407، 408، 423، 429، 433، 441
دنحا 185
دنحا الثّاني 230
دهوك 29، 465
الدواسر 62

دوسلييه 107، 139
الدولة البيزنطية 47، 57، 58، 145، 362، 377
الدّولة الفارسيَّة 47، 48، 117
دومـة الجنـدل 105، 113، 114، 115، 190
دَوْمَة الجَنْدَل 69
دي غويه 157
ديارات الأساقف 436
دير \ 54
دير الأبلق 438
دير البراغيث 208
دير العذارى 440
دير القديس سابا 407
دير القصير 439
دير القيارة 222
دير أيوب 221
دير بيث حالي 222
دير زُرَارة 436
دير سرجيس 436
دير قنسرين 392
دير مار إيليا 53
دير مار مارون 223
دير مار متى 183، 230
دير محراق 50
دير هند 52، 54
ديسقوروس 58
ديورانـت 35، 41، 42، 49، 60، 134، 145، 173، 264، 324، 349، 362، 363، 382، 389، 394، 478
ديوسقورس 59
ديونيسيوس ثراكـس 387، 420
ذ
ذو نواس 63، 249، 279
ر
رأس العين 176
الراوندية 358
الرّبَيْسُ 94
ربيعة 163
رفح 137
الرّهـا 23، 48، 127، 177، 183، 222، 322، 323، 386، 388، 401، 409، 411، 413
روزنثال 364، 478
روفائيل بابو إسحاق 162
الـروم 27، 34، 63، 108، 118، 141، 147، 149، 164، 212، 301، 302، 365، 371
الـرّوم 37، 43، 53، 54، 59، 71، 78،

87، 105، 110، 112، 115، 117، 125، 127، 137، 138، 142، 143، 144، 145، 146، 149، 150، 159، 162، 163، 165، 171، 172، 190، 192، 193، 196، 197، 200، 206، 207، 216، 222، 231، 251، 301، 323، 351، 377، 394، 396، 409، 410، 411
روم لاندو 312
الرومـان 22، 42، 63، 138، 160، 180، 313، 376، 387، 390، 470
الرّومانيـة 15، 34، 39، 42، 56، 66، 216، 220، 248، 279، 373، 376، 385، 394، 477
الرّيّ 126
الرّي 127، 130
رينان 309
رينيه جورسيه 154
ريو أردشير 178، 227

ز

الزُّبَيْر 129
الزّبير 131
الزبير بن العوام 122
الزركشي 316
الزط 212
زط السند 212
زَكَرِيًا 182
زنجان 127
زيد بن عَمْرو بن نُفَيل 72
زيق بن بسطام 225، 433
زينون 48

س

الساسانيّين 48، 159
سالم بن عوف 95، 318
ساليق 48
السّامريين 70
ساهروي 395
ساويرا سابوخت 392
ساويـرس ابن المقفـع 221، 232، 233، 234، 235، 455
سايروس ابن المقفع 117، 431
سبأ 62
السبأيّة 33
سبتة 196
سبريشوع 48، 49، 395
سبسطية 137
سبيوس 23، 46، 153، 154، 160، 164، 208، 414، 415، 466
سَجَاحُ 123، 166

سجستان 127، 184، 194، 199
سد شابور 50
سرجون بن مَنْصُور 203
سرجون بن منصور 203، 221
سرجيوس 216، 363
السرخسيُّ 112
السَرَخْسِيُّ 310
السري الرّفاء 435
السّريان 24، 59، 117، 135، 138، 140، 141، 142، 159، 163، 174، 175، 176، 177، 181، 183، 184، 185، 187، 205، 230، 231، 358، 381، 382، 383، 385، 392، 398، 400، 401، 403، 404، 405، 406، 412، 418، 419، 420، 421، 466، 467، 470، 475، 481، 482، 484، 485، 487
سعْدُ بن أبي وقّاص 125
سعدَ بنِ أبي وقاص 130
سعد بن أبي وقاص 334، 384، 400
سعد بن عبادة 122
السّعردي 139، 176
سعيد بن العاص 203
سعيد بن جبير 197، 417
سعيد بن يزيد 220، 232
سفيان الثوري 291
سُفْيَانُ بْنُ مُجَاشِعٍ 359
سلمان الفارسي 82
سلوى بالحاج صالح 20
سُلَيْح 69
سليطَ بن عمرو 109
سليط بن قيس 109
سُلَيم 146
سليمان 56، 62، 343، 418، 473
سليمان بن حبيب المحاربي 206
سليمان بن صرد 196
سليمان بن عبد الملك 199، 234، 343
سماك بن هانيء 353
سمرقند 177، 199
سميساط 127
سنحاريب 62
السّند 25، 188، 192، 194، 196، 199
سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ 133
سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ 313
سهيل قاشا 19، 38
سودة بنت زهرة 41، 79
سوريا 38، 40، 57، 150، 159، 181، 222، 323، 396، 401، 404، 416، 424، 468، 483

سُورِيَـةَ 45، 59، 135، 140، 155، 174، 182، 210، 221، 355، 381، 427، 466، 477
سوزومنوس 37
سوسة 193
سُوقِ بَغْدَادَ 124
سُوقِ عُكَاظِ 82
السّويدا 42
سويرا الثّاني 230
سويرس سيبوخت 395
سويريوس 24
سيار الجميل 19، 172، 178، 185
سيزاريا 151
سيلاس 62
سيمون الأول 233
سيوريوس الثّاني 231
ش
الشابشتـي 26، 222، 429، 436، 437، 438، 439، 456
شابور الأول 39، 50
شابور الثاني 51
الشّافعي 105، 316، 408، 457
الشّـام 16، 20، 25، 39، 42، 43، 44، 45، 46، 56، 60، 68، 70، 78، 80، 82، 87، 104، 105، 106، 109، 112، 114، 115، 125، 127، 128، 135، 136، 137، 140، 144، 145، 146، 147، 150، 155، 158، 166، 167، 168، 169، 172، 190، 195، 196، 201، 202، 203، 204، 222، 223، 318، 323، 325، 336، 359، 362، 373، 377، 379، 380، 387، 398، 403، 408، 409، 410، 415، 422، 457، 464، 482، 483
الشام 69
شبيب الشّيباني 197
شرحبيل بْن حَسَنَة 127
شرحبيل بن حسنة 165
شُرحبيل بن سعد 28
شُرَحْبِيلُ بْنُ عَمْرِو الْغَسَّانِيّ 302
شَقِيقُ بنُ ثَوْرِ 315
شَمْعَلَةُ بن عامر 212
شمعون 49، 54، 141، 163، 465، 466، 484
شمعون بن جابر 49، 54
الشّهَارِجَة 162
شهرزور 184
الشّهرستاني 74، 359، 457

شيخ مسكين 42
شيخو 89
شيرويه بن كُسْرَى 117

ص

الصابئيّة 88
صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ 359
صحراءِ النّفوذِ 110
صقلية 198
صليب زخا 413
صليبا شمعون 141
صنعاء 23، 55، 62، 63، 67، 219، 378، 464، 466
صُهَيْبِ 129
صهيب الرّومي 80
الصّين 47، 177، 199
الصين 49

ط

طارق بن زياد 198
الطّالقان 199
الطّائف 38، 82
الطائف 67
طبرستان 127
الطّبري 25، 52، 152، 458
الطبـري 28، 64، 81، 85، 95، 109، 122، 141، 162، 166، 170، 171، 172، 178، 199، 202، 246، 418
الطّبريّ الشّيعيّ 338
طَبَرِيَّةُ 126
طخارستان 194
طرابلس 127، 212
طَرَابُلُسُ الْغَرْبِ 127
الطّرشوشي 155
طرفة بن العبد 422
طَرْفَةَ بن العبد 53
طَلْحَةَ 129
طلحة 131
طلحة بن عبيد الله 122
طُلَيْحَةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ 123
طنجة 196
الطّوباني أنبا يوحنا 235
طور عبدين 176
طيء 40، 69، 172، 415
طيزَنَاباذَ 436
طيسفون (المدائن) 50

ظ

ظِفَار 61
ظفار 67

ع

عاقولا 225، 316

العاقولا 225، 393
العاقولاء 139، 176
عاقولاء 45، 413
عامِلة 158
عائشة 132
عبادة بْن الصامت 149
العبَّاديّين 355
عبد الرّحمن بن الأشعث 197
عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ 129
عبد الرّحمن بن غنم 155، 157
عبد العزيز الثعالبي 246، 298
عبد العزيز بن مروان 200، 232، 233، 235
عبدُ اللطيف البَغْدادي 398
عبدُ اللهِ بن الزبير 195
عبد الله بن الزبير 201، 219، 352
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَمِّ 162، 171
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَمِّ 163، 178
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدٍ 130
عبدَ اللهِ بنِ سعد بن أبي سرح 130
عبدَ الله بن سعد بن أبي سرح 140
عبد الله بن شبرمة 291، 331
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صُورِيَا 353
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرٍ 130
عبد الله بن عباس 352، 358
عبد الله بن عبد المطلب 41، 79
عبد الله بن عبد الملك 234
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ 129
عبد الله بن عمر 129، 352، 451
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو 317
عبد الله بن عَمْرو بن حَرْب 358
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ 128
عبد الله بن مطيع 228
عبد المدان بن الدّيان 64
عبد الْمَسِيح 102، 124، 170، 216، 319، 375، 470
عبدَ الْمَسِيح 64
عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنُ عَمْرِو بْنِ بُقَيْلَةَ 124، 170
عَبْدَ الْمُطَّلِبِ 79
عبد المطلب بن هاشم 83
عبد الملك بن أبجر 390، 409
عبد الملك بن مروان 195، 206، 212، 218، 219، 363، 389، 405، 424، 481
عبرِيِّين 202
عبيدُ الله بن جَحْش 93
عبيد الله بن زياد 194، 201
عبيد الله بن موسى بن جار بن الهذيل 316، 430
عبيد بن الأبرص 422

عبيدَ بْن أَوْس الغَسَّاني 203
عثمان بن الحويرث 40، 69، 78
عُثْمَانَ بْنَ حَنِيفٍ 128
عثمـان بن عفـان 129، 140، 203، 217، 423
عدّاس 82، 83، 370
عدن 61، 410
عدي بْن حَاتِم 326
العِـرَاق 19، 22، 25، 38، 39، 42، 49، 50، 53، 60، 62، 68، 69، 80، 103، 114، 117، 124، 125، 128، 147، 149، 150، 151، 152، 158، 159، 164، 167، 170، 172، 192، 194، 196، 197، 203، 216، 217، 218، 222، 225، 229، 237، 238، 239، 243، 301، 321، 325، 358، 364، 365، 377، 381، 401، 410، 413، 415، 416، 424، 444، 465، 466، 467، 478، 486، 487
عروة بن الزبير 28
عُرْوَة بن مُحَمَّد 213
عزانا 65
عزير 265
عزيز حلاق 30
عزيز سوريال 19، 43، 47، 478
عطاء بن أبي رباح 291
عقبة بن نافع 193، 194، 196
عكبرا 50
علا عاميدة 65
عَلْبَك 144
علـي بـن أبـي طالـب 122، 131، 150، 168، 178، 181، 190، 249، 314، 315، 329، 334، 353، 357، 430
عليُّ بن مُحَمَّد بن جعفر العلويّ 436
عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ 128
عُمَان 47، 168
عُمْر إتراعيل 438
عمر بن الخطاب 125، 129، 137، 140، 141، 148، 149، 152، 168، 175، 176، 182، 186، 188، 191، 207، 213، 327، 330، 334، 343، 351، 399، 400، 423
عمـر بـن عبـد العزيـز 186، 213، 214، 215، 216، 235، 322، 383، 402، 407، 409، 459
عُمَـر بـن عبـد العزيـز 200، 206، 213،

217، 333، 345، 347
عمرِ بن هند 54
عُمْر مريونان 438
عَمْرًا ابني عَدِي 152
عمرو ابن أُخْتِ الْمُؤَيِّدِ 359
عمرو بن الأيهم التغلبي 148
عمرو بن الحمق الخزاعي 429
عمرو بن العاص 21، 60، 130، 137، 138، 140، 160، 180، 213، 220، 238، 399، 417، 431
عَمْرَو بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ 94
عمرو بن سعد 370
عمرو بن عبد الْمَسِيح 151، 152
عمرو بن عبد الْمَسِيح بن بقيلة 151
عمرو بن كلثوم 422
عمرو بن كُلْثُوم 53
عمواس 137
عمورية 82، 197
عياض بن غنم 177، 411
عيسى بن مَرْيَم 74، 88، 351
عيسى بن مريم 89، 356، 416، 417
عين التمر 238
عين التّمر 80، 170، 384
عين جاج 185

غ

غريغور 48
غريغوريوس 44، 48، 117، 141، 163، 264، 392، 459، 466، 484
غريغوريوس الأول 44
غزالة 197
الغزالي 168، 351، 353، 459، 473
غزة 137، 150
الغساسنة 33، 40، 43، 44، 59، 70، 146، 158، 372
غَسَّان 41، 44، 45، 69، 109، 114، 146، 202، 300، 369، 488
غسّان 88، 164
غوستاف لوبون 185، 360، 427

ف

فارس 14، 16، 33، 47، 50، 52، 60، 108، 110، 117، 124، 130، 132، 133، 135، 140، 158، 164، 165، 169، 170، 173، 177، 182، 190، 237، 288، 300، 398، 399، 400، 401
الفارياب 199
فرات بن شحناتا 408
فراعنةُ مصر 42
فرتيا 39

الفرثيين 50
الفرزدق 22، 225، 424، 433
الفـرس 36، 37، 53، 56، 63، 65، 70،
71، 80، 86، 87، 107، 108،
117، 127، 136، 139، 140،
147، 150، 159، 160، 161،
164، 208، 210، 237، 238،
252، 323، 351، 353، 391،
399، 400، 418، 465
فرغانه 199
الفسطاط 138، 238
فكتور الكك 30
فلسطيـن 52، 125، 137، 145، 150،
324، 362، 416، 480
فلهاوزن 89
فيرستون 90، 135
فيروز شابور 184
فيلوستورجيوس 61
فينيقيِّين 42

ق

القاسم بن سلام 418
قاشان 127
قبدوقيا 39
قبرص 130، 435
القِبْطِ 92
القتبانية 33
قتيبة بن مُسْلِم الباهلي 198
القـدس 35، 63، 231، 252، 253، 264،
275، 285، 297، 469، 475،
488
القديس مارون 182
قرّة بن شريك 235
قرطبة 207، 239
قريـش 40، 68، 69، 72، 76، 77، 78،
80، 83، 84، 85، 86، 87، 93،
99، 100، 108، 114، 115،
116، 129، 189، 191، 195،
219، 262، 310، 336، 343،
453
قزوين 46، 127
قُسّ بن ساعدة 81
قسطنطيـن 35، 57، 61، 65، 138، 279،
376، 488
قسطنطينة 132، 165
قسطنطينوس 35
القُسْطَنْطِينِيَّـة 16، 42، 46، 48، 57، 59،
145، 181، 182، 192، 193،
198، 200، 215، 216، 223،
226، 231، 362، 376
قُسْطَنْطِينِيَّة 181

قصي 83، 191
قصي بن كلاب 83
قضاعة 123، 147، 166، 169، 202
قُضاعَة 158
قطر 49، 178، 180
قطري بن الفجاءة 197
القلقشندي 26، 64، 170، 186، 374، 415، 461
القُلَيس 219، 410
القُلَّيْس 71
قُم 127
قمونية (قرب القيروان) 193
قنسرينُ 126
قنسرين 137، 169، 225، 391، 392، 393، 397، 407
القوادس 151
قوهستان 194
قيس بن سعد 138
قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ 314
قَيْسُ بْنُ شَمَّاسٍ 363
قيسارية 127، 343
قيصر 78، 127، 180، 301، 377
قيليقيا 38، 39
القيّن 158

ك

كابل 199
كابيتولياس 216
كاشْغَر 199
كايتاني 172، 303، 426
كبريلي 69، 73، 340، 479
كثير بن بلحارث بن كعب 69
كدالايا البِطْرِيق 412
كربلاء 194، 195، 201
كرخ سلوخ 51، 117، 139، 176
كركوك 29، 139، 176، 440
كرمان 127
الكسائيِّين 88
كُسْرَى 109، 132، 182، 301، 394
كُسْرَى إبرويز 109
كش 198
كُشاجِمُ 438
كعبِ الأَحْبَارِ 352
كعب الاحبار 417
كَعْبُ بن ماتع 352
كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ 314
الكعبة 34، 64، 73، 76، 88، 96، 97، 118، 197، 219، 356
الكلدانيّين 400
كنعانيِّين 42

الكَنِيسَة الكاثوليكيَّة 226
كَنِيسَـة المشـرق 174، 177، 183، 218، 227، 373، 483، 486
الكَنِيسَة الملكية 231
الكنيسة اليعقوبية 238
كنيسة دمشق 207، 239
كَنِيسَةِ دِمَشْقَ 409
كوسماس 407
الكوفـة 45، 52، 126، 127، 128، 130، 132، 133، 134، 139، 151، 167، 168، 176، 183، 185، 192، 197، 201، 203، 225، 228، 229، 314، 315، 316، 321، 327، 334، 338، 341، 358، 360، 393، 414، 423، 430، 433، 436، 486
كويدي 139
كويفة ابْن عمر 334
كيتاني 157
كيروس 180
الكيسانية 357
كيوركيس 395

ل

لَبيِد 81
اللحيانيين 33
لخْم 124، 158
لخم 146، 164
لَخْم 69
اللخميين 53، 55، 422
لِدّ 137
لذريق 198
لقيط الإياديّ 371
لوبون 185
لويس شيخو 414، 422
لويس ماسنيون 357

م

مَا بَيْنَ النّهريـن 36، 38، 59، 194، 225، 373، 393، 411
ماحوزي 139، 176
مار آبا الكبير 48
مار أبها الثّالثّ 407
مار اسحق 48، 179
مار أغناطيوس زكا عيواص 19
مار إيليا 53
مار بثيون 218
مار جرجس 225، 393
مار جيورجيس الأول 179، 376
مار خُريسطفورُس 182
مار خنانيشوع الاول 228
مار سرجيس 185

مار صليبا زخا 229
مار عبد الكبير 53
مار غريغوريوس يوحنا 117
مار يشوعياب الأرزوني 54
مار يوحنا 54، 228، 229، 429
ماراما 178
مارامة 150
مارامه 178
مارزينا 222
ماروثا 48، 139، 163، 183، 185، 413
ماروثا الميافرقيني 48
ماري بن سليمان 24، 107، 117، 150، 175، 178، 461
ماريَّة أم إبْرَاهِيم 109
مارينوس 390
ماسرْجوية 383، 407
ماكس فانتاجو 204، 205، 381، 405
مالك الأشتر 132
ماهان 165
الماورديّ 343
مايرهوف 396
المُتَلَمِّس 53
المتلمّس الضَّبعي 422
المتوكل العباسي 156
المثنى الشّيباني 125
الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ 124، 171
الْمُثَنَّى بن حارثة 161
مجمع القُسْطَنْطِينِيَّة 226
مجمع دارين 180، 226، 376
المجوس 87، 110، 143، 331
المَجُوسِيَّة 13، 87، 159، 177، 351
محمَّد [بن مروان] 209
مُحَمَّد بن الْقَاسِم 212
مُحَمَّد بن القاسم الثّقفي 196، 199، 200
مُحَمَّد بن حبيب 206
مُحَمَّد بن عبد الملك 22
محمد بن مسلم الزهري 28
المختار الثّقفي 228
المدائنُ 126
المدائن 47، 48، 117، 126، 139، 143، 152، 171، 176، 178، 218، 227، 228، 229
المدينـة 55، 56، 60، 67، 82، 85، 89، 90، 92، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 101، 102، 103، 106، 111، 113، 114، 116، 122، 123، 134، 139، 144، 150، 151، 182، 195، 196، 201، 204، 250، 274، 280، 285، 287، 306، 307، 317، 318،

319، 334، 366، 384، 405،
457، 472، 473
مذحج 69
مرج الصّفر 125
مرسيان 58
مرقس 34، 58، 73، 233، 254
المُرَقّش الأصْغَر 53
المرقش الأكبر 53، 416
مرقيان 58
مرو حابور 50
مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ 130
مروان بن الحكم 131، 195، 383، 402،
406، 407
مَرْيَـمَ 38، 41، 46، 74، 88، 92، 94،
221، 247، 248، 251، 252،
253، 256، 258، 259، 261،
262، 271، 274، 275، 360
مسجدِ الكوفةِ 351
مسروق 63
المسعودي 46، 202، 210، 462
مُسْلِمة بن عبد الملك 197، 200
مسلمة بْن عَبْد الملك 212
مَسْلمة بن مخلد 222
مِصْرَ 21، 56، 57، 59، 60، 65، 66، 80،
93، 109، 130، 138، 140،
180، 181، 186، 195، 220،
222، 232، 234، 235، 322،
323، 328، 329، 377، 378،
390، 399، 439، 458، 463،
475
المَضْريين 36، 367
مصعب بن الزبير 196، 201، 218، 228
مطيع بن إياس 437
معاذ بْن جبل 127
معاويـة 123، 132، 134، 154، 166،
191، 193، 201، 203، 204،
205، 208، 210، 217، 222،
232، 322، 333، 345، 383،
390، 405، 406، 407، 408،
410، 423، 435، 436، 471،
473
معاوية بن يزيد 195
المَعْدِيّين 54
معركة الجسر 125، 161
معقل بن قيس 133
معلثا (ملاصقة لزاخو) 183
المعمدانيِّين 88
المعينية 33
المغرب 127
المغيرة بن شعبة 128، 321

مفريانية تكريت 230
مقدونيوس 181، 182
مقنا 112
المُقَوْقَسُ 109، 140
المُقَوْقَس 138
مكّة 33، 40، 41، 64، 65، 67، 68، 71، 72، 73، 76، 77، 78، 79، 80، 81، 82، 83، 84، 86، 87، 88، 89، 96، 97، 108، 111، 114، 118، 182، 191، 195، 196، 197، 201، 250، 300، 301، 307، 316، 327، 336، 342، 346، 351، 365، 417، 424، 452، 467، 468، 488
المناذرة 53، 54، 161
مَنْبِجُ 126
مَنْبِجَ 45، 225، 410
المندائيِّين 88
المنذر بن امرئ القيس 52
مَنْف 138
منورقة 198
المهلب بن أبي صفرة 197
الموباذ 51
مُؤتَةَ 113، 300، 302، 307
مؤتة 164
موسى الكليم 41
موسى بن نصير 196، 198، 200
المَوْصِل 29
الموصِلِ 53
الموصل 70، 116، 150، 162، 163، 178، 185، 222، 229، 239، 386، 387، 408، 435، 440، 465، 475، 481، 484
موقعة القادسية 164
مِيخَائِيل السّاباتي 216
مِيخَائِيل السّرْيانِيّ 159، 210، 215
مِيخَائِيل الكبير 23، 44
ميسان 50
مَيْسَونَ الْكَلْبِيَّة 203
ميشان 107، 180
ميناس 80
ميورقة 198

ن

النّابغة الذّبياني 422
نابلس 137
ناي دزونج 49
نائِلَةَ بنت الفرافصة 131، 203
نبوخذ نصر 63
النّجاشي 85، 93، 94، 109، 252، 372، 410

النّجاشيُّ 85، 94، 372
نَجْـرَان 22، 45، 63، 64، 66، 68، 71، 76، 79، 81، 92، 94، 101، 102، 104، 115، 127، 167، 168، 190، 197، 218، 219، 249، 315، 318، 319، 329، 336، 337، 338، 339، 351، 374، 375، 377، 378، 380، 430
نَجْـرَانَ 34، 40، 77، 102، 103، 114، 167، 168، 176، 217، 319، 337، 338، 353
نجـران 62، 76، 102، 113، 114، 139، 149، 168، 239، 274، 300، 319
نَجْرَانيَّة الكوفة 22، 132، 190، 351
النَجَفِ 360
النّجفِ 436
النّجف 52، 124، 170، 463
نسطاس 80
النَّسْطُورِيّـةَ 22، 41، 45، 46، 47، 48، 49، 56، 60، 91، 135، 173، 174، 225، 237، 376، 395، 398
نسطوريوس 46، 47
نسف 198
النَّصْرَانِيَّة 26، 35، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 44، 55، 61، 62، 64، 69، 73، 78، 80، 81، 82، 85، 89، 93، 95، 109، 152، 169، 172، 179، 186، 251، 256، 318، 326، 334، 348، 355، 358، 360، 366، 369، 370، 371، 375، 377، 387، 410، 411، 422، 425، 469، 470، 471، 472
نصيبيـن 48، 54، 117، 127، 180، 218، 229، 387، 395
النّعمـان 49، 52، 53، 54، 319، 321، 462
النّعمان الرّابع 54
النّعمانُ بنِ المنذرِ 49
النّعمان بن المنذر 52، 54
النّمر بن تولب 284
نهاوند 127، 144
نهر الدم 164
النويري 26، 71، 110، 375، 463
نيقيا 58
نيقية 61
نينوى 80، 82، 117، 178، 184

هـ

هادريان 63

هارون 24، 450، 452، 459

هاشم 83

هاشم بن عبد مناف 83

هانس كونج 74، 75، 470

هراة 177

هرقل 23، 109، 110، 117، 138، 147، 160، 164، 165، 180، 182، 318، 376، 390، 414، 431

هرقلة 198

هشام بن عبد الملك 216، 407

همذان 127

هند ابنة النّعمان 54

هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي 52

هند بنت النّعمان 321

الهندوسيَّة 88

الهنود 36

هوازن 78، 300

هوذة الحنفي 109

هوشاع 54

هيرنش بكر 91، 403

و

وادِي الحَسَا 42

واصل بن عطاء 359

الواقدي 25، 26، 28، 80، 85، 93، 106، 123، 140، 163، 164، 302، 464

الوَثَنِيّة 17، 34، 42، 61، 66، 77، 87، 97، 166، 177، 243، 284، 386، 444

وثيقة المدينة 98، 101، 313، 327، 335

وَرَقَة بنِ نَوْفَل 40، 72، 78، 79، 86، 366، 370، 371، 373

وَرَقَة بنِ نَوْفَل ابن أسد 69

وَرَوْحُ بْنُ سِنَانٍ الْحَرَّانيُّ 359

وقعة الحَرَّة 195

وقعة القادسية 126

وقعة النّهروان 132

وقعة اليرموك 126، 147، 165

وقعة جلولاء 126

وقعةُ صفين 132

ولتر كيغي 146، 161

ولهوزن 73

الوليد بن عبد الملك 21، 194، 197، 206، 210، 212، 229، 239، 409، 429

الوليدَ بنِ عقبةَ 149

الوليد بن عقبة 163

الوليد بن عُقْبَة 327
الوليدَ بن عقبة بن أبي معيط 130
الوليد بن يزيد 216، 217
وهب بن عبد مناف 41

ي

يافا 137
ياقـوت 52، 64، 76، 104، 124، 170، 171، 184، 315، 378، 380، 387، 391، 423، 430، 435، 436، 465
يُبنى 137
يَثْـرِب 40، 41، 69، 71، 82، 83، 89، 99، 100، 284، 285، 365
يثرب 68
يحنان نحلايا 395
يُحَنَّة بن رؤبة 105
يحيى الدّمشقي 354
يحيـى النّحـوي المَصْـري الإسكندرانـي 399
يحيَى بن البِطْرِيق 394
يحيى بن زياد 437
اليرموك 164
يزدجرد 126، 130
يزدجرد الثاني 51
يزْدَجِرْدُ بنِ كُسْرَى 126
يزِيد بْن أَبِي سُفْيَان 127
يزيد بن أبي سفيان 191
يزيد بن المهلب 200
يزيد بن عبد الملك 209، 215، 229
يزيد بن عقيل 229
يزيد بن معاوية 194، 217
يسوع النّاصري 34، 260
لَعقوب البرادعي 43
يعقوب البرادعي 44، 174
يعقوب الرّهاوي 225، 385، 391، 392، 393، 397، 407، 413، 414، 421، 485
اليعقوبي 211
اليَعْقُوبِيَّةُ 109
اليمامة 109، 123
اليمـن 33، 40، 55، 60، 61، 62، 63، 64، 68، 69، 71، 76، 86، 102، 105، 106، 109، 123، 167، 168، 213، 279، 300، 319، 337، 365، 366، 372، 376، 378، 410
يهبالا 54
يهبالاها الأول 48
يهوذا 62، 257
يواكيم مبارك 266، 484

يوحنا 25، 34، 48، 61، 80، 92، 159، 160، 177، 206، 208، 209، 228، 231، 252، 322، 323، 370، 407، 466
يوحنًا الأبْرَص 218، 228، 229
يوحنا الأول 228، 230
يوحنا الثّالث 232
يوحنا الدّمشقي 221، 223، 355، 358، 360، 363، 407، 414
يوحنا النيقوسي 25، 159، 160، 208، 414، 466
يوحنان داذرمه 395
يوسف 28، 54، 63، 91، 93، 166، 167، 170، 181، 189، 454، 457، 458، 460، 461، 462، 463، 465، 468، 470، 471، 473، 477، 479، 480، 483، 486
يوسف الأهوازي 387، 420
يوسف بْن عُمَر 217
يوقنا صاحب حلب 165
يوليان الثّالث 230
يوليان الثّاني 231
يوم البُوَيْب 162
يوم الولجة 124
يوم ألَيس 124
يوم تكريت 162
اليونان 33، 53، 70، 148، 187، 205، 359، 381، 382، 386، 388، 389، 393، 394، 402، 405، 406، 407
يُونُس بْنُ مَتّى 82، 83
يونس بن مرقص 163